الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الرابع والأربعون

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

تصنيف

روجر أوف ويندوفر (ت ١٢٣٧)

(٤٤٧ــ١٢٣٥م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء التاسع والثلاثون

دمشق ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

وورود التاريخ

الجزء الأول

(١٠٩٩—١٢٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

كان على رأس المصاعب التي واجهتها أثناء عملي في هذه الموسوعة مسألة استيفاء المصادر والانفاق عليها، وأعترف هنا أنني لدى شروعي بالعمل في هذه الموسوعة لم أكن مقدراً تماماً مقدار النفقات التي سوف أحتاجها لاستيفاء المصادر والحصول عليها، مع تقديري الكامل لحجم العمل ومتاعبه، مع الاستمرار بالعمل الجامعي وبنشاطات ثقافية أخرى متعددة، وليس من الغلو القول بأن ماأنفقته خلال السنوات الخمس الماضية تجاوز مايعادل مائة ألف دولار أمريكي، مع مواجهة لمردود ضعيف نظراً لمايعانيه الكتاب الآن في الوطن العربي، وللأوضاع الاقتصادية المتردية لجمهور القراء العرب، ولأن الناس لايثقون كثيراً بالكتاب الموسوعي قبل أن يكتمل.

وأثناء العمل لاقيت التشجيع من قليل من الناس في موقع المسؤولية السلطوية وفوجئت بموقف بعض الوزراء الأكاديميين في دمشق، لكن لم أعبأ بذلك، فأنا حين شرعت بعملي هذا كان اتكالي على الله واعتمادي المطلق عليه جلت قدرته، وذلك من مصدر ايماني ثابت، ومعرفة مؤكدة بما ذكره محمد بن الحسن الشيباني في كتابه الكسب بأن« هذا العلم دين»، فما من دين شجع على العلم مثلما فعل الاسلام الحنيف، الذي ترافقت بدايته بالقراءة والكتاب والقلم، ولم يعرف التاريخ الانساني أمة اعتنت بالكتاب والعلم مثل أمة الاسلام.

ومادام هذا العلم دين، فقد تكفل الله بحفظه، وعلى هذا الأساس كنت كلما واجهت صعوبة في الحصول على مصدر من المصادر، كانت تنفرج بعد وقت، لكن مع زيادات كبيرة وفوائد جديدة، فلقد سعيت

للحصـول على نسخـة من تاريخ متى باريس، الذي أرخ فيـه من سنة ١٢٣٥ حتى ١٢٧٣، وكان هذا الكتاب قد طبع منذ مائة وخمسين سنة، فلم أجد في لندن مبتغاي، كما لم أقف على نسخة منه في واشنطن، حيث كنت قد بعثت بابنتي إلى الولايات المتحـدة، وقد فتشت هناك فلم تقف على ذكر لهذا الكتـاب، وفي الوقت نفسه كنت كلما زارني أحـد الباحثين من العـالم الغربي أعطيه اسـم الكتاب وأتمنى عليـه مساعـدتي للحصول على نسخة مصورة منه.

وأثناء مؤتمر أكاديمي انعقد منذ عـام في مدينة الرياض التقيت بمدير القسم الشرقي في مكتبـة جامعـة كمبردج، وطلبت مساعـدته، وبالفعل كتب لي عن وجود نسخة من الكتاب في جامعة كمبردج، وأن تصويرها ســوف يكون باهظ النفقــات، وقــال بأن هناك كتــاباً اسمــه« ورود التـاريخ»، يعدّ هو الأصل لتـاريخ متى باريس، وهنا انفتح أمـامي باب معـرفـة جـديدة مع أمل بالحصـول على نسخـة من تـاريخ متى باريس، وبالفعل زارني صــديق قـديم مقيـم في لندن، فأعطيتـه اسـم الكتـاب، وبينت له أن معلوماتي بأنه طبع بالتصوير حديثاً وأنه متوفر في المكتبات، وناولته مايغطي ثمن نسخة مع أجور البريد وزيادة.

وســافــر الرجل إلى لندن، ومع أنـه قـدم إلى دمشق بعــد ذلك أربع مـرات، لكنه لم يجلب شيئاً معـه، وكــان في كل مـرة يعتـذر بشكل من الأشكال، وحــدث في تلك الآونـة أن تلقيت من ألمانيــا طرداً بـريدياً، عندما فتحته فوجئت بوجـود نسخة مصورة من تاريخ متى باريس فيه، فسررت كثيراً، وقد أرسله صديق حلبي متـزوج من ألمانية، زارني معها، ذلك أنها كانت تعد رسـالة دكتوراه في التاريخ، وبعد مـرور عدة أشهر تسلمت صورة نسخة أخرى من تاريخ متى نفسه من مونتريال في كندا، أرسلتها سيـدة سورية من درعا تعيش هناك، وتحضر رسـالة دكتوراه في التاريخ العبـاسي، ولما يئست من وصول نسخـة من« ورود التاريخ» من

لندن، قـام ابني مصطفى الذي يختـص بالطب هناك بتأمين نسخـة لي، وهكذا بات لدي نسخـة من ورود التـاريخ مع نسختين من تاريخ متى باريس، ولدى دراستي للكتـابين تبين لي أن« ورود التـاريخ» مصنف في التاريخ بدأ أخباره بالخليقـة، وهكذا حتى سنة ١٢٣٥م، وقد جرى سنة ١٨٤٨ نشر جزء منه تضمن أخباره من سنة ٤٤٧م، حتى نهاية الكتاب، وجـاء ذلك في أربعـة مجلدات، وطبعت هذه المجلـدات في لندن سنة ١٨٤٩، ونسب هذا الكتـاب إلى روجـر أوف ويندوفـر Wendover، الذي لانعـرف شيئاً مؤكـداً عنه غير اسمـه، ونستخلص من هذا الاسم أنه كـان من أهالي بلـدة ويندوفـر في بكنهـام شير، لكـن لاندري سنة ولادته ولادرجة تعليمه ولاتاريخ أخذه بالرهبانية في دير القديس ألبان، ولقد تدرج في المناصب حتى صار قائد جـوقة المرتلين في ديره، وترقى بعد ذلك إلى مـرتبة رئيس الرهبـان في بلفوير Belvoir ، وهو مـــركز رهبـاني ملحق بدير القـديس ألبـان، ولعلـه وصل إلى هذا المنصب أيام الملك جـون— أخو رتشارد قلـب الأسد— وقـد عزل منه بعـد ارتقاء هنري الثالـث للعرش، وذلك بحجة تبـديده لأموال بيتـه الديري، لأنه كان مبذراً.

وقد استقينـا هذه المعلومات من متى باريس، الذي ستكون لنا وقفـة معه في المستقبل، حيث يبـدو أن متى أخذ كتاب« ورود التـاريخ» وأعاد نسخـه مع تعـديلات طفيفـة وذيل عليـه، وأوصل أخبـاره حتى سنة ١٢٧٣، هذا وجـرى فيها بعـد استـدعـاء روجـر أوف ويندوفـر إلى دير القديس ألبان حيث توفي في يوم السادس من أيار سنة ١٢٣٧.

وكتـاب« ورود التاريخ» كتـاب بالغ الأهميـة، فيه مـادة مفيدة جـداً، استقـاها مصنفه من مـؤرخين أوربيين غربيين وشرقيين بيـزنطيين، ومع ذلك وقع اختيـاري على ماتعلق ببدايـة الحروب الصليبية منذ ١٠٩٥م، لدى انعقاد مـؤتمر كليرمونت برئـاسة البابا أوربـان الثاني، وجعلت هذا

الاختيار في مجلدين، ينتهي أولهما مع أخبار سنة ١٢٠٠م، وينتهي ثانيهما مع نهاية الكتاب، ذلك أنه على أهمية مواد الكتاب كلها، إن الأخبار التي عاصرها المؤلف وتشمل خمس عشرة سنة هي الأعظم أهمية وتفصيلاً.

ولم ألجأ في تعاملي مع مواد هذا الكتاب إلى أعمال الإنتقاء، لأن كل مافيه هام بشكل مباشر أو غير مباشر بالنسبة لأحداث الحروب الصليبية، لأن العرب آنذاك، وبشكل محدد منذ أن وحد نور الدين بلاد الشام مع مصر، وقفوا في وجه أوربا كلها، وشكلوا مكافئا لها حتى معركة مرج دابق واحتلال العثمانيين لأرض الشام ثم مصر.

أرجو أن تحصل الفائدة من هذا الكتاب، وأن يمنحني الله القدرة والعون على اكمال مشروع هذه الموسوعة، ولله الحمد دوماً وأبداً، فأفضاله لاتعدّ ولاتحصى، وصلى الله على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق:٢٣ رجب ١٤٢١هـ.

٢١ تشرين الأول٢٠٠٠م.

سهيل زكار

المجمع الذي عقده البابا أوربان بخصوص الحملة إلى أنطاكية

في السنة نفسهـا، أي في سنة ١٠٩٥م عقـد مـولانا أوربان مجمعـاً في كليرمونت وهي مدينة في أوفرين Auvergne، وأصدر الأوامر التـالية المتوجب مراعاتها من قبل الكنيسة كلها:

لايجوز لأي سقف، أو راعي دير، أو أي واحــد من رجــال الدين، تسلم أية مرتبة دينية من أيدي أمير أو أي واحد من العلمانيين.

لايجوز لأي رجل دين شغل عملين في كنيستين أو في مدينتين.

لايجوز لأي واحد أن يكون أسقفاً وراعي دير في الوقت نفسه.

لايجوز شراء أو بيع أي مرتبة لاهوتية.

لايجوز لأي واحد، مهما كـانت مرتبته في الطوائف المقدسـة استخدام التجارة الجسدية.

إن الذين حصلـوا على منافع بسبب جهلهم للقــانون ســوف يعفى عنهم.

إن الذين يحتفظون عن معـرفـة بأوقـاف كنسيـة شروها هم أنفسهم، أوشريت من قبل آبائهم سوف تنتزع منهم.

لايجوز لأي رجل علماني أكل لحم من أربعــاء الرمــاد(أول الصـوم الكبير)، كمالايجوز لأي رجل ديـن أكل لحم من أحـــد الخمسين حتى الفصح.

إنه في جميع الأوقات سوف يكون الصـوم الأول للفصول الأربعة في الأسبوع الأول من الصوم الكبير.

إن الطوائف المقدسة سوف تكون في جميع الأوقات في أوضاع مهيبة،

وإما في عشية يوم السبت أو يوم الأحد، إذا مااستمر الصوم.

إنه مـامن مكتب يكون في وضع مهيب في سبت الفصح، إلاّ بعـد الساعة التاسعة.

يحتفل بالصوم الثاني في اسبوع أحد العنصرة.

إن جميع الأوقات من الأحد الرابع قبل الميلاد حتى اليوم الثامن من عيد الغطاس، وكـذلك من أحد الخمسين إلى اليوم الثامن من الفصح، ومن اليوم الأول من أيام الإبتهال إلى اليوم الثامن بعد أحد العنصرة، ومن اليوم الرابع من الاسبوع، عند غياب الشمس، حتى اليوم الثاني من الاسبـوع، عند اشراق الشمس، سـوف تكون أيام هـدنة(للرب)، ينبغي مراعاتها.

إن كل من يعتقل أسقفا، يعدّ من جميع الجوانب، خارج القانون.

إن كل من يعتقل أي رجل دين، أو أيا من خدمهم، سـوف يكون ملعونا.

إن كل من يسلب سلع الأساقفة أو رجال الدين، سوف يكون ملعوناً.

إن كل من يتزوج في إطار القرابة الوثيقة حتى الجيل السابع سوف يكون ملعوناً.

لايجوز انتخاب أي انسان إلى الأسقفية، مالم يكن كاهنا، أو شماساً، أو معاون شماس، أو أن يكون من حيث الأصل محترماً بما فيه الكفاية، وذلك مـالم تكن هناك ضرورات ملحـة، ويكون ذلك بترخيص من البابا.

ولايجوز السماح لأبناء الأساقفة، أو لأبناء خليلاتهم بالدخول بسلك الكهنوت، مالم يكونوا قد تبنوا الحياة الرهبانية أولاً.

إن كل من فــر إلى الكنيســة أو إلى الصليب، ســوف يكون آمناً على أعضائه، وسوف يحول إلى العدالة، أو يطلق سراحه إذا كان بريئاً.

إن لكل كنيسة عشورها الخاصة، التي لايجوز تحويلها إلى أي آخر.

لايجوز لأي علماني شراء أو بيع العشور.

لايجوز استيفاء رسم من أجل دفن الموتى.

وجــدد البــابا أوربان في هذا المجمـع أوضـاع هيلــد براند Hilde-brand [بابا روما] والحرمــان الكنسي لفيليب ملك الفرنسيين، لأنه متزوج زوجـة رجل آخر، أعني زوجة فولك كـونت أوف آنجو، مع أن الكونت وزوجته السالفة كانا معا أحياء.

موعظة البابا في المجمع حول الحملة إلى الأرض المقدسة

عندمـا شارفت أعمال المجمع— الذي عقـد في تشرين الأول— على الانتهاء، وجه البابا موعظة إلى الناس حول حمل الصليب، وفق الطريقة التــاليـة، حيث قــال:« إخـواني، وأعــز أبنائي، ســواء من الملوك، أو الأمـراء،أو الدوقـات، أو المركيـزات، أو الكونتـات، أو البـارونات، أو الفرسان، وكذلك أنتم الذين في الطوائف، وباختصار أنتم جميعاً، الذين أنقذتم بالآلام الجسـدية، وبسفك دم مولانا يسـوع المسيح، استمعوا إلى شكاوى الرب نفســـه، التي وجهت بـالخطاب إليكم جميعـــاً، حـــول الأخطاء، والأذى الذي لايوصف، الذي أنزل به.

فبعد سقـوط الملائكة، خلق الله العالم، وقسمـه إلى ثلاثة أجزاء هي: أوروبا، وآسيا، وأفريقيـا، ووضع الناس بهم، ليزيلوا ردة سكان السماء، ولكي يتمكنوا مـن استحـواذ الأرض وعبــادته فيهــا مع المخلوقــات الأخرى، وليتمكنوا بعد الموت من الصعود والحكم معه في السماء، لكن بعـد وقت قصير ضل الجنس البشري، بعدم الطاعـة وبالعـدوانية ضـد

الرب، ووصل الأمر إلى حد أنه لم يعد هناك بين الجنس البشري، أحد عمل خيراً، ذلك أنه ممايرعب النفس أن العـالم كله بات مليئاً بغير المؤمنين، وبالكفار المجدفين، الذين عبدوا العصي والحجارة، وهكذا إنه لخزي المسيحيين القلائل الذين بقوا، استولى غير المسيحيين على سورية، وأرمينية، ومقاطعات آسيا الصغرى: بيثينيا، وفريجيا، وغلاطيا، وليديا، وكاريا Caria، وبامفيليا، وايرانيا Iraenia، وليشيا Lycia، وكليلية، واحتلوا أيضاً، وتملكوا بشكل أبدي آسيا، الجزء الثالث من العالم، والتي لاقت تقديراً عالياً من قبل أجدادنا مساوياً لامتدادها إلى الجزئين الآخرين، حيث فيها لاقى جميع الرسل— باستثناء اثنين— الشهادة من أجل الرب.

وفي هذه المناطق، يدفع المسيحيون— إذا كان قد بقي أحد منهم— الجزية إلى هؤلاء غير المسيحيين، ومع الشعور بالخزي، نقول إنهم استحوذوا الآن على أفريقيا، التي هي الشطر العظيم الثاني الآخر من أجزاء ذلك العالم وهم منذ ثلاثمائة سنة وأكثر، يتملكون ذلك العالم الذي كان من قبل الحاضن لقدرات رائعة، وموثوقة، وذلك بإعطاء بني البشر الكتابات المقدسة، وبقمع آثار الكفر، كما هو معلوم لجميع الذين يعرفون الأدب اللاتيني.

وفي الجزء الثالث من العالم الذي هو أوروبا، التي نتملك نحن المسيحيون شطراً صغيراً منها، إن ذلك الشطر مهدد بشكل متواصل من قبل الأتراك والمسلمين، هذا وإن اسبانيا وجزر البليارد خاضعة لهم منذ ثلاثمائة سنة، وهم يأملون الآن بالتهام المتبقي، فلقد استولوا على ايليريا Illyricum وعلى جميع المنطقة التي دونها وذلك حتى البحر، الذي اسمه ذراع القديس جورج(البوسفور)، وهم يدّعون ملكية ضريح ربنا، ويبيعون بالمال إلى حجاجنا إذن الدخول إلى المدينة المقدسة، التي ينبغي أن لاتكون مفتوحة لأحد غير المسيحيين لو أن في صدورهم القليل من

فضيلة الايمان.

وعلى هذا، أعدوا أنفسكم للقتال يامقاتلي الشجعان، ومن أجل حملة لاتنسى ضد أعداء الصليب، واجعلوا علامة الصليب تزين أكتافكم، كدليل على أنكم سوف تقدمون العون من أجل نشر المسيحية، ودعوا جهودكم الظاهرية تعبر عن إيمانكم الداخلي، أديروا ضد أعداء المسيح هذه الأسلحة التي حتى الآن لطختموها بالدماء في القتال والمبارزات فيما بينكم، ولتكن غيرتكم في هذه الحملة تكفيراً عن السلب، والسرقة، والقتل، والفسوق، والزنا، وأعمال الحرق المتعمد، التي بها أثرتم غضب الرب.

لتكن لديكم رحمة نحو إخوانكم الذين يسكنون القدس وفي السواحل هناك، وأوقفوا رعونة البرابرة، الذين هدفهم هو تدمير الاسم المسيحي، وبالنسبة لنا نحن، اننا سنثق برحمة الرب القدير، وبسلطان رسوليه المباركين: بطرس وبولص، وبفضائل القدرة التي منحنا الرب إياها، مع أننا غير جديرين بها، ولربط وتحليل جميع الذين سينضمون إلى هذه الحملة بأشخاصهم، وعلى نفقتهم، إنهم سوف يتلقون عفواً عاماً عن جميع ذنوبهم، التي سوف يستغفرونها في قلوبهم، مع الاعتراف بها بشفاههم، وزيادة في توزيع العدالة، نحن نعد هؤلاء أنفسهم بشطر زائد من الخلاص الدائم، وهذا الغفران سوف يشمل أيضاً جميع الذين سوف يسهمون وفقاً لقدراتهم في سبيل نجاح هذه الحملة أو سوف يقدمون نصائحهم، أو مساعدتهم من أجل تقدم نجاحها واستطراده.

وعلى هذا انطلقوا أيها الفرسان الشجعان، واضمنوا لأنفسكم الشهرة في العالم، وتخلوا عن جميع المخاوف من الموت وانفوها من عقولكم، لأن آلام هذا العالم لايمكن مقارنتها مع المجد المستقبلي الذي يتجلى لنا، وهذه هي أوامرنا لكم أيها الحضور، وهذه هي تعليماتنا حتى توصلوها إلى الغياب، ونحن نعين الربيع المقبل كموعد لبداية عمليتكم، والرب

سوف يرافقكم في زحفكم، والموسم السنوي سوف يكون موائماً في كل من وفرة الثمار وفي جودة الأنواء.

والذين سوف يموتون سوف يجلسون في قاعة الضيوف السماوية، والذين سوف يبقون أحياء سوف يرون بأعينهم ضريح ربنا، وسعداء هم المدعوون إلى هذه الحملة، لأنهم سوف يتمكنون من رؤية الأماكن المقدسة التي تحدّث فيها ربنا مع بني البشر، والذين من أجلهم قد ولد، وصلب، ومات، ودفن، وقام ثانية».

ولقد كانت هذه كلمات أوربان، حيث أمر بعدها أساقفة الكنيسة الذين كانوا حضوراً بالعودة إلى أوطانهم، وتحريض الناس الذين تحت عهدتهم باخلاص وفهم، للمشاركة في الحملة المتقدم ذكرها.

حول أسماء النبلاء الذين حملوا الصليب وحول اجماعهم

عندما سمع رجال الدين والشعب كلمات الخطبة المذكورة أعلاه، رددوا بصوت واحد الموافقة على الموعظة، وأعلنوا عن استعدادهم للذهاب والقيام بالحج، ومع هذا قام بعض النبلاء الذين كانوا في المجمع، فألقوا بأنفسهم وجثوا على ركبهم أمام البابا، وكرسوا أنفسهم وكل مايملكون لصالح المسيح، وكان الأول بين هؤلاء أدهمر أسقف بوي، الذي تلقى من يد البابا علامة الصليب، وقد جاء على الفور وليم أسقف أوراشيا Aurasia ، وحشد من الآخرين من جميع الأعمار والأوضاع، وبعد انتهاء أعمال المجمع، عادوا جميعاً إلى الوطن، وانتشرت شهرة الذي حدث خلال العالم، ولم تقتصر إثارتها على البلدان المتوسطية بل شملت أيضاً جميع الذين كانوا في الجزائر النائية، أو الذين كانوا في الشعوب البربرية، ممن سمعوا باسم المسيح.

وكان من بين الذين حملوا الصليب: هيوج الكبير، أخو فيليب ملك فرنسا، وغودفري دوق اللورين، وريموند كونت طولوز، وروبرت

دوق نورمـاندي، وبوهيموند، الذي كـان من أبوليـا من حيث المسكن، إنها كان نورمـاندياً من حيث المولد، وروبرت كونـت فلاندرز، وستيفن كونت تشارترز، وبلدوين ويوستاس، أخوا الكونت غودفري، وبلدوين ثاني هو بلدوين أوف بورغ، وغارنر كونت ديجرس Degres، وبلدوين كـونت أوف أمـانسي Amanci، وايسـوارد Isoard كـونت ديي Die، ووليم كـــونـت أوف فـــوري Foreis ، وستيفن أيرل أوف ألبمارل Albemarle، وروتو كونت بيرشي Perche ، وهيوج كونت أوف سينـت بول، وهنـري دي أسكـا Asca ، ورالف دي بانغنتياك Bangentiac، وهيراندي بـوســاك، ووليم أمـــون Amauen ، وغنتـون دي بار، وغـاست دي بدري Gast De Bederi ، ووليم دي مـونـت بيســـولان Pessulan ، وجـيرالد دي كيريســياك Ceresiac ، ورروجــردي بـارنيفل Barneville وغي دي بوسس Possessa ، وغي دي غارلاندا Garlandia ، وتوماس دي سبريــا Sprea ، وغالودي شومنت Chaumont، وستيفـــن كـونت أوف بلوا، وكــان هؤلاء جميعـا هم مقـدمي وقـادة الفـرسـان والآخرين من المؤمنين، الذين انتظروا الوقت المناسب للانطلاق، وكانوا مستعدين مع كتل بشرية كبيرة من الرجـال المسلحين للالتحاق بالأعمال العسكرية الصليبية، وبشكل خاص لتكريس أنفسهم لهذا الحج من أجل اسم المسيح.

حول الرؤيا التي عملت لبطرس الناسك بخصوص المغامرة المسماه أعلاه

لقـد أثيرت هذه المهمـة العسكريـة كثيراً بوسـاطة أعمال التبشير التي تولاها بطرس الناسك، والحديث عن هذه الأعمال لن يكون بدون ثمار، من أجل فـائـدة الذين لم يسمعـوا بها قط، ولاسيما الـرؤيا الربانيـة التي عملت له، فقـد كـان هناك راهبـاً اسمـه بطرس، يمارس أعمال النسك،

وكـان قبل قليل من وقوع هذه الأحـداث قد ارتحل إلى خـارج فرنسـا، ذلك أنه كان مرتبطاً بعهد الحج إلى الأرض المقدسة، وكان عندما وصل إلى مقصده، دفع الرسم الذي كان مفروضـاً بموجب القانون الذي تولى تنظيم قبـول الحجاج، ودخـولهم المدينة، وقـد تسلم مقـر إقامـة في بيت أسرة مسيحية، وسمع من مضيفه رواية عن الأوضاع التعيسة للمؤمنين الحقيقيين، الذين أقاموا تحت سلطة المسلمين، وتأيد الذي سمعه هنا فيما بعد بما رآه شخصياً بأم عينيه.

وقد سمع بأن سمعان بطريرك المدينة، كـان رجلاً متديناً وكان يخاف الرب، وقـد ذهب إليـه وتحدث إليـه كثيراً، وكـان هـذا البطريرك— استخلاصـاً من كلمات بطرس— رجلاً واعياً، وقـد بين له جميع المعاناة التي يتحملهـا شعب الرب، الساكنين في تلك المدينة، وتعـاطف بطرس مع التعـاسة التي عـانى منهـا إخوانه، ولم يستطع منع نفسـه من البكاء، وقد قال للبطريرك:« كن متأكداً لو أن الكنيسـة الرومانية وأمراء الغرب، أمكن إعلامهم بهذه الأوضاع والأحـوال المأساوية من قبل من يمكنهم الاعتماد عليه، لكان من المؤكـد بذلهم الجهد لإيجاد عـلاج لماتعانون منه، وبناء عليه اكتب رسـالة إلى السيد البابا، وإلى الكنيسة الرومـانية، وأيضاً إلى ملوك وأمـراء الغرب، وأنا— ليعينني الرب، ولأجل إنقـاذ نفسي— سوف أتحدث عن ضخـامة عـذابكم، وسوف أدعـو الجميع وكل واحد للاسهـــام في سبيـل تخليصكم»، وقـــد أفـــرح هذا الكلام البطـريرك والآخـــرين الذين كـــانوا حضـوراً، ووضع في يـد بطرس، مع كثير من الشكر— الرسالة التي طلبها.

وحـدث أنه في أحـد الأيام، أن كـان رجل الرب هذا قلقاً أكثـر من المعتاد، وراغبا بالعودة إلى بلده، حتى يتمكن من تنفيذ المهمة التي تعهد بها، وقـد وجـه تفكيره نحو نبـع الرحمة، فدخل إلى كنيسـة قيـامـة ربنا، حيث أمضى الليل في صـلاة وصـوم، وأخيراً، وقد وجـد نفسـه منهكاً

تمدد فوق البلاط ليتمتع بقليل من النـوم، وماأن كاد يغمض عيناه حتى رأى ربنا يســوع المسيح، واقفـاً أمـامــه، وهو يحثـه على تنفيــذ المهمـة المذكـورة أعـلاه، ويقـول له:« انهض يابطرس، وأسرع، ونفـذ بدون خـوف، الذي عهــد به إليك، ذلك أنني سـوف أكــون معك، لقـد آن الوقت لتطهير الأمـاكن المقـدسـة، ولنجـدة عبيـدي والتفـريج عنهم في تعاستهم».

واستيقظ بطرس وهو مطمئـن بالرؤيا الربانيــة، ورحب بالنصيحــة الربانية، ولم يعد يشعر بالخوف والأسى بـل قدم صلاتاً، ثم بادر مسرعاً نحـو شـاطىء البحـر، وصعـد هنا إلى ظهـر سفينة، ووصل بعـد رحلة مـوفقة إلى باري، وتـابع من هناك إلى روما، حيث وجـد البـابا أوربان، فأعطاه رســالة البطريرك، وقــدم له رواية متـوازنـة وصادقــة حـول التعـاسات التي يعـاني منهـا الذين في الأرض المقـدسة، واستقبله البـابا بلطف، ووعـده أنه سـوف يتعـاون معـه في الـوقت المناسب باخـلاص عظيم، وسافر بطرس خلال ايطاليا كلها، ثم قام بعد أمد بعبور الألب، وتمنى على أمراء الغرب بكل اخلاص أن لايسمحوا للأماكن المقدسة— التي عينهـا الرب لتتشرف بحضـوره—بالبقــاء مـدة أطول وهي ملوثة بدنس غير المسيحيين، ثم إنـه لم يرتح راضيـاً بهذا، بـل إنه شجع الناس والذين كانوا أدنى مرتبة، على القيام بهذا الواجب المقدس نفسه، وهكذا قام بطرس مع مرور الأيام، مع حشد كبير من الناس، كان قد جمعه بعد كثير من المتاعب من فرنسـا والامبراطورية، بالالتحاق بالحملة المسلحة، وسعى باخلاص في سبيل مصالح الصليب.

حول وولتر الذي كان الأول بالانطلاق إلى الحج

في سنة ١٠٩٦م، وفي شهـر آذار، وفي اليوم الثـامن من ذلك الشهـر، انطلق وولتر الذي لقبــه سـان— أفــوير Sans-avoir (والمعروف بالمعـدم)، وكان رجـلاً من أصل نبيل، انطلق مـع حشد كبير من المشـاة

المسلحين، وقـد كان معـه قليلاً من الفـرسان، كما أنه كـان الأول فيمن حمل الصليب، في الانطـلاق بالحملة، ومن ثـم عبــور مملكتي ألمانيــا وهنغـاريا، والوصول إلى نهر مـاروك Maroc ، وعبر هذا النهر، فـدخل إلى بلاد بلغــاريا، ووصــل إلى مكـان كـان اسمـــه بلغـريف Belgrave ، حيث كـان بعضاً من أتبـاعه قـد بقيوا في مـالا— فيلا Mala-villa[سملين Semlin] من دون أن يعـــرف هو بـذلك، وذلك مـن أجل شراء بعض المؤن، حيث ألقـي القبض عليهم مـن قبل البلغـار، وجـردوا من ثيابهم، وعـراهم البلغـار وجلدوهم، وبعـد ذلك أعـادوهم إلى رفــاقهم، وبناء عليـه طلب وولتر إذنا مـن دوق بلغـاريا لشراء ضروريات وحاجيـات، وعندما لم يحصل على طلبـه أقام معسكره أمام مدينة بلغريف، وعانى هنا من خسائر عظيمة، لأنه لم يستطع ضبط جيشه الذي كان بحاجة ماسة إلى المؤن، لأنهم عندما لم يسمح لهم بشراء أي شيء من بني البشر الأشرار هـاجموا القطعـان والأسراب العــائــدة للبلغـار، وحملوها معهم إلى معسكرهم، ولدى سماع البلغـار بهذا حملوا أسلحتهم لإنقــاذ مـاسلب منهم، وهزمــوا النهـابين، وألقــوا النار في المعسكر، الذي إليه هرب مائة وخمسون من أجل الحماية، وقد أحرقوهم جميعاً، أماباقي الرجال فهربوا.

ثم وصل وولتر بعــد هذا مع جيشــه إلى سترالايس Stralice التي كانت عاصمة داشيا الداخلية وقدم شكوى إلى حاكم المدينة ضد الأذى الذي اقترف بحق جيش الـرب من قبل البلغـار، وبعــدمـا حصل على ترضيـة كـاملة لما لحق به من أذى، استـأنف سيره من هناك نحـو المدينة الملكيــة(القسطنطينيــة) حيث مثل في حضرة الامبراطور ألكسيــوس، وطلب منه السماح له مـع جيشـه بالبقــاء قـرب المدينة، حتـى وصـول بطرس الناسك، مع إذن عـام بالبيع والشراء ووافق الامبراطور ومنحـه هذا الامتياز.

حج بطرس الناسك

وكـان التـالي لوولتر بالانطلاق للقيـام بـالحج، هو بطرس الناسك، الذي ارتحل عبر اللورين، وفـرانكونيـا، وبافـاريا، والنمسـا، ووصل إلى حدود هنغاريا مع أربعين ألف رجل مسلحين ، ومن هناك تابعوا السير نحو مالا— فيلا، وهناك سمعوا بالخسـائر الكبيرة التي عانى منها أتباع وولتر هناك، فحملوا سلاحهم ونهبوا ماكـان العدو قد سلبه وعلقه على أسوار المدينة كـرموز على مانالـه من الصليبيين، ذلك أن ذلك المنظر قد مـلأهم بغضب محق، ولذلك حملـوا أسلحتهم واقتحمـوا المدينة، وقتلوا بالسيف أو أغـرقـوا بالنهر جميع السكان تقـريبـاً، وبعـدما استـولوا على المدينة على هذه الصورة، مكثوا فيهـا لمدة خمسة أيام، لكن بطرس عندما سمع بأن ملك هنغاريـا كان يحشد قـواته للانتقام للمـذبحة التي نزلت برعـاياه، أعطى أوامره إلى الجيش لإعتماد كل سرعـة في عبور النهـر مع القطعان والأسلاب التي أخذوها من المدينة، وهكذا وصلوا بعد زحف استمر مـدة ثمانية أيام إلى أمـام مدينة نيش Niz الحصينة، وعبروا النهر، ونصبـوا معسكرهم هناك، وعندمـا حلّ وقت المغـادرة، زحفت الكتلة الأسـاسية من الجيش نحـو الأمـام، لكن بعضاً من الأتبـاع الحمقى من أصل ألماني انفصلوا عن البقية، وألقوا النار في سبعة أرحاء كانت قائمة على مقربة من الجسر الذي تقدم ذكره، وكـان تعداد هؤلاء حوالي المائة، وقام هؤلاء في سبيـل ارضاء جنونهم، فأضـافوا إلى تعاستهم، بـأن ألقوا النار بالطريقــة نفسهـا في بيـوت بعض الناس، التي كـانـت قـائمـة في الأرباض، ثم إنهم بادروا مسرعين للالتحـاق بالجيش الذي كـان تقـدم أمامهم، لكن سيـد تلك المنطقة، وقد أغضبه ماحـدث، استدعى شعب المدينة، وشجعهم على حمل السـلاح، وانطلـق على الفـور مع كتلة كبيرة من الناس ليتمكن من اعتقـال النهـابين، قبل التحـاقهم ببقيـة الجيش، وعنـدما وصـل إليهـم هاجمهـم بشـدة، وجعل معظمهم طعمـة

للسيف:

وكـان بطرس جاهلاً تماماً بجميع هذه الحوادث، لأنه كان مشغـولاً بقيادة الجيش الذي تقـدم نحو الأمام، لكنه عندمـا سمع بالذي حدث، عقـد اجتماعاً مع كبـار ضباطه، وبناء على نصيحـة منهم رجع إلى المكان الذي تمددت فيـه جثث الذين قتلوا، ولقـد بكى لدى رؤيتـه لجثثهم، وكـان راغبـاًفي معـرفـة سبب مثل هذا العمل الدمـوي، وفي سبيل هذه الغاية بعث رسولاً إلى سادة المدينة، وعلم منهم أن مـاحدث جاء نتيجة غضب محق لسكان المدينة، وهنـا تهورت مجمـوعـة قليلة من الحجـاج بمحاولة الانتقـام فأيدتها فرقة كـاملة أثيرت بالرغبة بالانتقـام لما حدث لهم، وكـان تعـداد المتهـورين المقترفين لعمل أحمق ضـد المدينة حـوالي الألف رجل، وعندها خـرج بعض سكان المدينة للتصـدي لهم، فأعقب ذلك معركة قاسية جداً، وقد قتل خمسمائة من رجالنا على الجسر، وغرق البقيـة لأنهم كانوا يجهلون مخاضـات النهـر، ولدى وقوع هذه الهزيمـة القـاسية ومقتل رفـاقهم، غضب رجـال جيش بطرس، وبادروا إلى حمل سلاحهم ومن ثم إلى القِتال، فكان أن جرى قتل حوالي عشرة آلاف من الحجاج، واستولى البلغار على أموال بطرس، وذلك مع عربته وكل شيء كان لديه.

وبعد مضي أربعـة أيام عاد جمع الذين هربوا وانهزموا، وكـانوا حوالي الثـلاثين ألفاً، فأعـاد هؤلاء تجهيـز أنفسهم لاستئناف رحلتهم، وبالفعل تابعوا سفرهم، لكن مع كثير مـن المصاعب، وبعد زحف سريع وصلوا إلى القسطنطينية، وهنا قـابل بطرس الامبراطور، وبناء على ذلك أقام مع جيشه عدة أيام، ثم إنه— بناء على أوامـر الامبراطور— عبر البوسفور، ودخل إلى بيثينيـا، التي كـانت أول المقـاطعـات الآسيـوية، ومن هناك وصلوا إلى مكان قائم على البحـر نفسه اسمـه سنتوث Cinitoth حيث نصبوا معسكرهم.

موت الثلاثين ألفاً من الصليبيين

وقام هذا المكان على حدود المملكة التركية، وكان فيه وفرة من كل شيء، خاصة بالمؤن، وعندما مكثوا هناك لقرابة شهرين، شرع قسم من هؤلاء اللاتين، وكان تعدادهم عشرة آلاف رجل، باجتياح المنطقة وسوق القطعان والأسراب والاستيلاء عليها، وقد زحفوا في صفوف عسكرية نحو مدينة نيقية، ثم عادوا إلى معسكرهم مع كثير من الأسلاب، ودون أن يفقدوا رجلاً واحداً، وعندما شاهد الشطر الألماني في الجيش كيف أن اللاتين قد نجحوا في تلك المغامرة، قرروا القيام بمحاولة مماثلة، وبناء عليه انطلق حوالي عشرة آلاف منهم بصحبة مائتي فارس نحو مدينة نيقية، ومنها إلى بلدة كانت على بعد نحو أربعة أميال منها، وقاموا بهجوم عنيف جداً عليها، وقد تغلبوا على جميع من تصدى لهم من السكان، واستولوا على البلدة، وقتلوا جميع من كان فيها من سكان، وحصلوا على أسلاب كثيرة، وشحنوا الحصن، وأعجبوا بخصب المنطقة وطبيعتها المرضية، ولذلك قرروا الإقامة هناك حتى وصول الأمراء، لكن حدث أن(قلج أرسلان بن) سليمان، الذي كان صاحب المنطقة، قد سمع بأن الجنود الألمان قد قرروا البقاء والاحتفاظ بالبلدة، فزحف إلى هناك بكل سرعة، وحاصر الحصن واستولى عليه عنوة وجعل طعمة للسيف كل من وجده فيه، وفي الوقت نفسه انتشر الخبر في المعسكر بأن العساكر الألمان قد وقعوا في أيدي(قلج أرسلان ابن) سليمان، وعندما باتت هذه الحقيقة معروفة، هب الجيش إلى السلاح على الرغم من إرادة قادته، وتوفر ساعتها خمسة وثلاثين ألفاً من الرجالة وخمسمائة فارس، فزحفوا على تعبئة قتالية نحو نيقية، وقد وجدوا(قلج أرسلان بن) سليمان مع حشد هائل من التركمان في السهل، وقد هاجموه بكامل القوات، ولكن الأتراك الذين عرفوا أنهم يقاتلون في سبيل حياتهم، قاوموا بعنف، وتمّ الضغط بشدة على

الصليبيين، حتى أنهم لم يعـودوا قـادرين على تحمل ثقل القتـال، ولذلك مزقوا صفوفهم وتخلوا عن مواقفهم، وشرعوا بالفرار، وأخذ الأتراك في الوقت نفسـه بمطاردتهم وألحقـوا بهم خسـائـر وهزمـوا الجيش، وهناك سقط في تلك المعـركـة: وولتر المعـــدم ، ورينالد دي بريس Breis ، وفولتشر أوف أورلين، وثلاثين ألفاً من الرجـالة، وخمسمائة من الفرسان الذين خرجوا من المعسكر، ولم ينج أحـد تقريباً من القتل أو من الأسر، وهكذا كانت أحداث هذه المعركة، معركـة عدم الطاعة ، التي قاتل فيها الناس بتهور عظيم، مـراغمة لأوامر قائـدهم الذي نصح جيشه الجاهل بالبقاء منتظراً عند القسطنطينية حتى وصول الأمراء الذين كانوا قادمين خلفـه على الطريق، والذين كـانـوا أكثـر حكمـة من رجـال هذا الجيش أنفسهم، وأعظم خبرة في المسائل العسكرية.

هذا ولم يقتنع[قلج أرسـلان بن] سليمان بـالنصر الذي ناله، فهـاجم المعسكر بحـــدة، وجعل الذين فيـــه طعمـــة للسيف من دون رحمة، من شيوخ وصغار، ورهبان ورجال دين، وعقيلات، وفتيات، وأطفال، علما بأن بعضهم قد توسط عمـرهم أو شكلهم لصالحهم، فأنقـذت حياتهم، ليكونوا عبيداً أرقـاء مدى الحياة، وكان على كل حال، يـوجد على مقربة من المعسكر إلى جانب شـاطىء البحر، قلعة قديمـة غير مسكونة، إليها فـرّ ثلاثة آلاف من الحجـاج للنجـاة من الموت، ، وألقى[قلج أرسـلان ابن] سليمان الحصـار فـوراً عليهـا، لكن الذين كـانوا فيهـا دافعـوا عن أنفسهم بشجـاعــة، وتمكن بالوقت نفســه بطرس من المثـول بحضرة الامبراطور، واقناعـه بعد كثير من التـوسلات لأن يرسل جيشـه لانقاذ الذين بقيـوا من الناس، وعندمـا عمل هذا بقي بطرس في القسطنطينيـة مع بقية الجيش، ينتظرون وصول الأمراء.

حول مقتل بعض الحجاج غدراً

ثم جـــاء بعـد هؤلاء للحـج كـاهن ألماني اسمـــه غـودرشـــال -Go

derschal، امتلك أعطية الاقناع، ولذلك قاد حـوالي الخمسة عشر ألفاً من الرجـال من المالك الألمانيـة، إلى هنغـاريا، وقـد نال هؤلاء بناء على أوامر الملك امكانية الحصول على المؤن وفق شروط مناسبة، من البلغار، لكنهم أفسـدوا هذا الامتياز، وغـرقوا بالسكر، وغضب الملك محقـاً تجاه هذه الأعمال، ودعـا قومـه إلى السلاح وإلى الانتقـام منهم، وعملوا على الانقضـاض على هؤلاء الحجاج الآثمين عند بلغـريف، وعندمـا رأوهم قد استعدوا للقيام بالمقاومـة، لأنهم كانوا رجالاً شجعاناً، ومعتادين على استخـدام السـلاح، قرروا الايقـاع بهم غـدراً وليس عن طريق القتـال، ولهذه الغاية، أرسلوا رسلاً إليهم، وخاطـب هؤلاء غودرشال مع القادة الآخـرين وفق العروض التـاليـة:« لقد وصل إلى مسـامع مـولانا الملك بأنكم قد ألحقتم أضراراً بالغة بشعبه، وجازيتموه بالنكران والشر مقابل الاحسان، هذا ويعرف ملكنا بشكل جيد بـأنه يوجد بينكم رجالاً أتقياء ويخافـون الرب، وأن هذه الأفاعيل التي بحق أثارت غضب الملك، قـد اقترفت ضـد ارادتهم، ولـذلك رغبـة منه، ولكي لاتلقـى عليكم جميعـاً جريمة قلة فقط، قد قرر عـدم ملاحقة الحجاج في الوقت الحاضر. لكنه يطلب منكم، أن تقوموا بأنفسكم بتسليم عتـادكم وسلاحكم، وتضعوه بين يديه بشكل غير مشروط، وإذا لم تفعلوا ذلـك، إنكم لن تنجـوا من الموت، بما أنكم لاتمتلكون القدرة على النجاة».

وعلق غودرشال آمـالاً كبيرة على الرحمة الملكية، فأقنع الجيش— بعد صعوبات جمة— بتسليم أنفسهم مع جميع أسلحتهم وعتادهم ووضعهم تحت سلطة الملك، وبذلك أرضى شكاويه لكـن ماأن حـدث هذا حتى واجهـوا الموت بدلاً من الرحمة، فقـد انقض هـؤلاء الناس الخونة على الجيش، الذي كان أفـراده قد جردوا من سيـوفهم، ودون أن يميزوا بين المتديـن وبين الشرير، اقترفوا مذبحـة عامـة، ولوثوا المنطقة كلهـا بالدم، وبجثث القتلى، وقلة منهم نجـوا— على كل حـال— من الخطر العـام،

وعادوا إلى الوطن، وقصوا هناك خبر مقتل رفاقهم الحجاج، ونصحوا باخلاص الحجاج الذاهبين بأن يضعوا دوماً أمام أعينهم غدر تلك الأمة الشريرة وأن يكونوا متنبهين وحذرين أثناء تنظيم خط زحفهم.

حول بعض الحجاج الذين عذبوا اليهود ثم قتلوا بعد ذلك

وفي حوالي الوقت نفسه تجمع من بلدان الغرب وخرج حوالي المائتي ألف من الرجالة مع نحو ثلاثة آلاف من الفرسان، كان بينهم من النبلاء: توماس دي فيريا Feria، وكلا من رنبولد دي فندول Vendole كونت هيرمان، ووليم الملقب بالنجار، وكان هؤلاء جميعاً مشحونين بروح الجنون، وهاجموا اليهود في البلدان والمدن، التي وقعت على طريقهم، وقتلوا عدة آلاف منهم، ووقع هذا بشكل خاص في مدن مينز، وكولون، وقد كان هناك أيضاً كونت اسمه ايميكو Emico، وكان نبيلا مشهوراً في تلك المناطق، وقد انضم بنفسه إلى تلك الجماعة، وشارك في أعمالها الشريرة وحثها على اقتراف جرائمها.

وعبر هؤلاء القوم من خلال فرانكونيا وبافاريا، ووصلوا إلى حدود هنغاريا، حيث اعتقدوا أنهم يمكنهم الدخول إلى تلك المملكة بحرية كما يريدون، وقد أرغموا على التوقف عند ميزبورغ Meezeburg، لأن مدخل الجسر كان مغلقاً في وجوههم، ذلك أن ملك البلاد قد أمر بوجوب منعهم من الدخول إلى أراضيه، صدوراً عن الخوف، أنه إذا ماسمح لهم سوف يسعون للانتقام من أفراد شعبه، لقيامهم بقتل أتباع غودرشال، وبناء على ذلك إلتمس الحجاج من الملك السماح لهم بالمرور بسلام، لكن ذلك لم يمنح لهم بكل اصرار، ولهذا تحدثوا واتفقوا على نهب وتخريب أراضي الملك الواقعة قرب الأنهار والسباخ، واحراق مناطق الضواحي ، وانزال كل مايمكنهم من اضرار به.

وعندما حدث في أحد الأيام، أن كـان هناك سبعمائة من رجال الملك كـانوا مبحريـن هناك بغرض حماية المنطقـة من هجمات الحجـاج، فجأة وقع هؤلاء في أيدي الأعداء، الذين عرضوهم على السيف، فقتلوهم إلاّ قلة منهم، أنقـذوا أنفسهم بالتخفي بين القصب والمستنقعـات، وتحمس الحجاج بهذا النجاح، فاقترحوا الآن القيام بحصار البلدة، بتشييد جسر، وشق طريقهم إلى داخل المملكـة بالسيـوف، وبناء عليـه، جـرى تشييـد جسور، مـدت حتى أسوار البلـدة، وكان إصرار الحجـاج كبيراً إلى حد أنهم كادوا أن يشقوا طريقاً لهم إلى البلدة، وأن البلدة صارت في أيديهم، لكن حـدث فجأة أن أصيبـوا بالرعب، وشرعـوا بالفرار، دون معـرفـة السبب، وهكذا كان نتيجة لما اقترفـوه من ذنوب أن أداروا ظهورهم إلى العـدو، الذي استقى الثقـة من رعبهـم، وطاردهم بشجـاعـة، وجعلهم طعمة للسيف، بعدما حرمهم من الأمل بالنجاة، وهرب الكونت اميكو مع عساكره بشكل فوضوي، ورجع بصعوبة إلى بلاده، كما وصل النبلاء الذين ذكـرناهم أعـلاه إلى ايطـاليـا، وحـاول بعضهم النجـاة بالطريقـة نفسها، وأخذوا طريقهم بحراً إلى ديراخيوم Dyrrachium ووصلوا إلى ساحل بلاد الاغريق.

رحلة الدوق غودفري ورفاقه في الحملة الصليبية

في السنة المتقـدم ذكـرها، أي سنة ١٠٩٦م، وفي شهـر آب، في اليـوم الخامس عشر من الشهر، قـام غودفـري، دوق اللورين المشهور، اتبـاعاً منه لبطرس الناسك، وغـوردشـال والآخريـن، باستدعـاء الذين كـانوا سيرافقـونه، وانطلق في الحملة الصليبيـة، وكـان معـه النبـلاء التـالين: بلدوين، أخوه النصفي، وبلدوين كونت أوف هاموشي Hamauci ، وهيـــوج كـــونت أوف سينـت بول مع ابنـه انغلران Engelran ، وغارنر كونت دي غري Gres ، ورينالد كونت أوف تول Tull ، مع أخيـــــه بطرس، وبلـدوين دي بـورغ، وهنري دي أوشي Auche

مع أخيه غودفري، ودودو كون دي Dodo de cons، وكونو دي مونتأكيوت Montacute ، وتبع هؤلاء حشد من الفريزلانديين، والسكسون واللورينيين، وأناس من جميع البلدان القائمة بين الرون وغارون Garonne ، وزحف هؤلاء جميعاً مع بعضهم خلال النمسا وهنغاريا، وأعطوا الملك رهائن، وتابعوا زحفهم إلى بلغريف، وهي بلدة في بلغاريا، ومن هناك إلى نيش، وسترلتز Strelitz ، ثم إنهم تابعوا زحفهم إلى داشيا الداخلية، وهي التي تعرف باسم آخر هو موشيا Moesia ، ونزلوا إلى ديرة القديس باسيل، ثم وصلوا إلى مدينة فيلبه الواسعة والفخمة، وهنا سمعوا بأن هيوج الكبير، أخو فيليب ملك فرنسا، موضوع في السجن مع الآخرين، من قبل الامبراطور ألكسيوس، فقام قائدهم غودفري اللامع، فأرسل رسلاً، وطلب اطلاق الأشخاص المتقدم ذكرهم، لأنهم حملوا الصليب.

هذا وكان هيوج المتقدم ذكره، بين أوائل من انطلق للحج، فقد عبر الألب، وسار من خلال ايطاليا إلى أبوليا، ومن هناك عبر مع حاشية صغيرة إلى ديراخيوم Dyrrachium ، وقد مكث هناك ينتظر بقية الحجاج، وهناك جرى اعتقاله من قبل حاكم تلك المنطقة، وأرسل وهو مغلول إلى الامبراطور، الذي احتفظ به في السجن وكأنه لص أو قاتل، وتلقى رسل الدوق غودفري، رفضاً أكيداً، ونتيجة لذلك اجتاح الصليبيون المنطقة كلها واستباحوها لمدة ثمانية أيام مع عساكرهم، وعندما سمع الامبراطور بهذا، أرسل إلى الدوق، وعرض عليه اطلاق سراح السجناء النبلاء، على شريطة توقف الصليبيين عن السلب والنهب، وبناء عليه أوقف الدوق رجاله عن متابعة النهب، وتابع سيره إلى القسطنطينية، حيث تسلم السجناء النبلاء، دونما أذى، وكانوا: هيوج الكبير، ودوغو دي نيل، وكلارمبولد دي فندول Clarembald de vendole ، ووليم النجار، وقد شكروه جميعاً بامتنان من أجل

حريتهم.

غدر الامبراطور ألكسيوس

كـان ألكسيوس الامبراطور الاغـريقي رجـلاً شريراً ومخادعاً، وكـان عندمـا خدم في قصر سلفـه نقفـور كان الجندي الأول في البـلاط، لكنه تآمـر بشكل منحط ضـد سيـده، وقبل خمس سنوات أوست كـانت قـد انقضت قبل هذه الحملة إلى الأرض المقدسة، كان قد خلع مولاه وصار امبراطوراً مكانه، ولقد استخدم باتصالاته مع الحجاج دوماً لغة مخادعة، لأنه نظر بريبـة نحو تعـداد الصليبيين وقوتهم، وإذا كان قـد تمنع في أي وقت من الأوقـات عن إلحاق الأذى بهم، فقـد كـان ذلك ليس نتيجـة شرف وأمانة بـل نتيجة خوف، لأنه عنـدما عسكر الدوق غـودفري مع جيشه أمـام مدينة القسطنطينية، قـدم رسل من لدن الامبراطور، يدعون الدوق إلى زيارة البلاط مع عـدد قليل من حاشيتـه، وقام الدوق— بناء على نصيحـة من مستشـاريه، بالاعتـذار عن الذهـاب، ولذلك غضب الامبراطور، ورفض تزويـد جيش الدوق بسـوق، وخشي الأمـراء من نقص مـؤنهم، فاجتـاحـوا مناطق الضـواحي برجال مسلحين، وجمعـوا أعـداد هائلة من الأغنام والقطعان، بحيـث صار هناك أكثر من اللازم لتمـوين الجيش، وبهذا أرغـم الامبراطور ثانيـة على السماح للصليبيين بسوق.

كيف انطلق الأمير بوهيموند في حملة الصليب

وفي الوقت الذي كانت فيـه هذه الأحداث تقع في القسطنطينيـة، قام الأمير بوهيموند بن روبرت غويسكارد، وصاحب تارنتومTarentum، بعبور الأدرياتيك، قبل بداية الشتاء، ونزل في ديراخيوم، ومن هناك سار من خلال صحـارى بلغاريا، للالتحـاق بالذين كانوا قـادمين من بعده، وكـان هؤلاء يتبعـون رجـالاً نبـلاء، هم: تانكرد بن[إقـرأ:أخـو] وليم

المركيز، ورتشـارد دي بروفانس مع أخيـه ريموند، وروبرت دي اكس، وهيرمـان دي كـارفي، وروبـرت دي سـوردفيل sourdevaile ، وروبرت فتـز— ثورستـان Fitz-thurstan ، وهمفري فتز— رالف، ورتشارد ابن كونت رانولف Ranulph ، وكونت دي روسيلون مع أخيه بولي Boeleis أوف تشارترز، وأولبيرد دي كونان Albered de cognan ، وابنه همفـري، وقـد تبع هؤلاء جماعـة من الايطاليين مع آخرين كانوا يعيشـون بين بحري التيرنيان Tyrrhenian والأدرياتيكي، وقد سار هؤلاء جميعاً خلف راية بوهيموند حتى مدينة كاستوريا -Cas torea ، حيث أرغموا على سوق القطعان والأسراب والاستيلاء عليها بالقوة، لأن شعب المنطقـة رفض بيعهم المؤن، وبعد مغادرتهم من هناك، عسكروا في منطقة بيـلاغونيا Pelagonia ، حيث سمعوا بأن هناك بلدة في الجوار مسكونة مـن قبل الهراطقـة، فـزحفـوا مسرعين إلى هناك، فـاستـولوا على القلعـة، وألقـوا النار في البيـوت، وحملوا معهم كميات هائلة وثمينة من الأسلاب.

حول حج كونت طولوز

وتبع حج الذين تقـدم ذكـرهـم تحرك ريمـوند كـونت طولوزوأدهمر أسقـف لى بوي، وكـان معهما النبلاء التالين: وليم أسقـف أوراشيا -Au rasia ، وكونت بينبولد Bainbald ، وغوستوس دي بدري Gaustus de Bediers ، وجيرارد دي روسلون Rouseillon ، ووليم دي مـونت بيسـولان Pessolan ، ووليم كونت أوف فوري Foris ، وريموند بيلز Pelez ، وغانتون دي بار، ووليم أمانن Amanen ، وقد تبعهم قـوط وغاسكون، وقـوم آخرون يسكنون فيما بين البيرنيـز والألب، وسـار هؤلاء على آثار الحجـاج المتقـدمين، فعبروا إيطاليـا، ولومبارديـا، ومنطقة فـوريولي Forioli ، ونزلوا من هناك إلى استريا ودالماشيـا، واحتاجـوا إلى مالايقل عن أربعين يومـا لعبور البـلاد

الأخيرة، ووسط خطر كبير، وتمكنوا — على كل حال — أخيراً من الوصول إلى ديراخيوم، حيث تلقى الكونت رسالة مشجعة من الامبراطور، وبعدما عبر منطقة الغابات والجبال التابعة لايبروس، عسكر جيشه في منطقة بالاغونيا، التي كانت مليئة بجميع أنواع الحاجيات، وهنا هوجم الأسقف المبجل أوف بوي وأخذ أسيراً من قبل البلغار، ذلك أنه كان قد نصب خيمته بعيداً عن بقية الجيش، وطلب واحد منهم منه مالاً، وحماه من الآخرين وحدث هياج، أثار الجيش كله، فحمل السلاح وأنقذ الأسقف من بين أيديهم.

واستأنف الحجاج زحفهم، وتابعوا سيرهم من خلال سالونيك، ومقدونية، وبعد سلسلة من الأعمال المتواصلة والمتاعب وصلوا إلى روديتوس Rodetus ، وهي مدينة قائمة على شواطىء البوسفور، وذلك على بعد أربعة أميال عن القسطنطينية، حيث تقابلوا مع رسل من الأمراء الذين ذهبوا قبلهم، يرجونهم إنهاء أعمالهم مع الامبراطور، والالتحاق بهم بالسرعة الممكنة، وبناء عليه استجاب الكونت إلى المطالب التي أتت من قبل كل من الامبراطور ومن أمراء الصليبيين، فترك الجيش تحت رعاية الأساقفة والنبلاء الذين كانوا في المعسكر، وأسرع بقدر ماأمكنه مع حاشية صغيرة إلى القسطنطينية، وحصل على لقاء مع الامبراطور، الذي استقبله بكل تشريف، وعندما حُثّ على تقديم يمين ولاء إلى الامبراطور، رفض بإصرار، وانزعج الامبراطور من ذلك، فقام باجراءات تهديدية، وضايق جيشه بكل أنواع المضايقات، وأمر عساكره بالقيام بهجوم على الصليبيين، وأن يحاولوا تدميرهم، وبناء عليه قام قادته وضباطه الذين قادوا عساكره، وكانوا مطيعين لأوامر سيدهم، بمهاجمة كشافة الكونت وهم غير منتبهين، وكان ذلك أثناء الليل، ولذلك فاجأوهم بشكل كامل، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعندما سمع الكونت بهذا اتهم الامبراطور بالتصرف غير

الأمين، وقد أسف ألكسيوس لما اقترفه، ودعا بوهيموند إلى الاجتماع به(ذلك أنه لم يكن قد عبر البوسفور بعد) وبذل جهده بوسائطه الشخصية وبوساطة أصدقائه لمصالحته مع الكونت، ورأى الوسطاء— مع أنهم كانوا غاضبين نحو ماحدث— أنه لاتوجد امكانية للانتقام، لأنه كانت هناك أهدافاً عليا أمام أنظارهم، ولذلك صالحوا الكونت مع الامبراطور، وقام الكونت بأداء يمين الولاء وفق الطريقة نفسها التي أداها الصليبيون الذين تقدموه، وغادر حضرة الامبراطور مع كثير من الهدايا، وكل مظاهر التشريف، وكان يمين الولاء الذي أداه جميع أمراء الغرب ووافقوا عليه يقضي بأن أية مدن وقلاع وممتلكات أخرى، ظهر أنها من ممتلكات الامبراطور، وتمكن الصليبيون من استردادها، يتوجب عليهم على الفور تسليمها للامبراطور ليكون مالكاً لها، لكن يمكن للصليبيين الاحتفاظ بجميع الغنائم التي سوف يجدونها هناك، وبدا هذا الشرط شرطاً غير عادل بالنسبة لبعض الأمراء، بأن تذهب جهودهم لصالح آخر ولمنفعته، ولكي يرضي الامبراطور الحجاج، أقسم أنه سوف يقدم لهم معونات عينية ونصائح، يمكنهم بها على الفور هزيمة أعداء الإيمان المسيحي، ووصلت في الوقت نفسه عساكر الكونت إلى القسطنطينية، فقامت— بناء على أوامره— بعبور المضائق، وألحقوا أنفسهم من دون أي تأخير ببقية الجيش.

كيف انطلق روبرت دوق نورماندي وأصحابه للقيام بالحج

وحوالي الوقت نفسه، حمل روبرت دوق نورماندي علامة الصليب، وانطلق بحيث كان آخر الحجاج إلى القدس، وقام أولاً بوضع نورماندي، تحت ولاء أخيه الملك وليم، مقابل عشرة آلاف مارك من الفضة، والتحق بجيشه روبرت كونت أوف فلاندرز، ويوستاس دوق بولون، وستيفن كونت أوف بلوا وكونت تشارترز، وستيفن كونت أوف ألبمارل Albemarle، وروتروك Rotroc كونت أوف بيرشي،

وروجـر دي بارنفيل Barneville، مع المقـــــدمين اللامعين فيراند Fergand ، وكونان أوف بريتاني Bretagne ، يتبعهما رجال من انكلترا، ونورماندي، وفلاندرز، وبريتاني، وأنجو، وغربي فرنسا، وبلدان أخـرى قائمـة بين البحـار البريطانية والألـب، وقد انطلق هؤلاء جميعـاً حـوالي بداية الشتاء، ومـروا من خلال أبوليـا، وكالبيرا، ولكي يتجنبـوا شـدة الثلج والجليـد مكثـوا في تلك المنطقـة، حتى حلـول فصل أكثـر اعتـدالاً، وفي حـوالي ذلك الوقت نفسـه تأسست كنيسـة نورووك Nor-wick، وحل الرهبان هناك محل رجال الدين.

كيف حاصر الصليبيون مدينة نيقية

في سنة ١٠٩٧م، كـان الدوق غـودفري مع رجـاله في القسطنطينيـة، والدوق بوهيمـوند في كـاستروبا Castorea ، وكـــونت طولوز في بالاغـونيا، وقـد احتفلوا بعيد ميـلاد ربنا، وتشريفـاً لذلك اليوم قـرروا إيقـاف أيـديهم عن كل أعمال النهب والايذاء، وجمعـوا في بـداية الربيع أثقالهم، وتابعـوا رحلتهم مع عربات، وخيول تحميل، وتقـدموا بزحـف بطيء نحـو نيقية، ومن هناك إلى نيقـوميديا التي كـانت حاضرة بيثينيـا، حيث التقـوا بالمبجل بطرس النـاسك، وذلك على رأس عسـاكـر قليلة، كان قـد أنقذهم من هزيمتهـم المتقدم ذكرها، واستقبلـه الأمراء بلطف، وشـاركوه أسـاه حول الخسـائـر التي عانى منهـا، وأعطوه بعض الهدايا الجيـدة، وهكـذا ازداد جيش الصليبيين بالعـدد، وتابـع زحفـه بيسر، وبفضل من الرب وصل الصليبيون إلى نيقية، حيث عسكروا من حولها، وأحاطوا بها إنما تركوا مكانا فارغـاً من أجل الحجاج القادمين، وشرعوا بحصـار المدينة في شهر أيار، وفي اليـوم الخامس عشر من الشهـر، وهو يوم الصعـود، أكمـل كـونت طولوز الآن أعماله في البـلاط، وبإذن من الامبراطور، بادر بأقصى سرعة ممكنة نحـو نيقية، حيث التحق مع قواته بجيش الحصار الصليبي.

كيف قدم الدوق روبرت إلى حصار نيقية

وسمع الآن روبرت دوق نورماندي بأن مدينة نيقية محاصرة من قبل الصليبيين، الذين ذهبوا قبله، فدعا إليه رفاقه بالسلاح، ومآأن أعدّ أثقاله، حتى توجه إلى جانب البحر، وكان متشوقاً لتعويض الوقت الذي أضاعه في أبوليا، فعبر من خلال ايليريا، ومقدونية، فتراقيا من دون معيقات، ووصل إلى القسطنطينية، وهنا استقبل من قبل الحضرة الامبراطورية، وأدى مع النبلاء الآخرين الذين قدموا معه يمين الولاء الذي عُرض عليهم، ولهذا السبب لاقوا معاملة أفضل وحظوة أعظم، وشرفوا بالهدايا، والذهب، والملابس الثمينة، والأواني من أجمل المصنوعات، وأثمن المواد، مع أثواب من الحرير الخالص، ممالم يسمع بمثل قيمته، ومما لم يشاهدوا مثيله من قبل، والذي سبب دهشة كبيرة جداً للذين تسلموهم، لأنهم تفوقوا على جميع مارأوه من قبل، وحصلوا بعد هذا على إذن الامبراطور، فعبروا البوسفور، وساروا مع قواتهم إلى نيقية، حيث جرت تحيتهم بسرور من قبل الأمراء الذين تقدموا عليهم بالوصول، ونصبوا خيامهم بالأبهة الأعظم في ذلك المكان، الذي تركه الآخرون فارغاً من أجلهم، وبهذه الصورة، تشكل للمرة الأولى جيش واحد للرب من كتل متعددة من العساكر تكونت أعدادها من ستمائة ألف من الرجالة ومائة ألف فارس دارع، وقد أقام هؤلاء جميعاً طوقاً حول أسوار المدينة المتقدمة الذكر، مع تكريس تقوي للرب جميع ثمار أعمالهم الدينية.

المعركة بين الصليبيين والأتراك، التي انهزم فيها الأتراك

كانت نيقية مدينة كبيرة في بيثينيا، وكانت فيها وفرة من جميع أنواع الثروات، وكان صاحبها زعيم تركي قوي جداً اسمه[السلطان قلج أرسلان بن] سليمان، وكان معنى اسم سلطان بالفارسية« ملك»، وقد حكم جميع المنطقة المجاورة، وكان أجداده قد كسبوا هذه المنطقة من

الامبراطور الاغـريقي رومـانوس، الـذي حكم في الطبقـة الثالثـة قبل ألكسيـوس، وأوصلوهـا إلى[قلج أرســلان بن] سليمان هـذا مع جميع المقاطعـات من طرسوس في كيليكيـة حتى البوسفـور، وعلى هذا كانت سلطتـه قـد وصلت حتى ضـواحـي القسطنطينيـة، وجمع رجـاله الجزية والضرائب من جميع هذه المناطق لصـالح سيدهم ولاستخدامـاته، وكان [قلج أرسـلان بن] سليمان نفســه معسكراً مـع حشـد كبير من الرجـال المسلمين بين الجبـال المجـاورة، وذلك على بعـد ليس أكثـر من عشرة أميـال، وقد تفكر حـول أفضل طريقـة يمكنه بها أن يخلص مدينتـه من الحصـار المقـام حـولها من قبل الصليبيين، ولكي يرفع مـن معنويات المحـاصرين بعث بـرسـولين تمكنا من شق طريقهما إلى المدينة بـوسـاطة قـارب من قـوارب البحيرة، وبذلك أوصلا أوامـره، لكن واحـداً منهما أسره الصليبيون، وجرى قتل الآخـر، وجرى استجواب الأسير، وأرغم على الاعتراف، ومنه عرفـوا بأن[قلج أرسلان بـن] سليمان سوف ينزل من الجبال في اليوم التالي، وسـوف يحاول رفع الحصار، وبناء عليه، ظهر السلطان في حـوالي الساعـة الثالثـة من اليـوم التالي في السهل، كما كـان الأسير الرسول قد أخبرهم، وكان على رأس خمسمائة ألف رجل.

وأرسل أولاً عشرة آلاف فـارس لمهـاجمة كـونت طولوز، الذي كـان معسكراً أمـام البـاب الجنوبي، وقـد تلقاهم الكـونت بشجاعـة، وصـد الهجـوم، وكانوا على وشك التفـرق، عندمـا قدم السلطان مع مـزيد من العسـاكر العـديدة، فأعاد تجميع المنهـزمين، وأرغمهم ثانية على الهجـوم معــه، والقتــال مع رجــالنا، ولدى رؤية الدوق غــودفــري، والأمير بوهيمـوند، وكونت فـلاندرز مع أتباعهم— وكـانوا مسلحين ودارعين تماما— بأن رجـال الكونت قد ضغط عليهم بشـدة، حملوا على الأعداء بنشـاط، وبعـدمــا قتلوا خمسـة آلاف منهم، وأخـذوا عــدداً قليـلاً من الأسرى، أرغمـوهم على الفـرار، وهكذا حصل رجـالنا على أول نصر،

وتابعوا الحصار مع عساكرهم، وقد صفوهم حول المدينة وفق النظام التالي: كان عند الباب الشرقي الدوق غودفري مع أخويه ورجالهم، وكان عند الباب الشمالي الأمير بوهيموند، وتانكرد وأمرائهما الآخرين، أما الباب الجنوبي فقد عين للكونت ريموند وأسقف لى بوي، أما الباب الغربي فقد أوكل إلى روبرت دوق نورماندي وكونت فلاندرز مع أتباعهما، وبذلك أغلقت المدينة من كل جانب، ولم تشهد الشمس من قبل جيشاً مجيداً مثل ذلك الجيش الذي وقف من حول الأسوار، وقام رجالنا بقطع رؤوس القتلى، ورموا بهم بوساطة مناجيقهم إلى المدينة حتى ينزلوا الهلع في قلوب المحاصرين، وجرى ارسال ألف من هذه الرؤوس مع عدد منتخب من الأسرى، إلى القسطنطينية هدية إلى الامبراطور.

كيف جرى لغم أحد الأبراج واسقاطه

وقرر الأمراء بعد هذا استخدام الأساليب العملية والآلات الأخرى لتهديم أسوار المدينة، وبناء عليه بدأ الحرفيون بالقيام بأعمالهم، واهتزت المدينة بالضربات المتوالية، لمدة سبعة أيام، حيث حدث إثر ذلك في اليوم الأول، أن الهجوم كان كالمعتاد، وباصرار، ووقتها حلت كارثة برجالنا، حيث فقدوا اثنين من النبلاء هما: بلدوين كالدرون Calderon ، وبلدوين أوف غنت Ghent ، فقد أصيب الأول بصخرة، وأصيب الثاني بنشابة، وحدث ذلك عندما كانا يقاتلان بشجاعة، ويهاجمان المدينة، وفي حملة أخرى تمت الموافقة عليها من قبل مجلس الأمراء، جرى قتل كل من الكونت وليم دي فوري Foreis، وغالو دي لآيل Galo de lisle ، بنشابتين، وأصيب أيضاً غي دي بوسيس Possessa بمرض حاد، مات منه، وحدث في يوم آخر، والأمراء جميعاً يستخدمون آلاتهم بنشاط عظيم ضد الأسوار، أن قام الكونت هيرمان، وهنري دي أسكى Asche ، وكانا من النبلاء

الألمان، بتركيب آلة غـريبـة صنعـاهـا ببراعـة كبيرة، وحـوت هذه الآلة عشرين فـارساً، وقد دفعـا بها حتى الأسـوار، ولقد كان المدافعـون من الشجاعة والبراعة بمكان، حيث حطمـوا الآلة بحجرة كبيرة رموها من الأعلى، وقد هلك جميع الذين كـانوا في داخلها، وتابع الآخرون— على كل حـال— الحصار من دون توقف، وكـرروا الحملات، ولم يسمحـوا للمحاصرين بدقيقة راحة.

وكـان العائق الأكبر الذي وقـف في وجه الجيش بحيرة كبيرة كـانت متصلة بالمدينة، فبـوساطتهـا امتلك الأعداء امكانات الاتصـال من دون عــوائق، وأحضروا كثيراً من المؤن، مما أحبط كثيراً أعمال المحــاصرين، ولكي يتخلصوا من هذه المشكلة، جلبوا سفناً إلى البحيرة، ووضعوا على ظهرها رجالاً مسلحين، وبهذه الواسطة انقطعت الامدادات عن المدينة، وكان هناك أيضـاً برجاً على الجهـة الجنوبية من المدينة، أعلى وأقـوى من الأبراج الأخرى، وعندما وجد الصليبيون أن الوسائل التي استخدموها للاستيلاء عليـه قد أخفقت، قرروا ترتيب رجالاً للغمـه، وبهذه الطريقة أمكنهم بعـد جهـد كبير، سحب جميع الأحجـار من الأساسـات، وقـد وضعوا مكانهم قطعاً من الخشب، وبعد ذلك ألقوا النار بين الأخشاب، فــاحترقت، وتهاوى البرج مع صــوت هائل ومــرعب، وكأن الأرض أصيبت بـزلزال، فقــد أصيبـت قلوب جميع الذيـن سمعــوه بالـرعب، ولاسيما سكان المدينة الذين ارتعـدوا رعبـاً لسقوطه، وهنا لدى صـدور هذه الإشـارة هبت عسـاكـر الصليبيين إلى السـلاح، وشجعـوا بعضهم بعضاً للاستعداد للزحف إلى داخل المدينة.

الاستيلاء على نيقية وإعطاء هذه الغنيمة إلى الامبراطور

وأصيبت زوجة السلطان بالرعب نتيجة لسقوط البرج، ولم يعد لديها أمل، ولذلـك حــاولت النجــاة بشكل سري والفـــرار من المدينة عبر البحيرة، لكن رجـالنا الـذين كـانوا على ظهـر السفن يتـولـون مـراقبـة

البحيرة، استطاعوا أسرها، وقد حملوها إلى أمام الأمراء، وأسروا معها ولديها، وكانا مايزالان صغيرين، وقد وضعا الآن مع أمهما في سجن محكم، وركز الدوق اللامع غودفري اهتمامه على واحد من الأتراك، كان قد قتل عدداً كبيراً من رجالنا بسهامه، وفضلاً عن ذلك تولى شتم الأمراء من فوق الأسوار، وقد تربص فيه فرصته، وعندما توفرت رماه بسهم أصابه به في جبينه، فسقط الرجل ميتاً، ووقع من فوق السور في الخندق، ونهض الجميع الآن للقيام بالهجوم، وزحفوا للقتال ضد المدينة، وكان ذلك لدى سماعهم صوت الأبواق والنفر، وامتلأ الهواء بالضجيج، وبالنشاب، وبالحراب المتطايرة، والحجارة، وقطع الأخشاب، إنما دون أن تؤثر شيئاً على المحاصرين، ذلك أن سلاحهم وشجاعتهم ازدادت وكذلك كان نشابهم أكثف بالتساقط من ذي قبل، ومع ذلك كان عبثاً ذلك كله، ذلك أنهم أرغموا أخيراً على الاستسلام، وقد سلموا المدينة إلى تاسينوس Tacinus ، وكان ضابطاً لدى الامبراطور الاغريقي، وجاءت هذه الترتيبات متماشية مع موافقة الأمراء، الذين كانت لديهم أهدافاً عليا نحو ذلك، فذلك كان متوافقاً مع الاتفاقية التي دخلوا فيها، وتسلم الحجاج على كل حال واستردوا جميع عبيدهم، وكذلك أسراهم الذين أخذوا من قبل السكان أثناء الحصار، ومثلهم الذين كانوا من جيش بطرس الناسك، حسبما تحدثنا من قبل، ثم أرسل الأمراء رسائل إلى الامبراطور يحثونه بها على أن يبعث بعدد كاف من ضباطه لحراسة المدينة، وبسرور وفرح بعث الامبراطور بعضاً من وزرائه المعتمدين لتسلم المدينة مع جميع مقتنيات الأسرى من ذهب وفضة مع جميع الأشياء المنقولة، وأرسل مع الرسل الذين قدموا إليه هدايا كبيرة لكل واحد من الحجاج، محاولاً بوساطة كل من الرسائل وكلمات الفم الحصول على رضاهم جميعاً، وقدم لهم امتنانات وافرة على الخدمات والأعمال التي قدموها، والاضافة العظيمة التي صنعوها لممالكه. وكان قد جرى الاستيلاء على نيقية في الحادي

والعشرين من شهر حزيران، في سنة ١٠٩٧ لتجسيد ربنا.

كيف تابع الصليبيون زحفهم والنصر المفجع الذي نالوه

أما وقد انتهى الحصار، استأنف الجيش الصليبي زحفه، وجاء ذلك بناء على أوامر الأمراء، وكان ذلك في التاسع والعشرين من حزيران، وبعد عبورهم لأحد الجسور، قسموا جيشهم إلى قسمين، فقد سار على جهة اليسار: الأمير بوهيموند، وروبرت دوق أوف نورماندي، وستيفن كونت أوف بلوا، وهيوج دي سينت بول، وتانكرد، وقد وصلوا إلى واد اسمه غورغوني Gorgoni، وسار البقية على جهة اليمين، وأكملوا نهار زحف، ومع ذلك لم يكونوا على مسافة تتجاوز الميلين عن المكان الذي عسكرت فيه الكتلة الأخرى، غير أن السلطان الذي لم ينس الأذى الذي تلقاه، ظهر في اليوم التالي، في حوالي الساعة الثانية من النهار مع حشد كبير من الأتراك قيل تجاوز عدده المائتي ألف.

وجرى انذار جيشنا، ووصله خبر اقترابهم من قبل الكشافة، ولذلك وضع أثقاله وعرباته والمرضى، إلى جانب سبخة قصبية كانت قائمة بالقرب، وأعد جنودنا أنفسهم للقتال، وأرسلوا رسلاً إلى رجال الشطر الآخر، الذين بحماقة افترقوا، وشكلوا فريقاً مستقلاً، وحثوهم على القدوم بكل سرعة إلى مساعدتهم، وبدأ في الوقت نفسه الجند الصليبيون يعانون بشكل مرعب، لأن خيولهم لم تكن معتادة على الجلبة التي أحدثها الترك، فقد كانت زعقات أبواقهم وأصوات كوساتهم تمنع الخيول عن الاطاعة والتقدم، ولذلك أرغموا على التراجع، وشاهد هذا روبرت اللامع، كونت نورماندي، وكان واصلاً نحوهم، فصرخ بصوت مرتفع:« إلى أين أنت فارون ياجند؟ إن خيول الأتراك أسرع من خيولنا، ولذلك ليس مجدياً الهرب والابتعاد، ومن الأفضل الموت من أن نعيش مع العار، أقبلوا يارجالي الشجعان، وافعلوا كما أفعل، واتبعوني»، وماأن فرغ من كلامه حتى حمل على تركي فطعنه فخرق

ترسه ودرعه برمحه، ثم طعن ثانيا، وأتبعه بثالث بالطريقة نفسها، وذلك بدقيقة واحدة، واسترد الصليبيون شجاعتهم، وأعقب ذلك صراع مميت، وقد تم قتل اثنين من أمرائنا في هذه المعركة، فقد هاجم وليم — أخوتانكرد — أميراً تركيا، وقد طعن كل منهما الآخر برمحه، وأصيب غودفري، دورمونت Durmont بسهم قاتل، عندما كان يقطع رأس تركيا، وتم قتل الكونت روبرت أوف باريس بطريقة مماثلة، وجرى قتل ألفين من الحجاج، وصدت عساكرهم، لكن عندما كانوا في هذا الوضع اليائس، قامت المجموعة الأخرى، التي قادها غودفري، وكانت مشكلة من أربعين ألف رجل مسلح، بالانقضاض بشكل مفاجىء على الترك، الذين اعترتهم الدهشة لدى رؤيتهم قدوم جيش جديد، وارتقبوا وكأن السماء وقعت عليهم، ولذلك انهزموا مع قائدهم السلطان.

وطاردهم الصليبيون من دون توقف، ولذلك تغطت الأرض لمسافة أميال عن المعسكر بجثث قتلاهم، وقد عادوا إلى معسكرهم جالبين معهم الذين أخذهم الترك أسرى، في بداية القتال، وقد وجدوا هناك كميات وافرة من الذهب والفضة، والأمتعة، والخيول والقطعان، والأغنام، والمؤن من كل نوع، وسرادقات، وخيام، وخيول وأغنام، وقد أخذوا هذا جميعه إلى معسكرهم، ولقد قيل بأنه سقط في تلك المعركة من جانب الأعداء ثلاثة آلاف من رجاله الأشداء ومن أعيانهم، وجرت هذه المعركة في اليوم الأخير من حزيران، مع عدم تكافؤ كبير في القوى، لأن الترك كانوا مائة ألف وخمسين ألف رجل، في حين وصل تعداد جيش الصليبيين إلى خمسين ألفاً فقط.

كيف تابع الحجاج زحفهم من نيقية إلى أنطاكية خلال المناطق التي أخضعوها

وبعد استراحة ثلاثة أيام، كانت ضرورية لهم أنفسهم ولخيولهم،

اجتـاز الجيش جميع منطقة بيثينيـا، ثم دخل إلى بيثيديا، ونزل بعـدها إلى سهل وعر جـاف، حيث لم يستطيعوا الحصـول على أية مياه، وعسكروا هناك، وعـانى الناس كثيراً إلى حـد أن أكثـر من خمسمائـة منهم مـاتوا، وأخيراً عندمـا تمكنوا من تخليص أنفسهم من هذه المصيبـة، دخلوا إلى منطقة خصبة على مقربة من أنطاكية الدنيا، التي هي العاصمة في بيثينيا، وهنا قسموا قواتهم ثانية، ووزعوا أنفسهم على جميع المناطق للاستطلاع، ولجلب المعلومـات التي يمكنهـم الحصـول عليهـا إلى أمـرائهم، وكـان هؤلاء بعدمـا غادروا المعسكر، اجتـازوا هرقلية، وهي مـدينة في ليكونيا وذهبوا إلى قـونية التي هي عـاصمة هذه المنطقـة نفسها، وقـد وجدوها مهجورة كليـاً من السكان، لأن الأتراك عندما سمعـوا بقدوم الصليبيين تركوا مدنهم وقلاعهم، ولم يتجرأوا على الدفاع عنهم بالسلاح.

ولنعلم أن كيليكيـة تحد سـورية المجـوفـة من الشرق، في حين تحدها ايزوريا مـن الغـرب، وهنـاك في الشمال تحدها طرسـوس، وفي الجنوب بحـر قبرص، وهي لها عـاصمتين هما مـدينتي: عين زربة، وطرسـوس، التي هي مسقط رأس بولص، معلم الأمم، وأخضع هذه المدينة بلدوين أخـو الدوق غـودفري، واستـولى روبرت، دوق نورمـاندي على مـدينة اسمها (بارتزرابرت؟) Azen وأعطاها إلى سيمون الذي كان واحداً من فـرسـانه، واستـولى الأمير بوهيمـونـد مع ايرل ريمـوند على مـدينة أخـرى أعطياها إلى بيتر دي ألبيبـوس Alpibus ، ثم إنهم زحفوا إلى مـدينة كـوكسون التي استـولوا عليهـا، واستـولى بيتردي روسيلون على الروج مع عدة قلاع، واستولى بيرغندي اسمه غولف Guelf على مدينة أذنه، وبترحـاب استقبـل تانكرد عندمـا وصل إلى هناك، وتـابع تانكرد زحفه من هناك فوصل إلى المصيصه، حيث قتل الأتراك وأخضع المدينة، ومن هناك زحف إلى الاسكندرية الصغرى، التي استـولى عليها، وجعل المنطقة كلها خاضعة له.

واستأنف بلدوين— أخو غودفري— حملته، وأخضع المنطقة كلها الممتدة حتى الفرات، وانتشرت شهرته، ووصلت إلى الرها فيما وراء الفرات، ولدى سماع سكانها بوصول مثل هذا القائد اللامع من بلاد الغرب، دعوه بتواضع للقدوم ليكون بينهم، وليستولي على حكم المدينة، ومدينة الرها، وهي التي تعرف أيضاً باسم راغس Rages ، هي مدينة فخمة في الجزيرة، فإلى هذا المكان كان توبت الكبير قد أرسل ابنه توبت الأصغر، ليسترد العشرة أرطال (من الفضة) من قريبهما غابل Gabel، وبناء عليه إلى هذه المدينة ذهب بلدوين، وقد استقبل من قبل حاكمها وشعبها بتمجيد وتشريف، وذهب من هناك إلى سميساط، وعندما وجد أنه لايمكنه الاستيلاء عليها بقوة السلاح، اشتراها بمبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب من حاكمها، وأضافها إلى ممتلكاته، وكانت سروج المدينة التالية على طريق زحفه، فحاصرها واستولى عليها.

وبات الطريق كله مفتوحاً لكل من يرغب بالذهاب من الرها إلى أنطاكية، وفي الوقت نفسه زحف الجيش الأساسي إلى مرعش، التي أخلاها الأتراك لدى وصوله، ولم يتركوا فيها سوى الشطر المسيحي من السكان، ومن هناك أرسلوا أمامهم روبرت دوق نورماندي مع كونت فلاندرز إلى أرتاح، التي ماأن سمع سكانها بقدوم الصليبيين حتى ثاروا على الترك، الذين استبدوا بهم منذ أمد طويل، وقتلوهم جميعاً، وألقوا برؤوسهم إلى خارج أسوار المدينة، وهي تبعد خمسة عشر ميلاً عن أنطاكية، وتعرف هذه المدينة أيضاً باسم قالي— قلا(كليكية)

حول عبور أحد الجسور وحصار أنطاكية

وجرى الآن استدعاء جميع فرق الجيش المتفرقة إلى الاجتماع والاحتشاد معاً، وعندما اجتمع الجميع، صدر إعلان بمنع تفرقهم ثانية، وزحفوا في الصباح التالي نحو أنطاكية، وكان طريقهم عبر العاصي،

الذي يعرف أيضاً باسم فرفر، وسمعوا هناك أنه سوف تكون هناك صعوبات كبيرة في عبور الجسر، ولذلك أرسلوا أمامهم روبرت دوق نورماندي مع قوات خفيفة، ليتقدم وليستطلع الطريق، وليعرف هل هناك من معيقات يمكن أن تقوم حتى يتصدوا لها، وبناء عليه تابع الدوق المذكور زحفه حتى وصل إلى الجسر المذكور، وكان مبنيا من الحجارة مع برجين قام واحد منهما عند أحد مدخليه، وكان فيه مائة من الرجال الشجعان، والبارعين في استخدام القوس العقار، قد تمركزوا لمنع أي انسان من عبور النهر سواء عبر الجسر، أو عبر المخاضة، فضلاً عن هذا قدم من أنطاكية سبعمائة فارس، تمركزوا فوق الجهة المقابلة من النهر لمنع رجالنا من العبور، بقدر مالديهم من قوة، وعندما وجد الدوق روبرت أنه لن يستطيع عبور النهر، ونتيجة لمعارضة القوات التي تقدم ذكرها، نشبت معركة حامية الوطيس، وقد استمرت حتى وصول الكتلة الأساسية من الجيش، ووقتها زعقت البوقات، وهاجم الصليبيون الجسر، وطردوا المدافعين، بينما بحث الآخرون عن مخاضه، وأوقعوا الهزيمة بالأعداء، واستولوا على الشاطىء المقابل، وعندها عبر الجيش كله، ثم توقف هناك لتمضية الليل، وتابعوا في الصباح التالي سيرهم، عبر الطريق العام، وكان ذلك بين الجبال والنهر، وعسكروا أمام المدينة، على مسافة أقل من ميل عن أسوارها.

وأنطاكية مدينة واسعة الشهرة، وقد نالت اسمها من أنطوخيوس ابن الاسكندر المقدوني(كذا) وهو الذي اتخذها عاصمة لمملكته، وفيها وضع فيها بعد أمير الرسل كرسيه الأسقفي، وكان ذلك تحت رعاية ثيوفيلوس Theophilus المبجل، الذي كان الرجل الأقوى بين سكانها، ومنه عرفت بعد ذلك باسم ثيوفيليس Theophilis، وكان اسمها في العصور القديمة ربلة(كذا)، فهنا جلب صدقيا ملك يهوذا ليمثل أمام نبو خذ نصر، ثم حرم من بصره، وهي قائمة في سورية المجوفة، التي

هي منطقــة في سـورية، وهي مشهــورة، لخصـوبـة أرضهـا، ولجداولها الجميلة، وينابيعهـا الرائعة، وكـان صـاحب المدينة رجلاً اسمـه يغي— سيـان، وكـان تركي الأصل، ومن أسرة السلطان الكبير لفـارس، الذي اسمـــه بـركيـــاروق Belfecho ، وكان قد طرد جميع المسيحيين، وأخضع جميع هذه البلدان إلى سلطانه.

وبناء عليـه قـرر أمـراء الغـرب، إلقـاء الحصـار على هذه المدينة، وفي الثـامن والعشريـن من تشرين الأول نشروا جيشهم وأحـاطـوا بأسـوار المدينة، وكان هنـاك خمسة أبواب للمدينة، اثنـان منها لايمكن اغلاقها بسبب تدفق مياه النهـر خلالها، ولذلك ترك العدو هذين البـابين وركز اهتمامـه على الأبواب الثلاثة الأخـرى، وتولى الحملة على البـاب الأعلى بوهيمـوند والذين تبعـوا رايته منـذ البداية، ثم قـدم إليـه روبرت دوق نورماندي، وكونت فلاندرز مع رجالها، وقد التحقا بمعسكر بوهيموند قـرب باب الكلب، وتلا هؤلاء كـونـت طولوز، وأدهمر أسقف لى بوي وذلك مع النبلاء الآخرين الذين سـاروا تحت رايتيهما، وكان بعد هذين الدوق غـودفـري مع أخيـه يوستـاس، وبلدوين مع كثير من العسـاكـر الأخرى التي تبعته لأنه قائدها.

كيف قتل بوهيموند كثيراً من الترك لدى بحثه عن المؤن

وهكذا وضعـت المدينة تحت الحصـــار، ووضعـت الآلات في مختلف الأمـاكن، وضمت هذه الآلات، المجـانيق، والعـرادات، وآلات الرمي الأخرى، التي قـذفت بحجارة كبيرة إلى المدينة، مما قـذف رعباً كبيرا في قلوب السكان، كما أنهم شيــدوا قـــلاعـــاً خشبيـــة ذوات حجم كبير، ووضعـوا في أعـلاها رمـاة قسي الزنبـورك، حيث تولوا رمـاية السهـام المحترقة، والمسمومة، وقام الأتراك من جانبهم ببناء آلات مقابلة، ورموا مقـابل كل حجرة حجـرة، وكل سهم سهم، على الحجـاج، حتى مضى بعض الوقت، وقــد جـرى قتل عــدد كبير من على الطرفين، وبشكل

خـاص من بين الذين خرجـوا يمتـارون، ذلك أنهم بدأوا يحتاجـون إلى الطعـام، وقـام الأمير بوهيمـوند، وكـونـت فـلاندرز، وروبرت، باجماع أصوات مجلس القادة، بالانطلاق لتـأمين الميرة، وقد سمعوا بأن الأتراك يمتلكون قلعــة ومـدينـة كبيرة مليئة بجميع أنواع الثـروات، وذلك في منطقة معـادية، وقد زحفـوا إلى هناك مع رجالهم، ومع أنهم كـانوا قلة، تمكنوا بإرادة الرب، من قتل أعداد كبيرة من الأعداء، وأخذوا كثيراً من الأسـلاب لاستعمالاتهم، واكتشفـوا وقتهـا، بوسـاطة طلائعهم، وجـود حشـد كبير من الأتراك ليـس بعيـداً عنهم، وأرسل بوهيمـونـد كـونت فلاندرز مع كتلة من الرجال لمواجهة هؤلاء الأتراك، ووعده بأنه سوف يلحق به مع كتلة أكبر من الجند، وقام الكونت الذي كان رجلاً شجاعاً بمهاجمة الأعـداء بنشاط، وقتل مـائة منهم، وفيما هو عـائد إلى المعسكر، أخبره جاسوس، بوجـود قوة أعظم تزحف على الجانب الآخر، وهاجم الحجـاج على الفور هؤلاء بشـدة أعظم، وبفضل الرب هزموهم جميعـاً، وطاردوهم لمسـافة ميلين محدثين فيهم مـذبحة كبيرة، وهكذا عـادوا إلى المعسكر منتصريـن، مع خيـــول، وبغـــال، وجمال، وحمير، ومـــواشي، وأسلاب كثيرة كانوا قد جمعوها.

وامتـلأت الحقول من حـول المعسكر، والأمـراء الذين كانوا يعـانون كثيراً من العوز، تحمسـوا الآن مع بهجة وسرور، لكن مـع أن الأسلاب كانت كبيرة، إنها لم تكن كافية لتـزويد ذلك الحشد الكبير لأكثر من أيام قليلة، وخـلال وقت قصير بدأت المجـاعـة تنتشر في المعسكر، وعـادت أعـداد هـائلة من الجنود نحـو أوطانها بشكل سري، ناسيــة تعهـداتها وإيمانها، وكــــان بين هؤلاء تـاسينوس، الوزيـر البــــارع والأثير عند ألكسيوس، ذلك أنه خشي أن الحجاج سوف يعملون بشكل استبدادي، وقد ترك أسرته خلفه في خيامهم، ليخفي خيانته، ذلك أنه غادر ولم يعد مطلقاً.

وفي هذه الآونة حمل سوين Swain ابن ملك الدانمارك شارة الصليب، وعندما كان على طريقه للمشاركة بحصار أنطاكية مع ألف وخمسمائة من الرجال المسلحين بشكل جيد، فوجىء بكمين تركي، ليس بعيداً عن نيقية، وقد قتل مع جميع رجاله، وبسبب مقاومتهم الشجاعة، جرى الانتقام لمقتلهم بشكل نبيل، ودفع العدو ثمناً باهظاً لانتصاره.

كيف تأثر الحجاج بالمجاعة وبالوباء وعانوا منهما

باتت في هذه الآونة المجاعة بين الصليبيين كل يوم أكثر فأكثر، وتبعها الوباء، وعين أسقف لي بوي— الذي كان نائب البابا في المعسكر— صوماً لمدة ثلاثة أيام فرض على جميع الناس الأخذ به، ومراعاته، لأن الرجال الأكثر حكمة وعلماً بين الناس، قد اتفقوا على أن ذنوبهم كانت السبب في معاناتهم، كما أنهم أمروا بإبعاد جميع المشردات من الإناث من الجيش، مع عدم التسامح مع السكر، والعربدة، أو النرد، أو الأيمان الكاذبة، وجرى تحريم جميع أعمال الغش والخديعة والتصرفات الشائنة، وجرى تقديم صلوات خاشعة، من أجل أن تتطلع الرحمة الربانية إليهم وتنزل عليهم، وهكذا بفضل نعم الرب الوافرة، عاد الناس إلى الطريق الأقوم للحياة، وخمد غضب الرب قليلاً، لأن الحجاج كانوا قد ارتعبوا إلى أبعد الحدود عندما علموا بوجود جواسيس في المعسكر، من كل الشعوب في الشرق، وهم من غير المؤمنين، وبات كل رجل في المعسكرقلقاً ليعرف كيف يمكنه الدفاع عن نفسه ضد أعداد هائلة من المقاتلين، من الممكن أن تزحف ضدهم.

هذا وكان من السهل بالنسبة للجواسيس البقاء غير مكشوفين في المعسكر، داعين أنفسهم بأنهم تجار من بلاد الاغريق، أو من سورية، أو من أرمينية، جلبوا مؤناً لبيعها للجيش، ونظراً لأن هؤلاء الجواسيس كانوا شهوداً على المجاعة والوباء اللذان انتشرا في المعسكر، خاف الحجاج بالفعل من قيام هؤلاء الجواسيس بالانتشار بين الشعوب، الأمر

الذي سوف يغريها للقدوم مع القوات لتدميرهم جميعاً، واحتار الأمراء ولم يعرفوا العلاج الذي ينبغي استخدامه ضد هذا الشر، لكن بوهيموند عرف كيف يتصرف، ذلك أنه كان رجلاً ذكياً، فعند حلول المساء من الليلة التالية، عندما كان رفاقه جميعاً منشغلون في جميع أرجاء المعسكر، بإعداد الطعام لعشائهم، أمر باحضار عدد من الأتراك، كانوا لديه في السجن، وأمر بقتلهم، ثم بشي أجسادهم فوق نار كبيرة، لإعدادهم من أجل المائدة، فضلاً عن هذا، أمر خدمه أنهم إذا ماسئلوا عما كان يحدث أن يجيبوا أن أوامر عامة قد صدرت، تقضي أنه منذ الآن فصاعداً، بتقديم جميع الأتراك الذين سوف يجلبهم الكشافة أسرى، ليكونوا طعاماً لكل من الأمراء والناس عامة.

وسمع الجيش كله أخبار هذا العمل المدهش الذي قام به الأمير بوهيموند، فركضوا جميعا ليتعرفوا على الأخبار، واعتقد الجواسيس الأتراك الذين كانوا في المعسكر، بأن هذا العمل كان عملاً جاداً، لارجعة فيه، ولذلك خافوا من أن يحدث الشيء نفسه لهم أنفسهم، ولذلك غادروا المعسكر، وعادوا إلى بلدانهم، حيث أخبروا سادتهم بأن رجال جيشنا كانوا شرسين جداً، مثلهم مثل وحوش الغابة، ولايقنعهم اخضاع المدن والقلاع، والاستيلاء على أسلاب أعدائهم، وهم لايكتفون بتعذيب أسراهم وقتلهم، بل يقومون بملء أجوافهم من جثثهم، وهم يتغذون على دماء ضحاياهم، وانتشر هذا الخبر ووصل إلى أقصى مناطق الشرق، وأرعب البلدان النائية جداً، واضطربت أنطاكية لسماعها أخبار هذه الفعلة، وتجلت رحمة الرب نحو شعبه بفعل حماسة الأمير بوهيموند، وبهذه الوسيلة توقف إلى أبعد الحدود الخوف من الجواسيس.

شفاء الدوق غودفري من مرضه وسبب مرضه

وكان هناك سبب آخر لسرور الجيش هو شفاء الدوق غودفري،

الذي كـان في تلك الآونة قـد استرد صحتـه من مـرض شـديد، لأنهم عندما كانوا في أنطاكية الصغرى أصيب بجراحة كانت قاتلة تقريباً، وقد أصيب بها من دب، فقـد ذهب الدوق إلى الغـابة بقصـد الاستجمام، فوجد حـاجا مسكينا يحمل خشبا جافـاً، مهاجماً من قبل دب، وكان غير قـادر على الدفـاع عن نفسـه، لذلك ركـض هارباً وهو يدعـو بصـوت مرتفع للنجدة، وشـاهده الدوق، وهو يركض، ويصرخ بصوت مرتفع، والدب قريـب منه وجاهز لإلتهـامه، فاندفـع نحو الحيوان، وهو شـاهر لسيفـه، لانقـاذ الـرجل المسكين، وعندمـا شـاهده الـدب، وهو يزحف نحـوه، وسيفـه مجرد مشهــور، ترك الحاج المسكين، وانقض على عـدوه الأعظم، وخاف حصـانه خوفاً شديداً، فترجل راكبـه، وتابع القتال على قـدميــه، وبصـوت مــرتفع وفكين مفتـوحين استخـف الدب بالدوق وبسيفه، وسعى للاشتباك معه، وعندما حاول الدوق طعنه بسيفه تجنب الدب رأس السيـف، وأمسك الدوق بمخـالبه الأمـاميـة، وحاول رميـه أرضـاً حتى يمزقـه إرباً إربا، غير أن الدوق الذي كـان قـوياً، وعسكرياً رياضيــاً، أمسك الدب بيــده اليسرى، وغـرس السيف بجســده حتى غمده، فألقاه ميتاً على الأرض، ونظراً لأنه أصيـب بجراحة بالغة، ولأنه تغطى بالدم، وللنزيف الكبير الذي عـانى منه، خارت قـواه، حتى أنه لم يعـد قادراً على العـودة إلى خيمته، ومـا أن تولى الحاج المسكين— الذي أنقــذ مـن الموت بتــدخل الدوق— نشر الخبر في المعسكـر حتى هبت العســاكر نحـوه، ووضعته على محفـة، وحملته وسط أسف عـام من قبل جميع الجنـود في المعسكر، حيـث حظي بعنايـة الجراحين حتى شفـي من جراحته، وبما أن هذه الحادثة وقعت في الآونة التي أشرنا إليها من قبل، لذلك توفر سرور عارم بين صفوف الجيش كله.

كيف جرت سيامة سامبسون أسقفاً لوركستر

وقـام في السنة نفسهــا، أنسلم رئيس أسـاقفــة كـانتربري بسيــامـة

سامبسون أسقفاً لوركستر Worcester، وكان ذلك في لندن، في كنيسة القديس بولص، يوم الأحد ٢٥ حزيران، وكذلك عمل رتشارد دي اسي Essaie راعي دير لكنيسة سانت ألبان الشهيد في انكلترا، وقد أدارها بأمانة لمدة اثنتين وعشرين سنة، أصلح خلالها الأوضاع الدينية داخل أسوار الدير، وأثراه في الخارج بالقلايات، مع ممتلكات الأراضي، والمقتنيات من كل نوع.

حول مقتل ألفي تركي

العام ١٠٩٨م: الحجاج منشغلون في حصار أنطاكية، وقد احتفلوا بعيد ميلاد الرب بشكل فخم جداً، مع قداسات دينية، وتقديم للصدقات، وفي الوقت نفسه كان أهل أنطاكية قلقين على مدينتهم، في وضعها الحرج آنذاك، ولذلك دعوا أمراء المسلمين، من القريب والبعيد، إلى عونهم، وبناء على طلباتهم الملحة بعث أهالي مدن: دمشق، والقدس، وقيسارية، وحلب، وحماه، وحمص، وبعلبك، ثمانية وعشرين ألفاً من المحاربين، وقد تجمعوا عند حارم، التي تبعد حوالى أربعة عشر ميلاً عن أنطاكية، وكانوا عازمين على الانقضاض بشكل مفاجيء تماما على الحجاج، في الوقت الذي يكون فيه هؤلاء منصرفين نحو الهجوم على المدينة، غير أن قادتنا وقد عرفوا بهذه النية المبيتة، تركوا رجالتهم يتابعون الحصار، وجمعوا جميع الفرسان عند أول الغسق، وغادروا المعسكر بصمت، وتوقفوا خلال الليل على بعد ميل واحدعن المعسكر المعادي، بين بحيرة وبين العاصي، وقد هبوا إلى السلاح في الصباح الباكر، ووزعوا قواتهم إلى ست فرق، لكل منها جرى تعيين قائد، وعرف الأتراك الذين لم يكونوا بعيدين بأن رجالنا كانوا على مقربة منهم، وقد أرسلوا سريتين من الجند نحو الأمام، في حين لحقوا هم بهم على مهل، وكان تعداد الصليبيين سبعمائة رجل فقط، إنما من القوة التي حصلوا عليها من علين، ظهروا بالنسبة لأنفسهم آلافاً كثيرة.

وأثناء زحف القـوات نحـو الأمـام من على الجانبين، حمل الصف الأول من الأتراك بشـدة متناهيـة على الصليبيين، واثقين أنهم بعـد اطلاقهم لنشابهم عليهـم سوف يكون بإمكانهم التراجع إلى عسـاكرهم، لكن رجـالنا تحملوا، ثم حملـوا عليهم بالسيـوف مجردة، ورمـاح مثبتـة، ودفعوهم حتى جعلوهم يتكدسون بين البحيرة من جهة وبين النهر من الجهـة الأخرى، ولذلك أعيق الأتـراك عن التحرك بحـرية هناك حسبما هي طريقتهم المعتادة، وعندمـا وجدوا أنفسهم غير قـادرين على التعامل مع الصليبيين في القتال، أخلـدوا إلى الفرار، لأنه كان الوسيلـة الوحيدة للنجـاة، وطاردهم الصليبيـون بشدة حتى معسكرهم، الـذي كان يبعـد عشرة أميال عن ميـدان القتال، ولدى رؤية سكان حارم للعساكـر وقد هزمـوا، وأن أكثـرهم صـاروا طعمـة للسيف، قـامـوا بإحـراق بلدتهم، وهربوا منهـا أيضـاً، وقـام الأرمن مع المسيحيين الآخـرين السـاكنين في تلك المناطق بالاستيـلاء على البلدة، وسلمـوها للصليبيين، وجـرى في ذلك اليوم مقتل ألفي رجل من الأعداء، وقدم رجالنا حمداً وافراً للرب من أجل نصرهم، ثم عـادوا إلى المعسكر، حـاملين معهم خمسمائـة رأس من القتلى، مع ألف من الخيول الرائعـة، وكميات هائلة من الغنائم، وفي الوقت نفسـه خرج سكان المدينة، وأغـاروا بشجاعة على رجـالنا طوال النهـار كله، لكنهم تـراجعـوا إلى داخـل المدينة لدى اقتراب الأمـراء، وعندما وصلت الفرقة المنتصرة إلى المعسكر، رمت بمائتي رأس تركي إلى المدينة، لإعـلام السكان بانتصـارهم، وثبتـوا البقيـة على عصي أمـام الأسوار، حتى يزيدوا بمشاهدتهم من آلام المحاصرين.

كيف جرى تدمير ثلاثمائة من الحجاج من قبل الترك

وبعدمـا عاد الأمراء إلى الحصار، قـاموا بهجوم عـام على المدينة، وقد جرت مـواجهتهم بكل شجاعة من قبل المحـاصرين، الذين قتلوا حامل علم أسقف لى بوي مع عدد كبير آخر، وأخيراً بعدما مضى على الحصار

خمسة أشهر، وصلت بعض المراكب الجنوية جالبة حجاجاً وميرة، ويعث البحارة بعدة رسل يطلبون من الأمراء قوة ترافقهم إلى المعسكر، ومنحت هذه الأخبار الرضا إلى الحجاج الذين كانوا منذ أمد يعانون من الحاجة إلى الطعام، ونزل عدد كبير منهم إلى ساحل البحر، حيث أنهوا أعمالهم واستعدوا للعودة ثانية إلى المعسكر.

وكان الأمير بوهيموند، وكونت طولوز، وايفرارد دي بوساكو Everard de Busaco وغارنر Garner كونت دي غري Gres، هم القادة الذي كلفوا بمرافقة الحجاج القادمين الجدد مع الآخرين الذين نزلوا لمقابلتهم، وعندما سمع أهل أنطاكية أخبار هذه الحملة أرسلوا أربعة آلاف من العساكر الخفيفة لإعتراضهم وتدميرهم، وبناء عليه عندما كان الحجاج الأدنى مرتبة— الذين لم يكونوا مسلحين— على طريقهم إلى المعسكر، مع المؤن على ظهور الخيول، خرج الأتراك من الكمين، وهاجموهم بفعالية، ودافع عنهم الأمراء لوقت طويل، لكن عندما رأوا أخيراً استحالة متابعة القتال ضد مثل ذلك الحشد الكبير من الأتراك، تراجعوا إلى المعسكر مع أكبر عدد أمكنه أن يلحق بهم، لكن العدد الأساسي من الحجاج، وكانوا حوالي ثلاثمئة من الجنسين، ومن جميع الأعمار، قد قتلوا في ذلك الاشتباك.

وفي الوقت نفسه وصلت أخبار إلى المعسكر بأن الحجاج الذين نزلوا لتوهم إلى اليابسة قد فوجئوا من قبل كمين نصبه الأتراك ، وأنهم جميعاً كانوا طعمة للسيف، وفي أثناء انتشار هذه الأخبار، دخل بوهيموند، يتبعه كونت طولوز إلى المعسكر، وشرحوا إلى الأمراء أخبار الحادث المشؤوم الذي حدث، وشاهد يغي سيان، حاكم المدينة، بأن رجاله قد انتصروا ولذلك أمر بفتح أبواب المدينة، حتى تتمكن القوات من الدخول بحرية لدى عودتها، لكن قادتنا كانوا تواقين للانتقام لدماء رجالهم، فحملوا السلاح، وبادروا مسرعين لمواجهة الأعداء، وانقضوا

بغضب وعنف على الأتراك، الذين تفرقوا وتبددوا خوفاً، وتصارع الفريقان في سبيل السيطرة على جسر المدينة، وتمكن الدوق غودفري دوق اللورين من مركزة رجاله على الجسر، وقام هؤلاء إما بقتل الأتراك، أو بصدهم وطردهم نحو الأمراء الذين كانوا يتولون مطاردتهم، وبذلك صاروا غير قادرين على مقاومة أي من الفريقين، ولم يستطيعوا بأية وسيلة الفرار، لهذا جرى تمزيقهم إلى إرب إرب، ورأى يغي سيان فرار عساكره، ولهذا فتح الأبواب لإدخال الذين بقيوا منهم أحياء على الأقل، ولذلك توفر هناك حشد كثيف فوق الجسر، ولذلك سقط عدد كبير جداً في النهر، وتمكن الدوق غودفري بقواه الذاتية، وبضربة واحدة، من قطع رؤوس عدة عساكر أتراك ورأى واحداً منهم وهو يحمل بشدة على رجالنا، فقطعه إلى قسمين، وهو لابس لدروعه، وهكذا سقط القسم الأعلى على الأرض، بينما بقي القسم الأسفل على ظهر الحصان الذي حمله إلى داخل المدينة، ذلك أن هذا الحصان اندفع يصهل ويشخر بين الأتراك، وكأنه مدفوع من قبل الشيطان، وقد أرعب الجميع بمنظر الجثة الفظيع فوق ظهره، وسدد روبرت دوق نورماندي ضربه مماثلة لتركي آخر، كان يتحارب معه، وكانت الضربة قوية إلى حد أنها نفذت من خلال الخوذة، والترس، والرأس، والأسنان والرقبة نزولاً حتى الصدر، وكان مثل شاة قطعت إلى قسمين من قبل الجذار، وعندما سقط إلى الأرض، صرخ الدوق بصوت مرتفع قائلاً:« إنني أوصي بروحك الدموية إلى جميع العاملين في جهنم»، فقد جرى في ذلك اليوم مقتل ألفين من الأتراك، ولولا قدوم الليل، لكانت أعمال أنطاكية قد وصلت إلى النهاية، وعلم رجالنا بشكل مؤكد من الأسرى، أن اثني عشر رجلاً من بين أعيان الأتراك قد سقطوا في هذه المناسبة، وقام سكان المدينة بدفن أجساد الذين قتلوا منهم أثناء الليل، لكن رجالنا نبشوا قبورهم وأخرجوهم ثانية، وجردوا هؤلاء الكلاب المدفونين من جميع الذهب والفضة والثياب الثمينة التي كانوا يرتدونها، وأعطوا

الجميع للاستخدام من قبل حجاجهم الذين كانوا فقراء.

كيف استولى الحجاج على ألفين من الخيول

بعد هذا النصر الذي أرسلته السماء، بنى الحجاج بعض المحطات الجديدة والآلات من أجل ازعاج المدينة، وسمعوا بأن سكان المدينة لديهم نقص بالأعلاف، لذلك أرسلوا خيولهم للرعي في مكان يبعد حوالي الأربعة أميال عن المدينة، فزحفوا مسرعين إلى هناك، وقتلوا الذين كانوا هناك مسؤولين، واقتادوا إلى المعسكر ألفين من الخيول الأصيلة، إلى جانب البغال من الجنسين، وحوالي الوقت نفسه، سمع بلدوين، أخو الدوق غودفري— الذي كان، كما روينا، قد تسلم حكم الرها— بأن الحجاج في عوز للضروريات فأرسل إليهم هدايا كثيرة، وذهباً، وفضة، وملابس حريرية، وخيولاً ثمينة، بها تحسنت أوضاع الأمراء كثيراً، وأرسل إلى أخيه غودفري أيضاً جميع موارد أراضيه قرب الفرات من حبوب وخمرة وشعير، وزيت، وذلك إلى جانب خمسين ألف قطعة من الذهب.

وفي هذا الوقت أيضاً جلب الجواسيس أخباراً إلى الأمراء، بأن سلطان فارس قام بناء على الطلبات الملحة من أهل أنطاكية، ثم بفضل تدخل رعيته، فأرسل إلى سورية جيشاً عظيماً، وأن هذا الجيش بات وشيك الوصول، وأرعبت هذه الأخبار الأمراء كثيراً إلى حد أن ستيفن كونت تشارترز، تظاهر بالمرض، فحصل على إذن من رفاقه بالمغادرة، وغادر مع أربعة آلاف رجل ولم يعد ثانية، واجتمع الأمراء الذين كانوا خائفين تمام الخوف من هذه الكارثة المقبلة، وتشاوروا حول العلاج المتوجب الأخذ به، قبل أن يقوم الآخرون باحتذاء حذو هذا المثل القاتل، ولذلك تقرر بالاجماع أن كل واحد سوف ينسحب من دون موافقة الأمراء ويترك المعسكر من دون إذنهم، سوف يعد مجرماً بتدنيس المقدسات، أو بالقتل، وهكذا حدث أنهم جميعاً، تعهدوا عن طواعية،

وأقسمـــــوا وكأنهم في الديـر، وربطوا أنفسهم على أن يكـونوا مطيعين للأمراء.

حول فيروز الذي خان أنطاكية

من المعروف أن الرحمة الربانيـة غالبـاً ماتقدم العـون إلى عبيد الرب، عندما تخفق جميع الوسائل الأخـرى، ولاتحيجهم للتعرض للمحنة فوق طاقتهم بالتحمل، فقــد كـان هناك في أنطاكيـة رجـلاً من أصل نبيل، وكـان متميزاً في ميـدان المسيحيـة، وكان اسمـه فيروز Emifer، وكان رجلاً صـاحب سلطان كبير ونفوذ لـدى يغي سيان، وكـان مسؤولاً في قصره عن ديوان الوثـائق(كـاتب بـالعـدل)، وكـــان مشهـوراً لنشـــاطه وحكمتـه، وكان هـذا الرجل قد سمـع بأن بوهيمونـد كان أميراً لامعـاً ومجيداً، ولذلك قام فور إلقاء الحصار على المدينة بإرسال رسل موثوقين لديه إليه لضمان صداقته وكان في كل يوم يفشي إليه بصورة الأوضاع في المدينة، وكان يبين له بشكل سري كيف عليـه أن يعمل، وقام بوهيموند من جـانبـه بإخفاء سر صـديقـه، بحيث لم يكن بإمكان الرسل من كـلا الجانبين تحصيل أية معرفة عن مراسلاتهما.

واستمـرت هذه الصـداقـة بينهما لمدة سبعـة أشهر، وكـان مـوضـوع مـــداولاتهما يتعلق بكيفيـــة الطريقـــة التـي يمكن بها إعـــادة المدينة إلى المسيحية، وغالباً ماطرح بوهيموند هذا السؤال على فيروز، الذي أرسل إليه ابنه يحمل هذه الرسـالة:« إنه إذا أمكن طرد الكلاب القذرين الذين نحن الآن تحت نيرهم من المدينة، واسترداد المدينة لحريتها القديمة، وإثر ذلك إعـادة اسكانها ثانيـة مـن قبل شعب الرب، إنني على يقين سـوف أنال جـائزة السعـادة الأبدية مع أرواح المبـاركين، وإذا لم أستطع الوفـاء بوعــدي، لاشك بأن بيتـي واسم أسرتي ســوف يمحى من الوجـــود، وبذلك لن يسمع به ثانية، وإذا— على كل حـال— تمكنت من الحصول على مـوافقـة حلفـائك، بأن المدينة حينما ستسلم إليك من قبلي، سـوف

تصبح ملكاً لك، إنني من أجلك سوف أكرس نفسي لهذه المغامرة، وإنني سوف أسلم إليك هذا البرج العظيم الحصانة وأضعه بين يديك، فهو ماأن تتملكه، سوف يستطيع الأمراء لديك استحواذ ممر مفتوح إلى أي جزء من أجزاء المدينة، وكن على يقين أن هذا إذا لم يفعل في يوم الغد، فإنه لن يفعل مطلقاً، لأن هناك مائتي ألف من الفرسان قادمين من جميع ممالك الشرق لمساعدة هذه المدينة، وهم الآن معسكرون على شواطىء الفرات».

وعندما سمع بوهيموند هذه الكلمات، رجع إلى المعسكر، ودعا إليه جانبا كبار الأمراء وخاطبهم قائلاً مايلي:« إنني أرى ياأصدقائي الأعزاء واخواني أنكم قلقون تجاه اقتراب كربوغا مع جيشه الهائل، الذي بعدما أمضى أسابيع في حصار الرها، هو الآن قادم لمساعدة أهالي أنطاكية، وبناء عليه، إنه يبدو لي أن علينا السعي للاستيلاء على أنطاكية، قبل وصول هذا الحشد، وإذا ماسألتم كيف يمكن فعل ذلك، أجيبكم بأن هناك وسيلة يمكن بها تحقيق رغباتنا، إن لدي صديقاً في المدينة، إليه موكل حفظ برج قوي، وقد تعهد بتسليمي إياه، متى سألته ذلك، وبناء عليه إذا كنتم ترون أن من الحكمة تسليم المدينة إليّ، لتكون ملكاً لي، وذلك إذا ماأمكن الاستيلاء عليها، إنني على استعداد لتنفيذ حصتي من الصفقة، لكن إذا كان لدى أي منكم اقتراح مخالف، أنا جاهز لإعطائه محلي، والتخلي عن دعواي».

حول الاستيلاء على أنطاكية وحول سلبها ونهبها

وعبّر المقدمون عن رضاهم الكامل وقناعتهم بهذه الكلمات، باستثناء كونت طولوز، وقدموا تعهدات مهيبة، بأنهم لن يخبروا بهذا السر أي انسان، وحثوا في الوقت نفسه بوهيموند على صرف عنايته القصوى نحو ضمان نجاح هذا المشروع، وارفض الاجتماع، وأخبر بوهيموند صديقه بأنه حصل على الشروط المطلوبة، وطلب منه ترجمة أقواله

وأفكاره إلى أفعـال في الليلة المقبلة، وقـام فيروز من جانـب آخر، بتنبيـه بوهيمـوند إلى وجوب مغـادرة جميع الأمراء المعسكر في حـوالي الساعـة التاسعة، وكأنهم ذاهبون لمواجهـة الأعداء، وأن يعودوا بشكل سري مع أول سـاعات الليل، حتى يكونوا في منتصـف الليل جاهزين للالتحـاق بالمغامرة.

وجرى تنفيـذ هذا كله، واقترب حلول منتصف الليل، وكانت المدينة وقتهـا كلها تغط بالنوم، عندها أرسـل بوهيموند واحـداً من خدمـه إلى صديقه ليسأله عما إذا كان يمكـن لحاشية سيده اظهار أنفسهـم؟ ووصل الخادم وسلم الرسالة، وعليها ردّ فيروز قائلاً:« اجلس هنا ولاتقل شيئاً حتى أعـود»، وقـد انتظر لبعض الـوقت حتى قـام رئيس الحرس الذي كان معتاداً على الطواف على الأسوار ثلاث مرات أو أربع كل ليلة، مع المصـابيح ليرى إذا كـان أحداً من الحراس نائماً، أثناء مـروره به، وبعـد ذلك بحث عن فـرصته فـوجـدها، فعـاد إلى الرسول وقـال له:« ارجع سريعاً وأخبر سيدك ليقدم إلى هنا مع عصبـة من الرجال المنتخبين بقدر مـا أوتي من سرعة»، وعـاد الرسول، فـوجد سيـده جاهزا مع الأمـراء، وكـان الجميع قد استعـدوا، وحضروا بأنفسهم كتلة واحـدة عند أسفل البرج، وكانوا بمثـابة رجل واحد، ودخل فيروز إلى البرج، فوجـد أخاه هناك نائماً، ولأنه كـان يعـرف أن عقله سـوف يكون مضـاداً لمثل هذه المغامرة، وخوفاً منه أن يقف عائقاً ضد نجاحها، طعنه حتى قلبه، وكان هذا عمـلاً صحيحاً، وفي الـوقت نفسه دمـوياً، ثم إنه ذهب ونظر نحـو الأسفل على الأمـراء، ورمى إليهم بحبل، به سحب إلى الأعلى سلماً من أجلهم من أجل الصعود عليه، وبعدمـا نصب السلم، مامن واحد منهم صعد عليـه، خوفاً من خيانة، وذلك دون الاهتمام بتحـريض بوهيموند، وعندمـا رأى بوهيمـوند ترددهم، تسلق على السلم بنفسـه مغامـراً بها، وأخذه فيروز بيده وسحبـه إلى البرج وقال له:« عاشت يمناك هذه»، ثم

اقتاده نحو الداخل، حيث كانت جثة أخيه ممدة، وأوضح لصديقه لماذا تولى قتله، واحتضن بوهيموند صديقه، وأطرى على ثبات موقفه ورأيه، ورجع إلى السلم، وحث رجاله على الصعود، لكن مامن واحد منهم رغب بالصعود، حتى نزل بوهيموند ثانية، وأعطاهم برهاناً واضحاً على أن كل شيء كان سليماً.

وصعد الرجال جميعاً بسرعة كبيرة، وامتلأ البرج بهم، ولم يقتصر ذلك على ذلك البرج بل امتد إلى أبراج مجاورة، حيث جرى احتلالها بسرعة، بعد قتل الحراس الذين كانوا بداخلها، وأخيراً فتحوا باباً سرياً، منه دخل جميع الأمراء الذين كانوا في الخارج ، وبهذه الوسيلة ازداد عددهم، فأغاروا نحو باب الجسر، حيث فتحوه بالقوة، وذلك بعدما قتلوا المدافعين عنه، وأدركوا الآن أن فجر اليوم قد دنا، ولذلك شرعوا يصدرون أصواتاً بالأبواق، وبالنفر لايقاظ الذين كانوا مايزالون في المخيم، ورفع علم بوهيموند وأخذ يخفق من فوق واحد من أعلى الأبراج معلناً بأن المدينة قد سقطت، واستيقظ السكان من نومهم، وتساءلوا عن هذه الضجة غير الاعتيادية وعن معانيها، وعندما— بعد أمد طويل— شاهدوا بأن جميع الشوارع تسيل بها الدماء، مع وجود رجال مسلحين في كل جهة، قاموا بمغادرة بيوتهم والتخلي عنها، وحاولوا الفرار مع زوجاتهم وأطفالهم، لكنهم تواجهوا في كل مكان مع تعاسة الموت.

وتطاير المسيحيون الذين سكنوا في أجزاء مختلفة من المدينة، إلى السلاح، والتحقوا بمحرريهم، وألحقوا خسائر كبيرة بالأعداء، ولقد فتحت جميع البيوت، واستبيحت بما كان فيها من سلع، وذهب، وفضة، وملابس ثمينة، وجواهر، وآنية لاتقدر بقيمة، وسجاد، وثياب من الحرير الخالص، وهذه كلها جرى اقتسامها بالتساوي بين الناس الذين كانوا قبل قليل يعانون من العوز ومن الجوع، فلقد بات هؤلاء لديهم

الآن الوفـرة من كل شيء، ولقـد قيـل بأن أكثـر من عشرة آلاف من الأتراك قد جـرى قتلهم في المدينة، وكانت جثثهم المرميـة بالشوراع من دون دفن تشكل منظراً تعيساً لمن ينظر إليها، وتم العثـور في المدينة على نحو خمسمائة حصان عربي، وكـانوا جميعاً نحيفين من الحاجة إلى الطعام، لأن قليلاً مما هو مناسب للأكل من قبل الخيول أو الناس، كـان ماعثـر عليه بالمدينة لدى الاستيلاء عليها.

وفاة يغي سيان أمير أنطاكية وصاحبها

وعندما شـاهد يغي سيان، صـاحب أنطاكية، بأن المدينـة قد احتلت، خـرج منها وحيـداً من خـلال باب خلفي، وكـان مضطرباً بعقله كثيراً، وقـد حاول النجـاة، لكنه واجـه أحد الأرمن الذي عـرفـه، فرمـاه على الأرض، وقطع رأسـه بالسيف، وحمله وقـدّمه إلى الأمـراء أمـام الجيش كله، وكان بعض أعيان المدينة غير عارفين ماذا يفعلون، لذلك سعوا إلى الفـرار نحو الحصـن العالي، لكن قـابلهم بعض رجـالنا الذين كـانوا في أمـاكن أعلى منهم، وقـد اعترضـوا سبيلهم، وتضـايقـوا من منحـدرات الرابيـة، وضغط عليهـم من الأعلى من قبل رجـالنا، ومـع أنهم بذلوا جهـودهـم للدفـاع عن أنفسهم لقـد وقعـوا على طول الطـريق هم وخيولهم، وماتوا وكان تعدادهم حوالي الثلاثمائة، وحاول آخرون الفرار إلى المناطق الجبلية، لكن رجـالنا طاردوهم، وأسروا بعضاً منهم، وتمكن الآخـرون بفضل جـودة خيولهم، مـن النجاة إلى الجبـال، وهكذا جـرى الاستيـلاء على أنطاكيـة في السنة الـرابعـة عشرة بعـد استيـلاء المسلمين عليها، وكان هذا في سنة ١٠٩٨م، في اليوم الثالث من شهر حزيران.

حول شمس الدولة وتسليمه القلعة إلى كربوغا

وعندمـا خمدت الفـوضى التي تـرافقت مع الاستيـلاء على أنطاكيـة، وصار كل شيء هادئـاً، اجتمع الأمراء مع بعضهم، وقـرروا الصعود إلى

الرابيـة التي أشرفت على المدينة، والاستيلاء على الحصن واقتـلاع الذين فيـه منه، لكـن عندمـا وصلوا إلى الموضع، أدركـوا أنهم لن يستطيعـوا الاستيـلاء عليـه إلا بالتجـويع، ولذلك صرفـوا اهتمامهم نحـو هذه المسائل، وكان شحنة القلعة وحـاكمها هو شمس الدولة ابن يغي سيان المتقـدم ذكـره، وكـان معــه عـدد كبير من جند الترك، وعندمـا سمع بكربوغـا مع الجيش الفارسي بأنـه دخل إلى منطقة أنطاكيـة، وضع أمله فيه، وبـادر مسرعاً لمقابلتـه، وأخبره عن وفاة أبيـه، وعن مأساة أنطـاكية وعـزلتهـا، وأجـابه كـربوغــا:« إذا مـاأردتني أن أبذل كل جهـودي في سبيلك، سلمني حصنك، فعنـدمـا أكـون آمنا في ذلك الموقع، ســوف أهاجم أولئك الـرعـاع بجميع قــواتي»، ورضي شمس الدولة وسلمــه حصنه، وأودع الدفاع عنـه بين يديه، ومأأن تسلم كربـوغا الحصن حتى وعد مخلصاً بمساعدة شمس الدولة.

ولدى سماع الأمراء بدخـول كربوغا إلى أراضي أنطاكية، سعـوا نحو تقوية المدينة، وشحنها بالحاجات الضرورية، وهنا فجأة ظهر ثلاثمائة من فرسان جيش كربوغا، واقتربوا مـن المدينة بتهور، وأغروا رجالنا للتقدم نحوهـم والقتال معهم، وهنا قـام روجردي برانفيل وكـان فارسـاً جيداً مـرتبطاً بروبرت دوق نورماندي، فأخـذ معه خمسـة عشر مرافقـاً وحمل بشجــاعــة عليهم للتصــدي لهم، لكن الأعـداء هـربوا بشكل مخادع، وطاردهم روجر حتى وصلوا إلى مـوقع كمين لهم، وقام الكمين بشكل مفـاجيء وحمل على رجــالنا وأرغمهم على الفـرار، ولم تستطـع قـوات روجـر القتـال مع العـدو، بسبب قلتها، ولتفـوق الأعـداء على رجـالنا بسرعة خيولهم، وقد قتل روجر، ونجا رجاله إلى داخل الأسوار، وقطع الأعداء رأسه، وعادوا دون أن يصابوا بأذى إلى معسكرهم.

الحصار الثاني لأنطاكية من قبل كربوغا

وفي اليوم الثـالث بعد الاستيلاء على انطاكية، نصب كـربوغا، الأمير

الفـارسي معسكره أمام المدينة، مع جيش عمـلاق، وطوق بشكل محكم جميع الجانب الجنوبي، وذلك امتداداً من الباب الشرقي إلى الباب الغربي، وكان إلى جـانب الباب الشرقي قلعة تولى حـراستها بوهيمـوند،فطوقوا هذه القلعـة، وقـامـوا بحمـلات متـواليـة عليهـا، واستثير بوهيمـوند بجـرأتهم، فحمل عليهم، لكنه قـوبل بقوة تركيـة متفـوقة، أرغمتـه على الانسحاب متراجعـاً إلى المدينة، ولدى احتشاد عـامة الجند عنـد الباب، قتل منهم حـوالي المائتين، من جـراء الحملة العنيفـة للأعـداء، وفي مـرة ثانيـة، هاجم الأتراك أيضاً، القلعـة التي شيدت حـديثاً، بشدة متنـاهية، ولولا أن الناس هبوا لنجدتها بسرعة، لكانـوا استولوا عليها بكل تأكيد، ولقـد كان روبرت دوق نورمـاندي هو الذي جـاء لنجدتها مع رجـاله، وقد قتل وأسر عـدداً كبيراً من الأعداء، وأرغم البـاقي على الفرار، وفي مناسبـة أخرى، طلب الأتراك مبـارزة رجالنا بالقتـال، حتى أن بعضهم ترجلوا عن ظهـور خيـولهم، وأظهـروا اخـلاصـاً غير معتـاد، ودعـوا الآخرين لحذو حذوهم، وعندمـا كانوا يتبارزون على هذه الصورة، حمل تانكرد من البـاب الشرقي، وهاجم الأعداء قبل أن يتمكنوا من معـاودة امتطاء خيولهم، وقتل ستة منهم، في حين نجا الباقون.

العذاب الذي سمح الرب بنزوله على الحجاج بسبب آثامهم

وعانت المدينـة في الوقت نفسه معانـاة هائلة من المجاعـة، وكان هذا عقاباً لآثام الحجاج، بسبب أن كثيراً منهم، نزلوا من فوق الأسوار وهم مرعوبين، وتدلوا بوساطة الحبال، أو وضعوا أنفسهم داخل سلال، وقد تخلوا عن رفـاقهم، ونجـوا إلى شـاطىء البحـر، وكـان هؤلاء الذين تشككوا بجود الرب وبرحمته، ليسوا فقط من عامة الناس ومن الفقراء، بل أيضـاً من النبـلاء ومن ذوي الأنسـاب العاليـة، من أمثـال وليم دي غرانتمينيل Grantmenil، من أبوليا، مع أخيه ألبيرك Alberic، ووليم النجار مع أخيه غي، ولامبرت، وأعداد كبيرة أخرى معهم، وإلى جانب

هؤلاء، كان هناك بعضاً ممن يئسوا من العون، فالتحقوا بالعدو، وتخلوا عن الإيمان بالمسيح، وفكر آخرون بالفرار بشكل جدي، لكنهم أعيدوا إلى الثبات من قبل أسقف لى بوي، وبوهيموند، الذي جعلهم يقسمون أنهم لن يتخلوا عن قضية المسيح، حتى انتهاء المعركة، التي سوف تجرى في وقت أو آخر.

وكانت المجاعة قاسية في المدينة إلى حد أن الناس، التفتوا، بسبب قسوة المجاعة المتناهية إلى أعمال وتصرفات مخجلة: فلقد بيعت الدجاجة بمبلغ خمسة عشر شلنا، وبيعت البيضة بشلنين، والجوزة ببنس واحد، ولقد أكلوا الأشجار، والأشواك، وجلود ولحوم الخيول والحمير، والبغال، والكلاب، وباتت الأشياء القذرة جداً، لذيذة للغاية، وبات أمراً محزناً أن ترى رجالاً كانوا من قبل أقوياء، ومتميزين بنبالة مولدهم، يتكئون لضعف أجسادهم على عصي، وباتوا غير قادرين على استخدام أسلحتهم، وفي الوقت نفسه تولى وليم دي غرانتمينيل، وستيفن كونت أوف تشارترز مع الآخرين الذين انهزموا معهم، الحديث إلى الجميع عما عانى منه الصليبيون في أنطاكية، ولكي يسوغوا فرارهم، وصفوا هذه المعاناة بشكل مضخم عدة مرات بعيداً عن الحقيقة، وقد وصلوا إلى الإمبراطور، الذي كان مع أربعين ألفاً من الجنود اللاتين، إلى جانب آخرين جنّدهم من بلدان مختلفة، وكان على طريقه لمساعدة الصليبيين في أنطاكية، ونصحوه بعدم الذهاب، وقالوا له حول هذا الشأن:« أيها الامبراطور الأقوى، عندما استولى قادتك المخلصون على أنطاكية، اعتقدوا أن الحرب قد انتهت، لكن هذه الغلطة الأخيرة كانت أسوأ من الأولى، فما أن مرّ يوم واحد على الاستيلاء على المدينة، حتى قدم فجأة كربوغا الأمير الأعظم قوة من فارس، مع قوات عملاقة من الشرق، مامن انسان يمكنه تعدادها، وألقى الحصار على المدينة نفسها، وذلك في الوقت الذي كان فيه قومنا مقهورين من قبل

الجوع، والبرد، والحر، وحد السيف، إلى حد قيل فيه إنهم لايمتلكون مؤناً في المدينة كافية حتى ليوم واحد، ولذلك قمنا نحن الذين هنا، عندما شاهدنا قضية إخواننا غير ناجحة، بتقديم النصيحة إليهم مراراً، بالنظر نحو سلامتهم الشخصية، وبالتخلي عن هذه المغامرة المستحيلة، وبالاقدام على الأخذ بالفرار من دون تأخير، لكن عندما لم نتمكن من زحزحتهم عن نواياهم، شرعنا نفكر حول سلامتنا، والآن إذا كان يرضيك، وإذا كان هذا هو موقف مستشاريك، لاتتابعن التقدم، خشية أن يغرق الذين معك بالخطر نفسه، ولسوف يؤكد تاتين وزيرك الحكيم والمخلص صدق ماقلناه، لأنه شاهد ضعف رجالنا، وانسحب من بينهم شخصياً حتى يتمكن من تبيان هذه الأشياء لجلالتك».

وسمع الامبراطور هذه الكلمات، وقام بناء على نصيحتهم بتسريح فرقه، وعاد وهو يبكي إلى قصره، وعندما وصلت أخبار عودة الامبراطور إلى أنطاكية، ضاعفت نصر المسلمين وزادت من ضعف الصليبيين، وكانت المجاعة هائلة بين صفوف شعب الرب، وكذلك حدة الأعداء في كل من الداخل والخارج، حتى بدا أنه ليس هناك مخرج أو علاج وتهدئة، وكان الشيوخ والشباب غارقين في الكارثة نفسها، ولم يكن بامكان طرف تقديم المواساة إلى الطرف الآخر، وقد فكروا حول زوجاتهم وأولادهم، وأهليهم الذين تركوهم في الوطن، للقدوم والقيام بالحج من أجل المسيح، وتذمروا تجاه عدم رضا الرب القدير، الذي لم يتوفر لديه احترام نحو آلامهم، بل تركهم وكأنهم شعب غير معروف من قبله، ليقعوا في أيدي أعدائهم.

المواساة التي أضفاها الرب على الحجاج المعذبين

ونظر الرب أخيراً نحو شعبه المعذب، وبعث إليه المواساة من كرسي رحمته، فقد جاء حاج مسكين، كان كاهنا بين أفراد الجيش، إلى الحجاج والأمراء الغربيين، وخاطبهم بالكلمات التالية:« اسمعوا ياإخواني

وياأصدقائي الأعزاء، خبر الرؤيا التي أنا رأيتها، فلقد عزمت على امضاء الليل في كنيسة أم الرب، وأن أصلي إلى الرب حتى يخفف من آلامنا، وكنت في وضع لاأدري أكنت فيه نصف نائم، أو مستيقظ، الرب وحده يعرف، فلقد رأيت ربنا يسوع المسيح، دون أن أعرفه، وكانت أمه المباركة حاضرة أيضاً، مع بطرس أمير الرسل، وعندما نظرت إليهم، قال الرب لي: ألاتعرفني؟ فأجبته: لاياسيدي، وفي الوقت نفسه، أضاء صليب فوق رأسه، وعاد ثانية فسألني السؤال نفسه، ولسؤاله أجبت: مولاي لئن فهمت بشكل صحيح من علامة الصليب فوق رأسك، فإني أرى أنك مخلصنا، وعلى هذا ردّ قائلاً: إن الأمر كما قلت، ووقتها ألقيت بنفسي على قدميه، مبللاً ركبتيه بدموعي وقلت له: مولاي، يامولاي، ارحمنا، ارحم شعبك، يامولاي ساعدنا، وعندها أجاب الرب قائلاً: لقد ساعدتكم حتى الآن، ذلك أنني سمحت لكم بالاستيلاء على نيقية، وحميتكم في كثير من المعارك، وفي ظل توجيهي تمكنتم من الاستيلاء على أنطاكية والسيطرة عليها، واستجبت لرغباتكم أثناء الحصار نفسه، لكنكم كنتم كافرين لنعمتي، وتمردتم عليّ، فظلمكم وطغيانكم الذي صدر عنكم صار شيئاً كثيراً، ولقد أثرتم غضبي بالأضرار التي ألحقها شعبكم بي، وذلك باقترافكم الزنا مع نساء غريبات، فلقد وصلت آثامكم إلى السماء ، وجعلتني أشيح بعيني عنكم، إنني سوف أجازيكم على كفرانكم للنعمة، ولن أستثني فجوركم وفسوقكم، ولن أغفل عنه»، ثم سقطت أم الرحمة وبطرس على قدمي المخلص الرحيم، وحاولا تسكين غضبه وتوسلا إليه قائلين:« مولانا، لسنين كثيرة تملكت الشعوب الكافرة ذلك البيت، الذي كان بيت الصلاة، وقد دنسوه بشكل مهين، واستحوذوا عليه، فهل أنتم، لذنوب قلة، مقبلون في غضبكم على تدمير جميع المسيحيين، الذين حرروا بيتك بدمهم؟ لتكن لديك رحمة يامولانا، رحمة يامولانا على شعبك، ولاتسلم ميراثك للدمار، ولاتدع الأمم تنتصر عليهم».

وأصغى الأعظم قداسة إلى صلوات أمه والرسول، وابتسم بلطف وقال لي هذه الكلمات: اذهب واخبر شعبي ليتولى إزالة كل فسوق ودنس من بين صفوفه، وأن يغسل عاره بدموعه، وأن يعود إليّ، وعند ذلك سوف أعود إليه، وخلال خمسة أيام سوف أقدم له مساعدة في وقتها، بسبب أنني أنا رب الرحمة، وعلى أفراد شعبي أن يغنوا في الوقت نفسه: أعداؤنا اجتمعوا، وتفاخروا بقوتهم، أزل أنت قدرتهم، يارب، وفرقهم حتى يعرفوا أنه لايوجد أحد يقاتل من أجلهم، إلاّ أنت فقط، يارب»، وعندما فرغ الكاهن انصرف الشعب كله إلى النحيب، وحث أحدهم الآخر على الاعتراف بذنوبه، وبات بإمكان كل انسان رؤية الدموع تجري على خدودهم، والناس من جميع الأعمار يحملون الرماد فوق رؤوسهم، وهم يسيرون حفاة إلى الكنائس للصلاة، وللتوبة، ولإلتماس العون من عليين، ثم قام بوهيموند— وكان رجلاً حكيما وعاقلاً— فحث كل واحد منهم على أن يربط نفسه بقسم ليتعهد فيه بعدم التخلي عن عصبة الحجاج حتى يقبلوا الضريح المقدس للرب، وفقاً للنية الأصيلة لحجهم، وجرى تلقي النصيحة من قبل الجميع، وقد أدوا جميعاً القسم، وبذلك قويت نشاطاتهم بشكل رائع.

كيف وجدوا حربة المخلص

وفي حوالي الوقت نفسه، جاء كاهن اسمه بطرس من بروفانس إلى أسقف لى بوي وكونت طولوز، وأكد لهما بأن الرسول القديس أندرو قد ظهر له في المنام، وبإخلاص أمره ثلاث مرات أو أربع، بالذهاب إلى الأمراء، بأنهم سوف يجدون في كنيسة أمير الرسل الحربة التي بها جرى طعن جنب المخلص، وقد أوضح المعطيات وبين المكان الذي يمكن أن توجد فيه وحده، وبناء عليه قدم إلى الأمراء، كما أمر، وأخبرهم بكل شيء، وأضاف بأن الرسول استخدم تهديدات كثيرة، إذا لم يقم بالإطاعة، وأنه كان مرغماً على ايصال الرسالة، خشية منه أن يقتل،

وعندما جرى ايصال هذا الخبر إلى بقية الأمراء، اجتمعوا مع بعضهم في المكان الذي حدد إليهم في الكنيسة، وبعدما حفروا الأرض قليلاً، وجدوا الحربة كما جرى إخبارهم، وسمع الناس بهذا الاكتشاف، فتدفقوا على الكنيسة، وتعبدوا الأثر الثمين المقدس، وبدأوا يستردون أنفاسهم مما كانوا يعانون منه، وأخذوا يسيرون بجرأة أعظم في طرق الرب.

كيف حشدت العساكر وزحفت وهي على تعبئة قتالية من المدينة

وعلى هذا اجتمع الأمراء والناس مع بعضهم، وقد وجدوا أن الرب أنزل عليهم إلهاماً جديداً وفضلاً، ولذلك قرروا بالاجماع إعلام كربوغا أنهم سوف يقاتلونه في يوم الغد، وحمل هذه الرسالة إليه بطرس الناسك، وعند الفجر تدفقت جميع العساكر على الكنائس لسماع القداسات، وطلب الكهنة وقتها من الحجاج الاعتراف بذنوبهم، وبتحصين أنفسهم بالمشاركة بتناول جسد المسيح ودمه، ولذلك زحفوا بجرأة ضد أعداء الصليب، وبناء عليه طلبوا في الثامن والعشرين من حزيران العون الرباني، وعبأوا جيشهم إلى فرق، وعينوا لكل فرقة خط عملياتها.

وعينوا لقيادة الفرقة الأولى هيوج الكبير، وأنسلم ريبوغيسمونت Riburgismont مع عدد كبير آخر، نحن لانتذكر أسماءهم، واقتاد الفرقة الثانية كونت فلاندرز، وروبرت الفيرزون Frison ، مع آخرين كانوا قد تبعوا رايته منذ البداية، وقاد روبرت دوق نورماندي، وستيفن كونت أوف ألبمارل Albemarle مع نبلاء آخرين تابعين لجماعتهم، الفرقة الثالثة، وقاد الفرقة الرابعة أدهمر أسقف لى بوي، وكونت طولوز مع أتباعهما، الذين حملوا معهم حربة الرب، واقتيدت الفرقة الخامسة من قبل رينارد كونت أوف تول، وبطرس دي ستادني Stadeneis ، وغارنر دي غري وهنري دي آشي، ووولتر دي

دومدارت Domedart مع آخرين كثر، وقاد الفرقة السادسة رينبولد كونت أوف هورني Horinges ، ولويس دي ماسكون Mascons، ولامبرت بن كونون دي مونت أكيوت، وكان قائد الفرقة السابعة الدوق غودفري مع أخيه يوستاس، وكان الفارس النبيل تانكرد قائد الفرقة الثامنة، أما الفرقة التاسعة فقادها هيوج كونت أوف سانت بول مع ابنه ايغلران Egelran ، وتوماس دي فيريا Feria، وبلدوين دي بورغ، وروبرت فتز—جيرارد، ورينولد أوف بوفياس Beauvais، وغالو دي شومنت Chaumont ، وقاد الفرقة العاشرة روترو Rotrou كونت أوف بيرشي Perche ، وايفرارد دي بوساك، ودرغو دي مونسي Monci ، ورالف فتز— غودفري، وكونان أوف بريتاني، وقاد الفرقة الحادية عشرة إيسوارد Isoard كونت أوف ديي Die، وريموند بيليت Pilet ، وغاستوس أوف بايترني Bi-terne ، وجيرارد دي روسلين، ووليم دي مونت برسولان Pres-sulan ، ووليم أماني Amane ، وكانت الفرقة الثانية عشرة هي الأقوى من الفرق الأخرى، وقد قادها بوهيموند، الذي كانت وظيفته تقديم العون إلى أية واحدة من الفرق الأخرى تتعرض للضغط الشديد من قبل الأعداء.

وكان كونت طولوز في وضع صحي سيء، ولذلك ترك ليتولى حراسة المدينة، ولحماية الضعفاء والجرحى، وذلك خشية أن يقوم الأتراك الذين كانوا مايزالون في القلعة العليا بمهاجمتهم أثناء غياب الأمراء، واختلط مع مختلف الفرق، أثناء زحفها، الكهنة، والشمامسة، وكان من الممكن مشاهدتهم في أرديتهم البيضاء، وهم يحملون في أيديهم شارة الصليب، أما الذين بقيوا في المدينة، فلبسوا ثيابهم المقدسة، وصعدوا فوق أسوار المدينة، وقدموا الصلوات من أجل حماية شعب الرب، وأثناء خروج جيشنا وتجاوزه للأسوار تساقط عليه ندى لطيفاً،

وقـد نزل من عليين على رجـاله، وبدا ذلك وكـأنه أرسل من قبل الرب القدير لمباركة أسلحتهم، وشعـر بتأثيره ليس فقط الرجـال، بل الخيول أيضـاً، التي مع أنها لم تأكل شيئاً لأيـام كثيرة سـوى أوراق الأشجـار وأغصانها، تمكنـت في ذلك اليوم من التفـوق على فرسان العـدو في كل من السرعة والقوة.

المعركة الرهيبة والنصر الرائع التي أعقبها

وفي الوقت نفســه لدى رؤية كـربوغا الصليبيين يخرجـون من المدينة، قام بصف قواته وتعبئتها للقتال، تحت قيادة تسعة وعشرين أميراً وملكاً أسماؤهم كما يلي: الملك رضـوان، والأمير سليمان، والأمير سيف الدين، والأمير دقـاق، والأمير عين الدولة، والأمير محمــد، والأمير غيــاث، وقطب الدين، ومجد الـدولة، وطولون، وبولق، وبـرسق، والأمير باقي، ويغي سيـان، وشمس الـدولة، والأمير جناح الدولة، والأمير طغتكين، والأمير وثاب، والأمير سكمان، وبلدق، والأمير الياس، وشمس الدين، وجكرش، والأمير يونس، وأرسلان تاش، وأمير جاولي، والأمير تقاق، والأمير موسـى(١)، وحث كربوغـا هؤلاء الأمراء جميعاً، ورجـاهم إذا كـانوا يحبونه أن يبـذلوا جهـودهم ويظهـروا شجاعتهم، وأن يستخفـوا بالمقـاومة التي يبديها هـؤلاء الرعاع، الجائعين، والبلهـاء وغير المجربين، أي الجنود الصليبيين، عـلاوة على ذلك قــدم(قلج أرسـلان بن) سليمان أمير نيقية مساعدته الفعالة للقوات المعبأة، وميز بين الذين سيزحفون في المقدمة والذين سيبقون في الساقـة، واحتل أمراؤنا في الوقت نفسه جميع السهول القائمة أمام المدينة والجبـال امتداداً حتى مسافة قرابة الميلين من المدينة، وعندما زعق البوق زحفوا نحو الأمام لمواجهة الأعداء، وحملت الفـرق الثلاث الأولى عـليهم بالسيـوف والرمـاح، وقـد تــقدم عليـهم

١— تشـوهت الأسماء إلى حـد استحـالة الضبط، والقـراءة المقـدمـة تقـديرية، اعتماداً على ماتوفر بالمصادر العربية.

الرجـالة، الذين كـان معهم القسي الطـويلة، والقسي الزيّارة، ثم فتحـوا الطريق أمـام الحملة الثقيلة للفرسـان الذين كانوا يتبعـونهم، وبعد مضي بعض الوقت كـانت الفـرق كلها، قـد اشتبكت بالقتـال، باستثناء فرقـة بوهيمـوند، ونتيجة لاشتبـاكهم مع الأتراك فقـدوا أعداداً من رجـالهم، وبدأوا يضطربون ويفرون، عندمـا وصل(قلج أرسلان بن) سليمان من المناطق القـريبـة من البحـر، مع ألفين من الرجـال، وقـد حمل على بوهيموند بعنف شـديد من الساقـة، وأرسل رجاله سحبـاً من النشاب، غطوا بها الصفـوف تقريبـاً، ثم وضعـوا قسيهم جـانباً، وتـابعوا القتـال بالسيـوف والدبابيس، بعنف بلغ حـداً كـان بوهيمـوند مـرغماً فيـه على التراجع أمـامهم، لولا قـدوم غـودفـري وتانكرد، حيث قـاتلا بنشـاط يستحق الثناء، وحولا تيـار الدم والقتل نحو العـدو، ثم لجأ وقتها(قلج أرسلان بن) سليمان إلى وسيلة أخـرى، حيث ألقى النار في بعض القش والأعشـاب، واستعـد لاستغـلال ذلك، وصحيح أنـه توفـر القليل من اللهب، لكن كل شيء تغطـى بدخـان كثيف، وقتل الأعـداء تحت هذا الغطاء من الدخـان عدداً مـن رجالتنا، إنما بعـد وقت قصير، غيّر الرب الذي يتحكم باتجاه الريح، اتجاه الدخـان نحو الأعداء، الـذين لم يعودوا يبصرون واختنقـوا به، ولذلك انهزمـوا، وقـد لحق بهم الجند الصليبي، وطردهم بشدة بالغة نحـو الخلف، وألقى بهم فوق صفوفهم المضطربة، وقتلهم من دون رحمة، ولاحقهم حتى خيامهم، حيث عـرفوا بأن هناك قد اجتمعت قـواهم الرئيسية، وقاومهـم الترك هناك بكل ماامتلكوا من شجاعـة، وقام قتـال رهيب، وصدرت الأصـوات عن الخوذ البرونزية، مثل الأصـوات التي تصـدر عن قـرع السندان، وتطاير الشرر من قـرع الفـولاذ بالفـولاذ، وكـانت أصـوات السيـوف مثل أصـوات الرعـد، وتناثرت أدمغـة الناس على الأرض، وتحطمـت الدروع والسـوابغ إلى شظايا، وتدفقت أحشـاء الذين كانوا يرتدونهم فـوق الأرض، وتصببت الخيـول عـرقـاً من شـدة التعب، ولم تنل لحظـة توقف من قبل ركـابها،

واشتبك الجيشان الآن مع بعضهما، وتقاتل بعضهم بعضهم يداً بيد، ورجلاً برجل، وتكادموا بأجسادهم، وتصارع واحدهم مع الآخر، وتابعوا الصراع المميت، وساد الشك الآن حول إلى جانب من سيكون النصر، لكن حدث فجأة أن شوهد جيش كان مخفياً، ينزل من الجبال، وكان مقاتلوه يمتطون خيولاً بيضاء، ويحملون أعلاماً بيضاء في أيديهم، وعرف الأمراء من بينهم القديس جرجس، والقديس ديمتريوس، والقديس ميركوريوس Mercurius وبعث هذا المشهد الذي أرعب المسلمين، آمالاً جديدة في نفوس الصليبيين.

ولم يرهم الجميع، بل فقط الذين سمح الرب لهم بمشاهدة مقاصده السرية، وأدى ذلك إلى اضطراب صفوف الترك، ومن ثم الانتصار المباشر لأعدائهم، لأن الأتراك— كما قلنا— ماأن شاهدوا هذه الشارة، حتى لاذوا بالفرار بسرعة، مخلفين وراءهم سلعاً كثيرة ثمينة، ورأى بعض رجالنا أيضاً ملائكة يطيرون في الهواء، ويرسلون صواعق محرقة على الأتراك الفارين، وكان كربوغا قد بقي منعزلاً عن الجيش منذ بداية المعركة، واتخذ موقعه في مكان مرتفع، وعندما شاهد فرار فرقه، تخلى عن عساكره وفرّ حتى ماوراء الفرات، وقد غير خيوله، فعندما كان يشعر بتعب الذي يمتطيه كان يغيره بواحد أحسن حتى يضمن تراجعه الشخصي، وكان قادتنا يدركون أن خيولهم لن تستطيع المطاردة والمثابرة، لذلك تخلوا عن المطاردة البعيدة، وذلك باستثناء تانكرد وعدد قليل آخر طاردوا الأعداء ودمروهم حتى غياب الشمس، لأن التجلي الرباني شحنهم بخوف عظيم، بلغ حداً أنهم لم يعودوا يستطيعون مقاومة حملاتنا وقتالنا، ولاالدفاع عن أنفسهم وحمايتها من سيوفنا، ولذلك بدا بالنسبة إليهم عشرة من رجالنا يساوون عشرة آلاف.

الغنائم الثمينة للأتراك الذين هربوا والخيمة الرائعة

ومع انتهاء هذه المعركة المجيدة، عاد قادتنا إلى معسكر الأعداء،

حيث وجدوا كميات هائلة من الثروات من ذهب وفضة، ومجوهرات، وملابس حريرية، وأواني لايمكن تقديرها بثمن، وكانت الغنائم من الكثرة بمكان أنهم لم يتمكنوا من تعدادها أو تقديرها، وكان هناك أيضاً عدداً كبيراً من الخيول، والمواشي، وقطعان الأغنام، والميرة، والرقيق من الغلمان والفتيات، والخيام والسرادقات، وقد حملوها كلها إلى معسكرهم، وكان بين الأشياء الأخرى خيمة رائعة، مبنية مثل مدينة، مع أبراج، وأسوار، وشرافات، منسوجة من مختلف الألوان من أحسن أنواع الحرير، ومن مركزها، الذي شكل القاعة الرئيسية، تفرعت مقاصير على جميع الجوانب شكلت مايشبه الشوارع، يمكن فيها لألفي رجل أن يجلسوا بكل راحة، وبعد هذا، قام الأتراك الذين كانوا في القلعة العليا بالاستسلام لقادتنا، وجاء ذلك بعدما رأوا حلفاءهم قد فروا، وكان استسلامهم على شرط أنهم يستطيعون الذهاب إلى أي مكان يرغبون به، وحدثت هذه الأمور في اليوم الثامن والعشرين من حزيران لعام ١٠٩٨م.

ترميم الكنائس ووصف أنطاكية

وبناء عليه عاد قادتنا من المعركة، وعادت المدينة إلى حالة الهدوء، وبدا لهم جميعاً ولاسيما إلى أسقف لى بوي، أن من المناسب، إعادة الكنيسة الرئيسية التي شيدت فيها مضى تشريفاً لأمير الرسل، مع بقية كنائس المدينة، إلى سالف مجدها، وأنه يتوجب تعيين عاملين دينيين فيها يتولون عبادة الرب ليلاً ونهاراً، كما أنهم أعادوا البطريرك يوحنا إلى منصبه الرفيع السالف، وعينوا أساقفة لكل المدن المجاورة، وذلك حيثما كان من قبل أساقفة، وأعطوا سلطة المدينة إلى بوهيموند، الذي جرت العادة على دعوته بلقب أمير، أو بالمقدم الأول والأعلى بين رجاله، وقد بدأوا الآن يعتادون على استخدام اصطلاح أمير أنطاكية.

وكانت المدينة نفسها جميلة جداً، ومحصنة بشكل جيد، وتمتلك

بداخلهـا أربع تلال مرتفعـة، فوق الأولى منهن قلعة مشرفـة على المدينة كلهـا، وبنيت المدينة في الأجزاء المنخفضـة بشكل نظامي، وهي مطوقـة بسورين: السور الداخلي مرتفع وواسع، في دائرته أربعمائة وخمسين برجاً محاطة بشرافات جميلة، ولم يكن السور الخارجي مـرتفعاً كثيراً، لكنه كان متميـزاً بقدمـه، وتحتوي أنطاكيـة على ثلاثمائـة وأربعين كنيسة، ويوجـد تحت رئـاسة بطريركهـا مـائة وثلاثة وخمسين أسقفـاً، والمدينة محاطة من جهـة الشرق بأربع تلال، ويوجد مـن جهة الغـرب النهر، الذي يسميـه بعضهم نهر فــرفـر، وبعضهم نهر الأرنط، وأسهم في بناء المدينـة خمسـة وثمانون ملكاً، ومن الأول منهم وهو أنطيخوس نالت اسمهـا، واستولى الصليبيون عليهـا بعد حصـار استمر ثمانيـة أشهر مع يوم واحـد، وبعد الاستيلاء عليها، حاصرها المسلمون ثانية لمدة ثلاثة أسابيع، قبل خروج الصليبيين منهـا والقتـال معهـم، ومكث المتنصرون الآن في المدينة لمدة خمسة أشهر وتسعة أيام، خلالها أصيبوا بموتان، غير معروف سببه، لكنه كـان هائـلاً، حتى أنه خـلال عـدة أيام مـات خمسين ألفـاً من الجنسين، وكان من بين الضحايا أدهمر، أسقف لى بوي، الذي رعى الشعب كأب وكحاكم، وقد دفن وسط نحيب الجيش كله في كنيسة أمير الرسل، فوق البقعة التي تمّ العثور فيها على حربة مخلصنا، وسقط بين الضحايا هنري دي أسكي، ورينالد دي آرم باخ Armesbach ، وكـانـا رجـــلان متميزان لأصالة مولدهما، ولكي يتجنب بقيـة الأمراء الخطر نفسه اتفقوا على التفرق على شرط الاجتماع ثانية في الأول من تشرين الأول، وذلك عندما يكون كل من الرجال والخيول قد استردوا قواهم، ومن ثم اكمال مـابقي عليهم عمله للوفـاء بعهـد حجهم، وزحـف ريمـوند الذي لقبـه بـايلـــت Pilet مع عساكره واستولى على قلعة اسمها تل منس، ومن هناك زحف إلى المعرة، التي هي مـدينة مليئة بالمسلمين، وخرج السكان للتصـدي له، وهزمـوا في البـداية، لكنهم نالوا في النهـاية النصر، وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين.

كيف أرسل هيوج الكبير إلى الامبراطور لكنه لم يعد

وأثناء حدوث هذه الأمور، أرسل هيوج الكبير من قبل الأمراء، إلى الامبراطور ألكسيوس، وقد أساء كثيراً إلى شهرته الماضية، بعدم العودة شخصياً، وبعدم إرساله أي جواب إلى الذين أرسلوه، ناسياً مصداقية بيت شعر جوفينال Juvenal :

..... الجريمة الأكبر هي للشخص

الذي هو الأكبر

وفي الوقت نفسه تولى كونت طولوز حصار مدينة البارة والاستيلاء عليها، وتدبر رسم بطرس أوف نربون أسقفاً هناك، ثم بدأ الأمراء من اليوم الأول من تشرين أول بالتجمع والاحتشاد مع بعضهم وفقاً لإتفاقهم، واستعدوا للزحف إلى القدس، وفي الثامن والعشرين من تشرين زحفوا إلى المعرة، وألقوا الحصار عليها، وتقع هذه المدينة على بعد سفر ثلاثة أيام عن أنطاكية، وكان سكانها متشامخين بسبب غناهم، ذلك أنهم ثبتوا صلباناً على أبراج وأسوار المدينة بعدما لوثوها بالبصاق عليها، وبطرائق أخرى، وذلك تحديا للصليبيين، وقد غضب رجالنا لهذا، وبعد اشتباكات استمرت عدة أيام، نصبوا السلالم، وتسلقوا فوق الأسوار، واستولوا على المدينة عنوة، لكنهم لم يجدوا سكاناً فيها، ونتيجة لذلك استولوا على كنوزها من دون معارضة أو ضجة، فقد كان السكان قد فروا إلى كهوف تحت الأرض، وبذلك بقيوا سالمين لبعض الوقت، لكن في الصباح أشعل رجالنا نيراناً عند مداخل الكهوف، وأرغموهم على الاستسلام، فقطعوا رؤوس بعضهم، وألقوا بالآخرين في السجن، وفي الحادي عشر من كانون الأول مات وليم أسقف أوراسيا هناك، وكان رجلاً متديناً ومستقيما، وكان يخاف الرب، وقد أمضى الحجاج في تلك المدينة شهراً واحداً وأربعة أيام.

كيف ظلم الملك وليم الانكليز بالضرائب

وفي السنة نفسها، كان وليم ملــك الانكليز، الملقب روفوس Rufus في نورماندي، مشغول تماماً في مشاريع حربية، في حين لم تكتف مكوسه في انكلترا بتجـريد الناس، بل بالفعل جردتهم وكشطتهم تمامـا، ولذلك كـان مكروها من قبل جميع النـاس، ومـات في الوقت نفسـه وولكلاين Walkeline أسقف وينكستر، وهيوج شروبشـاير Shropshire مات مقتولاً من قبـل الايرلنديين، وقد خلفه أخـوه روبرت دي بلسمي Be-lesme

كيف استعد الأمراء لمتابعة زحفهم بسبب تذمر الشعب

سنة ١٠٩٩م، احتفل أمـراء الغرب والحجـاج بشكل مهيب، بميـلاد ربنا في المعـرة، ووقتهـا نشب خــلاف بين بوهيمـوند، وكــونت أوف طولوز، لكن بما أن ذلك لاعلاقة كبيرة له بموضوعنا الحالي، دعونا نعبر إلى القضـايا الأخـرى، فنبين كيف أن الشعـب قـد غضب بسبب أن الأمراء عملوا تأخيراً غير ضروري، واختلفوا فيما بينهم حول كل مدينة جرى الاستيلاء عليهـا، مهملين في الوقت نفسه— كما وضح— العمل الأسـاسي للحملة، ولكي يرضي الناس، قـام كونت طولـوز فأخذ معـه عشرة آلاف رجل مسلح مع ثـلاثمائـة وخمسين فـارسـاً، وانطلق نحـو القـدس، وتبعـه في الوقت نفسـه روبرت دوق نـورمـاندي وتانكرد مع ثمانين فـارسـاً وعـدداً كبيرا من الرجـالة، وبعـد عدة أيام، عندمـا عبروا المنطقة المعترضة، نزلوا إلى سهل حول مـدينة اسمها عرقة، لم تكن بعيدة عن ساحل البحر، ونصبوا مخيمهم على مقـربة منها، وكانت هذه إحدى المدن الفينيقيـة عند سفح جبل لبنان، وقد تأسست— وفقـاً للمأثور من الروايات القديمة— من قبل عرقوس، الذي كان الابن السابع لكنعان، ومن بعده تصحف الاسم فصار عرقة.

وحـاصرها الصليبيـون لوقت طويـل، لكن من دون نجـاح، وهنا أثيرت مجدداً القضية المتعلقـة بالحربة التي طعن بها جنب ربنا، فقـد قال بعضهم بأنها ظهرت بعدما جـرى الارشاد إليها بإلهام رباني، وكان ذلك من أجل مواساة الجيش، في حين رفض آخرون ذلك باستخفاف وقالوا بأن المسألة كـانت خطة مـدبرة من قبل كـونـت طولوز، ولم يكن هناك اكتشـاف، بل مجرد اختراع للربح، وبنـاء عليـه أشعلت نار كبيرة جـداً، كانت بحجمها كافية لإخـافة حتى الواقفين إلى جوارها، وعندما اجتمع الناس مع بعضهم في اليـوم السادس من الاسبـوع قبل انتقال ربنا، قـام الكاهن بطرس— الذي إليـه عمل اكتشاف الحربة— بالدخـول بالمحنة المرعبـة، فبعدمـا قام بالصـلاة، أخـذ الحربة، واجتاز، دون أن يتعـرض للأذى، خـلال وسط النار، لكن بما أنه مـات بعـد ذلك بعـدة أيام فإن المحنة لم تعط قناعة كاملة للحزب المعارض.

وفي حـوالي هذا الوقت استعـد الدوق غـودفري والقـادة الآخـرون، الذين بقيـوا في أنطـاكيـة، لمتـابعـة الزحف، وجـاء ذلك بناء على طلب مستعجل من الجيش، ووصـل في اليـوم الأول من آذار إلى اللاذقيـة في سورية، مع خمسة وعشرين ألفاً من الجنود الشجعان، وكانت هذه المدينة مقطونة من قبل المسيحيين، وقـد طلب غـودفـري من متـوليهـا اطلاق سراح غـونمير أوف بولون Guenemer of Boulogne، الذي كان معتقـلاً هناك في سجـن، ولم تتجـرأ السلطات على المقـاومـة، وأطلقت سراحه مع جميع رفـاقه ومع اسطوله كله، لأن غـونمير كان بعـدما حمل الصليب، قـد رسـا هناك مع اسطول قـوي، غير أنه فـوجىء من قبل السكان، وألقي به في السجن، ووضعه الـدوق ثانية على رأس اسطوله، وأمره بمتابعة السير خلف الجيش على طول الساحل.

كيف عبر الأمراء خلال كثير من المناطق ووصلوا إلى طرابلس

وساير الأمراء الآن ساحل البحـر حتى مدينة جبلة، التي تبعد حوالي

اثني عشر ميلاً عن اللاذقية، ونصب الجيش خيمه حول المدينة، وقد حاصروها لبعض الوقت، عندما عرض واليها الذي كان وكيلاً لسلطان مصر، على الدوق دفع ستة آلاف قطعة ذهبية، وهدايا أخرى إذا ماتخلى عن الحصار، لكنه عندما لم يستطع الحصول على هذا المطلب، أرسل رسلاً عرض بوساطتهم المبلغ نفسه على كونت طولوز، إذا مااستطاع انقاذ المدينة من السقوط بيدي الدوق، وأخذ الكونت المال، وبعث أسقف البارة إلى الدوق يحثه على ترك الحصار، والقدوم إليه بكل سرعة، لأنه سمع بأن حشداً كبيراً من الأعداء قادماً من فارس للانتقام للخسائر التي عانوا منها عند أنطاكية تحت قيادة كربوغا، وأن هذا قد تأكد لديه من مصادر معلومات وثيقة يمكن الاعتماد عليها، وصدّق الدوق مع الأمراء الآخرين ما أخبروا به، وتخلوا عن الحصار، فمروا بمدينة بانياس، على يسار المرقب، والتي هي أول مدن فينيقيا، ووصلوا إلى طرطوس، وتابعوا زحفهم من هناك، ونصبوا مخيمهم قرب مدينة عرقة، واجتمعوا هنا مع تانكرد الذي أباح لهم خبر خدعة كونت طولوز، ونتيجة لذلك عزلوا خيامهم عن خيامه، ولم يعسكروا على الأرض نفسها معه، ورأى الكونت الغضب الذي تسبب بالشعور به من قبل الأمراء نحوه، فأرسل إليهم هدايا وتصالح معهم، وجذبهم إليه باستثناء تانكرد.

وعندما ترك الأمراء حصار عرقة، أوكلوه إلى أسقف البارة مع بعض الآخرين، ووجهوا زحفهم نحو طرابلس، فوجدوا هناك حاكم المكان وجميع سكان المدينة قد تعبأوا واصطفوا للقتال، وقد انزعجوا تجاه هذا العرض، فهاجموهم بحنق وشدة، وحطموا صفوفهم من الحملة الأولى، وطردوهم وأعادوهم إلى داخل المدينة، بعدما قتلوا سبعمائة منهم، واحتفل الأمراء بعيد الفصح أمام طرابلس، ولدى مشاهدة حاكم المدينة واقع الحال وإدراكه أنه غير قادر على مواجهة رجالنا في الميدان أرسل

سفارة، وحصل على شروط اتفاق من الأمراء أنهم سوف يمرون من خلال أراضيه دون إلحاق أي أذى بها، شريطة أن يعطيهم خمسة عشر ألف قطعة من الذهب مع خيول، وبغال، وملابس حريرية، وآنية ثمينة، ومواشي وأغنام، وعندها سايرت عساكرنا ساحل البحر، وكان على يمينها جروف جبل لبنان، وقد عبرت جبيل، وعسكرت قرب البحر في مكان اسمه جونية، وبعد ذلك توقفوا لمدة ثلاثة أيام أمام بيروت، وفي اليوم التالي وصلوا إلى صيدا، واجتازوا في اليوم الذي تلاه الصرفند حيث كان النبي إيليا قد نشأ، ثم وصلو إلى مدينة صور العاصمة، وزحفوا من هناك إلى عكا، تاركين الجليل على اليسار، بين الكرمل والبحر، ومن هناك إلى قيسارية التي هي حاضرة فلسطين، والتي تدعى أيضاً باسم برج ستراتو، وعبر بعض الأمراء من خلال قلعة بيت أولا، ووصلوا إلى مدينة باروخ، وكان ذلك في يوم صعود ربنا، ثم مروا من خلال الزيب إلى دورا ثم إلى حيفا، حيث التقوا جميعاً في قيسارية، واحتفلوا بعيد العنصرة يوم الثامن والعشرين من حزيران.

تخريب كنيسة القديس جرجس الشهيد من قبل الأتراك

وبعد التوقف هناك لمدة أيام، استأنفوا زحفهم وتابعوه، تاركين على يمينهم المناطق البحرية لأرسوف ويافا، وعبروا من خلال اليازورية ووصلوا إلى اللد، التي تعرف أيضاً باسم هليوبولس، حيث يوجد قبر الشهيد المشهور القديس جرجس، وكانت كنيسته قد تعرضت للتخريب من قبل أعداء الإيمان، قبل وصول الحجاج، لأنهم خافوا أن يستخدم الجيش عوارض السقف، التي كانت طويلة جداً، من أجل تشييد آلات لقتال المدينة بها، وانطلق من هناك روبرت كونت فلاندرز يؤم الرملة، حيث وجد الأبواب مفتوحة فدخل مع أتباعه إلى المدينة، لكنهم لم يجدوا أحداً فيها، لأن الأتراك عندما سمعوا بزحف عساكرنا، أنقذوا أنفسهم بالمغادرة في الليلة المتقدمة، ووصل في اليوم التالي بعض من

القادة الآخرين، فوجدوا هناك كميات وافرة من الخمرة، والزيت، والحبوب، وقد وقفوا هناك لمدة ثلاثة أيام، عملوا خلالها رجلاً اسمه روبرت النورماندي أسقفاً لتلك المدينة وعينوا له أسقفية دائمة تضم الرملة واللد مع المناطق المحيطة بها.

ثم تابعت قواتنا زحفها من هناك إلى نيقوبوليس، وهي مدينة فلسطينية، كانت تعرف من قبل عندما كانت قرية، باسم عمواس، ومن المعروف أن المسيح سار هنا، بعد قيامته مع كليوفاس، ويوجد أمام المدينة نبع ماء عذب، يغتسل به الناس المرضى والمواشي لتنقية أنفسهم من مختلف العلل، لأنه يحكى بأن المسيح عندما مرّ مرة بهذا النبع قد قام بغسل قدميه به، وبذلك حصل الماء على القدرة على شفاء مختلف الأمراض.

كيف حصن الترك المدينة المقدسة وسلبوا المسيحيين

وفي الوقت نفسه، علم الترك الذين سكنوا في القدس، باقتراب الحجاج، فقاموا بتحصين المدينة بكل نشاط، وسلبوا المؤمنين الذين وجدوهم فيها من جميع أموالهم التي امتلكوها، وبدأوا بذلك بالبطريرك، الذي كان رأس المدينة، وجمعوا من بقية الناس خمسة عشر ألف قطعة من الذهب، وبعد عملية السلب هذه طردوا جميع المسيحيين من المدينة، باستثناء الضعفاء، والنساء والأطفال، وفي الوقت نفسه رأى الصليبيون أن التأخر خطر، لذلك قاموا عند فجر اليوم بمتابعة رحلتهم مع خشوع في القلب، وعندما اقتربوا من مشاهدة مدينة القدس المقدسة، أرسلوا الآهات مع دموع الفرح، وخلعوا أحذيتهم وتابعوا زحفهم بأقدام حافية، وتابعوا على هذا الشكل حتى صاروا في مواجهة المدينة، وشرعوا في حصارها يوم السادس من حزيران.

ولقد قيل بأن تعداد الجيش المحاصر بلغ حوالي الأربعين ألفاً من

الرجالة، مع ألف وخمسمائة من الفرسان، وذلك إلى جانب الشيوخ والمرضى، والرعاع من الآخرين، الذين كانوا لايحملون سلاحاً، ولقد قيل بأنه كان في المدينة أربعين ألفاً من الترك المسلحين بشكل جيد، الذين كانوا قد تقاطروا عليها للدفاع عن المدينة الملكية، ولتأمين سلامتهم أيضاً، وأدرك الأمراء أنهم لن يفلحوا في الحصار من الجهات الشرقية، والغربية والجنوبية من المدينة، بسبب وجود الوديان العميقة، ولذلك قرروا حصارها من جهة الشمال، ولهذه الغاية نصبوا خيامهم بين الباب المعروف باسم باب اسطفان، وبرج داوود، وكان في الصف الأول غودفري، وتلاه روبرت كونت نورماندي، وكونت فلاندرز، وتمركز اللورد تانكرد مع بعض آخرين كانوا معه حول برج عرف بسبب قربه من احدى زوايا السور، باسم برج الزاوية، وتولى كونت طولوز مع عساكره إلقاء الحصار على الأسوار ما بين برج آخر والباب الغربي، وجرت مركزة جزء من قواته باتجاه الشمال، على الجبل الذي عليه بنيت المدينة، وذلك بين المدينة نفسها وبين الكنيسة التي تعرف باسم كنيسة صهيون، التي هي على بعد حوالي رمية سهم عن الأسوار، وهذا هو المكان الذي يقال بأن مخلصنا تعشى فيه مع تلاميذه، وغسل فيه أقدامهم، ويقال أيضاً بأن هناك كذلك نزل الروح القدس على التلاميذ على شكل لسان ناري، وهناك دفعت أم الرب دين الطبيعة، وقبر القديس إسطفان، أول الشهداء موجود هناك ويحظى باحترام حتى هذا اليوم.

أول حملة شديدة على المدينة

وعندما اكتمل نصب المعسكر على شكل دائرة حول المدينة، وذلك في اليوم الخامس عشر بعد وصولهم، جرى استدعاء الجميع بصوت البوق للقيام بحملة عامة على الأسوار، وبعدماوضع الجميع سوابغهم ودروعهم على أجسامهم ولبسوها، تقاطروا جميعاً من العالي والداني على

مهاجمة الأسوار، وقد حملوا بشجاعة وإقدام، حيث تمكنوا من هزيمة الحامية المدافعة عن المدينة، وخرقوا الدفاعات الخارجية، وانهزم المدافعون إلى داخل المدينة في خوف شديد، ولو كان لدى الصليبيين آلات رمي، وسلالم تدعم حماستهم، لكان من المؤكد استيلائهم على المدينة في ذلك اليوم، لكن عندما رأوا بعد قتال استمر لمدة سبع ساعات أن جهودهم كانت بلامحصلات، لأنهم كانوا بلا آلات، قاموا بتأجيل الهجوم لوقت آخر، وبعد تعب شديد حصلوا على الخشب، وأخذوا يصممون صنع آلات، وعندما صارت مواد آلاتهم جاهزة، جروها بعد تعب شديد وجهد عظيم إلى قرب الأسوار، وعملوا منها أبراجاً، ومجانيق، وعرادات، وكباش، مع آلات للغم الأسوار، لأنهم قدروا أن كل مابذلوه من قبل هو لاشيء، إذا ماأخفقوا في الاستيلاء على المدينة، الذي هو الهدف الأساسي لحجهم المتعب، ولذلك عمل جيشنا بشكل مواظب لصنع الآلات، والأسيجة المتنقلة، والسلالم، التي بها طال الحصار، وبما أن المنطقة التي هي قرب الأسوار جافة وبلامياه، فقد أرغموا على استخدام الجداول، والينابيع، والآبار، الواقعة على مسافة خمسة أميال أو ستة عن المدينة، ولذلك تحمل الناس وقاسوا من العطش الشديد.

وكان الأتراك أيضاً عندما سمعوا بأن الصليبيين قادمين، ملأوا أكبر عدد من الآبار بالرمال وبأشياء أخرى، لمضايقة المحاصرين، وحطموا جميع البرك والصهاريج الأخرى، حتى لايمكنهم احتواء الماء، أو أنهم أخفوا بعضهم، حتى لاتتمكن العساكر العطشى من الاستفادة منهم، ولذلك أجبروا على التفرق في مختلف الجهات للحصول على الماء، وكانت إذا ذهبت فئة صغيرة منهم ووجدت بعد كل صعوبة جدولاً، قبل أن يجده سواهم، كانت تأتي فئة أكبر إلى المكان نفسه، وكان أحياناً يحدث قتال بينهم، وماتت أيضاً خيولهم، وبغالهم، وحميرهم،

ومواشيهم، وقطعانهم بسبب العطش، ثم إن جثثهم تعفنت وسببت روائح كريهة لايمكن تحملها وكان ذلك بسبب الحرارة، ولذلك فسد الهواء.

ووصل في الوقت نفسه رسول تحدث بأن اسطولاً جنويا قد وصل إلى يافا، وهو يطلب من الأمراء مرافقة تتولى قيادهم إلى المعسكر، ووقع اختيار كونت طولوز للقيام بهذه المهمة على واحد اسمه غولدمار Galdemar ، وكان فارساً شجاعاً، وعين معه ثلاثين فارساً وخمسمائة من الرجالة، وإليهم أضيف لمزيد من الضمان ريموند بايلت، ووليم سابران Sabran مع خمسمائة من الفرسان، وقد وصلوا إلى المنطقة مابين مدينتي اللد والرملة، حيث اصطدموا هناك مع ستمائة من الأتراك، وحدث اشتباك قتل فيه أربعة من فرساننا وعدد من العساكر الرجالة، لكن في النهاية انتصرت قواتنا، وتمّ قتل مائتين من الأتراك، أما الباقي فأرغموا على الفرار، وسقط— على كل حال— هناك من جانبنا اثنان من رجالنا هما غيلبرت دي تريفا Gilbert de treva، وأيكارد دي مونت ميرلا Aicard de Monte Merla، ووصل البقية إلى يافا سالمين، وبذلك جرت مرافقة القادمين إلى القدس بسلام، حيث جرى استقبالهم بسرور، وكانوا ذوي فائدة عظيمة للجيش الصليبي.

اكتمال صنع الآلات ومهاجمة المدينة مجدداً

ومع نهاية الشهر اكتملت الآلات، وأعطى الأساقفة مع شيوخ الجيش أوامر للقيام بمصالحة عامة بين الجنود، مع صيام، ومسيرات، وصلوات للرب، وجرى تنفيذ هذا كله بنظام، وفي يوم محدد اجتمع حشد الحجاج كله وهو حامل للسلاح، وهم جميعا مجمعون على هدف واحد: إما أن يقدموا حيواتهم في سبيل المسيح، أو أن يستردوا المدينة ويعيدوها إلى الحرية المسيحية، وزحفوا إثر ذلك جميعاً نحو الأسوار، وبذلوا جهودهم لإحضار الآلات ومركزتها، حتى يمكنهم محاربة

الأتراك بشكل أفضل، وكـان هؤلاء يقـاتلـون من الأبراج وكـذلك من وراء شرافـات الأسوار، هذا وقـاوم العـدو بشجاعـة، ورمـوا علينا مع أصوات مـرتفعة الحراب، والسهام، والحجـارة من آلاتهم، وقام في ذلك الوقت رجـالنا، وقـد تستروا بترستهم وبالحواجـز المتنقلة، بالرمـاية على الأتراك بالقسي الطويلـة، وبالقسي العقـارة، ورمـوا كميـات كثيفـة من الحجارة، وزحفـوا أقرب فأقرب من الأسـوار، ولم يمنحوا الجنود الذين كانوا على الأسوار أية فرصة للاستراحة.

وقام آخرون من جنودنا فمركزوا الآلات والأبراج، وقذفوا بحجارة كبيرة من المجـانيق والعـرادات على الأسوار، فقـد كـان هدفهم خلخلة هذه الأسـوار وتسبيب سقوطهـا، في حين قذف آخرون بحجـارة أخف من آلات أصغـر، وسددوا رمـاياتهم ضـد الذين كـانوا فوق الأسـوار، وبهذه الطريقـة صرفـوا أنظارهـم عن رجـالنا الذيـن كـانوا يزحفـون بالأسفل، ومع ذلـك تقـدم هؤلاء قليـلاً، لأن الأتراك الذيـن كـانوا في الداخل دلّوا فـوق الأسـوار أكيـاسـاً من القـش، وزرابي، وعـوارض خشبية، وفرشاً مليئة بقطع القماش، وقد أخمدت نعومة هذه الأشياء قوة القـذف، وبددت تعب رجالنا وجهـودهم، يضاف إلى هذا أن الحجـارة والنشـاب الذين رمـوهم من آلاتهم، سببوا توقف رجـالنا أثناء القتـال، وهم يحاولـون طم الخندق بـالتراب، والحجـارة، ونشـارة الخشب، والفضـلات، وذلك بغيـة أن يكون أسهل بالنسبـة لهم الوصـول إلى الأسوار، وقام المحاصرون، من جهة أخرى، حتى يحبطوا جهود رجالنا، بإلقـاء قطع محترقـة، وأسهماً مشتعلة بعـدمـا جـرى تغطيسهـا بالزيت والكبريت، وذلـك بهدف اشعـال النار— إذا أمكـن— في آلاتنا، وفي مـواجهـة لهذه المقذوفـات، قـام قـادتنا برمي الرمـال وبصب الميـاه من الأعلى، وبذلك أطفأوا النيران، وتمت الحملة مـن ثلاثة أمـاكن في وقت واحـد، وتولاها: الدوق غودفـري، وروبرت دوق نورماندي، وكـونت

طولوز، واستمـرت هذه الحملة طوال النهـار، من الصبـاح حتى الليل، وأخيرا تولى الظلام الفصل بين المتصارعين.

الحملة الثالثة والاستيلاء على المدينة

استأنف الجيش كله في الصباح الباكر القتال بخفة ورشاقة، وعاد كل رجل إلى المركـز الذي كان معيناً له في اليـوم المتقدم، فقـد رمى بعضهم بحجـارة الطواحين من الآلات ضـد الأسـوار، ودفع آخـرون الأبراج، وتولى آخرون الرمي بالقسي الزيارة والقسي الطويلة، أو بالحجارة، إبعاد المحـاصرين عن الشرافات، إلى حـد أن مامن واحـد منهم بات بإمكانه اظهار يده فوق الأسوار، وحاول في تلك الأثناء سكان المدينة استخدام وسائل جـديدة، كان منهـا قطعاً من الأقمشة المحترقـة، وقدوراً صغيرة مليئة بالنيران، من النوع السريع التحطم، وباستخـدام أشياءأخـرى، كما فعلوا من قبل، لتـدمير آلات الصليبيين، وكـانت هناك مقتلة كبيرة من على الجانبين، بسبب المقذوفـات التي استخدمت، وكـان من غير الممكن القـول من من الفريقين قـاتل بشجاعـة أكبر، وكانت هناك واحـدة من آلاتنا قـد رمت حجارة كبيرة ضـد الأسوار، كـانت مدهشـة بحجمها، وعندمـا وجـد العـدو أن وسائلـه غير فعالـة جلب ساحـرتين لتـوليـا سحرهما وابطال مفعولها، وعندمـا كانتا هاتين تقومـان بسحرهما وإلقاء تعـاويذهما، أصابتهما حجـرة كبيرة من الآلة نفسهـا، وقتلتهما، مع ثلاث نساء أخريات كن يتولين خدمتهما، وسقطت أجساد الخمسة في الخندق، وصـدرت صرخـــة مـدوية عن الجيـش لدى رؤيتـة لهذا المشهـد، أمـا معنويات الأتراك فقــد تدمـرت بشكل كـامل، وكـانـت الآن السـاعـة السابعة من النهار، وكان رجالنا قد ملوا من بذل جهودهم غير المجدية، وكانوا يفكرون بالتراجع وبسحب أبراجهم التي كانت تحترق، وكذلك آلاتهم، وبإيقـاف الهجــوم حتى اليـوم التـالي، وقتهـا أظهــرت المعـونة السماوية ذاتها، وألهبت الأمل في قلوبهم، فقد ظهر فارس نازل من جبل

الزيتـون حامـلاً بيـده ترساً بريقـه يزيغ العيـون، وقد أعطى إشـارة إلى عساكرنا للعودة إلى القتال، واستئناف الهجوم، وتشجع الدوق غودفري بالإشارة، فـاستدعى الجيش بأصوات مـرتفعة، وبصرخات عاليـة، وقد أطاعـوا أوامره بخفـة ونشاط، حتى بـدا الأمر وكأن المعـركة قـد بدأت آنذاك.

وأعطاهم ناسك أملاً ونشـاطاً، بإخبارهم بأنهم سـوف يستولون على القـدس في ذلك اليـوم، وكـان هذا نفسـه قـد سكن في جبل الزيتـون، وشجعت هذه الشـارات جميعاً الجيش، وجعلت عسـاكره متأكـدين من أنهم سـوف ينالون النصر، وتمكن أخيراً الدوق غـودفري، بالنعمـة التي منحهـا الرب إليـه، من إزالة جميـع العقبـات وتسـوية الأرض، ومن ثم الوصول بحرية إلى الأسوار، التي كـان المحاصرون الذين يدافعون عنها في غاية الانهاك، وقام رجاله بناء على أوامره بإلقاء النيران على الأكياس والفـرش التي كـانت مليئة بـالقش، ومعلقـة من فـوق الأسـوار، ونشر اللهب الذي حـركتـه الريـاح دخـاناً انتشر في المدينة كلهـا، إلى حـد أن المدافعين عن الأسـوار لم يعـد بامكانهم متـابعـة بذل الجهـود والمثـابرة فانسحبـوا من وراء الشرافات، وأمسك الدوق عـوارض الخشب، التي علقوها من الأسـوار لإزعاج رجالنا بها، وجعـل نهاياتها مربوطة بالبرج بمسـامير، والنهايات الأخـرى فوق الشرافـات، ثم ألقى بالجسر بحيث امتد من طرف البرج إلى شرافات السور، وهكذا كان الدوق، الذي كان فـارسـاً شجـاعـاً، أول من دخل المدينـة، ولحق به أخـوه يوستـاس، ثم روبرت دوق نورماندي، وبعدهم كونت فلاندرز مع أخويه ليتولف Li-tolf، وغلبرت، وتجمع فوق الجسر حشد كبير من الفرسان والرجالة إلى حد أنه لم يعد يستطيع تحملهم.

وعندمـا شاهـد الأتراك بأن جنودنا، قـد استولوا على الأسـوار، وأن الدوق قـد نصب رايتـه فـوقهـا، تخلـوا عن الأبراج، وهربوا إلى الأزقـة

الضيقة، وأيضاً لدى إدراك عامة جندنا بأن الأمراء قد حصلوا على موقع في الأبراج، نصبوا السلالم، وأسندوها على الأسوار بالسرعة الممكنة، والتحقوا بقادتهم من دون تأخير، ثم أرسل الدوق غودفري بعضاً من رجاله لفتح الباب الشمالي، الذي مايزال يعرف باسم باب القديس بولص، ومآأن تمّ فتحه، حتى دخل الجيش، وكان ذلك في الساعة التاسعة، من اليوم السادس من الاسبوع، فآنذاك جرى الاستيلاء على القدس، وكان ذلك في سنة ١٠٩٩ لتجسيد ربنا، أي بعد أربع سنوات منذ أن ربط الحجاج أنفسهم بعهد الحج، وكان آنذاك البابا أوربان الثاني جالساً على كرسي الكاثوليك الرومان، وكان هنري هو امبراطور الرومان، وألكسيوس هو امبراطور الامبراطورية الاغريقية، وكان فيليب يحكم في فرنسا، ووليم روفوس في انكلترا، في حين حكم على جميع الناس وعلى كل الأشياء الرب يسوع المسيح، إلى أبد الآبدين، فله التشريف والمجد لعصور بلانهاية.

كيف جرى قتل جميع الأتراك ومن ثم تنظيف المدينة المقدسة

وجرى الاستيلاء على المدينة وفق هذه الطريقة، وقام الدوق غودفري مع الأتباع المؤمنين بالتحكم بالطرقات بسيوف مجردة، وتولوا قتل جميع الأتراك الذين قابلوهم، وكان عدد الجثث كبيراً جداً، وكذلك عدد الرؤوس التي فصلت عن أجسادها، حتى أنه لم يعد بإمكان أي انسان السير في الطرقات من دون أن يسير فوق أجساد ميتة، وأثناء حدوث هذا كله، كان كونت طولوز مع الأمراء، الآخرين يقاتلون بشجاعة حول جبل صهيون، غير عارفين بما حدث، لكن عندما سمعوا صراخ الفريقين المتصارعين، وشاهدوا مقتلة سكان المدينة، عرفوا بأن المدينة قد جرى الاستيلاء عليها بعد اقتحامها، وأن عساكرنا قد نالت النصر، وبناء عليه أسندوا على الفور السلالم على الأسوار، ودخلوا إلى المدينة من دون مقاومة، وقتلوا من الأعداء أعداد كبيرة، وفتحوا الباب الجنوبي

الذي كـان بجـوارهم، وتركـوا بقيـة الجيش يدخل، وهكذا فإن الأتراك الذين انهزمـوا مـن الدوق ومن رجـاله، وقعـوا الآن أمـام هذا العـدو الجديد، وصـاروا بين نارين، وكانـت المذبحة التي اقترفت في كل جـزء من أجزاء المدينة هائلة، وكـانت كميات الدماء المراقـة كثيرة إلى حد أنها سببت الانزعاج والقرف للمنتصرين أنفسهم.

وسمع تانكرد بـأن عـدداً كبيراً من الأتراك قـد هربوا للالتجـاء في سـاحات المعبـد، فاندفـع إلى هناك مع عدد كبير من الرجـال المسلحين، وشق طريقه إلى داخـل المعبد بالقوة، وقتل عـدداً كبيراً من الناس هناك في داخله، ويقـال بأنه انتـزع، وسلب، وحمل معـه، كميـات واسعـة من الذهب والفضـة، ولدى سماع بقية الأمراء بهذا اندفعـوا إلى الداخل مع حشد من الفرسان والرجـالة، وقتلوا كل من واجهوه، وملأوا الطرقات بالدماء، ويقال بأن عشرة آلاف مـن الأتراك قد قتلوا بين أطراف المعبد، وذلك بالاضـافـة إلى الذين قتلـوا في الطرقـات في أحـوازه حيث بلغ تعدادهم مثل ذلك، ثم إن رجالنا تفرقوا خلال الشوارع، وبحثوا في كل مكان سري أو خفي، وأخرجوا كل من وجـدوه من سادة وسيدات مع أطفـالهم وأسرهم، لقـد جـروهم من غـرفهـم السرية ومن حيث خبأوا أنفسهم، وقتلـوهم إمـا بـالسيف، أو أطاحـوا بهم من الأعلى على رؤوسهم، فدقوا أعناقهم، وكـان كل من تملك بيتاً أولاً أو قصراً، ادعى ملكيته بشكل دائم، لأنه كـان هناك اتفاق بين الأمـراء، أنه عندما يجري الاستيـلاء على المدينة، ينبغي أن يحتفـظ كل انسـان بكل مـايمكنه الاستيلاء عليه، وهكذا أقدم كل من استولى على بيت قبل سواه، بتثبيت علم، أو ترس، أو أي نوع من السـلاح، عند الباب، كعلامـة بأن البيت قد جرى احتلاله وتملكه.

كيف زار الأمراء الأماكن المقدسة

ويعـدمـا عـاد الهدوء إلى المدينة، بعد الاستيـلاء عليهـا، وجـرى جمع

الغنائم والأسلاب من قبل الحجاج، شرعوا مع الآهات والدموع، وبأقدام حافية، ومع كل علامة من علامات التواضع والخشوع، بزيارة كل مكان مقدس، كان ربنا قد قدسه بحضوره، وبشكل خاص كنيسة قيامة ربنا وآلامه، ولكم كان ممتعا أن تشاهد مدى الخشوع الذي أبداه المؤمنون من الجنسين، بينما حلقت نفوسهم بمتعة روحانية، واقتربوا وهم يسكبون الدموع من الأماكن المقدسة، وهم أيضاً يقدمون الشكر للرب لتمكينهم من ايصال جهودهم التقوية وصلواتهم الطويلة إلى النهاية المطلوبة، ومن هناك حصلوا على آمال، بأن ماعملوه سوف يكون نافعاً في القيامة المستقبلية، وأن الفوائد الحالية سوف تعطيهم توقعاً مؤكداً حول كل ماهو مقبل، وأن القدس الأرضية التي ساروا عليها الآن، سوف تكون بالنسبة إليهم الطريق إلى القدس القائمة في السماء.

وقام الأساقفة أيضاً والكهنة، بتطهير كنائس المدينة، ولاسيما أحواز المعبد، وكرسوا للرب الأماكن المقدسة، ثم أقاموا القداسات أمام الناس، وقدموا الشكر للمباركات التي تلقوها، وفي ذلك اليوم أيضاً، قيل بأن أدهمر أسقف لى بوي، صاحب الذكرى الخالدة، والذي قلنا بأنه قد توفي في أنطاكية، قد شوهد من قبل عدد كبير من الناس في المدينة، لابل أكثر من هذا، لقد أكّد كثير من الناس من أعظمهم ثقة بأنهم رأوه بأعينهم يتجول مع الأمراء ويقوم بزيارة الأماكن المقدسة، يضاف إلى هذا، أن كثيرين آخرين، من الذين ماتوا في سبيل المسيح أثناء الحج، قد ظهروا في المدينة أمام الكثيرين، وهم يزورون بخشوع الأماكن المقدسة.

أما بالنسبة لبطرس الناسك، الذي كان قبل خمس سنوات، قد زار البطريرك والسكان المؤمنين للمدينة المقدسة، والذي تولت حماسته وغيرته إقناع أمراء الغرب بالتعهد بالقيام بالحج، بطرس هذا قد اعترف الجميع به، وحيوه بعاطفة جياشة، وقد تلقى شكرهم، لأنه قام باخلاص عظيم باثارتهم للقيام بهذه المهمة، وجعل الأمراء والشعوب

يتولون بذل هذا الجهد العظيم من أجل المسيح وفي سبيله.

وعندما تمّ الفراغ من هذا كله، عاد الأمراء إلى بيوتهم وأماكن سكناهم، التي كان الناس في تلك الأثناء قد أعدوها لهم، وقد وجدوها مليئة تماماً بكل شيء ضروري، وصار لدى الجميع من أدناهم إلى أعلاهم وفرة عظيمة من كل شيء يرغبون به، من: ذهب، وفضة، وجواهر، وملابس ثمينة، وقمح، وخمرة، وزيت، وذلك بالاضافة إلى كميات عظيمة من المياه، وقام الذين عانوا كثيراً من العوز والفاقة أثناء الحصار، والذين تملكوا الآن البيوت، وصار لديهم قدرة، قاموا بسد العوز لدى إخوانهم المحتاجين، ونتيجة لذلك توفرت في اليوم التالي للانتصار كميات عظيمة من كل شيء يمكن أن يرغب به الانسان معروضة للبيع في السوق العام بأسعار متدنية، حتى أن أدنى الناس مكانة صارت لديهم وفرة من كل شيء.

كيف انتخب الأمراء ملكاً وبطريركاً

وبعد سبعة أيام أمضيت بالراحة وبالمتعة الروحانية، اجتمع الأمراء مع بعضهم في اليوم الثامن، ليقرروا بفضل نعمة الروح القدس، أياً من أفرادهم سوف يكون ملكاً لتلك المنطقة مع المدينة المقدسة، هذا ولايجوز لي أن أغفل أن جميع الأمراء طلبوا الإلهام من ملاك الحكمة في عليين، أن ينتخبوا ملكاً الذي يتولى الرب تعيينه، وأعطيت وقتذاك شمعة إضاءة إلى كل أمير، على أساس أن الذي سوف يختاره الرب من بينهم بإضاءة شمعته تتوجب تحيته ملكاً من قبلهم جميعاً، ووقع الاختيار على روبرت دوق نورماندي، فقام هذا بإطفاء الضوء، ومن دون سرور أبعد الاختيار الرباني، ذلك أنه قال بأنه سوف يتمتع من بعد بسلطان أعظم، عندما يعود إلى وطنه في انكلترا[ذلك أنه كان قد سمع للتو نبأ وفاة أخيه وليم روفوس]، وقام الأمراء الآن بعد كثير من النقاشات، باختيار الدوق غودفري، واصطحبوه وسط الحمد،

والترانيم، والمزامير إلى أمام ضريح الرب.

كما أنهم قرروا القيام بتعيين بطريرك للمدينـة المقدسة، وبفضل جهود روبرت دوق نورمـاندي، حصل أسقف من مـاتورين Maturane في كـلابـريا على التعيين لإيثـاره له، وكـان اسمـه أرنولف، كما كـان ابنا لكاهن، ومعروفاً بين الحجاج بفسـوقه وطيشه، هذا ومالبث أرنولف أن مات، وبذلك انتهت عملية تعيينه، وبقي الكرسي بعده شاغراً لمدة خمسة أشهر، وقـام الأمراء الذين كـانوا موجـودين، بعد كثير من المنـاقشات، باختيار ديبرت Daibert المحترم، لأن يجلس على عرش البطـركية، وليمارس عنايته الرعوية، وكان من قبل أسقف كنيسة بيزا، وكان رجلاً عظيم المعرفة، وقد نشأ منذ طفولته وسط المسائل اللاهوتية.

كيف جرت هزيمة جيش سلطان مصر من قبل الصليبيين

وقبل مضي وقت طويل على استيـلاء المؤمنين على المدينة المقـدسـة، سمع سلطان مصر ودمشق، الذي كـان الأقـوى بين الأمـراء الشرقيين، بالذي حـدث للقـدس، فـاستـدعـى أمير الجيـوش لديه، وكـان اسمـه الأفضل، وأمره بالزحف إلى سورية مع جميع قوات مصر، وامبراطوريته كلها، لإزالة الشعب الطائش من على وجـه الأرض، حتى لايذكر اسمه ثانيـة، هذا وكـان الأفضل من أصل أرمنـي، وولد من خـلال أبوين مسيحيين، لكنه من أجل الثروة ارتد عن الايمان، وكان اسمه التعميدي إميريوس(١) Emyreius، لكنه بعـدمـا غير دينه، أصبح يـدعى باسم الأفضل، وعلى هذا قـام عـدو صليب المسيـح هذا بحشـد جميع قـوات مصر، والعـربية، ودمشق، ووصل إلى عسقـلان، وهناك نصب معسكره مع جميع عساكـره، وبنيته متابعـة الزحف إلى القدس، ليقـوم بمحاصرة الجيش الصليبي هنـاك وأن يقـوم بعـد هزيمتـه له، بتـدمير ضريـح ربنا

---

١ — كذا ولعل هذه التسمية تصحيفاً لكلمة« أمير الجيوس» اللقب الذي حمله الأفضل من بعد أبيه ووراثة عنه.

تدميراً كـاملاً، ولكن حجـاج الصليب لم يكونوا على استعداد للتعـرض ثانية لمحنـة ومآسي الحصار، ولذلـك احتشدوا جميعاً من شعـب ورجال دين عند ضريح ربنا، وطرحوا أنفسهم على الأرض، وتوجهـوا بالدعاء إلى الرب، بقلوب متضرعـة مع كثير مـن النحيب، والتمسـوه أن يكون رحيماً فيحرر شعبه من مخاطره الهائلة، وبعدما حصلوا على الثقة من هذا العمل الديني، زحفوا بشجاعة نحـو عسقلان لمواجهة العدو في الميدان، وحملوا معهم قطعـة من صليب الرب، كـانت قد اكتشفـت مؤخـراً من قبل واحد من سكان القـدس اسمه سيروس Syrus ، الذي كان قد أبقاها في حفظه، وأنها وصلت إليه من عصور قديمة.

ووصل الدوق، الـذي هو الآن ملك القـدس، إلى الرملة، مع بقيـة الأمـراء، وعلم هناك بشكل مؤكـد بأن إميريوس المتقدم الذكـر معسكر مع جيشـه عند عسقـلان، ولذلك بعث أمـامـه بمائتين مـن الفـرسـان، لاستطلاع الطريق، وللتجسس حـول أوضـاع العـدو، وبعدمـا سـاروا مسـافـة قصيرة، وجـدوا بعض قطعـان الثيران، والخيـول، والجمال، مع رجال مسؤولين عن جميع هذه الحيوانات، وكذلك بعض الفرسان الذين كانوا يتـولون حراستهم، وقـد هرب هؤلاء في اللحظة التي اقترب فيها رجـالنا، وتركوا الأسراب للعنايـة بأنفسهم وجرى— على كل حـال— اعتقـال بعض هؤلاء، وتمّ الحصـول على معلومـات منهم فيما يتعلق بخطط العدو، وأن قائدهم الأعلى، الذي كـان على بعد سبعة أميال، قد اقترح القيام بعـد يومين بالهجوم وتدمير جيشنا، وكـان تعداد الصليبيين حوالي اثنتـي عشرة مائة فـارس، أما الرجـالة فكانوا حـوالي ستة آلاف، وقـام هؤلاء وقـد وثقـوا من الحصـول على النصر، بتعبئة رجـالهم، فجعلوهم في تسعـة أقسـام، وضعـوا ثلاثة منهم في المقـدمـة، وثلاثة في الوسط، وثلاثة في الساقة، حتى إذا ماخرق العدو القسم الأول والقسم الثـاني، أو من أي جانب، يمكنه أن يجد خطاً آخـر جاهزاً للتصـدي له،

وكـانت الأسلاب التي كـانوا قـد حصلوا للتو عليهـا كبيرة جداً، وقـد أمضوا الليل حيث كـانوا مع سرور عظيم، وفي الصباح جـرت دعوتهم بوساطة البـوق للاستعداد للقتال، وعهـدوا بأنفسهم للرب، ومع ثقتهم المطلقـة به، زحفـوا نحـو الأمـام كـأنهم رجل واحـد لمواجهـة العـدو، وتقدمت الكتائب وفق نظام عسكري، وزحفت بشكل قتالي ثابت، وفي تلك الأثناء تمكنوا من الاحتفاظ بالمواشي والدواب، ودفعها بقوة ربانية، ولذلك بدا مـن الأثر، ومما أحـاط بالعسـاكـر من على اليمين ومن على اليسار من غبار، أن القوات الزاحفة كبيرة، إلى حد أن مامن أحد يمكنه منعها.

ورأى العــدو عن بعــد هذا المشهــد، من خــلال نور الشمس غير الواضح، فبدأ يشعر بالخوف، قبل حدوث القتال، لأنه اعتقد أن الجيش الصليبي كان جيشـاً ضخماً جداً، مع أن تعـداد قوات هذا العـدو كانت أكبر بكثير من حيث الرجـال، وقام روبرت دوق نورمانـدي الذي كان قـائد الصليبيين وحـامل علمهم بإنجـاز، لايمكن إلاّ الثناء عليـه كثيراً، فقد شاهد عن بعد راية أمير الجيـوش ولها تفاحة ذهبية على رأس رمح، وكانت تشع مع صفائح فضية، فـافترض بأن أمير الجيوش شخصياً كان هناك، فحمل عليـه من خـلال وسط الأعـداء، وسبب له جرحـاً مميتـاً، ولذلك ألقى برعب كبير بين صفوف المسلمين.

نحيب أمير الجيوش والنصر والغنائم

وعندمـا كـان أمير الجيـوس بالرمق الأخير، لجراحتـه المميتـة، تفـوه بكلمات النحيب التاليـة وتوجه بها إلى الرب القدير قـائلاً: « ياأعظم من كل شيء، أي مصير صعب مصيري هذا، وأية وصمـة عـار لسـلاحنا، عندما انتصرت فئة صغيرة من الرجال المعوزين على قواتنا العظيمة، فقد قدت إلى هنا مـائتي ألف من الفرسان(كذا) وأعـداد أعظم من الرجالة، وكان— كما هو مفترض— عليّ أن أقهر العالم كله، لكنهم الآن— إذا لم

أكن مخطئا— قـد انهزمـوا بشكل مشين من قبـل أقل من ألـف من الفرسـان، وبضعة آلاف من الرجالة، ولاشك أن ربهم هو القـدير، وقد قاتل في سبيلهم، أو أنه غاضب علينا، وعاقبنا بغضبه الشديد ومهما كان الحال، إنني لن أعـود ثانيـة للالتقـاء بهم في معـركـة، بل سأعـود مجللاً بالعار إلى بلدي، إذا مـابقيت حياً»، وجـدد بهذه الكلمات بكاءه، وغرق في نحيب عظيم، وكان الأتراك وقتها يفكرون بالهزيمة، وفيما هم كذلك قـام فـارس من اللورين، كـان معينا في السـاقـة مع الدوق غـودفـري، بالحملة عليهم من على الجناحين، وحـرمهم من فـرصـة التراجع، وبهذه الصـورة هـوجموا من الأمـام من قبل دوق نـورمـاندي، وحـرمـوا من التراجع من قبل الذيـن كـانوا خلفهم، ولذلك مـزقـوا إلى قطع حسب مشيئة الصليبيين، وهرب القـائـد ونجـا على ظهـر جمل بفـراره بسرعـة كبيرة، ووقتهـا وصل جيشنا، وقـد أنعم عليـه بالنصر من عليين، إلى معسكر العـدو، حيث وجـد وفـرة عظيمـة من الذهب، والفضـة، والمقتنيـات، والحجـارة الثمينة، وثروات غير معـروفـة في مناطقنا من العـالم، وقد امتـلأوا حتى التخمة بها، حتى أن الأدنى بينهم كـان يمكنه أن يردد مع الشاعر(أوفيد):

« الوفرة عملتني فقيراً»

واستنقـذ الدوق روبرت الراية السلطانيـة مقابل عشريـن ماركـاً من الفضة، أعطاها للذي احتفظ بها أثنـاء قيامه بمطاردة العـدو، وحملها إلى ضريح ربنا، لتكون شـاهدة على تخليـد نصره، وباع رجـل آخـر سيف القـائد نفسـه مقابل أربعين قطعـة ذهبيـة، وبهذه الطريقة لحقت الهزيمـة بالأعداء، وحصل جيشنا بهبة من الرب، على النصر، وعاد مسروراً جداً إلى القدس، مثقلاً بكثير من كميات الأسلاب.

عودة روبرت دوق نورماندي وكونت فلاندرز إلى وطنيهما

وبعـدمـا أكمـل روبرت دوق نورمـاندي وكـونـت فـلاندرز حجهما بنجـاح، عادا إلى بلديهما، وقـال بعضهم بأن الرب قـد غضب منه، لأنه رفض تسلم السلطة في القـدس، ولم يسمح له بعد ذلك بالنجـاح في أي شيء، كما سـوف يتحـدث التاريـخ فيما بعد، وبناء عليـه، بعـدمـا ذهب هذان الأميران، احتفظ الملك غودفري معه بتـانكرد، وغارنر كونت دي غري، وببعـض آخر من الأمراء الغـربيين، وقد أدار المملكة التـي منحه الرب إياها بنشاط وحكمـة، وقد منح مدينة طبرية، القـائمة على بحيرة جنسارث مع جميع منطقـة الجليل، ومدينة حيفا البحرية والمعـروفة أيضاً باسم بروفيريا إلى اللورد تانكرد، الذي كـان راغباً في حكمـه في إرضاء الرب، حتى أن كنائس تلـك المنطقـة تتحـدث حتى الآن عن حكومتـه بفخار، وبعد مضي عامين جرت ترقيتـه لفضائله إلى إمارة أنطاكية، وقد أغنى الكنائس، التي كـانت مجيدة في العصور الخاليـة، بكثير من الهدايا، وذلك بالاضافـة إلى أنه وسع حدود إمـارته بأن أضاف إليها عـدة مدن وقلاع استولى عليها.

وضع المدينة المقدسة والمدن الواقعة من حولها

من المعـروف بشكل جيـد أن مدينة القـدس واقعـة في منطقة جبليـة عـاليـة، وفي ديار سبط بنيـامين، وكان في غـربيهـا ديار سبط شمعـون، وأرض الفلسطينيين، والبحـر المتوسط، وهي تبعـد عنه حتى مدينة يافـا أربعـة وعشرين ميـلاً، وفي منتصف الطريق إلى هناك قلعـة عمـواس، ومودين، حصن المكابيين المبـاركين، ونين قرية الكهنة، واللد التي شفى فيهـا بطرس عنيـاس العـاجز، وحيث عـاش سمعـان في بيت سمعـان الدباغ، وذلك عندما تسلم الرسالة، فأعاد إلى الحياة في يافا التلميذة التي اسمها تابيثا، ويقع على الجهة الشرقية من القدس نهر الأردن، وصحراء أبناء الأنبياء، وعلى أربعـة عشر ميلاً، هناك واد كثير الأشجـار، وكذلك البحر الميت، وعلى هذا الجانب مـن الأردن مدينة أريحا، والجليل مسكن

اليشع، وهناك على الجانب الآخر: جلعاد، وبيسان، وعمون، ومآب، اللائي جرى فيما بعد، اقتسامهن بين سبطي رأوبين، وجاد، ونصف سبط منسى، وتمتد المنطقة هذه الآن وتعرف بشكل عام باسم العربية، وإلى الجنوب من القدس ديار سبط يهوذا، حيث في دياره: بيت لحم التي تقدست بولادة ربنا، وتقوع بلدة حبقوق وعموس، وحبرون، التي هي قرية أربعة، وأيضا مدفن البطاركة اليهود، وتقوم في الشمال جبعون، التي حظيت بالشهرة، بسبب نصر يوشع بن نون، وسبط إفرايم، وشيلوه، وشيكار، ومنطقة السامرة، وبيت إيل، الذي شهدت ذنب يربعام، وسبسطية، وقبر اليشع، وعوبديا، والمنطقة التي شهدت استشهاد يوحنا المعمدان، وكانت هذه المنطقة تعرف من قبل باسم السامرة اشتقاقاً من جبل سومر، وكان هذا كذلك اسم المنطقة كلها، التي كانت هي مملكة ملوك اسرائيل، وهناك أيضاً توجد مدينة نابلس— أونيقوبولس— حيث قتل شمعون ولاوي ابنا يعقوب شكيم ابن عمور Emmor، لاغتصابه اختهما دينه، ودمرا مدينته بالنار.

والقدس هي حاضرة اليهودية، وكان اسمها في البداية— وفقاً للتاريخ القديم— سالم، اشتقاقاً من اسم سام أكبر أبناء نوح، الذي بناها وحكم عليها، وهو الذي عرف فيما بعد باسم ملكيصادق، الذي قدم خبزاً وخمرة إلى ابراهيم عندما عاد من قتله للملوك الأربعة، ومعنى كلمة« ملكيصادق» « ملك العدالة»، وقد حفظه الله من الطوفان، حتى يلد المسيح من سلالته، وكان هناك في ذلك الوقت مدينة أخرى، اسمها— تبعاً لجيروم— سالم، وقد حُكمت أيضاً مثل المدينة المتقدمة من قبل ملكيصادق، ومن الممكن رؤية خرائبها حتى هذه الأيام قرب مجرى نهر الأردن، ومع مرور الأيام صارت المدينة تعرف باسم يبوس، وذلك اشتقاقاً من اسم واحد من ملوكها، وهكذا بدمج هذين الاسمين:« يبوس» و« سالم» صارت تعرف باسم « يبوس سالم»، ثم

جرى استبدال حرف«ب» بحرف«ر» فصارت تعرف باسم« يروس سالم»(أورشليم)، وفيما بعد عندما استولى داوود على يبوس، عرفت باسم مدينة داوود، وعندما حكمها ابنه سليمان صارت تعرف باسم هيروسوليما أي هيروسالم، التابعة لسليمان.

وفي السنة الثانية والأربعين، بعد آلام ربنا، وبسبب آثام اليهود، حوصرت هذه المدينة وجرى الاستيلاء عليها من قبل تيتوس الأمير المجيد للرومان، الذي دمرها، إلى حد أنه وفقاً لكلمة الرب لم تبق فيها حجر فوق حجر آخر، وقد بنيت فيما بعد من قبل ايليوس هدريان، الذي كان الامبراطور الرابع بعد تيتوس، وباتت تعرف باسم إيلياء، اشتقاقاً من اسمه، هذا وكانت من قبل قائمة فوق الجروف المنحدرة للجبل، وتوجهت بشكل مستمر ومنحدر نحو الشرق والجنوب، قائمة على جانب جبل صهيون وجبل موريا، وفيها فقط الهيكل، وقلعة أنطونيا على قمة الرابية لكن قام الآن الامبراطور هدريان بنقلها كلياً إلى القمة، وبذلك أغلق موضع آلام ربنا وأدخله داخل دائرة الأسوار.

الأماكن المقدسة في داخل المدينة المقدسة

إن هذه المدينة المقدسة، المحبوبة من الرب، ليست واسعة بقدر المدن العظمى في العالم، غير أنها أوسع من عدد كبير من المدن الصغرى، وهي من حيث الشكل مستطيلة، لها أربعة أضلاع، حيث أول الأضلاع أطول من البقية، والأضلاع الثلاثة المتبقية محاطة بوديان عميقة، فمن الجهة الشرقية منها هناك وادي شعفاط، الذي في قعره كنيسة أم الرب، حيث من المعتقد أنها قد دفنت، وقبرها المجيد مرئي هناك، ودون ذلك هناك جدول قدرون، الذي يعود بأصوله إلى الأمطار التي تتساقط في ذلك المكان، وحوله قد قيل:« لقد مضى إلى ماوراء جدول قدرون» الخ، وهناك من الجنوب وادي جيحون، وهو متصل بالوادي المتقدم الذكر، وهو في تقسيم البلاد عائد إلى سبطي بنيامين ويهوذا، ويرتفع هذا

الوادي نحو قمة الجبل القائم في مواجهة بيت عنان Beennon في الغرب، وهناك حقل الدم الذي شري بالمال الذي دفع من أجل ربنا، وهو مكرس لدفن الغرباء فيه، وفي الجانب الغربي من هذا الوادي نفسه هناك موضع فيه بركة قديمة، كانت مشهورة في أيام ملوك اليهودية، وهناك بالأعلى بركة أخرى اسمها« جب البطريرك»، على مقربة منها الكهف المقبرة الذي اسمه« كهف الأسد»، ومن الجانب الشمالي، من الممكن الوصول إلى المدينة عبر أرض مستوية، وذلك عند المكان الذي يقال بأن الرائد الشهيد اسطفان قد رجم فيه.

وتحت سلطان بطريرك هذه المدينة المقدسة أربعة رؤساء أساقفة هم: رئيس أساقفة صور، ورئيس أساقفة قيسارية، ورئيس أساقفة الناصرة، ورئيس أساقفة البتراء، التي تعرف أيضاً باسم الشوبك، ورئاسة الأسقفية الأولى في فينيقية، والثانية في منطقة فلسطين، والثالثة في الجليل، والرابعة في منطقة مآب، ويساعد رئيس أساقفة قيسارية، أسقف سبسطية، وتحت رئيس أساقفة صور أربعة أساقفة مساعدين هم: أسقف عكا،وأسقف صيدا، وأسقف بيروت، وأسقف بانياس، التي تعرف أيضاً باسم قيسارية فيليب، وفي منطقة الناصرة كرسي أسقفيه واحد هو الموجود في طبرية، ولدى رئيس أساقفة البتراء أسقف مساعد واحد أيضاً، هو أسقف إغريقي في جبل سيناء، وإلى جانب الذين تقدم ذكرهم، لدى البطريرك أيضاً تحت سلطته الرعوية المباشرة أساقفة: بيت لحم،واللد، وحبرون، حيث جرى دفن: آدم، وحواء مع ابراهيم، واسحق، ويعقوب.

والأماكن المقدسة في المدينة هي: كنيسة قيامة ربنا على جبل الجمجمة، والموضع المعروف بالجلجلة، وهناك هيكل آخر، يوجد فيه رجال دين، ويوجد في كنيسة جبل صهيون رهبان نظاميون، لهم راعي دير على رأسهم، وفي كنيسة وادي شعفاط رهبان سود تحت رئاسة

راعي دير، وهناك في كنيسـة اللاتين رهبان سود تحت رعـاية راعي دير، وهؤلاء جميعاً رؤساء ديرة متوجون، وهناك فضلاً عن ذلك مدن أخرى ليس لها أساقفة، وهذه هي: عسقلان، وهي خاضعة لأسقف بيت لحم، ويافـا التي هي تحت سلطة كهنة الهيكل، وحيفـا، وهي خاضعـة لرئيس أساقفـة قيسارية، والناصرة، وهي المكان الذي ولدت فيـه مريم أم ربنا، وفيها جرى الحمل بابن العلي الأعلى في رحم العذراء، وبيت لحم، التي ولد فيها خبـز الحياة، والأردن، وهو النهر الذي كان تعميـد المسيح فيه، وهناك مكان آخـر فيه صـام المسيح، وأغـوي من قبل الشيطان، وبحيرة جنسارث، حيث دعا تلاميذه، وعمل كثيراً من المعجزات، وجبل الطور حيث عليه ظهر وتغير شكله.

وفي داخل المدينة المقـدسـة هناك الهيكـل الذي جـرى تقـديمـه فيـه، وجبل صهيـون حيث تعشى مع تلاميـذه، وحيث نزلت الروح القـدس على التلاميـذ، وحيث أيضاً غادرت أم ربنا هذا العـالم، وجبل الجمجمة هو المكان الذي عانى فيه من الموت، والضريح حيث مـدد، ثم قام ثانية في اليوم الثالث، وجبل الزيتون حيث جلس على أتان، وجرى تعبده من قبل الأطفـال، ومنه صعـد إلى السماء، وبيت عنيا حيث أقـام لعـازر من الموت، وسلوان حيـث أعـــاد النظـر إلى الذي كـــان قـــد ولـد أعمى، وجيسماني، أو وادي شعفاط هو المكان الذي اعتقـل فيه المسيح من قبل اليهود، وحيث جـرى دفن الأم مريم، وكنيسة القـديس إسطفان، حيث جرى رجمه حتى الموت، وسبسطية حيث جـرى دفن يوحنا المعمدان مع النبيين: اليشع، واليـاس، ولابد أن يكـون في هذا كفـاية للقـارىء في الوقت الحالي فيما يتعلق ببلاد القدس والمدينة المقدسة.

كيف نظر الملك وليم إلى بلاطه في القاعة الجديدة في وستمنستر

وفي السنة نفسها التي هي سنـة ١٠٩٩م، عاد وليم ملك انكلترا، إلى انكلترا بعد مغادرته نورمـاندي ونظر إلى موضع بلاطه للمرة الأولى، في

القاعـة الجديدة في وستمنستر، عندما دخـل إليها أولاً مع حـاشية كبيرة من الجنود لتفقــدهـا، وقـال بعضهـم بأنها كــانت واسعــة أكثــر من الضروري، لكن الملك رد على ذلك بقوله بأنها نصف حجم ماينبغي أن تكون عليــه، وأنها يمكن أن تكون فقط غــرفــة نوم، في توزيع القصر الذي عزم على بنائه.

وبعـد مضي وقت قصير، وعنـدمـا كـان يصطاد في الغــابة الجديدة، وصل إليه رسـول أخبره بأن أسرته كانت محاصرة في مين Main، فبادر الملك على الفـور مسرعـاً بالنزول إلى شـاطىء البحر، وصعـد إلى ظهـر سفينتـه، غير أن البحارة قـالوا له:« أيها الملك العظيم، لماذا أنت مسافـر بالبحر وسط هذه العاصفة؟ أولست خـائفاً من التعرض للغرق؟» وقد رد على ذلك قـائـلاً:« إنني لم أسمع بأن ملكاً قـد غــرق»، ووفق هذه الطريقـة عبر البحــر، ولم ينل مثلما ناله من سمعـة حسنة طـوال حيـاته بوسـاطة هذا العمل، لأنه مـاأن وصـل إلى مين حتى تولى طرد الكونت هلياس Helias، وعاد إلى انكلترا بعد استيلائه على المدينة.

وفي السنة نفسهــا أعطى الملـك وليم أسقفيــه درم Durham إلى راندولف Randolph الذي كان رجل الإدعاء لديه، وكان رجلاً سيئاً، وفارق أوسموند Osmund أسقف سالسبري هذه الحياة، وأوصل سيغبرت Sigebert راهـب غمبلــور Gemblours تاريخه إلى هذا التـاريخ(الصحيح أوصله حتى ١١٥٢)، وشـوهد الدم في السنة نفسهـا ينبع من الأرض في فينكهـامبستـد Finchampstead في بيركشاير Berkshire، واستمر ذلك طوال الليلة التالية، وبدت السموات حمراء، وكأنها كانت تحترق بالنار.

موت وليم روفوس وبعض الشارات التي بشرت بموته

في سنة ١١٠٠ عقـد الملك وليم روفوس بـلاطه في عيد الميـلاد وسط

أبهة كبيرة وكان ذلك في غلوكستر Gloucester ، وفي عيد الفصح في وينــكستر Winchester ، وفي أحد العنصرة في لندن، وفي اليوم التالي، الذي كان يوم عيـد القديس بطرس في الأغلال(٢—آب)، ذهب إلى الصيـد في الغـابة الجديدة، وهنـاك عندمـا كـان وولتر تيرل Tyrrel يرمي نحـو وعل، أصـاب— دونما قصـد— الملك، حيث خـرق السهم حتى القلب، دون أن يتفـوه بكلمـة، وهكـذا أنهى مـوت تعيس حيـاته الوحشية، وكانـت قد ظهرت عدة علامـات أشرت على موته، ذلك أنه حلم قبل يوم من وفـاته بأنه قد فصـد من قبل طبيب، وأن دمه المتـدفق وصل حتى السماء وحجبهــا، ولذلك استيقظ من نـومـه، ودعــا باسم القديسـة مريم، وطلب مصباحـاً، وأبقى حجابه معـه طوال بقية الليل، وفي الصباح، كان هناك راهب أجنبي، كـان موجوداً في البلاط من أجل بعض الأعمال المتعلقــة بكنيستـه، وقـد قص هـذا الراهب على روبرت فتـز— هامون، وكـان نبيلاً له سلطانـه، ومقرباً من الملك، بأنه قـد رأى مناماً مدهشاً في الليلة المتقدمة: فقد رأى بأن الملك قد دخل إلى كنيسته، وألقى بنظرته المتكبرة على المجتمعين من حـولـه، ثم إنه تناول الصليب ووضعـــه بين أسنانه، وضغـط عليــه حتـى كـاد أن يقتطـع الذراعين والقدمين ويفصمهما، وكان الصليب في البـداية مماشياً للملك، لكنه بعد ذلك ركل الملك بقـدمه اليمنى، ولذلك سقط على البـلاط، وأخرج من فمـه لهباً عظيماً صعـد دخانـه مثل سحابة وصلت حتى النجـوم، وأخبر روبرت الملـك بهذا المنام، فقـــال وهـو يضحك:« إنه راهب، مثلـه مثل جميع الرهبـان، حلم بهذا ليحصل على شيء به، أعطه مـائـة شلن، حتى لايقول بأنه حلم عبثاً».

وجرى الإخبار المتقدم بموت الملك التعيس— كما ذكرت من قبل— بوســاطة الدم الذي خـرج مـن الأرض، مع أنه لم تكن هناك حــاجـة لعلامة أخرى تبشر بالحادثة نفسها، لأن أنسلم رئيس أساقفة كانتربري،

عندما كان منفياً لمدة ثلاث سنوات، من خلال طغيانه، سافر من روما إلى مرسينياك Marcenniac، من أجل التمتع بالحديث مع هيوج راعي دير كلوني، وكان ذلك في حوالي بداية آب، وهناك جرى الحديث بينهما حول الملك وليم، وقد أكد رئيس الأساقفة، بصدق لايمكن نقضه، بأنه قد رأى في الليلة المتقدمة الملك، وقد جرى احضاره إلى أمام عرش الرب، وقد أتهم بجرائمه، وحكم عليه من قبل الحكم العدل بالإدانة، لكنه لم يوضح كيف جرى إخباره بذلك، كما أن رئيس الأساقفة، والذين كانوا حضوراً آنذاك لم يقدموا على سؤاله، بسبب قداسته العظيمة وذهب رئيس الأساقفة في اليوم التالي أيضاً إلى ليون، وفي الليلة نفسها عندما غنى الرهبان الذين رافقوه الصلاة الليلية، كان هناك شاب، قد ارتدى ملابس بسيطة، وكانت ملامحه لطيفة، وقد وقف إلى جانب واحد من كهنة رئيس الأساقفة، وكان فراشه على مقربه من باب القاعة، ومع أنه لم يكن نائماً، أبقى عينيه مغلقتين، وقد دعاه باسمه قائلاً:« آدم هل أنت نائم»؟ فأجابه الكاهن:«لا»، فتابع الشاب كلامه قائلاً:« هل تود سماع بعض الأخبار»؟ فأجابه آدم« بكل ترحاب»، فتابع الشاب حديثه قائلاً:« على هذا اعلم بكل تأكيد بأن الخصام مابين رئيس الأساقفة والملك وليم قد انتهى الآن»، ولدى سماع الكاهن هذه الكلمات نهض ونظر من حوله بعينين مفتوحتين فلم ير أحداً، وفي الليلة التالية أيضاً، عندما كان واحد من رهبان رئيس الأساقفة نفسه واقفاً في مكانه، وهو ينشد الصلاة الليلة، تصور بأن أحد الموجودين هناك ناوله ورقة صغيرة ليقرأها، وقد قرأ الراهب عليها الكلمات التالية:« الملك وليم قدمات»، وقد فتح على الفور عينيه، لكنه لم يشاهد أحداً باستثناء مرافقيه، وبعد وقت قصير جاء إليه(رئيس الأساقفة) اثنان من رهبانه، وأخبراه بأن الملك قد مات، ونصحاه باخلاص بالعودة على الفور إلى كرسيه الأسقفي.

حول أخطاء الملك وليم

إنه صحيح أن الملك وليم قد انقطع بالموت في وسط ظلمه، لأنه فاق جميع الناس، وفعل دوماً كل شر كـان بإمكـانه فعله، وكـان بذلك يتبع نصـائح مستشـاريه الأشرار، فقـد كـان طـاغيـة لشعبـه، وسيئاً بالنسبـة للغـرباء، وأسـوأ كل شيء لنفسـه، وأغضب رعيتـه بضرائبـه ومكوسـه المستمرة، وفي الوقـت نفسه أثار جيرانه بالحروب وبالغـرامات، ولم يكن بامكان انكلترا التنفس تحت وطأة مـافرضـه عليهـا، لأن الملك وخدمـه ألقـوا بأيد عنيفـة على كل شيء، وأوجـدوا اضطراباً وفـوضى على جميع الجوانب، وكـانت أعمال اغتصـابهم، وفسـوقهم وغشهم، وظلمهم، قـد وصلت إلى درجـة لم يسمع بمثلها في سـابق العصور، وكـان هذا الملك الشرير، المكروه من قبل كل من الرب ومن شعبـه قد استـولى من أجل استخـداماته الشخصيـة، في يوم مـوته، على رئـاسة أسقفيـة كـانتربري، وأسقفتي: ونكستر، وسالسبري، إلى جـانب اثني عشر ديراً، هو إمـا قد بـاعهـم، أو أنـزلهم للضمان، أو احتفـظ بهم بين يـديـه، وهـو لم يمارس جرائمـه في الفسوق سراً، بل بشكل مكشـوف في وضح النهار، فهل أنا بحاجـة لقول المزيد حول هذا الموضـوع؟ فقد كـان كل مايرضي الرب، ويرضي العبيـد المؤمنين للرب، من المؤكد كـان لايرضي الملك وأتباعـه، وقد دفن في اليوم الذي أعقب يوم وفاته في ونكستر ، هذا ولم يبلل قبره بدمـوع أحـد، وكـان السرور عظيماً هو الذي شعـر بـه الناس لدى مغادرته.

كيف جرى تتويج هنري الأول ملكاً على انكلترا

وبعد وفـاة الملك وليم، لم يعرف نبـلاء انكلترا ماالذي حـدث لأخيه الأكبر، روبرت دوق نورمـاندي، الذي كـان قد مضى على غيـابه خمس سنوات في الحملة إلى القـدس، وكـانوا غير راغبين في أن تبقى المملكة وقتـاً طويلاً من دون حـاكم، وكـان هنـري هو الأصغـر بين أخـوته

وأكثرهم حكمة، وقد أدرك الوضع، فجمع الناس ورجال الدين مع بعضهم في لندن، ومن أجل أن يقنعهم بمساندة قضيته ويعملونه ملكاً، وقد وعدهم بإعادة النظر بالقوانين وتصحيحها، وهي القوانين التي ظلمت بها انكلترا في أيام الملك المتوفى، وعلى هذا ردّ رجال الدين والشعب أنه إذا ماقام بتأكيد هذا في صك منشور يضمن جميع الحريات والعادات التي كانت مرعية في أيام حكم الملك المقدس ادوارد، هم سوف يستجيبون لرغباته ويعملونه ملكاً، وكان هنري جاهزاً للقيام بهذا، وقد تعهد بذلك وأكده باليمين، وقد جرى تتويجه في وستمنستر في يوم البشارة للقديسة مريم وكان ذلك مع اعتراف الناس ورجال الدين، والمناداة به، وبعد ذلك باخراج هذه الامتيازات كتابة، وفعل ذلك تشريفاً للكنيسة المقدسة ولسلام شعبه.

الحريات التي منحها الملك هنري إلى مملكته

من هنري، ملك انكلترا بنعمة الرب، إلى العمدة هيوج دي بوكلاند Bocland، وإلى جميع شعبه المؤمنين من فرنسيين، وانكليز في هارنفورد شباير Hertfordshire ، أمنيات الصحة، اعلم أنني برحمة الرب، وباجماع بارونات المملكة قد تتوجت ملكاً على انكلترا، وبما أن المملكة كانت مضطهدة بكثير من الجبايات غير العادلة، إنني أقوم تشريفاً للرب، ولمحبتي لكم جميعاً التي أحملها بقلبي، بمنح الحرية للرب منذ الآن وللكنيسة المقدسة، بحيث أنني لن أجعلها خاضعة أو عرضة لبيع أو ايجار أو ضمان، كما أنني عندما يموت رئيس أساقفة، أو أسقف، أو رئيس دير، لن أتسلم أي شيء من ممتلكات الكنيسة أو من ممتلكات أتباعها، حتى يتعين والياً جديداً لها، وإنني أعلن عن إلغاء جميع المكوس الشريرة التي ظلمت بها الكنيسة بشكل غير عادل، ومن هذه المكوس الشريرة سوف أذكر هنا بعضها.

إذا مامات أي واحد من باروناتي، أو ايرلاتي، أو من الآخرين

التابعين إقطاعياً لي، لن يقوم وريثه بـإنقاذ أراضيه كما كان من المعتاد أن يفعل في أيام أبي، بل سيـدفع بشكل عادل وقـانوني للتفريج عنهـا، وفي الطريقـة نفسها سـوف يسترد التابعـون لباروناتي أراضيهم من سـادتهم وإذا مارغب واحـد من باروناتي أو من الآخرين بإعطاء ابنتـه، أو أخته، أو حفيـدته أو ابنة عمـه(أو خـاله) إلى أي انسـان للزواج، واتصل بي حول الموضـوع، إنني لن آخذ أي شيء منه مقـابل الإجازة، كما أنني لن أمنعه من اعطائها للزواج، مـالم يكن طالب الزواج رجلاً عدواً لي، وإذا مامـات واحد من باروناتي أو من الآخرين، تاركـاً ابنة لتكون وريثة له، إنني سـوف أعطيهـا للزواج مع ميراثهـا، بمـوافقـة من باروناتي، وإذا مـامـات الزوج، وبقيت الزوجـة حيـة من دون أولاد، إنها سـوف تنال مهـرها مع حقهـا بالزواج، كما أنني لن أزوجهـا ضـد رغبتهـا وارادتها، لكن إذا بقيت الزوجـة حية ولديها أولاد فإنها سوف تحصـل على مهرها وحقهـا بالزواج، وذلك أثناء محافظتها على شخصهـا وفقاً للقـانون، كما أنني لن أزوجهـا ضـد إرادتها، ولسـوف تبقى أراضي الأطفـال تحت وصاية الزوجـة، أو تحت وصاية واحد من الأقرباء المقـربين وذلك وفقاً للعدل والحق، وإنني آمر أتبـاعي بالتصرف بأنفسهم وفق الطريقة نفسها نحو أبناء وبنات وزوجات أتباعهم.

وبالنسبـة للنقود التي هي بالاستخـدام العـام، والتي أخذت خـلال المدن والمناطق، والتي لم تكن كـذلـك في أيام الملك إدوارد، إنني ألغيهـا تماما وأحـرمها، وإذا ماألقي القبض على أي واحـد سواء من الماليين أو الآخـرين، ومعه أمـوال مـزيفة، لندع العـدالة تأخـذ مجراها نحوه وفقـاً للقانون، وإنني ألغـي جميع دعاوى الاستئناف والديون التي كـانت حقاً لأخي الملك، بـاستثناء مـزارعي، وأيضـاً باستثناء مـاهـو معين لورثة الآخـرين، أو للأشيـاء التي تخص بشكـل أكثـر، الناس الآخـرين، وإذا مـاقـام أي انسـان بعمل أية صفقـة حـول ميراثه، إنني أعفـو عن ذلك

وألغيه مع جميع التفريجات، التي جرى الاتفاق عليها من أجل المواريث الحقيقية، فإن ذلك سوف يلقى التثبيت من قبلي، لكن إذا مامنع بجراحة في الحرب، أو بالمرض، فلم يتمكن من ذلك أو من التصرف بماله، فإن زوجته أو أولاده، أو أبويه، وأتباعه القانونيين، سوف يتقاسمونه من أجل راحة نفسه، وذلك حسبما يرون أنه الأفضل، وإذا كان قد جرى تغريم واحد من باروناتي أو أتباعي بغرامة، فإنه سوف يمنح كفالة رحمة من أجل ماله، مثلما كان يفعل في أيام أبي أو أخي، إنما وفقاً لدرجة الغرامة، كما أنه لن يكفر عنها، كما كان سيفعل في أيام أبي أو أخي، لكنه إذا مااقترف خيانة أو جريمة، فإن تكفيره سوف يكون وفقاً للجريمة، ولقد جرى العفو عن جرائم القتل الماضية حتى يوم تتويجي، أما الجرائم التي سوف تقترف في المستقبل، فلسوف يكون التكفير عنها، وفقاً لقانون الملك إدوارد، وإنني أحتفظ بالغابات في أراضي، بموافقة جميع باروناتي، وفق الطريقة التي احتفظ بها أبي، وإنني أتنازل إلى جميع الفرسان الذين يدافعون عن أراضيهم بالسلاح وأسمح لهم بالاحتفاظ بجميع الأراضي الموجودة في ممتلكاتهم، معفية من جميع ضرائب التاج، والهدايا إليّ شخصياً، حتى إذا ماتحرروا من جميع المكوس الثقيلة، يمكنهم نيل الخبرة، في الفروسيه والسلاح، ويكونوا جاهزين لخدمتي، وللدفاع عن المملكة كلها.

إنني أقيم السلم خلال جميع ممتلكاتي، وآمر بمراعاته منذ الآن فصاعداً، وأعيد إليكم قانون الملك إدوارد، مع التحسينات والاصلاحات التي عملها أبي بموافقة البارونات، وإذا كان أي انسان قد استولى على أي شيء لانسان آخر منذ وفاة أخي الملك وليم، عليه إعادة ذلك بكل سرعة ودونما تغيير، إنما إذا مااحتفظ أي انسان بأي جزء من ذلك، وسوف يتم العثور على ذلك، فلسوف يدفع غرامة كبيرة لي مقابل ذلك.

شهـد على ذلك التـالين: مـوريس أسقف لنـدن، ووليم المتخب لونكستر، وجبرارد أسقف هيرفـورد Hereford، وإيرل هنري، وإيرل سيمون، وايـرل وولتر جيفورد Gifford ، وروبرت دي مـونتفورد، وروجر بيغود Bigod، مع آخرين كثر.

وقـد جـرى عمل نسخ كثيرة من هذه الوثائق، بقـدر مناطق انكلترا، وبناء على أوامر الملك، جرى وضعهم في ديرة كل منطقة للذكرى.

عودة أنسلم رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا

وهكذا جـرى تتويج الملك هنري، وإثر ذلك أعطى أسقفيـة ونكستر إلى وليم جيفـورد، وقام على الفـور بمنحـه جميع الممتلكات العائـدة إلى الكرسي الأسقفي، وذلـك بشكل يتعـاكس مـع شروط المجلس الجديد التي ذكـرناها أعـلاه، ثم إنه قـام بناء على نصيحـة الكنيسـة الانكليـزية كلهـا، بـإرسـال سفـارة مهيبـة إلى الخارج إلى أنسلم، رئيس أسـاقفـة كـانتربري، لدعـوته بإخلاص للعـودة بدون تأخير، حتى يقـوم بتملك كرسيه الأسقفي.

وفي الوقت نفسـه كان الدوق روبرت، أخو الملك، قـد أكمل بشكل مجيـد حجـه إلى القـدس، وقـد عـاد إلى نورمـاندي، بعـد غيـاب خمس سنوات، وقد استقبل بسرور وتشريف من قبل جميع رعيته، وكان الملك في ذلك الحين لديه في السجن رالـف[فـلامبـارد Flambard] أسقف درم، فهو قد كـان رجلاً منحرفاً بأخلاقـه، جاهزاً لإقتراف كل نوع من أنواع الشرور، لإزعـاج انكلترا كلهـا، وقـد عين أسقفـاً لدرم من قبل الملك وليم، ونظراً لاستعـداده للتماشي مع ذلك الملك، عهـد إلى جميع وكلائـه في جميع أنحاء المملكة بالقيـام بنهب، وتخريب، وتدمير ممتلكات كل انسان من أجل منفعة محاسب الملك وجـابيه، لكن عندما مات ذلك الملك الظالم، وجـرى تتـويج هنري مكانه، قـام الملك بـرميـه بالسجن،

الذي منه هرب برشـوته للحـرس، وعبر إلى نورمـانـدي، حيث حـرك الدوق روبرت ضد أخيه.

وبعث الدوق برسـائل خاصة إلى نبـلاء انكلترا، أظهر فيهـا بأنه كان الابن الأكبر لوليم الذي استـولى على انكلترا بسـلاحـه، وبهذا الادعـاء طالب بعـرش انكلترا لنفسه، وعندمـا سمع النبـلاء بهذا، آثر كثير منهم الوقوف إلى جانبه، ووعدوه بـالاخلاص والمساعدة، واستعد روبرت في الوقت نفسه للعمل على تحقيق دعواه، لكن بما أنه كـان قد عاد للتو من الحج، أجّل نواياه لبعض الوقت، حتى تتهيأ الفرصة المناسبة.

ومـات في السنة نفسهـا تومـاس رئيس أسـاقفـة يورك، وقـد خلفـه جيرارد، وأوصل سيغيبيرت Sigisbert راهب غيمبلور Gem-blours تاريخه الذي كُتب بشكل أنيق، إلى هذه السنة الحالية.

فضائل الدوق غودفري وموته المبكر

مات في السنة نفسهـا البابا أوربان، وقـد خلفه باسكال، الذي جلس ثمانية عشر عامـا على كرسي روما، وقام في السنة نفسهـا غودفري، ملك القـدس، بتحريض من بعض باروناته، بعبـور نهر الأردن، وبعدمـا جمع أسلاباً كثيرة من بـلاد العموريين، التي كانت مسكونـة من قبل العرب، عـاد إلى مملكته منتصراً، وقـد أثار هذا الهجوم واحـداً من كبار الأمـراء العرب، وكـان قوياً، ومقاتلاً قـديراً، فقام هذا في البـداية بالحصول على اذن وأمان من الدوق بـإرساله رسولاً إليـه، ثم قدم إلى زيارة غـودفري مع حـاشيـة من النبـلاء من أهل بلاده، ذلك أنه سمع أخبـاراً عن قـوة وأبهة الملك وشعب الغـــرب، الذي أخضع مناطق شـــاسعـــة بالطول والعـرض في الشرق، وبما أنـه كـان يتحـرق بالرغبـة لرؤيتـــه، مثل في حضرته، وحياه باحترام، وبعدمـا نظر بإعجاب لبعض الوقت إلى المظهر الخارجي لجسم الملك، طلب منه بإلحاح شـديد أن يريه قوته بـاستخدام

سيفـه على جمل كان قـد جلبه معـه لهذه الغاية، وقـام الملك— ليس من باب التبجح، بل من أجل أن يلقي الرعب في قلوب العـرب— بسحب سيفـه، وبضربة واحـدة قطع رأس الجمل، وكـأنه كـان خيطاً، واندهش العربي تجاه هذا المشهـد، لكنه عزا ذلك في ذهنه إلى أن سيفه كـان حاداً، ثم إنه حصل على إذن بالكلام، وهنا سأل الملك عما إذا كان يمكنه فعل الشيء نفسه بسيف انسـان آخر، فابتسم الملـك وطلب من الأمير اعارته سيفه، حيث به قطع رأس جمل آخـر من دون أدنى صعوبة، وفعل ذلك فـوق البقعـة نفسهـا، وبذلك وجـد العـربي أن الأخبـار عن قـوة الملك كانت صحيحة، فأعطاه كثيراً من الهدايـا من الذهب والفضة، والخيول، وأشياء أخرى ثمينة، وبعدما ضمن صداقته، عاد إلى قومه، حيث حدّث كل واحد عن القوة المدهشة للملك.

وبعـد هذا، أصيب الملك المجيـد، في شهـر تموز بمـرض غير قـابل للشفاء، وبعدما تلقى قـربان الخلاص، لفظ آخر أنفاسه، وهو يردد اسم المسيح حتى يتمتع بسعـادة سرمدية مع الملائكة في السماء، وقـد مات في الثامن عشر مـن تموز من هذه السنة الحالية، وقد دفـن في كنيسة ضريح ربنا، تحت جبل الجمجمـة، حيث قـام خلفـاؤه بتعيين مكان لأنفسهم للدفن، حتى اليـوم الحالي، وبقيت مملكة القـدس شـاغـرة لمدة ثلاث سنوات بعد موته، وتم أخيراً بقرار من جميع الأمراء والشعب، استدعاء اللورد بلدوين، الذي كان أخـا غير شقيق للملك المتوفى، للقدوم لتسلم العرش، ولأن يحكم بعد أخيه، وذلك حسبما تطلبت العدالة.

كيف جرى تتويج بلدوين ملكاً على القدس وحول تقواه

في سنة ١١٠١م قدم بلدوين كونت الرها، وأخو الملك غودفري لأمه إلى القـدس، ومسح وتوج ملكاً على القـدس في يوم عيـد ميـلاد ربنا، وكان ذلك بيدي ديبرت البطريرك، غير أن النبيل تانكرد لم ينس الإهانة التي كان قد تلقـاها قديماً من بلدوين، المنتخب الآن ملكاً، والتي كنا قد

تحدثنا عنها من قبل، ولذلك حصل على إذن بمغـادرة البلاد، وسلم إلى الملك الجديد مـدينتي طبرية وحيفـا اللتين تلقـاهما أعطيـة من الملك غـودفري، وعـاد إلى أنطاكيـة، حيث جـرى الترحيب به من قبل سكان المدينة، لأن بوهيمـونـد، أمير أنطاكيـة كـان قـد وقـع بالأسر في مـدينة ملطيـة، وهي احـدى مـدن الجزيرة، وكـان الذين أسروه هم الدانشمند الأتراك، ولم يكن قد استرد حـريته بعد، وكان تانكرد قـد تلقى دعوات متوالية لتسلم حكومة المدينة والشعب حتـى يتحرر بوهيموند، وقد قبل الدعوات أخيراً، وتسلم حكم المدينة والمنطقة.

وفي حـوالي الـوقت نفسـه، عبر أيضـاً الملك بلدوين الأردن، ونهب ودمر داخل العربية، واستهدف التجسس على المناطق الضعيفة للشعوب المجـاورة، وانقض في احـدى الليـالي فجـأة على كتلة كبيرة من الترك، وأخـذ كثيراً منهم على حين غـرة وهم في خيـامهم مـع أزواجهم وأولادهم ومع جميع مقتنيـاتهم، واستولى على اعداد لم يسمـع بمثلها من الجمال والحمير، هذا وقـد نجـا معظم الرجـال على ظهـور خيـولهم السريعـة، تاركين أزواجهم وأولادهم مع أثقـالهم في أيدي الصليبيين، وعندما كان الملك على طريق عودته، وجد امرأة كانت زوجة واحد من كبار المقدمين، في آلام الوضع فأمر بوضع فراش لها، وزودها براوية من الماء، وبكثير من الحليب، وببعض الخادمات للعناية بها، وبعـدما أعطاها رداءه للفهـا به، تابع الزحف مع جيشـه، وفي اليـوم التالي، كـان المقـدم العربي القـوي قلقاً على زوجتـه، فلحق بجيشنا، ووصل إلى المكان الذي كـانت زوجته ممددة فيـه، وقد دهش تجاه المشهـد، وحمد انسانيـة الملك، وأثنى عليه حتى النجوم، ومنذ تلك اللحظـة ارتبط باخلاص لتلبية كل متطلباته الضرورية.

كيف تزوج الملك هنري من ماتيلدا ابنة ملك الاسكوتلنديين

وعـاد في السنة نفسهـا أنسلم رئيس أسـاقفـة كـانتربري إلى انكلترا،

وخطب مـاتبنـدا ابنة ملكولم ملك الاسكوتلنديين، وكـذلك ابنة الملكة القـديسة مـرغريـت، إلى هنري، الملك الجديد لانكلترا، وبعد الاحتفـال بالزفاف، لم يكن هناك اضطراب قليل في المملكة، وذلك بسبب روبرت دوق نورمـاندي، الذي قيل بـأنه كـان قـادمـاً مع جيش كبير لاخضـاع انكلترا، ولدى سماع الملك هنـري بهذه الأخبـار، أرسل قـوة بحـرية للتصـدي إلى أخيـه، لكن الجزء الأعظم مـن الجيش خضع إلى روبرت لدى اقترابه، وجـاء الدوق للرسو في بورتموث في اليـوم الأول من آب، وزحف الملك ضده مع جيش كبير، غير أن النبلاء لم يقبلوا بهذا الخلاف بين الأخـوين وعملوا صلحـاً بينهما وفق الشروط التاليـة: يتـوجب على الملك أن يدفع ثلاثة آلاف مارك فضة كل سنة من الممتلكات الانكليزية إلى أخيه روبرت، وأنه إذا مامـات واحد منهما من دون ورثة فإن الآخر سوف يخلفه في الممتلكات، وتأكدت هذه الشروط بأيمان اثني عشر نبيلاً من كل جانب، وبعدما بقي الـدوق روبرت مع أخيه حتى عيد القديس ميكائيل(٢٩--ايلول)، عاد إلى بلاده.

وفي هذه السنـة نفسهـــا(الصحيح:١٣—نيســـــان١١١١) وصل هنري(الخامس) إلى عرش الامبراطورية الرومـانية، وقد حكم لمدة خمس وثلاثين سنة.

وفي السنة نفسها أعطى الملك هنري أسقفية هيرفورد Hereford إلى واحد اسمـه رينيلم Reinelm ، من دون عمل انتخاب، وقـــد نصبه باحتفال عام، مخالفاً قرارات المجمع الجديد.

المجمع الذي عقد في لندن وتجريد بعض رعاة الديرة

في سنة ١١٠٢، حاصر هنري ملـك انكلترا قلعة أرونديل Arundel التي كانت ملكاً لروبرت دي بلسمي Belesme، الذي احتفظ بها ضد موافقة الملك، وكانت قلعة من الصعب الاستيلاء عليها، فتولى بناء قلعة

أخرى من الخشب مقابلها، وفي تلك الأثناء حاصر قلعة بردجنورث Bridgenorth واستولى عليها، وأخيراً استسلمت قلعة أرونديل، وقام الملك بنفي روبرت دي بلسمي من انكلترا.

وعقد في السنة نفسها أنسلم رئيس أساقفة كانتربري مجمعاً في لندن في كنيسة القديس بولص في حوالي عيد القديس ميكائيل، وكان الملك مع الأساقفة المساعدين بين الحضور، وجرى في هذا المجمع الحرمان كنسياً للكهنة الذين لديهم خليلات، مالم ينفصلوا عنهن على الفور، إنما وإن كان هذا نال رضا بعضهم، لم يوافق آخرون عليه، خشية أنه بممارسة معايير أخلاقية على سلطتهم، سوف يقعون في أمور لاأخلاقية، ثم إنه عرض بلغة واضحة ماجرى رسمه في المجمع العام في روما وتقريره بشأن التعيينات في الكنائس، والمعني بذلك أن مامن رئيس أساقفة كنيسة، أو أسقف، أو راعي دير، أو كاهن يجوز أن يستلم أيا من المناصب اللاهوتية من يد رجل علماني، وبناء عليه قام رئيس الأساقفة أيضاً بتجريد بعض رعاة الديرة الذين حصلوا على مراتبهم من أيدي رجال علمانيين، وعن طريق الشراء، وكان هؤلاء هم: رتشارد أوف إيلاي Ely، وألدوين أوف رمزي Aldwin of Ramsey، مع رعاة ديرة: بورغ Bourg ، وتافيستوك Tavistock، وكرنلي Cernely، ومدلتون Middleton الذين لانتذكر أسماءهم، ولأنه رفض تكريس بعض الأساقفة ورسمهم بناء على أوامر الملك، لأنهم كانوا قد تسلموا مناصبهم من الملك، ولأنه رفض حتى الاتصال بهم، غضب الملك، فأمر جيرارد رئيس أساقفة يورك القيام بسيامتهم، لكن وليم جيفورد المنتخب لونكستر، والذي كان من المفترض السيامة من قبله، رفض السيامة من قبل جيرارد، فكان أن نفي من المملكة بموجب قرار الملك، وأعاد رينيلم أسقف هيرفورد، الذي نال منصبه من الملك، الأسقفية إليه.

كيف ذهب أنسلم رئيس أساقفة كانتربري إلى روما آخذاً معه رعاة الديرة المجردين

في سنة ١١٠٣، بعدما تلقى أنسلم رئيس أساقفة كانتربري كثيراً من المكابدات والازعاجات من الملك، أخذ طريقه إلى روما، وقد اتفق مع الملك على أن يصطحب معه رعاة الديرة المجردين ووليم المنتخب لونكستر، واستقبله البابا باسكال بلطف، وفي تاريخ يوم محدد قام وليم وورواست Warewast كاهن الملك والمسؤول عن شؤون ملك انكلترا، بعرض قضيته وسط أشياء أخرى، وأكد بكل حزم أنه لن يتخلى عن التنصيب في الكنائس، حتى لو أن ذلك سوف يكلفه فقدان مملكته، وأكد هذا الموقف الثابت بكلمات تهديد عرضها، وعلى هذا رد البابا قائلاً:« إذا كان كما تقول لن يتخلى ملكك عن تعيينات الكنيسة، ليبقي مملكته، مثل ذلك إنني لن أدعه يفعل ذلك مقابل حفظ حياتي»، وبذلك خسر الملك قضيته، وتدخل رئيس الأساقفة أنسلم لدى البابا من أجل رعاة الديرة المجردين، لكي يمنحهم عفواً حتى يستردوا مناصبهم، ثم إن الكرسي المقدس، الذي لم يرفض عرض أي انسان، إذا ماارتبط ذلك بالذهب والفضة، توسط بين الفرقاء، وبرحمة أعاد الأساقفة ورعاة الديرة المتقدم ذكرهم إلى مناصبهم السالفة، وأعادهم مسرورين إلى مقراتهم.

وفي السنة نفسها جرى حرمان روبرت دوق نورماندي من الثلاثة آلاف مارك التي كانت تدفع له سنويا، وجاء ذلك ببراعة من أخيه، ولصالحه فقط.

كيف هلك كثير من النبلاء كانوا على طريقهم إلى القدس بخيانة من الامبراطور

حمل في حوالي ذلك الوقت كثير من النبلاء من الغرب الصليب،

وانطلقوا يؤمون القدس، تحت قيادة النبلاء الأقوياء: وليم دوق أكوتين، وهيوج الكبير كونت فيرومادا Viromadaالذي كان قد عـاد لتوه من الحج، وستيفن كـونت تشارتـرز وبلوا، مع ستيفن كـونت بيرغندي، ووصل هؤلاء مع حـاشيـة كبيرة إلى القسطنطينية، وهـم جميعا يلتهبـون حماسة، وجرى استقبالهم باحترام— لكن خداعاً— من قبل ألكسيوس، ووجدوا هناك كـونت طولوز، الذي كان منذ أن حمل الصليب قـد قرر عدم العـودة إلى بلاده، وبعدما حصلوا على إذن الملك، جـرت مرافقتهم من قبل كـونـت طولوز عبر البـوسفـور حتى نيقيـة في بيثينيـا، ثم قـام الامبراطور ألكسيـوس، الخائن الشرير، الذي كـان يشعـر بالغيرة من نجـاح رجـالنا، فبعث برسـائل إلى مقـدمي الأتراك المسلمين، الذين من ديارهم كـان الصليبيـون على وشـك العبـور، وحثهم بإلحاح على عـدم السماح لمثل هذا الجيش الصليبي الكبير بعبور أراضيهم.

وكـان الآن رجالنا يتصرفـون من دون حذر، وكـانوا لايتوقعـون أي شر، بل كـانوا يزحفـون على شكل فئات متفـرقـة، دون أن يكون هناك رابط بينهم، وبـذلك ألقيـوا في أيدي الأتراك الذين كمنوا بـانتظارهم، وقـد جـرى في ذلك اليوم مقتل أكثـر من خمسين ألفـاً منهم، أمـا الذين نجـوا فـوصلوا مجردين من كـل شيء إلى طرسـوس في كيليكيـة، حيث مات هيـوج الكبير، ودفن في كنيسة رسول الأمـم، ثم تابعوا سيرهـم إلى أنطاكيـة، ومن هناك سـاروا مسرعين يـريدون القـدس، وقـد وصلوا طرطوس، حيث بعـدمـا حـاصروها لأيام قليلة استـولوا عليهـا، فقتلوا سكانها أو حولوهم إلى عبودية دائمة.

كيف أخضع ملك القدس ثلاث مدن

ووصل في هذه الآونة اسطـول كبير إلى يافـا، وفي أيام عيـد الفصح ذهب من كـان فيـه إلى القـدس، وتمكن الملك بلدوين بمسـاعـدتهم من محاصرة المدن الساحلية التالية والاستيـلاء عليها وهي: أرسوف، فبعدما

استولى على الحصن الذي فيهـا، زحف إلى قيسارية، التي استـولى عليها، بعد صعوبات جمة، فقتل السكان، ووزع أسـلاباً كثيرة بين رجاله، وكان في واحد من أجزاء المدينة مسجـد لله، إليه هرب الناس للأمان، لكنهم اقتحمـوه وأعقب ذلك مـذبحـة هائلة للـذين كـانوا في داخله، وكـانت مـذبحـة مرعبـة أن تنظر إليهـا، ووجـدوا في ذلك المسجـد وعـاء لونه أخضر، على شكل صحن، وقد أخذه الجنويون عـادّينه من الزمرد، وقد أخذوه مقابل مبلغ كبير من المال، وقـدموه بمثابة هدية ثمينة لكنيستهم، وجـرى استـدعاء أمير المدينة، وقـاضيهـا إلى حضرة الملك، ووضعـا في أغـلال الحديد، لاستخراج أكبر فـدية ممكنة منهما، ثم عين الملك رجـلاً اسمـه بلدوين ليكون رئيس أسـاقفـة للمـدينـة، وكـان بلدوين هذا ممن قـدمـوا مع الدوق غـودفري، وبعـدمـا ترك فيهـا شحنة عسكرية كبيرة تكون مسؤولة عن المدينة، زحف مسرعاً نحو الرملة.

وفي تلك الآونة كـان خليفة مصر قــد أرســل أمير جيـوشـه ضـد بلدوين مع أحـد عشر ألفـاً من الفـرسان وعشــرين ألفـاً من الرجـالة، وأمــره بطرد الرعــاع الصليبيين من ممـالكه، وذلك حسب عبــاراته، وتوجــه الملك بلدوين من دون خـوف للتصـدي إليهــم مــع مـائتين مــــن الفرســــان، وتسعمائـة من المشاة، وبعــــون من الرب، انقــض عــلى العـدو، وألحق به الهزيمــــة، وطــارده حتى عســـقلان، وظـل يقتـل برجـاله حتى مسافـة ثمانية أميـال، وعسكر الصليبيون المنتصرون في تلك الليــلة في ميـدان المعــركة، وجـرى قتــل خمسة آلاف مــــن جانب الأعداء، أمـا من جانبنا فالذين قتلوا كـانوا سبعين فارساً، وأكبر من هذا العـدد من الرجالة، غير أن هـذه الأعداد ليست مـؤكدة تمامـاً، ووصل في الوقت نفسـه أمراء الغـرب الذين تقـدم ذكرهم إلى القـدس وخــرج الملك إلى استقبــالهم، ورافقهم مـع كثير من السرور إلى داخل المدينة المقدسة.

كيف أخلى الملك هنري مناطق أخيه روبرت من سكانها

في سنة ١١٠٤م تفجــر خــلاف لأسبــاب محددة بين الملك هنري وروبرت دوق نورمـاندي وأرسل الملك إلى مناطق أخيـه قوة مسلحـة، تعـاونت مع بعض الخونة من رعيــة الدوق فــاقترفت كثيراً من أعمال الدمار خلال تلك المنطقة، وأظهر وليم كونت أوف مورتين Mortaine الذي كان قـد نفي من انكلترا لتوه من قبل الملك، بسبب الخيـانة، نفسه رجلاً شجاعـاً، وحمل السلاح ضد عساكـر الملك، وقام الدوق روبرت، وقـد خشي من قوة أخيـه، فحصن قلاعـه مع جميع النقاط الضعيفـة في أراضيه إلى أقصى حـد ممكن بقدرته، وظهـر في السنة نفسها في الجنوب أربع دوائر بيضاء حول الشمس.

كيف جرى منع رئيس الأساقفة أنسلم من العودة إلى انكلترا

ووصل في تلك الآونة رئيس الأسـاقفـة أنسلم إلى ليون لدى عـودته من روما، وقـام وليم دي وورواست المشرف على شؤون ملك انكلترا، والذي ذكرناه أعلاه، بمنعه من العودة إلى انكلترا ثانية باسم الملك، مالم يعد بـإخلاص بمراعـاة جميع الامتيـازات المعتادة لأبيه وأخيـه، وعجب أنسلم لدى سماعه بهذا، عـارفاً بأنه قد غـادر انكلترا وفق شروط أخرى مختلفـة تماما، وبناء عليـه، لدى وصـوله إلى ليون بقي مع هيـوج رئيس أسـاقفة تلك المدينة، معطيـا اهتمامه إلى الخشـوع والتدين، وعندمـا رأى الملك هنري أن البابا ورئيس الأساقفة كانا غير مرنين معه، وضع رئاسة الأسقفية بين يديه، وصادر جميع ممتلكات أنسلم.

حول تركي تلطف فساعد على نجاة الملك بلدوين

وفي حـوالي هذه الآونة قام العـرب والمصريون بالدخـول إلى الحدود الصليبية قـرب اللد،وسارونا، والرملة، وقد بلغ تعـدادهم عشرين ألفاً، وقـد ركـزوا جهودهـم على السلب والنهب، ولدى سماع الملك بلدوين

بهذا، تصرف بطيش غير معتـاد، ذلك أنه أهمل استـدعـاء القـوات من المدن المجاورة، وقام وهو واثق بشجاعته ومعتمد عليها بمهاجمة الأعداء مع قرابة المائتي فارس، الذين كانوا أدنى من أن يتمكنوا من الوقوف في وجـه مثل ذلك الحشـد العظيم من المسلمين، ولذلك قتل أغلبهم، ولاذ البقيـة بالفـرار، والتجأ الذيـن هربوا إلى بلدة الرملـة، وسقط في تلك المعركة كل من النبيلين اللذين اسميهما ستيفـن ممن وصل حديثاً، وذلك إلى جـانب عدد كبير آخـر من النبـلاء، الذين دونت أسماؤهم في كتـاب الحياة، ومع أن الملك لم يكن كبير الاعتماد على الرملة ودفاعاتها، فقد لجأ إليهـا لانقاذ حيـاته، وكان متـوقعاً أن يحاصر من قبل الأعـداء، لكن في سكون الليل المظلم، حـدث فجأة أن اقترب الأمير العــربي من المدينة، وهو الأمير الذي— كما ذكـرنا من قبل— أبدى الملك كثيراً من اللطف نحو زوجتـه، عندما كـانت في آلام المخاض، وبعـدما اقترب من البلدة صرخ بصـوت منخفض إلى الحرس الذين كـانوا على الأسوار، وقـال:« لدي رسالة سرية إلى الملك، دعوني أمثـل في حضرته»، وعندما مثل أمام بلدوين، وعده باقتياده إلى مكان أمين، إذا ماغادر المدينة مع حرس قليل فقط، ودون إثارة أية ضجـة، لأن العـرب قد قـرروا مهـاجمة البلدة، في اليـوم التالي، واقتنع الملك أخيراً بمغـادرة البلدة، وبتوجيـه من صديقـه وإرشـاد، هرب إلى الجبـال، ولدى مغـادرة الأمير العـربي، وعــده بأنه سوف يقدم الطاعة إليه في أول فـرصة مناسبة، ونجا الملك مع اثنين من مـرافقيــه فقط من خـلال وسط الأعـداء إلى أرســوف، حيث استقبل بسرور من قبل شعبـه، ونال بعضـاً من الراحة بعـد التعب الذي عـانى منه.

وحاصر العرب المنتصرون في اليـوم التالي الرملة، وقتلوا أو استعبدوا الحامية العسكرية التـي كانت فيها، وفي الوقت ذاتـه التحق هيوج أوف سـانت أومر، الذي إليـه منح الملك مدينة طبرية، التحق به في أرسـوف

مع ثمانين فارساً، وبذلك قويت صفوف بلدوين، فأخذ معه رجال يافا مع تسعين فارساً، وزحف للتصدى للعدو مع ثقة كبيرة بالنجاه، وبالرد عليه والانتقام منه للأضرار التي ألحقها به، وكان الأعداء حوالي ثلاثة آلاف من حيث العدد، وقامت قوات الملك، وهي تتمتع بالقوة من عليين بالهجوم عليهم بشدة، فمزقت صفوفهم، وقتلت عدداً كبيراً منهم، وأرغمت البقية على الفرار، ثم رجع جيش الصليبيين إلى معسكر الأعداء، حيث حصلوا على غنائم من الحمير والجمال، والسرادقات، والخيام والمؤن، وقد بقيوا بعد ذلك بهدوء لمدة سبعة أشهر تقريباً.

وفي حوالي الوقت نفسه حاصر اللورد تانكرد أفاميا واستولى عليها، وأفاميا هي عاصمة سورية المجوفة، وزحف بعد ذلك ضد اللاذقية، واستولى عليها أيضاً، وامتلكت كلتا المدينتين مساحات واسعة من الأراضي مع بلدات وأحواز واسعة، وفي الوقت نفسه بعدما بقي بوهيموند أربع سنوات بالأسر، فدى نفسه، وعاد إلى أنطاكية.

استسلام عكا إلى الملك بلدوين

وفي السنة نفسها ألقى بلدوين الحصار على مدينة عكا البحرية في فينيقية، وكان لهذه المدينة ميناء في كل من داخل أسوارها وفي خارجهم، حيث يمكن للسفن البقاء والتحرك بأمان، ويقال بأنها تأسست من قبل أخوين هما: بطليموس وعكون، وكانا قد إقتسماها فيما بينهما، وحصناها بأسوار قوية وسمياها بطولميس اشتقاقاً من اسم الأول منهما، وعكون من اسم الثاني منهما، وحوصرت هذه المدينة الآن من قبل الملك مع أمرائه من جهة البر، في حين قطع الاسطول الجنوي والسفن المنقارية، التي اسمها غلايين، جميع اتصالات المدينة من جهة البحر، وأقيمت الآلات من حول الأسوار، وجرى قتل أعداد كبيرة من السكان بوساطة الحملات المتوالية التي تمت ضدهم بوساطة كل من الجيش والأسطول، وبعد قتال استمر عشرين يوماً استسلمت المدينة على شرط أن جميع من

سيختـارون مغـادرتها يمكنهم بأمـان فعل ذلك مع أزواجهم وأولادهم ومقتنيـاتهم، وأن جميع الذين سـوف يختـارون البقـاء عليهم أن يدفعـوا جزية سنوية إلى الملك، وبالتالي البقاء تحت حمايته.

وبهذه الحادثة منح الحجـاج الذين يزورون الأرض المقـدسـة بحـراً، إمكانية الوصول بأمان بعدما جـرى تنظيف الساحل جزئياً من الأعداء، وعبر في السنة نفسها بوهيموند، والكونت بلدوين، وتانكرد، وجوسلين مع جميع فـرقهم، الفرات، وألقـوا الحصار على مـدينة حران، التي عنهـا نقـرأ في حيـاة ابراهيم، ولأن السكان لم تتـوفر لـديهم آمال بالمسـاعـدة، عرضوا تسليم المكان ولكن نشب خـلاف بين بوهيموند وبلدوين حول من سيتملك المدينة، ولذلك أخروا الاستيلاء عليها حتى الصباح، حتى يتمكنوا من تسـوية هذه المسألة الصعبة، وقبل فجـر النهار كـانت هناك كتلة كبيرة من الترك تزحف لنجـدة سكان المدينة، حتى أنه لم يبـد هناك أمل أمـام رجالنا بالنجـاة، وحثهم البطريكان اللذان كانا حـاضرين على أن يكونوا شجعـانـاً، لكن هؤلاء الـذين فـارقتهـم نعمـة الرب، كـان لايمكن مســاعـدتـم بالكلمات أو بالتـذكير، ومع الحملة الأولى أداروا ظهـورهم بخزي وتخلـوا عن كل من المعسكر والأثقـال، وعبثاً حـاولوا انقاذ أنفسهم بالفرار، ووقع هناك بالأسر بلـدوين كونت الرها مع أخيه جـوسلين، لكن بـوهيمـوند وتانكرد، مع البطريكين نجـوا سـالمين إلى الرها، ووضعت سلطـة هذه المدينة مع مقـاطعتهـا كلهـا الآن بين يدي اللورد تانكرد وذلك حتى يتم تخليص بلدوين من الأسر.

حول العمل الخالد للملكة ماتيلدا

في سنة ١١٠٥م، عبر هنري ملك انكلترا إلى نورمـاندي للقتال ضـد أخيـه الدوق روبرت، واستـولى بمسـاعدة كـونت أوف أنجـو على كين Caen وبايوكس Bayeux وعلى قـلاع أخـرى كثيرة، وخضع تقـريبـاً جميع البارونات النورمـان إليه، وقدم في الوقت نفسـه داوود أخو الملكة

مـاتيلدا إلى انكلترا لـزيارة أختـه، وذهب في احـدى الليـالي لزيارتها في جناحهـا، بناء على دعوتها، فـوجـد البيت مليئاً بأناس مجذومين، والملكة واقفـة في الوسط حيث كـانت تغسـل، وتمسح وتقبل أقـدامهم، وسألها أخوها عما كـانت تفعله، وقال:« من المؤكـد أن الملك إذا ماعلم بهذا هو لن يضع شفتيـه على شفتيك، بعـد تقبيلك لهؤلاء الناس المجـدومين»، وردت الملكة عليه وهي تبتسم:« إن قدمي الملك السرمدي مفضلة لدى شفتي الانسـان الفاني، ولقـد أرسلت وراءك ياأخي حتى تتعلم وتحذوا حذوي، وأن تفعل الذي رأيتني أفعله»، فرد عليها أخوها أنه من المؤكد لن يفعل مـارآها تفعله، وبناء عليـه استأنفت الملكة عملهـا، وتـركهـا أخوها وهو يضحك، وعاد في السنـة نفسها الملك هنري إلى انكلترا بعد تسويته لأعماله الضرورية في نورماندي.

كيف أخذ الملك هنري أخاه أسيراً على أرض المعركة

سنة ١١٠٦م، جاء روبـرت دوق نورماندي إلى أخيه في نـورثأمبتون، وسأله بطريقة لطيفة، أن يجدد العهد الأخوي الذي خرق، لكن الرب لم يسمح لهما أن يكونا صديقين، فعاد الدوق غـاضباً إلى نورماندي، فلحق به الملك وألقى الحصـار على قلعـة تنشبري Tenchebrai، وكـــان معه تقريباً جميع نبلاء نورمـاندي وأنجو مع نخبة انكلترا وبريتاني، حتى يتمكن من قهـر أخيـه تمامــاً، وبناء عليـه زحف الـدوق روبرت لرفع الحصـــار ومعـــه روبرت دي بلسمي، وإيرل مـــورتون Moreton مع مشايعين آخـرين، وعندما زعق البوق حمل جيشه الصغير بشجـاعة على الأعداء الذيـن كانوا أكثر منه بكثير، وبما أن الـدوق نال خبرة في القتال في الأرض المقدسـة، فقد تمكن من مهاجمة عسـاكر الملك وردهـم، ودفع وليم إيرل مـــورتون الجيش الانكليـــزي إلى الخلف مـن نقطة إلى نقطة، وكاد أن يهزمه، لكن هنري مع رجالته منعه من الهزيمة وجعله يعود إلى القتـال، وبعد مـرور بعض الوقت حملت قـوة الفرسـان البريطانيين على

عساكر الدوق، فخرقت صفها، وتمكنت بتفوقها العددي من طردها من الميدان، وفي هذه المعركة ميز وليم دي أوبني Aubeny وهو بريطاني، نفسه بشكل خاص، فهو الذي جلب المعركة إلى النهاية بفضل شجاعته الشخصية ووقع الدوق النورماندي الشجاع بالأسر مع وليم ايرل مورتون، وتمكن روبرت دي بلسمي من النجاة عندما شاهد رفيقيه يؤسران.

وبهذه الهزيمة انتقم الرب لنفسه من روبرت لرفضه مملكة القدس، ولاختياره العيش بنعومة وسهولة في الوطن بدلاً من خدمة الذي يحكم الملوك جميعا، في القدس، وكعلامة على هذه الحادثة، ظهر في السنة نفسها، مذنب على بعد ذراع واحد من الشمس، واستمر ذلك من الساعة الثالثة حتى الساعة التاسعة، وجرّ وراءه ذيلاً طويلاً من الضوء، كما جرت مشاهدة قمرين كاملين في يوم عشاء ربنا، وكان أحدهما في الشرق وثانيهما في الغرب، وبذلك تحقق ماقاله الملك وليم، وهو على فراش موته، لابنه هنري، الذي سأله بعدما أعطى انكلترا إلى وليم، ونورماندي إلى روبرت وقال له:« وماالذي أعطيتني إياه ياوالدي؟» فأجابه أبوه:« لقد أعطيتك خمسة آلاف باوند من الفضة من خزينتي»، فقال هنري:« لكن ماالذي سوف أفعله بالمال، إذا لم يكن لدي مكان أسكن فيه؟» فقال الملك:« كن صبوراً ياولدي، وثق بالرب، ودع أخويك يتقدمان عليك، فأنت سوف تحصل في الوقت المناسب على جميع التشريف الذي حصلت أنا عليه، ولسوف تتفوق على أخويك بالثراء والسلطان».

كيف تصالح الملك هنري مع رئيس الأساقفة أنسلم

سنة ١١٠٧م، وبعدما استطاع الآن الملك هنري تدمير جميع أعدائه، وانزالهم إلى درجة الخضوع له، وبعدما جعل نورماندي تخضع لإرادته، ذهب إلى بك Bec، وبوساطة من الأصدقاء التقى برئيس الأساقفة

أنسلم، الذي— بناء على طلب الملك— عاد إلى انكلترا، واستأنف إدارة كرسيه الأسقفي، وعاد هنري بعده بقليل إلى انكلترا، حيث وضع أخاه روبرت ومعه وليم كونت مورتون في السجن مدى الحياة، وأضفى الرب القدير المنح التالية على الملك هنري، وهي: الحكمة، والنصر، والثروة، التي بها نجح في كل شيء، وتفوق على أسلافه.

وكان في السنة نفسها هناك اجتماع للأساقفة، ورؤساء الديرة، والنبلاء في لندن، في قصر الملك، تحت رئاسة رئيس الأساقفة أنسلم، حيث رسم الملك في هذا الاجتماع أنه من ذلك الحين فصاعداً، ماامن أسقف أو راعي دير يجوز أن يتسلم السيامة بالعصا والخاتم، من يدي الملك أو أي انسان علماني، ومن الجانب الآخر تنازل رئيس الأساقفة وقبل أنه لايجوز رفض سيامة أي واحد، جرى انتخابه إلى منصب ما، وذلك بسبب الولاء الذي عمله للملك، وجرى في السنة نفسها سيامة وليم أسقف ونكستر، وروجر أوف سالسبري، ورينلم Reinelm أوف هيرفورد، ووليم اكستير Exeter ، وأوربان أوف غلامـوران Gla-morgan، وأنسلم رئيس أساقفة كانتربري، في كانتربري، في يوم الأحد الحادي عشر من آب، وفي حوالي الوقت نفسه مات موريس أسقف لندن، مؤسس كنيسة القديس بولص، وادغار ملك الاسكوتلنديين، الذي خلفه أخوه الاسكندر.

كيف جرت خلافة جيرارد رئيس أساقفة يورك من قبل توماس

سنة ١١٠٨م، فيها توفي جيرارد رئيس أساقفة يورك، وقد خلفه توماس، حاجب الملك، حيث جرت ترقيته إلى الكرسي الشاغر، لكن ما أن جرى انتخابه حتى اعترض أنسلم رئيس أساقفة كانتربري على ممارسته واجباته الأسقفية حتى يتولى تقديم الطاعة الدينية والقانونية نفسها، التي قدمها من قبله سلفاه: توماس وجيرارد، وذلك وفقاً للعادة القديمة، وقال أنسلم له:« وإذا لم توافق على هذا، فإننا نمنع جميع

أساقفة بريطانيا، تحت تعرضهم لعقوبة الحرمان الكنسي، إذا وضعوا أيديهم عليك، أو قبلوا بأن تكون رئيس أساقفة، على افتراض أنك سوف تحصل على السيامة من الخارج»، وفي السنة نفسها، جرت سيامة رتشارد دي بومي Beaumeis المنتخب للندن، وتكريسه من قبل أنسلم في باكنهام، بحضور كثير من أساقفته المساعدين، وفي حوالي الوقت نفسه خلف لويس فيليب على عرش فرنسا.

موت القديس أنسلم رئيس أساقفة كانتربري

سنة ١١٠٩م، فيها مات أنسلم رئيس أساقفة كانتربري، والفيلسوف المسيحي، وحدثت وفاته أثناء الصوم الكبير، وكانت حياته اللامعة، وأعماله المتميزة، وموته قد تبعها معجزات متوالية، بها جرى حث خلفاءه على أعمال الرحمة.

وأرسل في السنة نفسها هنري، امبراطور روما، سفراء يطلبون للزواج ماتيلدا ابنةالملك، وبناء عليه عقد الملك بلاطه في وستمنستر، أثناء عيد العنصرة، مع أبهة عظيمة، كانت أكبر مما كان في أية مناسبة متقدمة، حيث قبل اقتراح الامبراطور، وزوج ابنته ببضع كلمات بسيطة، وأخذ ثلاث شلنات، حسب عادة الملوك الانكليز— من كل هايد Hide من البلاد خلال انكلترا.

وفي السنة نفسها، وبناء على أوامر الملك، اجتمع رتشارد أسقف لندن، ووليم أسقف ونكستر، ورالف أسقف روكستر، وهيربرت أسقف نورووك Norwick ، ورالف أسقف تشستر، ورالف أسقف درم، وهيرفي أسقف بنغور Bangor ، اجتمعوا مع بعضهم في ٢٧—حزيران، في كنيسة القديس بولص، لسيامة توماس المنتخب ليورك، وعندما اعترف توماس بالطاعة القانونية لرئيس أساقفة كانتربري، ولخلفائه، جرت سيامته من قبل رتشارد أسقف لندن، وفي

السنة نفسهـا رفّع دير إيلاي Ely إلى كـــرسي أسقفي، وعمل هنري أول أساقفتها، لأن رتشارد، آخر رؤساء الديرة في الجزيرة كان ميتاً، وأخـذت كمبردج الآن من أسقف لنكولن، وأعطيت لتكون أبرشيـة للأسقف الجديد، وفي حوالي الوقت نفسه ولدت خنزيرة خنزيراً له وجه انسان، وولد فروج بأربعة أرجل.

كيف عاث بوهيموند فساداً في أراضي الامبراطور الكسيوس

وفي هذه الآونة، قـام بوهيمـونـد أمير أنطاكيـة، وهو يحمل في ذهنه، الأذى الذي تسببه الامبراطور الشرير ألكسيوس، وأنزله دوما بالذين عملوا الحج إلى القـدس، فـأراد الانتقـام للقضيـة العـامـة، فأغـار على أراضيه مع خمسة آلاف من الفرسان، وأربعين ألفـاً من الرجالة، ونهب تقريبـاً جميع المدن الساحلية، وكـذلك إيبروس الأولى والثانيـة، وحاصر أخيراً ديراخيـوم، التي كـانت عـاصمة منطقـة ايبروس الأولى، وعـاث فسـاداً في المنطقـة كلهـا بالنار والسيـف، ولدى سماع الامبراطور بذلك جاء مع جيش كبير للدفـاع عن رعاياه، لكن بوسـاطة الأصدقـاء، أعيد السـلام بينهما، وجـرى الاتفـاق وتـأكـد بالأيمان أن الامبراطور سـوف يؤمن مـرور الحجاج بمساعـدتهم بكل طريقة ممكنة، وبنـاء عليه زحف بوهيموند إلى أبوليـا حيث استدعي لقضـاء عمل خاص هناك، وجمع في الصيف التـالي قـوة كبيرة من العســاكــر ليعـود إلى أنطاكيـة، لكنه وقع مريضاً ومات، مخلفاً ولداً، أيضاً اسمه بوهيموند، ولد له من كونستانس ابنة فيليب ملك فرنسا.

وفي تلك الآونة نفسهـا مـات الملك الـلامع فيليب، وقـد خلفـه ابنه لويس، الذي كــان في الثـامنة والعشرين من عمـــره، وفي حـوالي ذلك الوقت جـــرى اطلاق سراح بلدوين مع أخيـــه جـوسلين من الأسر التركي، وجرى تقـديم رهائن من أجل تحريرهم، لكن حدث بعـد عدة أيام أن قتل الرهائن حـراسهم وعادوا إلى أصدقـائهم، ووصل في السنة

نفسها برتراند كـونت طولوز، وابن الكونت ريمونـد إلى مدينة طرابلس مع اسطول جنوي واستـولى على جبيل، التي هي مـدينة سـاحليـة في فينيقيـا، وتمكن بوسـاطـة أعمال المحـاصرة وبمسـاعـدة ذلك الاسطول الجنوي من السيطرة على منطقة طرابلس، وقد منحها إلى برتراند.

كيف نفى الملك هنري بعضاً من أعدائه

سنة ١١١٠م، فيها حـرم الملك هنري فيليب دي بروس Brause، ووليم مالت، ووليم بينارد Binardمع آخرين كانوا خـونة بالنسبة له، من مواريثهم، وأعدم كونت هلياس Helias الذي انتزع منه منطقة مين، ولدى سماع جيوفري كـونت أوف أنجو بهذا، استقبل ابنة هلياس المذكور، وتسلم منها المنطقة، واحتفظ بها على الرغم من ارادة هنري.

وقام في السنة نفسهـا رتشارد رئيس دير القـديس ألبان، وسط سرور عـارم لرجال الـدين والشعب، بنقل الآثار الثمينة للملك أوسين Os-win المجيد والشهيـد، إلى الكنيسة الجديدة للقـديسة مـريم في تينيماوث Tynemouth، وذلك من البيعـة القـديمـة لأم الرب المقدسـة نفسهـا، حيث تمّ العثـور على جسده المقدس أولاً، ووضع في مـزار، وعمل هذا النقل في يوم آلام الشهيـد، أي في الثـالث والعشرين من آب،[وفي هذه السنة نفسها زوّج الملك هنري ابنته إلى امبراطور ألمانيا].

وفي هذه السنة نفسها، بدأ أيضاً القديس غودريك Godric حياة التنسك في فنشلي Finchale ، واستمر بها بطريقة محمودة لمدة أربعين سنة، حين تحرر من الجسد، ودخـل قصراً في السماء هناك ليتمتع بسعادة أبدية مع القديسين فوق.

وظهر في هذه السنة أيضـاً مذنب بطريقـة غير اعتيادية، ذلك أنه وإن أشرق من الشرق، وارتفع نحـو السماء، بدا وكأنه لايتحرك نحـو الأمام بل نحو الخلف.

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، أخضع بلدوين ملك القدس بيروت بقوة السلاح، وهي مدينة ساحلية في فينيقيا، وأضافها إلى الممتلكات الصليبية، وهي واقعة بين جبيل وصيدا.

كيف عاث الملك هنري فساداً بشده في أراضي كونت أنجو

سنة ١١١١م، عبر الملك هنري إلى نورماندي، وهاجم كونت أوف أنجو، الذي استولى على مين التي كانت تابعة له، ضد ارادته، وعاث فساداً في أراضيه من كل جانب بالسيف والنار، [وكان في هذا الوقت موتان كبير للحيوانات، ومجاعة شديدة في نورماندي، ووضع أيضاً هنري الملك الألماني البابا باسكال في السجن].

حول القديسة فرايدسوايد وبناء كنيستها

وأعطى في حوالي الوقت نفسه روجر أسقف سالسبري مكانا في أكسفورد، حيث كانت العذراء القديسة فرايد سوايد Frideswide مدفونة، إلى راهب نظامي اسمه ويموند Wimund الذي شكل هناك جماعة من الرهبان النظاميين، تحت نظام مقرر، وكان هو أول رئيس لهم، وكان المكان في الأيام الخالية مكرساً للاستخدام من قبل الراهبات، وذلك صدوراً عن الاحترام لتلك القديسة التي رفضت المتعة الأرضية من أجل المتعة في السماء لتكون عروساً هناك، وذلك أن ابنا لأحد الملوك رغب في الزواج من هذه العذراء، واستخدم عبثا كل الوسائط والمغريات، ثم حاول أخيراً استخدام القوة، وأدركت فرايد سوايد نواياه، فهربت بشكل سري إلى الغابة، غير أنها لم تنج من محبها، الذي كان مستنفراً لمعرفة إلى أين ذهبت، وبناء عليه هربت العذراء أثناء الليل، وجعلت الرب دليلها، فوصلت إلى اكسفورد، وعندما وصل محبها المتعنت إلى هناك، يئست من النجاة، وكانت منهكة وغير قادرة على متابعة السير، فدعت إلى الرب حتى يحميها ويعاقب مطاردها،

وكـان الشـاب قـد دخل إلى المدينة مع أتبـاعـه وعنـدها أصيب بالعمى بضربة سماوية، فأدرك أنه قـد عـوقب بسبب عناده، فأرسـل إلى فـرايد سـوايـد، ورجـاها التـوسط له عند الرب، ودعت العـذراء إلى الرب، وبوسـاطة دعـواتها استرد الشـاب بصره بسرعـة مثلما كـان من قبل أن أصيب بالعمى، ولهذا السبب يخاف ملوك انكلترا دومـا من الدخول إلى تلك المدينة، لأنه قـد قيل بأنها قـاتلة لهم، وهم لايرغبـون في تجريب الحقيقـة على حسـاب تعـرضهـم للخطر، وبنت العـذراء ديراً هناك، وترأست هي شحصيـاً على مجمـوعة من العـذراوات التقيـات اجتمعن هناك، وكـان هـذا الدير قـد التهمتـه النيران في أيام الملك إيثلرد Eth-alred مع الدانيين Danes الذين هـربوا إلى هناك للإلتجـاء، عندمـا حكم على جميع رجـال تلك الأزمـة بالموت، وبعـد مـرور وقت قصير أعيـدت عمارتـه من قبل الملك نفسـه، وقـد أوقف عليـه كثيراً من الممتلكات.

ومات في هذه السنة روبرت كونت فلاندرز، الذي ميز نفسه كثيراً في الحج إلى القـدس، ولذلك سوف يظل اسمـه مـذكوراً إلى الأبد، وصـار ابنه بلدوين كونتاً بعده.

وفي هذه السنة نفسهـا، تمت محاصرة صيـدا، الـواقعـة على سـاحل البحر، وجرى الاستيلاء عليها من قبل الملك بلدوين اللامع.

الخلاف بين البابا والامبراطور

سنة ١١١٢م، نشب فيهـا خـلاف بين البـابا بـاسكال والامبراطور هنري، نتيجـة للسبـب التـالي: فقـد رغب الامبراطـور في استخـدام الامتيازات التي تمتع بها أسلافه لمدة ثلاثمائة وستين سنة في ظل البابوات الرومان، وذلك بمنح الأسقفيات ورعاية الديرة، بوساطة الخاتم وعصا الأسقفيـة، لكن البـابوات الرومـان أرادوا عـدم السماح بإعطاء الخاتم

والعصا، ولاأن يتسلم أي لاهوتي منصباً من واحد علماني، وأقيم على كل حال السلام بين الامبراطور والبابا على شرط أن يتسلم الأساقفة ورعاة الديرة مناصبهم في المستقبل من الامبراطور ومن خلفائه من بعده، ويكون ذلك بوساطة الخاتم والعصا، إنما يتوجب عليهم قبل ذلك عمل اعتراف بالطاعة إلى الأسقف الذي يعنيه الأمر، ومنه يتلقون السيامة المعهودة، وجرى الاعلان عن هذا الإتفاق أمام مذبح الرسولين بطرس وبولص، وعندها سمح البابا للامبراطور بتناول جسد المسيح المقدس والمشاركة فيه.

ومات في السنة نفسها تانكرد اللامع الذي أنجز أعمالاً رائعة في فلسطين، وكان أميراً لأنطاكية كما كان كونتاً للرها، وقد خلفه روجر فتز— روجر، وكان رجلاً نبيلاً وذلك على شرط أنه عندما سيطالب بوهيموند الشاب بتملك أنطاكية، سوف يسلمه إياها على الفور.

حول الخلاف بين رئيسي أساقفة كانتربري ويورك

سنة ١١١٣م، أعطى فيها الملك هنري كرسي كانتربري إلى رالف أسقف لندن، ونصبه بوساطة الخاتم والعصا الأسقفية، ومات في السنة نفسها توماس رئيس أساقفة يورك، حيث خلفه ثورستان Thurstan، ونشب جدل كبير بين رالف رئيس أساقفة كانتر بري، وثورستان رئيس أساقفة يورك، لأن هذا الأخير كان غير راغب في تقديم الطاعة المعهودة إلى رئيس أساقفة كانتربري، كما فعل أسلافه من قبله، وغالبا ماأثيرت هذه المسألة أمام الملك، وأمام مولانا البابا، لكنها لم تحسم تماماً، وفي السنة نفسها قاد الملك هنري جيشاً إلى داخل ويلز، وأرغم السكان على الخضوع لمشيئته الملكية.

وظهر في شهر أيارمن السنة نفسها مذنب كبير، وتبع ذلك بعد وقت قصير زلزلة هدمت شطراً من مدينة المصيصة، التي ليست بعيدة عن

أنطاكية، مع قلعتين هما: الأثارب ومرعش، وغزا في السنة نفسها أيضاً مودود، ملك الفرس بلاد الصليبيين مع جيش كبير، من غير الممكن ذكر تعداده، وبعدما عبر مناطق كثيرة نصب معسكره قرب الجسر الذي يجري من تحته نهر الأردن، ولدى معرفة بلدوين ملك القدس بهذا، دعا روجر أمير أنطاكية إلى مساعدته، لكن الملك اندفع قبل وصول حلفائه، واثقاً بقوته المفترضة كثيراً، وقد زحف مع جيش صغير للتصدي للعدو، فوقع في كمين نصبوه له، وبذلك تغلبوا عليه بتفوقهم العددي، وأرغموه على الفرار، تاركاً رايته على أرض المعركة، ومثله فعل أرنولف البطريرك والأمراء الآخرون الذين كانوا معه، حيث تخلوا عن معسكرهم مع جميع أثقالهم، ولازوا بالفرار بشكل مهين، وسقط في القتال ثلاثين فارساً وألف وخمسمائة من الرجالة، وعرف الترك أن الأجزاء الأخرى من المملكة ليس فيها قوات عسكرية تحميها، فقسموا جيشهم واجتاحوا المنطقة كلها بالنار والسيف، ونهبوا مناطق الضواحي، وأسروا المزارعين وجمعوا أسلابهم في القرى والبلدات، وهرب الملك بلدوين، ودخل قلعة كانت في أراضيه ودافع عنها وقتاً طويلاً ضد هجمات الأعداء، لكنه استسلم أخيراً على شرط السماح له بالعودة إلى قومه من دون إعاقة.

كيف جعل الملك هنري نبلاءه يؤدون يمين الولاء لابنه

سنة ١١١٤م، جعل فيها هنري ملك انكلترا جميع نبلاءه يؤدون يمين الولاء لابنه وليم، الذي ولدته له الملكة ماتيلدا، وفي السنة نفسها، في شهر كانون الأول أصبحت السماء فجأة حمراء، وكأنها كانت فوق نار، وكان هناك خسوف للقمر.

سيامة رالف رئيس أساقفة كانتربري

سنة ١١١٥م، فيها جرت سيامة رالف رئيس أساقفة كانتربري، في

كـانتربري، من قبل أنسلم(حفيـد أنسلم الكبير) ونائب البـابا ومندوبه، وكـان ذلك في السـابع والعشرين مـن حـزيران ، وتسلم الطيلسـان من يده، وفي اليـوم نفسه كرس رئيـس الأساقفة ثيـوفيلوس Theophilus لكرسي ووركستر، وبرنارد لكـرسي القـديس داوود، وبعــد عــدة أيام وجهت الدعوة إلى ثـورستان المنتخب إلى يورك، من قبل رئيس أسـاقفة كـانتربري ليتسلم منـه المبـاركـة المعتـادة، وليقـدم اعترافـاً بـالطاعـة له ولكرسي كـانتربري، لكن ثورستان ردّ بأنه على استعـداد لتلقي المباركـة منه، لكنه لن يقـدم اعتراف الطاعــة المطلوب، ولدى سماع الملك هنري بهذا، احتج بصـوت مرتفـع، بأنه لن يعمل الاعتراف المطلوب، كما فعل أسـلافـه، وإذا فعل ذلك سـوف يحرم من رئاسـة أسـاقفـة يورك، ومن المباركـة أيضاً، وعندها أصدر رئيس أسـاقفة كـانتربري نداء لمنع تسلمه السيامة من أي انسان آخر عداه شخصياً، وهكذا تفرق الفرقاء.

تكريس كنيسة القديس ألبان

سنة ١١١٦م، فيهـا كـان الملك هنـري في أيام الميـلاد، وفي يوم عيـد الأبرياء المقـدسين، حاضراً أثناء تكريس كنيســة القديس الشهيـد ألبان، وقـد تولى التكريس روبرت أسقف لنكولن، الذي استدعي للقيـام بهذا الواجب من قبل المبجل رئيس رهبان تلك الكنيسـة، وكان بين الحضور أثناء الاحتفـال: الملك، والملكة ماتيلدا، وجيـوفري رئيس أسـاقفة روان Rouen، ورتشـارد أسقف لندن، وروجــر أسقف سـالسبري، ورالف أسقف درم، مع كثير من الايرلات من انكليـز ونورمـان، الذين احتفي بهم بكرم من قبل رتشارد، رئيس الرهبـان، ومنح الملك هنري الأسقفية لتكون أبدية دائمـة التملك من قبل الكنيسة المتقـدم ذكرها، وأكـد هذه المنحة بصك براءة.

وكان في السنة نفسهـا خصام شديد بين ملكي انكلترا وفرنسـا، وقد ثار للسبب التـالي: حمل في تلك السنة ثيـوبـولد كـونت أوف بلوا وابن

اخت الملك هنري، السلاح ضد ملك فرنسا، وأنزل الملك هنري، في دفاعه عن ثيوبولد، أضراراً كبيرة بالملك الفرنسي لويس، الذي دعا إلى عونه كل من كونتي: فلاندرز، وأنجو، لأنهما أقسما معا، بأنهما سوف ينتزعان نورماندي من الملك هنري، وإعطائها إلى وليم ابن الدوق روبرت، أخو الملك هنري، الذي يمتلك حق الادعاء بها، لكن بما أن الملك الانكليزي كان عاقلاً وحكيماً، فقد ضم إلى جانبه بريتاني مع ثيوبولد المتقدم ذكره، وقام بجمع قوات انكلترا، ونورماندي وبريتاني وتوحيدها، ووقف ينتظر وصول الأعداء، ودخل الملك الفرنسي وجيش كبير مع الكونتين المتقدم ذكرهما اللذان كانا متحالفان معه، إلى نورماندي، لكنه أمضى ليلة واحدة فوق الحدود، ذلك أنه كان يخشى من أن يزحف ملك انكلترا ضده، ثم انسحب إلى أراضيه دونما قتال، وفي السنة نفسها أثقلت انكلترا بمختلف أنواع الجبايات والمكوس لتأمين حاجيات الملك.

اضطراب أحوال العناصر الأساسية

سنة ١١١٧م، فيها كانت رعود، وزوابع، وبروق، وتساقط برد، وهزات أرضية، دمرت الكنائس، والأبراج، والأشجار، وبني الانسان في لومبارديا، ومات في السنة نفسها أيضاً إيفو Ivo المبجل، أسقف تشارترز، وكان مشهوراً بمعارفه بالكتابات المقدسة.

كيف تفجر الشقاق في روما حول جيلاسيوس البابا المضاد

سنة ١١١٨م، فيها مات البابا باسكال، وخلفه جيلاسيوس Gelasius البابا المضاد لمدة سنة واحدة، وماتت في السنة نفسها ماتيلدا ملكة انكلترا، ودفن جسدها بسلام في وستمنستر، وصعدت روحها إلى السماء، كما كان واضحاً من خلال علامات متوالية ومعجزات، وكانت هذه الملكة المباركة قد بنت داراً للمجذومين في لندن، مع بيعة وأبنية

موائمة، وهي المعروفة حتى هذا اليوم باسم« مشفى القديسة مرغريت».

أصل طائفة فرسان الداوية

في حوالي هذا الوقت كرس بعض النبلاء من طائفة الفرسان، من رجال الدين الذين كانوا يخافون الرب، أنفسهم لخدمة المسيح، وفق طريقة الرهبان النظاميين، وتخلوا عن جميع المباهج تطوعاً بإرادتهم، وعملوا تعهداً إلى بطريرك القدس بأن يعيشوا بطهارة أبدية وبطاعة، وكان أول هؤلاء المحترم هيوج دي باني Paganis ، وغودفري دي سينت أومر، وبما أنهم لم يمتلكوا مقراً ثابتاً، فقد منحهم الملك بلدوين مسكناً في قصره، وذلك في الجانب الشمالي من هيكل الرب، وأعطاهم رهبان الهيكل الفسحة المفتوحة العائدة إليهم والقائمة حول القصر، ليبنوا مكاتب عليها، وقام البطريرك أيضاً، والملك، مع نبلايه مع بقية أساقفة الكنائس، بتقديم هدايا لهم من ممتلكاتهم، حتى يؤمنوا مايحتاجون لأنفسهم، ويزودوها بالطعام والكساء، وكان هدفهم الأول— من أجل التخلص من ذنوبهم— تنظيف الطرق من اللصوص، وهي الطرق التي كان يتوجب على الحجاج عبورها، وهم على طريقهم إلى القدس.

وأخيرا جرى منحهم بعد تسع سنوات، نظاماً، وكان ذلك من قبل مجمع تروي Troyes ، وعُين لهم رداءً من قبل البابا هونوريوس، وبعد انقضاء السنوات التسع، وحيث كان عددهم تسعة في البداية، قد بدأ هذا العدد بالازدياد بسرعة، وكذلك ممتلكاتهم، وخاطوا فيها بعد، في أيام البابا يوجينيوس صليباً أحمر على أرديتهم حتى يميزوا أنفسهم عن الآخرين، وازدادت أعدادهم في وقت قصير حتى بات هناك مالايقل عن ثلاثمائة فارس في بيتهم، وذلك إلى جانب الرهبان الآخرين الذين كان عددهم غير محدود، ويقال أنهم في هذه الأيام يمتلكون ممتلكات هائلة على طرفي البحر، إلى حد أنه ليس هناك أياً من جميع البلدان

المسيحية لم يمنحهم جـزء من ثرواته، وهـم في هذه الأيام يتفـوقون حتى على الملوك بالثـراء، وبسبب إقـامتهـم قـرب هيكل الرب، أطلق عليهم اسم فرسان الهيكل.

ومع أنهم التـزموا لوقت طويل بمـؤسستهم الأصيلة، تخلوا الآن عن تواضعهم الذي كـانوا قـد آمنوا به، وابتعـدوا بـأنفسهم عن البطريرك، الذي منه تسلموا مـؤسسة طائفتهم، وأول المنح والهبـات، وتوقفوا عن تقـديم الطاعـة إلى الكنيسة وعن دفـع العشور إليهـا، وبذلك أصبحـوا مبغوضين من قبل كل انسان.

وفي هذه السنة نفسها مات بلدوين الأول، ملك القدس، وكان أميراً رائعـاً، أخضع إلى سلطانه مـدن: عكا، قيسـارية، وبيروت، وصيـدا، وطرابلس، وأرسـوف مع جميـع بلاد العـرب حتى البحـر الأحمر، وقـد خلفه كـونت الرها، الذي كـان اسمه أيضـاً بلدوين، وقد جـرى تتويجه ملكاً في شهر نيسان، وذلك في اليوم الثاني من الشهر.

موت البابا جيلاسيوس وخلافة كاليكستوس له

سنة ١١١٩م، فيها مات البابا جيلاسيـوس، وقد خلفه كاليكستوس، Calixtus، الذي مكـث عشر سنوات، وعشرة أشهـر، وثـلاثة عشر يومـاً، وقـد كـان من قبـل أسقف فينا تحت اسم غي، وعندمـا جـرى تكريسه بابا اتخذ اسم كـاليكستوس، وقد عقـد مجمعاً في ريمس، حضره بعض الأسـاقفـة الانكليـز والنورمان، الـذين أرسلوا إلى هناك من قبل الملك هنري، وحصل ثورستان المنتخـب ليورك على إذن الملك بالذهاب إلى هناك، وقـد أعطى في البـداية تعهـداً بأنه لن يتسلـم التبريك من كاليكستوس، لكنه عندمـا وصل إلى هناك إلى المجمع كسب الرومان إلى جـانبه -كما يحدث دومـاً في مثل هذه الأحوال -بوسـاطة الهدايا، فأقنع البابا بـالقيام بتكريسه، وعندمـا سمع الملك بهذا ، منع رئيس الأسـاقفة

هذا من أن يطأ بقدميه أياً من أراضي الملك، وفي هذا المجمع أدان البابا نفسه خطيئة المعلم غيلبيرت بوريتا Poreta الذي يقال بأنه أخطأ في أربعة مسائل محددة هي: أولاها، أنه قال بأن الطبيعة الإلهية التي نسميها لاهوت، هي ليست الرب، بل شكل هو دون الرب، مثلما الانسانية هي ليست الانسان، بل شكل دون الانسان، وعلى هذا رد المجمع بقوله: «نحن نعتقد بأن الطبيعة الساذجة للاهوت هي الرب، وما من عقل كاثوليكي يمكنه أن ينكر بأن اللاهوت هو الرب: وعلى هذا حيثما الرب يقال بالحكمة هو حكيم، وبالعظمة هو عظيم، وبالخلود هو خالد، وواحد في وحدة، ورب باللاهوت، ونحن نعتقد أنه ليس حكيماً إلاّ بالحكمة التي هو بها رب، وأنه ليس عظيماً إلاّ بالعظمة التي هو بها رب، كما أنه ليس خالداً إلا بالخلود الذي هو به رب، كما أنه ليس واحداً إلاّ بالوحدة، التي هو بها رب، كما أنه ليس رباً إلاّ باللاهوت الذي هو نفسه، يعني أنه حكيم في نفسه، وعظيم، وخالد، وإله واحد»، وثانيها: لقد قال بأن الأقانيم التي هي الآب، والابن، والروح القدس، ليسوا إلهاً واحداً، ولاجوهراً واحداً، أو أي شيء واحداً، لكن هؤلاء ثلاثة أقانيم (أشخاص) وثلاثة أشياء مختلفة في العدد أيضاً، كما لو أن ثلاثة أفراد وجدوا ذوي طبيعة بشرية واحدة، وعلى هذا ردّ المجمع قائلاً: «إننا عندما نتحدث عن ثلاثة أشخاص: أب، وابن، وروح قدس، نحن نعتقد أنهم إله واحد، ولاهوت واحد، وجوهر واحد، والعكس صحيح: لأننا عندما نتحدث عن رب واحد، ولاهوت واحد، وجوهر واحد، نؤمن أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة رب واحد، وجوهر لاهوتي واحد»، وثالثها: قال غيلبيرت بأن الخاصية لكل واحد من الأشخاص هي علاقات أبدية خاصة، وهي ليست كذلك بسبب أن الأشخاص مختلفون بالعدد، ومنقسمون منفصلون بالجوهر، ولهم ثلاث وحدات، وبالتالي كثير من الأشياء غير الخالدة، ما من واحد منها هو رب، وعلى هذا ردّ المجمع قائلاً: «نحن نعتقد بأن الرب هو

الآب، والابن، وروح القدس، فقط وحده خالد، وأن ما من شيء سواء دعي باسم علاقات أو خاصية، أو وحدات، هو عائد إلى الرب، وهم غير متأصلين بالخلود، وليسوا رباً» ورابعها لقد أعلن بأن الطبيعة اللاهوتية لم تصبح متجسدة، وعلى هذا ردّ المجمع قائلاً: «نحن نعتقد بأن اللاهوت، سواء قيل له: جوهر لاهوتي، أو طبيعة لاهوتية، قد تجسد بالابن».

القتال بين ملكي فرنسا وانكلترا

نشبت في السنة نفسها معركة قتالية بين لويس ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وعمل ملك فرنسا صفين من العساكر وضع في الأول منهما وليم ابن الدوق روبرت، أخو الملك هنري، واتخذ هو موقعه مع الكتلة الأساسية من القوات في الصف الثاني، وعبأ هنري ملك انكلترا جيشه في ثلاثة صفوف، حيث وضع في الصف الأول نبلاء نورماندي، وفي الصف الثاني، اتخذ موقفه مع آل بيته وعساكره، ووضع في الصف الثالث ولديه مع القوات الأساسية المؤلفة من الرجالة، وعندما تواجهت القوات واشتبكت، خرق الصف الفرنسي الأول صف النورماندين، وألقاهم من على خيولهم وفرقهم، ثم هاجم الفرنسيون رجال الصف الذي كان هنري يقوده شخصياً، وقاموا بحدة بردهم نحو الخلف، لكن الملك الانكليزي تمكن برجولة من إعادة جمع رجاله ووقف ثابتاً في مكانه، وأعقب ذلك اشتباك عنيف بين العساكر الملكية، حيث تكسرت رماحهم، واشتد القتال وازداد التلاحم في مناطق عدة، والسيوف بالأيدي، وتمكن وليم غريسبن Grispin كونت إيفروكس Evreux ، الذي لسوء فعاله، كان الملك هنري قد أبعده ونفاه، تمكن هذا مرتين من ضرب الملك على رأسه بالسيف، وصحيح أن السابغة والخوذة كان لايمكن خرقهما، مع ذلك دفعت شدة الضربة السابغة إلى خرق رأس الملك، وبذلك تدفقت الدماء بغزارة، وعندما

شعر الملك بأنه قد جرح امتلأ غضباً، وبضربة واحدة قذف بالكونت وبحصانه إلى الأرض، وأمسك الفارس على الفور، وحمل أسيراً، ثم قام الرجالة، الذين كان بينهم ولدي الملك، والذين لم يشاركوا بعد في القتال، بتشريع رماحهم، وحملوا فوراً على الأعداء بثقل عظيم وبقوة بلغت حداً جعلت جميع العساكر الفرنسية تنكص على أعقابها، وتدير ظهورها، وتفر، معطية النصر إلى الملك هنري، الذي بقي في ساحة المعركة حتى فرار الملك الفرنسي، وإلى أن وقع نبلاءه بالأسر، وجلبوا إلى أمام ملك انكلترا، وحمل كونت فلاندرز على محفة ونقل إلى موطنه، وهو مصاب بجراحة قاتلة، وعاد الملك هنري إلى روان حيث استقبل بقرعات النواقيس والترانيم في الكنائس، وقد قدم شكراً خاشعاً إلى رب الحشود.

موت رتشارد رئيس رهبان القديس ألبان

في السنة نفسها فارق هذه الحياة رتشارد دي أوبني Aubeney [سماه من قبل دي Exaquis] رئيس رهبان القديس ألبان، وصار غيوفري دي غورهام Gorhamرئيس الكنيسة نفسها، رئيساً للرهبان هو السادس عشر، ومات في السنة نفسها هيربرت أسقف نوروك، وبلدوين كونت فلاندرز من الجراحة التي تلقاها في إيو Eu في نورماندي، وقد خلفه شارل ابن كنوت Cnut ملك الدانمرك، وجاء في تلك الآونة البابا كاليكستوس إلى عند الملك هنري في نورماندي، وعقد هذان الاثنان، اللذان كان أولهما الحبر الأعظم، وثانيهما الملك، محادثات فيما بينهما في غيسور Gisors:

كيف جرى مقتل أمير أنطاكية

في حوالي ذلك الوقت، قاتل روجر أمير أنطاكية، مع ثلاثمائة فارس، وثلاثة آلاف من الرجالة، ضد الأمراء الثلاثة للأتراك، ورجال دمشق،

والعـرب، الذين كـان معهم مـالايقل عن ستين ألف رجل في جيشهم، وفي هذا الصراع غير الاعتيادي، قتل الأمير مع جميـع رجاله، حتى أنه لم يبق هناك من يحمل أخبار الهزيمـة، وبعد هذه المعركة استـولى المسلمون على بلدتي كفـرروما، وزردنا، وعندمـا سمع بلدوين ملك القـدس بهذه الحادثة، سـار بشجاعـة للتصدي للأعـداء، وقاتل مع جيشـه الصغير في جبل داوود ضـد عســاكـرهم الكثيرة، وهزم الأمـراء الثـلاثة، وأعـاد الاستيلاء على بلدتي كفر روما، وزردنا، المتقـدمتي الذكر، وطارد العدو المنهزم، موقعاً فيه كثيراً من القتلى، واستمر في ذلك حتى حلول الليل.

كيف غرق في البحر الكثيرون من آل بيت الملك هنري

سنة ١١٢٠م، فيها بعدما أخضع الملك هنري جميع أعـدائه في فرنسا، وهدّن كـل شيء في نورمـــاندي، عبر منتصراً إلى انكلترا، لكن ولـديه: وليم، ورتشارد، وابنته وحفيدته، مع رتشارد ايرل أوف شستر، وسقاته، وخدمـه، وطهاته، وكثير مـن النبلاء، قيل بأنهم كـانوا جميعاً قـد فسدوا بسبب ممارسـة إثم اللواطة، قد غـرقـوا في البحر، وهلكوا جميعـاً بشكل تعيس، لأنهم لم ينالوا دفنا مسيحيا، فقد ابتلعهم موت مفاجىء مع جميع دنسهم، مع أن البحر كان هادئاً آنذاك.

كيف اتخذ الملك هنري زوجة

سنة ١١٢١م، فيهـــا تزوج هنري من أليـس، ابنة دوق لوفين Lou-vain، لبهائهـا وجمالها، وقد جرى تكريسهـا ملكة من قبل رالف رئيس أسـاقفة كـانتربري، في لندن، في أيام عيـد العنصرة، حيث جلست هناك بشكل رسمي وراء مـائـدة والتـاج عليها، وكـانت برفقـة الملك، وبعـد الفـراغ من هذا زحف الملك على رأس جيش كبير إلى ويلز، لكن شعب ويلز قابله متضرعاً، وخضع لإرادته الملكيـة، وفي هذه السنة نفسها أخذ البابا كـاليكستوس واحداً اسمـه موريس كـان الامبراطور قد جعله بابا

مضاد، ورسمه راهباً.

موت رالف رئيس أساقفة كانتربري

سنة ١١٢٢، فيها سدد رالف رئيس أساقفة كانتربري، وجون أسقف بـــــاث Bath ، دين الطبيعة، وفي هذه السنة نفسها أسر القائد بلك جوسلين كونت الرها وأخيه جاليران.

كيف هلك واحد من مستشاري الملك بشكل تعيس

سنة ١١٢٣م، فيهـا أمضى الملك هنري عيد الميـلاد في دنستيبل Du-natable، وسـار بعـد العيـد من هناك إلى بيركهـامبستـد Berk-hampstead، وكان برفقتـه مستشار اسمـه رالف، الذي كان لعشرين سنة مصابا بمرض شديد، ومع ذلك كان نشيطاً بما فيه الكفاية في سبيل جميع أنـواع الجرائم، ذلـك أنه ظلـم البريء، وسلب أراضي الكثيريـن، ومع أنه كان ضعيفاً بالجسد، زاد من قـوة اندفاع عقله، وبينما كان يرشد الملك إلى بيتـه، عندما وصـلا إلى قمة رابيـة، منها كـان من الممكن رؤية قلعـة الملك، تحمس كثيراً وانفعل إلى حـد أنه سقـط من على ظهـر حصانه، فقام راهـب من رهبان دير القديس ألبان، كـان قد استولى على أرضـه، بالمرور فوقـه وحصـانه يعدو بدون انتبـاه، وبذلك أنهى حيـاته البائسة خلال عدة أيام انقضت.

ومات في السنة نفسها روبرت أسقف لنكولن، وقد خلفه الاسكندر، وأعطى في السنة نفسهـا الملك هنري رئاسـة أساقفة كـانتربري إلى وليم دي كـوربـويل Corboil رئيس رهبـان شيك Chick [في اسكس Eeesx]، وأعطى أسقفية باث إلى غـودفري، الذي كـان حاجب الملكة في تلك الآونة، وثار كذلك روبرت دي ميدلنت Medlent على الملك، الذي تولى حصـار قلعتـه بونتـوديمير Pontaudemer واستولى عليها، وبنى في الـوقت نفسه سوراً عـالياً، وعـريضاً مع شرافـات حول

برج روان، ومتن برج قلعة كين Caen ، وبالاضافة إلى ذلك جعل قــلاع: آرشـــي Arches ، وغيســور، وفــلاسي Falaise ، وأرغنتول Argenteuil، ودو مفرونت Domefront، وأوكسيم Ox-ismes، وأمبرت Ambert، وفير VIR، قـلاعـاً لاتـرام، وكـذلك برج فيرنون Vernon.

كيف جرى أسر ملك القدس من قبل الأمير التركي بلك

واقتاد في السنة نفسها، بلدوين ملك القـدس جيشاً في مناطق كونت الرها، وبينما كـان يسير بدون حـذر في إحـدى الليـالي، وعسـاكـره غير منتظمة، حمل عليـه بلك أمير الترك، من كمين، وأخـذه أسيراً، ووضعه في السجن في قلعة خرتبرت، وكان مسجـوناً في القلعة نفسها: جوسلين كـــونت الرهـا، وأخيـــه جـــاليران، اللذان من أجـل اطلاق سراحهما وتحريرهما جـــاء الملك إلى تلك المناطق، وعندمـــا سمع أمـــراء القـدس بالأخبار المشؤومة المتعلقـة بأسر الملك، عينوا لحكم المملكة رجلاً اسمه يوستاس غرنت، وكان رجلاً حكيماً ومخلصاً، وكان عليه معالجة الأمور، وتسيير الأحوال أثناء غيـاب الملك، وفي تلك الأثناء حاصر الأمير بلك يافــا مع ستـــة عشر ألف رجل مسلح، ولدى سماع أخبـــار ذلك قـــام بطريرك القدس، مع الحاكم يوستاس والأمراء الآخرين، تصحبهم رحمة الرب، فزحفـوا إلى هناك مع سبعة آلاف رجل، فهـزموا الأعداء بعـدما قتلوا سبعـة آلاف رجل منهم، واستـولى على كميـات هـائلة من الغنائم اقتسموها بالتساوي فيما بينهم.

وفي تلك السنة نفسها ذهب وليم المنتخب لكانتربري إلى روما حيث تسلم الطيلســان، ثم عاد إلى انكلترا، حيث جـرت سيامته في كـانتربري من قبل وليم أسقف ونكستر، لأن رتشارد أسقف لندن، الذي إليه عاد ذلك الواجب، كان قد مات قبل وقت قصير.

كيف جرى أسر بعض أعداء الملك

سنة ١١٢٤م، فيها دخل بقوة السلاح إلى نورماندي: روبرت كونت ميلنت Mellentمع ابن أخته هيوج دي مونتفورت، وهيوج فتز -غيرفياس Gervais ، لكن وليم دي تانكرفيل Tankerville -حاجب الملك -قاتلهم واشتبك معهم في معركة، حيث أخذهم أسرى، وأرسلهم إلى الملك هنري، الذي وضعهم في السجن.

ومات في السنة نفسها ثيوفيلوس أسقف ووركستر، وأرنولف أوف روكستر، وحوصرت في السنة نفسها صور، حاضرة سورية، من قبل ميكائيل دوج البندقية من جهة البحر، في حين حاصرها أمراء مملكة القدس من جهة البر، وبدأ الحصار في ٢٥ - شباط، وجرى الاستيلاء على المدينة في ٢٩ -حزيران، وقدّم في السنة نفسها بلدوين ملك القدس رهائن من أجل اطلاق سراحه، وعاد سالماً إلى شعبه.

كيف فوجىء نائب البابا وهو يقترف الزنا

سنة ١١٢٥م، جاء إلى انكلترا جون أوف كريما Crema، كاردينال الحضرة البابوية، بترخيص من الملك، وزار الأسقفيات والديرة، وقد حصل على هدايا واسعة قدمت له، وعقد مجمعاً مهيباً في لندن في يوم ميلاد العذراء مريم، حيث تحدث بحدة ضد اتخاذ الخليلات من قبل رجال الدين، وقال بأن ذلك كان ذنباً عظيماً أن يصدر من جانبهم، وأن يعمل جسد المسيح، لكن حدث في تلك الليلة، بالذات أن فوجىء برفقة عاهرة كان يجامعها، مع أنه كان في ذلك اليوم قد كرس جسد المسيح، وكانت الحقيقة واضحة بحيث لايمكن انكارها، وهكذا تحولت مكانته السامية إلى خزي عظيم.

وفي السنة نفسها، أعطى الملك هنري إلى سيمون، كاهن الملكة، أسقفية ونكستر، وإلى جون رئيس شمامسة كانتربري أسقفية روكستر،

وإلى سيفرد Sifred راعي غلاستونبري Glastonbury ، أسقفية شستر، وأيضاً نشب خلاف بين وليم رئيس أساقفة كانتربري وثيرستان رئيس أساقفة يورك حول الأولوية، التي حاول كل واحد منهما أن يبرهن أنه الأحق بها.

وفي هذه السنة مات الاسكندر ملك الاسكوتلنديين، وقد خلفه أخوه داوود، وكان رجلاً صاحب قداسة عظيمة، وكرم مدهش، فضلاً عن هذا أمر الملك هنري بجميع الماليين في انكلترا، فتعرضوا لسوء العذاب، وكذلك أمر بقطع أيديهم اليمنى لأنهم اقترفوا تخفيض عيار النقود، ولم يحافظوا على نقاوتها.

كيف انتصر بلدوين ملك القدس على الأتراك

وفي حوالي هذه السنة نفسها اجتمع البرسقي، الذي كان أميراً شرقياً قوياً، مع طغتكين ملك دمشق، وبعدما عبر نهر الفرات، عاث فساداً في أراضي أنطاكية، واستولى على حصن كفرطاب، وتابع زحفه فألقى الحصار على بلدة عزاز، وعندما سمع بلدوين بهذا، وكان وقتها مسؤولاً عن كل مملكة القدس وإمارة أنطاكية، زحف إلى هناك مسرعاً مع عساكره، فوجد العدو المتقدم ذكره مايزال مشغولاً بالحصار، فهاجمه بشدة، وبرحمة ربانية هزم الأعداء جميعاً، وقتل ألفين، كلهم وجدوا قبورهم في النار، وبالأموال التي وجدها الملك هناك، قام بفداء ابنته، التي كانت طفلة في الخامسة من عمرها، كان قد أعطاها من قبل رهينة من أجل تحريره شخصياً، وعاد من هناك حيث جمع الأسلاب قرب عسقلان، وكان قد قتل عدداً من الأتراك وجدهم على طريقه، ثم عاد إلى شعبه.

كيف مات الامبراطور وكيف عادت الامبراطورة إلى أبيها

سنة ١١٢٦م، فيها فارق هنري امبراطور الرومان هذه الحياة، وقد

خلفــــه لـوثير Lothaire ، الذي حكم اثني عشر عاماً، ثم عادت الامبراطورة ماتيلدا إلى أبيها الملك هنري، وسكنت في قصره مع الملكة، لأن الملك قد أحبها كثيراً، لأنها كانت وريثته الوحيدة، وكان قد عاد إلى انكلترا في أيام عيد القديس ميكائيل، وجلب ابنتـه معه، بعد وقت قليل من فقـدانها -كما قلنا -زوجها الذي كـان رجلاً عظيماً، وقام بعـد ذلك بقليل، وبناء على أوامر الملك، جميع نبلاء انكلترا ونورماندي بتأدية يمين الولاء إليهـا، وكذلك إلى ستيفن كـونت بولون، ابن أديلا، أخت الملك، وكونت أوف بلوا.

الخلاف بين رئيسي أساقفة كانتربري ويورك

سنة ١١٢٧م، عقد الملك هنري بلاطة لعيد الميلاد في وندسور، حيث رغب ثورستـان رئيس أسـاقفـة يورك القيـام بتتـويج الملك، وذلك على الرغم من معارضـة رئيس أساقفة كـانتربري، لكنه منع من ذلك باتفاق عام، وجرى طرد حـامل صليبه، الذي حمل الصليب إلى بيعة الملك، هو والصليب الذي كان يحمله.

وعندما كان الملك في وندسور، جاءه رسول ليخبره بأن شارل كونت أوف فلاندرز، الذي كـان أعز أصدقائه لديه، قـد قتل بشكل خياني من قبل نبلائـه في كنيسة في بروج Bruges ، وأن ملك فرنســا قد أعطى الكونتيـة إلى وليم بن روبرت أخو هنري، أي ابن أخي هنري وعـدوه، وأن وليم قـد استقـر في الكونتيـة، وأنه قـد قتل قتلة شـارل مع مختلف أنواع العـذاب، وقد انزعج هنري تجاه ذلك، لأن الشـاب كان شجـاعاً ورجـلاً نشيطاً، وقـد هدد بطرد هنري من كل من نورمـاندي وانكلترا، التي قال بأنها من حقه وملكاً له بشرعة الوراثة.

ومات في الوقت نفسه رتشارد أسقف لندن، وخلفه غيلبرت العالمي، الذي تلقى السيامة من وليم، رئيس أساقفة كانتربري.

زواج الامبراطورة ماتيلدا من غيوفري كونت أوف أنجو

عزم في تلك السنة نفسها فولك كونت أوف أنجو على الذهاب إلى القدس، والاستقرار بها مدى الحياة، فسلم الكونتية إلى ابنه غيوفري، الذي كان لقبه بلانتغنت، وكان شاباً بارعاً جداً، وأخذ فولك طريقه إلى القدس، حيث وصلها سالماً، وفرح ملك القدس كثيراً بوصوله، وزوجه من كبرى بناته، مع توقع أن يغدو ملكاً من بعده شخصياً، وعندما بات ذلك معروفاً لدى الملك هنري، عبر إلى نورماندي، وزوج ابنته الامبراطورة إلى غيوفري كونت أنجو المتقدم ذكره.

وعبر في الوقت نفسه بوهيموند بن بوهيموند الكبير إلى سورية، وتسلم من ملك القدس بلدوين، ميراثه الأبوي، أي حكم أنطاكية، مع الابنة الثانية للملك لتكون زوجة له، واستولى بوهيموند بعد ذلك على كفر طاب، وقتل جميع الأتراك الذين وجدهم هناك.

سنة ١١٢٨م، فيها زحف هنري ملك انكلترا بطريقة هجومية إلى فرنسا، لأن لويس ملك فرنسا حمى كونت فلاندرز، الذي هو ابن أخيه وعدوه، وعسكر في هيسبارد Hespard (ربما ايبرنون Epernon) لمدة ثمانية أيام، وهو آمن مطمئن كأنه كان في ممتلكاته، وبهذا أرغم ملك فرنسا على رفض تقديم العون إلى كونت فلاندرز، وعندما كان الجيش هناك، سأل الملك واحداً من الرهبان -وكانت لديه معلومات كثيرة عن أمة الفرنسيين -عن نسب الملك لويس، فأجابه الراهب قائلاً: «أيها الأمير الأعظم قوة، إن الفرنسيين مثلهم مثل الشعوب الأوربية الأخرى يستمدون أصولهم من تروجان Trojans، وعندما حدّث الملك بحكاية نسب ملوك فرنسا كلها شروعاً من حكاية البيضتين، أضاف «كان فيليب ملك فرنسا، الذي هو والد لويس الذي هو في الحكم الآن، لو تمكن فقط من تقليد أسلافه بالقوة، لما كان بامكانك البقاء آمنا كما أنت الآن في مملكته»، فابتسم الملك وعاد إلى نورماندي.

وفي تلك الآونة جاء دوق اسمـه ثيودورك من ألمانيـا، بناء على دعوة من هنري، وأغـار على فـلاندرز، وكان معـه بعض النبـلاء الفلمنكيين، وزحف وليـم لمواجهتـــه على رأس جيش صغير، وتحارب الطـرفـــان بشجاعة، لكن كونت فلاندرز سدّ عجز قواته بقوة غير مرئية، لأنه كان حـاداً في استخـدام السلاح، وقـد حطم صفـوف أعـدائـه، مثل البرق، بسيفـه، وبناء عليـه لم يعـد بامكان أعـدائـه تحمـل ثقل ضرباته، فأداروا ظهـورهم وهربوا، وبذلك نـال الكونت وليم النصر، لكن عندمـا كـان يحاصر ايو Eu ، ضـد الملك هنري، ومتوقعـاً في اليـوم التالي تسلمهـا بعـد استسلامهـا، لأن العدو كـان منهكاً تماما، مـات الشاب من جـرح خفيف في اليد تاركاً وراءه شهرة لاحدود لها.

ومـــات في السنة نفسهـا رالـف أسقف درم، ووليم أسقف ونكستر، وأوصل المعلم هيوج دي سينت فكتور تاريخه إلى هذا التاريخ.

كيف عقد الملك هنري مجمعاً حول خليلات الكهنة

سنة ١١٢٩م، جلس هونوريوس خمس سنوات وشهـرين على كرسي البـابوية في رومـا، وفي السنـة نفسهـا عقـد الملك هنري مجمعـاً كبيراً في لندن، في اليـــوم الأول من آب، حـول منع الكهنة مـن اتخاذ خليـلات، وكان مـوجوداً في هذا المجمع وليم رئيس أساقفة كـانتربري، وثورستان رئيس أساقفة يورك، مع أساقفتهم المساعدين، وقد خدعهم جميعاً الملك هنري من خـلال سذاجـة رئيس أساقفـة كانتربري، لأنهم منحـوا الملك الحق القضـائي على خليلات الكهنة، وهو أمـر انتهى بشكل مهين، لأن الملك تسلم مبـالغ كبيرة من المال من الكهنة لانقـاذ خليـلاتهم، ثم إنه، عندما صار الوقت متأخراً جـداً، أسف الأساقفة من أجل الإجازة التي منحوها، وذلـك أنه بات واضحاً للأعين كلهـا انخداع الأساقفـة وظلم الشعب، وفي السنة نفسهـا صـار هنري رئيس دير غـلاستونبري أسقفـاً لونكستر، وعُمل روبـرت أسقفـاً لهيرفـــور، وروبرت آخـــر (الصحيح

الاسكندر) أسقفاً للنكولن.

وفي هذه السنة، عندما كان فيليب ابن ملك فرنسا، الذي توج رسمياً ملكاً بعد وفاة أبيه، راكباً للتنزه في أحد الأيام، قابله خنزير، ركض بين أرجل حصانه، وبذلك رمي الملك الجديد أرضاً، فاندقت عنقه، ومات حيث هو.

وقدمت في هذه السنة نفسها أسراب عظيمة من الطيور الطائرة، حتى أنها احتلت شطراً كبيراً من السماء، ثم إنهم قسموا أنفسهم إلى مجموعات منفصلة، واشتبكوا في القتال وقتلوا بعضهم بعضاً بشكل مخيف، ولعل ذلك بشّر بالشقاق التي قام بين المرشحين للبابوية.

الشقاق بين البابوين

سنة ١١٣٠م، فيها مات البابا هونوريوس، وقام بين الرومان حزبين حول من سيخلفه، فقد اختار بعضهم انوسنت، واختار الآخرون أناكلت Anaclet ، وقد بقي الثاني في المدينة، بسبب إخوانه، الذين كانوا رجالاً لهم نفوذهم، ويمتلكون إمارة قلعة كرستتيور Crescentior ، وقام انوسنت، المطرود من قبل الرومان، بعبور جبال الألب، ووصل إلى غاليا حيث جرى استقباله باحترام في تشارترز من قبل هنري ملك انكلترا، الذي احتفى به ثانية بعد عيد الفصح في روان، وتمكن بسلطانه من جعل الجميع يعترفون به بابا، ثم إنه بوساطة ملك انكلترا، جرى تتويج لويس، أخو الملك فيليب ملك فرنسا المتوفى، وكان التتويج في ريمز Rheims من قبل البابا، ثم إنه بعد هذا، في أيام عيد ميلاد القديسة مريم، أعطى الملك ابنته الامبراطورة زوجة إلى غيوفري، كونت أوف أنجو.

موت بوهيموند أمير أنطاكيه

في هذه السنة نفسها أغار رضوان أمير حلب على منطقة أنطاكية،

وزحف بوهيمـوند على رأس جيش للتصـدي له، فأصيب ومـات في كليكية، وفي ظل هذه الفاجعة الكبيرة طلب شعب أنطاكية المساعدة من ملك القدس، الـذي زحف إلى هناك مسرعاً، فهـزم رضوان وأعطى إلى ابنته بائنتهـا مدينتي: اللاذقية، وجبلـة، بعدما ضمن حكم أنطاكيـة بعد موت بوهيموند إلى ابنته الصغيرة، عن طريق أداء يمين الولاء لها، وعاد بعد هذا إلى القدس.

موت بلدوين ملك القدس

سنة ١١٣١م، وقع الفارس الشجـاع، بلدوين ملك القدس، مـريضاً مـرضاً شـديداً، ولتوقعـه اقتراب نهايته، دعـا إليه ختنه وابنتـه مع ابنهما الذي كان آنذاك في الثانية من عمـره، وكان أيضاً اسمه بلدوين، وأوكل إليهم العناية الكـاملة والمسـؤوليـة عن المملكة، وبعـدمـا أكمل جميع واجباته التي كـان عليه تأديتهـا كمسيحي، أسلم الروح، وذهب ليجني ثواباً سرمـدياً مقـابل جهوده التـي بذلها، وليكون مع أسـلافه الأتقيـاء، وخلفه ختنه فـولك، وكان فـارساً نبيلاً، وتسلـم في يوم تمجيد الصليب تاج المملكة.

كيف أوجد ملك انكلترا أسقفية جديدة في كارلآيل

سنة ١١٣٢م، فيهـا أوجـد هنري ملك انكلترا أسقفيـة جـديدة في كـارلآيل Carlisle على حـدود انكلترا وغـالووي Galloway، وعين فيها ليكون أسقفها الأول إيثلولف Ethelwulf، رئيس رهبان أوسولد Oswald ، والذي كان متلقي اعترافاته، ووضع الأسقف على الفور أنظمة قانونية في الكنيسة، وأضفى عليها كثيراً من التشريفات.

وولد في السنة نفسها لغيـوفري كونت أوف أنجـو ولداً ذكراً من ابنة الملك هنري، أعطاه اسم هنري، ولدى سماع الملك بهذه الأخبار، وتلقيه لها، دعـا إلى الاجتماع جميع أمـراء مملكتـه وعين ابنتـه ووريثتـه لتكون

شخصياً وريثة لجميع ممتلكاته بعد وفاته.

ومات في السنة نفسها روبرت أسقف شستر، الذي كان لقبه بيكهام Peckham وهو الذي بإجازة حصل عليها من الملك نقل مقره إلى كوفنتري Coventry ، التي جعلها عاصمة لأسقفية ميرسيان Mercian ، وقد خلفه روجر رئيس شمامسة لنكولن، وامتلكت هذه الأسقفية حتى الوقت الحالي ثلاثة مقاعد هي: شستر، وليشفيلد Lich-field، وكوفنتري.

كيف قتل فولك ملك القدس ثلاثة آلاف من الترك

عبر في السنة نفسها جيشاً كبيراً من الترك نهر الفرات، وعسكر في منطقة أنطاكية، فدعا سكان تلك المدينة ملك القدس إلى مساعدتهم، وزحف فولك إلى هناك مع جيش، وانقض على الأعداء، فقتل ثلاثة آلاف منهم، ونجا البقية فراراً، وعاد رجالنا إلى أنطاكية مع غنائم كثيرة لم يعرفوا كيف يتصرفون بها، وفي تلك الآونة شيد بطريرك القدس حصناً قرب نوبه التي تعرف بشكل عام باسم بيت نوبه، وفي حوالي ذلك الحين تزوج ريموند كونت أوف بواتو Poictou من كونستانس ابنه بوهيموند الأصغر، وأعاد في هذه الآونة فولك ملك القدس، بناء مدينة بئر السبع القديمة، التي تبعد حوالي العشرين ميلاً عن عسقلان.

شفاء واحد من الكهنة من قبل أم الرب

سنة ١١٣٣م، كان فيها واحداً من العلماء قد أصيب بمرض شديد أقعده، وتمدد ليلاً ونهاراً وهو يصرخ كأنه امرأة في آلام المخاض، وهو يدعو الأم المقدسة للرب حتى تساعده، وفي إحدى الليالي عندما كان في عذاب شديد، شاهد العذراء الأم المباركة للرب، واقفة إلى جانبه برداء أبيض، وذلك استجابة لصلواته، وقد مدّت يدها نحوه، وارتجف

الرجل المريض، لكنه ما أن شعر بلمستها حتى استرد على الفور صحته كما كانت، ومات في السنة نفسها هيرفي أسقف إيلاي وعين الملك نيغل Nigel لخلافته، وأعطى الملك في الوقت نفسه أسقفية درم إلى مستشاره غيوفري.

كيف أنجبت الامبراطورة ماتيلدا ولداً اسمته غيوفري

سنة ١١٣٤م، فيها ولدت الامبراطورة ماتيلدا ولداً أسمته غيوفري، ونتيجة لذلك وبسببه عبر الملك هنري إلى نورماندي، وبقي هناك لبعض الوقت بسرور عظيم بشأن حفيديه، ومات في تلك الآونة للانداف Llandaff، وهو على طريقه إلى روما، وغيلبرت أسقف لندن، ومات في السنة نفسها روبرت كورتهوز Curthose، أخو الملك هنري، ودفن في غلوستر، وتمددت في هذه الآونة الامبراطورة مريضة لوقت طويل، بسبب المصاعب التي عانت منها أثناء ولادتها لابنها، وقدمت هذه العقيلة التقية كثيراً من الأعطيات إلى الأرامل، واليتامى، والكنائس، والديرة، فنجت من خطر الموت.

موت هنري ملك انكلترا

سنة ١١٣٥م، فيها عندما كان الملك هنري في نورماندي، عاد في أحد الأيام من الصيد، فتوقف في سينت دنس Denys ، في غابة الأسود، ليأكل بعض الجلكى، وهو سمك (كالأنقليس) كان مغرماً به كثيراً، مع أنه كان لايوافقه، وغالباً ماحذره الأطباء من أكل هذا النوع من السمك، لكنه لم يكن يصغي إلى نصائحهم، وجعل الطعام دم الرجل المسن يرتجف بشكل مميت ويشعر بقشعريرة شديدة سببت له مرضاً مفاجئاً وشديداً، وقاومت الطبيعة ضده، فكان أن عانى من حمى حادة، وذلك في محاولة لمقاومة أسوأ مؤثرات المرض، ولم يستطع هذا الملك العظيم تحمل قوة علته، فمات في اليوم الأول من كانون الأول، بعدما

حكم خمساً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وقد بشّرت بموته ريح عنيفة، في مساء عيد الرسولين سمعان ويهوذا، هدمت الأبراج، والبيوت، واقتلعت الأشجار من كل جانب، وانخسف القمر أيضاً في السنة نفسها في اليوم التاسع والعشرين من تموز، وكان هذا الملك قد أسس ديرة: ردنغ، وسسرينستر، وبري Pre` قرب روان، ومورتيمير Mor-timer، كما شيد خمساً وعشرين بلدة فخمة إلى جانب الأبراج والقلاع، وبقي جسد الملك ملقى فوق الأرض في روان لمدة طويلة، حيث جرى دفن أحشائه، ومخه وعينيه، وجرى تقطيع بقية جسد الملك بالسكاكين، وجرى تمليحه لقتل الروائح الكريهة التي كانت عظيمة، وقد أزعجت كل من اقترب منها، وقد لف بجلد ثور، وجرى دفع مبلغ كبير من المال إلى الطبيب لكي يفتح رأسه بفأس، وليخرج مخه بعدما فسد كثيراً، ومع ذلك جرى لف الرأس بعدة مناديل، وصار مسماً برائحة قاتلة، وهكذا كان المال الذي تسلمه قاتلاً له، وبذلك كان آخر ضحايا الملك هنري، ذلك أنه كان قد قتل عدداً كبيراً قبله، وبعد ذلك صدر على الفور من الجسد من جلد الثور سائل ودم، تولى جمعه الخدم في طشت، وكان ذلك أمراً مرعباً للذين رأوه، وأخيراً جرى حمل جسد الملك إلى انكلترا، ودفن وسط أبهة ملكية في يوم عيد ميلاده، في ردنغ، في الكنيسة التي كان قد أسسها شخصياً، وكان رؤساء الأساقفة والأساقفة ونبلاء المملكة حضوراً أثناء الدفن.

كيف جرى تتويج ستيفن بن ثيوبولد كونت بلوا ملكاً

عندما مات هنري، وقبل أن يجرى دفنه -كما تحدثت -قام حفيده ستيفن، عن طريق اخته أديلا، زوجة ثيوبولد كونت بولون، وأخو ثيوبولد الأصغر، كونت بلوا، بالاستيلاء على تاج المملكة، مع أنه كان قد أدى قسم الولاء للامبراطورة، لكنه أغوي من قبل الرب، وكان رجلاً صاحب شجاعة كبيرة، ونشاط عظيم، ذلك أنه عندما اجتمع

نبـلاء المملكة في لندن، وعـد بوجـوب اصـلاح القـوانين بما يرضي كل واحـد منهم، هذا وتولى وليم رئيس أساقفـة كانتربري، الذي كـان أول النبـــلاء في تـأدية يمين الـولاء إلى الامبراطورة كملكـة لانكلترا، تولى تكريس ستيفن ليكـون ملكاً، وخـلاصــة الأمـر أن جميع الأسـاقفــة، والإيرلات، والبـارونـات، الذين كـانوا قـد أقسمـوا يمين الولاء لابنة الملك ووريثته، قدموا المسـاندة إلى الملك ستيفن، قائلين بأنه من العار أن يخضع مثل هذا العـدد من النبـلاء أنفسهـم إلى امـرأة، وأقسم في الوقت نفسـه هيوج بيغـود، قهـرمان الملك هنري، وشهـد أمـام رئيس أساقفـة كـانتربري، أنه عندمـا كان الملك على فـراش الموت، حـرم الامبراطورة وجعل ستيفن خليفتـه، وبناء عليـه تسلم الملـك الجديد تاج المملكة من يدي وليم رئيس أسـاقفـة كـانتربري، في وستمنستر، وسط هتـافـات الشعب وتأييـده الحار، وكان ذلك في يوم عيـد الشهيد الرائد، القـديس اسطفان، وأقيمت مائدة ملكية في غاية الأبهة.

وأكملت أعمال التتـويج بأبهة عظيمة، وعندمـا انتهت مراسم تقـديم الولاء، ذهب الملك ستيفن إلى أكسفـورد حيث أكد وعـوده التي عملها للرب، وللشعب والكنيسـة، في يوم التتـويج، وهي كمايلي: فقـد وعـد أولاً، بعـد أداء اليمين، أنه عندمـا يمـوت أسقف، لن يحتفظ بمقـره بين يديه، بل سيـوافق على الفـورعلى إجراء انتخـاب قـانوني، وتكريس كل منتخب من دون تأخير، ووعـد ثانياً أنـه سوف يبقي بين يديه الغـابات التي هـي ليست ملكـاً لرجـل دين أو رجـل علماني، وأن يحذو في ذلك حـذو الملك هنري الذي كـان يقاضيهم كل سنـة إذا ما أخـذوا قط لحم طرائد في غاباتهم، أو إذا تولوا نقلهم أو استخـدامهم لتأمين حاجياتهم، واستمـر هذا النوع من المقاضـاة طويلاً، ومـورس بشكل ظالم، ذلك أنه كان إذا مـانظر المشرفون الملكيـون عن بعد إلى غابـة كانت ملكاً إلى أي واحد كانوا يعرفون بأنه رجل صـاحب أموال، كانوا على الفور يقدمون

شكوى بوجـود تجاوزات، سـواء أكان هذا صحيحـاً أم لا، وذلك بغيـة إرغام الملاك، على تخليص غابته دونما استحقاق، وثالثا وعد بأن الشلنين (danegelt) اللذان كـانا يـدفعـان كل سنة عن كـل هايد hide من الأرض، وهو المبلغ الذي كـان أسلافه يتسلمـونه كل سنة، وعـد بإلغاء ذلك إلى الأبد، ولقد كانت هذه هي الأمور المحددة، وكانت هناك أمور عامـة أخرى وعد بمراعـاتها، غير أنه لم يحافظ على أي من هذه الوعود، مع أنه قطعها على نفسه أمام الرب.

حول التحالف بين الملك ستيفن وملك الاسكوتلنديين

وقـام في تلك الآونة، داوود ملك الاسكوتلنديين، الـذي كـان قـد أقسم يمين الـولاء، إلى الامبراطورة، بغـزو انكلترا، واستـولى على كـارلآيل، ونيـوكـاسل -على -التـاين Tyne، ووضع حـاميـات عسكرية فيها، ولذلك قـاد ستيفن ضـده جيشـاً كبيراً، والتقـاه في درم، حيث عقـدت معـاهدة بينهما، بمـوجبها أعـاد الملك داوود نيـوكـاسل، واحتفظ بكـارلآيل، وذلك بمـوافقـة من ستيفـن، ولم يقـدم الملك الاسكوتلندي يمين الـولاء إلى الملك ستيفن، لأنه كـان قـد أقسم على تقـديم الولاء إلى ابنة خـاله الملك هنري، ومع ذلك اعترف الملك داوود بأنه من أتباع الملك ستيفن، وتلقى مقـابل ذلك منطقة هنتنغدون Hun-tingdon ملكاً له ولورثته من بعده إلى الأبد.

ثم عاد الملك إلى وطنه، وعقد بلاطه في لندن، أثناء الاحتفالات بعيد الفصح، بأبهة أعظم مما عرف قط من قبل، بسبب وفرة الذهب، والفضة والمجـوهرات، والملابس الثمينة، وأشيـع في يوم عيـد صعـود الرب، في جميع أنحاء انكلترا بأن الملك قد مات، وقد سبب هذا اضطراباً عظيماً في المملكة، ولذلك استـولى هيوج بيغـود على قلعـة نوروك، وأعلن أنه لن يسلمهـا إلى أحد سـوى الملك، لابل أعلن إنه غير مستعد للتخلي عنهـا حتى إليه، وبـدأت الخيانة تنتشر الآن بين النورمان، لكن الملـك قاومهم

برجـولة، واستولى على قلعـة بادنغتـون، التي كـانت ملكاً لواحد اسمـه روبرت، كـان متمـرداً، وقـد زحف مـن هناك إلى إكستير، التي وقفت ضـده وقاومتـه بوساطة بلدوين دي رفـرRivers، وتمكن بصعوبة من الاستيـلاء على كل من المدينة والقلعة، وقـد سمح للمتمـردين بناء على نصيحة المستشـارين الأشرار بالذهاب دون عقاب، ولذلك ثـاروا ثانية، واستطاعوا بشكل خياني تحصين عدد مـن القلاع ضده، وسار الملك من اكستير إلى جزيرة وايت، التي انتزعها من بلدوين دي رفر المتقدم ذكره، ونفـاه إلى انكلترا، وبعـد هذه النجـاحـات ذهب الملك إلى الصيـد في برانتـون ليس بعيـداً عن هنتنغـدون، حيث دخل إلى غـابـات نبـلائـه، واصطاد خارقاً بذلك العهد الذي قطعه على نفسه للرب وللشعب.

كيف أخضع غيوفري كونت أوف أنجو بعض البلدات في نورماندي

وتمكن في تلك الآونة غيـوفري كـونت أوف أنجو وزوجته مـاتيلدا، من الاستيلاء بسهـولة على بعض القلاع في نورمـاندي، مع جميع المزارع التي أبقـاها الملك بيـده، وذلـك عندمـا طردا وليـم تيلفـاز Talevaz مـلاكهم السـالف، وقدمـا في شهـر آب إلى روان حيث ولدت مـاتيلدا للكونت غيوفـري ولداً ثالثاً، سمته وليم، وغضب نبـلاء نورماندي من هذا، فبعثوا إلى ثيوبولد كونت أوف بلوا، الذي كان الأخ الأكبر للملك ستيفن، ودعـوه للقـدوم ومساعـدتهم على استرداد نورمـاندي، ووصل ثيوبولـد إلى ليزكس Lisieux في صوم الشهـر العاشر، وهناك سمع بأن أخـاه ستيفن قـد توج ملكـاً على انكلترا، وعندها تخلى روبرت ايرل أوف غلوستر، عن فـالي Falaise وسلمهـا إلى ثيوبولـد، وكان قـد أخذ أولاً مبلغاً كبيراً من المال من خزانة الملك هنري.

ومات في السنة نفسهـا وليم رئيس أساقفـة كانتربري، ووليم أسقف

إكستر، وجون أسقف روكستر.

كيف تلقى ملك فرنسا ولاء يوستاس ابن الملك ستيفن عن نورماندي

سنة ١١٣٧م، فيها عبر الملك ستيفن إلى نورماندي، فهرب كونت أوف أنجو من أمامه، مما ساعد على عمله العسكري، فنجح في كل شيء تولاه، وهزم أعداءه، واستولى على قلاعهم، وبرهن على أنه شخصياً من أكثر الرجال تميزا، وعمل معاهده مع ملك فرنسا، الذي إليه قدم ابنه يوستاس الولاء من أجل نورماندي، ولدى مشاهدة غيوفري كونت أوف أنجو لهذا، وهو الذي سلف لستيفن أن قدم لزوجته الولاء، طلب منه اعادة انكلترا، ولكن بما أن القوة الملكية كانت متفوقة عليه كثيراً، وافق على عقد هدنة، بموجبها تسلم من الملك خمسة آلاف مارك سنويا شرط الحفاظ على السلام، أما بالنسبة لثيوبولد أخو الملك، وكونت أوف بلوا، فقد اشتكى بأن ستيفن الذي كان الأخ الأصغر، قد استولى على تاج انكلترا بشكل غير عادل، ولذلك وافق الملك على أن يدفع له سنويا مبلغ ألفي مارك، وهكذا افترق الأخوان على وفاق، وعاد ستيفن بعد هذه النجاحات إلى انكلترا.

ومات في السنة نفسها لويس ملك فرنسا، وقد خلفه ابنه لويس، الذي تزوج من إليانور ابنة دوق أكوتين، ومنها ولد له ابنتان، الكبرى منهن تزوجت من هنري أكبر أولاد كونت فلاندرز، وتزوجت الصغرى من ثيوبولد الابن الأصغر للأمير نفسه.

حول عداء الاسكوتلنديين نحو الملك ستيفن

سنة ١١٣٨م، فيها حصل كونراد على الامبراطورية الرومانية، وحكم لمدة خمس عشرة سنة، وفي السنة نفسها، حاصر الملك ستيفن، في يوم عيد ميلاده قلعة بدفورد Bedford قائلاً لاينبغي ترك عدو واحد يرتاح

حتى لمدة ساعة»، لكنه لم يستطع اخضاع القلعة، لأن الاسكوتلنديين قادوا مع ملكهم جيشاً إلى نورثأمبرلاند Northumberland، واقترفوا أعمالاً شائنة جداً، وبحكم أن ملكهم كان قد أقسم يمين الولاء إلى الامبراطورة، شرعوا الآن ينتقمون لصالح قضيتها، حيث كانوا يستخرجون الأطفال من أرحام أمهاتهم، ويطوحون بهم على أسنة رماحهم، وقد قتلوا الكهنة على المذابح، وقطعوا رؤوس الصلبان ووضعوهم على جثث الذين كانت رؤوسهم مقطوعة، ووضعوا مكانهم رؤوس ضحاياهم الدموية، وكانوا حيثما ذهبوا هناك مشهد واحد من الوحشية والرعب، والنساء يولولن، والشيوخ يبكون، وكل حي هو في رعب شديد.

وبناء عليه، زحف الملك ستيفن مع عساكره نحو اسكوتلندا، لكن قبل أن يصل إلى تلك البلاد عاد الملك الاسكوتلندي إلى مملكته، وانسحب إلى معاقله، وتولى الملك ستيفن نهب جنوب اسكوتلندا، ثم عاد إلى انكلترا، وكان في ذلك الوقت غضب شديد ضده بين النبلاء، حتى أن الاضطراب أحاط به من كل جانب، حيث استولى وليم تالبوت على قلعة هيرفورد ضده،واستولى أيضاً روبرت ايرل غلوستر -وهو ابن غير شرعي للملك هنري -على قلعتي ليدز وبرستول، واستولى وليم لوفل Luvell على قلعة كاري Cary ، واستولى باغانل Paganel على لودلو Ludlow، واستولى وليم دي موين Moiun على قلعة دنستر Dunster ، واستولى روبرت أوف لنكولن على وورهام Warham، واستولى يوستاس فتز-جون على ملتون، واستولى وليم فتز -ألان Alan على شروبري Shrewbury ، وقام الملك ستيفن بالاستيلاء على آخر هذه القلاع تسمية بالقوة، وشنق بعضاً من حاميتها، وعندما بلغ ذلك إلى مسامع وولكلاين Walkeline الذي كان مستوليا على قلعة دوفر، سلمها على الفور إلى الملكة التي كانت تحاصرها.

كيف أغار ملك اسكوتلندا ثانية على نورثأمبرلاند

عندما كان الملك ستيفن مشغولا على هذه الصورة في الجنوب من انكلترا، قاد داوود ملك اسكوتلندا جيشاً ضخماً إلى نورثأمبرلاند، وواجهه هنا النبلاء الشماليون، فتمكنوا بقيادة ثورستان رئيس أساقفة يورك من غرس العلم الملكي في ألفيرتون Alver- (North Alerton) ton، وبرجولة قاوموا الأعداء، وكان الرجال الرئيسيون الذين شاركوا في هذا القتال هم: وليم ايرل أوف ألبمارلي Albemarle، ووليم أوف نوتنغهام، وولتر إسبك Espec، وغلبرت دي لاسي، وحال المرض دون حضور رئيس الأساقفة، غير أنه أرسل مكانه رالف أسقف درم، حتى يذكّر الناس بواجباتهم، وكان كلامه الذي وجهه إليهم من العالي إلى الداني كمايلي: «يانبلاء انكلترا الشجعان، أيها النورمان المولد، الذين ارتجفت شجاعة فرنسا أمام قوتهم، والذين بحدة أسلحتهم أخضعوا انكلترا، والذين أيضاً تحت حكومتهم ازدهرت أبوليا الغنية ثانية، والقدس الشهيرة جداً، وأنطاكية الواسعة الشهرة خضعا معا أمامكم، والآن اسكوتلندا، التي هي بالشرع خاضعة لكم، تجرأت على مقاومتكم، وعرضت حماقاتها، التي غير مؤيدة بأسلحتها، وهي موائمة -كما هي- للخصام وليس للقتال والمعركة، وعلى هذا لاتكونوا خائفين، بل كونوا بالحري غاضبين، من أن هؤلاء الذين دوما طاردناهم وقهرناهم دوماً في بلادهم، يقومون الآن بخرق النظام المعتاد، وقد طلبونا بشكل أحمق على أراضينا، وإنني أخبركم، بصفتي أسقفكم، بأن هذا قد عمل بمثابة تحذير رباني لكم، بأن هؤلاء الذين انتهكوا حرمة معابد الرب، ودنسوا المذابح، وقتلوا كهنته، ولم يوفروا الأطفال ولا النساء الحوامل بالأطفال، يمكن أن يتلقوا على هذه الأرض العقوبة التي يستحقونها على جرائمهم، وعلى هذا كونوا شجعانا أيها المقاتلون البارعون، وقوموا بوساطة الشجاعة العائدة إلى

جنسكم، لابل بمعرفتكم المتقدمة بالرب، وصدوا هؤلاء الأعداء من الغربان، الذين لايعرفون حتى كيف يسلحون أنفسهم في يوم المعركة، ولاتتطلعــوا إلى أية احتمالات مشكوك فيهــا كما يحدث في الحرب، فصدوركم مغطاة بدروعكم الطويلة السابغة، وعلى رؤوسكم خوذكم، وعلى أرجلكم ساترات السوق، وأجسادكم كلهـا محمية بترستكم، وبذلك لن يجد العدو أي مكان يضربكم به، لأنه يراكم وأنتم محاطون بالسلاح من كل جانب، فلماذا أنتم مترددون تجاه غير المسلحين وغير أهل الحرب؟ فالعدو يزحف بغير انتظام، ولا أريد أن أقول أكثر، إن الأعداء يتدفقون نحوكم بصورة فوضوية، وهذا أمر يفرحني، ثم إن كل واحد منكم يسقط وهو يقاتل في سبيل الرب، وفي سبيل بلادكم، نحن نحلله من العقوبات المستحقة على ذنوبه، وذلك باسم الآب، الذي قتل الأعداء مخلوقاته بشكل مخجل ومريع، وباسم الابن الذي دنسوا مذابحه، وباسم الروح القدس، الذي أزالو نعمته باقتراف مثل هذه الكمية من أعمال الشر»، وردّ الجيش الانكليزي على هذا الخطاب بالصراخ عالياً: آمين، آمين، ورددت الجبال والروابي أصداء ذلك.

حول المعركة التي نشبت بين السكوتلنديين والانكليز

ولدى سماع الاسكوتلنديين الصراخ، قـامـوا مثل النسـاء برفع صرخات حربهم «ألبان»، «ألبـان» ثم مالبثوا أن اندفعوا بشكل مخيف، واشتبك الجيشان بالقتال، وقـامت كتلة من الرجال من اللوثيين Loth-ian ، كانوا حصلوا من الملك على شرف تسديد الضربة الأولى،قاموا بالحملة باقدام على الفرسان الانكليز الدارعين، وجاءت حملتهم برمي الحراب، وباستخدام الرماح الطويلة، ولقد سقطوا على الانكليز مثل سقوطهم على سور، لأن الانكليز بقيوا دونما حراك، ثم اختلط الرماة الانكليز مع الفرسان وصبوا نشابهم مثل السحاب على الاسكوتلنديين، وأصـــابوا الذين لم يكونوا محميين بالدروع، وفي ذلك الحين تحلقت

القوات الانكليزيه كلها حـول العلم، ومعها فخـار ومجد النورمانديين، وبقيـوا صامـدين لم تتخلخل صفـوفهم، وسقط قـائد الرجـال اللوثيين قتيلاً لإصابته بنشابة، وشرع رجاله بالفرار، لأن الرب العلي الأعلى كان غـاضباً عليهم، ولذلك تدمـرت قواهم بالمعـركة مثل بيت للعنكبـوت، وهربت الكتلة الأساسية من الاسكوتلنديين، وكـانوا يقاتلون في جانب آخر من أرض المعركة، وجاء ذلك بعد رؤيتهم رفاقهم ينهزمون، فوقتها فقدوا شجاعتهم، وتراجعوا أيضاً، وبدأت عساكر الملك التي كانت من عشائر مختلفة، أولاً بالفرار بشكل فردي، ثم نكصوا على أعقابهم بشكل جماعي، مع أن الملك وقـف في مكانه ثابتـاً، لكـن رفـاقـه أرغمـوه على امتطاء ظهر حصانه والفرار، وفي الوقـت نفسه لم يعبأ ابنه الشجاع بفرار الآخـريـن، بل انصرف نحـو نيل المجـد، فحمل على صفـوف العـدو بتصميم وشجـاعـة واصرار، مع أن رجـاله لم يكـن بمقـدورهم إلحاق الأذى بالفرسـان الذين كانوا محميين بدروعهم، وقـد أرغموا أخيراً على الفرار، لكن من دون، سفك عظيم للدماء، وجرى طردهم بشكل مهين وفروا في كل اتجاه، ولقد روي بأن أحد عشر ألفاً من الاسكوتلنديين قد قتلوا، إلى جـانب الذين أصيبـوا بجـراحـات مميتـة في حقـول القمح والغابات، وانتصر جيشنا بسرور مع قليل جداً من الخسائر بالحياة، ومن بين جميع الفـرسـان، كان أخـو غيلبرت دي لاسي Lacy الوحيد الذي قتل، وجـرى القتال في هذه المعـركة في شهـر آب، من قبل الناس الذين سكنوا في المنطقة وراء الهمبر Humber.

وفي هذه السنة نفسهـا، أرغم في شهـر تشرين الأول كـونت أوف أنجو سكان أورسمي Orismes على الاستسلام، كما أنه ألقى الحصار على بيوكس Bayeux وفالي Falaise.

كيف جرى انتخاب ثيوبولد رئيس أساقفة لكانتربري

وقـدم في هذه السنة نفسهـا ألبيرك Alberic أسقف أوستيـا Ostia،

ومندوب الكنيسة الرومانية، إلى انكلترا، وعقد مجمعاً في لندن في أيام عيد الميلاد، وذلك في كنيسة القديس بولص، وهناك قام بأمر من المندوب البابوي هنري أسقف ونكستر برسم رتشارد دي بيومي Beaumeis شماساً، وفي اليوم نفسه، وفي أثناء القيام بأعمال السيامة جرى انتخاب ثيوبولد رئيس دير بك، من قبل الأساقفة، رئيساً لأساقفة كانتربري، وكان إرميا رئيس رهبان كانتبري بين الحضور، وبعدما جرت سيامته من قبل النائب البابوي ذهب إلى روما حيث تسلم الطيلسان من البابا إنوسنت.

كيف غزا الملك ستيفن سكوتلندا وعاد مع ابن ملك الاسكوتلنديين رهينة

سنة ١١٣٩م، استولى فيها ستيفن بعد يوم الميلاد على قلعة ليد، وذهب بعد ذلك إلى اسكوتلندا وبالسيف والنار، أرغم ملك تلك البلاد على أن يتصالح معه ويقبل بشروطه، ويعطيه ابنه هنري رهينة، ثم عاد ستيفن إلى انكلترا، جالباً الشاب معه، وقام على الفور بإلقاء الحصار على قلعة لودلو Ludlow ، حيث جرى سحب هنري هذا من على ظهر حصانه، ورفعه بوساطة كلاب حديدي من قبل المحاصرين، حتى كادوا يرفعونه إلى القلعة، لكن الملك ستيفن، تصرف من جانبه كفارس شجاع فأنقذه بيديه، وما أن استسلمت القلعة، حتى زحف ستيفن إلى أكسفورد، وقام بشكل قبيح بأن اعتقل في بلاطه: روجر أسقف سالسبري، والاسكندر أسقف لنكولن، وكان حفيده، مع أنهما لم يرفضا تسوية المسائل عن طريق العدالة، وألقي بالاسكندر في السجن، وجرى حمل أسقف سالسبري من قبل الملك إلى ديفيزي Devizes قلعته، التي لم يكن هناك قلعة أجمل منها في أوربا، وأبقي هنا من دون طعام، وجرى تهديد ابنه الذي كان مستشاراً بالمشنقة، وبهذه الوسائط حصل الملك على استسلام القلعة، وحصل بعد ذلك مباشرة على استسلام قلعة

شيربيرنSherburne بالطريقة نفسها، وبعدما وضع أموال الأسقف بين يديه، حصل على يدكونستانس، أخت لويس ملك فرنسا، لتكون زوجة لابنه يوستاس، ثم عاد من هناك، حيث عامل أسقف لنكولن وفق الطريقة نفسها حتى سلم إليه قلعتي: نيوآرك Newark، ولاتفورد Latford.

كيف قدمت ماتيلدا الامبراطورة السالفة إلى انكلترا

وفي تلك الآونة قدمت إلى انكلترا ماتيلدا، ابنة الملك هنري، والتي كانت من قبل امبراطورة، والتي إليها جرى ضمان المملكة عن طريق الأيمان، وقدم معها أخوها روبرت، وقد رست في آرونديل Arundel، حيث استقبلت بالسرور والترحاب والهتافات من قبل وليم دي أوبني Aubeny زوج الملكة أليس، التي كان في بائنتها من الملك هنري قلعة وايرليه آرونديل، وزحف روبرت ايرل غلوستر مع عشرة فرسان، وعشرة رماة فرسان، في وسط ممتلكات الملك ستيفن إلى وولنغفود Wallingford ومن هناك إلى غلوستر، حيث أعلن لبرين فتز -ايرل Brian Fitz-Earl ، وإلى ميلو أوف غلوستر بأن الامبراطوة قد نزلت إلى اليابسة، وهي الآن موجودة في آرونديل مع زوجته، ومسؤولين آخرين، وفرح الفارسان فرحاً شديداً لدى سماع هذه الأخبار، واستعدا للقتال بشكل فعال إلى جانبها.

ومات في السنة نفسها روجر أسقف سالسبري، جزئيا بسبب التقدم بالسن، وجزئيا بسبب الأسى، وبعد وفاته نفى الملك نيغل Nigel أسقف إيلاي، لأنه كان حفيد روجر أسقف سالسبري، الذي نتيجة لاجحافه به اقتيد إلى دماره، فمنذ ذلك الحين لم تعد تعقد هناك بلاطات، أو احتفالات مهيبة في انكلترا، كما أنه لم يعد هناك شيء اسمه سلام، فقد كان في كل مكان قتل، وحرائق، واضطراب، ونحيب، ورعب، في كل موضع، وأيضا مات ثورستان رئيس أساقفة يورك، وقد

خلفه وليم، خازن الكنيسة نفسها.

كيف حاصر ستيفن قلعة لنكولن

سنة ١١٤٠، فيها ألقى الملك ستيفن قبل عيد الميلاد، الحصار على لنكولن، وهي القلعة التي كان رالف ايرل شستر قد تسلمها لتوه، وقد دافع عن المدينة ضد الملك حتى عيد طهارة العذراء المباركة، ثم إن الايرل المتقدم الذكر مع روبرت ايرل غلوستر، ابن الملك هنري وختنه قدموا إلى لنكولن مع جيش كبير لرفع، الحصار، وبجرأه عبروا مستنقعاً كان تقريبا متعذر العبور، وقاموا بصف قواتهم واشتبكوا مع الملك في القتال، وكان الإيرل رجلاً صاحب قوة خارقة، وهو الذي تولى قيادة الصف الأول، وكان على رأس الصف الثاني الذين كان ستيفن قد نفاهم، وقاد الصف الثالث روبرت ايرل غلوستر، واستمع في الوقت نفسه الملك ستيفن إلى قداس مع كثير من الخشوع، وعندما وضع أثناء القداس بين يدي الاسقف الاسكندر حامل شمعة ملكي، كما هي العادة ليكون تقدمة للرب، انكسر فجأة وانطفأت الشمعة، مماسبب الحزن للملك، ووقع القربان أيضاً على المذبح مع جسد المسيح ، بسبب انقطاع خيط، وكان ذلك نذير شؤم عن دمار الملك.

وقام ستيفن، وهو واقف على قدميه بتعبئة قواته بعناية كبيرة، وصف من حوله ببراعة جميع رجاله بدروعهم من دون خيولهم، لكنه صف ايرلاته مع خيولهم للقتال على شكل رتلين، وكان جيش الايرلات المتمردين صغيراً جداً، بينما كان جيش الملك كبيراً جداً، ومتحد تحت علم واحد، وفي بداية القتال حمل المنفيون الذين كانوا في الساقة على جيش الملك بشدة متناهية، وكان في المكان الذي تعرض للحملة: ايرل ألان، وروبرت ايرل دي ملّنت Mellent ، وهيوج بيغود، وإيرل سيمون، ايرل شرقي أنجليا Anglia، وإيرل وورني Warenne، وقد تعرض بعض هؤلاء للقتل، وبعضهم للأسر، وهرب الباقون، وحملت

الفرقـة التي كانت بقيـادة ايرل أوف ألبهارل Albemarle، ووليم أوف يبري Ypres، على الويلزيين، الذين تقدمـوا من على المجنبة، وهزمتهم، لكن ايرل شستر هاجم هذه الفـرقـة، وهزمها مثلما هزم البقيـة، وبذلك هرب جميع فرسان الملك، وحـدث أن وليم أوف يبري الذي كان رجلاً يحمل مرتبـة إيرل، مع آخرين لم يستطيعوا الفـرار فأخذوا أسرى وألقي بهم في السجن، ووقعت هنا وقـائع مـدهشـة، فقـد بقي الملك ستيفن كالأسد المزمجر وحـده في الميدان، ومامن واحد تجرأ على منـازلته، وكان يصك أسنانه ويخرج الزبد من فمـه وكأنه خنزير جبلي، وقد صـد ببلطة حربه العسـاكر التي حملت عليه، ونال شرفاً مـؤبداً، بالتدمير الذي أنزله بمقـدمي أعـدائـه، ولوكان هناك مـائـة مثله، لما كـان من الممكن أخـذه أسيراً، ذلك أنه عندما كان وحيداً وجد نفسه في ضيق في مواجهة حشد أعدائـه، ولذلك أخذ أسيراً في يوم عيد طهـارة العذراء المباركـة، واقتيد إلى أمام الامبراطورة التي سجنته في قلعة برستول.

كيف جرى الاعتراف بالامبراطورة ماتيلدا من قبل كثير من الناس سيدة لهم

ونتيجة لهذا النجـاح جرى الاعتراف بسيـادة الامبراطورة ماتيلدا من قبل جميع شعب انكلترا تقـريبـاً، باستثناء رجـال كنت، حيث استمـرت ملكة الملك ستيفن ووليم أوف يبري يقـاتلـون ضـدها بجميع قـواهم، وبعد ذلك من قبل وليم أسقف ونكستر وسكان لندن، وقد حدث بعد ذلك إمـا عن طريق اقتراح قـوم مخادعين، أو بحكمـة من الرب، أن الامبراطورة طـردت من قبل اللندنيين، فـأعطت أوامـر بوضـع الملك ستيفن في أغلال الحديد، ثم إنها قامت بعد بضعة أيام أقامتهم مع خالها ملك الاسكوتلنديين وأخيهـا الايرل روبرت وعساكـر أخرى، بحصـار برج أسقـف ونكستر، لكن أرسـل هذا الأسقـف إلى الملكة، وإلى وليـم أوف يبري مع النبـلاء الآخـريـن الذين آثروا الملك ستيفـن، وجمعهم

لمساعدته، وقام بهجوم حاد على جيش الامبراطورة، وهزم القوات التي كانت تحاصر برجه، وكان بين من أسرهم أثناء المطاردة الايرل روبرت أخو الامبراطورة، الذي كان مسؤولاً عن سجن الملك ستيفن، وبأسره فقط توفرت فرصة لإطلاق سراح الملك، وأسر الايرل في يوم عيد تمجيد الصليب المقدس، وعلى الفور جرت مبادلة الملك به، وبذلك استرد كلاهما حريتهما، وفي تلك الآونة عمل وولران Waleran كونت دي مولانت Meulant، الذي كان على رأس النبلاء النورمان، معاهدة مع غيوفري كونت أوف أنجو، متخلياً له عن قلعتي: مونتفورت، وفالي Falaise، وهكذا استسلم جميع النبلاء إليه من السين حتى حدود رايل Risle، وقدموا الولاء له، ومات في السنة نفسها غيلبرت أسقف لندن، والذي كان لقبه العالمي، وقد خلفه روبرت دي سيغللو Sigillo.

كيف اقتاد الايرل روبرت بعض الرهائن إلى نورماندي

سنة ١١٤١م، فيها عبر روبرت ايرل غلوستر إلى نورماندي، آخذا معه بعض الرهائن من النبلاء الانكليز، الذين آثروا كونت أوف آنجو، حتى يمكنه الاحتفاظ بهم، وعبر أيضاً حتى يتمكن من اخضاع المملكة، وهذا مارفض الكونت فعله لبعض الوقت، وذلك بسبب عصيان أهل أنجو مع رعاياه الآخرين الذين ضايقوه، ومع ذلك وضع بين يدي الايرل هنري أكبر أولاده، ليأخذه معه لدى عودته إلى انكلترا، وعندما كان الايرل روبرت مايزال في نورماندي، استولى على قلاع أوني Au-nay، ومورتين Mortaigne، وتوشبري Teuchebrai، وسيرنس Cerences، وكانوا جميعاً ملكاً لكونت دي مورتين، واستسلم له طواعيه سكان: أفرانش Avranches، وقنسطنطين Constantine، وفي السنة نفسها عندما كان الملك ستيفن يقوم بتحصين قلعة في ونكستر، هاجمه جيش كبير عائد للحزب المضاد، وأرغمه على الفرار،(كذا: وهذا وقع عند ولتون سنة ١١٤٣)، وأخذ في هذه المعركة وليم

مـــارتل أسيراً، وكــان قهــرمـــان الملك ستيفـن، ووضع في السجن في وولنغفـورد Wallingford ، تحت حـراسـة بـرين فتــــز— ايرل، ولم يطلق سراحـه ثانية حتى أعطى إلى الامبراطورة قلعــة شيربورن -Sher bourne، كثمن لاطلاق سراحه.

كيف حوصرت الامبراطورة ماتيلدا وكيف نجت بخداعها الملك ستيفن

وفي تلك الأثناء سمع الملك ستيفـن بأن الامبراطورة كـانت في قلعـة أكسفورد مع حاشية صغيرة، فحشـد جيشاً كبيراً، وزحف إلى هناك بعد عيد القـديس ميكائيل، وحاصر تلك القلعـة حتى عيد الميـلاد، وعندما رأت الامبراطورة أن مامن أحد من أصدقائها قدم لمساعدتها على الرغم من مضي وقت طويل، لعبت خـدعـة نسائيـة مع الملك ستيفن، ونجت أثناء الليل عبر نهر التايمز الذي كـان متجلداً، حيث لبست ثياباً بيضاء، وكـان معها عـدد قليل من الأعـوان، وهكذا نجت لأنه لم يكن بامكان الأعـداء رؤيتها، لأن لون الثلج يزيغ العيـون، وهناك تشـابه باللون بينه وبين ملابسها، وبناء عليه هربت إلى قلعـة وولنغفورد، وعهدت بنفسها إلى برين فتز— ايرل، وعلى هذا الأســاس استسلمت قلعة أكسفورد إلى الملك.

المجمع الذي عقد بلندن

١١٤٢م، فيهـا عقـد وليم أسقف ونكستر، ونائب الكرسي الرسـولي البابوي، مجمعـاً في منتصف أيام الصوم الكبير، في لنـدن، بحضور الملك مع الأسـاقفـة الآخـرين، لأن مـامـن احترام أبدي في تلك الأثناء نحـو كنيسة الرب والعـاملين المكرسين فيها، من قبل التعســاء المتهتكين الذين نهبوا البلاد، بل اعتقل كل انسان سجناء أو أطلق سراحهم مقابل فدية، كما يريد، دونما تفـريق بين رجال دين أو علمانيين، ولذلك تقـرر أن أي

واحد يخرق حرمة كنيسة أو رجل كنيسة، أو يعتقل بعنف رجل دين أو أي من الكهنة الآخرين، سوف لن يكون قادراً على تلقي التحليل إلاّ من البابا نفسه، كما رسم أن فلاحة الحقول، والفلاحين الذين يعملون فيها، سوف يكونون مقدسين، كما لو أنهم كانوا يعملون في ساحة الكنيسة، كما أنهم حرموا مع شموع مشتعلة كل الذين سيعارضون هذا المرسوم، وهكذا أمكن ضبط شرور هؤلاء الأوغاد قليلاً.

وفي تلك الآونة نفسها، اعتقل الملك ستيفن وليم دي ماندفيل Mandeville في سينت ألبان، وأرغمه على تسليم برج لندن مع قلعتي وولدن Walden، وبلسي Plessis، وذلك قبل أن يعيد إليه حريته، وبذلك جرده من ميراثه الأبوي، ثم هاجم دير رامسي Ramsey، وطرد الرهبان، وملأ المكان بأوغاده، وقد كان رجلاً شجاعاً، غير أنه كان عنيداً في اقتراف الذنوب ضد الرب.

موت فولك ملك القدس

وفي حوالي تلك الآونة نفسها، كان الملك فولك، ملك القدس يعبر سهول عكا، فصدف أن انبعث أرنب بري من مكمنه، فأخذ الجميع يطاردون الحيوان بصوت مرتفع، وتناول الملك رمحه وشارك بالمطاردة، وحث حصانه بدون انتباه، وألح عليه إلى أبعد الدرجات، فكان أن كبا الحصان وألقى بالملك فتهشم رأسه إلى قطع، وخرج دماغه من أذنيه، وبادر الجميع مسرعين إلى مساعدته، لكنه كان قد مات، وقد حدث هذا في الثالث عشر من تشرين الثاني، وجرى حمل جسده إلى القدس، حيث دفن هناك في كنيسة ضريح ربنا وسط دموع الحشود التي أحاطت به، وكان الذي تولى ادارة طقوس الدفن الرسمية البطريرك وليم، وما ان انتشر خبر موت الملك في الخارج بين المسلمين، حتى قام زنكي، وهو أمير تركي قوي، على رأس جيش كبير، فألقى الحصار على الرها، وبعد بذل جهود كبيرة جعل المدينة تخضع له، وقد قتل جميع المسيحيين الذين

وجـدهم هناك، دونما رحمة، ودونما تمييـــز بين الجنس أو العمـر، وهكذا فإن هذه المدينة القـديمـة جـداً، التـي تشرفت باعتناق الإيمان المسيحي، والتي تحولت إلى المسيحية بفضل العمل التبشيري لثاديوس الرسول، قد صـــارت الآن— ويالِلعـــار أن تقــول ذلك— تحت سلطة المسلمين ، ويقـال بأنه في هذه المدينة مدفـون أجساد : القـديس توماس الرسـول، والقديس ثاديوس المتقدم ذكره، والملك أبجر المبارك، وأبجر هذا الأمير المشهـور، هو الذي— وفقـاً للتـاريـخ اللاهوتي ليـوسيبيـوس — بعث رسـالة إلى ربنـا، وقـد تشرف بتلقي جـواب رسـالتـه، وأعطانا المؤرخ يوسيبيـوس نص كل من الـرسـالتين، وأضـاف الملاحظة التـاليـة:« لقـد وجدنا هذه الحقائق ضمن وثائق مدينة الرها، وذلك حيث حكم أبجر، منسـوختـان في ورق، كان يحتـوي فيما مضى أعمال ذلك الملك نفسـه»، وقد قـرأنا عن هذه المدينة بأنها غـالباً مـاجرى الاستيلاء عليهـا من قبل المسيحيين، ثم استردها المسلمون ثانية.

موت بابوين رومانيين

ومات في السنة نفسهـا البابا انوسنت، وقد خلفـه البابا سيليستينوس Celestinus ، الذي مـات أيضاً بعـد جلوسه بخمسـة أشهر، وقــد خلفه لوسيوس Lucius الذي ترأس الكرسي البابوي الروماني لمدة أحد عشر شهـراً وثلاثة عشر يوماً، ومـات في السنة نفسها وليم أسقف ونكستر، وقد خلفه هنري، وإلى هنري هـذا أرسل لوسيوس الطيلسان، راغباً في إقامـة رئاسة أساقفة في ونكستر، وأن يضع تحت رئـاسته سبعة أساقفـة، وفي هذه السنة أيضاً، أنهى المعلم وليم، راهـب أوف مالمزبري Malmesbury تاريخه عن انكلترا.

كيف عبثاً حاصر الملك ستيفن لنكولن

سنة ١١٤٣م، مـات البابا لوسيـوس، وقـد خلفه يوجينيـوس، الذي

بقي في منصبه ثمانية أعوام وأربعة أشهر، وواحداً وعشرين يوماً، وفي السنة نفسها حاصر الملك ستيفن لنكولن، وشرع في بناء برج آخر مقابل القلعة، التي كانت بيد رالف ايرل شستر، ولكن حوالي الثمانين من رجاله قد قتلوا من قبل الايرل، وتمّ التخلي عن العمل، وفي السنة نفسها قُتل روبرت مارميوم، الذي كان فارساً من أهل الحرب، والذي كان قد طرد رهبان كوفنتري من ديرهم، وحوّل الكنيسة إلى قلعة، وجاء قتله في أحد الأيام أمام الدير، وهو يقاتل ضد أعدائه، مع أنه كان في وسط عصابته من اللصوص، ومامن أحد جرح إلاّ هو نفسه، وبما أنه مات وهو محروم كنسيا، لقد نال موتاً هو من نصيبه الى الأبد، وفي الوقت نفسه أصيب غيوفري إيرل أوف ماندفيل، الذي اقترف عمل الشر نفسه في دير رامسي، بسهم أطلقه عليه عسكري عادي من المشاة، ووقعت هذه الحادثة أمام الكنيسة نفسها، ومثله مثل الايرل، كان يقاتل في وسط عساكره، ونزفت الكنيسة أثناء استخدامه لها كقلعة، كثيراً من الدماء من جدرانها، كدليل على عدم رضا الرب، وحدث لأرنولف ابن الايرل نفسه، الذي استحوذ على الكنيسة كقلعة، بعد وفاة والده، أن وقع أسيراً للملك، الذي نفاه من المملكة، ووقع قائد عساكره من على ظهر حصانه، ومات فوق البقعة، وحكم على رينير أيضاً بالنفي، وهو الذي كان قائد المشاة، وكان من عادته إحراق الديرة وتهديمها، وعندما كان يعبر البحر، فجأة وقفت السفينة من دون حركة في المياه، وعندما ضرب البحارة القرعة، وقعت القرعة ثلاث مرات على رينير، وبناء عليه وضعوه في قارب صغير مع زوجته ومع أولاده وكل ماكان يمتلكه، وغرق القارب على الفور، وهلكت جميع الأسرة التعيسة، في حين أبحرت السفينة فوق بحر هادىء، من دون صعوبة أو عوائق.

وفي السنة نفسها جرى استقبال غيوفري دوق أنجو بشكل رسمي

لائق من قبل سكان روان، وحمل منذ ذلك الحين لقب دوق نورماندي.

استيلاء الملك ستيفن على قلعة فارنغدون

سنة ١١٤٤م، فيها طرد الملك ستيفن ايرل غلوستر مع عدد آخر من أعدائه، من أبنية قلعة فارنغدون Faringdon ، واستولى على تلك البلدة، وأبقاها محفوظة من قبله.

كيف أسر الملك ستيفن ايرل أوف شستر

سنة ١١٤٥م، فيها اعتقل الملك ستيفن رالف ايرل شستر، أثناء قدومه إليه بطريقة سلمية إلى نورثأمبتون Northampton، وأبقاه في السجن، حتى أعاد إليه قلعة لنكولن، مع الحصون الأخرى، التي احتفظ بها بين يديه، وهكذا حمل الملك تاجه بشكل رسمي إلى لنكولن.

كيف عبر هنري الملك المستقبلي إلى نورماندي

سنة ١١٤٦م، فيها عبر هنري ابن دوق أنجو والامبراطورة ماتيلدا إلى بك Bec في نورماندي، حيث احتفي به كثيراً من قبل الدير، وصار في السنة نفسها وليم دي سينت بربارة، عميد يورك، أسقفاً لدرم، ومات في هذه السنة أيضاً غيوفري، صاحب الذكرى الجليلة، ورئيس دير القديس ألبان، الذي كان رائد الشهداء الانكليز، وقد جاء موته بعدما حكم ذلك الدير بطريقة مرضية جداً لمدة ستة وعشرين عاماً، وحرمت هذه الكنيسة من راعي لها من ٢٥— شباط إلى أيام الابتهال قبل عيد الصعود التالي، عندما انتخب الرهبان رالف غوبي Gubby، وكان راهباً من كنيستهم، كما كان جيد التعليم، ورجلاً جيداً، وعندما جرى الانتخاب، جاء الملك ستيفن إلى سينت ألبان في يوم الصعود، وعن طواعية قدم موافقته في أن يكون يصبح رالف المتقدم ذكره، راعياً ومات في السنة نفسها أسيلين Ascelin ، أسقف روكستر، وكذلك روجر أوف شستر، وروبرت أوف هيرفور، وقد خلف أسيلين وولتر

رئيس شهامسة كانتربري، وخلف روجر، وولتر رئيس رهبان دوفر، وخلف روبرت، غيلبرت رئيس دير رهبان غلوستر، وفي السنة نفسها خلف هنري— الذي كان راهبا من رهبان دير السسترشيان— ثورستان في رئاسة أساقفة يورك، وظهر في تلك الآونة مذنب حيث بقي عدة أيام في الغرب، مضيئا السماء بأشعته إلى مسافة عظيمة من حوله.

حول الخلاف الذي ثار بين البابا يوجينيوس والملك الفرنسي

وقدم في السنة نفسها البابا يوجينيوس إلى باريس، حيث تولى تكريس واحداً اسمه بطرس، كان حفيداً لإيميرك Aimeric مستشار الحضرة البابوية، كرسه ليكون رئيس أساقفة لبورغ Bourges، على الرغم من معارضة لويس ملك فرنسا، وغضب الملك كثيراً لدى هذا الاعتداء على كرامته، وأقسم على الآثار المقدسة، بحضور كثير من الشهود، بأن رئيس الأساقفة المذكور سوف لن يدخل مدينة بورغ، مادام هو شخصياً في الحياة، ولهذا السبب عاش هذا الملك لمدة ثلاثة أعوام تحت الحرمان الكنسي، ولذلك كان أينما ذهب إلى أية مدينة، أو بلدة، و قلعة، تعلق القداسات الدينية هناك، وأخيرا أمكن باقناع له من برنارد راعي دير كليرفو، أن غيّر الملك موقفه، واستقبل رئيس الأساقفة، واعتذر عن ذنبه، ووعد بأنه سوف يذهب إلى الحج إلى القدس، ولهذا السبب والغرض جرى تحصيل جبايات عامة جرى فرضها في جميع أنحاء غاليا، ولم يُعف أحد لجنسه أو لمرتبته، أو لمكانته من الدفع أو قبل عذره عن تقديم العون إلى الملك، ولهذا السبب لحق حجه اللعنات من قبل رعيته، كما سوف تظهر الرواية المقبلة.

كيف عقد البابا يوجينيوس مجمعاً في ريمس من أجل انقاذ الأرض المقدسة

وفي هذه السنة نفسهـا، في أيام الابتهال الكبير، جرى استقبال البـابا يوجينيوس بمسيرة مهيبة في جنيف، وضرب خدم الكنيسة بالعصي كهنة ورجال مـولانا البابا، وأراقوا دمـاءهم داخل جدران الكنيسـة، وعقوبة على هذا التجـاوز من قبل الخدم، جـرى هـدم البناء، وطرد الرهبـان النظاميين من أمـاكنهم، وغـادر البـابـا من هناك إلى ريمس حيث عقـد هناك مجمعـاً، فيـه أدان هرطقـة يدو Eudo، النبي المزيف، الذي فيما يتعلق بتعـويذاته وخيـالاتـه، من الأفضل أن لانقـول شيئاً، وعين في المجمع أيضـاً أشخـاصـاً للتبشير حـول ارسـال المسـاعـدة إلى الأرض المقدسـة، التي كانت تحت ضغط شـديد من قبل المسلمين، الذين تجولوا فيها من دون معارضة، وذهبـوا إلى حيث ماأرادوا، وبناء عليه، وبسبب تبشير برنارد رئيس دير كليرفـو، حمل كـونراد امبراطور الرومـان شـارة الصليب، ومعه حشد كبير من أشخاص آخرين.

وفي شهر أيار المقبل، انطلق الامبراطور على رأس سبعين ألف فارس مسلح، ولحقـه أيضـاً لويس ملك فـرنسا، مـع عدد مسـاوٍ من الرجـال المسلحين، وكـان عازمـاً على الزحف على طريق منفصل، حتى يمكنهم بصـورة أفضل الحصـول على المؤن لأنفسهم ولخيـولهم، وبعـدمـا عبروا بافـاريا، والدانوب، والنمسا، وهنغـاريا، ومقـاطعتي بانونيا، وبلغـاريا، ومـاشيـا Maesia، وداشيـا، وصلوا أخيراً إلى تراقيـــا، ومن هناك تابعـوا سيرهم إلى القسطنطينيـة، حيث هناك اجتمع الامبراطور والملك مع الامبراطور مـانويل، ثم إنهم عبروا البـوسفور الذي يشكل حـدود أوربا، ودخلوا إلى بيثينيا التي هي أول مقاطعـات آسيا، ونصبوا خيامهم في منطقة خلقيدونية.

وعندمـا عبر الامبراطور كـونراد البـوسفـور، كـانت غـلاطيـة، وبافـلاغـونيـا ومقاطعتـي بنطش على يسـاره، وفريجيـا، وليـديا، وآسيـا الصغري، على يمينـه، ثم زحف خلال بيثينيـا وبتركه نيقيـة على يساره،

وصل إلى ليكونيا.

حول الخيانة المقيتة لامبراطور القسطنطينية

ولدى سماع سلطان قونية بوصول مثل ذلك العدد الكبير من الأمراء، عمل طويلاً من أجل جمع نجدات من جميع بلاد المشرق، وركز تفكيره كله على انقاذ نفسه من الخطر الداهم، فحشد عساكره واتخذ موقفه على حدود ليكونيا، حتى يمكّن نفسه، إذا واتاه الحظ ووافقه المكان من ايقاف زحف العدو، وزود امبراطور القسطنطينية امبراطور الرومان بأدلاء، بسبب مصاعب المنطقة، التي سوف يزحف مع قواته خلالها، لكن هؤلاء الرجال— كما قيل— مارسوا الخداع المعهود للاغريق، وقادوا الجيش خلال القفار، حيث امتلك العدو فرصة جيدة للقتال، مع مزية أن الجيش المتقدم جاهل بالمنطقة، ولدى رؤية السلطان الصليبيين وقد انشغلوا في ممرات تلك القفار، انقض عليهم، وهم غير حذرين، وجاء هجومه مع عساكره الممتطين لخيول نشيطة، ومعلوفة بشكل جيد، في حين كان جند الرومان ضعفاء بسبب ثقل أسلحتهم ودروعهم، وكانوا يمتطون خيولاً نصف جائعة، ولذلك كانوا غير قادرين على مقاومة العدو، وأعقب ذلك مقتله رهيبة، وبقدر من الرب الخفي، ولكن العادل، بالكاد بقي من السبعين ألف فارس مسلح، مع مثل هذا العدد من الرجالة، عشرهم، فهؤلاء هم الذين نجوا، وهلك البقية بالسيف وبالجوع، أو أنهم أسروا، وحملوا إلى المعتقلات من قبل العدو.

كيف خدع الامبراطور نفسه الملك الفرنسي وجيشه

سنة ١١٤٧م، فيها وصل الامبراطور كونراد في بداية الربيع، بالسفن إلى عكا، وتابع من هناك سيره إلى القدس، حيث جرى استقباله من قبل الملك بلدوين ومن قبل رجال الدين والشعب بالترانيم وأغاني الحمد،

وجرت مرافقته إلى داخل المدينة المقدسة، ووصل في ذلك الوقت لويس ملك فرنسا، إلى مخاضات نهر ميناند، وجاء ذلك إثر لحاقه بالامبراطور، وبعد رحلة متعبة، وكان على رأس سبعين ألف رجل مسلح، وذلك إلى جانب الاسطول الذي لحق به، وعند النهر، ولدى محاولة الفرنسيين العبور، وجدوا الضفة المقابلة محتلة من قبل جيش المسلمين، الذين قاوموا عبورهم، ولكن أخيراً عندما وجدوا المخاضات، هزموا الأعداء، وقتلوا كثيراً منهم وأرغموا البقية على الفرار، وجمعوا بعد هذا الأسلاب، وفرحوا بالنصر الذي نالوه، وعبروا من هناك إلى لوديسيا، فوصلوا إلى جبل مرتفع، كان من الصعب صعوده، هذا وكان من عادة الفرنسيين، اختيار بعض أشجع عساكرهم، للسير في الأمام، وأن يتبعهم البقية من الخلف، من أجل حراسة أثقال سواد الناس الذين كانوا من غير العسكريين، وللإعداد مع الأمراء حول طريقة الزحف وحول كمية مؤنهم.

وكان في ذلك اليوم النبيل غيوفري دي رانكون Rancon هو الذي يقود المقدمة وعندما وصل إلى قمة الجبل، انقض الأتراك على حين غرة على الجناح الفرنسي، ذلك أنهم كانوا يتبعونه من أجل مفاجئته وقد حطموا الصفوف الفرنسية، وحدث في ذلك اليوم حادث مأساوي، سقط فيه فخار فرنسا وشجعانها، الذين كانوا غارقين في عمى آثامهم، حيث لم يجلبوا معهم تقدياتهم السرية للرب، لكن الملك ماكان ليتحول عن مقصده بسبب هذه المأساة، وانطلق على رأس القوات مع الملكة إليانور، وقد وصل أخيراً إلى القدس، حيث جرى استقباله بترحاب من قبل الملك الشعب، وتعاطفوا معه تجاه المأساة التي حلت به.

كيف حوصرت دمشق من قبل الأميرين المتقدمي الذكر وخيانة الأمراء الشرقيين

وعندما انتهت الصلوات المعهودة، دعا الامبراطور الروماني إلى

اجتماع مع ملكي القـدس، وفـرنسـا، للتبـاحث حـول كيف سيعملون لضمان ثمار هذا الحج العظيم، من أجل منفعـة الأرض المقدسـة، وتقرر أخيراً بالاجماع القيـــام بحصـــار دمشـق، التي أنـزلت أضراراً كبيرة بالصليبيين، وبعـد القيـام بالاستعـدادات، زحفـوا نحـوها حتى اقتربوا منهـا، ثم إنهم زحفوا متقـدمين نحـو النهر القـريب من أسـوار المدينة، حتى يتمكنوا من الحصـول على الموارد المائية، وقـد وجدوا على ضفـافه حشـداً كبيراً من العسـاكـر، قـد اصطفت عنـد الضفـة، وبذلك لم يكن بإمكان لاملك القـدس ولاملك فـرنسـا الاقتراب من النهـر، وعندمـا وصلت أخبـار ذلك إلى الامبراطور كـونراد، زحف وهو غـاضـب، من خلال العساكر الفرنسيين، ووصل إلى ميدان العمل، وضرب واحداً من الأتراك المتقدمين، وكـان قد اعترض سبيله، ضربه بسيفـه ضربة شديدة فصلت رأسـه عن الخوذة مع رقبتـه ودرعـه وسـابغتـه، وذراعـه الأيسر وجزء من طرفه الأيسر عن بقية جسده، وبذلك أرعب الأعداء، إلى حد أنهم تركـوا النهـر وهربوا، وبـذلك نال الصليبيـون السيطرة على ضفـة النهر، وبما أنه صار بإمكانهم الوصـول إلى المدينة من دون عوائق، ألقوا الحصار عليها من جميع الجوانب، وبعدما استمر الحصار لبعض الوقت، خـاف السكان مـن شجـاعـة الصليبيين وأعـدادهم، فجمعـوا أثقـالهم وقرروا تأمين نجاتهم بالفرار أثناء الليل.

لكنهم سعوا أولاً، وقد وجـدوا أنفسهـم غير قادرين على التغلب على رجالنا بقوة السلاح، أن يفسدوا عقولهم بالرشاوى، ودفعوا مبالغ كبيرة من المال إلى بعض أمرائنا من المشارقة، الذين تعهدوا بشكل خياني برفع الحصـار، ولتحقيق هذا الغـرض، تحدثوا إلى الامبراطور وإلى الملك عن مصـاعب الحصـار، ونتيجـة لهذه الريبـة، وللتخلي المخـادع للأناس الشرقيين، قـام جميـع جنود الغـرب، وعلى رأسهـم الامبراطور والملك الفـرنسي بالعودة إلى بلـدانهم عبر الطريق نفسه الذي قـدمـوا منه، ومنذ

ذلك الوقت شعـــروا بالعـداوة العظمى، ليس فقط نحـو الـذين كـانوا مسؤولين عـن الخيانة، بل أيضـاً نحو جميع أمراء الشرق، وأيضـاً جعلوا آخرين فاتري العزيمة نحو مسألة الحج.

وفي السنة نفسهـا جـرى تنصيـب روبرت دي كيسني Chaisney رئيس شمامسة ليكستر، أسقفاً للنكولن بعد الاسكندر، والذي نصبه هو ثيـوبولد رئيس أسـاقفـة كـانتربري، وكـرس أسقفاً بعـد صـوم الشهـر السابع.

كيف جرى قتل ريموند أمير أنطاكية من قبل الأتراك

سنة ١١٤٨م، فيهـــا دخـل نور الدين بـن زنكي، بعـــد مغـــادرة الامبراطور وملك فـرنسا، إلى أراضي أنطاكيـة، وكـان نور الدين أعظم أمـراء الترك قـــوة، وقـد ألقى الحصـار على قلعـة إنـب، وضـده زحف ريمـــوند أمير أنطاكيـة، على رأس جيشـــه، ولكن لأنه لم يجمع جيشـــه بالعناية الكافية، ولابالعدد الكافي، جرى قتل ريموند مع عدد من نبلائه في المعـركة، وتابع نور الدين زحفـه من دون عـائق لإلقاء الحصـار على قلعة حارم، وشعث المنطقة المجـاورة كلها، حتى قدوم ملك القدس مع جيش قوي حيث أرغمه على التراجع.

وفي السنة نفسهـــا، قـــام داوود ملك الاسكوتلنديين، في أيام أحـــد العنصرة بتنصيب هنري فارساً، وهو الـذي كان آنذاك دوق نورماندي، وكان الابن الأكبر لغيوفري بلانتغنت، من خلال ابنة أخته الامبراطورة السالفة ماتيلدا.

كيف أعطى الدوق غيوفري نورماندي إلى ابنه هنري

سنة ١١٤٩م، فيها قام غيوفـري دوق نورماندي، بإعطاء الدوقية إلى ابنه هنري، التي كانت ميراثه من جهـة أمه، وذلك على الرغم من حظر الملك الفرنسي، وبذلك توفر سبب لنشوب خلاف بين الملك والكونت.

كيف تلقى الملك لويس الولاء من الدوق هنري

سنة ١١٥٠م، فيها قدم الملك لويس مع يوستاس ابن الملك ستيفن على رأس جيش كبير، إلى أمام برج أسكي، وكان ذلك نتيجة للخلاف الذي تقدم ذكره، وكان الدوق هنري دوق نورماندي أيضاً موجوداً، وكذلك والده غيو فري كونت أوف أنجو، مع قوة لابأس بها من أنجو، وبريتاني، ونورماندي، ورأى القادة من على الجانبين أنه إذا ماوقعت الحرب بين الطرفين، لن ينقضي ذلك من دون إراقة للدم، فبدأوا يفكرون بمحاولة الوصول إلى وفاق، وبناء على ذلك، وبفضل وساطة الأصدقاء، تلقى الملك الفرنسي الولاء من هنري دوق نورماندي، وعلى ذلك افترق الطرفان على سلام، وبناء عليه، أخذ الدوق هنري مع نبلائه بالإعداد للعودة إلى انكلترا، لكن حدث أن والده غيوفري الذي كان مريضاً مرضاً خطيراً، قد توفي في قلعة سيري Seriفي اليوم الثالث عشر من شهر ايلول، وبوفاته صار ابنه هنري الكونت لأنجو والدوق لنورماندي.

وفي السنة نفسها، وقع رالف راعي دير سينت ألبان مريضاً، فقام بناء على نصيحة الدير كله بتعيين روبرت دي غورهام Goreham، الذي كان رئيساً للكنيسة نفسها، وكلفوه في أن يكون نائبه، وأن يحكم الدير عوضاً عنه.

حول المراطقة الذين اسمهم الحشيشية

وجرى في السنة نفسها قتل ريموند كونت طرابلس، من قبل الحشيشية، وكان رجلاً قوياً وشجاعاً، وبكى موته بلدوين ملك القدس مع جميع الناس، لأنه كان مصدر خطر عظيم على المسلمين، وعلى أمراء المسلمين، وكانت هناك فئة من الناس، سكنت في الجبال، في منطقة صور في فينيقيا حول أسقفية طرطوس، وكان بأيدي هؤلاء عشر قلاع،

مع مناطق واسعة ملكاً لهم، وقد بلغ تعدادهم إلى ستين ألف رجل، أو أكثر، ولايأخذ هؤلاء القوم بمبدأ وراثة السلطة، بل يعتمدون الفضائل الشخصية، وينتخبون واحداً مقدماً لهم وسيداً وحاكماً، يطلقون عليه لقباً واحداً، هو لقب« شيخ الجبل»، وقد تعهدوا بطاعته دوما وبلا تردد في كل شيء، مهما كان الأمر صعباً وخطيراً، وكان هؤلاء، إلى جانب المناسبات الأخرى، إذا مااتخذوا أي أمير هدفاً لكراهيتهم، أو موضع ريبتهم، يتسلم واحد منهم أو أكثر مدية من مقدمهم، وينطلقون دون إعطاء أدنى اهتمام لنتائج عملهم أو العقوبات الناجمة عنه، فيتوجهون إلى مكان إقامة ضحيتهم، فيجعلونه هدفهم الوحيد وموضع اهتمامهم حتى يقضى لهم باغتياله، ويعرف هؤلاء القوم باسم الحشيشية من قبل المسلمين والصليبيين سواء، لكن أصل هذا الاسم غير معروف، وقد مضى عليهم أربعمائة سنة وهو يرعون شرائع وتقاليد المسلمين، ومامن أحد يمكن مقارنته بهم بالطهارة والغيرة، وكان رئيسهم في هذه الأيام الأخيرة رجلاً غاية الفصاحة، والبراعة، والاخلاص، وهو بالاضافة إلى عادات أسلافه، قد حصل على كتاب الأناجيل، وعلى كتابات الرسل، حيث درس المعجزات المسيحية وأفكارها، وهذا ماجعله يتخلى عن شرعة محمدﷺ.... والتحول إلى الشرعة الحلوة الفضيلة العائدة للمسيح، وقد شرع الآن بهدم المساجد التي استخدمها شعبه من قبل، وجعل شعبه يصلي وفقاً لعادات المسيحيين، وبدأ يرغب بالقبول في الحظيرة المسيحية، وبناء عليه، أرسل واحداً من رجاله، وكان انساناً حكيماً ومخلصاً، إلى الملك بلدوين، ملك القدس، من أجل أن يتمكن بوساطته من الحصول على تكريس المعمودية، لكن الشيطان الذي هو دائماً غيور من تقدم الكنيسة، لم يسمح لهذا بالحدوث، لأن رسول هؤلاء القوم المتقدم ذكرهم قد جرى قتله من قبل فرسان الداوية، مما ألحق ضرراً بالكنيسة، وهذه النية، التي بدأت بشكل مخلص، لم تكتمل حتى اليوم الحالي.

وفي هذه السنة نفسها جرى طلاق لويس ملك فرنسا من الملكة اليانور، لأنهما كانا قد ارتبطا أحدهما بالآخر بالدرجة الرابعة من قرابة العصب.

كيف تزوج هنري دوق نورماندي من اليانور

سنة ١١٥١م، فيها تزوج هنري، دوق نورماندي، من الملكة اليانور، التي تطلقت في العام المتقدم من الملك لويس، وقد حصل بوساطة هذا الزواج على دوقية أكوتين، وكونتيه بواتو، وذلك بالاضافة إلى دوقية نورماندي، وكونتيه أنجو، وعندما سمع الملك لويس بهذا بات غاضباً غضباً شديداً ضد الدوق هنري، لأنه امتلك ابنتين من اليانور المتقدمة الذكر، وهاتان سوف تحرمان من الميراث إذا ماولدت، ولداً من أي زوج آخر، وبعد عيد القديس يوحنا، عندما كان الدوق هنري في باربيفلور Barbefleure وهو على طريقه إلى انكلترا، زحف ملك فرنسا، ومعه يوستاس ابن الملك ستيفن، والكونت روبرت دي بيرشي Perche، وهنري كونت أوف شامبين، وغيوفري أخو الدوق هنري، على رأس جيش كبير، لتجريد هنري من نورماندي، وأنجو وأكوتين، ومن جميع ممتلكاته الأخرى، التي توافق هؤلاء الأمراء الخمسة على اقتسامها فيما بينهم، واجتمعوا كلهم من أجل هذه الغاية في نوفمارشي Neufmarche— التي ألقوا عليها الحصار، وبعثوا بغيوفري شقيق الدوق على رأس قوة كبيرة لمهاجمة أنجو، ولدى سماع الدوق هنري بهذه الأعمال زحف من باربيفلور، ليرفع الحصار عن القلعة، لكنه قبل أن يصل وجدها قد استسلمت إلى الملك الفرنسي عن طريق خيانة الحامية، وكأنها سقطت عنوة.

ثم أقام الدوق هنري معسكره قرب أنديل Andelle، ونهب شطر فكسين Vexin القائم بين نهري إيكا Icca وأنديل، وكانت هذه المنطقة تابعة إلى دوقية نورماندي، لكن غيوفري كونت أوف أنجو أعطاها

بشكل مؤقت إلى الملك لويس، وأحرق هنري أيضاً قلاع: باسكرفيل Baskerville، وشيتري Chitrey، وستيربني Stirpiney ، وهي قلاع كانت عائدة إلى أعدائه وذلك إلى جانب قلعة هيوج دي غورني Gornay، التي اسمها كافيري La Ferte، لأن هيوج هذا رفض تقديم خدماته المتوجبة، ثم إنه أحرق قلعة بروبول Brueboles، وأخرى اسمها فيل Ville، ثم دخل من هناك إلى نورماندي حيث ألحق أضراراً بالغة برتشارد دي أقويلا Aquila ، الذي كان زاحفا ضده مع مساعدة لأعدائه، وأحرق قلعته بونفيل Bonnville، وفي حوالي شهر آب، وضع الدوق عساكر لحراسة نورماندي، ومن ثم أخذ طريقه إلى أنجو، وألقى الحصار على قلعة جبل سورل Sorel ، التي كان فيها وليم صاحب القلعة، الذي آثر قضية أخيه، وكان معه عدداً من الفرسان الآخرين، وجرى أسر هؤلاء جميعا، وبهذه النازلة تمّ ارغام أخيه غيوفري على إقامة سلام.

وفي الوقت نفسه اغتنم ملك فرنسا فرصة غياب الدوق، فدخل إلى نورماندي فأحرق شطراً من بورغ ريغولر Bourg Reguliar مع قرية تابعة لقلعة فيرنيل Verneuil ، ثم أمكن بوساطة تدخل رجال الدين إقامة هدنة بين الملك والدوق.

وقدم في هذه السنة أيضاً الملك ستيفن إلى سينت ألبان، وأخبر هناك بمرض راعي الدير رالف، وأعطى هناك بناء على وساطة الأساقفة ورجال الدين الآخرين، إلى الرهبان امتيازاتهم في انتخاب راعي الدير، وبهذا الإذن انتخبوا بالاجماع رئيسهم روبرت غورهام Gorham، الذي تبعاً لذلك تلقى المباركة المعتادة في ١٧— حزيران، ومات سلفه بعد تسعة عشر يوما من انتخابه، ودفن مع الاحترام المستحق، في بيت الكهنة مع الرعاة الآخرين، وفي السنة نفسها أوحي إلى رجل في المنام بأنه إذا ماقطع يديه ورجليه، فلسوف يضمن خلاصه الأبدي، وتبعا

لذلك نفذ هذا العمل، فمات إثر ذلك على الفور.

وفي تلك السنة، في يوم تمجيد الصليب المقدس، ماتت ماتيلدا زوجة الملك ستيفن، وحدث موتها في هينغهام Hiangeham ، وهي قلعة تابعة للكونت ألبيرك دي فير Ver ، ودفنت في دير فيفرهام Faversham ، الذي كان الملك ستيفن قد بناه، وفي السنة نفسها جرى تعيين يوحنا، راهب أوف سيز Seez ، أسقفاً ثانيا لجزيرة مان Man ، الواقعة فيما بين انكلترا وايرلندا، ولكن أقرب إلى انكلترا، ولهذا السبب أسقفها تابع لرئيس أساقفة يورك، وكان أول الأساقفة هناك هو ويموند Wimund، وهو راهب من سيفني Savigny ، ولكن لفساد سلوكه جرى حرمانه من النظر، ونفي، ومات في السنة نفسها وليم، أسقف درم، وغيوفري[أوف مونماوث Monmouth] الذي لقبه آرثر، وهو الذي ترجم تاريخ البريطانيين من البريطانية إلى اللاتينية، وكان قد عمل أسقفاً لسينت آساف Asaph في شمالي ويلز، وقد تقرر من قبل مجمع الرهبان السسترشيان عدم تأسيس أية ديرة جديدة لطائفتهم، لأن عددهم كان قد تجاوز الخمسمائة، وجرى اعفاء جون بابيرو Rapiroالذي كان كاردينالاً في تلك الآونة، من وظيفة النائب البابوي، في ايرلندا، حيث أقام أربع رئاسات أساقفة، وأثناء مرور هذا النائب البابوي في انكلترا أقسم يمين الولاء للملك ستيفن.

حول الطريقة الاعجازية التي أفحمت فيها هرطقة هنري

في هذه الآونة، كسبت عقيدة هنري المهرطق الفاسدة، كثيراً من القوة خاصة في غاسكوني، حتى أثار الرب روح فتاة شابة في تلك المنطقة، قامت بنقضها، لأن الهرطقة التي دعا إليها وبشرّ بها كانت مناقضة لمبادىء الإيمان، فقد تمددت هذه الفتاة لمدة ثلاثة أيام من كل أسبوع دونما صوت، أو شعور، أو تنفس، وعادت بعد ذلك إلى وعيها حيث

قالت بأن العذراء المباركة قد صلّت من أجل الشعب المسيحي، وأن القديس بطرس قد علمها العقيدة الكاثوليكية، ولذلك جادلت بحكمة بالغة حول العقيدة الكاثوليكية، وتمكنت بشكل خاص من دحض هرطقة هنري، وأعادت إلى صدر الكنيسة كثيراً ممن كان قد أضلهم.

حول بعض الأعمال الخالدة للامبراطور كونراد

ومات في السنة نفسها الامبراطور كونراد، وكان رجلاً حكيماً، ومستقيماً، وعنه قد قرأنا بأنه عندما كان حاضراً في أحد الأيام القداس اللاهوتي في اليوم الأول من أحد العنصرة، في احدى المدن، بحضور رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأمراء العائدين للامبراطورية، نشب خلاف أثاره الشيطان بين رجال الدين المتقدم ذكرهم، وكان ذلك حول من منهم سيكون الأعلى مرتبة في الصف الكاتدرائي، وأن يكون الأقرب بالجلوس إلى جانب الامبراطور، وعندما كان الأساقفة ورجال الدين الآخرون يتخاصمون حول هذا، اندفع خدمهم بسيوف وهراوات، واقتلعوا الفئة الأولى من مقاعدها، لكن ليس من دون ضراب، ووضعوا الفئة الأخرى في مكانها، وحطموا الحواجز والمنصات من على كل جانب، وسفكوا كثيراً من الدماء في الصرح المقدس، وانزعج الامبراطور كثيراً تجاه هذا المشهد، وأمر خدمه بطرد أولئك المنشقين من الكنيسة وتهدئة الاضطراب، وكان هذا مافعلوه، وانتقد الامبراطور رجال الدين بحدة، وأمرهم بالتكفير عن خرقهم لحرمة الكنيسة، خشية أن يغضبوا الروح القدس، وإلاّ فإنه سيرفض حضور القداسات في مثل هذه المناسبات المهيبة، وبذلك هدأ الاضطراب، وتمّ عمل التكفير، حسبما هو مطلوب، وبدأت أعمال القداس، دونما التفات إلى أنه كان قد بدأ بمثل تلك الأعمال الطائشة، كما أظهرت الواقعة بوضوح، ومع ذلك تابعوا حتى وصلوا إلى قراءة الانجيل، لكن حدث أنه عندما شرع المرتلون بغناء البيت التالي:« أنت عملت هذا اليوم يوماً

مجيداً» رفع الشيطان صوته عالياً، وقال بشكل واضح، حتى أنه سمع من الجميع:« أنا عملت هذا اليوم يوم حرب» ولدى سماع هذا الصوت المتميز، نظر كل واحد نحو الآخر متسائلين عما يمكن أن يعني هذا، ثم إن الامبراطور، الذي كان رجلاً مخلصاً، وعبداً تقياً للرب، أدرك بأن هذا كان صوت الشيطان أراد عن قصد توبيخ الأساقفة والسخرية منهم ومن انقساماتهم، ولذلك أمر على الفور، بأن يقوم رئيس الأساقفة بالتوقف عن متابعة القداس، حتى تتم أعمال التكفير، لأن الروح القدس قد أغضب كثيراً، وهي التي اعتادت في مثل هذا الوقت على إنارة قلوب المؤمنين بكثير من الهبات الخفية.

ثم إنه أرسل جميع خدمه للتجول بشوارع المدينة والقيام بجمع كل الفقراء والعجزة، وحشدهم في داخل الكنيسة وفي خارجها، أي الكنيسة التي خرقت حرمتها، وقد أطعم الجياع، وأعطى شراباً إلى العطاش، وكسى العريانين، وأعطى أحذية إلى الذين احتاجو إليها، وفعل الشيء نفسه إلى الشيوخ والمتقدمين بالسن، والمتمددين في فرشهم، في جميع أرجاء المدينة، كما أعطى كل واحد منهم قطعة من الذهب، وطلب منهم جميعا الدعاء بطلب الرحمة الربانية، حتى لاتلحق الناس جريره تشامخ رجال دينهم، ولكي لاتحرمهم من حضور روح قدسه، فضلاً عن هذا خلع الامبراطور ثوبه الأرجواني، وارتدى ثوباً من المسوح، وسار على أرض الكنيسة حافي القدمين، حيث تولى خدمة الفقراء، وضرب مثلا للجميع في تقديم الصدقات وفي التواضع، حتى رأى هذا الأمير المجيد أن بلاط الكنيسة قد تبلل بالدموع، وهو الذي كان قد تلوث بالدماء من قبل، ثم أعطى بثقة الأوامر بوجوب الابتداء بالقداس، وقد أنهوا القداس بأعظم خشوع، وعندما وصلوا إلى ذلك البيت:« أنت عملت هذا اليوم يوماً مجيداً»، أمر الامبراطور بتكرار بيت الشعر من قبل جوقة المرتلين الثالثة، كطريقة للتعبير عن الانتصار على

الشيطان، وبعد الفراغ من ذلك أمر الجميع بالصمت لبعض الوقت، ليستمع هل سيقول العدو القديم شيئاً سخرية كما فعل من قبل، إنما بعدما انتظروا لبعض الوقت، ولم يسمعوا شيئاً، قال الامبراطور: «كونوا على ثقة بأن عدونا قد غادر وهو مضطرب»، وعندها ابتهج الجميع بالرب، وأوصلوا القداس إلى نهاية سعيدة، ومجدوا الروح القدس، التي ألهمت الامبراطور بهذا الرأي السديد، وقد خلفه في حكم الامبراطورية الرومانية حفيده فريدريك.

مات في هذه السنة البابا يوجينيوس ومات معه عدد كبير من الرجال الأغنياء

عام ١١٥٢م، فيه مات في شهر حزيران البابا يوجينيوس، وقد خلفه أناستاتيوس، وقد مكث في منصبه سنة واحدة وأربعة أشهر، وأربعة وعشرين يوماً، وجرت في هذا العام سيامة رتشارد دي بومي Beau-meis رئيس شمامسة مدكس، أسقفاً للندن، وفارق هذه الحياة برنارد راعي دير كليرفو، وهنري مورداك Murdach رئيس أساقفة يورك.

وفي هذا العام، عندما كان يوستاس ابن الملك ستيفن ذاهباً لنهب أراضي القديس ادموند الشهيد، بتره الموت، وقد دفن في دير فيفرهام، الذي كان أبوه ستيفن قد بناه، ومات في العام نفسه داوود ملك الاسكتلنديين، وقد خلفه حفيده مالكولم.

كيف نزل الدوق هنري في انكلترا مع قوة

في هذا العام نفسه عبر إلى انكلترا هنري دوق نورماندي وأكوتين، وكونت بواتو وأنجو مع ست وثلاثين سفينة وجيش كبير، وفي الثامن من عيد الغطاس حاصر قلعة مالمبري Malmesbury واستولى عليها، ثم تابع من هناك زحفه إلى كرومارش Crowmarsh، وألقى الحصار على القلعة، لكن تردد رسل بين الملك والدوق، وتمّ الاتفاق على أن

يقوم الملك بهدم تلك القلعة على حسابه، وهكذا تمّ التخلي عن الحصار، ولم يكن هذا بعيداً عن قلعة وولنغفـورد، كما تسلم الدوق، هنري ملكية قلعتي ردنغ وبرايتـول Brightwell ، وطردت غيمـــدرد Gimdred كـونتسـه وووروك عسـاكـر الملك هنري من القلعـة، وسلمت البلدة إلى الدوق هنري، الذي ازدهـرت قضيتـه بهذه الوســائل كثيراً، وولدت في العام نفســه اليانور زوجـة الدوق هنري له ولداً، أسماه وليم، وهو اسم عام بالنسبة لدوقات أكوتين، وكونتات أنجو.

حول المعاهدة بين الملك ستيفن والدوق هنري

عام ١١٥٣م، فيه عقد ستيفن والدوق هنري معاهدة في وولنغفورد، وجـاء ذلك بفضـل عـدالة السماء، وحـرص ثيــوبولد رئيس أســاقفـة كانتربري وأساقفة المملكة، وجاءت المعاهدة كما يلي: بما أن الملك ستيفن محروم من الورثاء، باستثناء الـدوق هنري فقط، لذلك جـرى الاعتراف خلال اجتماع كامل للأساقفـة مع نبلاء المملكة الآخرين، بالحق الوراثي للدوق هنري إلى مملكة انكلترا، ووافق الدوق بلطف على أن يقوم الملك ستيفن بـالتمتع بالسلطة، كما يـريد، حتى وفـــاته، عـى شرط أن يقسم الملك، والأسـاقفة، ونبـلاء المملكة الآخـرين، على أنه بعد وفـاة الملك، سـوف يتــولى الدوق— إذا كـان وقتهـا حيــاً— السلطة من دون أية معيقات، وبذلك تحققت نبوءة ميرلين Merlin التي تقول« سوف تؤذي التقـوى الذي استحـوذ على الأشيـاء من دون تقـوى حتى يتملك(أي يتبنى) أباً» فمن الواضح: أن الملك ستيفن قـد تبنى هنري ليكون وريثـاً له، مع أنه لم يكن ابنه، وجعله شريكاً في المملكة، وخليفة له بعـد وفاته، وانحنـى الجميع إلى الـدوق على أنه هـو الملك، وإلى الملـك على أنه هـو الدوق.

ومنذ الآن فصاعـداً سوف يستعيد الملك سلطاته الملكيـة، التي جرى اغتصابها في كل مكان من قبل نبلائه، وسوف تعود الأراضي التي جرى

نهبهـا، الآن، إلى أصحـابها الشرعيين، الذين كـانوا في أيام الملك هنري، وأمـا بالنسبـة لقـلاع المتمـردين التي بنيت بمبـادرة منهم في أيام الملك، وعـددها ألف ومـائـة وخمس عشرة قلعـة، سـوف يجري هدمهـا الآن، وسوف يقوم الملك الآن باسكان المزارع بالعمال، ويعيد بناء البيوت التي أحـرقت، وسيمـلأ المراعي بالقطعـان، وسيغطي قمم التـلال بالأغنام، ولسوف يفـرح رجال الدين لاستعـادة الهدوء الصحيح، ولن يتعـرضوا بعـد الآن للظلم بمكوس غير عادلة، وسيعـاد تعيين العمد في أمـاكنهم المعتـادة، ولن يعـاني واحـد منهم من الظلم، ولســوف يظهـرون الآن الرعـاية والعنـاية نحـو أصـدقـائهم، ولن يهملـوا الجرائم بالتـورط بها، ولسـوف يحمـون كل انسـان في ممتلكاته الخاصة بـه، ولسوف يعـاقبـون المجـرم، وأمـا اللصـوص وقطـاع الطرق فستكون عقـوبتهم المشـانق والاعـدام، وسوف يحول الجنود— تبعـاً لإشعيا— سيـوفهم إلى سكك محاريث، ورمـاحهم إلى مساحي، وسـوف يعود الفـلاح من المعسكر إلى المحـراث، ومن الخيمة إلى ورشـة عمله، وسيعود البقيـة مع السرور مع أتبـاعهم بعـد متاعبهم في الحراسـة، ولسـوف يتمتع الريفي بالإستقـرار بسـلام وهدوء، ولسوف تغني التجـارة التـاجر، ولسـوف يجري ضرب نقد واحد جيد، وعـام، للملكة كلها، وهكذا فإن الحرب التي استمرت لمدة سبعة عشر عاماً، ودمـرت المملكة كلها، قد انتهت بهذه الواقعة، إلى الأبد.

حول الفارس أون الذي تولى التطهر وهو حي

بعدمـا تأكدت المعـاهدة التي أبرمت— كما روينا— بين الملك ستيفن والدوق هنري، حصل فـارس اسمـه أون Owen ، كـان قـد خـــدم لسنين كثيرة في ظل الملك ستيفن، على إذن الملك، وذهـب لزيارة والديه في ايرلندا، التي هي موطنه الأصلي، وبعـدما أمضى بعض الوقت هناك، بدأ يستعيد من ذاكرته صورة حياته الشريرة، التي أمضاها منذ صغره في

النهب والعنف، وتأسف بشكل خاص من خرقه لحرمة الكنائس، ومن غزو الممتلكات اللاهوتية، وذلك بالاضافة إلى ذنوب أخرى كثيرة كان قد أجرم باقترافها، وذهب وهو في حالة الأسف والتوبة هذه إلى أسقف تلك البلاد، الذي استمع إلى اعترافه، ولامه بقسوة، وأكد بأنه اقترف عدواناً عظيما ضد رحمة الرب، وبدأ الفارس يفكر حول كيف يمكنه أن يظهر توبة حقيقية عن آثامه، ورغب الأسقف في أن يفرض عليه كفارة تكون عادلة نوعاً ما، وعلى ذلك ردّ الفارس:« إذا كنت تقول بأنني أغضبت خالقي إلى هذا الحد، فلسوف أخضع نفسي إلى كفارة تكون قاسية أكثر من المعتاد، ومن أجل إزالة ذنوبي، سوف أتولى تنفيذ الدخول إلى مطهرة القديس باتريك»، والرواية التالية هي التي أعطانا إياها مؤرخ ايرلندي قديم حول هذه المطهرة وأصلها.

حول طبيعة المطهرة المتقدم ذكرها

بينما كان باتريك الكبير يبشر حول عمل الرب في ايرلندا، ويكسب كثيراً من الاحترام بوساطة المعجزات التي قام بها هناك، رغب في أن يسترد من أعمال الشيطان ويخلص الناس ذوي الغرائز البهيمية لتلك البلاد، وذلك بوساطة التحذير من عذاب جهنم، والرغبة بالسعادة في الجنة، لكنهم أخبروه بأنهم لن يتحولوا إلى المسيح، مالم يريهم أولاً بأعينهم الأشياء التي أخبرهم عنها، وبناء عليه، عندما كان القديس باتريك، متوجها نحو الرب، وهو صائم، وسهران، ومصلي، من أجل إنقاذ ذلك الشعب، ظهر ابن الرب إليه، واقتاده إلى مكان مهجور، حيث أراه كهفاً مستديراً، ومظلماً في الداخل، وقال له:« إن كل من هو في توبة حقيقية، وإيمان ثابت، وسوف يدخل إلى هذا الكهف لمدة يوم وليلة، سوف يتطهر من جميع الذنوب، التي اقترفها ضد الرب، طوال حياته كلها، وهو سوف لن يرى فقط عذاب الشقي، بل إنه إذا ما حافظ بثبات على محبة الرب، سوف يكون أيضاً شاهداً على بهجة

المباركين».

ثم اختفى المسيح، وكـان القـديس باتريك مسروراً لـرؤيتـه المسيح، ولاكتشافـه الكهف، وصار أخيراً واثقـاً من أنه سوف يكـون قادراً على تحويل النـاس التعســاء في ايرلندا إلى الايمان الحقيقـي بالمسيح، ثـم إنه قـام— بناء عليـه— على الفـور ببناء خلوة فـوق تلك البقعـة، وأحـاط بسور الكهف الذي كان في أرض مقبرة قائمة أمام الكنيسة، ووضع باباً هناك، وبذلك بـات من غير الممكن لأي انسـان الدخـول إلى هناك من دون إذن، ثم عين بعد ذلك هناك طائفـة من الرهبان النظاميين، وأعطى المفتـاح إلى رئيسهم، مـع أوامـر أنه كل من يأتي إلى رئيس الـرهبـان مع إجـازة من الأسقف في تلك المنطقـة، ينبغـي السماح له بالدخـول إلى المطهـرة، وحصل عدد كبير من النـاس على شرف ذلك الامتياز عندمـا كان القديس باتريك مايزال حياً، وعندمـا كانوا يخرجون كانوا يشهدون بأنهم شـاهدوا عذاب الأشرار، وكـذلك السعادة التي لايمكن وصفهـا التي تمتع بها الأخيار.

كيف بإذن من الأسقف دخل أون إلى المطهرة

وبناء عليـه ثابر الفـارس المتقـدم ذكـره على طلب الإجـازة المطلوبة، ولدى رؤية الأسقف اصراره منحه رسالة إلى رئيـس الرهبان، طالباً منه العمل وفق الطريقة المعتـادة، وبعدما قـرأ رئيس الرهبان الرسـالة، اقتاد الفـارس إلى الكنيسـة، حيث بقي مصليـا لمدة خمسـة عشر يومـاً، وبعـد انتهـاء هذه المدة، أقام رئيـس الرهبان أولاً قـداسـاً، وقدم إليـه القـربان المقدس، ثم اقتاده إلى باب الكهف، الذي كـان مفتوحاً، ورش عليه الماء المقدس، وقال:« إنك سوف تدخل إلى هنا باسم يسوع المسيح، ولسوف تسير خلال الكهف حتى تصل إلى سهل مفتوح، حيث ستجـد قاعة قد بنيت بشكل بارع، ادخل إليها، ولسوف يرسل إليك الرب أدلاء يتولون اخبـارك بالذي يتـوجب عليك فعله»، ودخل الرجـل إلى هذا الموضع

للاصطراع مع الشيـاطين، بشجاعـة، وعهد بنفسـه إلى صلوات الجميع، ورسم على جبينه عـلامـة الصليب المقـدس، ثم اجتـاز البـاب بجـرأة، وأغلق رئيس الرهبان الباب خلفه، وعاد في مسيرة إلى الكنيسة.

كيف وصل الفارس إلى القاعة المتقدم ذكرها وكيف دخل إليها

واجتاز الفـارس بشجاعة خـلال الكهف كله حتى صار وسط ظلام كامل، وأخيرا بدأ الضـوء ينزل عليه من جديد، ووجـد نفسه في السهل حيث كـانت القـاعـة التي أخبر عنها، ولم يكـن الضوء أكثـر من ضـوء الغسق، ولم تكن القـاعـة محاطة بجدران بل بأعمـدة، مثل السـدة داخل الدير، وقـد دخل إليهـا، وجلس ينظر من حـوله في جميع الاتجاهات، ويتعجب من جمال البناء، وبعـدمـا جلـس هناك لوقت قصير، دخل إلى القاعة خمسـة عشر رجلاً في أردية بيضاء يشبهـون السماويين وقد حلقوا شعورهم منذ وقت قصير، وجلسوا، وحيوه بـاسم الرب، والتزموا بعد ذلك بالصمت باستثناء واحد منهم قـال له:« بورك الرب القدير، الذي ألهمك اتخاذ هذا القـرار الصـالح، بالـدخـول إلى هذه المطهـرة من أجل التخلص من جميع ذنوبـك، وعلى كل حـال، إنك مـالم تتصرف بنفسك بشجـاعـة، سوف تهلك بالجسـد والروح معـاً، لأننا عندمـا سنترك هذا المبنى، سـوف يمتلىء بحشـد من الأرواح غير الطاهرة، الذيـن سـوف يعـذبونك كثيراً، ويهددونك بعـذاب أكبر، وهم أيضاً سـوف يعـدونك باقتيـادك إلى البـاب الذي دخلت منه، إذا مـاامتلكوا فـرصـة لخداعك، وبذلك لن تستطيـع الخروج ثانيـة، وإذا مـاسمحت لنفسك بأن تقهـر بتعـذيبهم، أو ارتعبت من تهديداتهم، أو خدعت بوعـودهم، وتراجعت ووافقت، فإنك سـوف تهلك بكل من الروح والجسـد، وإذا مـاكنت— على كل حـال— ثابتـاً بالايمان، واضعـاً كـل أملك بالرب، ولم تستسلم أمـام تعذيبهم أو تهديداتهم، أو وعـودهم، بل رفضتهم جميعا بمجـاميع قلبك، فإنك سـوف تتطهـر من جميع ذنوبك، ولسـوف تشاهد تعـذيب

الأشرار، وراحة الأخيار، وطوال الوقت الـذي سوف يعذبك به هؤلاء الشيـاطين، ادع اسم الرب يسـوع المسيـح، وبدعـوتك لاسمـه، سـوف تتخلص على الفـور من جميع عـذابهم، ولا يمكننا الآن البقاء معك مـدة أطول، وسنعهد بك إلى الرب القدير.

كيف عذب الشياطين الفارس بشكل مؤثر

وبناء عليه ترك الفـارس لوحده، وأعد ذهنه لمواجهـة نوع جديد من الصراع، وما أن فـرغ من تهيئة نفسه لتكـون شجاعة حتى سمـع ضجة حـــول المبنى، وكأنها صـادرة عـن جميع رجـال الـدنيـا مع الحيـــوانات والدواب، وكأنها معمـولة من قبلهم جميعـاً، وجاءت بعـد هذه الضجـة أشباح مـرعبة من الشياطين البشعـة، وقد تدفقت حشـود هائلة منها إلى داخل القـاعـة، وباستخفـاف وسخـرية خاطبـوا الفـارس قـائلين: «إن الرجال الآخـرين الذين يخدموننا، قـانعين بالانتظار حتى موتهم، وذلك قبل أن يقـدموا، ولكن حضرتك شرفـت هذه الجماعة من أسيـادك، بأن قدمت إلينا بالروح والجسد وأنت ماتزال حياً، فهل جئت لتتلقى عقوبة على ذنوبك؟ إنك سوف لن تتلقـى سوى الحزن والأسى بيننا، ولكن بما أنك خـادم غيـورلنا، إذا مارغبت بـالعودة من خـلال البـاب الذي منه قدمت، سـوف نقتادك إلى هناك دون التعـرض للأذى، حتى تتمكن من تمتيع نفسك ثـانيـة بـالدنيـا وبجميع مسراتها، وهكذا تكلـم الشيـاطين راغبين في خـديعتـه بالتهـديد أو بالإطـراء، لكن جندي المسيح لم يخف لا من تهديـداتهم، ولم يقنع بإطـراءاتهم، وأدار نحـــوهـم أذنا صماء، ولم يجبهم ولا بكلمة، وغضب الشياطين لمعـاملته باللامبالاة، فأشعلوا ناراً عظيـمة في القـاعة، وأمسكوا الفارس بيـديه ورجليه ورمـوه في وسطها، وسحبـوه بكلاليب حديد نحـو الأمـام ونحو الخلف في النار، وعندمـا شعـر للوهلة الأولى بالعـذاب دعـا اسم يسـوع المسيح قـائلاً: «ارحمه يايسـوع المسيح»، وبقـوة هذا الاسم انطفأت النار، ولم يبق منهـا شرارة

واحـدة، ولدى إدراك الفارس لذلك لم يعـد يخشاهم، لأنه شـاهد بأنهم زالوا باسم المسيح.

حول مكان العقاب الثاني الذي اقتيد الفارس إليه

وغـادر الشياطين القـاعة الآن، وجـروا الفارس خـلال قفار سـوداء ومظلمة، نحـو مكان حيث تشرق الشمس في الصيف، وبدأ الآن يسمع ولاويل، وكأنها صـادرة عن جميع شعـوب الدنيـا، وأخيراً جـر من قبل الشيـاطين إلى سهل طـويل وعـريض، ملىء بالمصـائب والآلام، وكـان طويلاً إلى حـد أنه كـان من غير الممكن رؤية مـاوراءه، وكـان مليئاً بأشخـاص من كـلا الجنسين ومن كل سـن، كلهم عـريان وجـالس مع أمعـائهم ممتدة حتـى الأرض، لأن أجسادهم وأطرافهم كـانت مـربوطة بالأرض بشكل مـرعب، وذلك بوسـاطة مسـامير من الحديد محماة ومغروسة بالأرض، وكانوا يقـومون أحيانا وهم يتألمون ويعانون بقضم الرمـال، وهم يصرخـون ويولـولون قـائلين:: «أبقنـا، أبقنا، ارحمنا، ارحمنا»،مع أنه لايوجـد هناك من يرحمهم أو يبقيهم، ويدوس الشيـاطين فـوق هؤلاء المخلوقـات التعسـاء وهـم يوجهـون إليهم ضربات ثقيلة، وذلك أثناء مرورهم، وقد قالوا للفارس: «إن صنوف العذاب هذه التي تشاهدها، سـوف تعاني أنت منهـا شخصياً، مـالم توافق على أن تقاد إلى الباب الذي دخلت منه، ولسـوف يجري اقتيادك إلى هناك بسلام»، لكن الفارس تذكر كيف أن الرب قد أنقـذه من قبل، أصم أذنه تجاه ماقالوه، ثم إنهم رمـوه أرضـاً، وحاولوا أن يسمـروه إلى الأرض مثل الآخـرين، ولكنه عندما دعـا اسم يسوع المسيح لم يعـودوا قادرين على إلحاق المزيد من الأذى به في ذلك المكان، ولذلك جروه بعيداً إلى سهل آخر مفتوح، ولاحظ هنا الفرق التالي بين الناس الذين كـانوا هنا والناس الذين كانوا في المكان الأول، ففي الوقت الذي كـانت فيـه أمعاء الأول مـربوطة إلى الأرض فإن جميع الذين كانوا هنا كانوا متمددين على ظهورهم، وكانت

هناك تنينات نارية جالسة فوق بعض منهم، وهي تقضمهم بأسنان حديدية، ولذلك كانوا يعانون من آلام لايمكن التعبير عنها، وكان آخرون ضحايا ثعابين نارية، التفت حول رقابهم، وأذرعتهم، وأجسادهم، وكانت هناك أوتاد حديدية مثبتة في قلوبهم، وأيضاً جلست علاجيم ذات أحجام ضخمة جداً، ومرعبة أن تنظر إليها، على صدور بعضهم وحاولت تمزيق قلوبهم بمناقيرها القبيحة، ومشت الشياطين أيضاً عليهم وهي تجلدهم أثناء مرورها، بحيث لم تسمح لهم بدقيقة راحة من عذابهم، ثم إن الشياطين جروا الفارس إلى سهل آخر للتعذيب، حيث كان هناك حشد عظيم بدا وكأنه أكثر عدداً من سكان العالم كله، وكان بعضهم معلقاً فوق نار فحم مشتعلة، بوساطة سلاسل حديدية مربوطة بأقدامهم وأرجلهم ورؤوسهم باتجاه الأسفل، وكان آخرون معلقون بأيديهم وأذرعتهم، وبعضهم بشعور رؤوسهم، وكان بعضهم معلقاً بكلاليب حديدية محماة فوق اللهب، وكانت الكلاليب مارة من خلال أعينهم وفتحات أنوفهم، وبعضهم كان معلقاً من خلال آذانهم وأفواههم، وآخرون من خلال صدورهم وأعضائهم السرية، ووسط أنينهم وولاويلهم، لم تتوقف أعمال الجلد من قبل الشياطين لحظة واحدة، وهنا حاول العدو في هذا المكان الآخر للتعذيب، تعذيب الفارس، لكنه دعا اسم يسوع، فكان آمنا.

حول الدولاب الحديدي المحمى حتى بات أحمر

ومن مكان التعذيب هذا، جر الشياطين الفارس إلى دولاب حديدي محمى، وكانت اشعاعات الدولاب وأطره مثبة بمسامير حديدية محماة، وعليها جرى تعليق أناس، احترقوا بلهب الفحم المحترق بشكل فظيع، وكان اللهب منبعثاً من الأرض، وحرك الشياطين هذا الدولاب بقضبان حديدية، بسرعة بلغت حداً بات فيها من غير الممكن تمييز انسان عن آخر، لأنه بسبب سرعة الحركة بدوا جميعاً وكأنهم كتلة واحدة من النار،

وعـانى آخرون من أنواع مسـاوية من العذاب، حيث جـرى تثبيتهم إلى أوتاد، وأجلسوا من قبل الشياطين في معـدن ذائب، في حين كان آخرون يجري شيهم في أفـران، أو فـوق مقـالي مشتعلة، وفضـلاً عن هذا رأى الفارس، لدى سحب أدلائه له، بيتـاً مليئاً بعدد كبير من المراجل، كانت مليئة باسفلت ذائب، وبكبريـت ومعـادن ذائبـة، وكـان فيهـا مخلوقـات بشرية من كـلا الجنسين، ومن جميـع المراتب والأعمار، وكـان بعضهم غاطسين كليـاً، وبعضهم حتى أعينهم وآخرون حتى شفـاههم ورقابهم، وآخرون حتى صـدورهم، وأخرون أيضـاً حتى ركبهم وأرجلهم فقط، وكان بعضهم يده أو قدمه مغطسـة، وبعضهم كلاهما معاً، وكان الجميع يولولون، ويصرخـون بشكل مـؤلم بسبب معـاناتهم الكبيرة وآلامهم، وعندما حاول الشياطين اغـراق الفارس في المراجل مع البقية، دعا اسم المسيح، وقد أنقذه ذلك.

حول الريح القوية والنهر الآسن

ودفع الشياطين الآن بالفارس إلى قمة جبل مرتفع، وأروه عدداً كبيراً من الناس من كـلا الجنسين، ومن مختلف الأعمار، كلهم كانوا جـالسين وهم عراة منحنيين حتـى أصابع أقدامهم، واتجاهـهم نحو الشمال، ومن الواضح أنهم كـانوا ينتظرون برعب وصول الموت، وفجأة هبت زوبعـة من الشمال جرفتهم والفارس معهم، وحملتهم وهم يبكون وينوحون إلى جـزء آخـر من الجبل، إلى نهر بارد وآسن، وعندمـا حـاولوا الخروج من مياهه الباردة، سـار الشياطين فوق وجه الماء، وجعلوهم يغطسـون ثانية في أعماقه، ودعا الفارس -على كل حال -اسم المسيح، فوجد نفسه على الفور على الضفة الأخرى، ثم جـره الشياطين نحو الجنوب، وأروه لهب له بعض الضجيج، وكان هذا اللهب مرتفعاً مع رائحة آسنة صادرة من بئر هناك، فوقه رجال عراة، لونهم أحمر من شدة الحرارة، وقد قذف بهم في الهواء مثل الشرار، وعندمـا كان اللهب يخبو كـانوا يسقطون في الهوة

تحتهم، وقـال الشيـاطين للفـارس: «إن ذلك البئر الناري هو المدخل إلى جهنم، حيث نعيش، وبما أنك خدمتنا باخـلاص حتى الآن، إنك سوف تبقى معنا هنا إلى الأبد، وإذا مادخلـت إلى هذه الهوة فإنك سوف تهلك جسداً وروحاً معـا، ولكن إذا أصغيت لنا حتى الآن، وعدت إلى الباب الذي جئت منه، فإنك سوف تعبر دون أن تصاب بأذى»، لكن الفارس اعتمد على عون الرب، الذي غالبـاً ماأنقذه، فجعل أذنه صماء تجاه جميع تحريضـاتهم، وغضب الشيــاطين، فـاندفعـوا نحـو هـوة نارية، وجـروا الفـارس معهم، وكـان كلما ذهب أعمق، صـارت الهوة أوسع، وكـانت العقوبات التي شـاهدها أكثر رعباً، وفي تلك الهوة، شعر الفـارس أيضاً بالرعب والتعاسة، حتى أنه نسي لبعض الوقت الذي أيده وسانده، لكن أخيراً بنعمـة مـن الرب، دعـا اسم يســوع، وعلى الفـور جــرى دفعـه واخراجه بوساطة اللهب إلى الهواء الطلق في الأعلى، حيث وقف لبعض الوقت وهو مندهش ومصعـوق، إنما فجأة، ظهر بعض الشيـاطين الجدد من فم الهوة وقـالوا له: «أنت ياهذا، الواقف هناك، لقـد أخبرك رفـاقنا بأن هذا فـم الجحيم، لكن الأمــر ليس كــذلك، فنحن معتــادون على الإخبــار بالأشيــاء الزائفــة، ذلك أننـا إذا لم نستطع الخداع بالحقيقــة والصــــدق، نحـــاول ذلك ونفعله عن طـريق الزيف، إن هـذه ليست الجحيم، بل نحن سوف نقودك إلى هناك».

حول الجسر الذي كان ضيقاً وعاليا ومنزلقاً

وجر هؤلاء الأعـداء الجدد الفارس مع ضجة مرعبـة إلى نهر عريض وآسن، مغطى بـاللهب ونار الفحم المحترقــة، وهـو مليء بالشيــاطين، الذين أخبروه أنه تحت ذلك النهـر توجد جهنم، وكـان هناك جسر ممتد فوقـه، فيه ثلاثة عـوائق مرتبطة به، لايمكن تجاوزهـا، ففي المقام الأول كـان منزلقـاً، ومع أنه كـان عريضـاً كـان من المستحيل على أي انسـان الوقـوف ثابتـاً عليـه، وفي المقام الثـاني كـان ضيقـاً إلى حـد أنه من غير

الممكن لأحد السير عليه أو حتى الوقوف عليه، وفي المقام الثالث كان عالياً فوق النهر إلى حد أنه كان يزيغ البصر أن تنظر منه نحو الأسفل، وقال له الشياطين: «عليك عبور ذلك الجسر، والريح التي سوف تقذفك إلى النهر الآخر، سوف تقذفك إلى هذا، ووقتها سوف يلقى القبض عليك من قبل رفاقنا الذين هم في النهر، ومن ثم سيغرقونك في هوة الجحيم»، لكن الفارس قام بالدعاء إلى اسم يسوع المسيح، ووضع قدميه على الجسر، فوجد أنه كلما صعد أكثر، ومضى أبعد، صار الجسر أعرض، حتى صار عريضاً مثل طريق عام، ولدى رؤية الشياطين أن الفارس يسير من دون عوائق عبر الجسر، حركوا الهواء بصرخات عالية، مما أزعج الفارس وضايقه أكثر من جميع العذاب الذي تحمله من قبل منهم، وقام آخرون من أعدائه، كانوا تحت الجسر بإلقاء كلاليب حديد محماة نحوه، لكنهم لم يستطيعوا لمسه، وهكذا عبر الجسر بأمان، لأنه لم يتواجه مع أي شيء يمكن أن يمنعه.

كيف تحرر الفارس من شرور الشياطين

تحرر الفارس الشجاع الآن من تعذيب هذه الأرواح غير النظيفة، ورأى أمامه جداراً عالياً، معمولاً بشكل رائع، وفيه باب واحد،كان مغلقاً، وكان هذا الباب مزيناً بحجارة كريمة لمعت بشكل مضيء، وعندما اقترب الفارس من الباب، انفتح الباب، وصدرت عنه رائحة طيبة، بها استرد الفارس شجاعته، وانتعش من كل ماعانى منه من عذاب، وقدم إلى استقباله مسيرة لم ير مثلها في العالم، وكانت المسيرة أثناء تقدمها تحمل الصلبان مع الشموع، والأعلام، وسعف النخيل الذهبية، وقد تبعها حشد من النساء والرجال من كل مرتبة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الأديرة، والرهبان، والكهنة، ورجال دين من جميع المراتب، وكانوا جميعاً في الملابس المقدسة الموافقة لرتبهم، وقد استقبلوا الفارس بتحيات سارة، وبأغاني لامثيل لها في عذوبتها،

واقتادوه وسط ذلك إلى داخل باب النصر، ولدى انتهاء الغناء، تحدث معه اثنان من رؤساء الأساقفة، وباركوا الرب الذي أضفى على روحه الشجاعة حتى قاوم العذاب الذي مرّ خلاله، وعانى منه، ولدى اقتياده خلال المنطقة أروه أجمل المروج التي كانت مزينة بمختلف أنواع الورود، والثمار، مع كثير من أنواع النباتات والأشجار، وتمتع بالروائح الطيبة التي تصور أنه من الممكن العيش عليها إلى الأبد، ولم يتوفر شعور بالظلام في تلك المنطقة، لأنها كانت مضاءة بنور شعشعاني سماوي لايتوقف أبداً، وشاهد هناك حشداً عظيماً من الرجال والنساء، كانوا من كثرة العدد إلى حد إفترض فيه أن بقية العالم لايمكنه أن يستوعب مثلهم، واعتلت فرقة المرتلين سدة المرتلين، وكلهم مجدوا الرب بأغاني عذبة، الرب خالق كل شيء، وقدم بعضهم وهم متوجون مثل الملوك، وكان آخرون يرتدون ملابس ذهبية، وبعضهم الآخر ملابس ثمينة مختلفة الألوان، وذلك وفقاً لما كانت عليه عاداتهم، عندما كانوا في هذا العالم، وفرح بعضهم لسعادتهم، وآخرون لتحرر ولسعادة البقية، وكلهم عندما رأوا الفارس، شكروا الرب، على وصوله، وهنأوه على نجاته من منطقة الموت، وما من واحد هناك شعر بحر أو برد، كما أنه لم يشاهد هناك أي شيء يمكن أن يسبب عدواناً أو أذى.

كيف اقتيد الفارس إلى الجنة السماوية حيث شاهد سرور المباركين

ثم قال الأحبار المقدسون، الذين جعلوا الفارس يرى هذه المنطقة البهية، له: «بما أنك، بفضل رحمة الرب، قد وصلت إلى بيننا دونما أذى، عليك أن تسمع منا شرحاً لكل ما شاهدته، فهذه المنطقة هي الجنة الدنيوية، التي طرد منها الانسان لذنوبه، وغرق في تلك الأوضاع التعيسة، التي يموت فيها الناس في الدنيا، ونحن جميعاً الذين هنا قد ولدنا بالجسد، وفي الذنب الأصيل، وبإيماننا بالرب يسوع المسيح، الذي

تلقيناه بتعميـدنـا، رجعنا إلى هذه الجنة، لكن بما أننا اقترفنا ذنـوباً فعليـة من دون احصاء، وكـان ذلك بعد تعميدنا، لقـد أمكن فقط بعد تطهيرنا من ذنوبنا، وبعد تلقينا العقوبة من أجلهم، أن استطعنا الوصول إلى هذا المكان، لأنه التوبة التي قمنا بها قبل موتنا، أو أثناء ساعة الموت، لكننا لم نكملهـا على الأرض، كـان لابد من التكفير عنهـا بالمعـانـاة في أمـاكن العقـوبات التي رأيتهـا، وذلك وفقاً لطبيعـة الذنب وكبره، وكلنا جميعـاً الذين نحن هنا قد مررنا بأمـاكن العقوبات تلك من أجل ذنوبنا، وجميع الذين رأيتهم هناك يعـانـون من العقـوبات، سـوف يقـدمـون إلى مكان الراحة هذا، ويتم خـلاصهم أخيراً، إلاّ باستثناء أولئك الذين كانوا عند فم الهوة الملتهبـة وفيهـا، والذين يتم خـلاصهم يأتي بعضهم كل يوم إلى هنا، وقـد تطهـروا من ذنوبهم، ونحـن نذهب لاستقبـالهم، ولجلبهم إلى الداخل، كما فعلنا معك، وما من واحد منا يعرف كم من الوقت سوف نبقى هنا، إنما بوساطة القـداسات، والمزامير، وبالمساعدات والصـدقات وبصلوات الكنيسـة المسكونيـة، وكـذلك بالمسـاعـدات الخاصـة من أصـدقـائهم، سـوف تقلل كثيراً عقـوبات الذيـن في المطهـرة، أو أنهم سيتلقـون نوعـاً من العقوبات الخفيفـة، عـوضـاً عن الذين أدينوا أولاً، حتى يمكن في النهـاية خلاصهم جميعـاً، وهكذا كما ترى نحن هنا نتمتع كثيراً بالهدوء، مع أننا لسنـا مـؤهلين بعـد ولاجـديرين بالدخـول في السعـادة الكاملـة، في الجنة، وكل واحـد منا، سـوف يعبر، عندمـا يحل الوقت الـذي حـدده الرب، إلى ملكوت السـمـاء، وفقـاً لما سيهيئه الرب.

كيف أنعش الفارس بالرؤيا السماوية وتقوى بالطعام الروحي

وقـاد الأحبار المبجلون الفـارس الآن إلى الجانب المنحـدر من الجبل، وأمـروه أن ينظر نحو الأعلى، الأمـر الذي عندمـا فعله، سألوه عن لون السماء بالنسبـة للمكـان الذي وقف عليـه، فأجـابهم اللـون مثل لون

الذهب عندما يكون حاراً أحمر في الأتون، فقالوا له: «إن هذا الذي أنت تراه الآن، هو مدخل إلى السماء، وإلى الجنة السماوية، وذلك أنه عندما يغادرنا واحد منا، فإنه يصعد على هذا الطريق إلى السماء، ومادمنا نحن باقين هنا، فإن الرب يطعمنا من الطعام السماوي، الذي سنجعلك تتذوق طبيعته الآن»، وما أن اكتمل التفوه بهذه الكلمات، حتى نزلت حزمة من الضوء من السماء، غطت المنطقة كلها، أما اللهب المستقر في حزمة الضوء، على رأس كل شعاع منها، فقد دخل إلى أجساد الجميع، وشعر الفارس بلذة حلاوة أنعشت فؤاده وجسده كله، حتى أنه لم يعد يعرف فيما إذا كان حياً أم ميتاً، لكن هذا الشعور مرّ بلحظة وعبر، وود بسرور أنه لو بقي إلى الأبد في هذا المكان، ولو أنه استطاع التمتع بهذه المسرات، لكن عندما صار في المكان الآخر، جرى إخباره بأشياء أخرى ليست سارة بالقدر نفسه، فقد قال له الأحبار المقدسون: «بما أنك الآن ألقيت بناظريك على مسرات المباركين، وذلك وفقاً لرغبتك وأيضاً رأيت جزئيا عذاب الأشرار، يتوجب عليك العودة عبر الطريق الذي جئت عليه، وإذا (لاسمح الرب) عندما تعود إلى الدنيا، مارست حياة شريرة، فقد رأيت هنا العذاب الذي هو بانتظارك، وإذا - على كل حال -مارست حياة جديدة ودينية، يمكنك أن تعتمد على عودتك إلينا ثانية، وذلك عندما تتحرر روحك من الجسد وعليك أن لاتكون خائفاً من تعذيب الشياطين على طريق عودتك، لأن الشياطين لن يكونوا قادرين على الاقتراب منك، كما أن تعذيبهم الذي شاهدته لن يؤذيك»، ورد الفارس وهو يبكي: «إنني غير قادر على العودة من هذا المكان، لأنني أخشى من أن ضعف الطبيعة البشرية، سوف يقودني إلى الخطيئة، ومن ثم سوف أمنع من العودة» فقالوا له : «إن هذه الأشياء ليست كما ترغب، بل ستكون وفقاًلرغبة الذي خلقنا نحن وأنت»، ووقتها اقتيد الفارس عائداً إلى الباب مع الأسف والنواح، وبعدما اجتاز الباب مكرهاً، أغلق خلفه.

كيف كرس الفارس نفسه بعد عودته إلى الدنيا على الحج إلى القدس

وعـاد الفارس أون عبر الطريـق نفسه كما كـان قـد ذهب إلى القاعـة المتقـدم ذكـرها، لكن الشيـاطين الذين رآهم أثناء عـودته قـد فـروا منه مـذعورين، وأنواع العـذاب التي مـرّ من خـلالها كانت غير قـادرة على إيذائـه، وعلى الفور عنـدما دخل إلى القـاعـة، مجّد الخمسة عشر رجـلاً، الذين تقـدم وصفهم، الرب، وحمدوه لمنحـه تلك الحماية تحت العـذاب، وقالوا له: «عليك أن تغادر من هنا بكل سرعـة، لأن اليوم هو في فجره في بلادك، وإذا لم يجدك رئيس الرهبان، عندمـا سيفتح الباب، هو سوف يظن أنك ضعت، ولسـوف يغلق الباب، ويعـود إلى الكنيسة»، وعندمـا تلقى الفارس مباركتهم، أسرع عائداً، فالتقى برئيس الرهبان في اللحظة التي فتح بها البـاب، وقد اقتـاده مع الحمـد والشكر إلى المسيح، وأدخله إلى الكنيسة، حيث بقي لمدة خمسة عشر يوما في الصلاة.

وحمل بعد هـذا شارة الصليب، وانطلق إلى الأرض المقـدسة، سـاعياً للتأمل المقدس في ضريح ربنا وفي الأمـاكن المقدسة الأخـرى، وعاد من هناك إلى الوطن بعـدمـا وفى بنذره، وتقـدم بالرجـاء إلى مـولاه الملك ستيفن، حتى يتمكن من إمضاء بقية حيـاته في خدمة الدين، وأن يصبح جنديـا في جيش ملـك الملوك، وحـدث في تلـك الآونة، أن حصـل غيرفيـاس Gervais راعي دير لاوث Louth من الملك ستيفن على منحـة أرض حتـى يبني عليهـا ديراً في ايـرلندا، وقـد بعث واحـداً من رهبـانه، واسمه غيلبرت إلى الملك، ليحصل على ملكيـة الأرض، وليبني عليها الدير، ومثل غيلبرت أمـام الملك، واشتكى إليه بأنه لم يعـرف لغة تلك البلاد، وعليـه ردّ الملك بأنه بعون الرب سـوف يجد على الفور، له مترجماً قـديراً، ودعـا أون للمثول أمـامـه، وأمـره بالذهاب مع غيلبرت والبقاء في ايرلندا، وجاء هذا موافقاً لأون، الذي ذهب وهو مسرور مع

غيلبرت، وخدمه باخـلاص، لكنه لم يرتد ثوب الرهبان، لأنه اختار، أن يكون بالحري خادمـاً وليس سيداً، وقد عبرا إلى ايرلندا، وبنيـا ديراً، فيه عمل الفارس أون مترجماً للراهب وخادماً مخلصاً في كل ما عمله، وكانا كلما جلسا منفـردين، كان الراهب يسأله بدقـه فيما يتعلق بالمطهرة، وعن أشكال التعـذيب المدهشـة، التي رآها هناك وشعـر بها، وقـام الفـارس، الذي لم يكن يستطيع السماع حـول المطهـرة دون البكاء بمرارة، بإخبـار صـديقــه، مـن أجل تنويره، إنما بشرط السرية المطلقـــة، بكل مـــارآه ومـاعـاناه، وأكد لـه بأنه رأى كل ذلك بعينيـه، وبعناية واهتمام من قبل هذا الراهب قـام بتدوين كل مـارآه ذلك الفـارس، وذلك مع حكايات الأسـاقفـة ورجـــال اللاهوت الآخـرين لتلك البـــلاد، الذين في سبيل الصدق، أعطوا شهاداتهم على تلك الحقائق.

كيف جرى دس السم لوليم رئيس أساقفة يورك وموته

عـام ١١٥٤م، عين في هذا العـام البابا أنـاستاسيـوس خليفـة لهنري رئيس أساقفة يورك، الذي كما كنا قد ذكرنا كان متوفى، والذي عينه هو وليم، الذي كان البـابا يوجينيوس قد عـزله من قبل، وأعطاه الطيلسان في رومـا، وبحضوره تولى سيـامـة هيوج دي بوسـات Pusat، حفيد الملك ستيفن، كأسقـف لدرم، لكن بعـد وقت قصير من عـــودة رئيس الأساقفة نفسه إلى منصبه، وأثناء قيامه بقداس مات، من سنم أخذه -كما قيل - من كأس القربان، وقد خلفه روجر رئيس شمامسة كانتربري.

وعبر في هذا العـام هنري دوق نورمـاندي إلى نورمـاندي، واستأنف إلى درجـة بعيدة سلطـات حكمه للمتلكات التي كـان والده قـد أعطاه إياها، وتوجـه من هناك إلى أكوتين، حيث قضى بيـد قوية على عصيـان بعض باروناته.

ومات في العـام نفسه البـابا أناستاسيـوس، وقد خلفـه نيقولا أسقف

أوف ألبـانو، الذي اتخذ لنفسه اسم أدريان، وكـان رجـلاً متدينا، وكـان من الشعب الانكليزي، وقد ولد في ممتلكات دير القديس ألبان.

وفي تلك الآونة نفسهـا عقـدت معـاهدة بين لويس ملك فـرنسـا، وهنري دوق نورماندي، وفق الشروط التالية: يعيد الملك فيرنويل Ver-neuil ونوفمارشي Neufmarche إلى الدوق، الـذي دفع إليـه ألفي مارك من أجل نفقات أخذ، وحفظ، وتحصين هاتين القلعتين.

موت الملك ستيفن وتتويج الدوق هنري

ومـات في العام نفسـه ستيفن الملك الشجـاع والتقي، وكـان ذلك في الخامس والعشرين مـن تشرين الأول، ودفن جسـده في دير فيفـرهام، الذي هو أسسـه، وذلك حيث كان قبل وقت قصير جـرى دفن زوجته مـاتيلدا، وابنهما يوستـاس، وعندما سمع هنري دوق نورمـاندي بوفـاة ستيفن، قدم إلى باربيفلون Barbefloune، حيث انتظر لمدة شهر مجيء ريح مناسبـة حتى يعبر القنال، وكان هناك في الوقت نفسـه هدوء عظيم جداً في انكلترا، وهو نادراً مـاحدث عندمـا يموت ملكهـا، وكان سبب ذلك المحبة والخوف اللذان شعـربهما الناس تجاه الدوق هنري، حاكمهم المقبل، وفي السابع من كانون الأول نزل في انكلترا، وقد استقبل بسرور عظيم من قبل كـل من رجـال الدين والعلمانيين، وفي التـاسع عشر من كـانون الأول الذي كـان الأحد التـالي قبل يوم الميـلاد، أعلن عنه ملكاً وسط احتفال عام، وجرى تتويجه في وستمنستر، من قبل ثيوبولد رئيس أساقفـة كانتربري، وكـان ذلك بحضور، رؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفة وبارونات كل من انكلترا ونورمـاندي، وما أن جـرى تتويجه حتى شرع بممارسة سلطتـه على المدن، والقلاع، والبلدات العـائدة للتـاج، وبتدمير القـلاع المتمـردة، وبطرد الأجـانب، وبشكل خـاص الفلمنكيين، من المملكة، وبخلع الإيرلات المزيفين، الذيـن كـان سيتفن قـد أنفق عليهم جميع واردات الخزينة تقريباً.

وحشد في السنة نفسها بلدوين، ملك القدس، جيشاً كبيراً، وحاصر عسقلان، التي استسلمت بعد حصار طويل إليه على شرط امتلاك الأتراك الذين فيها هم وأزواجهم وأولادهم حق المغادرة لها مع جميع مايملكون، وبعد ذلك استسلمت المدينة إلى الملك، الذي أعطاها إلى أخيه كونت يافا، ليحتفظ بها لنفسه.

حول حياة القديس وولفرك الناسك

وغادر في العام نفسه الناسك المقدس وولفرك Wulfric أوف هيزلبيرغ Heselberg هذه الحياة، وبذلك أنهى حرباً سعيدة ومنتصرة، استمرت تسعة وعشرين عاماً، ضد أعداء بني الانسان، وبشأن حياته وفضائله، نعتقد أننا لن نخرج عن الموضوع إذا ماقدمنا عنها عرضاً موجزاً، نزين به التاريخ: كان القديس وولفرك قد ولد من أسرة انكليزية، في أوضاع عادية، في كونتون، التي كانت قرية على بعد ثمانية أميال عن برستول، فهناك كان أيضاً قد تعلم، وأمضى بضعة أعوام في طائفة دينية، حيث من المعتقد أنه استقبل هناك باستخفاف في طيش الشباب، وليس باستقرار هدف عقله، لأنه لم يعرف الرب، وبالحري اقتيد بالجسد وليس بالروح، وقد أمضى كثيراً من وقته بين الكلاب والصقور، وفي أحد الأيام عندما كان منشغلاً في مثل هذه الأعمال، جاء إليه رجل، بدا من نظراته وثيابه أنه محتاج، وسأله اعطاءه قطعة جديدة من النقود تكون صدقة، لأنه كان في تلك الآونة نقود جديدة في انكلترا، في أيام الملك هنري الأول، لكنها كانت نادرة بسبب حداثتها، ورد عليه وولفرك أنه لايعرف إن كان معه أية نقود جديدة أم لا، وبناء عليه قال له الرجل: «انظر في حافظة نقودك، ولسوف تجد هناك قطعتان ونصف القطعة»، ودهش وولفرك تجاه ذلك، وفعل ماأمر به، فوجد المال فقدمه بتقوى صدقة له، وتسلم الرجل المال وقال: «علّ الذي فعلت هذا من أجله يعوض عليك تعويضاً مناسباً، وإنني أحدثك

باسمه، بأنك سوف تنتقل بعد وقت قصير من هذا المكان إلى مكان آخر، ومن هناك إلى مكان ثالث، حيث ستجد أخيراً الاستقرار، فهناك سوف تثابر على عبادة الرب، الذي سوف يستدعيك في الأخير للالتحاق بجماعة القديسين».

حول تحول القديس وولفرك وحياته المتقشفة

وبعد وقت قصير ارتبط وولفرك بوليم صاحب قريته الأصيلة، وتناول الطعام في كل يوم على مائدته، وهناك أيضاً، أعد نفسه لحياة التقشف بالتخلي عن استخدام اللحوم، وصار رجل الرب الآن متشوقاً إلى حياة العزلة، وقد أرسل من قبل مولاه، أي الفارس المتقدم ذكره،إلى هيزلبيرغ، وهي قرية تبعد حوالي الثلاثين ميلاً إلى الشرق من اكسيتر Exeterومن المعتقد أنه ألهم بفعل ذلك باقتراح من قبل الروح القدس، وهنا عزل نفسه في قلاية قرب الكنيسة، وكرس نفسه على عبادة المسيح، الذي حصل على رضاه بوساطة كثير من الجهد والتعب في كل من الجسد والروح، ذلك أنه أجهد جسده وأفناها بالتقشف والسهر، إلى حد، أن جلده، بات بعد وقت قصير، بالكاد متعلقاً بعظامه، وقدم ذاته إلى عين المشاهد، مظهراً، ليس عائداً لجسد بل لكائن روحاني، وأقنع نفسه بلباس بسيط كان تحته قميص من المسوح، ولكن بعدما تلف هذا خلال عدة أيام، بدأ يفكر باستبداله بسابغة من الحديد، وعندما سمع مولاه، أي الفارس المتقدم ذكره، بهذا، بعث إلى رجل الرب، بسابغة من الحديد، مكرسة لتكون أداة للحرب في خدمة المصالح السماوية، واعتاد في الليل على أن يغطس وهو عريان في حمام ماء بارد جداً، وهناك كان يقدم إلى الرب مزامير الملك داوود، وبهذه الطريقة غالباً ماأمات الجسد ببرد الماء، ذلك أن جسده كان ضعيفاً، وحدث هذا بالغالب بقوة شديدة، وكان متواضعاً ولطيفاً في كلامه إلى جميع الناس، وكانت خطبه تردد مثل نشيد سماوي بالنسبة إلى الذين

سمعوه، مع أنه تحدث دوما إلى الناس ونافذته مغلقة.

معجزة مدهشة حول قطع سابغة

وخرق في الوقت نفسه رجل الرب وولفرك، الذي الرب وحده قد عرفه حقيقة، وانبثق مثل الفجر المبكر فوق المعرفة لبني البشر بجهده في سبيل انقاذهم وتخليصهم، لأنه عندما أعاقته السابغة التي كان مرتدياً لها، وأصابت ركبتيه، وحالت دون حنيها بشكل مستمر، دعا إليه الفارس الذي كان معتاداً على أسراره، وتحدث إليه بشأن طول سابغته فقال له الفارس:« إنني سوف أرسلها إلى لندن وأقطعها وفق الطريقة التي تختارها» فأجابه رجل الرب:« إن هذا سوف يسبب تأخيراً كبيراً، ويمكن أن يظن أن ذلك برهان على المباهاة، خذ هذا المقص، وقص باسم الرب وقم بالعمل بيديك»، وما أن فرغ من كلامه هذا حتى ناول الفارس مقصاً، كان قد جلبه من بيت الفارس، ولدى رؤيته للمقص تردد وظن أن الناسك كان مجنونا، فتابع الناسك كلامه قائلاً:« كن شجاعاً ولاتتردد، إنني سأذهب وأصلي إلى الرب حول هذا، وفي الوقت نفسه أقلع أنت واشرع بالعمل وأنت واثق» وكان المقاتلان الآن كلاهما منشغلين، أولهما في الصلاة، والآخر بالقطع، وتقدم العمل تحت أيديهما، لأن الفارس قد شعر وكأنه يقطع قطعة من القماش، وليس حديداً، وقد عمل المقص بشكل فعال ومفيد، لكن عندما قطع رجل الرب صلاته، لم يعد الفارس، الذي لم يكن قد فرغ من عمله، قادراً على متابعة القطع، ووقف وولفرك وسأله كيف سارت الأمور معه، فأجابه الفارس قائلاً، بشكل جيد جداً حتى الآن، لكن الآن عندما قدمت توقف المقص عن القطع»، فقال الناسك له:« لاتخف، تابع القص كما بدأت، بالمقص نفسه»، واستأنف الفارس عمله وهو مطمئن، وأنهى عمله وهو مطمئن بالسهولة نفسها، كما كان الأمر من قبل، وصقل المقصوص من دون أية متاعب، وقام رجل الرب منذ ذلك الحين فصاعداً، بقطع حلقات من

السابغة من دون مقص، بل بأصابعه الضعيفة، لكن ليس بإيمان أقل، ووزع تلك الحلقات من أجل شفاء الأمراض، وأعطاها لكل من سأله إياها صدقة، ولدى رؤية الفارس لقدرتها أصيب بدهشة أصمته، وسقط على قدمي رجل الرب، الذي رفعه باضطراب، وطلب منه أن لايخبر بذلك أحداً مادام هو نفسه حياً، ولكن شهرة ذلك لم يكن من الممكن اخفاءها، مادام عدداً من رجال الدين يتفاخرون بأنهم يمتلكون حلقات من تلك السابغة، وانتشرت شهرة رجل الرب في جميع أجزاء المملكة.

كيف قدم رجل الولاء للشيطان وشفي من قبل رجل الرب

كان يوجد في الأجزاء الشمالية من انكلترا رجل شقي، لم يكن قادراً على تحمل الفقر، فأذعن، وقدم ولاء للشيطان، وبعدما شعر لبعض الوقت بظلم سيده الجديد، أدرك هذا الرجل الشقي جريمته، وشرع يتوب منها، ونظر من حوله إلى رجل يحميه يمكن أن يعهد بنفسه إليه، فيتحرر من موت الروح، فقرر أخيراً القيام بزيارة القديس وولفرك، الذي قيل بأن في يده يقع الخلاص، وعندما عبّر عن قلقة حول ذلك وعن نيته إلى واحد من أصدقائه، وقف الشيطان إلى جانبه بشكله المعتاد والمعروف بشكل جيد، واتهمه بخرق الثقة والعهد، وهدده بمعاقبته بشكل وحشي، وألزم الرجل نفسه بالصمت، لأنه رأى بشكل واضح أن العدو لم يعرف ماكان يفكر به سرياً بقرارة نفسه، حتى قام أولاً بتطوير نواياه واخراجهم على شكل كلمات واشارات، ولذلك أخفى لبعض الوقت نواياه بالتوبة، وانطلق أخيراً للقيام برحلته المقترحة لزيارة وولفرك رجل الرب، وبعدما أكمل الجزء الأعظم من الطريق، وصل إلى مخاضة النهر خارج قرية هيزلبيرغ لأن الرب أنجح رحلته، ودخل الآن إلى المخاضة، وكان متأكداً من عون القديس وولفرك، ووقتها ظهر الشيطان، وهو ملتهب بالغضب، وألقى بيديه بكل عنف عليه، وقال له:« مالذي كنت أنت قاصد أن تفعله أيها الرجل الخائن، أولست

تحاول خـرق تحالفنا، لكن عبثـا، لأنك الآن سـوف تعـاني من أجل خيـانتـك، أولم تقم أنت من قبل بالتخلي عن عبـادة الرب وخـدمتـه، وتسعى الآن للتخلي عن خـدمتي أيضـاً، إنك سوف تغـرق الآن بشكل تعيس»، ثم أمسكه الشيطـان، وثبتـه بشـدة حتى أنه لم يعـد قـادراً على التقدم نحـو الأمام، ولا الانحـراف بنفسه إلى جـانب أو آخر، وعنـدما كـان هذا يحدث في النهـر، جـرى إخبـار رجـل الرب وولفـرك بذلك، بوساطة رؤيا ربانيـة، فدعا إليـه كاهنه الذي اسمه بريشـريك، وقال له:« امض مسرعـاً، وخـذ الصليب، وبعض الماء المقـدس، وقـابل الرجل المحبوس من قبل الشيطان في المخاضـة خلف القرية، ورش عليه بعض الماء المقدس، وأحضره إليّ، ومضى بريشريـك مسرعاً، وأثناء توجهه رأى الرجل ووجـده على ظهر حصـان في النهـر، غير قادر على التحـرك من المكان الذي كان فيه، وقام بريشـريك على الفور برش الماء المقدس عليه، باسم الأب، والابـن، والروح القـدس، وعلى الفـور انهزم الشيطان، وتحرر الأسير من عـدوه، واقتيـد إلى حضرة رجل الرب، الذي كـان في ذلك الوقت، يصلي بقلق إلى الرب لصالحه، وخلفـه جاء الشيطان الذي طالب برجلـه، وأمسك به دون أن يعبأ بصراخـه إلى رجل الـرب طلبـاً للمساعدة، وأمسـك القديس بالرجل من يده اليمنى، والشيطان من يده اليسرى، وقـام رجل الرب برش الماء المقـدس على وجـه العـدو، الذي هرب على الفـور وهو مضطرب، ثم اقتاد القـديس الرجل الذي أنقـذه من فكي عـدوه، إلى قـلايتـه، واحتفظ به هناك حتى اعترف بـذنوبه، وأخرج منه السم وقـذف به أمام قدمي القـديس، وهو السم الذي كان الشيطان قد أفسده به، ثم جرت مباركته على مشهد من ربنا، وقدمه إليه بالجسد من قبل رجل الرب، وعندمـا سئل عما إذا كان يؤمن بقلبه كله، أجـاب :« أنا أؤمن يامـولاي، وأنـا في حـالتي التعيسـة والمذنبـة، بأنني رأيت في يديك جسد، ودم ربنا يسـوع بالجسد» فقـال القديس:« الشكر للرب، دعنا الآن نصلي معـا، حتى يُعتقـد أنك جـديـر بأن تراه بشكله

الصحيح والحقيقي»، ثم أقام قداساً، به ثبّت إيمانه، وبعد ذلك سمح له بالذهاب بسلام، وقد مات القديس وولفرك في العشرين من شهر شباط، وقد دفن في خلوته في هيزلبيرغ، حيث جرى تنفيذ العديد من المعجزات تشريفاً للرب وللقديسين، وماتزال تمارس حتى الوقت الحالي.

حول نسب الملك هنري

عام ١١٥٥م، فيه في اليوم الأخير من شهر شباط، أنجبت الملكة إليانور إلى الملك هنري ولداً صحيحاً وقانونياً، أطلق عليه اسم هنري، هذا وكان الملك هنري ابن ماتيلدا، التي كانت من قبل امبراطورة وفيما بعد كونتسه أنجو، وكانت أمها هي ماتيلدا، ملكة انكلترا، وزوجة هنري الأول، وابنة القديسة مرغريت ملكة اسكوتلندا، وكانت مرغريت هذه ابنة ادوارد من أغاثا Agatha ، أخت هنري الامبراطور الروماني، وكان ادوارد ابن اديموند الطرف الحديدي Ironside، ابن إيثلرد Ethelred ، ابن ادغار Eadgar الهادىء، ابن إدموند، ابن ادوارد الأكبر، ابن الملك النبيل ألفرد، ابن ايثلوولف Ethelwulf، ابن ايغبرت Egbert ، ابن ألكموند Alcmund ، ابن إيوفا Eoffa ، ابن إيوبا Eoppa ، ابن انغلز Ingels ، أخو آين Ine الملك اللامع، ابن كنرد Kenred ، ابن سيولوولد Ceolwald، ابن كوثا Cutha، ابن سيرتك Certic ، ابن ايليسا Elessa ، ابن ايغلا Egla ، ابن ويغ Wig ، ابن وودن Woden ، ابن فريتوولد Fretewald ، ابن فريوليتر Freolater ، ابن فريثوولف Frethewulf ، ابن فرنجولدف Fringolduff ، ابن غيثا Getha ، ابن تاتوا Tatwa، ابن بيو Beau ، ابن سلدوا Seldwa ، ابن هيرمود Hermod، ابن إيترمود Itermod ، ابن هاثرا Hathra ، ابن والا Wala ، ابن بدوي Bedwi ، ابن سام، ابن نوح.

وقـام في العام نفسـه الملك هنري بحـرمـان وليم بيفيريل Peverel، من ميراثه لأنه أمـر بوضع السم لرالف ايرل شستر، وقد قيل بأنـه كان شريكاً في كثير مـن الجرائم مـن هذا النـوع، وجعل الملـك هنري— في الوقت نفسـه— نبـلاءه، يؤدون قسم الولاء إلى ابنيـه وليم، وهنري من أجل تاج انكلترا، ومـات أيضـاً روبـرت أسقف إكستير، وقـد خلفـه روبرت عميد سالسبري، وفي حـوالي الوقت نفسه، أرسل هنري أسقف ونشستر كنوزه بعيـداً مقـدمـاً، لتكون في حفظ راعي ديـر كلوني، ثم مالبث هو نفسـه، أن غادر انكلترا بعد ذلك مبـاشرة، من دون الحصول على إذن الملك، ولهذا الاعتداء أمـر الملك بهدم قلاعه الثلاث وتسـويتها بالأرض، وفي حوالي الوقت نفسـه، قام هيـوج دي مورتيمير -Mortim er، وكـان رجـلاً أرعناً، بتحصين قـلاعـه ضـد الملـك، وهي: أبراج غلوستر، وويغمور، وبردجنورث، لكن الملك حمل عليـه فجأة، فاستولى عليهم ودمرهم، ثم أقيم سلام فيما بينهما.

وفي ذلك الحين أيضـاً، تزوج لويس ملك فرنسـا، من ابنة ألفونسـو، ملك اسبـانيـا، الذي كـانت عـاصمتـه طليطلة، وهم يدعـونه باسم امبراطور اسبـانيـا، لأن له السيـادة على الملكين الصغـار في أرغـون وغاليشيـا، [وجرى تكريس فريدريك امبراطـوراً من قبل البابا أدريان، وأعيـدت يد القـديس جيمس إلى دير ردنغ] وفي الوقت نفسـه جـرى تعيين توماس رئيس شمامسـة كانتربري، وعميد بيفرلي، والقـانوني لعدد من الكنائس الانكليزية، مستشاراً للملك.

كيف أعطى البابا أدريان جزيرة ايرلندا إلى الملك هنري

وفي هذه الآونة أرسل هنري ملك انكلترا سفـارة مهيبـة لتسعى لنيل إذن البـابا أدريان، حتى يتمكن مـن غـزو ايرلندا واخضـاعهـا، وجلب سكانها البهيميين إلى طريـق الصـواب، بإزالة بـذور الشرور من بينهم، وبسرور نال هذا المطلب مـوافقـة البـابـا أدريان، الذي أرسل إلى الملك

الرسالة التالية:

« **من أدريان، أسقف وخـادم عبيـد الرب، إلى ابنه العـزيز في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، تمنيات الصحـة، ومباركته الرسـولية:** بثناء وتقدم عزمت جلالتك على مضاعفة احترامك على الأرض، لكي تنال لنفسك جائـزة السعادة الأبدية في الجنة، وذلك في سعيك، كأمير كـاثوليكي، لمدّ حـدود الكنيسـة، ولتعليم الشعـوب الهمجيـة عقـائـد الايمان المسيحي، ولإزالة بذور الشر مـن حقل الرب، ولنجـاح هذا المشروع وفـائـدته الفضلى، سألت تأييد الكرسي الرسولي، ولقد أبديت في سبيل تنفيذ هذه النية اخـلاصاً عظيماً، وستنال نصيحة أعظم من عليين، تجعلنا أكثـر ثقة بنجاحك، ولقد بينت لنا ياولدنا العزيز في المسيح، نيتك في غزو ايرلندا، واخضـاع سكانها، وجعلهم يعيشون طائعين تحت شريعـة المسيح، ومن ثم إزالة الشرور من بينهم، مع النية أيضـاً بأن تدفع إلى القديس بطرس مبلغـاً سنويـاً، وهو بنس واحـد عن كل بيت، وبـأن تحفظ للكنائس في تلك البـلاد، حقوقهـا كـاملة ودونما نقصـان، ونحن نوافق الآن بشكل قانوني على نيتك هذه المحمودة، ونستجيب بسرور لطلبك، ونحن أيضاً مسرورين لأنك تعمل في سبيل توسيع حـدود الكنيسة، لضبط الشرور، وتقويم الأخـلاق، ولبذر الفضيلة، وأكثر لمدّ وتوسعـة الديانة المسيحية، فأنت في سبيل ذلك سـوف تغـزو تلك الجزيرة، وتفعل كل شيء يبـدو مفيـداً في رفع شأن الرب، ويفعل خيراً لـذلك الشعب، الذي سـوف يستقبلك ويحترمك بمثـابة سيد له، شريطـة بقاء حقـوق الكنيسة كـاملة ودفع البنس الواحـد سنوياً مـن كل بيت، وأن يحافظ عليـه قـانونيـا للقـديس بطرس، لأن جميع الجزر التـي أشرقت عليهـا شمس العـدالة، والتي تلقت الخلاص بوساطة الإيمان المسيحي، هي بلا شك عـائدة إلى القديس بطـرس، وإلى الكرسي الروماني المقـدس، حسبما اعترف نبلاؤك أيضـاً، وبناء عليه إذا كنت ترغب في انجـاز ما نويتـه في عقلك، ادرس

القيام بتعليم ذلك الشعب الأخلاق الصالحة، وابذل جهدك من خلالك ومن خلال الذين سوف توكل إليهم مسألة إرشادهم أن يكونوا من حيث الحياة، واللغة، والإيمان أهلاً للقيام بهذا الواجب، حتى يزينوا الكنيسة في تلك البلاد، وأن يمكن غرس المسيحية هناك ومن ثم نموها، وكذلك عمل كل شيء يميل إلى تشريف الرب، وتخليص النفوس، وأن يسود النظام هناك، حتى تتسلم من الرب تاج السعادة الأبدية، وأن تؤمن لنفسك مادمت على الأرض، مجداً لايزول».

حول اكتشاف معطف مخلصنا الذي كان بلاحاشية

عام ١١٥٦م، فيه تم العثور في آرجنتويل Argentoil، وهو دير في منطقة باريس، على معطف مخلصنا، وكان ذلك بوساطة وحي رباني، وكان هذا المعطف من دون حاشية ولونه قاتم، وقد ورد في الكتابات التي تمّ العثور عليها، في الوقت نفسه، بأنه صنع من قبل الأم المجيدة، عندما كان مايزال طفلاً.

وعبر في العام نفسه الملك هنري إلى نورماندي، حيث استولى بعد حصار طويل على قلعتي ميربو Mirabeau، وشينون Chinon، وكانت قلعة لودون Loudon قد استسلمت له من قبل، منذ مدة قصيرة، وبعدما قام أخوه غيوفري بطرد هول Hael ، كونت بريتاني، واستولى على نانتي Nantes بموافقة سكانها، عمل سلاماً مع الملك، على شرط أن يتسلم سنويا ألف باوند من النقود الانكليزية، وألفين من نقود أنجو، فبموجب هذه الاتفاقية صنع سلام بينهما.

وفي العام نفسه، دمر وليم، ملك صقلية، تدميراً كلياً مدينة باروم Barum ، وهزم الاغريق واسترد المدن والقلاع، التي كانت قد أخذت منه، وصنع سلاماً مع البابا أدريان، وسمح له بسيامة أساقفة مملكته، وفي تلك الآونة ولدت اليانور، ملكة انكلترا، للملك ابنة

أسميت ماتيلدا،[ومات في العام نفسه وليم أكبر أولاد هنري، ودفن في ردنغ].

كيف عمل ملكا انكلترا وسكوتلندا سلاما بينهما

عام ١١٥٧م، فيه عبر الملك هنري إلى انكلترا، وإليه أعاد مالكوم ملك سكوتلندا مدينة كارلآيل، وقلعة بامبورغ، ونيوكاسل على التاين، وجميع منطقة لوثيان، ومن جهة أخرى أعاد هنري إليه إيرلية هنتنغدون، وفي الطريقة نفسها، سلم وليم الابن غير الشرعي للملك ستيفن، وإيرل مورتون، وورني Warenne ، إلى الملك قلعتي بيفني Pe-vensey، ونوروك Norwick ، إلى جانب جميع الحصون في انكلترا ونورماندي، التي كان محتفظا بها كمنحة من أبيه، وفي المقابل أعطاه الملك هنري كل الذي كان بيد ستيفن في اليوم الذي توفي فيه هنري الأول، وتخلى في الوقت نفسه أيضاً هيوج بيغود عن قلاعه إلى الملك، وأعدّ في السنة نفسها الملك هنري قوة عسكرية كبيرة لمهاجمة ويلز بحراً وبراً، وفي هذه الحملة طلب من كل فارسين تأمين نفقات تسليح فارس ثالث، وعندما كان كل شيء جاهزاً، دخل الملك إلى ويلز، فقطع الأشجار والغابات، وفتح طريقاً لجيشه، وألقى الحصار على قلعة ريدلار Rhydlar ، واسترد جميع الحصون التي انتزعت من أسلافه، وأعاد بناء قلعة بيزنغويرك Basingwerk ، وبعدما أخضع الويلزيين عاد منتصراً إلى انكلترا، وفي العام نفسه ولدت له الملكة اليانور ولداً أسماه رتشارد، وأوصل روبرت دو مونت سينت مايكل تاريخه إلى هذا الوقت.

كيف وضع الملك هنري تاجه جانباً

عام ١١٥٨م، فيه جرى تتويج الملك هنري في يوم عيد الميلاد، في ووركستر، وبعد انقضاء حفل التقديس، وضع تاجه على المذبح، ولم

يلبسه بعد ذلك، وفي العام نفسه ولدت له الملكة اليانور ولداً منح اسم غيوفري، كما جرى ضرب نقود جديدة في انكلترا أيضاً، وذهب توماس، مستشار الملك في سفارة، مع كثير من الأبهة، لاستقبال مرغريت، ابنة ملك فرنسا، لتكون زوجة للأمير هنري، ابن ملك انكلترا، وقام الملك هنري، عقب وفاة أخيه غيوفري بعبور القنال، واستولى على مدينة ناتي، وفضلاً عن ذلك، تولى زيارة ملك الفرنسيين في باريس، وجاء ذلك بناء على دعوة، وأقام هناك في القصر وأقام لويس مع ملكته في دير الرهبان النظاميين للقديسة مريم العذراء.

كيف حاصر الملك هنري طولوز

عام ١١٥٩م، فيه زحف الملك هنري ضد طولوز، واستولى على عدة قلاع في أحوازها، وكان آنذاك الملك الفرنسي في تلك المدينة، ولم يرغب هنري بمهاجمة المدينة نفسها، صدوراً عن احترامه للملك الفرنسي، الذي كانت أخته كونستانس قد تزوجت من كونت طولوز، وولدت له ولداً، وكانت هذه القضية هي سبب العداوة بين الملكين، كما ستظهر النتائج، ومات الآن البابا أدريان، وقام شقاق بين الاسكندر وبين أوكتافيان، وكان الأخير مؤيداً من الامبراطور ورجال دينه، أما الأول فكان مؤيداً من قبل ملكي فرنساوانكلترا، وكتب الامبراطور إلى الملكين معاً معا، بأن عليها الاعتراف بأوكتافيان، لكنهما رفضا الاستجابة وبذلك حصل الاسكندر على البابوية.

كيف تزوج هنري الملك الأصغر لانكلترا

عام ١١٦٠م، فيه عاد الملك هنري من طولوز، وزوج ابنه هنري من مرغريت ابنة ملك فرنسا، التي كانت موجودة تحت عهدته، وتسلم ملكية قلعة غيسور، التي رغب بتملكها منذ زمن طويل، وانزعج ملك فرنسا تجاه ذلك، وادعى بأن ذلك قد عمل قبل أوانه، ولهذا السبب، قام

مع مساعـدة ثيوبولد كونت فلاندرز، فحصن شـــومونت Chaumont على الرغم من إرادة ملك انكلترا، لكن هنري زحف إلى هناك مسرعـاً، وتراجع الملك الفرنسي وكـونت فلاندرز، واستسلمت القلعة بعـد عدة أيام من الحصـار إلى هنري، وذلك مع الخمسـة والخمسين فارسـاً الذين كـانوا شحنة فيهـا، وبناء عليـه جـرى الاحتفـال بالزواج فيما بين الأمير هنري، الذي كـان في السابعة من عمـره، وابنة الملك الفرنسي التـي كان عمرها ثلاثة أعـوام فقط، وكان الاحتفـال في نيوبورغ Newbourg في اليـوم الثـاني من تشرين الثاني، بمبـاركـة هنري أوف بيـزا، ووليم أوف بافيـا، وكانا كـاردينالين وممثلين للكرسي الرسـولي، ومات في هذا العـام ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري.

حول سيامة بارثوليو اكستير والمعجزة التي رآها

عـام ١١٦١م، فيه جـرت سيـامة بارثوليـو Bartholomew، الذي كان رجلاً متـديناً، وله معارف جيدة باللاهوت، لكرسي أكستير Exet-er من قبـل أسقف روكستر، وفيها يتعلق بهذا الأسقف المبجـل، يحكى عنه أثر معـروف بشكل جيد، بـأنه عندما كـان يزور أسقفيتـه، ومركـزا جهـده حـول إنقاذ الأنفس، استراح في احـدى الليـالي مع رجـال دينه، وكانـت الاستراحة في احـدى قرى المنطقة، وقـد نام فـوق قطعة أرض مطلة على كنيسة وأرض مقبرتها، وفي منتصف الليل، عندمـا أفاق لتأدية الصلاة الليلية، وجد المصباح الذي يشتعل بالعادة طوال الليل في غرفته قد انطفأ، ولذلك دعـا حاجبه وأخبره بوجوب احضـار اضاءة بالسرعة الممكنة، وفي أثناء انتظاره للإضـاءة سمع صرخـات عـدد من الأطفـال كانـوا يقومون بمسيرة مـن ساحة الكنيسـة، وكانوا يتفـوهون بالكلمات التـــاليـــة بشكل واضح:« الويل لنـا، الويل لنا، مـن الذي سيصلي من أجلنا؟ ومن الذي سيقـــدم صـــدقـات إلينا، أو سيقيـم قـداســات من أجلنا؟»، واندهش الأسقف تجاه هذه الكلمات، وتساءل إلى أبعد الحدود

عن المعنى الذي تقصــده، وذهب في الوقت نفســه الحاجب لإحضـار الاضاءة، لكنه لم يجد اضاءة لافي القـاعة ولافي المطبخ، فذهب وهو قلق إلى القـرية، فركض إلى هناك مسرعـاً، فوجـد هناك كاهن الأسقفيـة مع عـدد من الرجال والنسـاء، متحلقين حـول جثة رجل، يبكون وينتفـون شعـورهـم، ولم يهتم كثيرا حـول هذه المسألـة، ولم ينشغل بها، بل وضع الضـوء في مصبـاحـه، ورجع حيث أخبر الأسقف حـول مـارآه، وفـور انتهاء الليل، وعندمـا صار الوقت ضياء، استـدعى الأسقف الكاهن مع بعض سكان القـرية، وسألهم عن الميت وأي نوع من الرجال كـان هو، واتفق الجميع على أنه كـان رجـلاً مستقيماً، كـان يخاف الرب، وكـان أباً لليتـامى ومـواسيـا للمحتـاجين، ذلك أنه كـــان قـد أعطى كل ممتلكاته للفقراء، وهو مايزال حياً، وكذلك إلى الغرباء، فضلاً عن هذا احتفظ في بيتـه براهب، حيث أبقـاه على حسابـه ليصلي وليعمل قداسـاً يوميـا من أجل أرواح الموتى، وما أن سمع الأسقف بهذا، حتى أدرك على الفور، أن النحيب الذي سمعـه من سـاحـة الكنيسـة، صـدر عن أرواح الذين كانوا مـدفونين في ساحة الكنيسـة، وذلك أثناء حزنهم على الرجل الذي كان يفيـدهم بصدقاته وقـداساته، ثم بعث الأسقف وراء الكاهن الذي كـان يتـولى تلاوة تلك القـداســات من أجل الموت، وأعطاه حصـة في الكنيسة، وتمنى عليـه تلاوة قداس وإقامـة الصلوات من أجل الموتى في كل يوم مادام حياً.

كيف عقد ملكا فرنسا وانكلترا معاهدة بين أحدهما والآخر

عـام ١١٦٢م، فيه كـان قـد حشد الآن لويـس ملك فرنسـا، وهنري ملك انكلترا جيشـاً كبيراً على كـلا الجانبين، وكـان من المتـوقع نشـوب معـركة فيما بينهما في فـريتفـال Freitval ، عندما عقد سلم كان غير متوقعا صنعه بينهما، وولدت في العام نفسه إليانور ملكة انكلترا لزوجها ابنـــة في روان Rouen ، وأعطت المولودة اسم أمها، وسار رتشارد

أسقف لندن على طريق جميع الأجساد، وأمـر الملك بأداء يمين الولاء لابنه هنري، وكان الأول في أداء اليمين توماس، مستشار الملك، الذي أقسم أنه سيكون مخلصاً للأمير الشاب، باستثناء حق ابيه الملك فقط، فهو سيبقى بخدمته طوال حياته وطوال رغبته في حكم المملكة.

كيف جرى اختيار توماس مستشار الملك رئيساً للأساقفة

واجتمع في العام نفسه جميع رجال الدين والناس العائدين لمنطقة كانتربري في وستمنستر، حيث جرى بشكل مهيب انتخاب توماس مستشار الملك، بدون معارضة، لأن يكون رئيس أساقفة، وقد حدث هذا في أحد عيد العنصرة، وتمت سيامة المستشار ليكون كاهنا، من قبل وولتر أسقف روكستر، في كنيسة كانتربري، وفي الأحد التالي جرى تكريسه من قبل هنري أسقف ونكستر وجرى اجلاسه على العرش بشكل مهيب، وعلى الفور تم ارسال رسل إلى روما، وقد قابلوا البابا على هذا الجانب من الألب، وهو داخل إلى فرنسا، وقد عادوا إلى انكلترا، وهم يحملون معهم الطيلسان، الذي وضع على المذبح في كنيسة كانتربري، وبعدما أدى توماس الأيمان المعهودة، تسلم الطيلسان من على المذبح، ووضع على نفسه بشكل مهيب أردية كاهن أعلى، وكان التغيير باللباس عملاً تمهيدياً لتغيير في القلب أيضاً، لأنه تخلى الآن عن الاهتمامات العلمانية، وركز اهتمامه فقط على الاهتمامات الروحية للكنيسة، ولكسب الأرواح.

وأرسل رسلاً إلى الملك في نورماندي، متخلياً عن منصب المستشار، ومعلنا استقالته عن حمل الختم الكبير، وأثر هذا العمل تأثيراً عميقاً على فكر الملك، الذي عدّ نفسه وحده المسؤول عن استقالته، وكانت هذه هي المرة الأولى التي امتلأت فيها نفسه وشحنت نحو توماس، رئيس أساقفة كانتربري، وكان توماس واحداً من سكان لندن، وقد اعتاد منذ صغره على التمتع بالدعاء إلى العذراء المباركة، وبعد المسيح، ركزّ جميع

آمـاله عليها، وعندمـا انتهى من تعليمه، دخل في خـدمة ثيـوبولد رئيس أسـاقفة كـانتربري، وفي أثناء عمله، كسب طريقه لصنع صـداقة حميمـة وإلفـة معـه، هـذا وليس من السهل الحديث عن كيف أنه في خـدمـاته وأعماله في سبيل قضيـة كنيسـة الرب، قـد زار مراراً عتبـات الرسـولين حول مسائل كانت تتعلق بالأعمال، ولاكيف أنه نجح في القيام بمهامه، ذلك أن عقله كله كان منصرفاً كليا لفحص القضايا وتقريرها، ولتوجيه الناس، وجـرت ترقيته أولاً من قبـل رئيس الأساقفـة لأن يكون رئيس شمامسة كـانتربري، وصار بعد ذلك بـوقت قصير مستشار الملك، حيث تمكن في إطار عمله بحكمـة وعقلانيـة من إيقاف أعمال سلب الأوغـاد الذين كانوا قد تآمروا لسلـب أملاك كل من المنطقة والكنيسة، ولعل في هذا كفـاية للوقت الحالي فيما يتعلق بالحيـاة المتقـدمـة لرئيس الأسـاقفـة توماس، وذلك حتى يكون القـارىء قادر بشكل أحسن على فهم الذي سنقوله عنه فيما يلي.

حول التسوية النهائية للخلافات بين كنيستي سينت ألبان ولنكولن

تمّت في هذا العام التسوية نهائياً وسلمياً للخلاف بين كنيسة لنكولن، ودير القديس ألبـان، وتولى عرض قضية كنيسة لنكولن والحفـاظ عليها من قبل اسقفها روبرت أوف شيسني Chaisney ، أما قضيـة الدير فتـولاها راعي الدير روبرت دي غـورهام Gorham ، وكان ذلك بحضور الملك هنري الثـاني، وتوماس رئيس أساقفة كـانتربري، وروجر رئيس أساقفة يورك، وذلك إلى جانب الأسـاقفة التالية أسماؤهم: هنري أسقف ونكستر، ووليم أسقف نوروك، وجـوسلين أسقف سـالسبري، وبارثولميو أسقف اكستير، وهيلاري أسقف سشتر، وهيوج أسقف درم، ورتشـارد أسقف كـوفنتري، وغيلبرت أسقف هيرفـورد، وغـودفـري أسقف القديس آساف Asaph، وروبرت ايرل أوف ليستر، وكان أيضاً

مسؤول العـدالة في انكلترا حـاضراً، مع الإيرلات، ورؤسـاء الديرة، ورؤسـاء الشمامسـة، مع حشـد عظيم من الناس، وكـان ذلك في وستمنستر يوم الخميس قبل الفصح، ووقتها جرى توقيع الصك التالي:

« *من روبرت، الـذي هو بنعمـة من الرب، أسقف لنكـولن إلى جميع أبناء أمنا الكنيسـة المقـدسة، تمنيـات الصحـة:* ليكن معلومـاً من قبلكم جميعاً، أن الخلاف الذي أنا أثـرته ضد روبرت راعي دير القـديس ألبان ورهبانه، فيما يتعلق بالدير نفسـه، وبالخمس عشرة كنيسة ذوات الامتياز التي يمتلكونها على أراضيهم، والتي أنا أدعي، كأسقف لهم، وجوب أن يكونوا رعيـة وطائعين لي شخصيـاً، قـد انتهـى الآن وإلى الأبد، فلقـد تخليت مع مـوافقـة من مجلس الكهنـة عن هذه الإدعـاءات والمطالبـات بحضـور الشهود المتقـدم ذكرهم، عـلاوة على ذلك، لقد تسلمت أيضـاً بمـوافقة من مجلس كهنتـي، من راعي الدير المتقـدم ذكره، مع رهبـانه، قـرية أوف تنغهيرست Tinghurst مع كنيستهـا، ومع جميع حقـوق الامتياز لعشرة عقـارات من الأرض، ليجري تملكهـا من الآن فصـاعداً وإلى الأبد من قبل كنيسـة لنكولن، وذلك مقابل التخلي عن الادعـاءات المتقدم ذكرها، علاوة على ذلك إن الحقوق التي أدعيها على الدير المتقدم الذكـر، ممثـلاً بشخص الراعـي روبرت وخلفـائـه، وعلى الخمس عشرة كنيسـة المتقـدم ذكـرها، بمثـابة كـونها عـائـدة إلى كنيستي، ولشخصي ولخلفـائي، قد تخليت عنهـا ووضعتهـا في يدي مولانا الملك نيـابة عني شخصيـاً وعن خلفـائي إلى الأبد، وبنـاء عليـه، لتكـن— من الآن فصاعداً— الحرية ممنوحة إلى ديـر القديس ألبان، والخمس عشرة كنيسة المتقدم ذكرها، لتلقي الميرون، والزيت، والمبـاركة، والتكريسات الأخرى العائـدة للكنيسة، من أي أسقف يرضـون، من دون أية معارضـة منا أو من كنيستنا، وعـلاوة على ذلك فإن تلك الكنيسـة سـوف تبقى حـرة في يدي الملك، بمثابة ملك له، لكـن الكنائس الأخرى العائـدة للدير نفسه

في منطقة أسقفية لنكولن، فلسوف تقدم الطاعة والخضوع الرعوي لأسقف لنكولن، مثل بقية الكنائس، ولكي لاتعود هذه المسألة إلى الخلاف ثانية، قمت بتأكيد هذا الاتفاق الحالي في الكتابة الحالية، وبوضع ختمي هنا عليها، وأختام الكهنة».

وجرى تأكيد هذه التسوية السلمية من قبل الملك، ومن قبل رئيس الأساقفة توماس، والبابا الاسكندر، الذي حذا حذوهما فوافق عليها بموجب صلاحيات الكرسي المقدس، مع الموافقة الكتابية لجميع الكرادلة.

وفي العام نفسه دفع بلدوين، ملك القدس دين الطبيعة، وقد خلفه أخوه عموري.

السبب الثاني لمعاداة توماس رئيس أساقفة كانتربري

عام ١١٦٣م، فيه عاد الملك هنري إلى انكلترا، بعد أنهى عمله فيما وراء البحر، وجاء توماس رئيس أساقفة كانتربري للقائه، وقد استقبله بالقبلة المعتادة، إنما من دون الحظوة الكاملة كما كان واضحاً لجميع الذين كانوا حاضرين، وذلك بإشاحة الملك وجهه عن وجهه، وجرى في العام نفسه، بمبادرة من الملك ومع موافقة البابا، نقل غيلبرت أسقف هيرفورد، إلى كرسي لندن، وجلس على عرشه بشكل مهيب في تلك الكنيسة في ٢٨— نيسان، وكذلك غلب روبرت دي مونتفورت هنري أوف اسكس، في مبارزة واحدة، وذلك بتهمة الخيانة للملك، أما هنري الذي هزم فقد جعل نفسه عرضة للتجريد والمصادرة، لكن سمح له فيما بعد بتدخل من الملك بلبس الرداء الرهباني في دير ردنغ، وفي هذا العام أيضاً عمل رئيس الأساقفة توماس كاهنه غيوفري رايدل Ridel رئيس شمامسة لكانتربري، وجاء ذلك بناء على طلب ملح وسريع من الملك، ومع ذلك لاحظ أن حظوة الملك لم تعد إليه كاملة، وكان الازعاج

الأول له عندما استقال من حمل ختم الملك، وظهر الانزعاج الثاني بالبرودة التي أبداها الملك نحوه عندما استقبله بالقبلة المعتادة، وذلك من دون الحظوة الكاملة، ووضح الآن ذلك للمرة الثالثة عندما منح رئيس الأساقفة رئاسة الشهامسة، حسب طلب الملك، فقد أدرك في ذلك الوقت أن الحظوة الملكية لم تعد إليه كاملة.

وسعى في العام نفسه كليرنبولد Clarenbald راعي الدير المنتخب لدير القديس أوغسطين، للحصول على المباركة المعتادة من رئيس الأساقفة، إنها في كنيسته الديريه، ومن دون مسيرة، وكان يستهدف بهذه الوسائل أن يسحب نفسه من الخضوع لرئيس الأساقفة، واستجاب الملك لرغبات راعي الدير المنتخب هذه، حاثاً على ضرورة المحافظة على العادات القديمة للملكة، وبذلك عاكس رئيس الأساقفة ووقف ضده وكانت هذه المناسبة التالية التي وقف فيها موقفاً عدائياً ضده، وجرى في هذا العام بحث عام وتقصي في أوضاع الممتلكات الإقطاعية في جميع أرجاء انكلترا، وقد تبين من خلال ذلك أنه في مقاطعة كنت، كان المتوجب على دي روز Roos، في تكليفه في بعض الخدمات، الاعتراف بالملك كرئيس له وليس برئيس الأساقفة، وصارت هذه العداوة الشخصية أمراً ثابتاً بالنسبة للكنيسة، وكانت هذه هي المناسبة الخامسة في اتخاذ موقف عدائي من رئيس الأساقفة، وأظهرت المناسبة السادسة نفسها عندما منح رئيس الأساقفة كنيسة آينفورد Eynsford الشاغرة لواحد اسمه لورانس، لكن وليم صاحب القرية، ادعى الولاية على الكنيسة، وطرد لورانس، الأمر الذي نال من أجله الحرمان الكنسي من قبل رئيس الأساقفة، وكان هذا قد حدث من دون استشارة الملك، الذي أبدى انزعاجه الكبير تجاه الاجراءات، والذي ادعى أن من صلاحياته الملكية وجوب عدم تعريض أي اقطاعي رئيسي لديه، أو واحداً من عماله، للحرمان الكنسي، من دون الحصول على إذنه، وذلك

خشيـة امكانية اتصـاله بواحـد محروم كنسيـا من دون أن يعرف، سـواء أكان إيرلاً أو بارونا، والسماح له بقبلة، أو بالحضـور إلى مجلسه للاجتماع به، وظهرت حالة الغضب السابعة للملك، بعد إرساله سفراء إلى روما، للحصول على تثبيت لعادات المملكة، ولدى عودة السفراء، لم يستطيعوا تهدئـة الملك وإزالة غضبـه سواء نحـو رئيس الأسـاقفـة، أو نحو عـدة شخصيات أخرى.

كيف عقد البابا الاسكندر مجمعاً في تور

وعقد في العام نفسه البابا الاسكندر مجمعاً في تور، في كنيسة القديس مـــارتن، وكـــان ذلك في الحادي والعشريـن من أيـار، وحضر هذا المجمع— بناء على إذن من الملك— عدداً كبيراً من الأسـاقفة الانكليز، ورجـال الدين، كما كـان هناك رئيس الأسـاقفـة تومـاس مع أسـاقفتـه المسـاعديـن، وقد جلس على يمين البـابا، في حين جلس روجـر، رئيس أساقفة يورك مع أسقف درم على يساره.

وقـدّم في العـام نفسـه مـالكوم ملك الاسكوتلنديين، وريس Rees أمير ديمشيا Demetia ، أي جنوب ويلز، مع ملوك آخرين، وأمراء كامبريا Cambria، الولاء للملك هنري، وإلى ابنه الأمير هنري، وكان ذلك في اليــوم الأول من حـــزيران، في وود ستـــوك Wood stock، علاوة على ذلك جرى استـدعاء روجر إيرل أوف كلير Clare، لتقديم الولاء إلى رئيس الأسـاقفـة توماس في وستمنستر من أجـل قلعته قلعـة أوف تونبردج Tunbridgeوتوابعهـــا، لكن بناء على تحريض من الملك رفض، قـائـلاً بأن جميع مـــوارد اقطاع تلك القلعـة ينفق على الخدمـات العلمانيـة للملك، وهي بذلك بيد الملك، وليست بيـد رئيس الأساقفـة، ولقـد كـان هذا السبب الثـامن للعـداوة بين الملك وبين رئيس أسـاقفـة كانتربري.

كيف تمّ الاعتراف بعادات انكلترا في كليرندون

عام ١١٦٤م، فيه جرى اجتماع بحضور الملك هنري، في كليرندون Clarendon ، في الخامس والعشرين من كانون الثاني، وذلك برئاسة جون أسقف أكسفورد، بناء على طلب من الملك، وكان بين الحضور أيضاً رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والإيرلات، والبارونات ونبلاء المملكة، وفيه جرى الاعتراف— أو البحث— ببعض العادات وحريات التصرف العائدة لاجراءات الملك، التي هي اجراءات قضائية لها علاقة بالملك هنري وبجدّه وبآخرين، وهي اجراءات قضائية ينبغي مراعاتها والتمسك بها من قبل الجميع في المملكة، وذلك فيما يتعلق بالخلافات وعدم الوفاق الذي غالباً مايتفجر بين رجال الدين والقضاة التابعين لمولانا الملك، ولنبلاء المملكة، ومن هذه العادات جرى الاعتراف آنذاك بقسط منها هو الموجود في الستة عشر بنداً المقبلة فيما يلي:

١— بالنسبة للأوقاف والهدايا إلى الكنائس؛ إذا نشب أي خلاف بين العلمانيين، أو بين رجال الدين والعلمانيين، أو بين رجال الدين، ينبغي محاولة حسم ذلك في محكمة بلاط مولانا الملك.

٢— لايجوز منح الكنائس الموجودة في إقطاعية الملك، بشكل أبدي من دون موافقته وإجازته.

٣— سوف يجري استدعاء أي واحد من رجال الدين المتهمين بأية جريمة من قبل القضاء الملكي إلى محكمة البلاط الملكي، للإجابة على أي سؤال سوف تقرر محكمة البلاط الملكي وجوب طرحه عليه، وكذلك إلى المحكمة اللاهوتية للإجابة على أية سؤال يقررون وجوب طرحه عليه، هذا ولسوف يرسل القضاء الملكي إلى محكمة الكنيسة المقدسة ليرى كيف ستتم معالجة القضية، وإذا مااعترف رجل الدين أو

أدين، فلن تتدخل الكنيسة في المستقبل لحمايته.

٤— مامن رئيس أساقفة، أو أسقف، أو أي شخص صاحب منصب رفيع، يجوز له مغادرة المملكة من دون الحصول على إجازة من الملك، وإنهم إذا مارغبوا في مغادرتها، سوف يستعد الملك ويملك السلطة— إذا مارغب— في الحصول على الضمانات منهم، في أنهم لن يقوموا لابإيذاء الملك أو المملكة، لافي أثناء الذهاب، أو البقاء، أو الإياب.

٥— ليس على الأشخاص المحرومين كنسيا تقديم كفالة« ad re-manens »، وليس عليهم أداء يمين، بل الذي عليهم تقديمه كفالة مع تعهد، بأنهم سوف يمثلون أمام القضاء الكنسي حيث يجري تحليلهم.

٦— سوف لن يجري اتهام أي رجل علماني، إلاّ بتهم قانونية، وشهود بحضور الأسقف، وبذلك لن يفقد رئيس الشمامسة حقوقه، أو أي شيء يصبح حقاً له من خلال ذلك، وإذا كان المستدعون إلى المحاكمة من النوعية التي لايرغب أحد باتهامهم أو يتجرأ على ذلك، سوف يقوم عمدة القرية، بناء على طلب من الأسقف، بجعل اثني عشر رجلاً مخلصاً، يقسمون أمام الأسقف، بأنهم سوف يعلنون الحقيقة المتعلقة بتلك المسألة وفقاً لضمائرهم.

٧— مامن واحد له مكانته عند الملك، أو أي واحد من خدمه الخاص، سوف يجري حرمانه كنسيا أو وضع أراضيه تحت الحرمان الكنسي، حتى تجري مشاورة الملك، إذا كان في المملكة، أو إذا كان مسافراً فتتم استشارة قضاته، حتى يتم فعل ماهو صحيح حول هذه المسألة، وبذلك تجري تسوية كل ماهو عائد إلى محكمة البلاط الملكي فيها، وكذلك من جهة أخرى بالنسبة لما هو عائد الى المحكمة اللاهوتية.

٨— الالتماسات، إذا ماتم رفعها، فستكون من رئيس الشمامسة إلى الأسقف، ومن الأسقف إلى رئيس الأساقفة، وإذا ماأخفق رئيس الأساقفة في معالجة القضية على الفرقاء الذهاب للمثول أمام مولانا الملك، حتى يمكن بتدخله انهاء الخلاف في محكمة رئيس الأساقفة، وبذلك لن تتطور الاجراءات أكثر من دون موافقة مولانا الملك.

٩— إذا مانشب خلاف بين علماني وكاهن، حول مبنى، رغب الكاهن أن يدعي أنه ديني، لكن العلماني ادعى أنه ملك علماني، فإن القضية يجري حلها، عن طريق شهادة اثني عشر رجلاً مخلصاً، من خلال المحكمة الملكية الرئيسية، فالشهود سيقررون فيما إذا كان المبني دينيا أو علمانيا، وذلك بحضور قاضي الملك، فإذا تقرر أن المبنى دينيا، فسوف تجري المرافعة على القضية في المحكمة اللاهوتية، وإذا ماكان ملكاً علمانيا، فلسوف تجري المرافعة في المحكمة الملكية، مالم يكن الاثنان قد تداعيا حول مبنى يعود للأسقف نفسه أو البارون، فوقتها تجرى المرافعة في محكمته، وينبغي أيضا عدم حرمان المتولي للمبنى قبل الدعوى حتى يتم القضاء عليه بذلك، واعلانه.

١٠— إذا ماكان أي انسان، ينتمي إلى مدينة، أو قلعة، أو منطقة، أو قرية ملكية، جرى استدعائه من قبل رئيس الشمامسة أو الأسقف للتحقيق معه حول جريمة، ولم يستجب للدعوة، سوف يكون قانونيا وضعه تحت عقوبة المنع، لكن ليس الحرمان الكنسي، حتى يتم اعلام المسؤول الملكي الرئيسي في ذلك المكان بالأمر، حتى يتدبر استجابته للدعوة، وإذا ماأخفق المسؤول الملكي في هذه المسألة، فإنه سيكون تحت رحمة الملك، وسوف، بناء على ذلك، يقوم الأسقف بإرغام الفريق المتهم بموجب النظام اللاهوتي.

١١— سوف يحتفظ رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجميع الشخصيات الأخرى ذات المكانة لدى الملك بممتلكاتهم الملكية، مثل البارونات،

ومقـابل ذلك سـوف يستجيبـون لاستـدعـاء إلى العـدالة الملكيـة وللمسؤولين الملكيين، وعليهم مـراعاة جميع العـادات الملكية واتبـاعها، والتصرف باستقامة مثل البارونات الآخرين، حتى يجري تطبيق قرارات العدالة على الأعضاء الخاسرين، أو الموت.

١٢— إذا مـاشغرت رئـاسة أسـاقفـة، أو أسقفية، أو رعـاية دير، أو رئاسة رهبان من مملكة الملك، فلسـوف تكون بيده، ولسوف يتلقى منها جميع الموارد، وتكون الإجـراءات القضـائيـة فيهـا مثلما هي في مملكتـه، وعندما يحين الوقت للتعيين في تلك الكنائس، سوف يقوم مولانا الملك بالتوصية بأفضل الأشخـاص إلى تلك الكنيسة، وستتم أعمال الانتخاب في بيعـة الملك ومع موافقـة الملك وبمشـورة الملك بالنسبة للأشخـاص الذين سوف يجري استـدعائهم لذلك الغرض، وسـوف يقدم الشخص المنتخب الطاعـة والولاء لمولانا الملك، ليكون سيـده ومولاه عن حيـاته وعن أطرافه، وعن سمعته الأرضية، باستثناء نظمه قبل تكريسه.

١٣— وإذا مـارفض أي واحـد من نبـلاء الملـك تقـديم العـدالة إلى رئيس أسـاقفـة، أو أسقف أو رئيس شمامسـة عن نفسـه أو عن أي من رجاله، سـوف يتولى مـولانا الملك الفصل القضائي بينهـم، وإذا صدف وقام أي واحـد بالاعتداء على أي من حقوق الملك، سـوف يتولى رئيس الأساقفـة، أو الأساقفة، أو رؤسـاء الشمامسة إجراء المحـاكمة من أجله وتقديم الترضية إلى الملك.

١٤— لايجوز حجـز المواشي العـائـدة للمصـادرة لصـالح الملك، في الكنيسة أو في المقبرة، مراغمة للعدالة الملكية، لأنهم ملك للملك، سواء أو وجدوا في الكنيسة أم خارجها.

١٥— الالتماسات من أجل الديون المستحقة، سـواء أكانت مفروضة بيمين توثيق أم لا، هي من اختصاص المحكمة الملكية.

١٦ـــ لايجوز حجز أبناء الفـلاحين من دون موافقـة مولاهم، الذي من المعروف أنهم ولدوا في أرضه.

وأقسم على الاعتراف بهذه الطـرائق أو وســـائـل التقصي فيما يختص بالعــادات السيئة، والحريات، والمفــاخـرات، المكروهـة من قبل الرب القـدير: من قبل رئيس الأساقفـة، والأساقفـة، ورعاة الديرة، ورؤسـاء الرهبـان، ورجال الـدين، إلى جانب الايرلات، والبـارونات، والنبـلاء، الذين عبروا عن وعــودهم ســـواء بكلمات الفم، أو في كلمات الوعــد الصـادق، بأنهم سوف يحافظـون على هذا كله ويراعونه لصـالح مـولانا الملك، ولورثته، بإيمان صحيح، ومن دون ريبة بالنوايا، إلى الأبد.

كيف ندم رئيس الأساقفة توماس لتسرعه بإعطاء الموافقة على العادات

ونتيجة لهذه القـواعد التشريعية،مارست السلطة العلمانيـة الجباية من دون معارضة، من جميع المؤسسات اللاهوتية، سواء أتعلقت بالأشياء أو بالأشخاص، خارقـة بذلك الامتيازات اللاهوتية، لأن الأساقفـة التزموا بالصمت، أو بالحري تذمـروا مستهجين صمتاً بدلاً من المقـاومة المعلنة، وبناء عليه اكتشف رئيس الأسـاقفة توماس توريطه لنفسـه، وتسرعه في الموافقة على هذه القـوانين غير التقية، التي يتـوجب على جميع المسيحيين مقتهـا ورفضهـا، ولأنه أقسم على مـراعـاتها، فلقـد سبب له هذا ندمـاً عظيماً، وأثر على نفسه تأثيراً كبيراً، فأخضع جســده إلى استخدام أخشن الطعـام، وأقسى أنواع الملابس، وأوقف نفسـه عن تأدية الصلوات عند المذبح، حتى اعتقد من قبل البـابا الحاكم أن اعترافه وثمار توبتـه جديرة بتحليله، ذلك أنه أرسل على الفـور رسلاً إلى بلاط روما، ليعـرض أمام الحبر الرومـاني، كتـابة فيهـا شرح لقضيـة الكنيسـة، وهي القضيـة التي كانت أيضـاً قضيته، وتمنى على البابا أن يحلله من تعهـده المتسرع، ولقد حصل على هذا التحليل في كلمات الرسالة التالية:

تحليل رئيس الأساقفة من قسمه المتسرع

« من الاسكندر أسقف[وخادم عبيد الرب إلى أبنائه بالمسيح، تمنيات بالصحة]، ليكن معلوماً لديكم ياإخوتي بأن أخباراً قد وصلت إلى أذني، أنكم اقترحتم بسبب بعض الاضطرابات والفوضى التوقف عن ترتيل القداس وعن تكريس جسد ودم ربنا، وإن خطورة مثل هذا القرار، وبشكل خاص من قبل هؤلاء الأشخاص الهامين، مع امكانية قيام شرور من ذلك، ينبغي أن يكون موضوعاً لتفكير وتمعن عميق من قبلكم، وأن يشغل ذلك نشاطكم واهتمامكم، ولسوف تتولى حكمتكم تقدير الفوارق بين الأعمال المدبرة وبين الأعمال التطوعية، وبين مايقترف صدوراً عن الجهل أو صدوراً عن الحاجة، لأننا نقرأ بأن الذنب لابد أن يكون دوماً تطوعيا، لأنه لولم يكن كذلك لتوقف عن كونه ذنباً، وبناء عليه، إذا كان بإمكانكم اتهام أنفسكم بأي عمل، ضميركم غاضب منه، مهما كان نوعه، ننصحكم بالاستغفار منه وبالاعتراف به إلى كاهن يكون مستقيماً وحكيماً، وهو إذا مافعل، فإن الرب الرحيم، الذي ينظر إلى قلوبكم أكثر من نظره إلى أعمالكم الظاهرة، سوف يتولى برحمته الغفران لكم، ونحن أيضاً باعتمادنا على فضائل الرسولين: بطرس وبولص، نقوم بتحليلكم مما اقترفتم، وبتحريركم منه بوساطة سلطاتنا الرسولية، وفضلا عن ذلك ننصحكم، لابل نأمركم ، بأن لاتتوقفوا منذ الآن فصاعداً، على هذا الأساس، عن الإحتفال بالقداسات»، [صدر في١— نيسان ١١٦٤م].

كيف رسم الملك بوجوب تلقي رجال الدين العقوبة من العلمانيين

وفي العام نفسه، بما أن الملك كان راغباً بالتأكيد على معاقبة الجرائم بالقسوة المستحقة، وأن كرامة جميع الطوائف ينبغي معاملتها بعدل، أكد

أنه من غير المنطقي، أن يقوم رجال العدالة لديه بالارغام على تسليم رجال الدين، الذين أدينوا بجرائم إلى أسقف الأسقفية من دون عقوبة، ولذلك أمر بأن جميع رجال الدين الذين وجدهم أساقفتهم مجرمين، يتوجب تجريدهم واخراجهم من طوائفهم، بحضور رجال العدالة الملكيين، وأن يسلموا بعد ذلك إلى المحكمة الملكية من أجل المعاقبة، واتخذ رئيس الأساقفة موقفاً معارضاً، بأن مامن أحد يجوز تجريده واخراجه من طائفته من قبل أساقفته، ثم تلقيه بعد ذلك أية عقوبة من محكمة علمانية، لأن ذلك سوف يبدو وكأنه انزال عقوبة مزدوجة على جريمة واحدة، ويعود أصل هذا الخلاف إلى فيليب دي بروك، قانوني بدفورد Bedford الذي عندما استدعي للمحكمة بتهمة القتل، استخدم لغة مهينة نحو القاضي، وهذا مالم يستطع نكرانه عندما مثل أمام رئيس الأساقفة، ولذلك جرد من وقفه الكنسي، ونفي من المملكة لمدة عامين، وكان هذا هو السبب التاسع لتوفر مشاعر البغضاء بين الملك وبين رئيس الأساقفة.

كيف أهين توماس المبارك من قبل الملك في نورثأمبتون وترك المملكة

وبناء عليه، عندما رأى رئيس الأساقفة أن حريات الكنيسة قد أزيلت تماماً الآن، ركب سفينة من رومني Romney ، وعزم على الذهاب إلى روما، من دون علم الملك، لكن الرياح كانت معاكسة، وساقت السفينة عائدة إلى انكلترا، وأضاف هذا سبباً عاشراً إلى العداء بينه وبين الملك، ولهذا السبب جرى استدعائه للمثول أمام القضاة الملكيين، للاجابة على شكوى قدمها جون ماركال Mareschal، فيما يتعلق باحدى القرى، التي— كما قيل— تملكها رئيس الأساقفة من دون اعاقة بتملكها، وذلك لمدة طويلة، وأخيراً وبعد نقاش طويل جرى نقض القرار، وحكم بغرامة للملك قدرها خمسمائة باوند، وقدم رئيس

الأساقفة على الفور ضمانة بالدفع في ذلك الموضع، وشكل هذا المناسبة الحادية عشرة للعدوانية ضد رئيس الأساقفة، الذي مازال ضميره نقياً.

واتهم في نورثأمبتون حول أعمال عملت أثناء مستشاريته، وظهر هناك شخصياً في الثالث عشر من تشرين الأول، حيث تقرر هناك أن من المتوجب عليه تقديم حساب عن المال الذي كان قد تسلمه طوال السنين العديدة التي تسلم فيها الأثاث في قلعتي آي Eye وبيركها مبستد، وفيما يتعلق بما كان قبل سيامته لرئاسة الأساقفة، جرى الاعلان من قبل هنري ابن الملك وولي عهده، ومن قبل القضاء الملكي تحرره من جميع المطالب المدنية، ومع ذلك حاول النجاة من القرار غير العادل، بالمرافعة إلى الكرسي البابوي، حيث جرى الحظر على كل أساقفته المساعدين، وعلى سواد المؤمنين اصدار أحكام عليه، لأنه أبوهم وقاضيهم، لكن النبلاء والأساقفة، الذين جمعهم الملك لهذه الغاية أصدروا قرار حكم عليه، مع أنه لم تجر إدانته، ولم يعترف شخصياً بأنه مجرم، بل رافع ملتمسا الامتياز له شخصياً ولكنيسته، وهكذا قام رئيس الأساقفة الذي شعر بالضيق، والإهانة، وبالهجران من قبل الأساقفة، برفع صليبه عالياً بيديه، وغادر المحكمة بشكل مكشوف، وقام في الليلة التالية بمغادرة البلدة بشكل خاص، وأخفى نفسه أثناء النهار، وارتحل أثناء الليل فقط، ووصل بعد عدة أيام إلى ميناء ساندوش Sandwich، حيث أبحر في قارب صغير، وعبر إلى فلاندرز، وهكذا وصل المدفوع إلى المنفى، والمعترف بالمسيح إلى السين Sens حيث جرى استقباله من قبل البابا الاسكندر، ومنح مسكنا في دير بونتني.

إفادات رسل الملك ضد رئيس الأساقفة

وجرى في الوقت نفسه إرسال رسل من قبل ملك انكلترا إلى البابا في السين، وقد أخبروا قداسته بإصرار كامل، أنه نتيجة لخلاف نشب الملك وبين رئيس أساقفة كانتربري، جرى تحديد يوم، بموافقة من

الطرفين ، حتى يمكن تسوية الخلاف بينهما في مؤتمر، وفقا للعدالة، وفي اليوم الذي تحدد من قبل السلطات الملكية، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة،مع رجال الكنيسة الآخرين من أجل أن تكون الإجراءات القضائية معروفة من قبل المؤتمر كله، وأن يكون من السهل تقصي الأمور إن كانت عادلة أو مزيفة، وأضافوا أنه في اليوم المحدد قدم المفسد للسلام والمثير للاضطراب في المملكة نفسه أمام الملك، غير واثق بعدالة قضيته، ورافعاً أمامه صليب ربنا، وكأنه كان داخلاً إلى حضرة طاغية، ومع ذلك لم ينزعج جلاله الملك، بل عهد بالقرار حول المسألة إلى الأساقفة، حتى يمكن بهذه الطريقة إزالة جميع أنواع الشكوك، والذي بقي هو فقط قيام الأساقفة باتخاذ القرار حول القضية، حتى يمكن إعادة الصداقة ثانية إلى مابين الفريقين، فيعودا صديقين، ويدفنا كل العداوات بينهما، لكن الفريق الثاني قدم اعتراضاً على أنه سيحاكم من قبل الملك، وأن ذلك فيه ابتعاد عن حصانة الكرسي المقدس، غير مدرك أنه حتى وقار الكنيسة وشرفها لايجوز تعريضه بأية وسيلة إلى التسويات، وكان المرغوب فيه، هو المداجاة لبعض الوقت حتى يمكن للكنيسة أن تعيش لبعض الوقت بسلام، علاوة على ذلك سارع إلى منح نفسه اسم« أب»، حتى يكون من الرعونة بالنسبة للأبناء إدانة أبيهم، بل أن يكون من الضروري تواضع الأبناء للحفاظ على كرامة الأب، حتى لايوصلوا كراهية الأب إلى الأبناء، وكان المطلب الرئيسي للسفراء أن يرسل البابا اثنين من نوابه، ليقوما — من دون التماسات — بحسم الخلاف بين رئيس الأساقفة والملك، وحاولوا أخيرا، بوساطة مختلف الوعود، إقناع البابا حتى يقوم بتثبيت العادات والصلاحيات المطلقة في إنكلترا، التي ادعى الملك بأنها عاداته الموروثة، وأنها انتقلت إليه من جده هنري الأول، لكن بعدما عاد الرسل وأخبروا الملك بأنهم أخفقوا في مهمتهم، ثار غضبه، وانفعل كثيرا، وبعث بالرسالة التالية إلى عمد مناطق إنكلترا لتعميمها.

رسالة الملك إلى عمدة كنت ضد رجال دين توماس المبارك

إنني آمـرك من الآن فصـاعداً، أنه إذا مـاسيحـاول أي واحد، سـواء أكـان من رجـال الديـن، أو العلمانيين الاستـدعـاء إلى بلاط رومـا، أن تعتقله، وتضعه في السجن حتى يجري اعلام جلالتي، وأن تستولي على، وتضع بين يديك، جميع مـوارد، وممتلكـات رجـال دين رئيس أسـاقفـة كـانتربـري، كما سـوف يبين لك رانـدلوف دي بروك Randolf de Broc وضبـاطي الآخـرين، وأن تعتقـل جميع آباء وأمهـات، وأخـوان، وأخـوات، وأحفـاد، وحفيـدات رجـال الدين الذين هـم مع رئيس الأسـاقفـة، وأن تضعهم مع قطعـانهم في حفظ أمين حتى يجري إعـلام جلالتي، وأن تجلب هذه العجالة معك عندما يجري استدعائك.

وكتب إلى غيلبرت أسقف لندن، الرسالة التالية:

رسالة الملك إلى أسقف لندن كما تقدم أعلاه

إنك غير جاهل بالتعامل المؤذي الذي تلقيته أنا ومملكتي من توماس رئيس أسـاقفة كـانتربري، وكيف بانحطاط قـد هرب من البـلاد، وبناء عليه، إني آمـرك أن تتولى منع رجال الديـن الذين بقيوا معه بعـد فراره، وجميع الآخرين الذين عملـوا في سبل الإساءة إليّ أو إلى مملكتي، منعهم من تلقي أية اجراءات قضائية لصالحهم في أسقفيتك من دون إذني، وأن لاتعطي أية تسهيلات أو تأييد مهما كان نوعه لرجال الدين المذكورين

وكتب الملك أيضاً إلى رجال القضاء لديه وفق مايلي:

رسالة الملك إلى رجال القضاء لديه ضد رئيس الأساقفة توماس المبارك

إذا تم العثور على أي واحـد حامـلاً رسائل أو توصيـات من مولانا البابا، أو من رئيس الأساقفة توماس تحوي منع خدمات تعبدية مسيحية

في انكلترا، ينبغي اعتقـاله وابقـائـه بالسجن حتى تعلم جـلالتي بذلك، علاوة على ذلك، مامن كـاهن، أو راهب، أو راهب نظامي، أو مهتدي، أو أي رجل آخـر، سـوف يسمح له بعبـور البحـر، إلاّ إذا كـانت لديه رسائل مـن قاضينا أو منا شخصيـاً بشأن عودته، وإذا مـاتم العثور على أي واحد يعمل بشكل معاكس ينبغي اعتقاله وايداعه السجن، ولايجوز لأي انسان الادعـاء إلى البابا أو إلى رئيس الأساقفـة توماس، كما لايجوز النظر بأي دعوى باسميهما، أو تسلم وصاية منهما في انكلترا، وإذا مانظر أي انسـان أو قبل بأية دعـوى من هـذا القبيل، ينبغي اعتقـاله وسجنه، وإذا مــــاراعى أي أسقـف، أو راعي ديـر، أو رجل ديـن، أو علماني، واعترف بأي قرار منـع، فلسوف ينبغي نفيه من المملكـة على الفور، مع جميع أقـربائـه، ولايجوز أن يأخـذ معـه أيـاً من قطعـانه معـه، بل ينبغي الاستيـلاء على قطعانه وكل ممتلكاتـه، ووضعها في أيدينا، وجميع رجـال الدين الذين لديهم مـوارد في انكلترا، سـوف يجري إزالتهـا كليـا في كل منطقـة من مناطق انكلترا، إلاّ إذا عـادوا إلى ممتلكاتهم في انكلترا خـلال ثلاثة أشهر، وذلك إذا رغبـوا في الحفاظ على هذه الممتلكات، ولكن إذا لم يعـودوا إلى انكلترا مطلقـا، فإنه سـوف يجري انتـزاع مـواردهم من أيديهم، هذا ويتوجب مثـول أسقفي لندن ونوروك أمام رجـال عدالتنا، لفعل ماهو صحيح، لأنهما تصرفا بشكل مضاد لقوانين المملكة، وأصدرا قرار منع كنسي ضـد الايرل هيوج، كما أصـدرا قرار حرمـان من شركة المؤمنين ضـد هذا الإيرل نفسـه، وواظبـوا على جبـايـة بنس بطرس والاحتفاظ به، حتى تعلموا من جلالتنا الملكية قرارها حول ذلك».

وأمـر الملك أيضـاً بمصادرة ممتلكات كنيسـة كـانتربري مع ممتلكات رئيس الأساقفة وكهنته، وبنفي جميع أقربائه— وهو عمل لم يسمع بمثله في جميع التـاريخ الماضي— بصرف النظـر عن الأوضـاع، أو الجنس، أو العمر، وبدون المبالاة بأن الكنيسة الكـاثوليكية قد اعتادت أن تصلي من

أجل الهراطقـة، والمنشقين، وغير المؤمنين، واليهود، فقـد منع الملك الآن كل انسان من الصلاة من أجل رئيس الأساقفة.

حول الإفادات التي عملها توماس رئيس الأساقفة المبارك أمام مولانا البابا

وعندما وجـد توماس المبارك، وهـو يعاني من كل هذه الأضرار، أنه حـرم من صلوات أسـاقفتـه المساعـدين، انطلق يؤم البـلاط الرومـاني، وهناك عمل الخطاب التالي أمام مولانا البابا:

« إلى حضرتك أيها الأب المقـدس، قد طرت أنـا طالبا اللجـوء، وأنا أنتحب لأن الكنيسة مع امتيازاتها قـد دمرت حسب إرادة الأمراء، ومن أجل هذه القضية، اعتقـدت أنه صحيح أن أمنع نفسي من الاقتراب من الشر، ولقد استـدعيت كرجل علماني إلى أمام الملـك للاجابة على بعض الأمور الإدارية، التي كنت عنها مسؤولاً عندما كنت مستشاراً، علماً أنه في الوقت الذي رقيت فيه، صدر الاعلان بأنني كأسقف منتخب متحرر من جميع الواجبـات المدنيـة، وجـاء ذلـك من قبل الابن الأكبر للملك، ومن قبل قاضي المملكة، وأنا الآن مهجـور في المنطقة التي تطلعت إليها للمساعـدة، لأنني علمت بأن إخواني الأساقفة قـد أرسلوا إلى المحكمة، وهم مستعدون لاصـدار قرار ضـدي، وهكذا وأنا مسحوق تقـريباً من قبل حشـد أعـدائي، لقـد فـررت إلى حضرتك، التي هي الملاز الأخير للمظلومين، ففي ظل حمايتك يمكنني أن أبرهن أنه لاتجوز محاكمتي من قبل أولئك الحكام، كما أنه لاتنطبق عليّ أحكامهم، لأن ذلك ماذا يمكن أن يكون سـوى سلب الكنيسـة من حقهـا؟ إن معنى ذلك هو اخضـاع السلطة الروحيـة إلى السلطة الدنيوية، وإنه مـاأن تجري الموافقة على هذه السـابقـة، حتى سيتم تطبيقهـا بشكل عام، ويقـول الأسـاقفـة بأن هذه الأشياء هي التي لقيصر وينبغي تسليمها لقيصر، وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي بالحقيقـة إطاعـة الملك في أشيـاء كثيرة، لكن إذا جـرى ذلك

سيتوقـف عن كونه ملكاً، ولن يعمله ذلك قيصراً، بل طاغيـة، وهنا إن الذين سـوف يقـاومـونه، سيفعلون ذلك لصـالحهم وليس لصـالحي، وماالذي كانه سبب هذه العداوة الكبيرة، ثم أوليس القضاء عليّ، سوف يكون قضـاء عليهم أيضـاً؟ ففي الوقت الذي أهملـوا فيـه واجبـاتهم الروحية مـن أجل واجباتهم الدنيـوية، لقد أخفقوا وسقطـوا معا، وبناء عليـه انظر بتمعن، أيها الأب المقـدس، بمسألة نفيي وأحـوال تعـذيبي، وتذكـر أنني كنت من قبـل في مـوضع الفخـار، وأنني منه طردت ظلماً، وفي سبيلك، طبّق عقـــوباتك الحادة، واضغـط على الذين سببـــوا هذا العذاب وأثـاروه، لكن لاتلق بالقضية أمـام باب الملك، لأنه هو الوكيل والأداة، إن لم أقل هو الفاعل لكل هذه المؤامرات.

كيف ألغى البابا الحكم الذي أصدره الأساقفة ضد رئيس الأساقفة

وبعـدمـا استمع البـابا إلى هـذه الافـادات، اجتمع— كما قيل— مع كرادلته للتشاور، وبعـد ذلك بعث بالرد التالي على رئيس الأساقفة:« إن الأدنى لايمكنه أن يحكـم على سيـده الأعلى، وخـاصـة على الذي هو متوجب عليـه تقديم الطاعـة له، بحكم كونه أسقفـه، وكل من القانون اللاهوتي والقانون البشري واضح تماما بهذا الشأن، وكذلك أوامر الآباء المقـــدسين، والآن، نحن الذين واجبنـا هو تصحيح الذي فعـل بشكل ضار، نعلن أن القرار الذي أصدره الأساقفة والبارونات بمصادرة جميع ممتلكاتك، هو ليس فقط مضـاداً للعدالـة، بل لجميع القوانين اللاهوتيـة أيضـاً، على أســاس أنه ليس لديك مقتنيـات، غير التـي صـودرت من الكنيسة، ولذلك قررنا بأن مثل ذلـك القرار هو ملغى ولاشأن له، وقد قمنا هنا بمـوجب سلطاتنا الرسوليـة بإلغائه، ونعلن أنه لـن يمتلك قوة من الآن فصـاعـداً، ولن يشكل سـابقـة قـانونيـة فيها بعـد بالنسبـة لك ولخلفـائك، أو بالنسبـة للكنيســة التي هي مودعـة بعهـدتك، وبالنسبـة

للبقيـة، إذا كـان أولئك الذين قامـوا بالعـدوان أو تسببـوا بأذى لك أو لكهنتك في الممتلكات أو في الحاجيـات، العائـدة لكنيستك عندمـا تحقق الاجراءات القـانونية في استرداد الذي أخـذوه، أو تقديم ترضيـة مقابلة للأشياء نفسها، عليك عدم التردد في ممارسـة عدالتك اللاهوتية في أول فرصـة مناسبة، وكل ماتراه مناسباً بشكل منطقي لفعله في ذلك الشأن، نحن سـوف نرى ذلك جيـداً وسـاري المفعول، أمـا بالنسبـة لشخصيـة الملك، فإننـا لانعطيك سلطة محددة عليهـا، علما بأننا لانلغـي سلطاتك الأسقفيـة التي تسلمتهـا لدى سيـامتك، بـل على العكس إننا نرغب في الحفاظ عاليها بشكل كامل وسليم»، وانسحب بعد هذا رئيس الأساقفة للعيش في دير بونتني Pontigny.

زواج ماتيلدا ابنة الملك من دوق سكسوني

عام ١١٦٥م، فيه قدم رينالد رئيس أساقفة كولون، الذي كان قد أيد انشقـاق أوكتافيـان ضد البـابا الاسكندر، إلى الملك هنري في وستمنستر لمرافقـة عـودة مـاتيلدا الابنة الكبرى للملك، لتكون زوجـة لهنرى دوق سكسـوني، واستقبله النبـلاء الانكليـز بشكـل فخم، لكن روبرت ايرل ليستر— القـاضي الملكي— رفض تحيتـه بقبلـه، لأنه لم يحلل قط منذ أن جرى حـرمانه كنسيا من قبل البـابا الاسكندر، ولذلك فإن جميع المذابح التي عمل عليها المنشق قداسات جرى هـدمها، وفي العام نفسه ولدت الملكة اليـانور للملك هنري ابنـة أعطيت اسم جـوانا، وجـرت سيـامـة غيوفري، أسقف القديس آساف بالميرون والزيت في كنيسة أول الشهداء الانكليـز، القديس ألبـان، وكـان ذلك عند المذبح العالي، في يوم عشـاء ربنا، وذلك بفضل امتيازات الدير، وبحضور راعي الدير روبرت.

وفي العام نفسه، ألقى نور الدين، الذي كان أميراً تركياً قويا، الحصار على قلعـة حـران، في منطقـة أنطاكيـة، ولدى السماع بذلـك من قبل بوهيمـوند أمير أنطـاكيـة، وريمـوند كـونـت طرابلس، وسلمان أسقف

كليكية، وطوروس أمير أرمينيــة(الصغـرى)، قـامـوا بـرفع الحصـار، وأرغمـوا نور الدين على رفع الحصار، وقـاموا من دون حـذر، وبطيش بمطاردته إلى مسـافـة بعيـدة، لكن نور الدين تمكن من إعــادة تجميع رجاله، واستدار لمواجهة مطارديه، فـاستطاع أسر النبلاء المتقدم ذكرهم، وألقـاهم في السجن في حلب، وتـولى بعـد ذلك معـاودة حصـار البلدة والتضييق عليها، فاستسلمت بدون صعوبة مرغمة على فعل ذلك.

كيف حرم كنسيا القديس توماس الذين اعترفوا بعادات انكلترا

عـام ١١٦٦م، فيـه عبر الملك هنري إلى نورمـاندي، في بداية الصـوم الكبير، وعندمـا سمع رئيس أساقفـة كانتربري بذلك، غـادر بونتني إلى فيـزلي، وقـام في يوم الصعـود، بحضـور الناس الذيـن اجتمعـوا هناك للاحتفال بالعيـد، من كل من السكان المحليين والغربـاء، بارتقاء المنبر، وتولى الحرمـان كنسيـاً مع شمـوع مضـاءة، جميع العـادات الموروثة لانكلترا، مع جميع المعترفين بها، والمدافعين عنهـا، والمحـرضين عليهـا بشكل عـام، وخص بالتسميـة رتشـارد دي لوسي، ورتشـارد رئيس شمامسة بواتيه، وجوسلين بوليل Baliol ، وألان دي نيفل Neville ، وآخريـن كثر، ولكن بما أن جميع هؤلاء قـد حرمـوا كنسياً غيابيـا، ومن دون استدعـائهم، والتبين أنهم مجرمين، فقد استأنفـوا إلى البابا، وأخبروا بذلك رئيس الأساقفة نفسه، ولم يتمنعوا عن الدخول إلى الكنيسة، وبعد مدة قصيرة، جـرى إرسال وليم أوف بـافيا Pavia، وجون أوف نابل Naples، كمندوبين رفيعي المستـوى a latere للحبر الأعظم، وقـد استدعيـا الملك هنري، ورئيس الأساقفة لمقـابلتهما في مونتميريل Mont-mirail ، وشعـر رئيس الأساقفـة أنهما يميلان إلى ترجيح وجهـة نظر الملـك، ومـع ذلـك خضـع لحكمهما على شرط، أن يتملـك مجدداً هـو وكهنتـه— تماشيـاً مع قـوانين الكنيسـة— جميع الممتلكات التي أخـذت منهم، ولكن بما أن المنـدوبين لم يكونا راغبين بالموافقـة على هذا، وغير

قادرين، عادا إلى بلاطهما من دون نجاح، وكانا على كل حال، قد قاما أولاً بتحليل الذين تولى رئيس الأساقفة حرمانهم كنسياً، وجرى تحليل آلان دي نيفيل من قبل غيلبرت أسقف لندن، على شرط— أكده بقسمه— أنه وهو على طريقه إلى القدس، سوف يمر بالبابا، وسيلتزم بقراره.

وقدم في الوقت نفسه لويس ملك فرنسا إلى بونتلي، ولكي ينقذ طائفة رهبان السسترشيان من ضغوط ومؤثرات غضب الملك هنري، لأنهم آووا رئيس الأساقفة توماس لديهم لمدة عامين، أخذ رئيس الأساقفة معه إلى سين وحافظ عليه هناك لمدة أربعة أعوام، في دير القديس كولومبا Columba ، وجرى في الوقت نفسه فرض ضريبة أربعة بنسات على كل هايد في جميع أرجاء انكلترا، بهدف ارسال المساعدة إلى الأرض المقدسة، وجرى جرّ بعض الوعاظ بعقائد مزيفة في أكسفورد إلى أمام القضاة، بحضور الملك والأساقفة، وجرت إدانتهم بالابتعاد عن الايمان الكاثوليكي، وجرى أولاً رسم علامات على وجوههم ليتمكن الناس جميعاً من معرفتهم، ثم نفيوا من المملكة، وولدت في السنة نفسها اليانور، ملكة انكلترا، ولداً منح اسم جون، وأيضاً فارق هذه الحياة روبرت راعي الدير الثامن عشر لسانت ألبان، وكان ذلك يوم عيد الرسولين سمعان وجود Jude ، بعدما حكم الدير بكثير من الأبهة خلال أربعة عشر عاماً.

رسالة توماس رئيس الأساقفة المبارك إلى ملك انكلترا

وأمل بالوقت نفسه، توماس رئيس أساقفة كانتربري، أنه بتواضعه في نفسه، سوف يقهر الملك هنري، فكتب إليه الرسالة التالية:

« لقد اشتقت،واشتقت إلى رؤية وجهك، والتحادث معك، جزئيا— في الحقيقة— لصالحي، إنما بشكل رئيسي لصالحك ومن أجلك، ذلك

أنك إذا مارأيت وجهي، يمكنك أن تستعيد في ذهنك وتتذكر، الخدمات التي قدمتها لك بأعظم حماس، حتى يكون ضميري راضياً، وبناء عليه ليعينني الرب، في يوم الحساب الأخير، عندما سنقف أمام حسابه، لنتلقى وفقاً لما عملنا في الجسد، سواء أكان خيراً أم شراً، وأن تتولى الرأفة علي، لأنني أنا الآن مرغم على العيش على الصدقة، بين أناس غرباء البلاد، ومن أجلك لثلاثة أسباب هي: لأنك مولاي، وملكي، وولدي في الروح، وكمولاي، يتوجب عليّ أن أقدم لك مشورتي، وكملكي إنه مفترض بي أن أقدم لك الاحترام والتذكير، وكابن لي عليّ تهذيبك وتقويمك، فالملوك يجري مسحهم على الرأس، وعلى الصدر، وعلى الذراعين، وفي ذلك إشارة إلى: المجد، والقداسة، والقوة، ومعروف أن الملوك في قديم العصور، الذين لم يراعوا وصايا وأوامر الرب، بل أذنبوا ضد أوامره، قد حرموا من كل من المجد، والقداسة، والقوة، وخذ مثالاً على ذلك شاؤول، وسليمان، لكن الذين بعدما اقترفوا الذنوب، وتواضعوا بأنفسهم أمام الرب، كان أن حظيوا بنعمة الرب، مثلما حدث لداوود، ولحزقيا، ولآخرين كثر، وهنا إذا كنت ترغب يامولاي بنصيحة تابعك، وبتهذيب أسقفك، وبرعاية والدك، تمنع عن أن تكون لك صداقة في المستقبل مع المنشقين،ولاتعقد أية اتفاقات معهم، وتذكر الوعد الذي قطعته، ووضعته كتابة على المذبح في وستمنستر، في أن تحفظ حريات الكنائس وكنت قد فعلت ذلك عندما كرست ومسحت لأن تكون ملكاً، أعد كنسية كانتربري، التي منها تلقيت ترقيتك وتكريسك، إلى الوضع الذي كانت عليه في أيام سلفنا، لكن إذا لم تفعل هذه الأشياء كن متأكداً أنك سوف تشعر بقساوة انتقام الرب».

كيف ارتيب بتوماس المبارك من قبل الأساقفة

وكان في العام نفسه قد سمع مساعدو الأساقفة لكنيسة كانتربري،

بأن القديس توماس، ورئيس أساقفة كانتربري قد حرم كنسيا المؤيدين للعادات السيئة لانكلترا والمدافعين عنها، وقد شمل الحرمان بشكل عام كل من أسمائهم مع الملك، وخشية منهم من أن يعيد القرار ضد كل واحد منهم بالاسم، لجأوا إلى الاستئناف مع أن ذلك مضاد للأشكال الاعتيادية للعدالة:

« إلى أبيهم المبجل ومولاهم توماس، رئيس أساقفة كانتربري، من الأساقفة المساعدين للكنيسة نفسها، ومن الأشخاص الآخرين الذين يعيشون في الأسقفية نفسها، خضوع تام، وطاعة: لقد أخبرنا من قبل بعض الأشخاص، أمراً ننزعج لدى استعراضه في ذاكرتنا، وهو أنك أرسلت تهديداً إلى مولانا الملك، حيث حذفت من رسالتك التحية المعتادة، وكل ماجاء فيها من تفكير ومن طعْم للعبارات هو بعيد عن مشاعر الصداقة، فلقد وضعته موضع التهديد بالمنع، وباقتراح اصدار قرار حاد ضده يقضي بقطعه عن الكنيسة، والآن، إنه إذا ماجرى التفوه بهذا القرار بالقسوة التي جرى التهديد بها، نحن نعتقد، ولانتوقع أن الاضطراب الحالي، من الممكن تهدئته، لابل إنه سوف يتفجر لهيباً لخلاف مستمر، ولقد رسخ بمشاعر بعضنا وعقولهم أنه ماأن يظهر الملك نحوك حظوة كبيرة، ومحبة من روحه كلها، وبذلك يضع كل شيء بالكامل تحت سلطتك، فإن ذلك سيكون لمصلحة أناس برأي الدنيا، ينظرون إليك باحترام، وعندما يود هو تفويتك تقلبات الحظوظ الدنيوية، ويبذل جهده لوضعك بشكل ثابت في كنيسة الرب، نأمل بأنه سيتمكن في المستقبل من الحكم بسعادة وأمان، وأن يحظى بمنافع نصائحك الجيدة، ولذلك إنك ربما لن تكون بحاجة للسعي لمدّ يدك على مولانا الملك، وعلى مملكته، وأيضاً على الكنائس والأسقفيات المعهود إلينا بادارتها، ولقد لجأنا إلى الاستئناف، في وجه الكنيسة وضد الأخطاء التي نخشاها، ونجدد نحن الآن استئنافنا إلى البابا، رافعين

التماسنا واستئنافنا في يوم صعود ربنا».

رسالة رئيس الأساقفة توماس المبارك إلى أساقفته المساعدين

« وصلت رسـالتكم الجماعيـة للتـو إلينا، لكن لاأستطيع بسهـولة أن أصـدق أنها صـدرت عن حكمتكم الجماعيـة، وقـد مـلأتني بالدهشـة، وتبدو محتوياتها أنها تحمل مشاعر عـدوانية أكثر من المصالحة، وودت لو أنها أمليت بغيرة تقـوية ومشـاعـر رعـايـة وليس باقتراحـات الرغبـات المرادة، وشيء واحـد يمكنني أن أقوله لكم، إذا مـاتمكنت من قـوله من دون أن أسيء إليكم: لقـــد لازمت الصمت طويـلاً، منتظراً أن يحدث فيلهمكم الرب، بأن تستردوا شجـاعتكم ثانيـة، بعدمـا وليتم هاربين في يوم المعركـة، وأن يحاول ولو واحد منكم فينطلق ضد العـدو، ويعرض نفسه كسور أمام بيت الرب، ضـد أولئك الذين لم يتوقفوا يوميا عن ذم جيش الرب، لكن لايوجـد ولاواحـد سوف ينطلق، وبناء عليـه، الرب سـوف يقضي بيني وبينكم، ولسـوف يحاسبكم على اضطراب الكنيسـة، التي سواء أشـاءت الدنيا أم لم تشأ، ينبغي أن تقف ثابتـة بكلمة الرب، عندما تحين الساعـة، وعندما ستنتقل من هذا العالم إلى الرب، هل نسيتم كيف أنني وكنيسة الرب قد جرت معاملتنا في نورثأمبتون عندما حوكم المسيح للمرة الثانية، ممثلاً بشخصي، من قبل محكمة من الأمراء، وعندما أكره أسقف كـانتربري، بسبب الإيذاء الذي تعرض له مـن كل جانب، وتعـــرضت لـه كنيســـة الرب، إلى التماس السماع له من قبـل الكرسي الرومـاني؟ ومن الـذي رأى أو سمع برئيس أسـاقفـة لكـانتربري، قـد حوكم، وأدين بتقديم كفالة في المحكمةالملكية، وذلك بشكل خاص من قبل أسـاقفتـه المسـاعـدين؟ وإذا كـان— كما أخبرتموني— كل شيء قـد اضطرب لدى مغـــادرتي للمملكة، دعـــو الذي تسبب بذلـك يتحمل الملامة بشأن ذلك، لأن الخطيئة— بدون شك— جـاثية عند باب الذي عمل عملاً ليس من شأنه، والذي انسحب من مواجهة مؤثراته، والذي

تصرف بشكل عـدواني، وليس الذي تجنب الأذى، فبينما كنا في البـلاط ننتظر الاتهام الذي سـوف يقدم ضـدنا، صدر الأمـر إلى موظفينا بعـدم طاعتنا بشكل مطلق في المسـائل الدنيـوية، بل على العكس إطاعة أوامـر الملك، وأمروا بعدم تقديم أية خدمات لنا في حال من الأحوال، وجرى حـرمـان ومصادرة كهنتنـا وعلمانيينا، رجالاً ونسـاء، وأمهـاتاً وأطفـالاً رضع، وحاجيـاتنا، وميراث الذي صلب، قـد أضيفت إلى الخازن: جزء للاستخـدام من قبل الملك، وجـزء لـلاستخـدام من قبل أسقف لندن، وقـد استأنفتم— كما أخبرتموني— إلى البـابا، لكن لايمكنكم ايقـاف سلطاتي بهذا الاستئناف، ولامنعي من اتخاذ اجـراءات ضـدكم، أو ضـد كنائسكم، إذا كـان حجـم عـدوانكم يتطلب ذلك، لأننـا نعلم أن كل واحـد يقدم التماس استئناف، يفعل ذلك باسمـه، أو باسم واحد آخـر، فإذا كـان باسمـه، فـلابـد أن ذلك من خطأ اقترف بحقـه، أو يخشى أن يقترف بحقـه، ونحن الآن متأكـدون— بنعمـة الرب— أن مـامن خطأ لحق بكم من قبلنا، يسوغ لكم تقـديم التماس الاستئناف، وبناء عليه إذا كنتم قد استأنفتم خشية الخطأ، أو خـوفاً من أن أتخذ أي خطوة نحوكم أو نحـو كنـائسكم، فإن هذا ليـس استئنافـا يمكنـه تعطيل سلطتي أو سلطاني الذي أتمتع به عليكـم وعلى كنائسكـم، وإذا كـان استئنافكم قـد جـاء باسـم الملك، فـإن ادراككم ينبغـي أن يعلمكم أن التماسـات الاستئناف قـد عملت لمساعـدة انسـان على نفي الأذى، وليس من أجل الايذاء، وللتفـريـج عن المظلوم، وليس لزيادة الظلم، وإذا كـان الرجل الذي قـد قمع حـرية الكنيسة، والذي غـزاها واستـولى على ممتلكاتها، لم يستمع إلى التماس استئنافـه، يكون أدنى منه بكثير الذيـن يتقـدمـون بالتماسـات استئناف إليـه، ونحن لانقـول هذا، لأننا فعلنا، أو ننوي أن نفعل أي شيء متطرف، يمكن أن يـؤثر على مـولانـا الملك، أو على مملكتـه، أو على أشخـاصكم، أو على كنائسكم، وكنا نعتقـد أننا أكثـر عرضة للنقد لطول معاناتنا، لامن أجل قسوتنا أو حدتنا، وبناء عليه إننا

نخبركم باختصـار وبشكل حـاسم، بـأن مـولانـا الملك، لايمتلك أي مسـوغ للشكوى، وإذا كـانت أعمال التـذكير التـي تسلمهـا من كلٍ من البابا ومنا أنفسنا، بدون تأثير، فلابد وقتهـا للملامة اللاهوتية أخيراً، أن تأخذ سبيلها ضده».

وفي الرسـالة نفسهـا، أمـر رئيـس الأسـاقفـة غيلبرت، أسقف لندن، بحكم طاعته، أن يقوم خلال أربعين يوماً بعد استلام الرسالة بإعادة— من دون تأخير، أو تعليل— كل الذي جرى تحويله للاستخدام من قبل كنيستـه، من المصـالح العائـدة للكنيسـة مع الممتلكات الكنسيـة للكهنة الذين نفيـوا من المملكة مع رئيس الأسـاقفـة، وهي الممتلكات، التي وضعت بموجب أمر الملك تحت عهـدة الأسقف المذكور، وعندما تلقى الأسقف هذه الأوامر، كتب إلى ملك انكلترا، بما يلي:

« لقـد كان جـلالتكم قد تفضل بالأمـر بوضع الكنائس العائـدة إلى كهنة رئيس الأساقفة، والموجودة في أسقفيتي لندن وكنت، تحت عهدتنا، والرب يعـرف، أن عمل المعـروف هـو الذي دفعنا للقيـام بهذا الحمل، حتى إذا مـــاتمكن الكهنة أنفسهـم من استرداد حظـوتكم، مـن تسلم كنائسهم ثانية دون أن يلحقها ضرر، لكن رئيس الأساقفة المتخفي، كان ينتظر فـرصته ضـدي دون سواي، وسعى لأن يحول ضـدي ولضرري، التصرف الذي أملت أن يكون مفيـداً للآخـرين، ففي رسـالـة جـرى تسلمهـا للتـو، قد أمـرني، بحكم طاعتي، بـأن أعيد إليـه شخصيـاً وإلى كهنتـه كل مـاانتـزع منه ومنهم، ولذلك أتمنى على جـلالتكم أن تسندوا العناية بهذه الكنائس إلى شخـص آخـر، حسبما تراه مناسبـاً، ومبلغ المال الذي تسلمته منهم، وهو مائة باوند وثمانية باوندات، وأربعة عشر شلناً، وستـة بنسـات، يمكن أن أسلمها إلى عهـدة انسـان أو آخـر، حتى يبين المولى الطريقة التي يمكن بها إنهاء هذه المسائل».

رسالة البابا الاسكندر إلى رئيس الأساقفة توماس

في عام ١١٦٧م، كتب البابا الاسكندر، إلى رئيس الأساقفة توماس كما يلي:« احتذاء بمثل سلفينيا: باسكال، ويوجينيوس، صاحبا الذكرى المباركة، نحن نعطي إليك، وإلى خلفائك، رئاسة كنيسة كانتربري، كاملة كما كانت متملكة من قبل لانفرانك Lanfranc، وأنسلم، وأسلافهما وبالنسبة لجميع المناصب والامتيازات المعروف أنها عائدة إلى الكنيسة، نحن نقوم بتأكيدها بالرسالة الحالية، مثلما تمتع أسلافك بها، وذلك بموجب سلطات الكرسي الرسولي، منذ أيام القديس أوغسطين».

وفي العام نفسه انتقل إلى الرب، روبرت أسقف لنكولن، وكان رجلاً عظيم التواضع، وكان ذلك في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني، وجرى أيضاً اختيار سيمون رئيس رهبان سانت ألبان لأن يكون راعي تلك الكنيسة، من قبل غيلبرت أسقف لندن، وبمهابة جرى تكريسه أمام المذبح العالي في الدير.

ونشب في ذلك الوقت خصام بين ملكي فرنسا وانكلترا، كانت نتيجته أن شمومنت Chaumont على مقربة من غيزور Gizors، قد أحرقت من قبل النورمان، وجرى أسر عدد كبير من الفرسان ومن السكان، ولكي ينتقم من هذه الفعلة أحرق ملك فرنسا قرية أندلي An-delis ، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، وقد فقد أكثر من ألف رجل أثناء زحفه، وبعد أمد قصير، جرى أسر كثير من الفرسان الفرنسيين في منطقة بيرشي Perche، من قبل النورمان.

رسالة الملك هنري إلى رينالد رئيس أساقفة كولون

عام ١١٦٨م، فيه غضب الملك هنري ضد البابا الاسكندر، لمنحه رئاسة انكلترا إلى رئيس أساقفة كانتربري، فقام بإرسال الرسالة التالية إلى رينالد رئيس الأساقفة المنشق في كولون، وكان عدواً للاسكندر:«

لقد رغبت منذ زمن طويـل، في أن أجد سبباً مسـوغاً لسحب نفسي من البـابا الاسكندر ومن كـرادلتـه الخونة، لأنهم يقومـون برعـاية رعـاياي العصـاة ضدي، وأعنـي بذلك تومـاس رئيس أساقفـة كـانتربري، وبناء عليه، إنني— بناء على موافقة باروناتي وكهنتي— على نية إرسال سفارة إلى رومـا مكونة مـن الشخصيـات البـارزة في مملكتي وهم التـاليـة أسماؤهم: رئيس أسـاقفة يورك، وأسقـف لندن، ورئيس شمامسة بواتيـه رتشارد دي لوسي، وجون أوف أكسفورد، ليعلنوا بوضوح وبشكل عام إلى البابا الاسكندر، وإلى كرادلته، نيابة عني وعن رعيتي في جميع أرجاء ممالكي، بأن عليهم بعـد الآن عدم التمسك بقضيـة ذلك الخائن، بل أن يحرروني منه، وذلـك حتى أتمكن، بمـوافقـة كهنتي مـن تعيين رئيس أساقفة آخر لكرسي كـانتربري، وأن عليهم القيام على الفور بإلغاء جميع قـرارات تومـاس المذكـور، وهـم أيضـاً سـوف يطلبـون أن يقسم البـابا بشكل علني عن نفسه وعن خلفـائه، القيـام بالاعتراف بجميع العادات الملكيـة لجدي الملك هنري الأول، بشكل كامل وبدون خـرق إلى الأبد، لكن إذا رفضـوا تقـديم الموافقـة على أي من مطالبي، لن أقـوم لاأنا ولاباروناتي ولاكهنتي بـالاستمـرار بطاعتهم، بل سنأخـذ بشكل معلن مـوقفاً ضـد البابا نفسـه وضد كـرادلته، ولسـوف أطرد من المملكة كل واحـد، سـوف يؤيد من ذلك الوقت مـوقفـه، وبناء عليـه أطلب منك، كصـديـق عـزيز لنا، أن تـرسل على الفـور إلينا، وبـدون تأخير الراهب أرنولد الاسبتـاري، ممثـلاً لك شخصيـاً وللامبراطور، ليتـولى مـرافقـة السفـراء خـلال ممتلكات الامبراطور، ووداعـاً،» ولقـد روي من قبل بعض الكهنة كتّـاب الملك، بـأن غيلبرت أسقف لندن، قـد أملى هذه الرسـالة، بناء على طلب الملك، ليـدمـر قضيـة البـابا، ورئيس أسـاقفـة كـانتربري، والكنيسـة الانكليـزية بمجملهـا، ولذلك حـدث في إحـدى الليالي، أنه عندمـا كان غيلبرت متمـدداً في فراشـه وهو مستيقظ، وكان يفكر، مـن دون تقـديـر، كيـف يمكنه أن يسبـب الأذى والاضطراب

لرئيس الأساقفة، بوساطة هذه الرسالة المثيرة للاضطراب، سمع صوتاً مرعباً يقول له بصوت مرتفع وبعبارات واضحة:

ياغلبرت فوليوت Foliot

وأنت تفكر حول مثل هذه الأشياء الكثيرة

إن ربك هي عشتروت

رسالة البابا الاسكندر إلى غيلبرت أسقف لندن

وفي حوالي الوقت نفسه، كتب البابا الاسكندر، إلى غيلبرت، أسقف لندن حول قضايا كنيسة كانتربري كما يلي:« لانعتقد أنه زال من ذاكرتك، كيف قام ولدنا المحبوب في المسيح، هنري ملك انكلترا اللامع، فطلب منا بشكل رسمي مع كثير من الإلحاح، في أن نسمح لك بالانتقال من كرسي هيرفورد، الذي كنت تترأسه آنذاك إلى كرسي لندن، ولكي يقنعنا بالموافقة على طلبه، ألح كثيراً على الحاجة الملحة لذلك وعلى الفائدة من مثل هذا الاجراء، على أساس أن لندن كانت هي مقرة الملكي، ولأنه عدّك متفوقاً على سواك في التقوى والاستقامة، ولذلك أراد أن يستفيد من نصيحتك، في كل من المجال الروحي والدنيوي، وذلك فيما يتعلق بخلاص الأرواح وتحسين سلطته والحفاظ عليها، ولهذه الأسباب أرادك أن تكون على مقربة منه، ولذلك قدرنا كم ستكون المنفعة من تقواك وحكمتك لخلاص الملك ومملكته، والفوائد التي يمكن أن تنجم عن ذلك، فقدرنا تماما رغباته، ووافقنا على وجوب انتقالك إلى كرسي لندن، وبناء عليه جاءت موافقتنا بالاستجابة لطلبه، وكان ذلك ترقية لمقامك، ولكي يكون نشاطك المفرح في سبيل تحسين الكنيسة والحفاظ عليها، والعمل بمزيد من الاخلاص، حتى يمكننا أن نلاحظ الخير المتوقع وقد أخذ يتدفق من النوايا الملكية، ونعتقد الآن، أنك لايمكن أن تكون جاهلاً، إلى أي مدى ابتعد الملك عن انصرافه

التقوي نحو الكنيسة، وفي مجالات كثيرة، منها مثلاً في الالتماسات، وفي الزيارات، وفي الاتصالات مع الذين كان قد جرى حرمانهم بالاسم، ومع المنشقين، ولقيامه بإرغام أخانا المبجل، توماس رئيس أساقفة كانتربري، على مغادرة مملكته، وبذلك بدا، وكأنه بالفعل يعذب الكنيسة ويظلمها، وبناء عليه نحن نسألك بسبب حرصك على مصالحها، ونحثك في الوقت نفسه ونأمرك فيما يتعلق بأخينا المحترم روبرت أسقف هيرفورد، لحث الملك باخلاص ونصيحته في أن يتخلى عن مقاصده في جميع المجالات العدوانية، وأن يقدم ترضية صحيحة وتكفيراً عن ذلك، وأن يعود في قلبه إلى محبة خالقه، وأن ينظر بعين احترامه المعتادة إلى الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمه، وأن لايعيق الذين يودون زيارتها، وأن لايمنع الذين يودون تقديم الالتماسات إليها من فعل ذلك، وأن يعيد استدعاء أخانا المتقدم ذكره أي توماس رئيس أساقفة كانتربري، إلى كرسيه، وأن يظهر نفسه ابنا مخلصاً للقديس بطرس، ولنا أنفسنا، وأن ينصرف إلى أعمال الرحمة والشفقة، حتى يقوم الذي من خلاله يحكم الملوك، بحفظ مملكته الدنيوية له، مادام هو على الأرض، وأن يمنحه مملكة دائمة فيما بعد في السماء، ومالم يبادر مسرعاً بتقويم هذه الأخطاء، عليه أن يخشى من أن يكون الرب غاضباً غضباً شديداً، من أجل ذلك كله، وأن ينتقم منه انتقاماً حاداً، مادمنا نحن أنفسنا بتنا غير قادرين أن نكون صابرين أكثر، كما أننا لانحث على هذا بسبب دوافع تتعلق بنا أنفسنا، بقدر ماالأمر متعلق به، لأننا نرغب في علو مجده، ورفعة مقامه من قلبنا وروحنا».

الرد المفترض لغيلبرت أسقف لندن على البابا الاسكندر

« تم تلقي أوامرك الشرعية، ياأبانا الأعز في المسيح، مع كل الاحترام المستحق، وقمنا على الفور بالمثول شخصياً أمام ابننا العزيز، الملك اللامع لانكلترا، وفيما يتعلق بأخينا المبجل روبرت أسقف هيرفورد

حثثناه بإلحاح ووفقاً لما جاء من أوامر في رسـالتك، وعرضنا أمامه جميع الخصوصيات في رسالتك، والتمسنا منه وتنـاقشنا معه، حول ماهو لائق بالجلالة الملكية، من أنه إذا ماابتعد في أي مجال عن الطريق القويم، عليه أن لايتأخـر— بناء على تشجيعنا— على العـودة إليه، وأن يتبع نصـائح أبينا، بالابتعـاد عن الأعمال الشريرة، وأن يحب الرب من كل قلبـه، وأن ينظر باحترامه المعتـاد إلى الكنيسة الرومـانية، وأن لايمنع الذين يودون زيارتها، وأن لايحول دون رفع الالتماسات القضائيـة إليها، وأن يعيد إلى أبينا السيـد رئيس أساقفـة كانتربري كـرسيه، وأن يظهـر نفسه ابنا تقيـاً وثابتاً للقـديس بطرس، وأن يصرف اهتمامه كلـه إلى أعمال التقوى، وأن يتوقـف عن الإضرار بالكنائس وبرجال الدين، أو أن يعـرضهم للأذى من قبل الآخرين، حتى يقوم الذي من خلاله يحكم الملوك بحفظ مملكته الدنيوية له، مـادام باقياً على الأرض، وأن يمنحه بعد ذلك سيـادة دائمة في السماء، وإذا لم يصغ إلى هذه الآراء السليمـة، فقـداستك التي تحملت حتى الآن التعـامل بصبر، لن تقوم بعـد الآن بالمعـاناة أكثر، وقـد تلقى الملك تشجيعنا مع كثير من الشكر، وأجابنا بلطف حول كل جزء منها، وقد أكد في المقام الأول أنه لم يبتعد بعقله عنكم، وأنه لم ينو نوايا أخرى مطلقاً، شريطة أن تبـدي نحوه رعـاية أبوية من أجل مصـالحه، أكثر من أن تحبه كأب له، من أجل تأييد ورعاية الكنيسـة الرومانية المقدسة، وأن يطيع أوامرك، باستثناء مايعرض كرامته وكرامة مملكته للضرر، وإذا كان لم ينظر إليكم بالاحترام المعتاد، فهو يقول بأن سبب ذلك هو مايلي: فهو قد حـافظ على احترام حاجـاتك وقضيتك بالعناية من كل قلبـه، ونفسه وروحه، وقوته، أما أنتم فلم تبـادلوه الشيء نفسه في وقت الحاجة، لابل إنه تشكى أنه في كل شيء تقـريبـاً قـد طلبـه منكـم، ووجـه من قبلكم بالرفض، وصدوراً عن الثقة بمحبة الأب، الذي سوف يصغي دوماً إلى التماسـات وتضرعـات ابنه، وأمـلاً في عطايا لطيفـة من اهتمامك، هو سيبقى ثابتاً ومستمراً في تقديره للقديس بطرس ولك، وسوف لن يمنع

أي انسان من زيارتك، ثم إنه لم يمنع أحداً من زيارتك في الماضي، وأما بالنسبة لالتماسات الاستئناف، فإنه يدعي بأن هذا امتياز خاص به، وهو واجبه، بموجب العادات القديمة لبلاده، حتى لايقوم أي رجل دين من مملكته بمغادرة المملكة من أجل دعوى مدنية حتى يحاول الحصول على العدالة في إطار سلطات الملك الخاصة ورعايته، لكن إذا توفر أي اخفاق في العدالة في هذا المجال، فوقتها يمكن الاستئناف إلى غبطتكم، ووقتها لن يقوم الملك بأي اعتراض على ذلك، وفي ظل هذا العنوان نفسه أيضاً، إذا كانت حقوقكم وامتيازاتكم قد تعرضت للإساءة في أي مجال من المجالات، يعد الملك بأنه سوف يتولى اصلاح ذلك بكل سرعة، بعون الرب، وبمشورة جميع رجال الدين في ممتلكاته، أما بالنسبة للامبراطور، فإنه مع أن الملك يعرف أنه منشق، هو لم يسمع قط أنكم قمتم بحرمانه كنسيا، وإذا ماأخبرتموه بأن هذا هو الحال، وكان الملك قد دخل في أية علاقات غير قانونية معه، أو مع أي شخص آخر، فإنه سوف يترك هذه النقطة أيضاً إلى قرار وقضاء الكنيسة في ممالكه، فضلاً عما تقدم أكد الملك أنه لم يرغم أبانا رئيس أساقفة كانتربري على مغادرة المملكة، ذلك أنه غادرها باختياره الشخصي، ويمكنه أن يعود إليها بحرية كما تركها، شريطة أنه في رضاه عن النقاط التي اشتكى حولها، هو سوف يعترف مخلصاً بعادات الملك الملكية، التي أقسم عليها، وإذا أمكن البرهنة على أن أي كنيسة، أو شخص لاهوتي قد أخطأوا بحقه، هو على استعداد لتقديم التعويض، وفقاً لحكم الكنيسة كلها، فهذا الجواب الذي تلقيناه من مولانا الملك، الذي كما يبدو يضع بشكل رئيسي، قضيته، على الارادة باحالة كل نقطة إلى حكم الكنيسة في ممالكه، ونتأمل من غبطتكم أن تتذكروا في أذهانكم القول: « لاتقطع قصبة مكدومة، ولاتطفىء كتانا يدخن»، وإذا كان على هذا الاعتدال يرضيك، لبعض الوقت في حدود التعقل، فإن الحماس الذي شرع بالانتقام لكل خطأ لحق بكنيسة الرب، بوساطة التهديد بإصدارك قرار

المنع، أو أخيراً بقرار الحرمـان الكنسي، وإنك بذلك سوف تلحق الضرر بعـدد لايحصى مـن الكنائس التي تهدمت، وبذلك ســوف تبعـد عنك الملك مع عــدد لايحصى من الأشخـاص معـــه، وعن ولائك، لاسمح الرب بذلك، لأن الدم الملكي يسمح لنفسه فقط بالغلبة عندما يزول من الوجـود، لكنه ليس من العار لديه التنازل لدى كسبـه للنصر، ونحن في الحقيقة عندمـا نتكلم إليك هكذا حمقى، إنما في حدود الرعـاية الحقيقية، والحظوة، لأنه إذا كان يضع نهاية لهذه القضية، في أن يفقد رئيس أساقفة كانتربري كل شيء، وأن يقنع نفسـه بالنفي، في حين تتوقف انكلترا عن الخضـــوع لسلطانك، فـإن هذا ســـوف يكون أفضل لبعض الـوقت، ومســايـرة للحـال، من أن نكون عبيـــداً لمثل هذا النوع مـن الممارسـات القاسيـة، لأنه إذا كان التعذيب لم يكن قـادراً على فصل المزيد وابعادهم عن طاعتك، لن تكون هناك حاجة إلى بعض ممن سيركعون إلى بعل، أو يقبلون من دون تقدير للدين بتلقي طيلسان كانتربري من يد الوثن، كما لن تكون هناك حـاجة إلى رجـال يشغلون كراسينا المقـدسة، ويظهـرون طاعتهم له مع جميع التقوى التي في عقولهم، وكثيرون قد تكهنوا متنبئين بمثل هذه الأشيـاء، آملين بقيام الاعتـداءات وعلوها، وبإمكانيـة تدمير الاستقـامة، ولهذا السبب، نحـن ياأبانا الأعظم قـداسة لاننتحب لســوء حظنا فقط، وإنك مالم تقـابل الشر بكل سرعة، نخشى أن تتدمـر كنيسة الرب بشكل مهين، وأن نصبح يائسين من حياتنا، وأن نلعن اليوم الذي ولدنا فيه».

وفي العام نفسه، حرم رئيس الأسـاقفة توماس كنسياً، آلان دي نيفيل لأنه وضع في السجـن قسيســه وليم، ومـــات كـــونان إيرل بـريطانيـــا الصغـــرى، وترك من خـــلال زوجتـــه كـــونستـــانس، أخـت ملك الاسكوتلنديين، ابنة ورثـت ممتلكاته، وهي التي أخـذهـا هنري زوجـة لابنة غيوفـري، وبعمله من أجل إقامـة السلام في كل مكان مـن بريتاني

قام بارضاء عقول كل من رجال الدين والناس في تلك المقاطعة.

رسالة البابا الاسكندر إلى الملك هنري فيما يتعلق بالمصالحة مع توماس المبارك

عــام ١١٦٩م، فيـه كتب البــابا الاسكندر إلى ملك انكلترا، حــول مـايتعلق بكنيسـة كـانتربري كما يلي: « غـالبـاً مـاقمنا بـوسـاطة الأبوة والمشـاعـر الطيبـة بالاتصـال بجـلالتكم، وحثثناكـم بكل من الرسـائل والرسل للمصـالحة مع أخينا المحترم توماس رئيس أسـاقفة كـانتربري، وأن تعيـد إليــه وإلى كهنتـه كنائسهم، وممتلكاتهم الأخــرى، وهو أمـر حكمتكم السـاميـة لايمكن أن تخفق في معـرفتـه، لأنه بـات معـروفـاً ومنتشراً، في كل جزء تقريبـاً من العالم المسيحي، وبناء عليه بما أننا حتى الآن لم نحـرز تقـدمـا في هـذا المجـال، كما لم نخمـد بالتصرف اللطيف الغضب في ذهنك، نحن حــزينين وآسفين لذلك، ويؤلمنا أن نجــد بأن آمـالنا قـد هزمت، وخـاصـة لأننا نحبك باخـلاص بمثـابة ابننا الأعـز بالرب، ونحن نرى خطـراً عظيماً يتهـددك، ولقـد كتب:« اصرخ عـاليـا ولاتتوقف، وارفع صوتك مثل بوق، وأعلن إلى شعبي تجاوزاته»، ولهذا قررنا عدم الاستمرار بتحمل قساوة قلبك، كما هو الأمر حتى الآن، من أجل تأمين العدالة، وكـذلك خلاصك، كما أننا لن نستمـر في إغلاق فم رئيس الأسـاقفـة بأية وسيلة من الـوسـائل، أو نمنعـه من تأدية واجبـه بحــرية، ولســوف ننتقم بالسيـف اللاهوتي الحاد، من الأخطـاء التي اقترفت بحقه شخصيا، وبحق الكنيسة الموضوعة بعهدته».

وكتب البابا أيضاً إلى سيادة[رئيس أساقفة] كانتربري بما يلي:« بما أننا حتى الآن قــد انتظرنا طويـلاً مع الصبر واللطف، لأن يتــوب ملك انكلترا، وكررنا حثه باتصالات لطيفة ومهـدئة، وأحياناً بقسوة وملامة، حتى يعـود إلى شعـوره الصحيح، نقـوم الآن بإعـلامك بأنه إذا لم يُعـد إليك ولأصحـابك، وكـذلك إلى الكنيسـة جميـع الممتلكات والمناصب

الرفيعـــة التي انتــزعت، إنـك تمتلك السلطة الكاملة بممارســـةالنظام اللاهوتي وتطبيقـه على جميع الأشخــاص والأفـراد التـابعين لسلطانك، باستثناء فقط أشخــاص الملك، وزوجتـه، وأولاده، ومن دون التماس، شريطة فعـل ذلك مع الحكمـــة والوعـي، حسبما يتماشى مع اعتـــدال الكهنة».

وفي الوقت نفســه، قــام غيلبرت أسقف لندن، حتى يتجنب قــراراً بحقه من رئيس أساقفة كانتربري، بتـوجيه الدعوة لاجتماع رجال الدين والناس من مـدينة لنـدن، في يوم الأحـد الأول من الصـوم، في كنيسـة القـديس بولص، ورفع التماس استئنـاف إلى الكرسي البـابوي، ومع أنه غـالبا مـاجرى حثـه من قبل رئيس الأسـاقفة نفسـه، لإعـادة الكنائس والمنافع إلى كهنته، وهو مـاكان قد تلقاه وعهـد به إليه من الملك، وذلك مع جميع الأمتعة والحاجيات التي أخذها منه ومنهم، مع ذلك استمر في عصيانه ولهذا كله، وللاجراءات القانونيـة، قام رئيس الأساقفة، دون أن يعلـم بالتماس استئنافـه، فحـرمــه بشكل مهيب، في كليرفـو، يوم أحـد السعف، وذلك بحكم كونه مؤيـداً للعادات الظالمة للملك، وحول هذا الموضوع تعطينا الرسالة التالية فهما كافياً.

كيف قام رئيس الأساقفة توماس بحرمان أسقف لندن كنسياً

« **من تومــاس، بنعمـة الرب، رئيس أســاقفـة كــانتربري، والنائب للكرسي البابوي، إلى غيلبرت أسقف لندن، الذي يرغب بأن يقول أخيه، لو أنه ابتعـد عن الشر وعمل الخير،** لقـد تحملنا إسرافك طويلاً، ونأمل أن لايكون صبرنا حاسماً بالنسبة للكنيسة كلها، كما هو بالنسبة لأنفسنا، فلقد أفسدت صبرنا، ولم ترغب بالاصغـاء إلى البابا أو إلينا أنفسنا بشأن النصـائح المتعلقة بخـلاصك، لكنك بعنادك صرت أسـوأ فأسـوأ، حتى قمنا صدوراً عن تقديرنا للواجب المقدس، واستجابة لمتطلبات الشريعة، ومن أجل أسباب واضحـة، باصدار قـرار بحرمـانك كنسياً، وبفصمك

عن جسد المسيح المقدس، الذي هو الكنيسة، حتى تقوم بترضية موائمة، ولذلك نحن نأمرك بحكم طاعتك، وخشية على خلاصك وعلى مقامك الأسقفي، وعلى الأنظمة الكهنوتية، أن تتمنع— كما تقضي القوانين الكنسية — عن جميع الاتصالات مع المؤمنين، خشية أنه بالاتصال بك، سوف يضل قطيع الرب ويتدمر، في حين أنه ينبغي أن يتوجه بتعليمك، وأن يقاد بمثلك إلى حياة سرمدية».

والآن مع أن الأسقف كان قد رفع التماس استئناف قبل صدور القرار ضده، تواضع وأطاع أوامر رئيس الأساقفة، وتوقف عن الدخول إلى الكنيسة، وبرسالة من رئيس الأساقفة وجهها إلى عميد لندن وإلى رجال الدين أمرهم بالتوقف نهائيا عن الاتصال بالأسقف.

وفي هذا العام أيضاً، تزوجت إليانور ابنة الملك هنري، من ألفونسو ملك كاستيل.

رسالة الملك هنري إلى غيلبرت أسقف لندن

« من هنري، ملك انكلترا، إلى محبوبه والمخلص له، غيلبرت أسقف لندن، تمنيات بالصحة ومحبة: لقد، سمعت بالاساءة التي ألحقها بك وبآخرين من رعيتي، ذلك الخائن، والعدو لي شخصياً، توماس، وأنا منزعج من ذلك إلى حد، وكأنها وقعت عليّ شخصياً، وبناء عليه ليكن بمعلومك شخصياً وبشكل مؤكد أنني سأبذل جهدي، من خلال مولانا البابا، وملك فرنسا، وجميع أصدقائي، في أن لايكون بمقدوره من الآن فصاعداً توجيه الأذى إلينا وإلى ممالكنا، وإنني أريد، وأنصح أن لاتدع هذه تؤثر على تفكيرك، بل عليك الدفاع عن نفسك بأفضل ماتستطيع، وإما أن تقدم إليّ إلى هنا على الفور إلى نورماندي، أو البقاء في انكلترا، حسبما تراه مناسباً، ذلك أنني أدع هذا إلى مشيئتك، وعليك أن تكون متأكداً، أنك إذا ماقررت القدوم، ومتابعة السفر إلى روما،

سوف أزودك بكل شيء ضروري لرحلتك، أو أن ذلك يمكن أن يفضي بي للحفاظ على كرامتي».

كيف أرسل البابا نواباً عنه لصنع سلام بين الملك وبين القديس توماس

وجرى في العام نفسه ارسال مندوبين سامين هما: فيفيان Vivian وغراشيان Gratianus ، لصنع سلام بين ملك انكلترا ورئيس أساقفة كانتربري، ومع أن سلطتيهما كانت متساوية، فقد كانت مواقفهما متباينة، وبدا أنهما في النهاية لن يتوصلا إلى اتفاق، لأنه منذ البداية كانت مشاعرهما متصارعة كثيراً، وهكذا أخفق غراشيان في الحصول على حظوة لدى الملك، وفيفيان لدى رئيس الأساقفة، فقد مثلا بحضرة الملك، وكذلك أمام رئيس الأساقفة في بيوكس Bayeux في نورماندي، وبعد مناقشات كانت تقريباً بلانهاية، بدت بوادر للتوصل إلى اتفاق، عندما أرسل وليم رئيس أساقفة السين رسالة يحذر فيها المندوبين— وفقا لتعليمات كان قد تلقاها من البابا— من الاستمرار في المباحثات من دون أخذ رأيه، والتداول معه، ولذلك غادر المندوبان بلاط الملك دون أن يكملا أي شيء، لأن الملك هنري لم يكن على استعداد للتوصل إلى أي اتفاق، مالم يتم تقديم الاحترام الكامل للعادات السيئة لمملكته ومفاخرها، وهذا مالم يكن المندوبان يعتقدان أنه من الموائم الموافقة عليه.

رسالة الملك هنري إلى البابا الاسكندر

وعبر في العام نفسه غيلبرت، أسقف لندن، البحر، ليمثل أمام البابا الاسكندر، وليقدم إفادة عن دواعيه إلى الاستئناف، وقد عبر من خلال نورماندي، حيث كان هنري، وتشاور مع الملك حول كيف يمكنه أن يتغلب بالمراوغة على رئيس أساقفة كانتربري المبارك، ويسوّد قضيته

الصحيحة في عيني الحبر المقدس، واتفقا أخيراً معا، على أن يرسل الملك إلى روما سفارة مهيبة تذكر بشكل واضح، أنه مالم يقم البابا على الفور ويشدة بقمع عجرفة رئيس الأساقفة، سوف يعلن هو نفسه وجميع باروناته وكهنته عن تخليهم عن الطاعة إلى البابا، وكان فحوى رسالة الملك كما يلي:

« تعلم جلالتكم السامية بشكل جيد مدى القلق الذي لحق بي من قبل عدوي توماس، مع أن ضميري يشهد بأنني لم أستحق ذلك، فأنا لم أعمل شيئاً يستحق كل هذا الغضب، وقد أضاف الآن أذى جديداً إلى الكثيرين، واستمر ولم يتوقف عن إيذاء واحد هو بريء، فبتفويضك كما أعلن، قد حرم كنسيا هؤلاء الذين هم أبناء أتقياء خلص للكنيسة الرومانية، وأقصد بذلك أسقفي لندن وسالسبري مع بعض أصدقائي، مع أنه لايمتلك سببا معقولاً ضدهم، وكم هو صعب بالنسبة لي التعامل مع مثل هذا التصرف، وكم ذلك مضر بسمعتي وسمعتكم، وأعتقد أن هذا ليس من الصعب عليكم إدراكه، هذا ويبدو لي أن عنايتكم الأبوية قد أهملتني كلياً، لأنكم سمحتم لعدوي بزيادة آلامي وشقائي، في الوقت الذي يتوجب فيه أن يقوم اعتدالكم الأبوي بإيقاف عنفه وظلمه، ولذلك ألتمس وأتمنى على سموكم، كما هو صحيح، أن تظهروا نحوي العاطفة التي أستحقها كابن، لتصحيح— من دون تأخير— الأذى الذي اقترف بحقي وبحق مملكتي، ولإزالة كل ماعمله خصمي مما هو مضاد للعدل، ضدي وضد رعيتي، سواء أكانوا من الكهنة أو من العلمانيين، لأنه يتوجب عليك الاستجابة إلى الطلبات التي تقدمنا بها إلى تقديرك الأبوي، آخذين بعين التقدير أنك عندما بعثت برسوليك: فيفيان وغراشيان، بأنه ينبغي أن نعيد إلى رئيس أساقفة كانتربري رئاسة أساقفيته، وحظوتنا، وضعنا جانبا كل تقدير لكرامتنا، ووافقنا، أمام المندوبين نفسيهما، مع ثمانية رؤساء أساقفة،

وأساقفة، ورعاة ديرة، مع أن توماس كان قد غادر المملكة دون أن نعلم بذلك، ودون وجود أي إكراه من جانبنا، على أنه يمكنه العودة مجدداً بسلام وأن يستأنف كل أعماله ويسترد كل ممتلكاته، كما تركهم في اليوم الذي غادر فيه المملكة، ومثله كذلك جميع كهنته الذين غادروا المملكة معه، أو من أجله، إنما مع الحفاظ دوماً على كرامة المملكة، وبناء عليه نحن نلتمس من سموكم الرفيع أن تقدروا بعناية الاحترام والخدمة التي قدمناها لكم ولبلاطكم، وسنستمر في تقديمها، مالم يكن ذلك من خطأ منكم، في أن تستمروا بالاعتدال تجاه المسائل القائمة حاليا، أي في أن لاتستمر شرور ذلك الخائن والمتمرد الذي هو من رعيتي، وأن لايشوش أذهاننا الصافية، بل أن تقوم تماشياً مع استراحاماتنا بتحليل أولئك الذين حرموا كنسيا، وأن تتدبروا أن لايقوم ذلك الحاقد نفسه بإصدار قرارات حرمان كنسي ضد آخرين، وخشية أن تصموا أذنكم عن سماع التماسنا، فندفع نحو اليأس من حسن عواطفكم نحونا، وأن تدفعونا، بحكم الضرورة، إلى البحث عن وسيلة لأمننا بعد ذلك، وبما أنه من الصعب في أن ندون كتابة كل مانرغب في قوله، نبعث إلى أقدام كرسيكم الأبوي، خادمينا الموثوقين: رينالد رئيس شمامسة سالسبري، ورتشارد دي باري Barre ، اللذان سوف يوضحان بكلمات الفم كل الذي حدث، وجميع المسائل التي نود أن نوصلها إليكم».

كيف شوّه رسولا الملك قضية رئيس الأساقفة كثيرا جداً.

ووصل رسولا الملك إلى البلاط الروماني، ووضعا أمام البابا رسالة سيدهما، مع أشياء أخرى عهد بها إليهما، وابتغيا بوساطة الهدايا ولغة الإطراء، جعل البابا يميل إلى إيثار الملك، والذي فعلاه يمكن العثور عليه في الرسالة التي أعادها البابا إلى رئيس الأساقفة توماس، والتي جاءت بدايتها كما يلي:

« تعرفون بغيرتكم النشاط والعناية اللذان أبداهما ابننا العزيز في

المسيح الملك هنري ملـك انكلترا، في حكمـه لمملكتـه، وقـد طلب منا إعطاءها قـوة على سلطة الكنيسـة الرومانيـة، وأن تبقى عـادات المملكة القديمـة وامتيازاتها من دون نقصـان، ثم إنه طلب مني زيادة على ذلك بالحاح أن أمنح السلطة القـانونيـة على انكلترا كلهـا إلى رئيس أسـاقفـة يورك، وتقديراً منا للوضع الحرج لهذه الأيام، قد منحنا السلطة القانونية إلى رئيس أسـاقفـة يورك، وذلك بناء على طلب الملك، لكن مع الوعـد السالف لرسـوليه، بناء على كلمـة الصدق، وتأكيـد ذلك باليمين، بعدم إعطاء الرسـائل إلى رئيس أساقفـة يورك من دون موافقتك»، وأيضـاً في رسالة أخرى أمـر البابا رئيس الأساقفة المتقدم الذكـر، بموجب طاعته، أن لايتفوه بقـرار منع، أو حرمان كنسي، أو تعليق، ضـد الملك، أو ضد مملكتـه، أو ضـد رعيتـه، مالم يصر الملـك على عناده، فيرفض قبل بداية الصوم الكبير أن يعيـد إليه حظوته مع الممتلكات العائدة إليـه شخصيا، وإلى كهنتـه، وذلك من أجل خـلاص روحـه، والهدوء لحكمـه، وحكم ورثته إلى الأبد» .

المعاناة العقلية لرئيس الأساقفة المبارك

هكذا كـانت إذن نار المحنة، والمعاناة العقليـة، التي عـاشها تومـاس المعترف الجريء، حتى أنه شرع الآن يتألم في عقله بآلام الشهـادة التي لم يصلها بعـد في جسده، لأنه رأى الذي يتـوجب أن يكون قائـد القوات العسكرية للكنيسة لم يقف بنفسه أمام سـور الدفاع عنها في يوم المعركة، بل انهزم مثل كبش من دون قـرنين، ولـذلك قنط الآن، وفقـد كل أمل من انســان، وصرف تفكيره لتلقي المواســاة من الرب، وصلى من دون توقف من أجل أوضـاع الكنيسـة، مـرهقـاً جسـده بالسهـر، والصـوم، والصـلاة، من أجل الذين كرهوه وعـذبوه، وبتنهدات ودمـوع صلى إلى الرب ليحفظ الكنيسة، التي أنقـذها وكرسهـا بدمه، ومن الذي يستطيع وصف المعاناة والآلام العقلية لرجل الرب هذا، الذي سيق والده وأمه،

وأخـوانه، وأخواته، وأحفـاده وحفيداته وكهنتـه وموظفيـه الدينيين، إلى المنفى بسببه، وأجبر هو، على الرغم من مكانته السامية في كنيسة الرب، وهو حزين، على أكل خبـز الغرباء، في أرض أجنبيـة، ولكن على اعتبار أن مـامن واحـد وصل فجأة إلى الكمال، فإن آلامـه وقعت لتمتن عقله، ولتمكنه من تلقي شرف الشهادة من حـد السيف، لأن مكان استشهاده لم يحدد له بعد.

صيغة الالتماس الذي قدمه رئيس أساقفة كانتربري إلى الملك

وفي العام نفسه، في الثامن من يوم عيد القديس مارتن، وبوساطة من الحبر الأعظم، جـرى عقد مـؤتمر في باريس بين ملكي فرنسـا وانكلترا، وقـد حضره رئيس الأساقفـة من دون أن يمثل في حضرة الملك هنري، وهنا بعـد صرف وقت طويل في محاولة المصـالحة بين الملك وبين رئيس الأسـاقفـة، قام رئيـس الأساقفـة هذا، بناء على نصيحـة ملك فـرنسـا، وأساقفته، ونبلائه، الذين كـانوا حاضرين، بإرسال الالتماس التالي كتابة إلى ملك انكلترا:

« نحن نسأل مولانا الملك، استجـابة لأوامر مولانا البابا ولنصـائحه، في أن يقـوم مـن أجل محبـة الرب، ومـولانا البـابا، وتشريفـاً لكنيستنا المقدسة، ولخلاص كل من نفسه وورثته، فيتقبل بحظوته جميع الذين من أجلنا، وكـانوا بصحبتنا، قـد نفيوا من المملكة، وأن يمنـح إلينا سلامـه، وأمـانا تاما على يديه نفسـه وعلى أيدي المشـايعين له، من دون تراجع، وأن يعيـد إلينا كنيسة كـانتربري، كـاملة ومتحررة، كما أخـذناها عندمـا عملت رئيسـاً للأسـاقفـة، مع جميع ممتلكاتها، لنتملكهـا، ولنضعهـا بين أيدينا، حـرة، ومطمئنة ومشرفـة، كما ينبغي للكنيسـة، وكما ينبغي لنا أن نستحـوذ عليهـا، أي مثلما كانـت عندما جـرت أولاً ترقيتنا إلى مـرتبـة رئاسـة الأساقفة، وأن يسمح بالطريقة نفسهـا لجميع أتباعنا أن يتملكوا جميع كنائسهم مع جميع الأوقـاف العائدة لرئـاسة الأسقفيـة، التي غدت

خالية منذ أن غادرنا المملكة، وأن نتصرف بهم وكأنهم ملك لنا، وحسبما يبدو جيداً لنا ولأتباعنا».

ورفض ملك انكلترا الموافقة على هذين الشرطين، لأنه بالنسبة لشرط إعادة التمليك، بما أنه لم يرغم رئيس الأساقفة على مغادرة انكلترا، هو لم يكن مجبراً، وفقاً لكرامته الملكية، على دفع أي شيء، أو نقض منح الكنائس الشاغرة، التي منحت إلى بعض الأشخاص، هذا وأكد الملك بحضور ملك فرنسا أنه على استعداد لتقديم ترضية إلى رئيس الأساقفة، أو إذا رغب في مناقشة القضية بعرضها للمحاكمة في قصر الملك في باريس، أمام رجال دين فرنسيين، أو أن يستمع للمرافعات من الجانبين فريق من العلماء من جميع المناطق، وهكذا فإن الملك الذي كان جلب لنفسه من قبل المشاعر السيئة لكثير من الناس، ربح بهذه الاقتراحات تأييدهم، وبهذه الطريقة، وبوساطة أصدقائهم، صار من الممكن تحقيق اتفاق بين الملك وبين رئيس الأساقفة، لكن الملك رفض منحه قبلة السلام، مع أنه كان على استعداد لمنحه كل ضمانة، لكن رئيس الأساقفة من جانبه، رفض عمل أي سلام، إلاّ إذا استطاع أن يضعه على قواعد ثابتة وأمينة.

كيف أقسم نبلاء بريتاني يمين الولاء إلى الملك هنري وإلى ابنه غيوفري

عام ١١٧٠م، فيه عقد، هنري ملك انكلترا بلاطه في يوم عيد الميلاد، في نانتي Nantes مع أساقفة وبارونات بريطانيا الصغرى، الذين أقسموا جميعاً يمين الولاء له ولولده غيوفري، ثم عبر في الصوم الكبير التالي إلى انكلترا، وكاد أن يغرق مع جميع أناسه.

تحليل أسقف لندن

وفي هذا العام أيضاً، وصل غيلبرت أوف لندن إلى ميلان وهو على

طريقه إلى روما، وهناك تسلم رسالة من مولانا البابا، فيها الاعلام التالي:« لقد أمرنا رئيس أساقفة روان، وأسقف اكستير، بأن يتلقيا منك، عوضا عنا، يمينا بأنك سوف تلتزم بالقرار الذي صدر ضدك، ومن ثم القيام بتحليلك، على أساس أن لايتسبب حرمانك الكنسي أية خسارة في مرتبتك أو مقامك، أو يسيء إلى سمعتك من الآن فصاعداً»، وبذلك نجح الأسقف بتحقيق هدف رغباته، وجرى تحليله بشكل علني في روان في يوم أحد الفصح.

حياة وفضائل القديس غودريك الناسك

وفي هذا العام نفسه، غادر هذه الحياة غودريك Godric الناسك، إلى الحياة الأبدية، وسوف نقدم فيما يلي بعض الملاحظات عن حياته، ومعجزاته، ونهايته المجيدة، لأنه سيكون من الظلم بالنسبة للقديس أن نمر مرور الكرام بأعماله المجيدة، وكان صديق الرب هذا قد ولد في نورفولك Norfolk، وكان اسم ابيه أيلوورد Ailward واسم أمه إيدوينا Eadwenna، وقد ربي من قبل والديه في قريته وولبول Walpole، وهناك أمضى شطراً من حياته بصحبتهما، وبعدما أمضى السنين البريئة من طفولته، أصبح تاجراً، في البداية بصورة متواضعة، ثم أصبح بعد ذلك يتردد على السوق العام مع التجار الآخرين، وفي أحد الأيام عندما كان يسير وحيداً على الشاطىء، وجد ثلاثة دلافين مرمية من قبل البحر، وقد بدا واحداً منهم ميتاً، والاثنان الآخران يموتان، ولأسباب انسانية، ترك اللذين كانا حيين دون لمسهما، وحمّل نفسه قطعة من الذي كان ميتاً، وانطلق عائداً إلى البيت، ثم أخذ التيار بالارتفاع كما هي العادة، ووصلت المياه في البداية إلى قدميه ورجليه، وأخيراً ارتفعت حتى رأسه، لكن بما أنه كان قوي الايمان، تابع سيره تحت الماء، بتوجيه من الرب حتى وصل إلى الأرض الجافة، وقدم السمكة إلى والديه، وأخبرهما بكل الذي حدث له.

وكان في بعض الأحيـان يستغرق بالتأمل عندما يكون وحيـداً، حول الأشياء السماوية وحول الصلاة الربانية والعقيدة، ولحماسته للدين ذهب إلى سـانت أندرو في سكوتلندا للصلاة، وبحماسـة ليست أدنى من ذلك ذهب إلى رومـا، وبعـد عـودته من هناك ألحق نفسـه ببعـض التجـار، وأسهم في النقل بالبحر، مما درّ عليـه ثروة كبيرة إلى حد أنه صـار مالكاً لنصف سفينة وربع أخرى، ولكونه قـوياً بجسده ونشيطاً في عقله أبحر إلى مختلف بلدان العالم، وزار الأماكن المقدسة للقديسين.

حول الفتاة التي تدبرت للقديس غودريك حجه

وبعدما أمضى ستة عشر عـاماً في الربح من هذه الرحلات التجارية، قرر أن ينفق في سبيل الدين الثروة التي جمعهـا بجهوده، وبناء عليه حمل الصليب وزار بخشـوع ضريح ربنا، وفي طـريق عـودته إلى انكلترا مـرّ [بمزار] القديس جيمس [في كـومبوستالا في اسبانيـا]، وشعر بعد مضي بعض الوقت بالرغبة بزيارة العتبات[المقدسة] للرسولين، وأوصل هذه النية إلى والديه، وعندمـا عبرت أمه عن رغبتها بمـرافقته، إذا سمح لها، وافق بسرور، وبطاعة بنيوية، وقـد حملها على كتفيه، كلما تطلبت وعوره الطريق ذلك، وعندمـا عبرا خـلال لندن اقتربت منهما امـرأة ذات جمال عظيم، وطلبت الإذن بالالتحـاق بحجهما، وقـد وافق على ذلك بدون تردد، والتحقت بهما بنشـاط عظيم وتقـوى، ذلك أنها غسلت أقـدامهما وقبلتهما، وخـدمتهما أحسن من الآخـرين، وتصرفت على هذه الصـورة طوال الطريق في الذهـاب وفي الإياب، ومـامن أحـد سألها مـن كـانت ولامن أين جـاءت، كما أنها لم تذكـر ذلك قط، ولدى مـرورهما خـلال لندن أثناء عـودتهما، حصلت على مـوافقتهما بالمغـادرة، وقـالت لهما قبل مغـادرتها:« حان الوقت بالنسبـة لي للذهاب إلى المكان الذي جئت منه، وأنت ينبغي أن تقدم الشكر إلى الرب، الـذي لم يهمل قط الذين وضعوا ثقتهم به، وأنا أخبرك أنـه من المؤكـد حصـولـك على الذي صليت من

أجله في روما، من الرسولين»، وما من أحد من الجماعة رأى هذه المرأة، باستثناء غودريك وأمه فقط.

كيف ذهب رجل الرب للاعتزال في الصحراء بعد عودته إلى الوطن

وبعدما أعاد أمه بالأمان إلى حماية أبيه، باع كل ماكان يمتلكه، وتلقى مباركتهما، وتركهما من أجل أن يصير ناسكاً، في أقصى مناطق انكلترا، وذهب إلى مدينة اسمها كارلآيل، حيث وجد بعضاً من أقاربه وقد حصل من واحد منهم على هدية حوت بعضاً من مزامير القديس جيروم، التي شرع بعد وقت قصير بتلاوتها عن ظهر قلب، ثم ذهب من دون أن يعرف رفاقه للاعتزال في الغابات، حيث عاش لبعض الوقت على الأعشاب والثمار البرية، وجاءت الأفاعي والحيوانات المتوحشة ونظرت إليه، ثم كان أن تركته بعد مضي بعض الوقت دون أن تسبب له أي أذى، وأمضى في هذه الصحراء أياماً كثيرة كناسك، حيث كان في بعض الأوقات يجثو على ركبتيه، وفي أوقات أخرى وهو رافع ذراعيه نحو السماء، أو ساجداً على الأرض، وطوال ذلك كان يصلي بشكل متواصل إلى الرب، وأخيراً وجد مكاناً، كان كهف ناسك، وقد دخل إليه، حيث تلقى تحية« مرحبا ياأخ غودريك» وقد رد عليها بقوله: « كيف أنت ياأب إيلريك Ailric ؟» مع أنه لم يعرف أحدهما الآخر من قبل، وأجابه الرجل العجوز: « لقد أرسلت من قبل السماء لتدفن جسدي الشائخ بعدما أموت»، وعاش هذان الرجلان مع بعضهما لمدة عامين، مع أن أيا منهما لم تكن لديه أية حاجيات، وأخيراً صار الناسك العجوز ضعيفاً جداً، وكان غودريك يحمله، ويجلب إليه الطعام، وقد أحضر له كاهنا ليسمع اعترافه، وقد قدم له القربان، وعندما رأى غودريك بأن حالته قد تدهورت قال له:« إن روحك قد خلقت مشابهة للرب، لذلك أرجو بحق الرب القدير أن لاتغادر هذا الجسد من دون علمي»، وبناء عليه مات الرجل العجوز على الفور،

ورأى غـودريك نوعاً من الأجسـاد الكروية، مثل ريح حـامية ومحرقـة، أشعت مثل أكثر الزجاج صفـاء في وسط بياض لامثيل له، مع أنه مامن أحـد يمكنه وصف حجم الروح وصفـاتها، ولدى انتشـار أخبار مـوت الرجل المقـدس، ووصـولها إلى رفـاقـه الذين كـانوا في بلاط كـوثبيرت Cuthbertحيث عاش المتـوفى عندما كـان شاباً، قـاموا بدفنه في مقبرة درم.

كيف ذهب غودريك المبارك إلى القدس وعاد سالما

بعدما جـرى دفن الراهب المتقدم الذكر، عـاد غودريك إلى الصحراء متسائلا عن طبيعة الارادة الربانيـة حوله، وبينما كان يصلي باخلاص إلى الرب حـول هذا الموضـوع، جـاء صـوت من السماء يقـول له:« من الأفضل لك الذهاب إلى القـدس والعـودة ثانيـة»، كما ظهـر كـوثبيرت المعترف المقدس للمسيح، له وهو يقـول:« إذهب إلى القدس، وانصلب مع الرب، وأنا سـوف أكـون هنـاك معـاوناً لك وحـامياً في كل شيء، وبعـدمـا تكمل هذه الـرحلة، سـوف تخدم الرب تحت حمايتي في فنشلي Finchale ، وعاد غودريك إلى درم، وحمل الصليب، وتلقى مباركة الكاهن، وفي أثناء رحلتـه لم يأكل شيئا سوى خبـز الشعير، وشرب ماء، كما أنه لم يغير ثيابه ولم يغسلها حتى وصل إلى الأماكن المقدسة، وعندما وصل إلى ضريح الرب، والأماكـن المقدسة الأخـرى، صلى بخشوع إلى الرب، وسكب كثيراً من الدمـوع، وقبل الأماكن طويلاً وبخشـوع كان من الصعب أن يفكر أحـد أن ذلـك ممكنا، ثم إنه ذهب إلى نهر الأردن، وهو يرتدي المسوح، ويحمل كأساً في جعبتـه، وصليباً صغيراً، حمله دوماً بيـده، ودخل إلى النهر، الذي أحبـه دوما فيما بعـد، وخلع ثيابه، وتقـدم نحو الأمام واغتسل وتنظف، لكنه رمى بنعليه وقال:« أيها الرب القدير الذي قد سار حافياً على هذه الأرض وتألم بقدميه حين خرقتها المسامير على الصليب، أنا لن ألبس بعد الآن أحذية»، وبعدما وفى بعهده بالحج،

عاد إلى انكلترا.

كيف اختار غودريك المبارك بإلهام من الرب مسكنه في فنشلي

وبعدما عاد من الحج، وجد مكاناً سرياً في الغابة، في الشمال من انكلترا اسمه اسكديل Eskdale اعتقد أنه مناسب للسكنى به، وبناء عليه بنى كوخاً من جذوع الشجر، وغطاه بالعشب والطين، وسكن هنا سنة وبضعة أشهر، ولكن عندما بدأ ملاك الأرض بإزعاجه، تركها وذهب إلى درم، حيث تعلم بسرعة المزامير مجدداً، وصار يعرف كثيراً من المزامير، والترانيم والصلوات، وذلك بما فيه الكفاية، وبناء عليه ألهم في أحد الأيام من عليين، فذهب إلى غابة في الجوار، حيث سمع راعياً يقول لرفيقه« دعنا نذهب ونسقي مواشينا في فنشلي»، ولدى سماع غودريك هذه الكلمات أعطى الراعي البنس الوحيد الذي امتلكه، لكي يقوده إلى ذلك المكان، وفي أثناء سيره نحو داخل الغابة قابله هناك ذئب حاد، له حجم غير عادي، وقد اندفع نحوه وكأنه يريد تمزيقه إلى قطع، واعتقد غودريك أن ذلك كان واحداً من خدع العدو القديم فعمل شارة الصليب بيده قائلاً:« أستحلفك باسم الثالوث المقدس أن تغادر من هنا بسرعة، إذا كانت العبادات التي أنوي تقديمها إلى الرب في هذا المكان مقبولة إليه»، وبهذه الكلمات سجد بنفسه مع قدميه غير التقيين، وكأنه يطلب العفو من الرجل المقدس.

كيف سكن القديس غودريك في فنشلي بين الحيوانات المتوحشة والأفاعي

وبناء عليه عزم غودريك على عبادة الرب في هذا المكان، فقام، بناء على إذن حصل عليه من رالف أسقف درم فعمل كهفاً بالأرض قرب شاطىء نهروير Wear ، وبعدما غطاه بالعشب والطين سكن فيه بين حيوانات البرية والأفاعي، وكان عدد الأفاعي مرعباً، لكنهم كانوا جميعاً

مـدجنين نحو رجل الرب، سمحـوا لأنفسهم بالحمل والتناول، وكـانوا مطيعين لأوامره وكـان في بعض الأحيان عندما يجلس أمـام النار، كانوا يلتفون حـول رجليه، أو يكورون أنفسهم في صحنـه أو كأسه، وبعـدما أمضى بضع سنوات على هذه الشاكلة من الحياة، رأى أن الأفاعي تعيق صلواته، ولذلك عندما رآهم في أحد الأيام من حوله، كما جرت العادة، أمـرهم بعدم دخـول بيته ثانيـة، وبناء عليـه تركته هذه الهوام تماماً، ولم تعاود عبور عتبته، وعندما كـانت الهدايا من الطعام وأشياء أخرى تقدم إليه رفضهم جميعا، مفضلاً العيش بوسـاطة العمل في أرضه، وقد أحرق بعض أغصـان الشجر وفروعهـا حتى صارت رمـاداً، ومزج الرمـاد مع طحين الشعير بنسبـة الثلث للجميع، وأخضع الجسـد وطوّعـه بالبكاء، والسهر، والصوم، وبناء عليه كـان يمضي أحيانا ستة أيام من دون أكل، وبعـدما حـاول الشيطان إغواءه بالـرفاهيـة، ظهر له على شكل حيـوان متـوحش: أحيانا على شكل دب، أو أسـد، أو ثور، أو ذئب، أو ثعلب، أو علجوم، وحـاول إخافتـه، غير أنه كان قويـاً في إيمانه، فاستخف بهم جميعـاً، ولكي يخمد نار الجسـد، أخضع جسمه باستخـدام أخشن أنواع المسـوح، وارتدى لمدة خمسين سنة سـابغـة من الحديد، وكـانت مـائـدته حجرة عـريضة مسطحة، عليها وضع خبـزه كما وصفت نوعه من قبل، غير أنه مـاكـان ليتذوقـه حتى يرغم بجـوع حتمي، وكـان شرابه نقـاطاً معتدلة مـن الماء، وفقط عندما كـان يجد نفسه مرغماً بعطش شـديد، ولم يسترح قط في الفـراش بل كـان يتمـدد على الأرض عندما كـان يشعـر بالانهاك، ومسوحه تحته، ورأسه مستند على الحجر الذي اتخذه مائدة له، وعند اشراق القمـر، كان يصرف نفسـه إلى عمله، ويدع النوم، ويمضي الوقت بالصـلاة، وفي الشتـاء وسط الثلـج وتسـاقط البرد، كـان يدخل النهر عارياً، وهناك كان يقـدم نفسه طوال الليل قربانا حياً للرب، والماء واصل إلى رقبتـــه، وكـــان في هـذا الوضع يتـــدفق بانشـــاد المزامير، والصلوات، ويسكب الدموع، وهو مايزال في داخل الماء، وغالباً ماظهر

له الشيطان وجميع أطرافه مشوهة، وعلى حافة الانقضاض عليه، لكنه كان يصده وهو مرتبك مضطرب بوساطة شارة الصليب المقدس، وكان على كل حال يحاول سلب ثياب الرجل المقدس، لكن كان يتولاه الرعب من صرخات غودريك، فيرميهم، وينهزم بعيدا.

كيف شاهد القديس غودريك في أحد الأيام طفلاً يخرج من فم المصلوب ويقر نفسه على صدر أمه

وفي أحد الأيام، عندما كان رجل الرب، جالساً في خلوته، يكرر المزامير، رأى طفلاً صغيراً قد خرج من فم المصلوب، وذهب إلى تمثال العذراء المباركة، الذي كان قائماً في الجهة الشمالية من اللوح، وأجلس نفسه على صدرها، وقامت هي من جهة أخرى بمدّ يديها لاستقباله، واحتضنته بين ذراعيها لقرابة ثلاث ساعات، وكان الطفل يتحرك طوال ذلك الوقت وكأنه حيّ، وفي كلتا الحالتين عندما جاء وعندما ذهب، اهتز تمثال العذراء كثيراً، حتى بدا اللوح وكأنه سيسقط، واعتقد غودريك أن أطراف التمثالين كانت ممتلئة بروح الحياة، وأن الطفل لم يكن سوى عيسى الناصري، وعاد الطفل بعد ذلك إلى فم المصلوب وفق الطريقة نفسها التي جاء بها.

كيف ظهرت أم ربنا ومريم المجدلية إلى القديس غودريك وحول الأغنية التي علمته إياها أم منقذنا

وفي وقت آخر، عندما كان رجل الرب يصلي أمام مذبح العذراء المباركة، أم الرب، رأى فتاتين، في عمر الشباب، وكانتا على غاية من الجمال، تقفان عند طرفي المذبح، وترتديان ثوبين ببياض الثلج، وقد وقفتا لبعض الوقت تنظر إحداهما إلى الأخرى، ولم يتجرأ غودريك على التحرك، بل نقل عينيه من واحدة إلى الأخرى، وطأطأ رأسه أحيانا بتعبد، ثم اقتربت العذراء منه، وكانت على يمين المذبح وسألته:« هل

تعـرفني ياغودريك؟» فأجـابها قائـلاً: « إن هذا من غير الممكن، إلاّ إذا كنت تنوين التعريف بنفسك» فردت عليه قائلة:« إن ماقلته قلته صادقاً، أنا أم المسيح، ومن خـلالي سوف تنال نعمـة، وهذه السيـدة الثانيـة هي الرسـولة الأنثى بين الرسل، إنها مريم المجـدلية»، ورمى غـودريك الآن بنفسـه على قـدمي أم الرب قـائـلاً:« إنني أعهـد بنفسي إليك ياسيـدتي، وألتمس منك أن تضعيني تحت حمايتك»، ثم إنها وضعت كلتا يديها على رأسه ومسحـت شعره، وملأت المكان بـرائحة طيبة، وغنت بعـد ذلك، وعلمت غـودريك أن يغني أغنيـة، صار في الغـالب يرددها بعـد ذلك، وقد انطبعت ثابتة في ذاكرته، والأغنية بالنظم الانكليزي هي كما يلي:

"Seinte Marie,Clane Virgine,

Moder Jesu christ Nazarene

Onfo, Scild, help Thim Godrich

Onfang, bring heali widh The in Coderich

Seinte Marie, Thristes bour,

Meidenes Clenhed, moderes flour,

Delivere mine Sennen. regne in min modm

Bringe me to blisse wit selfe, God"

ومن الممكن نقل هذه الأغنية إلى اللاتينية هكذا:

"Sancta Maria virgo munda moter Jesu christi nazareni, suscipe adduc, sarcta, tecum in dei rgnum. Sancta maria, christi thalamus, virginalis paritas, matris flos, dele mea crimina, vegna in mente mea duc

me ad felicitatem cum solo deo"

وعلمت أم المسيح غودريك أن يغني هذه الأغنية كلما كـان خائفاً أن يُقهر بالألم، أو الأسف، أو الإغواء، وتابعت تقـول له:« وعندما تدعوني بغنائك بها، سـوف تنال على الفور مسـاعـدتي»، ثم إنها رسمت علامـة الصليب على رأسـه، وصعـدت أمـام نـاظريه إلى السماء، مخلفـة وراءها رائحة طيبة.

كيف أقام القديس غودريك شخصين ميتين وردهما إلى الحياة ثانية

وجاء في أحد الأيام إلى رجل الـرب زوج وزوجة، ورجواه أن يكون رحيماً فيرد إلى الحيـاة ابنتهما التي كـانت ميتـة، وقـدمـا في الوقت نفسـه جثتها وأخـرجاها من كيس كانا قد جلبـاها به معهما، وعدّ رجل الرب نفسـه غير جدير للقيـام بمثل هذا العمل الإعجازي، ولم يعمل جـواباً، بل ذهـب إلى الحقل من أجل عملـه الاعتيـــادي، الأمـــر الـذي أزعج الشخصين، فغـادرا، تاركين الجثة في خلوته، ذلك أنهما قـالا:« من أجل أن يحتفظ بالجثة ويدفنها، أو أن يعيدها إلى الحياة، وهو مايمكنه فعله إذا رضي»، وعاد غودريك في المساء، فوجد الجثة في زاوية خلوته، فبدأ على الفـور يصلي بخشوع إلى الرب، الذي هـو نبع الحياة والصحـة للجميع، من أجل إعـــادة الفتـــاة إلى الحيـاة، واستمـــر يفعل هذا لمدة ثـلاثة أيام وليلتين، وفي اليـوم الثالث، وعندمـا كـان مـايزال متمدداً أمـام المذبح، شـاهد الفتاة تتقـدم نحـوه، وبناء عليه دعـا والديها، وردها إلى عنايتهما، وجعلهما في الوقت نفسه يقسمان أنه مـادام حياً، لن يبـوحا بهذا السر إلى أحد من الناس، وفي وقت آخر، عندما جلب والدان بشكل سري جسد ابنهما الصبي الميت، إلى رجل الرب، أمـرهما بوضعه على مـذبح العذراء المباركة في خلوته، قائلاً:« لاتفترضا بأن الصبي هو ميت، بل اجثيا معي

على ركبتيكما، واسألا الرحمة اللاهوتية للصبي»، وبعدما فرغوا من الصلاة، أمرهما بالذهاب، وأخذ الطفل من على المذبح، الأمر الذي عندما فعلاه، وجداه حياً ويبتسم، ثم ربطهما رجل الرب بيمين أن لايبوحا بهذا الصنيع إلى أي واحد، مادام حياً.

الجواب الذي أعطاه رجل الرب إلى واحد طلب أن يكتب حياته

كان لرجل الرب أصدقاء مقربين بين رهبان درم، خاصة واحداً كان اسمه[رينالد]، وحُثّ هذا الرجل مرارا لأن يكتب حياة القديس غودريك وفضائله لصالح الأجيال المقبلة، ولكي يحصل على مزيد من المعلومات الأكيدة حول الموضوع، جاء إلى رجل الرب، ليعلم منه ماالذي ينبغي أن يكتبه، وبينما كان جالساً عند قدمي القديس، قال بأنه يقترح بأن يكتب حياته، وأوضح المنافع التي سوف تنجم لصالح الأجيال المقبلة من معرفة الذي عمله، وعلى ذلك ردّ رجل الرب مع كثير من الانفعال قائلاً:« إن حياة غودريك ياصديقي هي كما يلي: في المقام الأول غودريك، فظ، وقذر، وزاني غير نظيف، وزائف، وحانث باليمين، وغشاش، ومتشرد، ووقح، ونهم، وكلب قذر، ودودة منحطة، وليس ناسكاً بل منافق، وليس سائحاً بل انسان فاقد للعقل، وملتهم للصدقات، وضال، ومحب للمتع، وكسول، ومبدد لوقته، ومبذر، وطماع، وغير جدير بخدمة الآخرين ودائم النميمة واللوم للذين يتولون تدبير أموره، وهذه الأشياء، لابل ماهو أسوأ من هذا الذي سوف تكتبه حول غودريك»، وبعدما فرغ من هذه الكلمات، التزم بالصمت وهو غاضب منزعج، فانسحب الراهب، وهو مضطرب، إنما بعد مضي عدة سنوات، لم يتجرأ ثانية على سؤال القديس حول حياته الماضية، حتى قام غودريك، رحمة به، أو لأنه ندم على الخطأ الذي عمله له، فأخبره طواعية من ذاته عن الأشياء التي رغب بمعرفتها، وفي الوقت نفسه رجا الراهب بحكم الصداقة والاحترام المتبادل بينهما بعدم اظهار

الكتاب إلى أحد خلال حياته.

الجواب الذي أعطاه غودريك عندما سئل عما يتعلق بمفارقة الروح وعن أوضاعها بعد الموت

وفي وقت آخر، عندما جاء الراهب نفسه إليه، في عيد القديس يوحنا المعمدان ليقيم قداساً معه، جلس خارج باب خلوته، وسمع غودريك وهو يغني بالداخل، وبعد العشاء سأله الراهب عن طبيعة مغادرة الروح، وعن ذلك تلقى هذا الجواب حيث قال:« تغادر روح التقي بلطف من الجسد لكن روح المذنب، بما أنها غير موائمة للمغادرة، تحرض على ذلك بوساطة كثير من الجلدات، وفور مغادرتها للجسد، ترتفع عاليا تنتظر الأوامر من القدير، ويوجد في الهواء بوابة حديدية ضيقة، محروسة من على الجانبين بأرواح خيرة وشريرة، من خلالها يجري قبول أرواح الأتقياء بتسهيل المرور، لكن أرواح الأشرار تعاق بشدة، وتتعرض للعذاب، وتطرد نحو الأسفل بشكل تعيس، ولقد رأيت في هذا اليوم روح رجل مستقيم تمر من خلالها، ولسروري لذلك، بدأت أغني مع الملائكة الذين تولوا قيادتها، وكان هذا الذي سمعته مع دهشة كبيرة جداً».

كيف أقام القديس بطرس قداساً للقديس غودريك

وفي مناسبة أخرى، عاد الراهب نفسه، إلى هناك ثانية، ليسأل رجل الرب عما إذا كان يرغب بسماع القداس، وقد ردّ عليه قائلاً:« لقد سمعت في هذا اليوم قداس الثالوث المقدس، وتلقيت القربان من يد رجل كان مرتديا البياض، وقد نزل من السماء، ثم صعد إلى هناك، بعدما جعلني أعترف بذنوبي، وقد أخبرته بكل ماوقع لي، ومااقترفته من ذنوب، وقد أعطاني تحليلاً، وتناولت القربان من يديه، وبعد ذلك رفع يديه فوقي، وصعد إلى السماء، فهل بعد هذا يابني تطلب مني أن أتلقى

الاعتراف أو القربان من يديك»؟ وقال الراهب بأنه لايتجرأ أن يفعل ذلك، لكن في الوقت نفسه سأله، من كان ذلك بين القديسين، وأجابه رجل الرب بأن ذلك كان بطرس الرسول، فهو الذي أرسل من قبل الرب لتحليله من ذنوبه، وقال هو:« وعلى هذا هل تقيم قداساً تشريفاً للعذراء المباركة، حتى يمكن بوساطتها أن نحصل على حظوة ابنها؟» وقدم الراهب الشكر للرب وهو مسرور، وفعل الذي أمر به.

كيف تحرر القديس غودريك من الشياطين بالصلوات وبعلامة الصليب

وبعد أن أمضى غودريك أربعين سنة في العزلة في فنشلي، أنهكته الأمراض مع تقدم السن، واقترب من النهاية الأخيرة، ذلك أنه في السنوات الثمان الأخيرة تقريباً، التزم الفراش، ولم يعد بإمكانه التقلب على جانبه من دون مساعدة انسان ما، وكانت آلامه في تلك الآونة واغواءاته كثيرة جَداً، حيث لايمكن للسان أن يتحدث عنها، ولاالقلم أن يكتبها، وقدم إليه شيطانان، يحملان رسالة وقالا له:« لقد قدمنا لنحملك إلى جهنم، لأنك رجل عجوز مجنون، وبعدما كنت عاقلاً صرت مجنوناً، لكن غودريك عمل شارة الصليب، وتفوه بصلاة إلى الرب، مما أرغم الشيطانين على الفرار.

كيف ضرب الشيطان غودريك على رأسه وموته

وفيما بعد عندما كان رجل الرب مستلقياً على فراشه، سمع الذين كانوا يتولون خدمته صوتاً يستدعيهم، ذلك أنهم كانوا بالخارج، وركض أحدهم نحو الداخل، فوجده متمدداً على أرض خلوته وهو قد تعرى من ثيابه، فوضعه على الفراش، وسأله لماذا كان متمدداً على الأرض، فقال غودريك:« وقف الشيطان إلى جانبي، ورآني متمدداً من دون انتباه، بعد إغماءة، فقام فجأة فرماني من فراشي وضرب رأسي

بالمقعد» وبعدما قال هذا جعلهم يرون التورم في رأسه، ثم أضاف قائلاً: « لقد هجم الشيطان علي بشكل مفاجىء، حيث لم يتوفر لدي الوقت لحماية نفسي برسم علامة الصليب، وهو يقول: آه ياغودريك الأخرق، أنا لم أستطع قتلك بوساطة أتباعي، لكن وأنت في إغماءة على فراشك، قد قتلتك الآن، وبناء عليه ليكن معلوماً من قبل كل واحد كم هو خطر الاستسلام إلى متع البدن، أو أن يستغرق الانسان بالكسل، فالرب لاينوجد مطلقاً بين الذين يعيشون برفاهية»، ولقد مات الأب المبجل غودريك في الحادي والعشرين من أيار، الذي وافق اليوم الثامن من عيد صعود ربنا، وكانت حياته وأعماله أكثر مما هي انسانية، وفوق قدرة الانسان ليتولى وصفها، وقد دفن في الجانب الشمالي من خلوته أمام درجات مذبح يوحنا المعمدان، وقبره حتى هذه الأيام مقدس بوساطة المعجزات التي تعمل هناك.

تتويج الملك هنري الشاب

في هذه الآونة، أي في عام ١١٧٠م، وفي الثالث عشر من تموز، التقى، بناء على أوامر الملك، واجتمع في وستمنستر روجر رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري، لتتويج هنري أكبر أولاد الملك، وقد جرى تتويجه إثر ذلك من قبل رئيس أساقفة يورك، في اليوم الثامن عشر من تموز، مراغمة لحظر مولانا الملك، الذي بعث برسائل إلى رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين، كان مغزاها مايلي: « نحن نمنعكم بموجب سلطاتنا الرسولية من تتويج الملك الجديد، إذا تمّ العمل من دون موافقة رئيس أساقفة كانتربري وكنيسته، كما لايجوز لأي منكم وضع يده مراغمة للعادات القديمة لتلك الكنيسة ولكرامتها، أو تسهيل القيام بالتتويج المتقدم ذكره»، وكان هذا الحظر — على كل حال — بلا فائدة، فقبل إذاعة الرسائل، كان الملك الشاب، قد جرى تتويجه، وقام الملك بعد ذلك على الفور بعبور البحر، وعقد مؤتمراً

مع رئيس أساقفة مونتميريل Montmirail ، حيث حضر ملك فرنسا أيضاً، وبعد مناقشات طويلة حول اقـامة سلام بينهما، وعندما وصلا إلى القبلة استخـدم رئيس الأسـاقفة العبـارات التـالية:« أنا أقبلكما تشريفـاً للرب»، لكن الملكان تمنعا عن التقبيل، وكأنهما اتفقا اتفاقاً مشروطاً، لأنه وإن كانت نوايـا رئيس الأساقفة صـافية تمامـاً، اعترض الملك دوماً على شكل الكلمات التي استخدمها، من ذلك على سبيل المثال:« إبقاء شرف الرب، وابقـاء نظامي، وإبقـاء الايمان المقـدس للرب»، وكـان رئيس الأسـاقفـة شاكـاً في هذه التـوجسـات من جـانب الملك، خشيـة أنه إذا ماقامت الاتفاقية، أن يعتقد بأنه اعترف بالعادات الظالمة لملك انكلترا.

كيف صنع سلام بين الملك هنري وتوماس رئيس أساقفة كانتربري

عقد ملك فـرنسا ثانية مؤتمراً مع ملك انكلترا، ووليم رئيس أسـاقفة السين، وأسقف نيفـار Nevers، وكـان ذلك في فـريتفـال Freitval، حيث ركب الملك هنري ورئيس الأسـاقفة على انفـراد عن البقية، وقـد ترجلا مرتين عن فرسيهما ثم عاودا الركوب ثانية، وأمسك الملك مرتين الركاب ورئيس الأساقفة راكب، وأخيراً توصلا بوساطة روتريك Rot-ric رئيس أسـاقفة روان إلى اتفاق في أمبـويز Amboise، وصنع سلام بينهما، وكتب الملك هنري الرسـالة التـاليـة إلى ابنه الملك الشـاب:« هذه الرسالة لإخبـارك بأن توماس رئيس أساقفـة كانتربري قد عمل سـلاماً معي حسبما يرضيني، وبناء عليـه آمـرك بعدم التعـرض بسـوء إلى جميع المؤيدين له، وأن تأمر بإعـادة جميع ممتلكاته إليه وكذلك كل ماهـو عائد إلى كهنتـه والآخـرين الذين غـادروا انكلترا من أجله، وذلك كما كـانوا بحوذتهم ثلاثة أشهر قبل مغادرة رئيس الأساقفة لانكلترا، وعليك أيضاً استـدعاء بعضـاً من أقـدم الفـرسـان في سالتـوود Saltwood للمثول أمـامك، وأن تتأكد بوسـاطة أيمانهم الأمـلاك هناك التي امتلكها كـرسي

كانتربري، وكل ماوجد عائد له سوف يتملكه نوابه، وداعاً». وقبل أن يعبر رئيس الأساقفة إلى انكلترا، أرسل رسالة إلى البابا أخبره فيها بأنه عمل سلاماً مع الملك، وقدم البابا في جوابه الشكر إلى الرب، على الشكل التالي:« القلق في القلب وآلام الروح قد قهرانا، عندما نتذكر الآلام والهموم التي أثقلتك، والأخطاء التي تحملتها طويلاً من دون ملل، وذلك في سبيل العدل، ولكي تكمل فضائلك، حافظت على مقاصدك، ولم تهزم من قبل العدوان، الأمر الذي نبدي إعجابنا به وبثباتك، ونهنئك من قلبنا بالرب من أجل هذه المعاناة الطويلة، ولقد تعاملنا منذ وقت طويل مع ملك انكلترا، وغالباً ماحذرناه بلغة ناعمة ولطيفة، وأحيانا بقسوة وبحدة، بأن عليه إعادة النظر بسلوكه وتقويمه، وإنه إذا لم يف بجميع الشروط العائدة للاتفاق الذي عقده معك، ولم يعد إليك وإلى أصحابك جميع الممتلكات التي صودرت، نحن نمنحك سلطة كاملة على الأشخاص جميعاً والأماكن العائدة إلى سلطاتك، حتى تمارس تطبيق النظام اللاهوتي عليهم، من دون استئناف، وفقاً لماتراه مناسباً».

عودة رئيس الأساقفة من المنفى إلى انكلترا

بكفالات من البابا ومن الملك، أبحر رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ونزل في ساندويش في اليوم الأول من كانون الأول، وفور وصوله، وحيث لم تكن هناك حاجة للتسرع إلى مجد الشهادة، التي تشوق إليها بشدة، بعث بالرسالة التالية إلى رئيس أساقفة يورك:« بما أن ملك انكلترا قد رغب بتتويج ابنه، وبما أنه من المعروف أن وظيفة التتويج عائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري صدوراً عن الأعراف القديمة، يبدو لي أخي رئيس الأساقفة أن الملك المذكور، قد وضع جانباً رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، وأمر بوضع تاج المملكة على رأس ابنه بيديك، وأن اليمين المكتوب والقاضي بالحفاظ على حريات المملكة، لم يؤخذ

فقط، لابل إنك لم تطالب به، وعلى العكس من ذلك، نجد أن العادات الظالمة للملكة التي عرضت كرامة المملكة للخطر وللغرق، قد تأكدت بوساطة اليمين الذي أعطي بالاحتفاظ بها إلى الأبد، وبالنسبة إلى هذه القضية، لاننكر أن شدة الملك وعنفه قد سببا كثيراً من الاضطراب، لكننا مع ذلك انزعجنا أكثر تجاه الضعف الذي أبديته أنت مع إخوانك الأساقفة، ويؤسفنا أن نصفه بأنكم كنتم أشبه بكباش بلاقرون، وأنكم تراجعتم بشكل مخجل أمام مطاردكم، ولربما كان قانونيا ياأخانا إيداع هذا المنصب في مقاطعتك لكن في مقاطعة آخر، هو بشكل خاص في المنفى من أجل العدالة، وهو وحده تقدم ليعطي المجد للرب، نحن لايمكننا أن نجد شيئاً من المنطق في ذلك، ولا في قوانين الآباء المقدسين وأعرافهم ليسوغ مثل هذا الصنيع، فلقد سمحت لتلك الأعراف الظالمة بأن تتثبت باليمين، وأهملت حمل ترس الايمان، والوقوف للدفاع عن بيت الرب في يوم المعركة، وبناء عليه لن نلتزم بعد الآن بالصمت، فنكون متورطين في يوم الحساب، بالادانة نفسها مثلك شخصيا، ولذلك نقوم هنا بموجب سلطات الكنيسة الرومانية المقدسة، التي أنا خادمها تحت الرب فنعلن تعليقك عن العمل بأي منصب له علاقة بمركزك الأسقفي».

وبفضل رسالة أخرى من البابا، علق رئيس الأساقفة توماس أيضاً وأوقف عن الممارسات الأسقفية أساقفة: لندن، وسالسبري، واكستير، وسشتر، ورروكستر، وسينت أساف، وللانداف، وكذلك الآخرين الذين ساعدوا في التتويج المتقدم الذكر، وجاء محتوى رسالة البابا كما يلي:« إن القضية التي من أجلها دُفع أخانا المبجل، توماس رئيس أساقفة كانتربري، ونائب الكرسي الرسولي، إلى المنفى، لاأحتاج أنا الآن لأشرحها لكم وأبينها، لأنكم كنتم شهوداً على ذلك وحضوراً، ولأن أخبار ماحدث قد انتشر خلال كنائس الغرب كله، هذا وبما أن ثيوبولد،

صاحب الذكرى الطيبة، ورئيس أساقفة كانتربري من قبل، وسلف رئيس الأساقفة الحالي، هو الذي وضع التاج على رأس ملك انكلترا، وبهذه الوسائط، امتلكت كنيسة كانتربري— كما كانت— الحق في ممارسة هذا العمل، وإنكم لم تترددوا الآن بتجاهل وتحدي رسائلنا الرسولية إلى عمل العكس، في المساعدة على تتويج الملك الجديد، علماً أن رئيس الأساقفة لم يتم إعلامه بذلك، والاحتفال قد جرى في مقاطعته، وأنتم الذين كان بإمكانكم تخفيف نفي رئيس الأساقفة بمثل هذه المواساة، وكان بمقدوركم فعل ذلك، قمتم بالحري بزيادة المسألة سوءاً ضده، ويحزننا أن نقول: زدتم على آلام جراحاته، وفي هذه الحالة، لن نثار لإتخاذ اجراء ضدكم يعادل ماتستحقه خطيئتكم، ومع ذلك أن نمرّ بها ونتجاوزها كليا بصمت خشية— لاسمح الرب— أن يصدر قرار العقوبة الربانية ضدي وضدكم، وذلك إذا أهملنا معاقبة الجرائم التي اقترفت بشكل علني أمام مرأى الناس، وليكن معلوماً بالنسبة إليكم، أننا بوساطة السلطة التي نتملكها من الرب، قد أوقفناكم عن ممارسة عملكم الأسقفي، حتى تظهروا أمام كرسينا الرسولي، وتعملون ترضية، وذلك مالم تعملوا الترضية المتقدم ذكرها، أمام رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، بطريقة يرى فيها أنكم أهل لتخفيف حكمنا ضدكم».

كميف أمر وكلاء الملك القديس توماس القيام بتحليل الأساقفة المحرومين كنسيا

بعدما عاد أسقف كانتربري المبجل إلى كنيسته وسط سرور، وخشوع وتقوى كل من رجال الدين والناس، ظهر موظفوا الملك أمامه مباشرة ووصلوا إليه، مع أوامر من سيدهم ليقوم بتحليل الأساقفة المعطلين وآخرين كان قد حرمهم كنسياً، بحجة أن كل ماصنع ضدهم يزيد من إيذاء عادات المملكة ويفسدها، فأجابهم رئيس الأساقفة، إنه إذا ماأقسم الأساقفة المحرومين وفقاً للشكل الذي وضعته الكنيسة، أي الالتزام

بأوامر البابا، فإنه سوف يوافق على تحليلهم من أجل خاطر الملك، ومن أجل السلام في الكنيسة، وعندما روي هذا إلى الأساقفة، أجابوا بأنهم لن يؤدوا مثل هذا اليمين من دون موافقة الملك، وبعد ذلك بوقت قصير ذهب رئيس الأساقفة لزيارة الملك الشاب في وودستوك، لكنه قوبل من قبل رسل، أمروه باسم الملك بعدم المتابعة، بل العودة إلى كنيسته، وتبعاً لهذا عاد إلى كنت، وهناك أعد العدة للاحتفال بموسم الميلاد الذي كان قد اقترب.

الاستشهاد الرائع لتوماس رئيس أساقفة كانتربري

عام ١١٧١م، فيه في يوم الميلاد، اعتلى رئيس أساقفة كانتربري المنبر، ليقدم قداساً للناس، وبعد الفراغ منه تولى الحرمان كنسيا لنيغل دي ساكفيل، الذي استولى بالعنف على كنيسة هيرجي Herges، وكذلك لنائب رئيس الكنيسة نفسها روبرت دي بروك، الذي استخفافاً برئيس الأساقفة قام بتشويه واحد من خيوله كان محملاً بالمؤن، وبعد هذا حدث في اليوم الخامس بعد يوم الميلاد، وفي حوالي ساعة العشاء، عندما كان رئيس الأساقفة جالساً مع رجال دينه في قاعته، اقتحم الغرفة وليم دي تريسي Tracy ، ورينالد فتز— يوري Fitz-urse ، وهيوج دي مورفيل Morville ، ورتشارد برايتون Briton ، وكانوا قد قدموا من نورماندي، وكانوا حين اقتحموا الغرفة مثل المدفوعين بجنون، وقد أمروه باسم الملك بإعادة الأساقفة المعطلين، وبتحليل الذين تولى حرمانهم كنسيا، وعلى هذا أجاب رئيس الأساقفة بأن القاضي الأدنى لايمكنه التحلل من قرار حكم رئيسه الأعلى منه، وأن مامن انسان يمكنه إلغاء قرار صادر عن الكرسي الرسولي، وإذا ماقام أسقفا لندن وسالسبري مع الأشخاص المحرومين الآخرين بتأدية يمين بالالتزام بطاعته، سوف يوافق بسرعة من أجل تنفيذ ماكان بأذهانهم، وجاءت مغادرتهم بعنف، وفي تلك الأثناء دخل رئيس الأساقفة إلى الكنيسة

للقيام بالقداس، وكان ذلك بناء على نصيحة رجال دينه، ولأن ساعة العشاء كانت قد دنا حلولها، وتولى فعلة الشر ومدبروه لبس دروعهم وحمل أسلحتهم، وتتبعوا عن قرب رئيس الأساقفة، فوجدوا الأبواب مفتوحة خلفه بناء على أوامره، لأنه قال:« إن أبواب كنيسة الرب ينبغي أن تظل مفتوحة، لأنها مكان التجاء لجميع الناس، وعلى هذا لاتدعونا نحوّلها إلى قلعة»، وبدأت الحشود تركض الآن من على جميع الجوانب، ودخل الرجال الأربعة من دون احترام إلى الكنيسة وهم يصرخون:« أين هو الخائن للملكه؟، أين هو رئيس الأساقفة؟»، ولدى سماعه الدعوة إليه استدار لمقابلتهم، ذلك أنه كان قد ارتقى ثلاث أو أربع درجات من درجات السدة وقال لهم:« إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، فها هو هنا هو واقف»، وبعد ذلك استخدموا لغة قاسية ضده مزيجة بالتهديد، فقال لهم:« إنني على استعداد للموت، ذلك أنني أفضل الحفاظ على عدالة الكنيسة وحريتها على حياتي»، فاندفع القتله نحوه بسيوف مجردة، وسقط وهو يردد هذه الكلمات« إلى الرب وإلى القديسة مريم حماة هذه الكنيسة، وإلى القديس دينس أعهد بروحي وبقضية الكنيسة»، وهكذا جرى قتل هذا الشهيد المجيد أمام مذبح القديس بندكت، بتلقي جرح في ذلك الجزء من جسده، الذي كان من قبل قد تلقى عليه الزيت المقدس الذي كرسه للرب، ولم يتورعوا عن تلويث الكنيسة بدم الكاهن، وافساد ذلك اليوم المقدس، بل إنهم قطعوا قحف رأسه، ونثروا بسيوف ملطخة بالدم دماغه على أرض الكنيسة.

كيف نهب القتلة أسلاب الشهيد المبارك وطريقة موته المزعجة

وجرى نقل الشهيد المجيد إلى المملكة السماوية، في حين قام القتلة الدمويون بنهب مقتنياته، واستولوا على ألبسة كهنته، وعلى كل ماوجدوه في مكاتب خدمه، وفي الوقت ذاته كانت جثته المباركة ممددة على أرض الكنيسة، فحملت في حوالي وقت الشفق إلى أمام المذبح

العالي، حيث اكتشف النـاس الواقفون هناك الحقيقة التي كـانوا من قبل يجهلونها، لأنه وإن كـان رئيس الأسـاقفة متخفيـا تحت الرداء الرهبـاني، وهو اللباس الرهباني الذي إرتداه منذ ترقيتـه، فقد وجد مرتدياً لقميص من المسوح، وهذا مالم يسمع به من قبـل، وكان قميصاً طويلاً، حتى أنه غطى حقويه أيضـاً، وكان هناك بعض التساوق في حياته، سـوف نعدده هنا باختصـار: ففي يوم الثـلاثاء كـان رئيس الأسـاقفة قـد غـادر بلاط الملك في نورثأمبتون، كذلك غادر انكلترا في يوم الثلاثاء إلى المنفى، وفي يوم ثلاثاء عاد إلى انكلترا، تماشياً مع وصـاية البابا، وفي يوم ثلاثاء واجه الشهـادة، وفي الصبـاح الباكـر من يوم الأربعـاء انتشرت الأخبـار، بأن القتلة قرروا سلب الجسد من الكنيسـة، ورميه خارج المدينة حتى يمزق إلى قطع من قبـل الكلاب والغــربان، فكان أن بادر راعـي دير بوكسلي Boxley مع رئيس الدير والدير التـابع لكنيسـة كـانتربري، بسرعـة إلى دفنه، من دون الغسل المعتـاد له، لأنه كـان قـد ذبل من طول التقشف، والتف بقميص المســوح، وتقـدس بالغسيـل بدمـه، وكـان من الممكن مـلاحظة كثير من العلامـات المدهشـة التي تزامنت مع شهادته، وكـان أولاها أنه عـانى في تأكيـد العـدالة وفي الحفاظ على حـريات الكنيسـة، وثانيـا، إن مكان آلامــه لم يكن كنيسـة عـادية، بل كــانت أم الكنائس الانكليـزية، وثالثا كـان الزمن هو أيام عيـد الميلاد، وذلك عندمـا أكمل أولئك الخونة عملهم الخيـاني، ورابعاً، هو لم يكن كـاهنا عاديا، بل كـان مقـدم جميع كهنـة انكلترا وأبوهم، وخـامسـاً، هو لم يتـألم في واحـد من الأمـاكن العادية التـابعـة له، بل في المكان الذي تلقى فيـه السيامـة لأن يكون كاهنا، وحيث جرى صب زيت المسح المقدس.

ندامة الملك وكيف أرسل رسلاً إلى روما لتسويغ فعلته

وكان الملك هنـري في أرجنتون Argenton في نورماندي، عندما سمع بأخبـار هذه الفعلة الشنيعـة، وفي البـداية انـزعج بذلك انزعـاجـاً

كبيراً، وغير ثيابة الملكية واستبدلها بمسوح ورماد، ودعا إلى الرب القدير ليكون شاهداً بأن هذه الفعلة قد عملت من دون رغبته أو موافقته، وكل ماهنالك أنه كان مذنباً في أنه لم يحب رئيس الأساقفة كما ينبغي، وحول هذه النقطة أخضع نفسه لحكم الكنيسة، ووعد بأن يلتزم بتواضع بحكمها مهما كان، ولهذا الغرض أرسل رسلاً لتسويغ موقفه أمام الحبر الأعظم، ولتأكيد براءته، لكن البابا رفض استقبالهم، ولم يسمح لهم حتى بتقبيل قدميه، وقد استقبلوا بعد ذلك من قبل الكرادلة، لكن من دون فائدة سوى سماع كلمات رسمية، وفي يوم الخميس قبل الفصح، وعندما كان البابا مرتديا ثيابه للاعلان بشكل عام قرارات التحليل أو الحرمان الكنسي ضد من يستحقون ذلك، جرى اخبار سفراء ملك انكلترا بأن البابا قد قرر، بناء على نصيحة جميع أعضاء المجلس، أن يصدر قرار حرمان من شركة المؤمنين على سيدهم بالاسم، خلال ممالكه كلها، وأن يؤكد القرارات التي كانت قد صدرت على رئيس أساقفة يورك، والأساقفة الانكليز الآخرين، وفي هذا الوضع أخبر الكرادلة البابا بأن رسل الملك قد صدرت إليهم تعليمات في أن يقسموا بأن سيدهم سوف يلتزم بكل قرار يصدر عن البابا والكرادلة في كل مجال، وتبعاً لذلك الاقتراح أدى الرسل اليمين بالموافقة على ذلك، وبذلك أمكن تجنب قرار الحرمان من شركة المؤمنين، وحذا رسل رئيس أساقفة يورك والأساقفة الآخرون حذوهم وفعلو مافعلوه، وبناء عليه قام البابا في ذلك اليوم بحرمان القتلة الأشرار للقديس توماس رئيس أساقفة كانتربري الشهيد، كنسيا، وكل الذين أشاروا عليهم بذلك، أو ساعدوهم أو وافقوا على فعلتهم، وكذلك ضد كل من يستقبلهم في أراضيه، أو يحتفظ بهم، وكان الرجال الأربعة آنذاك في نيربوراKnaresborough التي كانت قلعة الملك، حيث بقيوا هنالك لمدة سنة.

المعجزات التي بدأت الآن بالظهور تكريما للشهيد المقدس

بعد وفاة توماس الشهيد المبارك، توقفت كنيسة كانتربري لمدة سنة كاملة عن إقامة الطقوس اللاهوتية، وعملت نحيباً مستمراً عليه، فقد جرى نزع البلاط، وأوقفت النواقيس عن القرع، وجردت الجدران من زينتها، وأقامت الكنيسة كلها مآتم في حزن وخنوع، ورجالها يرتدون المسوح ويضعون الرماد، وفي نهاية السنة، وفي يوم عيد القديس توماس الرسول، اجتمع معاونوا الأساقفة مع بعضهم بناء على استدعاء كنيستهم الأم، كنيسة كانتربري، وجاءوا بناء على توجيه البابا، وذلك من أجل استعادة الكنيسة الملوثة بعد تعليقها الطويل، إلى سالف عهدها، ووقتذاك قام بارثولميوأوف اكستير، بالاحتفال بقداس مهيب، بناء على طلب الرهبان، وألقى موعظة بالناس، بدأها بهذه الكلمات:« بعد حشود من حزني، توبتكم تبهج روحي».

حول الرعود التي سمعت بشكل عام وأعمال التكفير التي عملها الملك من أجل وفاة القديس توماس

عام ١١٧٢م، فيه في ليلة عيد الميلاد، سمعت أصوات رعود، بشكل عام في جميع أرجاء انكلترا وايرلندا، وغاليا، وكانت مفاجئة ومرعبة، تدعو الناس من مختلف الأقطار للقدوم وشهود المعجزات الجديدة للقديس توماس الشهيد، ذلك بما أنه سفك دمه من أجل الكنيسة العالمية، لذلك ينبغي أن تتثبت شهادته في الذاكرة التقوية لجميع الناس، وفي الوقت نفسه، عندما كان الملك هنري في ايرلندا، بدأ هيوج دي سينت مور Maur، ورالف دي في Fay، عم الملكة اليانور— بموافقتها كما قيل— بابعاد الملك الشاب عن أبيه، حيث أكدوا أنه وضع متناقض أن يكون الواحد ملكاً، ومع ذلك لايمتلك أية سلطة على ممالكه، وقام في الوقت نفسه والده الملك، قبل مغادرة ايرلندا، بالدعوة إلى مجمع في ليسمور Lismore ، حيث جرى الترحيب بسرور بقوانين انكلترا

من قبل الجميع، وجرى تأكيدها بالأيمان، ثم وضع الملك جميع المدن، والقلاع التي استولى عليها في ظل حماية أمينة، وبما أن قضايا الأعمال المتنوعة قد تطلبت من الضروري، وجوده في مكان آخر، أقلع في مساء عيد الفصح، ورسا في اليوم التالي في ويلز، وتابع من هناك إلى بروكستر، وعبر إلى نورماندي بريح موائمه، ومن هناك ذهب من دون تأخير لمقابلة سفيري البابا: ألبرت، وثيودواين Theodwine وأقسم أمامهما بعد نقاش صعب يمينا أن موت الشهيد المجيد توماس، لم يكن متماشياً مع رغباته أو بموافقته، أو جرى بوساطة أية مؤامرة من قبله، بل كل مافي الأمر أنه تفوه ببضع كلمات وهو غاضب، أثارت مجموعة من الفرسان ومن حاشيته، الذين انفعلوا كثيراً فأقدموا على إتخاذ موقف ضد رئيس الأساقفة، وانتظروا مناسبة لمقتله، وبذلك وضعوا رجل الرب للموت، وقد طلب الملك التحليل مع أعظم التواضع، وفي سبيل ذلك. وعد— بناء على اقتراح النائبين البابويين— بتقديم مايكفي من المال للانفاق على مائتي فارس لمدة سنة، للدفاع عن الأرض المقدسة، ثم أن يجري السماح للاستئنافات أن تعمل من دون أية عوائق إلى الكرسي المقدس، وأن يلغي العادات التي أخرجت في أيامه والتي هي مضادة لحريات الكنيسة، وأن يعيد إلى كنيسة كانتربري كل ماأخذ منها منذ مغادرة رئيس الأساقفة، وأن يسمح للذين كانوا منفيين، من كلا الجنسين، من أجل الشهيد المبارك، بالعودة إلى الوطن، واستئناف تملكهم لمتلكاتهم، وحول هذه النقاط جميعاً أقسم الملك على الالتزام والتطبيق، وفقاً لأوامر مولانا البابا، من أجل غفران ذنوبه، وأقسم اليمين نفسه الملك الشاب ابن الملك هنري، الذي عبر إثر ذلك مباشرة مع قرينته مرغريت إلى انكلترا، وفي العشرين من الشهر نفسه، قام روتروك Ro-troc رئيس أساقفة روان، يعاونه الأساقفة المساعدون لكانتربري بتتويج مرغريت المتقدم ذكرها ملكة على انكلترا، وفي العام نفسه أعيد غيلبرت أسقف لندن إلى منصبه الأسقفي بعدما أقسم أنه في إطار أحسن مايعرفه

هو لم يحّرض على مــوت القـــديس تومـــاس الشهيـــد لابـالكلام، ولابالأفعال، ولابالكتابة.

حول زواج جون ابن الملك
وحول الانتخاب إلى كرسي كانتربري

سنة ١١٧٣م، فيها حصل الملك هنري بوساطة الزواج لابنه جون— المعروف باسـم بلا أرض— على الابنة الكبرى لهيوبرت كونـت مورين Maurienne، من خلال زوجتـه أرملة هنري دوق ساكسـوني، مع أنها لم تكن قـد بلغت السابعـة من عمـرها، وانتخب في السنة نفسها أيضـاً، روبرت راعي دير بك رئيساً لأساقفة كانتربري، وجرى ذلك في السابع من آذار، في لامبث Lambeth بحضـور الأسـاقفة المسـاعـدين لتلك المنطقـة، لكن راعي الدير رفض كليـا أن ينتخب، ولاندري أكـان ذلك لضعف، أو لأسباب ودوافع دينية، فهذا مالم نعلمه.

وفي السنة نفسهـا اتبع الملك هنـري الشـاب النصـائح الشريرة، فترك والده، وانسحب إلى بلاط والد زوجتـه، أي ملك فـرنسـا، وبناء عليـه اختار رتشـارد دوق أكوتين، وغيوفـري كونت بريتـاني أخاهم بدلاً من أبيهم، وكان ذلـك— كما يقال— بناء على نصيحة أمهم الملكـة إليانور، وهكذا تطور الشقاق من على الجانبين وازداد تدهوراً مع السلب وأعمال الحريق، وبذلـك نحن نعتقـد بشكـل صحيح أن الرب أراد أن يعـاقب الملك هنري لسلوكه نحو القديس توماس، فأثار ضده أولاده الذين هم من لحمه ودمـه الذين طاردوه حتى الموت، كما سيظهر التـاريخ المقبل، وصار في السنة نفسها رالف دي وورنفيل Warneville الحافظ لغر فة الآثار المقدسـة في روان، وخازن يورك، مستشـاراً لانكلترا، وفي الوقت نفســه، وافق هنري ملك انكلترا على أن تجري الانتخـابـات للكنائس الشاغرة بشكل حـر، وجاء ذلك بناء على تحريض الكاردينالين ثيودواين

وألبرت، وجرت التعيينات التالية بموافقة قاضي الملك: رتشارد، رئيس شمامسة بواتيه إلى كرسي ونكستر، وغيوفري رئيس شمامسة كانتربري للمنصب نفسه في إيلاي، وغيوفري رئيس شمامسة لنكولن إلى المنصب نفسه في لنكولن، ورينالد رئيس شمامسة سالسبري إلى المنصب نفسه في باث، وروبرت رئيس شمامسة أكسفورد إلى المنصب عينه في هيرفورد، وجون عميد شستر إلى أسقفية الكنيسة نفسها.

انتخاب رتشارد إلى رئاسة أساقفة كانتربري وتطويب القديس توماس

وفي السنة نفسها، في التاسع من تموز، انتخب الأساقفة المساعدون لمنطقة كانتربري مع مقدمي الدير، رتشارد رئيس رهبان دوفر، لرئاسة الأساقفة، وأقسم على الفور الأسقف المنتخب يمين الولاء للملك،« بالحفاظ على نظامه»، ولم تكن هناك اشارة إلى الاعتراف بعادات المملكة، وجرى هذا في وستمنستر، في بيعة القديسة كاترين، وذلك مع موافقة قاضي الملك، وقرىء في المؤتمر أيضاً رسالة البابا، على مسمع من جميع الأساقفة والبارونات، وقد حوت هذه الرسالة إلى جانب أمور أخرى مايلي:« إننا نحث أخوتكم بوساطة سلطاتنا الرسولية، ونأمركم بدقة بالاحتفال في كل سنة بيوم توماس الشهيد المجيد، وهو اليوم الذي تألم فيه، وأن تسعوا بصلواتكم النذرية إليه، للحصول على العفو عن ذنوبكم، ذلك أنه من أجل المسيح تحمل النفي بشجاعة خلال حياته، والشهادة في الموت، علّه يتوسط لدى الرب من أجلنا، من خلال ابتهالات المؤمنين»، ومـاأن اكتملت قراءة هذه الرسالة، حتى رفع الجميع أصواتهم عالياً، وصرخوا:« الشكر لك يارب»، لأنه فضلاً عن ذلك كان جميع أساقفته المساعدين، لم يظهروا نحوه الاحترام الذي هو جدير به، كأب لهم، عندما كان في المنفى، أو بعد عودته من منفاه، بل قاموا جميعاً بتعذيبه، فاعترفوا الآن بشكل معلن بأخطائهم وذنوبهم، بفم

واحد منهم، ردد مايلي:« كن حاضراً يارب، واستمع إلى ابتهالاتنا، حتى نتمكن نحن الذين نعـرف أنفسنا مذنبين، من التحـرر بوساطة القـديس تومـاس، الشهيـد والكاهن الأعلى»، وفي السنـة نفسهـا، عملت مـريم، أخت الشهيد المقدس نفسـه، راعية لدير باركنغ Barking، وجاء ذلك بناء على أمر من الملك، وكذلك ألقى هنري، الملك الصغير، الحصار على قلعة غـورناي Gornai ، وأسر هناك هيـوج صاحب القلعـــة ، وابنه مع أربعـة وعشرين فارسـاً، وقـام بإحراق القلعـة، وأرغم سكان البلدة على دفع غرامـة، وفي السنة نفسها تخلى أيضـاً روبرت ايرل أوف ليستر، ووليم دي تـانكرفيـل Tankerville ، مـع كثير من الكـونتـــــــات والبارونات، عن الملك هنري، والتحقوا بالملك الشاب.

ملك فرنسا يغزو نورماندي مع جيش

وحشد في السنة نفسها لويس ملك فرنسا، جيشاً كبير العدد، للاغارة على نورماندي وتشعيثهـا، ودخل إلى تلك المقاطعـة، وألقى الحصار على ألبمارل Albemarle ، وأرغم وليم صـاحبهـا، مع الكونت سيمـون مع عدد آخر من النبلاء، على الاستسلام، ثم استولى بعد ذلك على قلعة درينكورت Driencourt ، ووضع حـاميـة فيهـا، وزحف من هناك إلى قلعة آرش Arches وفقد على طريقـه كونت أوف بولون، وبناء عليـه حزن كـونت أوف فـلاندرز على أخيـه، وعـاد إلى منطقته، وكـان هنري الملك القديم طوال ذلـك الوقت في روان، كما يبدو غير مهتم بما كان يجري، لابـل أكثر من ذلك عـزم على الصيد، وقد أبدى نحـو جميع الذين جاءوا إليـه السرور وملامح ضـاحكة، لكن الذين كـان قد جمعهم من حـوله منذ سنواته الأولى، بدأوا ينفضـون من حوله، لأنهم اعتقـدوا أن ابنه قـد امتلك كل الظروف المسـاعـدة ليكون فـوراً ملكاً في مكانه، وكـان ملـك فـرنسـا الآن، مـع الملك الصغير، يحاصران فيرنويل Ver-neuil عندمـا أرسل الملك هنري رسـلاً إلى الملك الفـرنسي، ينذره بأن

يغـادر نورمـاندي من دون تأخير، أو أنه سـوف يزحف ضـده في ذلك اليـوم بالذات، وكـان ملك فرنسـا، يعـرف بأن ملك انكلترا أميراً قـوياً جـداً، وحـاد الطبع، لذلـك اختـار الانسحـاب وآثر ذلك على القتـال، ولذلك تراجع من أمام وجه الملك هنري، وعاد بكل سرعة إلى فرنسا.

تدمير ليستر

وفي السنة نفسهـا، جـرى في الرابع من تموز، حصـار مـدينة ليستر، وذلك— كما قيل— بناء على أوامر الملك، لأن الايرل صـاحبها قد تخلى عن الملك، والتحق بـابنه الملك الشـاب، وعندمـا جـرى احـراق الجزء الأكبر من المدينة، بدأ سكانها يبحثـون مسألة السـلام وتم الاتفـاق على شرط أن يدفعوا ثلاثة آلاف مارك إلى الملك، مع منحهم الإذن بالانتقال إلى أي مكان يختارونه، وبناء عليـه أعطي لهم الإذن بالذهاب والسكنى في أي من مـدن الملك وقـلاعه يختـارون، وبعـد مغادرتهم، جـرى هدم أبواب المدينة مع جزء من الأسـوار، وأعطيت هدنة إلى الجنود الذين في القلعة حتى عيـد القديس ميكائيل، وبناء عليه انتهى الحصـار في الثامن والعشرين من تموز، وبعـد هذا ادعى وليـم ملك اسكوتلندا ملكيـة مقاطعـة نورثأمبتون، التي كانت قـد منحت إلى جده الملك داوود،الذي تملكهـا لبعض الوقت، لكن الملك الانكليـزي رفض منحـه إياها، وبناء على ذلك حشـد وليم جيشـاً من الويلزيين والاسكـوتلنديين، وزحف بصورة انسان واثق خلال أراضي أسقف درم، وأحرق عدداً من القرى، وقتل كل من الرجال، والنساء والأطفال، وحمل معه منهوبات لاتحصى، وفي سبيل صـد الغزاة احتشد النبـلاء الانكليز مع بعضهـم، وأرغموا وليم على التراجع، ولاحقـوه حتى لوثيـان Lothian ، ودمـروا تلك المنطقـة بالنار والسيف، وقـد نهبـوا كل مـاوجـدوه في الحقـول، وأخيراً عملوا هدنة، بناء على مبادرة من الملك الاسكوتلندي حتى عيد هيلاري Hilary، وعادوا منتصرين إلى انكلترا.

كيف جرى أسر ايرل ليستر وكونت فلاندرز وسجنهما

وعندما سمع روبرت ايرل ليستر بالذي حدث لمدينته، امتلأ بالأسى، وعبر من خلال فلاندرز مع زوجته وهو على طريقه إلى انكلترا، وحشد هناك عدداً كبيراً من النورمان والفلمنكيين من الفرسان والرجالة، وأبحر ونزل في والتون في سفولك Suffolk في التاسع والعشرين من ايلول، وقام على الفور بإلقاء الحصار على القلعة، لكن من دون نجاح، وزحف من هناك في الثالث عشر من تشرين الأول، وهاجم قلعة هيجنت Hagenet ، وأحرقها، وأسر هناك ثلاثين فارساً، وأرغمهم على دفع الفدية، ثم إنه عاد إلى فيرمنغهام Fermingham، لكنه أثناء اقامته أعطى الحكم إلى هيوج بيغود Bigod صاحب القلعة، وحوّل تفكيره واهتمامه نحو ليستر، وزحف في ذلك الاتجاه، وحاول وهو على طريقه أن يفاجيء إدموندبري Edmunbury، لكنه منع من قبل جيش الملك الذي كان معسكراً هناك لحماية تلك القطعة من البلاد، وبناء عليه جرى تطويق الايرل بقوات ضخمة، وكان مع الإيرل ثلاثة آلاف فلمنكيين، فيهم وضع ثقة خاصة، ولذلك قرر المغامرة بالقتال، وبناء عليه بدأ الاشتباك، وبعد تقلبات عديدة، وقع الايرل، والكونتسة، مع جميع الفلمنكيين، والنورمان، والفرنسيين، بالأسر، وقد حدث هذا في السادس عشر من تشرين الأول، وكان بيد الكونتسه خاتم جميل، فطوحت به في النهر القريب، مؤثرة ذلك على السماح للعدو بالحصول على مثل هذا الربح، بحكم وقوعها بالأسر، وأخيراً جرى قتل الجزء الأكبر من الفلمنكيين، أما الباقين فقد أغرقوا، ولكن الآخرين اتخذوا أسرى.

كيف أخذ الملك كثيراً من أعدائه أسرى

وعندما كان الملك هنري الأب متوقفاً في نورماندي، جرى اعلامه بأن عساكره مع رجال برابانت Brabantوقطاع الطرق، قد

فاجأوا العساكر الفوضوية لابنه، وحصروهم في مدينة دول Dole ، وفور تلقيه هذا الخبر، ركب حصانا، ووصل في الصباح التالي إلى المعسكر، وبعد عدة أيام من المقاومة تسلم المستسلمين، لكن قبل وصوله كان الجزء الأكبر منهم قد قتل من قبل قطاع الطرق، وكان بين الأسرى رالف ايرل شستر، الذي كان قبل وقت قصير فقط قد هجره والتحق بابنه، ووليم فورليغري Fulgeriis، ووليم باتريك، ورالف دي لى هي Haie ، وهاسكلف Hasculph دي سينت هيلاري، وذلك إلى جانب ثمانين فارساً، وزحف في السنة نفسها النبلاء الانكليز بصحبة جيش كبير، لقمع عجرفة بيغود، لكن عندما كانت الأوضاع بحال اعتقد فيها الجميع أنه سوف يهلك، توسط الوسطاء بينهم، وجرى عقد هدنة حتى أحد العنصرة، وبناء عليه رافقه أربعة عشر ألفاً من الفلمنكيين سالماً خلال اسكس وكنت، وجُهز في دوفر بسفن لعبور القنال، وفي السنة نفسها ذهب إلى روما رئيس أساقفة كانتربري المنتخب، ويرافقه أسقف باث.

الاستيلاء على قلعة إكسهولم وأسر كتلة كبيرة من الرجال

عام ١١٧٤م، فيه أعلن روجر دي ماوبري Mowbray عن تخليه عن الولاء للملك القديم، ورمم القلعة المهدمة في جزيرة إكسهولم، غير أن عدداً كبيراً من رجال لنكولنشاير عبروا إلى هناك بالقوارب، وألقوا الحصار على القلعة، وأرغموا شحنتها مع جميع الفرسان على الاستسلام، ثم إنهم أعادوا هدم القلعة وحولوها إلى خرائب، وفي اليوم الأخير من شهر نيسان، سمع الملك القديم بأن ابنه رتشارد قد استولى على قلعة سانتونغ Santonge ، فزحف ضده لاستردادها مع رجال بواتو، وأظهر فرسان رتشارد عدم احترام لكل من الرب والكنيسة، فدخلوا إلى الكاتدرائية، وحولوها إلى قلعة، وشحنوها بالرجال المسلحين والمؤن، وسمع الملك بأن الأعداء يحتلون ثلاثة مواقع حصينة،

فاستعد للهجوم عليهم، وعلى الفور جرى الاستيلاء على موقعين، ثم إنه اقترب من الكاتدرائية التي كانت مشحونة بالعساكر، وبأناس غير منضبطين، ولم يرغب بالهجوم عليها، بل أراد تنظيفها من المنتهكين لحرمتها، وكان تعداد مجموع الذين جرى أسرهم، وكانوا في الكنيسة أو في مكان آخر، ستين فارساً وأربعمائة من أصحاب القسي الزيارة، وبهذه الوسيلة عاد الهدوء إلى هذه المنطقة، وهنا وجد هنري نفسه مرغماً على العودة إلى نورماندي، لأن فيليب كونت أوف فلاندرز، كان قد أقسم على الانجيل المقدس، بحضور لويس ملك فرنسا مع نبلاء ذلك الملك، بأنه سيقوم بعد خمسة عشر يوماً من حلول عيد القديس يوحنا المعمدان بغزو انكلترا بالقوات، واخضاعها ووضعها تحت حكم الملك الشاب، وتحمس الملك الشاب لدى سماعه لهذه الأخبار، فوصل إلى وتساند Witsand ، في الرابع عشر من تموز، مع نية إرسال رالف دي لى هي مع جيش إلى انكلترا، وأرسل ايرل فلاندرز مقدما ثلاثمائة وثمانية عشر فارساً محنكاً لنقلهم إلى انكلترا أيضاً، ومالبث هؤلاء أن نزلوا في آرويل Arwell(قرب هيرويك Harwick) ، وكان ذلك في الثامن والعشرين من حزيران، واستولى هناك على غنائم كثيرة، إلى جانب إرغامهم كثيراً من الأسرى الذين اعتقلوهم على دفع مبلغ كبير من المال فدية لأنفسهم، وعندما رأى رجال العدالة الملكية هذا، اتفقوا بالاجماع على ارسال رتشارد، الأسقف المنتخب لونكستر لإخبار الملك بالمخاطر التي تهدد انكلترا، وعبر الأسقف من دون تأخر إلى نورماندي ووضع أمام الملك تقريراً صادقاً حول كل ماكان يجري في انكلترا.

كيف عاد الملك إلى انكلترا وقيامه بزيارة لضريح القديس توماس للصلاة هناك

واستقبل الملك الأسقف، بالاحترام اللائق، واستعد على الفور للعبور إلى انكلترا، وأخذ معه الملكة إليانور، والملكة مرغريت، وابنه

جـون، وابنتـه جـوانا، وأرسل أمـامـه ايرل ليستر مـع كـونتسـة ليستر والأسرى السجناء الآخرين إلى باربفلوف Barbefleuve، حيث ذهب على ظهـر سفينة مـع جيش كبير، لكن الريح لم تكن مـواتيــة، وخـاف البحارة من المغـامرة في ذلك اليوم، وأدرك الملك أن البحر كـان هائجاً، فرفع عينيه نحو السماء، وتفوه بالكلمات التالية بحضور جميع قومه:« إذا كانت نواياي موجهة للحفاظ على السلام لكل من كهنتي وشعبي، وإذا كـان ملك السماء قـد قضى بإعــادة الهدوء إلى مملكتي عندمـا أصل إلى هناك، ليمنحني وقتهـا الوصـول إلى الشــاطىء بأمـان، ولكن إذا كـان غضبـه قـد ثار، وقضى بأن أزور مملكة انكلترا بعصـا غضبـه، أتمنى أن لايسمح لي بالوصـول إلى شـواطىء تلـك البـلاد»، وعندمـا أكمل هذه الصــلاة، أقلع في ذلك اليــوم نفســه، وبعــد عبــور طيب وصل إلى ثاوثأمبتون بسلام، ثم إنه صـام على الخبز والماء، ولم يدخل إلى أي مدينة حتى وفى بعهد كان قـد قطعه على نفسه بفكره، في أن يصلي عند ضريح القـديس تومـاس، رئيس أساقفـة كـانتربري والشهيـد المجيد، وعندمـا وصل إلى مقربة كانتربري، ترجل عن ظهـر حصانه، ووضع جانباً جميع الشعارات الملكيـة، وسار حافي القـدمين، وعلى شكل حاج نادم مبتهل، ووصل إلى الكاتدرائيـة في يوم الجمعة الثـالث عشر من حـزيران، ومثل حزقيـا توجه نحو ضريح الشهيـد المجيد مع الدمـوع والتنهدات، وتمدد ســاجــداً على الأرض مع يديه ممدودتان إلى السماء، وتابع تـأدية صـلاة طويلة، وفي الوقت نفســه قام أسقف لندن بالاعـلان أمام الناس— بناء على أمـر من الملك— في مـوعظة وجههـا إلى الشعب، بأنه لم يأمـر، ولم يرغـب، ولم يتآمر بأي شكل مـن الأشكال من أجل موت الشهيد، الذي اقترف نتيجـة لســوء فهم من القتلة لكلمات تفـوه بها الملـك متسرعـاً، ولذلك طلب التحليل مـن الأسـاقفـة الذين كـانـوا حـاضرين، وجـرد ظهره، فتلقى من ثلاث إلى خمس جلـدات، من الأعداد الكبيرة من كتلة اللاهوتيين الذين تجمعـوا هناك، ثم قـام الملك بإعـادة ارتداء مـلابسـه،

وعمل تقـدمة ثمينة مكلفـة إلى الشهيـد، وعين مبلغ أربعين باوند سنويا من أجل الشمـوع لإحراقهـا حـول ضريحه، وأمضى بقية اليـوم والليلة التـاليـة في حـزن وآلام في النفس، ولمدة ثلاثة أيام لم يعـط الملك نفسـه راحة، بل أسلم نفسـه للسهر، والصلاة والصـوم، وبهذه الوسائط أمكن تأمين حظوة الشهيد المبارك ورضـاه، وفي ذلك اليوم بالذات الذي صلى به حتـى يرى عـــلامـــة الغفـــران، ألقى الـرب بين يديه وليـم ملك الاسكوتلنديين، الذي وضع قيد الاعتقـال في قلعة رتشموند، وفي ذلك اليوم نفسـه حدث أيضاً أن الاسطول الذي جمعه الشـاب من أجل غزو انكلترا تشتت بسبب الأنواء وكـاد أن يضيع، ودُفع الملك الشاب عـائداً إلى ساحل فرنسا.

أسر وليم ملك اسكوتلندا

والطريقـة التي أصبح بها الملك الاسكوتلدني أسيراً، كانت باختصـار كمايلي: فقـد غزا نورثأمبرلاند كما فعل في السنـة المتقدمـة، بقصد دمجهـا بممتلكاته، لكن نبـلاء تلك المنطقة، تصـدوا له بالسلاح، وبعـد نشوب معـــركـة أخـــذوه أسيراً، وجـرى مقتل عـــدد كبير من أولئك الأشرار الاسكوتلنديين، وكـــانوا لايعـــدون ولايحصـــون، ووُضـع الملك رهن الاعتقـــال في قلعـــة رتشمـــوند، وبذلـك تحققت نبـــوءة ميرلين في قـوله:«سوف يـوضع لجام على فـكيه مصـــنوع من قلـب أرمــــوريكا Armorica »، يعني قلعـــة رتشمـــوند، التي كـــانـت في تلك الآونة مملوكة من قبل أمراء أرموريكان، وكانت كذلك منذ العصور القديمة.

ولكي نقدم تقويماً صحيحاً للمنافع التي نتجت للملك من توبته عند ضريح الشهيد، والوساطة التي عملهـا الشهيد من أجله، علينا أن نفعل ذلك في نهاية تاريخنـا، وعندمـا فـرغ الملك من صلـواته ذهب إلى لندن، حيث استقبل باحترام من قبل الشعب، ومن هناك ذهب إلى هنتنغـدون حيث حاصر القلعة واستولى عليهـا في التاسع عشر من تموز، وقدم إليه

هناك فـرسـان ايـرل ليستر، وسلمـوا إليـه قلعتي غـروبي Grobi، وماونتسـورل Mountsorel ، من أجل أن يظهر تقـديراً أعظم نحو سيـدهم، وفي الثـاني عشر من تموز، استولى النبـلاء الشماليـون، مع الأسقـف المنتخب للنكـولـن، وابن الملـك على رأسهـم، على قلعـة ميلسارت، Malessart، التي كانت قلعة روجر دي ماوبري، وأخذت العسـاكـر الآن تتقـاطر من كل جـانب، ولذلك قـرر هنري أن يحاصر قلعتي هيـوج بيغـود: بنغي Bungay، وفـرامنغهـام Framingham، وشعـر الايرل أن لاأمل لديه بالمقـاومـة النـاجحـة، لذلك قـدم رهائن، ودفع ألف مـارك، وبذلك ضمن السـلام، وكـان ذلك في الخامس والعشرين من تموز، ووقتهـا جـرى السماح لجيش الفلمنكيين، وهو الجيش الذي بعث به من قبل الكونت فيليب، بالعودة لكن بعدما أرغم أفـراده أولاً على أداء يمين أنهم لن يغـزو إنكلترا ثانية، وأيضـاً غـادرت انكلترا عساكر الملك الشـاب، وهي التي كان يقودها رالف دي لى هي، من دون معيًقات، فضـلاً عن هذا أرسل روبرت ايرل أوف فيرار -Fer rars، وروجر دي ماوبري Mowbray، اللذان كانت قلعتاهما: ثيرسك Thirsk وستوتبري Stutbury، آنذاك محاصرتين من قبل الملك، أرسلا مندوبين يسألان السـلام، والتقى وليم ايرل أوف غلوستر، ورتشـارد ايرل أوف كلير، الملك، ووعـداه الالتـزام بطاعة أوامـره، وهكذا وجـد الملك نفسـه وقد قهر جميـع أعدائـه، واسترد السلام إلى انكلترا، عبر إلى نورمـانـدي في السـابع من تموز(كـذا)، ومعـه أسراه: ملك اسكوتلندا، وإيرل ليستر، وهيوج دي كاستيلو Castello .

كيف تخلى ملك فرنسا عن حصار روان

وعندمـا نزل الملك هنـري في نورمـادي، في الحادي عشر من تموز، وجـد مـدينـة روان محاصرة، لأن لويس ملك فـرنسـا، وهنري الملك الشاب، وكونت فـلاندرز، كانوا قد حشدوا قـوة كبيرة في غياب الملك،

وضغطوا بشدة على السكان، لكن عندما سمع ملك فرنسا بوصول ملك انكلترا، تراجع، لكن ليس من دون الإساءة إلى سمعته، واستولى الجند الانكليز على كميات واسعة من أسلحته وعتاد الحرب.

وعاد في السنة نفسها رئيس أساقفة كانتربري من روما، وقد جلب معه الطيلسان ورئاسة انكلترا، فقد وصل إلى لندن في الثلاثين من آب، فاستدعى رجال الدين الرئيسيين العائدين إلى الكنائس الشاغرة، وكذلك الذين انتخبوا أساقفة مؤخراً وجديداً، وثبت وكرّس الأساقفة المنتخبين لوينكستر، وإيلاي، وهيرفورد، وشستر، أما غيوفري الأسقف المنتخب للنكولن، والذي لم يكن قد تثبت بعد، فقد عبر البحر، وبنيته ارسال رسل إلى روما، أو الذهاب إلى هناك شخصياً.

كيف صنع جميع أبناء الملك سلاما مع أبيهم

سنة ١١٧٥م، فيها بدأ لويس ملك فرنسا، وكونت أوف فلاندرز، يشعران بالنفقات الكبيرة التي تحملاها في سبيل مساندة الملك الشاب لانكلترا، وتفكرا بالخسائر بالأرواح والأملاك التي ألمت بشعبيهما، فوعدا بالتمنع عن غزو نورماندي، وبذلا جهديهما لمصالحة الملك مع أولاده، الذين عرفوا جيداً، بأنهم جنوا غضب أبيهم، وكراهية رجال الدين، ولعنة الناس جميعاً، وبناء عليه علم الملك من خلال تقارير الرسل، بأن جميع خصومه قد أصبحوا نادمين، فاستعد لاستقبالهم في مان Mans ، حيث قدم في البداية ولداه: غيروفري ورتشارد الولاء إليه، وأقسما يمين التابعية، وبعد عدة أيام، مثل أمام الملك القديم، الملك الشاب، مع رئيس أساقفة روان وعدد كبير آخر من الأساقفة والبارونات، في بوري Bure في نورماندي، وقد ألقى بنفسه على قدمي أبيه، وطلب رحمته، وأثير الملك والده بالعاطفة نحو ابنه، لأنه كان يحبه بشكل كبير، ولأنه أدرك اخلاصه، توقف عن غضبه عليه، وتلقى ولاءه مع يمين التابعية، وعندما اكتمل عمل السلام، وتأكد تماما بالقبلة،

أطلق سراح تسعمائة وستة وتسعين فارساً من دون فدية، وكان قد أسر هؤلاء خلال الحرب، لكن قلة، كانت أعمالهم الشريرة جداً قد دفعته إلى الغضب، على الرغم من ميوله الرحيمه، أبقاهم بالاعتقال، وأيضاً، أطلق الملك الشاب جميع الفرسان الذين أسرهم في الحرب، من دون فدية، وقد تجاوز عددهم المائة الواحدة، ثم أرسل والده الملك رسائل إلى جميع المناطق في ممالكه لإخبارهم عن المصالحة التي تمت، حتى يمكهنم وهم الذين عانوا بشكل عام من الحرب وتألموا، أن يبتهجوا في إعادة إقامة السلام، وأوضحت الرسائل أن جميع القلاع التي حصنت ضده أثناء الحرب،، ينبغي أن تعود إلى وضعها الذي كانت عليه قبل بداية الأعمال العدوانية.

إقامة وليم ملك اسكوتلندا سلاماً مع الملك هنري

وأقام في السنة نفسها وليم ملك اسكوتلندا، الذي كان سجينا في فالي، سلاماً مع الملك هنري ملك انكلترا، وكان ذلك في الثامن من كانون الأول، وفق الشروط التالية: أعلن ملك اسكوتلندا عن نفسه تابعاً لملك انكلترا، وقدم ذلك عن مملكة اسكوتلندا وعن جميع ممتلكاته، وقدم الطاعه له والولاء على أساس أنه مولاه الخاص، وكذلك إلى هنري ابن الملك، ماحتفظ باخلاصه إلى ابيه، وبالطريقة نفسها فعل الأساقفة، مع الايرلات، والبارونات العائدين إلى اسكوتلندا، الذين رغب الملك في أن يتلقى منهم الطاعة والولاء، ليس فقط عن أنفسهم بل أيضاً عن خلفائهم، وليس له فقط بل إلى خلفائه إلى الأبد، من دون أية تحفظات من أي نوع، فضلاً عن هذا وعد ملك اسكوتلندا مع رجاله بعدم منح ملجأ في أي جزء من ممالكهم لأي لاجيء قادم من انكلترا، بل يتولون اعتقال كل من يأتيهم ويسلمونهم إلى ملك انكلترا وإلى قضاته، وكضمانة على الالتزام بهذه المعاهدة أعطى ملك اسكوتلندا إلى الملك هنري وإلى خلفائه قلعتي بيرويك، وبكسبورغ Boxburg إلى

الأبد، وإذا ماحاول ملك اسكوتلندا خرق هذه المعاهدة، تعهد أساقفة اسكوتلندا وايرلاتها وباروناتها بمعارضته والوقوف ضده، وأن يقوم الأساقفة بوضع مملكته تحت الحرمان من شركة المؤمنين حتى يعود إلى تأدية واجبه نحو ملك انكلترا، وهكذا أعطى الملك وليم رهائن، وعاد إلى انكلترا متحرراً من السجن، حتى يجري تسليم القلاع وفقاً لصفقته مع الملك، وبالنسبة للحصون الكثيرة التي أقيمت في أرجاء انكلترا ونورماندي أثناء الانقسامات بين الأب والابن، فقد جرى الآن هدمها بموجب أمر الملك.

كيف قام الملكان الأب والابن بزيارة ضريح القديس توماس

سنة ١١٧٦م، فيها، أكل ملكا انكلترا، الأب والابن، بعد عودتهما إلى انلكترا، على المائدة نفسها في كل يوم، وناما كل ليلة في غرفة النوم نفسها، وقاما أيضاً معا بزيارة الشهيد المبارك، القديس توماس، لتقديم صلواتهما وعهودهما عند ضريحه، وتجولا بعد ذلك في جميع أرجاء انكلترا، واعدين بالعدالة لكل انسان، من رجال الدين ومن العلمانيين، وقد قاما بعد ذلك بتنفيذ كامل الوعود، وفي السنة نفسها، حشد وليم دي بروز Brause بشكل تآمري جمعاً من الويلزيين في قلعة أبير جافني Abergavenny، ومنعوا المسافرين من حمل السكاكين والقسي، وعندما عارضوا هذا الأمر، أمر بهم فعوقبوا بالاعدام، ومن هذا يمكنك أن تفهم كيف أنه اقترف خيانته تحت رداء العدالة، وأقدم على فعلته هذه للانتقام لعمه(خاله) هنري أوف هيرفورد، الذي كانوا قد قتلوه في يوم سبت عيد الفصح المتقدم.

وعين في السنة نفسها رتشارد رئيس أساقفة كانتربري ثلاثة رؤساء شمامسة في أسقفيته هم: سفاري Savary ، ونيقولا، وهيربرت، وجرى في السنة نفسها تكريس جون عميد سالسبري أسقفاً لنورويك، وليس بعد أمد طويل هدم الملك هنري ملك انكلترا

تماماً قلاع: ليستر، وهنتغدون، وولتون، وغوربي، وستوتبري، وهي، وثيرسك، إلى جانب قلاع أخرى كثيرة، وذلك مقابل الأضرار والأذى التي غالبا ماألحقها أصحاب هذه القلاع به، ثم إنه قام بناء على نصيحة ابنه والأساقفة بتعيين قضاة في ستة أقاليم من مملكته، ووضع في كل جزء ثلاثة، أقسموا بأنهم سوف يعطون عدالة كاملة لكل انسان.

كيف منح الملك أربعة بنود إلى بطرس مندوب الكرسي الروماني

ووصل في هذه الآونة بترو— ليونيز، النائب البابوي، إلى انكلترا، ووافق الملك على منحه أربعة بنود هي التالية، ووعده بمراعاتها في مملكة انكلترا، وكان أولها، أنه لن يجري في المستقبل سحب أي رجل دين ليمثل شخصياً أمام قاضي مدني، من أجل أي جريمة أو عدوان، باستثناء قضية الغابة أو الأجور الاقطاعية، سواء أكانت أجوراً مستحقة للملك أو لأي اقطاعي آخر، وكان ثانيها، أنه لايجوز اعتقال رؤساء أساقفة، أو أساقفة، أو رعاة ديرة في أيدي الملك لمدة تتجاوز السنة، باستثناء إذا كان ذلك لسبب واضح، أو لضرورة ملحة، وكان ثالثها، وجوب معاقبة رجال الدين، الذين أدينوا، أو اعترفوا، أمام قضاة الملك، بحضور الأسقف، وكان رابعها، وجوب عدم إرغام رجال الدين على الخدمة في الحرب، وفي السنة نفسها، كانت جوانا، ابنةالملك، التي أعطيت زوجة إلى ملك صقلية، في التاسع من تشرين الثاني في سانت جايل، ومن ثم جرى حملها إلى زوجها، وذلك برعاية جماعة من الرجال اللامعين، الذين شهدوا على ذلك، وفي السنة نفسها وضعت جميع قلاع انكلترا في الحفظ بناء على أوامر الملك، وقام كذلك وليم إيرل غلوستر، الذي لم يكن لديه ولد يرثه، والذي لم يرغب بتقسيم ميراثه ين ابنتيه، بتعيين جون ابن الملك الذي بلا أرض، وريثاً له.

-٦٠٠١-

كيف أخضع الملوك الأجانب خلافاتهم إلى قرار ملك انكلترا

وفي هذه الآونة نشب خلاف بين ألفونسو ملك قشتالة، وزوج ابنة ملك انكلترا، وبين عمه سانشو ملك نافار، فأرسلا سفراء إلى ملك انكلترا، ووعدا بالالتزام بقراره، وعندما مثل السفراء أمام الملك في وستمنستر، وأمام الأساقفة، والايرلات، والبارونات، قد عرضوا أولاً موقف ألفونسو، من أنه عندما كان مايزال صغيراً ويتيما، انتزع منه سانشو ملك نافار، بشكل ظالم وبعنف قلاع وأراضي: لوغتيوم Log-toium، ونفارات Navarret، وأنثيلينا Anthlena، وأبتول Aptol، وأغوسن Agosenمع متعلقاتهم، مع أنهم كانوا ملكاً لوالد ألفونسو قبل أن يموت، ومن ثم آلوا إلى ألفونسو نفسه منذ سنوات تملكه، ولهذا السبب طالب بإعادتهم إلى صاحبهم، ولم ينكر سفراء سانشو هذه الحقائق، لكنهم أكدوا بأن ألفونسو قد استولى بالقوة على قلعتي ليجين Legin، وبورتيل Portel، وبأنها بيد غودين Godin، وبما أن رجال الفئة الثانية لم تعارض ذلك، فإنهم طالبوا بالمساواة ومن ثم إعادتهم إلى صاحبها، وقد أعلنوا أيضا عن إقامة هدنة بين الفريقين لمدة سبع سنوات، وأنها تأكدت باليمين، وبعدما تشاور ملك انكلترا مع أساقفته وإيرلاته، وباروناته حول موضوع هذا الخلاف، بدا أن مامن واحد من الفريقين أنكر استخدام العنف على الطرفين، وظهر أنه لايوجد سبب يحول دون اعادة متبادلة، ولذلك قرر الملك وجوب أن يعيد كل فريق الذي استولى عليه، وأن يراعيا الهدنة ويلتزما بها طوال المدة، ومن أجل خاطر السلام، ينبغي أن يدفع ألفونسو إلى سانشو، لمدة عشر سنوات، مبلغ ثلاثة آلاف[دينار] مرابطي، وأنه بناء على هذه الشروط ينبغي أن يكون هناك سلام نهائي بين الاثنين.

واجتمع في تلك الأيام سفراء من عند مانويل امبراطور القسطنطينية، ومن لدن فريدريك الامبراطور الروماني، ومن عند وليم رئيس أساقفة

تريف Treves، ومن عند هنري دوق ساكسوني، ومن عند فيليب كونت فلاندرز، وانشغل كل واحد منهم بعمله المنفصل، والتقوا بالملك في البلاط في وستنمنستر، وكأنهم على اتفاق، وكان ذلك في الثاني عشر من تشرين الثاني، ولقد أتينا على ذكر هذه الحقيقة كبرهان على المكانة والتقدير الذي نظر به العالم أجمع إلى أبهة وعظمة الملك، حيث اندفع كل واحد بالطلب إليه النصيحة وفض خلافاتهم.

نقل الرهبان المدنيين من كنيسة وولتهام

سنة ١١٧٧م، فيها جرى نقل الرهبان الذين يسمون بالمدنيين من كنيسة وولتهام Waltham ، وأحل محلهم رهبان نظاميون، بموجب سلطات الحبر الأعظم، وكان ذلك عشية أحد العنصرة، وجاء ذلك بناء على أوامر الملك، الذي كان حاضراً لتلك المناسبة، وفي اليوم نفسه تسلم رالف قانوني أوف شستر حكم تلك الكنيسة نفسها، من يدي أسقف لندن، الذي إليه عادت الأسقفية، وقد ربط نفسه بعبارات تفوه بها بأن يلتزم بالطاعة الرهبانية، ودخل بعد ذلك إلى الكنيسة بصحبة الراهب، الذي عينه الأسقف ليكون رئيساً للرهبان، وجلس على عرشه بشكل مهيب.

وبعدما أنهى ملك انكلترا مشاكل مملكته وأرسى قواعدها حسب رغباته، عبر إلى نورماندي في الثامن عشر من آب، وعقد مؤتمراً مع ملك فرنسا، إثره أبرمت المعاهدة التالية:« أنالويس ملك فرنسا، وأنا هنري ملك انكلترا، نعلم هنا جميع الناس، بأننا بإلهام من الرب، قد وعدنا وأكدنا باليمين، في أن ندخل في خدمة مخلصنا المصلوب، وأن نأخذ الصليب، وأن نذهب إلى القدس، ورغبتنا أن نكون صديقين، وأن يحافظ كل واحد منا على حياة وعلى أعضاء، وعلى الشرف الدنيوي للآخر، ضد جميع الناس، وإذا ماحاول أي واحد إيذاء أي واحد منا، أنا هنري سوف أساعد لويس ملك فرنسا، بحكم أنه مولاي، ضد جميع

الناس، وأنا لويس سوف أساعد هنري ملك انكلترا، بحكم كونه رجلي المخلص، ضد جميع الناس، محافظين على الاخلاص الذي ندين به لرجالنا، ماداموا متابعين الاخلاص لنا»، ووقع هذا في مينانكورت Mi-nancourt، في الخامس والعشرين من أيلول.

تأسيس دير وستوود

سنة ١١٧٨م، فيها، قام رتشارد دي لوسي، مسؤول العدالة في انكلترا، في الحادي عشر من حزيران بإرساء قواعد كنيسة ديرية على شرف القديس توماس الشهيد في مكان كان اسمه وستوود West-wood، في منطقة روكستر، وأيضا بعدما أمّن الملك هنري جميع الحصون في ممالكه كلها من البيرينيز إلى المحيط البريطاني، وبعدما فض كل شيء وفقاً لرغباته قام في الثالث عشر من حزيران بزيارة ضريح القديس توماس الشهيد، وبعد ذلك بوقت قصير عمل في السادس من آب، في وودستوك ابنه غيروفري فارساً بحزام.

حول الرؤيا التي عملت إلى أحد النساك فيما يتعلق بالقديس أمفيبالوس

كان في السنة نفسها رجلاً عادياً، يعيش في بلدته الخاصة، سينت ألبان، وقد تمتع بأخلاق كانت متحررة من النقد بين أهل بلدته، فقد عاش منذ صغره حتى الوقت الحالي باستقامة، وذلك بقدر ماسمحت له مقدرته وحظه بذلك، وكان مداوماً تقياً على الكنيسة، وبينما كان هذا الرجل متمدداً في فراشه في إحدى الليالي، في حوالي وقت نداء الديك، دخل رجل طويل جلالي الطلعة إلى حجرته، وهو متدثر بالبياض، وكان ممسكا بيده صولجاناً جميلاً، وأشرق البيت كله وأشع لدى دخوله، وأضاءت الحجرة وكأنها في وضح النهار، واقترب من فراشه وسأله بصوت لطيف:« روبرت هل أنت نائم؟»، وأجاب روبرت وهو يرتجف

خوفاً ودهشة:« من أنتم ياسيدي»؟ فقال له:« أنا الشهيد القديس ألبان، وقــد جئت لأخبرك بإرادة الرب فيما يتعلـق بمــولاي الكاهـن الذي علمني الايمان بالمسيح، الذي وإن كـانت شهـرته عظيمـة جـداً بين بني البشر، فإن مكان ضريحه مازال غير معروفاً، مع أن المعتقد بين المؤمنين بأنه سـوف يظهـر في العصور المقبلة، وبناء عليـه انهض، والبس ثيـابك واتبعني فأنا سأريك البقعة المدفون فيها بقاياه الثمينة»، وبناء عليه نهض روبرت من فراشه— كما بدا— ولحقه، وذهبا معا خلال الشوارع العامة نحـو الشمال، حتى وصـلا إلى سهل، قد ترك منـذ أجيال غير مـزروع، وذلك على مقـربة من الطريق العام، وكـان السطح مستـويا، فيه مـرعى جيـد للمواشي، ومكان استراحـة للمسافـرين، وذلك عند قرية اسمهـا ردبورن Redburn على بعد نحـو ثلاثة أميال من سينت ألبـان، وكان في هذا السهل مـرتفعين اسمهما« رابيتي الأعلام»، لأنه جـرت العادة أن يكون حــولهما تجمعـات للمـؤمنين، عندمـــا كـانوا— وفقــاً للعـادات القـديمة— قـد اعتادوا سنـويا على عمل مسيرة مهيبة إلى كنيسـة سينت ألبـان، وتقـديم الصلوات، واستـدار هنا القـديس ألبـان قليـلاً خـارج الطريق، وأمسك بيـد الرجل واقتاده إلى احـدى الأكوام، التي أحتـوت ضريح الشهيـد المبـارك، وقـال وهو ملتفت إلى تابعـه:« هنا ترقـد بقـايا معلمي»، ثم إنه فتح الأرض قليــلاً على شكل صليب بابهام الانسـان، وأخـرج قليـلاً من الطين والعشب، وفتح صندوقـاً صغيراً، فصـدر منه ضـوء مشع، ملأ أولاً الغـرب كله بأشعته ثم العـالم بأجمعه، وبعـد ذلك انغلق الصندوق ثانية، وعاد السهل إلى مظهره السالف، واعترت الرجل الدهشة حتى يسأل القـديس ماالذي عليه أن يعمله، فقـال له القديس: لاحظ البقعـة بدقـة، وتذكر الذي عـرض عليك، ولسـوف يحل الوقت سريعاً، عندما ستظهر المعلومـات التي أخبرتك بها بشكل خاص، لمنفعة كثيرين»، ثم استطـرد يقــول:« انهض الآن، ودعنا نذهــب، ونعــود إلى المكان الذي جئنا منه»، وعندما كانا عائدين على طريقهما، دخل القديس

إلى كنيسته، ورجع الرجل إلى بيته، وذهب إلى فراشه مجدداً.

كيف أباح الرجل خبر الرؤيا التي رآها

واسيقظ الرجل في الصباح، وكان منزعجاً جداً في تفكيره، متشككاً هل عليه أن يبوح للآخرين بما شاهده بالرؤيا، أم لا، ذلك أنه آمن بها حقيقة، وهنا خاف أنه إذا أخفاها سوف يغضب الرب، وأنه إذا باح بها سوف يتحمل استهزاء بني البشر به، وفي حالة الشك هذه، تغلب الخوف من الرب، ومع أنه لم يعلن خبر الرؤيا بشكل عام، أوصل الخبر إلى بعض أصدقائه المقربين والخاصين، وقام هؤلاء على كل حال باعلان ماسمعوه في ظلام الليل، بوضح النهار، والذي سمعوه بآذانهم أعلنوه على رؤوس الأشهاد، وهكذا انتشرت الحكاية في جميع أرجاء المقاطعة، لذلك احتشد الناس في دير القديس ألبان، وأخيراً وصل الخبر المفرح إلى سيمون راعي الدير، الذي بفضل نفوذه، التالي لنفوذ الرب، حظي الخبر لديه باهتمام كبير، فقام على الفور بتقديم الحمد والشكر للرب، وعقد اجتماعاً ضم الرهبان، فاختار بعضهم للذهاب إلى المكان، الذي يتوجب على الرجل السالف الذكر قيادتهم إليه، وفي الوقت نفسه صلى الرهبان في الدير بخشوع إلى الرب، وسار في الوقت ذاته الرهبان الذين تعينوا للمهمة إلى المكان، على أمل العثور على آثار الشهيد، وعندما وصلوا إلى هناك، وجدوا حشداً كبيراً من الناس، اجتمعوا مع بعضهم من مختلف أجزاء المنطقة، وقد اقتادهم الروح القدس، ليكونوا شهوداً على اكتشاف آثار الشهيد، وفيما هم ينتظرون وقوع الحادث، اقتاد الرجل المتقدم الذكر الرهبان إلى السهل حيث رقدت أجساد القديسين، وكان اليوم يوم جمعة قبل عيد القديس ألبان، عندما عُمل هذا، ومن ذلك اليوم حتى جرى نقل أجساد القديسين، كانت هناك حراسة مستمرة ومتواصلة فوق تلك البقعة، وقد تعاون رهبان الدير مع العلمانيين للقيام بهذا الواجب.

وفي الوقت نفســـه شرع الدير في تطبيق نظام حيـــاتي دقيق، وأعلن للناس عن مناسبـة مهيبـة للصـلاة والصـوم، ونال هذا المكان الذي تمّ العثـور فيه على الآثار المقـدسة الآن مظهـر سـوق، حيث كانت عندمـا تغادر البقعة طائفة زارتها بغرض التقوى، تصل طائفة أخرى.

المرأتان اللتان شفيتا بزيارتها للقديس

وبينما كان الشهـداء مايزالون تحت الأرض بدأت معجـزات بالظهور بظواهر مدركة بشكل جيـد، معطية آمالا بأعمال أعظم سوف تحدث فيما بعد، فقد كـانت هناك امرأة من غيتدن Gatesden، مربوطة منذ عشر سنوات بالكتفين وبالحقوين، وكـانت بسبب عجزها محط عـدم إعجاب من قبل زوجهـا، فغـادرت مكانها المحلي، ولـدى مـرورهـا بردبورن، تمددت ونامت قرب المكان الذي دفن فيه الشهداء، ولم تنهض من هناك حتى شفيت تمامـاً، وكـانت هناك امـرأة أخـرى من دنستيبل Dun-stable، اسمها سيسيليا Cecilia ، لها انتفاخ أعطاها مظهر الحامل، وقـد عـادت هذه إلى الصحـة بزيارة البقعة، وكـان هناك أيضـاً فتـاة في الخامسـة من عمـرها، لم تتمكن من المشي منذ ولادتها، بل كـانت تحمل دوماً من قبل والديها، فـوضعت إلى جانب البقعـة ذاتها، على مشهد من عـدد كبير من الناس المؤمنين، وبعــد نوم قصير، نهضت وركضت على قدميها، مما أعطى والديها سروراً عظيماً، وفي الـوقت نفسه حلّ يوم عيد القديس ألبان الشهيـد، ومع أن هذا اليوم كان مشهوراً بحـد ذاته، صار الآن أعظم شهرة بنشر أخبار هـذه المعجزات، وجرى حث المؤمنين على تقديم الصدقات بشكل أكبر لـلاستخدام في التقشف في الطعام، وجرى تكرار مسيرة مهيبة في اليوم التـالي، ثم إن الأيام التي كانت قد مضت لم تتبـدد في الكلام الفارغ، ذلك أنـه منذ ساعـة اكتشـاف الآثار المقدسـة، ظهرت معجـزات كثيرة ونفذت، فقـد سخر رجل من كنغبري Kings-bury ، من الذين كانوا يحفرون بحثاً عن القديسين، وقد قدم إلى

البقعـة مع البقيـة، إنما مع تفكير مختلف عن تفكيرهم، حيث على الفـور استـولى عليه جنون، ومـزق ثيابه، وعـوضا عن سخـريته بالذين كـانوا يحفرون، صار مشهداً يهزأون هم منه، وبعدما تعذب لبعض الوقت أمام جميع الذين كانوا موجودين، توقفت يد الرب عن معـاقبته، وعاد سالماً إلى منزله، وإن كان معـاقباً منبوذاً، وضحك رجل آخـر من الذين كانوا يحفرون بحثـاً عن القديسين، وقد أصيب أيضـاً بضربة انتقام رباني، لأنه عندما كان في وسط كلامه، قهر بعنف ولفظ فوق البقعة روحه الكافرة، وقدم رجل اسمـه ألغار Algar من دنستيبل إلى البقعة في عربة، كان فيهـا برميل جعة للبيع، وجـاء إليـه رجل فقير مريض ورجـاه من أجل محبـة الشهداء منحـه جرعـة صغيرة لإطفـاء عطشه، وغضب ألغـار من طلبه، وقـال له بأنه لم يقدم إلى هناك تقديراً منه للشهـذاء، بل للحصول على الربح ببيعه بضائعه، وعندما كان هكذا يهين الرجل الفقير، سقطت نهايتا البرميل، وتـدفقت الجعة على الأرض، وهكذا حدث أنه بـوساطة القديسين لم يجث الرجل الفقير الذي أنكر عليـه نيل جرعة صغيرة، على ركبتيـه لوحـده، بل فعل ذلك عـدد كبير آخـر معـه جثـوا على ركبهم، وشربوا مارغبوا، لأن مامن أحد منعهم، وهكذا أمكن عن طريق تدخل الشهـداء قمع شرور المعتدي، ونال المؤمنـون الأتقياء الجائـزة، ذلك أنه خلال الأيام الثـلاثة التالية نال عشرة أشخـاص من الجنسين الشفاء من مختلف الأمراض، فحمداً للرب وللشهيد المقدس.

اكتشاف القديس أمفيبا لوس ورفاقه التسعة

وفي صباح اليوم الـذي جرى فيه اكتشاف أجسـاد القديسين والعثور عليهم، وصل الأب المبجل الراعي سيمـون إلى البقعـة المقدسـة، وذلك بعـدما أقـام قداسـاً لأسرار مخلصنا في بيعـة القديس جيمس المجـاورة، وصدوراً عن الاحترام للشهيـد القديس ألبـان أمر الرهبان الـذين كانوا حضـوراً بالبحث بيقظة أكبر، وأن يستخـدمـوا على الفـور المزيد من

الحفارين، وكانت بيعة القديس جيمس قد بينت تكريماً للشهيد، عقب نزول بعض اشعاعات الضوء دوماً على القطعان، كلما ساقهم رعاتهم للرعي فوق تلك البقعة، ولهذا السبب أيضاً أقام الراعي المتقدم الذكر قداساً، وطلب عون الشهيد لمباركة بحثهم، وبعد عودة الراعي ورهبانه إلى الدير، جلسوا لتناول الغداء، فقرأ واحد منهم بصوت مرتفع حكاية آلام القديس الذي كان يحفرون من أجله ومن أجل رفاقه، الذين بعدما تحرروا من الجسد دخلوا في المجد السرمدي، وبناء عليه، عندما كان أهل الدير يكون وراغبين في سماع خبر وحشية القاضي، وشرور معاونيه، وتفاصيل طويلة عن موتهم، دخل شخص فجأة إلى الغرفة، وأعلن أنهم للتو قد اكتشفوا أجساد أمفيبالوس وثلاثة آخرين، ولماذا علي أن أتحدث عن أثر هذا الخبر؟ فقد تبدلت تنهداتم إلى حمد وشكر، وأعقبت البهجة الأسى، ونهضوا من وراء المائدة، وساروا جميعاً إلى الكنيسة، وقدموا الشكر تعبيراً عن البهجة التي ملأت قلوبهم، وكان الشهيد المقدس أمفيبالوس راقداً بين اثنين من رفاقه، بينما تمّ العثور على الثالث وهو راقد بشكل اعتراضي في مكان منفرد لوحده، كما أنهم وجدوا قرب المكان سبعة شهداء آخرين، صاروا مع القديس أمفيبالوس عددهم كلهم عشرة، وكان بين الآثار المكتشفة المتعلقة ببطل المسيح هذا سكينين كبيرين أولهما في جمجمته والثاني في صدره، وبذلك تأكدت الأخبار التي وصلتنا من العصور القديمة في كتاب قصة استشهاده، لأنه وفقاً لذلك الكتاب، إنه في حين هلك الآخرون بالسيف، نزعت أحشاء أمفيبالوس أولاً، ثم طعن بالحراب والسكاكين، ورجم أخيراً حتى الموت، ولهذا السبب أيضاً لم يتم العثور على أي من عظامه كاملاً، مع أنه في أجساد رفاقه لم يكن هناك عظماً مكسوراً.

كيف جرى نقل آثار القديس أمفيبالوس إلى دير القديس ألبان

وكما رأينا ، عندما سمع الراعي بالأخبار السارة، بادر مسرعاً مع

رئيس الرهبان وبعض الرهبان إلى المكان، وأمر بإخراج الآثار المكتشفة، ولفها بأقمشة مناسبة، وإدراكاً منه للأذى الذي يمكن أن يحصل من ضغط الحشود، الذي لايمكن إبعادهم عن الكنز الذي وجدوه، أصدر أوامره بوجوب حمل الشهداء المقدسين إلى كنيسة القديس ألبان، حيث يمكن العناية بهم بشكل أفضل، فهل أنا بحاجة لقول المزيد؟ وعاد الراعي والرهبان إلى الدير وهم يحملون معهم بشكل منفصل أجساد القديسين، أما بقية الرهبان الذين كانوا قد بقيوا في الدير، فقد خرجوا لاستقبالهم، وهم يحملون جسد الشهيد المبارك القديس ألبان، الذي برهن حملته أنه كان ثقيلاً بشكل عام، لكنه كان في تلك الحالة خفيفاً إلى حد بدا فيه وكأنه يطير، وليس راسياً على أكتافهم، وهكذا قابل الشهيد الشهيد، والتلميذ معلمه، وجرى استقباله لدى عودته بشكل علني من قبل الذين كان فيما مضى قد علمهم الإيمان الصحيح في بيت ريفي متواضع، وعلى كل حال، ينبغي عدم المرور بما حدث بصمت، فقد عمل الرب معجزة في العناصر عندما التقت هذه الآثار، فقد كان هناك انحباس للمطر، سبب جفاف كل شيء، وأوصل المزارعين إلى حالة اليأس تقريباً، ففي تلك اللحظة، تساقط مطر عاصف، مع أنه لم تكن هناك سحابة مرئية، ورويت الأرض، وتجدد الأمل بموسم مستقبلي، وكان العثور على القديس أمفيبالوس ورفاقه في يوم السبت الخامس والعشرين من حزيران لعام ١١٧٧م، وكان ذلك العام عام ثمانمائة وستة وثمانين بعد استشهاده، وجرى وضع الآثار المقدسة كما كانوا مدفونين في تلك البقعة، وكان في سبيل مجد الرب، وشهيده قد جرى شفاء المرضى من مختلف الأمراض، واستردت الأطراف المعاقة قوتها، وفتحت أفواه الخرسان، ورد البصر إلى الأعمى، والسمع إلى الأطرش، وتمكن الأعرج من المشي، فهل بقي هناك المزيد من الأمور الإعجازية، فالذين كانوا متلبسين من قبل الشياطين قد تحرروا، وتمّ شفاء المصروعين، ونقاء المجذومين، وأعيد الميت إلى الحياة، وإذا مارغب أي

واحد بقراءة أخبار المعجزات التي عملتها الرحمة الربانية بوساطة هؤلاء الشهداء، عليه استخدام كتاب معجزاته، والآن نطلب السماح من قرائنا من أجل الاستطراد، ونبادر مسرعين نحو المواضيع الأخرى.

كيف أقام هنري الملك الشاب مباريات مبارزات

عـام ١١٧٩م، فيه عبر هنـري الملك الشاب إلى غـاليـا، حيث أمضى ثلاثة أعـوام في الصراعـات وفي الاسراف في النفقـات، واضعـاً جـانبـاً الأبهة الملكية، ومتخذا سمة فارس، وصـارفاً نفسه إلى تمارين الفروسية، ونائـلاً للنصر في كـل مبـارزاته، وناشراً لشهـرته في جميـع الأرجـاء من حـوله، وعندمـا اكتملت سمعتـه عـاد إلى أبيـه الذي استقبله بالتشريف اللائق، وقرر في العام نفسه لويس ملك فرنسا القيام بزيارة للصلاة عند ضريح القـديس تومـاس الشهيـد، ولهذه الغاية قـدم إلى انكلترا، الأمـر الذي هو لم يفعله من قبل، ولاكـذلك أي واحـد من آبائه، فقـد نزل في دوفر واستقبل في الثـاني والعشرين من آب من قبل ملك انكلترا، الذي أظهر نحوه ونحـو حاشيته كل علامـات الاحترام الممكنة، وسار رئيس أسـاقفة كـانتربري مع أسـاقفتـه المساعـدين، والايرلات، والبـارونات، وذلك إلى جانب رجال الدين والناس، سار هو و هؤلاء بموكب مهيب إلى الكنيسـة، تشريفاً للملـك الكبير، وما من أحـد يعـرف كم هو كثير الذهب والفضة، والأحجار الكريمة والصحون التي منحها الملك هنري إلى النبـلاء الفـرنسيين، ولذلك مـامن انســان يمكنه الحديث عن شيء مماثل، وتبرع ملك فرنسا بمائة معيار من الخمرة، لتوزع سنوياً في باريس صدوراً عن الاحترام للشهيد المجيد، وكذلك من أجل استخدامات دير كانتربري، وعرض الملك هنري على الملك الفـرنسي وحاشيته رؤية جميع ثروة مملكتــه، مما جمعـه هو شخصيــا، أو من قبل أسـلافــه، وأمسك الفرنسيـون أيديهم عن تسلم الهدايا، خشية أن يبدو أنهم جـاءوا لغرض آخر غير رؤية الشهيد المبارك، وحين تمنعوا هكذا لعلهم تحملوا نوعاً من

الشهادة العقلية، وهكذا بعدما أمضى ملك فرنسا ثلاثة أيام في السهر، والصوم، والصلاة، في كانتربري، وتلقى قليلاً من الهدايا الصغيرة من ملك انكلترا، كبرهان على المحبة، أبحر عائداً إلى فرنسا في السادس والعشرين من آب، ومات في السنة نفسها روجر أسقف أوف وينكستر في التاسع من آب.

مجمع روما برئاسة البابا الاسكندر

وعقد في العام نفسه مجمع عام في روما، حضره ثلاثمائة أسقف وعشرة أساقفة، وكان ذلك في التاسع والعشرين من آذار، في اللاتيران، وقد ترأسه البابا الاسكندر الثالث، وكانت القرارات التي اتخذت آنذاك، والتي تستحق الثناء العالمي، قد جاءت تحت تسعة وعشرين عنوانا كما يلي: حول انتخاب الحبر الأعظم، وحول الهراطقة الألبينيين، ومختلف أسمائهم، وحول قطاع الطرق والنهابين في برابانت، الذين أضروا بالمؤمنين، وأن مامن أحد سوف يتقدم إلى الأسقفية، أو إلى أية مرتبة لاهوتية، مالم يكن في العمر القانوني، وقد ولد من زواج شرعي، وأنه لايجوز منح أية منافع وتوزيعها مادام المكرسين لها أحياء، وأن لاتبقى أكثر من ستة أشهر شاغرة بعد وفاة المكرسين لها، وحول الاستئنافات أن لايشغل أي واحد من الطوائف المقدسة أو من الذين يعيشون من الموارد اللاهوتية، نفسه بالأعمال المدنية، وحول تثبيت المدن، وتثبيت تواريخها، وأن يمتلك رجال الدين كنيسة واحدة، وكذلك الأساقفة، إذا مارسموا أشخاصا من دون ألقاب محددة، عليهم الاحتفاظ بهم، حتى يمكن تعيينهم لمنصب في الكنيسة نفسها، وأن لايتولى الحماة والعلمانيون ظلم الكنائس أو أي انسان لاهوتي، وأن لايتملك اليهود والمسلمين أيا من العبيد المسيحيين، لكنهم إذا اختاروا التحول إلى المسيحية فلايجوز انتزاع هؤلاء العبيد من أسيادهم، وأن يتملك الأشخاص المجذومين؛ الذين يعيشون في عزلة عن المجتمع،

مصلى خـاص بهم مع كاهن لهم، وأن لايجري نقل الممتلكات اللاهوتيـة وتحويلهـا إلى أية استخـدامـات أخـرى، وأن لايصرف العمـداء الذين يمارسـون الأعمال القضـائيـة الأسقفيـة مـن أجل مبلغ محدد من المال، وبالنسبة لأعمال الانتخاب والتكريس اللاهوتي يجري تنفيذ إرادة الشطر الأكثـر من المجلس، وأن لايسمح للذيـن يمارسـون الربـا بشكل علني بتناول القـربان عند المذبح، وأن لايتلقـون دفنا مسيحيا، وسـوف يتمتع المزارعون والمسافرون بسلام عام وأمان، وعدّ جميع أعمال التكريس التي تجري من قبل المنشقين لاغية، وفـارغة، وكل المنافع التي تمنح من قبلهم منقوضـة، ولاتجوز المطالبة بأية مدفـوعات من أجل سيامـة الأشخاص اللاهوتيين، ودفن الموتى، والتفـوه بـالمبـاركـة أثناء الزواج، أو من أجل التكريسـات الأخـرى في الكنيسـة، ولايجوز لأي أشخـاص دينيين أو آخـرين الإقـدام على تسلم كنائـس أو عشـور من يدي علماني من دون مـوافقة الأسقف وتفـويضـة، ولايجوز أيضاً للداوية أو الاسبتـارية فتح كنائسهم تحت الحرمـان، مرة في السنة، وأن لايتولوا وقتهـا دفن الموتى، ولايجوز لأحـد، من أجل المال، مصـادرة الملابس الدينيـة، ولامصـادرة أحداً من رجال الدين لديهم ممتلكات خـاصة، ولايجري تجريد الأساقفة إلاّ بسبب التخـريب أو العجـز عـن كبح النفس جنسيـا، ولايجوز للمسيحيين بيع الأسلحـة إلى المسلمين، وأن لايتجـرأ أحـد على سرقـة الذين تجنح سفنهم، ويتـوجب على الكهنة في الطوائف المقـدسـة العيش بعفة، وإذا عثر عليهم وهـم يمارسون ذلك النوع من الممارسات المعارضة للطبيعة، فلسوف يجري حرمـانهم كنسياً، ويطردون من الكهنوتية، وعلى رؤساء الأساقفة الذين يتـولون زيارة الأسقفيات أو الكنائس، أن يقنعوا بحـاشيـة تتكون من أربعين إلى خمسين فـارساً، والأسـاقفـة بعشرين أو ثلاثين، والنـواب البـابويـون بعشرين أو خمس وعشريـن، ورؤسـاء الشمامسـة بخمسـة أو سبعـة، والعمـداء ليس بأكثـر من اثنين، ولايجوز لأحـد ممارسـة المبـارزات، والذيـن يمـوتون فيهم يحرمـون من الدفن

المسيحي، وعلى كل كنيسة كاتدرائية أن تتملك معلماً يتولى تعليم الطلاب الفقراء والآخرين، شرط عدم مطالبة أي واحد بالدفع من أجل التعليم، ويتولى القسيس إدارة كنيسة واحدة، ولايجوز للأولياء استخراج مال من الكنائس أو من أراضيهم، ولايجوز إرغام الأساقفة والأشخاص اللاهوتيين على الظهور في المحاكم المدنية، وأن لايدفع الرجال العلمانيين عشوراً إلى أناس علمانيين، وإذا ماتسلم أي انسان ملكية من آخر كضمان من أجل دين، ثم إنه بعد حسم النفقات جمع ماله من انتاج تلك الملكية، عليه وقتها إعادة الضمان إلى المستدين منه.

رسالة البابا الاسكندر ضد هرطقة بطرس لومبارد

وأخبر البابا الاسكندر نفسه بأن المعلم بطرس لومبارد، قد ابتعد في بعض كتاباته عن أسس الإيمان وقواعده، ولذلك بعث بالرسالة التالية إلى وليم رئيس أساقفة سين:

« من الاسكندر، أسقف وعبد عبيد الرب، إلى وليم رئيس أساقفة سين، تمنيات الصحة:

عندما كنتم من قبل في حضرتنا، أعلمناكم بكلمات الفم، وطلبنا منكم حث أساقفتكم المساعدين في باريس، وأن تستخدموا أفضل جهودكم لتدمير العقيدة الزائفة، لأسقف باريس السالف، التي أكدت أن المسيح، هو انسان، وليس شيئا آخر، ولذلك نأمرك ياأخي بكتابتنا الرسولية، مثلما أمرناك من قبل بكلمة الفم أن تجمع أساقفتك في باريس، وأن يكون معهم آخرين من رجال الدين وأهل الحكمة، لتقوموا بإبطال العقائد المتقدم ذكرها جميعاً، وأن تجعلوا المعلمين يعلّمون التلاميذ في اللاهوت بأن المسيح إله كامل، وهو أيضاً انسان كامل، يتكون من جسد وروح، وعليك أن تأمر جميع الناس بأن لايقدموا بأي حال من الأحوال على التبشير بالعقيدة المزيفة المتقدم ذكرها، بل أن

يقوموا بمقتها كلياً».

حول كتاب الراعي واكيم الذي كتبه ضد بطرس اللومباردي

وكتب في هذه الأيام واكيم راعي دير فلور Flore كتاباً ضـد بطرس اللومبـاردي، أطلق عليه فيـه اسم هرطقي واسم مجنون، لأنه قـال لدى حـديثـه عـن الوحـدة أو جـوهر الثـالوث، بأن الآب، والابن والروح القدس، هم جـوهر واحد سامي، هو لم يلد ولم يولد، بل انبثـاق واحد، وبسبب هذا التأكيـد اتهم الراعي بطـرس بأنه لم يؤمن بثـلاثة أشخـاص هم الرب، بل بوجـود رابع، أي الثـلاثة المعتـادين، وجـوهرهم العـام، الذي هـو رابع بشكل مـا، أي ليس هناك شيء هـو الآب، أو الابن، ولاروح القـدس، ولاجـوهر، ولاأسـاس، ولاطبيعـة، مع أنه أقـر بأن الآب، والابن، والروح القـدس هم جـوهر واحـد، وأسـاس واحـد، وطبيعـة واحدة، وقـام واكيم نفسه بتأكيـد وضعه بالنصـوص التاليـة:« هناك ثـلاثة لهم الوجـود في السماء، وهـم: الآب، والكلمـة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، وهناك ثلاثة لهم الوجود في الأرض، وهم: الروح، والماء، والدم، وهؤلاء الثـلاثة هم واحـد»، وقـال ثانيـة:« وأرغب ياأبي، أن يكونوا واحـداً فينا، مثلما هم أيضاً واحـد»، وعلى هذا بدا أن واكيم المتقدم الذكـر، لم يعترف بوحدة صحيحـة وكاملة من هذا النوع، بل بنوع من الوحـدة التراكمية، تشابهت عنـاصرها فصارت مثلما ندعـو عـدداً كبيراً من الناس، شعباً واحـداً، وكثيراً من المؤمنين كنيسـة واحدة.

كيف أدان البابا انوسنت كتاب واكيم

وبقيت هذه الخلافـات غير محسـومـة لسنين طـوال، وذلك منذ أيام البـابا الاسكنـدر إلى أيام البـابا إنـوسنت، أي طوال مـدة بـابويات: لوسيـوس Lucius ، وأوربان، وغـريغـوري، وكليمنت، وسيلستين

Celestine الذي خلفه انوسنت الثالث، الذي قام في سنة ١٢١٥ لتجسيد ربنا، فعقد مجمعا عاماً في روما، وأدان كتاب واكيم ضد بطرس بهذه العبارات:« نحن نوافق، ونستحسن في هذا المجمع، ونعتقد، ونعترف مع بطرس بأن هناك عنصر سامي واحد، لايمكن مقارنته ولاوصفه هو حقاً الآب، والابن، والروح القدس، وأنهم مع بعضهم ثلاثة أشخاص، وكذلك كل واحد منهم منفصل، وبناء عليه هناك ثلاثة أشخاص وليس أربعة في الإله، لأن كل واحد من هؤلاء الثلاثة أشخاص هو الشيء نفسه، أو العنصر الأساس، أو الجوهر للطبيعة اللاهوتية، التي هي بداية جميع الأشياء، وإلى جانبها لايوجد شيء آخر، وأن ذلك العنصر الأساس لم يلد ولم يولد، ولم ينبثق، بل الأب هو الذي ولد، والابن هو المولود، وروح القدس هي المنبثقة، وبناء عليه هناك تمييز بين الأشخاص، ووحدة في الطبيعة، لأنه مع أن الآب، والابن، والروح القدس، هم أشخاص مختلفون، لكنهم ليسوا مختلفين بعنصر الأساس، فالأب بولادته لابن من الأبدية أوصل إليه عنصرة الأساس، وهذا ماأكده هو نفسه بقوله:« ذلك الأب الذي أعطاني هو أعظم من الجميع»، كما أنه لايمكن القول بأنه أعطى الابن جزئاً من عنصر الأساس واحتفظ بالباقي لنفسه، لأن عنصر أساس الآب لايمكن تقسيمه، وهو كله ساذج، كما أنه لايمكن القول بأن الآب قد نقل أساسه إلى الابن بولادته له، أي أنه بإعطائه هكذا الابن هو لم يحتفظ به لنفسه، وإلاّ فإن عنصره الأساسي سوف يتوقف، لكن الابن تسلم بالولادة كل العنصر الأساسي للآب، وهكذا فإن الآب والابن لهما عنصر الأساس نفسه، وهما الشيء نفسه، وكذلك الروح القدس التي انبثقت من الاثنين، وبقيت فيهما معا، ذلك أن العبيد المؤمنين للمسيح ليسوا— كما قال الأب واكيم، هم عنصر أساس للجميع ، بل واحد فقط في وحدة الرعاية والنعمة، لكن بالنسبة للأشخاص اللاهوتيين هناك وحدة بالذات وفي طبيعتهم، وبناء عليه نحن ندين

ونشجب كتاب وعقائد واكيم، ونأمر أنه إذا ماحاول أحد الدفاع عن مواقفة في هذه القضية، أن يُنظر إليه على أنه هرطقي بيّن جميع الناس»، وبشأن هذا المجمع والبابا المذكور أعلاه، سوف يقال المزيد في مكانه المناسب.

كيف جرى تكريس فيليب ملكاً لفرنسا

وجرى في العام نفسه، تتويج فيليب بن لويس ملك فرنسا، ملكاً في يوم عيد جميع القديسين في الرايم Rheims ، من قبل وليم رئيس أساقفة تلك المدينة، وكان أبوه مايزال حياً، وقدم كل شيء تطلبه التتويج، وجلب أيضاً كادوولان Cadwallan، أمير ويلز، في هذا العام، ليمثل في حضرة ملك انكلترا، حيث وضعت كثيراً من الاتهامات ضده، ولدى عودته إلى ويلز، بموجب أمان منحه إياه الملك، هوجم من قبل أعدائه، وقتل في الثاني والعشرين من ايلول، حيث كان ذلك تحديا كبيرا للملك، وعلى هذا لايمكن توجيه اللوم إليه، ذلك أنه أمر بعقوبة مقترفي هذه الجريمة بعقوبة حادة.

التحالف بين ملك فرنسا وملك انكلترا

عام ١١٨٠م، فيه جرى عقد مؤتمر بين فيليب الملك الجديد لفرنسا، وبين الملك هنري في مكان بين غيسور، وتراي Trie، حيث جرى ابرام المعاهدة التالية بينهما:« أنا فيليب بنعمة الرب، ملك فرنسا،، وأنا هنري بالنعمة نفسها ملك انكلترا، نعلم جميع الناس، بأننا جددنا يمين التحالف والصداقة بيننا، ولكي نتجنب جميع مناسبات الخلافات بيننا من الآن فصاعداً، اتفقنا أن مامن واحد منا سوف يدعي ملكية أية أرض ضد الآخر، والممتلكات والأشياء التي بأيدينا الآن، وذلك باستثناء أوفرين Auvergne التي يوجد حولها الآن خلاف بيننا، وباستثناء الرسم الاقطاعي لقلعة رالف، وباستثناء رسوم صغيرة أخرى

واقتسام لأراضينا في بيري Berri، التي حولها لم نتمكن من التوصل إلى اتفاق، وقد اختار كل منا ثلاثة أساقفة وبارونات ليقرروا فيها بيننا، ونحن سنلتزم بقرارهم بعد الموافقة على ذلك بنوايا طيبة»، ومات في السنة نفسها لويس ملك فرنسا في باريس، وكان ذلك في الثامن عشر من أيلول، ودفن في دير السسترشيان في باربوكس Barbeaux، الذي أكملت عمارته على حساب الملك نفسه.

كيف شعث رتشارد كونت أوف بواتو
أراضي غيوفري دي ليزيناياك

وفي تلك الآونة استثير رتشارد دوق أوكتين وابن الملك هنري بعجرفة غيوفري دي رانكون وبسبب كثير من الأذى الذي ناله منه جمع عساكره، وألقى الحصار على تيلبورغ Tailburg ، التي كانت احدى قلاعه، وكانت مغامرة جريئة مامن واحد من أسلافه قد أقدم عليها، لأن القلعة كانت حتى ذلك الحين غير معروفة من قبل أعدائها، وكانت محمية بثلاثة خنادق وأسوار، إلى جانب أسلحة من جميع الأنواع، والحواجز والموانع، كما كانت متوجة بأبراج متحركة منصوبة على مسافات، وكان يوجد على شرافاتها كميات واسعة من الحجارة، إلى جانب مخازن من المؤن، وعدد كبير من الفرسان والعساكر المجربين، ولذلك لم تشعر بالخوف من وصول الدوق رتشارد، وقام هو بمهاجمة أراضيها بأكثر من غضب أسدي، واستولى على المنتجات المجموعة من الأعناب، وأحرق القرى، ودمّر كل شيء، ثم نصب خيامه قرب القلعة، وأقام آلات رمي مقابل الأسوار، مما سبب ذعراً حقيقياً عظيما بين صفوف الحامية، الذين ماكانوا يتوقعون وقوع مثل هذا الشيء، ولقد رأوا— على كل حال— أنه شائن أن يتعامل مثلهم من العساكر المجربين ويرغموا على البقاء محصورين داخل الأسوار، لذلك قرروا بالاجماع القيام بهجوم مفاجيء على جيش الدوق، وجرى تنفيذ هذا

القرار بشجاعة، لكن الدوق جمع رجاله، وأرغمهم على التراجع إلى ماوراء أسوارهم ، وفي أثناء تراجعهم كان هناك قتال شديد، وكان سيئا بالنسبة لكل من الرجال والخيول، وللسيوف والرماح، والقسي، والقسي الزيارة، والترسة والحراب، مع كل نوع آخر من السلاح، والسوابغ والدروع الدفاعية، فهذه جميعاً جرت تجربتها في تلك المبارزات، ونجم عن ذلك أن أهل البلدة، وجدوا أنفسهم غير قادرين على متابعة تحمل حملات الدوق، فتراجعوا إلى ماوراء الأسوار، واندفع الدوق في مطاردتهم ودخل مع المطاردين، وامتلأت الشوارع بالسلب والحرائق، لأنه لم يكن قد ترك لهم طريق للنجاة، وكان سكان البلدة محظوظين بالفرار إلى البرج الرئيسي، وتمت تسوية الأسوار الجميلة بالأرض، وعانى الآخرون الذين مكثوا في القلعة الثائرة من الحتف نفسه خلال شهر، واكتمل كل شيء حسب رغبات الدوق، وعند ذلك عبرا إلى انكلترا حيث جرى استقباله بالتشريف الأعظم من قبل أبيه الملك هنري.

كيف أخضع فيليب ملك فرنسا تصريف مملكته إلى ملك انكلترا

عام ١١٨١م، فيه، ذكّر بعض وزراء ملك فرنسا سيدهم، كيف أن ملك انكلترا قد حكم ممالكه الواسعة بسلام، وأبقاهم سالمين، من أولئك البرابرة من شعوب الويلزيين والاسكوتلنديين، ولهذا أخضع الملك الفرنسي— بناء على نصيحة آل بيته— مملكته وكذلك شخصه إلى تصريف ملك انكلترا، حيث تأثر بطرائقه وحذا حذوه، فوضع جميع نورماندي، تحت اشراف الملك الشاب ابنه، وعبر إلى انكلترا في الخامس والعشرين من تموز، وقام بزيارة هدفها الصلاة عند ضريح القديس توماس الشهيد.

ومات في العام نفسه في العشرين من تشرين الثاني، روجر رئيس أساقفة يورك، الذي حصل أثناء حياته على امتياز من البابا الاسكندر،

قضى أنه إذا ماقـام أي كاهن كـان تحت سلطانه، بعمل وصية وهو على فراش مـوته، ومات دون أن يتـولى توزيع ممتلكاته بيديه، وقتهـا يستولي رئيس الأساقفـة على جميع ممتلكات المتوفى، وبما أن كـل واحد ينبغي أن يخضع للقوانين التي وضعها للآخريـن، نجد الآن أنه عندما مات رئيس الأساقفة، فإن جميع كنوزه قد صودرت بموجب حكم عادل من الرب، وقد بلغت أحد عشر ألف باوند من الفضة، وثلاثمائة قطعة من الذهب، وكأس ذهبي واحـد، وسبعـة كـؤوس مـن الفضـة، وتسعـة طوس من الفضـــة، وثلاث ممالح مـن الفضـــة، وثلاثة كـــؤوس من المر، وأربعين ملعقة، وتسع قصعـات من الفضة، وطشت فضي واحد، وقصعـة فضية كبيرة.

رسالة البابا الاسكندر إلى بريستر جون ملك الهند

وفي هذه الآونة كتب البابا الاسكندر إلى بريستر جون ملك الهند، كما يلي:« من الاسكنـدر الأسقف، إلى ولده المحبـــوب في المسيح، صحـــة ومباركات رسولية، لقد سمعنا منذ زمن طويل مضى، بوساطة العلاقة بكثيرين، عن النشـاط الذي أبـديتـه في انجـاز الأعمال التقـوية، منذ أن تبنيت الديانـة المسيحيـة، هذا وأبدى ولدنا المحبـوب، فيليب الطبيب، الذي قـال بأنه تحادث مع عظماء وأشراف الرجـال في مملكتك، إلحاحـه وإخلاصه المعهـود، في العمل على تبيان نواياكم وخططكم، وأوضح لنا رغبتكم في توجيهكم في العقيـدة الكاثوليكيـة والرسوليـة، وأن هذا هو شغفكـم، الجامح، وذلـك بـالنسبـــــة لشعبكـم ولكم أنفسكـم، وأن لاتتمسكوا بشيء يبدو مخالفا لعقـائد الكرسي الرسولي، وإلى ذلك ينبغي أن نضيف الفضيلة السـامية المتعلقـة برغبتكم— كما قال فيليب المتقـدم الذكر، بأنه سمعها من شعبكم— بأن تتملكوا كنيسـة ومذبحاً في مدينة القـدس، حيث يمكن لرجـال دين وحكماء من مملكتكم البقـاء والتعلم بصـورة أوفى والتـــدرب بشكل أكمل على الأنظمـــة الرسـوليـــة، التي

بوساطتها يمكنكم أنتم أيضاً وشعبكم أن تتلقوا بصورة أسهل العقائد المسيحية، وتتمسكون بها، وبناء عليه، رغبة منا في إبعادكم عن الأفكار التي تنأى بكم عن الإيمان المسيحي، قد بعثنا إلى سموكم فيليب المتقدم الذكر، الذي من خلاله يمكن أن تتعلموا أفكار الإيمان المسيحي، وذلك حيث تبدو أنت ويبدو أتباعك أنكم تختلفون عنا، وهكذا لاعليك أن تخاف من أي شيء يمكن أن يصدر عن أخطائكم، في أن يعيق خلاصكم أو خلاص أتباعكم، أو أن يلقى بأية وصمة على إيمانكم بالمسيحية».

كيف خلف لوسيوس البابا الاسكندر

ومات في العام نفسه البابا الاسكندر، بعدما جلس في منصب البابوية الرومانية لمدة اثنين وعشرين عاماً، وقد خلفه همبولد Humbald أسقف أوستيا، الذي اتخذ لنفسه اسم لوسيوس الثالث، ومكث أربعة أعوام في الكنيسة الرسولية، وأيضاً تزوج فيليب ملك فرنسا من مرغريت ابنة بلدوين كونت أوف هينولت Hainult ، من مرغريت أخت فيليب كونت فلاندرز، وفي هذا العام ألغي أيضاً النقد القديم، وصدر نقد جديد في يوم عيد القديس مارتن، وفي العام نفسه، خلف بلدوين راعي فورد، وهو دير سستر شياني، روجر، وصار أسقفاً لوينكستر.

كيف رفض غيوفري المنتخب للنكولن الانتخاب

عام ١١٨٢م، فيه قام غيوفري المنتخب للنكولن، والذي هو ابن ملك انكلترا، بعد تأكيد انتخابه من قبل البابا وحكمه لتلك الكنيسة نفسها بسلام لمدة سبعة أعوام، قام في يوم عيد الغطاس في مالبورا Marlborough ، بالتخلي عن انتخابه، وكان ذلك بحضور الملك والأساقفة، مع أن مامن أحد أرغمه على فعل ذلك.

وفي الوقت نفسه، منح هنري بحضور نبلاء المملكة في وولتهام، وبكرم منه ألفي مارك من الفضة وخمسمائة مارك من الذهب لمساعدة الأرض المقدسة، وعبر بعد ذلك إلى نورماندي، وفي هذه الأيام جرى نفي هنري دوق سكسوني من قبل الامبراطور، وهنري هذا كان ختن الملك، وقد وصل إلى الملك مع الدوقة، وولديه: هنري وأوتو، وهناك زوده الملك لمدة ثلاثة أعوام بسخاء، بكل الأشياء التي احتاجها، وبأعظم الكميات، وفي هذا العام نفسه جرى تكريس كونستانتي Con-stantiis رئيس شمامسة أكسفورد، أسقفاً للنكولن، من قبل رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، في آنجو في كنيسة القديس لود Laud، ومات أيضاً وولتر أسقف روكستر في هذا العام.

وفاة الراعي سيمون وتعيين وارن

عام ١١٨٣م، فيه مات سيمون راعي دير القديس ألبان، وقد خلفه وارن رئيس رهبان الكنيسة نفسها، وكان ذلك في يوم عيد ميلاد أم الرب، حيث وقتها تلقى المباركة كراعي دير.

موت هنري الملك الشاب

وفي هذه الآونة بذل الملك هنري جهده في سبيل جعل ولديه غيوفري ورتشارد يقدمان الولاء للملك الشاب، بحكم كونه الابن الأكبر له، وذلك عن بريتاني، ودوقية أكوتين، ولهذه الرغبة وافق غيوفري على الفور، وقدم الولاء من أجل ايرلية بريتاني، لكن رتشارد ماأن سمع بطلب أبيه حتى انفجر غاضباً، وقائلاً إنه من غير المنطقي، طالما والدهم مازال حياً، أن يخضعوا أنفسهم إلى أخيهم الأكبر، الذي ولد من الأب نفسه والأم نفسها مثلهم أنفسهم، وأن يقوم الأخ الأكبر بادعاء وراثة الأب، إنه هو نفسه، أي رتشارد، له الحق بالمطالبة بوراثة ممتلكات أمه، وكان الملك هنري منزعجاً جداً تجاه هذا التصرف، وسعى

باخلاص شديد لجعل ابنه الشاب، يبذل غاية جهده لخضد شوكة عجرفة أخيه، وبعدما اجتمعا مراراً من أجل هذا المقصد، ووضح أنه مامن أمل في السلام، حشد الملك الشاب جيشاً كبيراً، وقرر محاربة أخيه، لكن حياته انقطعت فجأة مثل خيط، ومعه آمال الكثيرين، ففي الوقت الذي كان فيه بنضارة شبابه، وعندما فقط أكمل الثامنة والعشرين من عمره، توفي في ذلك الجزء من غاسكوني الذي اسمه تورونيا Turonia في قلعة مارتل، في يوم عيد القديس بارنباس -Bar nabas الرسول، وجرى لف جسده بأثواب من الكتان، هي التي لبسها لدى مسحه بالميرون أثناء تتويجه، وحمل إلى روان، حيث دفن إلى جوار المذبح في الكاتدرائية، بتشريف عظيم يليق بأمير كبير مثله، وفي هذا العام نفسه مات جيرارد الملقب بلي بوسل Pucelle وكانت قد جرت سيامته لكرسي كوفنتري، وجاءت وفاته بعد عشرة أسابيع من صيرورته أسقفاً، وقدم أيضاً وولتر دي كاوتانس Coutance أسقف لنكولن إلى انكلترا، وجلس على عرش أسقفيته بشكل مهيب.

عام ١١٨٤م، فيه مات رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، في ألنغهام Allingham ، وهي قرية عائدة لأسقف روكستر، واصطحب الملك هنري دوق سكسوني مع أرسرته إلى انكلترا، حيث ولدت الدوقة بعد ذلك بعدة أيام ولداً أعطي اسم وليم، وكان ذلك في وينكستر، وفي العام نفسه جرى انتخاب بلدوين أسقف ووركستر، ليكون رئيساً لأساقفة كانتربري، كما تمّ انتخاب وولتر أوف لنكولن ليكون رئيساً لأساقفة روان، وتلقى هذين الأسقفين الطيلسان، وبمهابة جلسا على عرشيهما، وقدم في هذه الآونة إلى انكلترا فيليب رئيس أساقفة كولون، وفيليب كونت أوف فلاندرز، ليقدما نذريهما إلى الشهيد المبارك، القديس توماس، وخرج الملك هنري لاستقبالهما، ودعاهما للقيام بزيارة لندن، المدينة الملكية وعندما وصلا إلى لندن، أقامت تلك العاصمة

احتفالاً، لم يشاهد مثل منظره من قبل، وغنت جميع شوراعها فرحاً وحبوراً، وجرى استقبال رئيس أساقفة كولون وكونت فلاندرز بمسيرة مهيبة في كنيسة القديس بولص، وقدم لهما في اليوم نفسه تشريف آخر، وبعد ذلك استضيفا لمدة خمسة أيام في القصر على حساب الملك، لكن هل حملا معهما وهما عائدين إلى الوطن كثيراً من الهدايا أم لم يحملا، يبدو أن من الفضول البحث في ذلك، ومات في العام نفسه جوسلين أسقف سالسبري.

كيف هاجم المسلمون اسبانيا المسيحية وتراجعوا باضطراب

وفي هذه الأيام، في حوالي يوم عيد القديس يوحنا المعمدان اقتاد أبو حفص ملك المسلمين في اسبانيا ملك ملوك المسلمين الذي اسمه أبو يعقوب، على رأس سبعة وثلاثين ملكاً آخر، إلى داخل أراضي المسيحيين، وحاصروا أولا شنترين، وبعد قتال استمر ثلاثة أيام وثلاث ليالي، أحدثوا ثغرة في الأسوار، ودخلوا إلى البلدة، وهربت الحامية إلى القلعة، وفي الليلة التالية انقض أسقف البرتغال مع ابن الملك على المسلمين، وقتلوا الملك أبو حفص مع خمسة عشر ألفاً من رجاله، وقد كوموا جثثهم في مكان الأسوار التي أحدثت فيها الثلمة، وفي اليوم التالي الذي كان عيد القديس يوحنا، والقديس بولص[٢٦— حزيران]، حشد رئيس أساقفة سانتياغو عشرين ألفاً من الرجال، وقتل عند الفجر ثلاثين ألفاً من المسلمين، وفي اليوم التالي الذي كان عيد القديسة مرغريت دمّر المسلمون عند العقاب عشرة آلاف امرأة وطفل، غير أن الذين كانوا في بلدة العقاب خرجوا منها وحملوا على المسلمين فقتلوا ثلاثة ملوك مع جيشهم كله، وبعد ذلك في عشية عيد القديس جيمس سمع الملك أبو يعقوب بأن ملك قشتاله كان قادماً لقتاله، ولذلك عندما رغب في امتطاء حصانه وقع أرضاً ثلاث مرات ومات، وبناء عليه هرب جيشه كله، مخلفاً وراءه جميع أمواله، وأعطى ملك

البرتغال بعضاً من أسرى المسلمين كرقيق للعمل في خدمة البنائين في اعادة عمارة الكنائس، وعمل بالذهب بيعة ذهبية في القديس فنسنت Vincent، وقدمت بعد ذلك عدة غلايين إلى لشبونة جالبين معهم مركباً ضخماً، كان فيه آلة رمي ذات طبيعة أنه كان بإمكان المسلمين الرمي فيها إلى ماوراء الأسوار، والعودة ثانية، وبفضل الحكمة الربانية، تمكن أحدهم من الغطس في الماء تحت هذا المركب، وفتح ثغرة كبيرة في أسفله، مما سبب غرقه، وقدّر المسلمون أنهم صدوا، ولذلك هربوا مخلفين وراءهم جميع أثقالهم.

انتخاب غي لوزغنان حامياً لمملكة القدس

كان في هذه الأيام يحكم في القدس بلدوين ابن الملك عموري، وقد كان منذ بداية حكمه مصاباً بمرض الجذام، وكان هذا المرض قد حرمه بصره، والقدرة على استخدام قدميه ويديه، ومع ذلك على الرغم من ضعف جسده، كان قوياً في فكره، وقد بذل جهوداً فوق طاقته لتأدية واجباته الملكية، وفي سبيل هذه الغاية حث نبلاء مملكته، وكان ذلك بحضور أمه والبطريرك من أجل تعيين غي لوزغنان، كونت يافا وعسقلان، ليكون وكيلاً للمملكة، وكان غي هذا قد تزوج من سنيبيلا أخت الملك، التي كانت من قبل زوجة مركيز مونت فرات، الذي منه ولدت بلدوين، لكنه بعدما صار لبعض الوقت وكيلاً للمملكة، ولم تتقدم المملكة، عزل الملك غي، وعين ريموند كونت طرابلس في موضعه.

كيف دمّر صلاح الدين سلطان مصر عدة مدن عائدة للصليبيين

أخضع في هذه الآونة صلاح الدين، سلطان دمشق، جميع ممالك المسلمين في أرجاء الشرق، وبذلك صار من الممكن تسميته عن حق ملك الملوك، وسيد السادة، وصار الآن مقصده اخضاع جميع الصليبيين

أيضاً، فعبر نهر الأردن في بداية تموز، وأغـار على المنطقة من حـول قلعة الكرك لجمع الغلال والأعـلاف، ومنطقة الكرك هي التي كـانت تعرف من قبل باسم البتراء في الصحراء، ثم إنه عبر إلى بلدة نابلس، التي نهبها ثم أحرقهـا، وفي سبسطية تمكن الأساقفـة من دفع فدية عن المدينة وعن الكنيسة بتسليمه ثمانين من الأسرى، وزحف من هناك صلاح الدين إلى العربية فشعث تلك المنطقة، واقتلع النساء والرجال وحملهم معه أسرى، وتابع من هناك زحفـه إلى قلعـة جيريـن الكبرى التي دمـرها، وقتل كل من الرجـال والنساء وذلك باستثنـاء عدد قليل اتخذهم أسرى، وكـانت جيرين الصغرى قـرية تابعة للداوية، وقد شاركت بالمصير نفسـه، وعاد المسلمون بعـد ذلك عبر طريق كوكب الهوا، وكانت قلعـة تابعة للداوية فقتلوا بعضا من سكانها وحملوا البقية أسرى.

انتخاب ملك انكلترا ملكا للقدس

وعندما مات أخيراً بلدوين الملك المجذوم للقدس، حكم مكانه طفل كان في الخامسة من عمره، كـان ابن أخت الملك المتوفى من أخته سيبيلا ووليم مركيز أوف مونتفرات، وكان بعد تتويجه أن عهد بتربيته لريموند كـونت طـرابلس، ولكن عندمـا رأى الناس ورجـال الدين أن المملكة تدهورت إلى حـالة بات مـن غير الممكن الحفـاظ بها عليهـا، أخـذوا يفكرون بالخطوات المتـوجب اتخاذهـا، مقـدرين في ظنونهم أن السلطان من غير الممكن أن يبقى طويلاً من دون عمل مؤثر، وكانت لديهم آمال قليلة للافـادة من سني طفـولـة الملك، لذلك اتفقـوا جميعـاً على ارسـال سفراء إلى هنري ملك انكلترا، وعرضوا عليه مملكة القدس، مع مفاتيح المدينة المقدسة، وكـذلك مفاتيح ضريح ربنا، وتولى هرقل البطريرق بناء على طلبهم القيام بهذه السفـارة، وكان برفقته مقـدم الداوية مع آخرين، وقد عبروا البحر المتـوسط، ووصلوا إلى روما، وحصلوا على رسائل من البابا لوسيوس، فيها رجاء لملك انكلترا بالموافقة على طلبهم.

وصول البطريرك هرقل إلى انكلترا وإعلامه الملك هنري بانتخابه

عام ١١٨٥م، فيه وصل هرقل بطريرك ضريح القيامة المقدس، وروجر مقدم الاسبتارية في القدس، إلى الملك هنري، في ردنغ، وأوصلوا إليه رسالة البابا، وشرحوا له الهدف من رحلتهم، والوضع المأساوي لمدينة القدس ولجميع منطقتها، وأثارت الكلمات الملك والمجتمعين وجعلتهم يبكون، فقد تفاعلت عواطفهم مع ميلاد الرب، وآلامه، وبرج داوود، ومفاتيح الضريح المقدس، وراية المملكة، فهؤلاء قد قدرهم الملك واحترمهم بدون حدود، وجاء محتوى رسالة البابا، بين مواضيع أخرى مايلي:

رسالة البابا لوسيوس إلى ملك انكلترا

من لوسيوس، أسقف وعبد عبيد الرب، الخ

« لما كان سلفك قد شهروا فوق جميع أمراء العالم بالشجاعة في السلاح، والنبالة في العقل، تعلم الناس من المؤمنين أن يتطلعوا نحوهم كحماة لهم في محنهم، وليس من دون مسوغ أن تقدموا إليكم، أنتم الذين ورثتم جميع فضائل أبيكم وكذلك مملكته، في اللحظة التي بات فيها ليس الخطر فقط ولكن الدمار الوشيك معلقاً فوق الشعب الصليبي، يطلبون أن تتولى بسلطانكم الملكي حماية أتباع المسيح، المسيح الذي سمح لكم بالوصول إلى مقام مجدكم الرفيع الحالي، وجعلكم سور دفاع ضد الذين يهاجمون اسمه بشكل شرير، فضلاً عن هذا ليكن معروفاً من قبل سموكم بأن صلاح الدين ذلك المعذب الشرير لاسم المصلوب، قد بلغ حداً خطيراً من العمل العدواني ضد صليبيي الأرض المقدسة، وأنه إذا لم يضبط عدوانه، هو قد بات متطلعاً لأن يصب نهر الأردن كله في فمه»، الخ.

-٦٠٢٧-

رفض الملك هنري مملكة القدس

وبعدما تسلم ملك انكلترا هذه الرسالة دعا إلى الاجتماع رجال الدين، والناس، والنبلاء التابعين لمملكته، وكان ذلك في الثامن عشر من آذار في كليركنول Clerkenwell في لندن، وفي أثناء اجتماع الملك بالبطريرك مع مقدم الاسبتارية حث بشكل مهيب جميع أفراد رعيته المخلصين، أن يعلنوا عن الذي يرونه مفيداً لخلاص روحه بشأن الموضوع المعروض أمامهم، مضيفاً أنه مصمم بشدة في عقله الأخذ بالنصيحة التي سوف يقدمونها، وتولى المجلس كله فحص الذي سمعوه، فرأى أنه من الأسلم والأفضل لخلاص روح الملك هو حكمه لمملكته كلها باعتدال صحيح، والدفاع عنها ضد غارات البرابرة، وهذا خير من أن يتولى بشخصه الاشراف على مصالح شعب الشرق، لكنهم لم يتوصلوا إلى أي قرار، فيما يتعلق بأولاد الملك، الذين كانوا غياباً، والذين طالب بطريرك القدس بارسال واحد منهم إلى القدس، إذا مارفض الملك الذهاب شخصياً.

ورسم في هذا العام نفسه جون ابن الملك فارساً بنطاق، وذلك من قبل أبيه في وندسور، في اليوم الأخير من آذار، وبعد ذلك عبر الملك إلى ايرلندا، ثم إن الملك عبر مع البطريرك إلى نورماندي، واحتفل بعيد الفصح في روان، ولدى سماع ملك فرنسا بوصول ملك انكلترا، جاء مسرعاً تماماً إلى فودرويل Vaudreuil حيث أمضى الملكان ثلاثة أيام من المحادثات العادية، وحمل كثير من النبلاء الصليب بحضورهما، لكن الملكين نفسيهما وعدا بأنهما سوف يرسلان مساعدة سريعة إلى الأرض المقدسة، لأنهما اعتقدا أنها سوف لن تكون مسألة سهلة القيام بمثل هذه المغامرة المهمة من أقصى حدود الغرب، وخابت آمال البطريرك بالنسبة لهدفه، وحبطت آماله، فعاد إلى بلاده.

وفي العام نفسه، قتل هيوج دي لاسي، الذي كان صاحب مقاطعة

اسمها ميديا(ميث Meath في ايرلندا) في الخامس والعشرين من تموز، ومات في الوقت نفسه ايرل أوف هنتنغدون من دون أولاد، فأعطى الملك الايرلية مع متعلقاتها إلى وليم ملك اسكوتلندا، وأيضاً جرت سيامة غيلبرت دي غلانفيل رئيس شمامسة ليوكس Lisieux أسقفاً لروكستر في التاسع والعشرين من إيلول، وعاد هنري دوق سكسوني— بإذن من الامبراطور— إلى وطنه، وأقنع نفسه وأرضاها بميراثه الأبوي الخاص.

بلدوين رئيس أساقفة كانتربري يتسلم الطيلسان والسلطات الشرعية

عام ١١٨٦م، فيه تلقى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري الطيلسان مع التفويض الشرعي، والسلطة على المقاطعة التي يحكمها، وكذلك جرت سيامة وليم دي فير Vere أسقفاً لهيرفورد، وكان ذلك في يوم عيد ميلاد القديس لورانس، ومات في العام نفسه غيوفري كونت بريتاني، وابن ملك انكلترا في التاسع عشر من آب، وقد دفن في باريس في كنيسة نوتردام في سدة الرهبان النظاميين، وقد خلّف ابنتين من زوجته كونستانسي ابنة كولون الذي كان من قبل كونت بريتاني، وقد ولدت بعد وفاته ولداً أعطي اسم آرثر، وفي العام نفسه، تمت سيامة هيوج أوف بيرغندي، رئيس رهبان طائفة الكارثوسيين Carthusian في انكلترا، أسقفاً للنكولن، وكان ذلك في يوم عيد القديس متى، وفي اليوم نفسه جرت أيضاً سيامة وليم دي نورهيل Norhale أسقفاً لووركستر Worcester، ومات البابا لوسيوس، وخلفه أوربان، وتمت سيامة جون قائد جوقة المرتلين في اكستير أسقفاً لتلك الكنيسة.

البابا أوربان يمنح إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري إذناً لبناء كنيسة في أكنغتون

وفي تلك الآونة، كتب البابا أوربان إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري كما يلي:« نحن نعلمكم بوساطة هذه التقديمات، بأنكم تمتلكون الإذن ببناء كنيسة على شرف الشهيدين المباركين: اسطفان، وتوماس، وبتزويدها بأشخاص مناسبين ليكونوا مرتبطين بها، وعليك أن تعين لهم جميع مايحتاجون إليه للحفاظ عليها، وذلك وفقاً للكيفية التي سوف تعينهم بها، كما أن جميع التقدمات التي تعمل عند آثار القديس توماس الشهيد، تكرس ربع ذلك لاستخدامات الرهبان، وربع من أجل أعمال الكنيسة، وربع للفقراء، والربع المتبقي للاستخدامات التي تراها مناسبة.

تتويج سيبيلا ملكة على القدس

ومات في تلك الآونة، بلدوين الملك الطفل للقدس، ولم يكن هناك من يخلفه إلى العرش سوى سيبيلا، زوجة غي كونت يافا، وأخت الملك المجذوم، وأم الملك الطفل، الذي توفي آنذاك، وبما أن الهدنة بين صلاح الدين وبين الصليبيين كانت على وشك الانتهاء، باتت حماية المملكة في حالة حرجة، وأنها سوف تتحطم بعد وقت قصير، لأنها ماعادت تحتمل التأخير، وبناء عليه عقد اجتماع للنبلاء، وتم الاتفاق على وجوب تتويج سيبيلا زوجة غي ملكة، لأنها وريثة المملكة، وجرى رفض غي على أساس أنه غير أهل للحكومة، ورفضت سيبيلا الملك على أساس هذه الشروط، حتى يوافق النبلاء على منحها حق اختيار الرجل الذي سوف يكون زوجها، وأقسموا على إطاعته كملك، وطلب منها غي عدم اهمال العناية بالمملكة من أجله، وهكذا جرى بعد عدة أيام من التأخير قبول سيبيلا ورضوخها وهي تبكي، وتوجت ملكة بشكل مهيب، وتلقت الولاء من جميع الناس، في حين جرى تجريد غي في اللحظة نفسها من زوجته ومن تاجه، وعاد إلى قومه، وانتشر في الوقت نفسه تقرير، مالبث أن تأكد بوساطة الحقائق، عن اقتراب عدوان صلاح الدين، وبناء عليه

استدعت الملكة رجال اللاهوت لديها مع نبلائها المدنيين، وتباحثت معهم حول اختيار ملك، وكما حدث من قبل أن سمحوا لها جميعاً باختيار من ترغب به، وتطلعوا بقلق إلى الاختيار الذي سوف تعمله، فقالت لغي الذي كان واقفاً بين الآخرين:« مولاي غي، لقد اخترتك لتكون زوجاً لي، وأعطيتك نفسي ومملكتي، ولأن تكون الملك المستقبلي»، واعترت الدهشة الجميع بسماع كلامها، وعجبوا كيف أن امرأة بمثل هذه البساطة، قد خدعت مثل هذا العدد الكبير من المستشارين العقلاء، وفي الحقيقة جاء تصرفها جديراً بالثناء الكبير، بسبب كل من عدالته وحكمته، لأنها أبقت التاج لزوجها، وأبقت زوجها لنفسها.

وحدث في تلك الآونة زلزال مخيف، حتى انكلترا التي نادراً ماشهدت مثل هذه الأشياء، قد هدمت فيها عدة بيوت، وحدث أيضاً أن أم صلاح الدين، كانت على طريق عودتها من مصر إلى دمشق مع حاشية كبيرة وفخمة، وقد عبرت من خلال الأراضي الصليبية الواقعة على الطرف الآخر من نهر الأردن، وكانت واثقة بالهدنة، ولكن أرناط(رينودي شاتليون) هاجم الجماعة واستولى على كل ماهو ثمين كان معهم، وتمكنت أم صلاح الدين من النجاة بالفرار، وغضب صلاح الدين لما حدث، وطالب بإعادة المنهوبات، وبترضيته، وفقاً لشروط معاهدة الهدنة، ولدى مطالبة أرناط برد المنهوبات، ردّ بقسوة وبجواب مهين، وبناء على ذلك ابتهج صلاح الدين إلى أبعد الحدود لأن الصليبيين كانوا أول من خرق المعاهدة، وأعدّ نفسه للحرب وللانتقام، [وفي العشرين من كانون الثاني حمل ملك فرنسا وانكلترا الصليب].

صلاح الدين يشعث الأرض المقدسة

عام ١١٨٧م، فيه حشد صلاح الدين وهو يتحرق غضباً ضد الصليبيين: الفرثيين، والبداة، والترك، والمسلمين، والعرب، والميديين،

والأكـراد، وشعث جميع الأرض المقـدسـة، ولم يقتنع باحتـلال بعض الحصون الصغيرة في الجليل، بل أعد نفسه لحصار جبل الجمجمة(أكرا)، وزحف إلى هناك مـع مختلف أنواع الآلات الحربيـة، وتمكن وهو على طريقـه من انزال الهزيمة بكتلة كبيرة من الصليبيين، وقتل المقـدم الأعلى للداوية مع ستين من فرسان الداوية، وتحمس بهذا النجاح، فتابع العمل ومتـابعة الحصـار، ولدى سماع ملك القدس بأن المدينة [مـدينة طبرية] قـد حـوصرت، والسكان قـد ضغـط عليهم بشـدة، أعلن النفير العـام وبوساطتـه حشد جميع قوات مملكتـه، ولم يترك أحداً إلا العـاجزين عن القتـال، بسبب عمـرهم أوجنسهم، وقد أبقـاهم للدفـاع عن الحصـون، وكـان موضع الاحتشـاد هو نبع الصفـورية، وعندما زحفـوا من هنـاك، وصل تعـدادهم إلى عشرين ألف مقاتل، وجـرى تعيين ريموند كـونت طرابلس قائداً أعلى لهم، وانطلقوا نحـو طبرية، وعندما حل يوم المعركة الحاسمـة رأى حاجب الملـك في منامه، بأن نسراً قـد طار فـوق معسكر الصليبيين، وهو حامل في مخالبه سبعة أسهم، ويصرخ عاليا:« الويل لك ياقدس، الويل لك يـاقدس»، وفي ترجمة لهذا الحلم وشرح له، يكفي أن نتذكر كلمات الروح القدس التي تفـوهت بها على لسان النبي في قوله:« فوّق الرب قوسه، وفيه أعدّ وريد الموت».

صلاح الدين يستولي على مدينة القدس ويأسر الملك شخصياً

ولدى سماع صـلاح الدين باقتراب الملـك لرفع الحصـار، زحف بشجـاعـة لمواجهـة الصليبيين، مـدركـاً بأنهم قـد أنهكوا بضيق الطريق وقسـوة الصخـور، وليس بعيـداً عن طبرية، وفي مكـان اسمـه حطين، انقض على جيش الملك وهو واثق من النجـاح، وقد تلقـاهم الصليبيون بشجـاعـة وذلك بقـدر ماسمحت لهم طبيعـة الأرض، واشتـد القتـال، وحمي الوطيس، وسقطـت أعـداد من على الجانبين، إنما أخيراً، وبسبب آثام الصليبيين، انتصر الأعـداء لأنهم— كما يقـولون— أنزل كـونت

طرابلس— الذي كـان يقـود الجيـش— علمـه بشكل خيـاني، وجعل جنوده يفكرون بالفـرار، علما بأنه لم يكن أمـامهم سبيل للفـرار، إلاّ من خـلال الأعـداء، ووقع الملك غي بالأسر، وتمّ الاستيـلاء على الصليب المقـدس، وتعـرض الجيش كله إمـا للقتل بالسيـف، أو للأسر من قبل الأعـداء، وذلك باستثناء كونت طـرابلس، الذي من المعتقد أنه خـانهم، ونجا أيضا اللورد رينالد حاكم صيدا، واللورد بالين مع عدد ضئيل من فرسان الداويـة، وكان القتال في هذه المعركة المأسـاوية، في يومي الثالث والرابع من تموز، في الأيام الثمانيـة للقـديسين: بولص، وبطرس، ونجـا مقدم الداوية من هذه المأساة، إنما مع خسـارة مائتين وثلاثين من رهبانه الفـرسـان، وكانت نجـاة كـونت طرابلس دون الاصـابة بجـراح برهاناً للافتراض بأنه خان الجيش، وتمكن العدو من قهر الصليب المقدس، مع أسقف عكا، ورئيس جـوقـة المرتلين في ضريح ربنا، أمـا الأسقف فقـد قتل، وأمـا رئيس الجوقـة فقـد وقع بالأسر، ومثله حـدث للصليب المقـدس، وهـو الذي كـان من قبل قـد جـرى تحريـره من قبل من نير الأسر، قـد اتخذ الآن أسيراً بسبب ذنـوبنا، وبذلـك تدنس بـأيدي غير المسيحيين.

كيف جرى اخضاع المدينة المقدسة وتقريباً جميع المملكة لصلاح الدين

وبعد حصول صلاح الدين على هذا النصر، رجع إلى طبرية، وبعدما استـولى على القلعة التي كـانت قـد بقيت مستعصية عليـه، أرسل الملك وأسراه إلى دمشق، ثـم إنه دخـل إلى الجليل، فلـم يجد أحـداً يعترض سبيله، فاستولى عليهـا من دون سفك للدماء، وتابع من هناك زحفه إلى القدس، ونصب آلات رميـه في جميع الجهات من حول الأسـوار، وأقام سكان المدينة من الـدفـاعـات الذي استطـاعـوا اقـامتـه، لكن قسيهم، وقسيهم الزيارة وآلات رميهم للحجـارة قـد تكدست من دون فـائـدة،

وتجمع الناس وهم مرعوبين حول البطريرك وحول الملكة، التي كانت تحكم المدينة في ذلك الوقت، وطالبوا الدخول بمباحثات مع صلاح الدين من إجل تسليم المدينة، وتلا ذلك عملية استسلام تستحق البكاء ولاتستاهل الوصف، وقضت الشروط أن يدفع كل رجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل دينار واحد، لكن كان في المدينة أربعة عشر ألفاً من الجنسين كانوا غير قادرين على دفع هذه الفدية، وبذلك نزلوا إلى درجة العبودية الدائمة، وبذلك استسلمت مدينة القدس إلى أعداء المسيح، وسقط الضريح في أيدي الذين كانوا يعذبونه، وهو المكان الذي دفن فيه، وصار الذين يدنسون المصلوب متملكين لصليبه، ودخل صلاح الدين إلى المدينة مع أصوات الطبول والأبواق، وبادر مسرعاً إلى الهيكل، فأزال الصليب الذي كان مبنيا هناك، وجميع الأشياء التي نظر الصليبيين إليها نظرة احترام، ثم إنه أمر بغسل الهيكل بماء الورد من الداخل ومن الخارج، وبإعلان النداءات المتعلقة بدينه في زواياه الأربع، وتركت كنيسة القيامة مع ضريح ربنا في أيدي بعض السريان مقابل دفع جزية مقررة، ثم تابع صلاح الدين زحفه واستولى على بقية المدن والبلدات، باستثناء عسقلان، وصور، والكرك، الواقعة فيما وراء الأردن، والتي تعرف باسم آخر هو مونتريال(كذا ومونتريال هي الشوبك).

البابا يمنع بناء كنيسة أكنغتون

وكتب في هذه السنة البابا أوربان إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري بالصيغة التالية:« إلى أولادنا الأعزاء، ورئيس الرهبان ورهبان كنيستك، لقد أرسلتم لنا رسائل حول موضوع الكنيسة التي شرعتم بعمارتها، ذاكرين أنه مالم يتم التوقف عن متابعة العمل فإن سمعة وأوضاع كنيستهم سوف تتضرر كثيراً، وبناء عليه رغبة منا وحرصاً بأن لاينشب خلاف بينكم وبين إخوانكم، وبما أنكم لن تستطيعوا القيام بشكل

صحيح بأداء واجباتكم المقدسة عندما ينشب خلاف بينكم أنفسكم، وبناء على نصيحة إخواننا، نحذر، ونأمر بدقة إخوتكم، أنه حتى نقرر انطلاقاً من أسباب معروفة من قبلنا، الذي ينبغي عمله بشأن هذه المسألة، أن تضعوا جانباً جميع مناسبات الالتماسات، وتتوقفوا عن أعمال بناء تلك الكنيسة، حتى يجري منحكم رسائل من الكرسي الرسولي، بعدم معارضة ذلك».

ومات في العام نفسه البابا أوربان، وقد خلفه غريغوري، وأيضاً بعدما شغل هذا الكرسي لمدة شهرين مات، فجرى تعيين كليمنت الثالث في العشرين من كانون الأول، وفي هذا العام أيضاً دفع غيلبرت، أسقف لندن، دين الطبيعة، وسمع في العام نفسه رتشارد، كونت أوف بواتو، بأنباء الكارثة في الأرض المقدسة، والاستيلاء على الصليب، فقام على الرغم من نصيحة أبيه وارادته بحمل شارة الصليب، فكان بذلك أول نبلاء ماوراء البحر بفعل ذلك، وقد تلقى هذه الشارة من يدي رئيس أساقفة تور.

كيف حمل كثيرون الصليب بناء على التبشير بالحملة الصليبية

عام ١١٨٨م، فيه حمل فردريك امبراطور الرومان شارة الصليب، بناء على تبشير هنري أسقف ألبا Alba ، الذي كان نائباً للكرسي الرسولي، والذي كان قد أرسل من قبل البابا كليمنت، وفي الوقت نفسه توجه كل من فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا للاجتماع في مؤتمر في نورماندي بين تراي Trie وغيسور، وذلك من أجل تقديم المساعدة إلى الأرض المقدسة، وقد قاما بعد كثير من المداولات بالاتفاق، أمام فيليب كونت أوف فلاندرز وبحضوره، بشكل متبادل ومتضامن، على حمل شارة الصليب والاسراع برحلتيهما معا إلى القدس، وبناء عليه، كان ملك الانكليز أول من حمل شارة الصليب من يدي رئيس أساقفة الرايمز، ووليم الصوري، ووليم هذا كان البابا قد عهد

إليه بوظيفة النائب البابوي للمسائل الصليبية في غربي أوربا، وبعد هذا أخذ أيضاً ملك فرنسا وفيليب كونت فلاندرز الصليب، وكان المثل الذي أظهروه هكذا وضربوه قوياً وفعالاً، لذلك تناول الصليب في مملكتي وممتلكات الملكين المتقدمي الذكر بحماس، كل من رؤساء الأساقفة والأساقفة، والدوقات، والمراكيز، والكونتات، والبارونات، والعساكر، والناس من الطبقتين الوسطى والدنيا سواء، وتمّ الاتفاق بين الأمراء على أن يرتدي جميع الفرنسيين صلباناً من اللون الأحمر، والانكليز من اللون الأبيض، وأتباع كونت فلاندرز صلباناً من اللون الأخضر، أما بالنسبة لممتلكاتهم، فقد تمّ الاتفاق على أنه حتى انجاز حجهم، وبعد إمضاء كل واحد منهم أربعين يوماً في بلاده، فإن جميع الأشياء سوف تبقى كما كانت قبل حملهم للصليب.

كيف نأت عواطف رتشارد كونت أوف بواتو عن أبيه

في هذه الآونة، قتل غيوفري أوف ليزنياك Liziniac بشكل خياني واحداً من أصدقاء رتشارد كونت أوف بواتو، وثار الكونت من أجل الانتقام لهذه الجريمة، ولجأ إلى السلاح، لكنه تذكر شارة الصليب التي حملها، فوفر حياة الذين كانوا راغبين بحمل شارة الصليب من أتباع غيوفري، أما البقية فقد قتلهم، وأخضع عدة قلاع، وكان غيوفري يعتمد على الأموال والمساعدات— التي قيل— بأن ملك انكلترا كان يرسلها له، ولذلك قام بمقاومة الكونت رتشارد، إنما مع قليل من النجاح، وأبعدت هذه الظروف عقل الكونت عن أبيه، وبعد اخضاع غيوفري، كان الكونت قد أصيب بجراحة على يدي كونت طولوز، ولذلك غزا أراضي هذا النبيل، وأخضع في وقت قصير سبع عشرة قلعة، وغضب ملك فرنسا لمهاجمة رتشارد لأراضي كونت طولوز من دون معرفته، فقام بشكل سري بمهاجمة قلعة رالف، وأرغم جميع الذين كانوا هناك على تقديم ولائهم له، وبدا هذا مخلاً كثيراً بالشرف من

جانب مثل هذا الأمير العظيم، خاصة وأن ملك انكلترا عندما كان على وشك العبور إلى انكلترا، قد عهد بالعناية بأراضيه إلى الملك الفرنسي، وحقق بعد هذا الملك الفرنسي صداقة بعض المتملكين للقلاع التي كانت خاضعة لملك انكلترا، وكان ذلك بعضه بالوعد، وبعضه الآخر بالوعيد، وهكذا بإغواء من الشيطان، نشبت الخلافات بين الملكين، اللذان قاما بعد حملها للصليب بانزال جراحات متبادلة، كل على الجانب الآخر، وغزا أخيراً الملك الانكليزي المملكة الفرنسية، وأحرق كامل المنطقة الممتدة من فيرنويل **Verneuil** إلى ميودان **Meudan**، ومات في هذا العام رتشارد أسقف وينكستر في الثاني والعشرين من كانون الأول، ودفن في وينكستر.

رسالة فردريك الامبراطور الروماني إلى صلاح الدين

وكتب في هذا العام الامبراطور الروماني فردريك إلى صلاح الدين، فيما يتعلق بالأرض المقدسة، الرسالة التالية:

«[نحن] فردريك، بنعمة الرب امبراطور الرومان، المهيب الدائم، والمنتصر المجيد على أعداء الامبراطورية[والحاكم السعيد للمملكة كلها]، إلى صلاح الدين اللامع، وحاكم المسلمين، عله يتعظ بفرعون، ولا يلمس القدس.

لقد تسلمنا الرسائل التي أرسلتها حضرتكم إلينا منذ وقت طويل مضى، حول مسائل ثقيلة وهامة، كان من الممكن أن تستفيد منها، لو أمكن الاعتماد على كلامك، الذي بات واضحاً لجلالتنا، وكنا على نية الاجابة على اتصالاتكم برسالة تليق بعظمتكم، لكن بما أنك الآن دنست الأرض المقدسة، التي هي خاضعة لحكمنا بموجب التخويل من الملك السرمدي، وبحكم كوني الوصي على اليهودية، والسامرة وفلسطين، فإن هذا يدفع مقامنا الامبراطوري للمبادرة بالزحف ضد

أعمال الاغتصاب المجرمة والشريرة بكل سرعة وفعالية، وبناء عليه، إنك مالم تقم قبل كل شيء، بإعادة الأرض التي استوليت عليها، وبإعطاء تعويضات مرضيه، تتوافق مع القوانين المقدسة، من أجل هذه التجاوزات العدوانية، ولكي لانظهر بإثارة حرب غير شرعية، فإننا نعطيك مهلة من الأول من تشرين الثاني، مقدارها اثني عشر شهراً، وإنك بعدها سوف تجرب حظ الحرب، في ميدان صوعن، وذلك بفضل الصليب المانح للحياة، وباسم يوسف الحقيقي، لأننا لايمكن أن نصدق إلاّ بصعوبة بالغة أنك جاهل بما تحدثت عنه الكتابات الماضية والقديمة وشهدت عليه، فهل يمكنك أن تدعي أنك لاتعرف بأن كل من الأحباش، والموريتانيين، والفرس، والسكيزيين، والفرثيين كانت بلادهم هي التي لاقى فيها قائدنا ماركوس كراسيوس موتاً قبل أوانه، وأن اليهودية والسامرة والعربية، والجزيرة، والعراق، ومصر هي[من المخجل القول أن مواطناً رومانيا هو أنطونيوس، الرجل الذي تمتع بفضيلة واحدة، لأنه تجاوز حدود ضبط النفس، وعمل ضد ماكان ينبغي عمله بحكم كونه جنديا أرسل من قبل دولة عظيمة، قد أخضعها لحبه غير الطاهر لكليوبترا، وهل يمكنك أن تدعي أنك لاتعرف بأن] أرمينيا مع بلدان أخرى لاتحصى هي خاضعة لسلطاننا؟ فهذا أمر معروف بشكل جيد بالنسبة إلى أولئك الملوك الذين غالبا ماتلطخ السيف الروماني بدمائهم، وأنت شئت أم أبيت سوف تعلم بالتجربة قدرة نسورنا المنتصرة، وستصبح عارفاً بعساكرنا المكونة من عدد كبير من الشعوب منها: الغاضبين الألمان، والشرسين من الراين، والشباب من ضفاف الدانوب، الذين لايعرفون كيف يفرون، والبافاريين أهل الأبراج، والسوابيين البارعين، والفرنجة الحذرين، وأهل سكسوني الذين رياضتهم هي استخدام السيف، والتورنجيين، والوستفاليين، والبربانتيين النشطين، واللوريين الذين غير معتادين على السلام، والبيرغنديين الحادين، وسكان جبال الألب الرشيقين، والفريزونيين مع

خناجـرهم وأسـواطهم، والبـوهيميين الجاهزين دومـاً لموت شجـاع، والبـولونيين الأشجع من أشجع الحيـوانات المفترسـة، وأهالي: النمسـا، وستيريا، وروانيا، واستيريا، وروكمفيا، وإليريا، ولومبارديا، وتوسكانيا، وتخوم أنكونا، والبنادقة أصحاب الادارة، والبيازنة البحارة، وأخيراً، من المؤكـد أنك سوف تتعلم كيف أن يميننا— التي تفـترض أنها ضعفت بسبب تقـدم السن— مـاتزال قـادرة على استخـدام السيـف، في ذلك اليـوم، الذي هو يوم الاحـترام والسـرور، الذي تقـرر من أجـل نصر قضـية المسيح».

جواب صلاح الدين إلى الامبراطور فردريك

« إلى الملك الكبير، والصـديق المخلص، فردريك اللامع ملك ألمانيـا: بسـم الله الرحمن الرحيم: الحمـد لله الواحـد الأحـد، القـادر، والقـاهر، والباقي، الذي ليس لملكه من نهاية.

نحمـده دومـاً، الذي نعمتـه على العـالم كله، وندعـوه لينزل شـآبيب رحمتـه على جميع أنبيائـه، وخـاصة على معلمنـا، رسوله النبي محمـدﷺ، الذي أرسله بالـدين الصحيح الذي سيظهـره على الـدين كله، ونود أن نعلم الملك المخلص والقـوي، الذي هو صـديقنا اللطيف، ملك ألمانيـا، أنه قـد وصل إلينا رجل اسمه هنري، ادعى أنه رسـولكم، وأعطى إلينا رسـالة، قـال بأنها من يدكم، ولقـد أمرنا بقـرائـة الرسـالة، وسمعنا منه كلاما تفوه به، والكلام الذي تفوه به جاوبناه أيضا بكلام، وإليكم الآن جـواب رسـالتكم: لقـد عـددتم الذين تحالفـوا معكم للقـدوم ضـدنا، وسميتهم، وذكرت اسم هذه البـلاد، واسم تلك البلاد، وهذا الكونت، وذلك الكونت، وبينت وجـود كذا من رؤسـاء الأساقفـة، والمركيزات، والفـرسـان، وإذا مـارغبنا أن نعـدد الذيـن هم في خـدمتنـا، والذين يستجيبـون لأوامـرنا، والذين يطيعـون كـلامنـا، والذين سيقـاتلون من أجلنا، لطالت القـائمـة حتى لايمكن وضعهـا كتـابة، وإذا مـا أحصيت

عـدد أسماء المسيحيين، فإن عـدد المسلمين أكبر مـن عـددهم، لابل هم ضعف أضعــاف المسيحيين، وإذا كــان البحـــر يقـوم بيننـا وبين الذين سميتهم مسيحيين، ليـس هناك من بحـــــر يفصـل بين المسملين، الذي لايمكن تعـدادهم، وبيننا وبين الذين سيقـدمـون لعـوننا ليس هناك من عـوائق، ويوجد لدينا البـداة، البـداة، الذين سيكون بهم وحدهم كفـاية لمواجهة أعـدائنا، والتركمان، الذين يمكنهم من دون مساعـدة تدميركم، حتى فـلاحينا، إذا مـاأمـرناهم، فإنهم سـوف يقـاتلون بشجـاعـة ضـد الشعـوب التي ستأتي لغـزو بلادنا، ولسـوف تسلبهم ثرواتهم، وتفنيهم، أوليس لدينا في جانبنا العسـاكر الذين يحبون القتـال، والذين بوساطتهم فتحنا البـلاد وحصلنا عليهـــا، وأخـرجنا أعـداءنا وطـردناهم؟ وهؤلاء جميعا وكل الملوك المسلمين لن يتأخروا عندمـا نحشدهم، ولن يتقاعسوا عندمـا نستـــدعيهم، وعندمـا سيتـم حشـد عسـاكــرك، كما ذكـرت في رسـالتك، ولدى قيـــامك بقيـادتهم، كما أخبرنا رسـولـك، فإننا سـوف نواجههم بقدرة اللـه، كما أننا لن نكتفي بالأراضي القائمـة على شاطىء البحر، بل سوف نعبر نحوكم— بمشيئة الله— ونأخذ منكم أراضيكم، بعون الله وقدرته، لأنك إن كنت ستقدم، سوف تقدم مع جميع قواتك، ونحن نعلم أنه لن يبقى في وطنك أحـد للدفـاع عن أنفسهم أو للقتـال من أجل بلادهم، وعندمـا سيعطينا الله بقـدرته النصر عليكم، لن يبقى لنا من عمل نقـوم به ســوى الاستيـلاء على أراضيكم، بقـدرته تعـالى، ومشيئته، لأن المسيحيين المتحـدين قد جاؤوا مرتين ضـدنا في مصر، مرة إلى دميـاط، وثانية إلى الاسكنـدرية،[وكان هناك أيضـاً في سـاحل بلاد القدس أراض بيد المسيحيين، وفي بلاد دمشق، وفي بلاد المسلمين، وكان في كل حصن صـــاحب له عـــرف مصـــالحه]، وأنت تعــرف كيف أن المسيحيين قد عادوا في كل مرة، وإلى أية نتـائج قد وصلوا، هذا ويحتشد قـومنا ويجتمعون مع بعضهم في بلادهم، وقـد زود الله بلادنا بالوفـرة، ووحـدها بـالطول والعـرض تحت سلطاننا، فبـــلاد مصر مع متعلقـاتها

وبلاد دمشق، وساحل القدس، وأرض قيسارية مع قلاعها، وبلاد الرحبة مع متعلقاتها، وبلاد الهند مع متعلقاتها، هي بنعمة الله في أيدينا، وبقية ملوك المسلمين هم في سلطنتنا، لأننا إذا ما أردنا أن نأمر الملوك اللامعين للمسلمين فإنهم لن يتخلوا عنا، وإذا ماحثثنا خليفة بغداد[حفظه الله] للقدوم إلى عوننا، فلسوف ينهض عن سرير دولته العظمى ويقدم لمساعدة سعادتنا، يضاف إلى هذا، نحن تملكنا بفضل عون الله القدس وأراضيها، والمتبقي هناك هو ثلاثة مدن بأيدي المسيحيين هي: صور، وطرابلس، وأنطاكية، والذي بقي علينا هو وجوب احتلالهم أيضاً، وإذا كنت تريد الحرب، وإذا كان الله قد أراد لنا أن نحتل جميع بلاد المسيحيين، فإننا سوف نلقاك بمشيئة الله، كما قد كتب في رسالتنا، ولكن إذا كنت تطلب منا سلاماً حقيقيا، فما عليك إلاّ أن تأمر أصحاب هذه الأماكن المذكورة أعلاه، بتسليمها لنا من دون مقاومة، ونحن بالمقابل سوف نعيد إليكم صليب الصلبوت، وجميع الأسرى المسيحيين في بلادنا كلها، وسوف نكون بسلام معكم، ولسوف نسمح لكم بوجود كاهن واحد في الضريح، ولسوف نعيد الديرة التي كانت موجودة في أيام المسلمين، وسنحسن إليهم، وسنسمح للحجاج بالوصول خلال حياتنا، وسنكون في حالة سلم معكم، وإذا كانت الرسالة، التي وصلت إلينا على يدي هنري، هي رسالة الملك، فقد كتبنا هذه الرسالة جواباً لها، وكتبت هذه الرسالة في سنة ٥٨٤ لهجرة نبينا محمدﷺ بفضل الله الواحد[وحفظ الله نبينا محمدﷺ وأمته، وحفظ الله حياة وسلامة مخلصنا، مولانا اللامع، والملك المنتصر، ومعطي الوحدة، والكلمة الصادقة، والحامل للواء الصدق والمتمسك به، مقوّم العالم والشريعة، سلطان الاسلام والمسلمين، خادم الحرمين الشريفين، والحرم القدسي الشريف، أبو المظفر الناصر يوسف بن أيوب، محيي ذرية المروانيين».

كيف أطلق سراح غي ملك القدس من الأسر

وجرى في هذا العام اطلاق سراح غي ملك القدس، من الأسر من قبل صلاح الدين، وذلك بعدما بقي في الأسر لمدة عام، وجاء اطلاق سراحه على شرط خلع نفسه عن ملكه، والذهاب فوراً إلى المنفى فيما وراء البحار، غير أن رجال الدين في المملكة كانوا يرون بأن هذه الاتفاقية ينبغي أن تعد لاغية، وأن مصداقية العهد لايجوز الحفاظ عليها في الحالة التي يكون فيها الدين في خطر، ومادامت أرض الميعاد ليس فيها أمان، لأنها ليس لها رأس أو حاكم، وليس للحجاج الممكن وصولهم قائد، ولايوجد للناس من يحميهم، وباطلاق سراح الملك، نجد أن كثيراً من الحجاج الذين كانوا قد وصلوا مؤخراً، أخذوا يحتشدون مع شعب البلاد، وقد شكلوا جيشاً كبيراً، وقد رغب هؤلاء بدخول صور، لكن المركيز رفض السماح لهم، مع أن المدينة قد عهد له بها على شرط، أنها بناء على طلب الملك والورثة للمملكة، أن تعاد إليهم، وعلى كل حال إنه عند وفاة المركيز، التي كانت بعد أيام قليلة توقف هذا الاضطراب، ومات أيضاً في الوقت نفسه ريموند كونت طرابلس، الذي إليه عزيت مأساة أرض الميعاد كلها، ولهذا السبب، لم يتلق— كما قيل— الطقوس الأخيرة للمسيحية في ساعة موته.

وبعد هذه الوقائع أخذ الملك طريقه نحو عكا، وذلك مع جيشه الذي تألف من بارونات المملكة، الذين ظلوا مرتبطين به، وذلك بالاضافة إلى الداوية والاسبتارية، والبنادقة الذين وصلوا مؤخرا، وكذلك الحجاج من جنوا، وتجاوز تعداد كامل عساكره التسعة آلاف رجل، ووصل ملك القدس، إلى قرب المدينة، فأمر عساكره بتسلق جبل بين الجبال هناك، وهو جبل بسبب استدارته، ولأنه شابه البرج في قمته أطلق عليه اسم تورون Turon (تل المصلبين)، وارتفع هذا الجبل بشكل شاهق على الجانب الشرقي من المدينة، وامتد على شكل دائرة

ناشرة نفسها فوق السهل، وفي اليوم الثالث لوصول الصليبيين، ألقوا الحصار على المدينة، الذي لم يخفف حتى أيام الاستيلاء عليها من قبل فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا، وتحمس عامة الجند كثيراً، إلى حد أنهم لم ينتظروا وصول الملكين، بل تقاطروا واحتشدوا من جميع الجهات للخدمة في جيش الرب.

كيف تراجع صلاح الدين من عكا باضطراب

وقام ملك القدس، وهو محاط بحشوده الضخمة من الحجاج، باصدار الأوامر إلى جميع عساكره بالنزول من تورون، وقام معهم بنصب معسكره أمام المدينة، وقدم بعد عدة أيام صلاح الدين لمواجهتهم والتصدي لهم، وأقلع مع قوة قوية بالهجوم على الصليبيين، وكأنه فكر أنه سوف يقهرهم بحملة واحدة، ولكن جيش المؤمنين الذي كان متراصاً، وكأن رجاله يقاتلون من أجل أرواحهم، تصدى بشجاعة لقوات صلاح الدين، وأعطى صلاح الدين أوامره بتطويقهم، مقدراً أنه لن يكون من الممكن لأي واحد منهم النجاة، لكن كان قد قضي عكس ذلك من قبل، الذي يسبب الاضطراب لخطط الأشرار، فبعد تحمل القتال لمدة ثلاثة أيام، والحملات من قبل المسلمين، الذين أوقعوا بهم من جميع الجهات، وعندما بدأوا يسقطون لأنهم أضعفوا من قبل الأعداء وحملاتهم، شاهدوا اسطولاً فيه اثني عشر ألفاً من الدانيين والفريزيين مبحراً بسرعة، وقد دخل إلى الميناء، وقد وصلوا — بعون الرب — بعد رحلة موفقة وارتعب صلاح الدين لدى مشاهدته لهذا المنظر مع حوادث مشابهة، فتراجع إلى الأجزاء المنخفضة من بلاده.

العائق الكبير لقضية الأرض المقدسة

وكان في هذه الآونة هناك انتكاسة كبرى بالنسبة لقضية الأرض المقدسة، وبسب الخلافات التي نشبت مؤخراً، لابل منذ أن حملوا شارة

الصليب، وهذه الخلافات التي تفجرت بين ملك فرنسا، ورتشارد كونت بواتو من جانب، وبين هنري ملك الانكليز من الجانب الآخر، وكان النزاع بينهم على درجة كبيرة من الشدة، حيث انتزع أحدهم قلاعاً من الآخر، واقترف تجاوزات كثيرة، بالقتل والاغتصاب، وأخيرا اجتمعوا من أجل السلام في مؤتمر في نورماندي، لكن الشيطان ألقى ببذور الشقاق بينهم، ولذلك افترقوا وهم متعادين.

كيف سعى جون كاردينال أوف آناجنيا لإقامة سلام بين الملكين فيليب وهنري

عام ١١٨٩م، فيه عندما كان الملك هنري مايزال مقيماً في بلاد ماوراء البحار، شعر بانزعاج كبير وبحنق كان الذي سببه له ملك فرنسا، وابنه رتشارد كونت أوف بواتو، وفي يوم الميلاد كان في سومور في أنجو، مقيماً لاحتفال الميلاد هناك، مع أن عدداً من كونتاته وباروناته قد تخلوا عنه وتحولوا إلى جانب ابنه رتشارد، وبعد عيد القديسة هيلاري خرقت المعاهدات التي كانت قائمة بين الملكين، ودخل فيليب الملك الفرنسي، والكونت رتشارد إلى مناطق ملك انكلترا، ونهبوها، وتخلى عنه البريتانيون أيضاً، والتحقوا بالكونت رتشارد، وكان البابا كليمنت مندهشاً لأن السلم لم يعقد بين الملكين، لذلك بعث بجون كاردينال آناجنيا Anagnia، مع سلطة كاملة لإزالة الخلاف من بينهما، وحاول هذا الأسقف توصيلهما إلى الاتفاق، أحيانا بالملامة، وأحيانا أخرى بالمناقشات اللطيفة، وأخيرا أعطى الملكان مواثيق وضمانات، وأقسما بالالتزام بقرار لجنة تحكيم تألفت من رؤساء أساقفة: بورغ، وروان، وكانتربري، وأن أي واحد منهما سوف يخفق في ميثاقه، بأن يجعل السلام بينهما أقل ثباتاً، أو أنه سوف يؤخر الحملة إلى القدس، فإنه سيصدر ضد الفاعل لذلك قراراً بالحرمان الكنسي، وسيجري الاعلان عن ذلك بوساطة سلطة مولانا البابا، وسوف يعدّ مدمراً لصليب ربنا،

وللديانة المسيحية كلها، واتخذ الكاردينال على الفور موقفاً ضد جميع رجال الدين والعلمانيين، حين يقرر من منهم كان السبب في ذلك الشقاق بين الملكين، وذلك باستثناء شخصي الملكين المتقدمي الذكر.

رسالة ابن المركيز فيما يتعلق بمحنة الأرض المقدسة

« من كونراد ابن مركيز مونتفرّات، إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، تحيات: اضطربت أحوال الدنيا، وإنه لخطير بالنسبة للايمان الكاثوليكي رؤية القدس وقد انفصلت عن الكرسي الرسولي، فقد أصبحت القدس جثة هامدة، وعجز الصليبين يتحدث عنه المسلمون بكل ازدراء، فلقد دنسوا ضريح ربنا، وهم الآن يدمرون الجمجمة، ويستخفون بموضع ميلاد المسيح، ولقد دمروا بشكل كامل ضريح مريم العذراء المباركة، وكرسي القسطنطينية لايبدي الاحترام لكرسيي روما، وأنطاكية أيضا، كما هو معروف تعيش في رمقها الأخير، وجميع هذه الأشياء قد وقعت— كما هو معروف— بسبب تقاعس المسيحيين، هذا وتستحق مدينة القدس المقدسة كثيراً من البكاء والنواح عليها، لأنها حرمت من متعبدها، وأيضاً حيث فيما مضى، أمضى المسيح ساعات النهار والليل في الصلاة، وهناك الآن اسم محمد ﷺ هو موضع الاجلال بصوت مرتفع، وبناء عليه إنني أضع أمام سموكم صلواتي ممزوجة بالدموع، بأن تتلطفوا بمواساة آلام الأرض المقدسة، بتذكير الملوك، وبحثّ ذوي الإيمان الصحيح حتى يقوموا بطرد هؤلاء الكلاب من ميراث يسوع المسيح، وأن يقدموا المساعدة على تحريره من الأسر، وأن يخلصوا من حكم المسلمين الأرض التي مشت عليها وداستها القدمين المقدستين لمخلصنا، وبالاضافة إلى كتلة الظلم هذه والإضرار بالمسيحية، هناك صداقة مزدهرة بين صلاح الدين وامبراطور القسطنطينية، الذي إليه— كما يقال— سلم صلاح الدين جميع كنائس أرض الميعاد، وأن تمارس الطقوس المقدسة فيهم من قبل أتباعه وفقاً

للعادات الاغـريقية، فضـلاً عن هذا أرسل صلاح الدين أيضـاً بناء على موافقـة ذلك الامبراطورد وثنة إلى القسطنطينية حتى يعبـد هناك بشكل علني، لكن بفضل من الرب أسر في البحر من قبل الجنويين وجلب مع السفينة التي حملته إلى صور، وظهـر أخيراً جيش جهزه الامبراطور أمام أنطاكية، وقد وعد صلاح الدين بمائة غيلون، وأعطاه صلاح الدين جميع أرض الميعاد، إذا مامنع زحف الفرنسيين لمساعدة الأرض المقدسة، وكل واحد يقدم في القسطنطينية على حمل الصليب، يلقى به في السجن، ولقد حظينا بمـواساة واحدة هـي أن أخا صلاح الديـن وابنه أيضاً قـد وقعا بالأسر أخيراً أمام أنطاكية، وقد أودعا بالاعتقال في السجن، وداعاً».

الأسباب التي اقتادت رتشارد للثورة ضد أبيه

وعقـد في العـام نفسـه، بعـد الفصح، مـؤتمر بين الملكين في فيرت ـــ برنارد Ferte- Bernard والتقيـا أخيراً في أيام اسبوع أحـد العنصرة، وطالب الملك الفـرنسي بوجـوب تزويج ابنتـه، أليـس الموجـودة تحت وصـاية الملك هنري، من الكونت رتشـارد، مع ضمانة لرتشـارد بعـرش انكلترا بعد وفـاته، وكذلك أن يقوم ابنه جون بتبني الصليب والمشـاركة في الحروب الصليبيـة، لأن رتشـارد لن يذهب مـن دونه، ورفض ملك انكلترا الموافقـة على هذه المقترحـات، وافترق الملكـان بغضب، وقـام الكاردينال المتقـدم الذكـر، بالتهـديد بشكل ايجابي، أنه إذا لم يعمل ملك فرنسـا والكونت رتشارد سلامـاً مع ملك انكلترا، فهو سيضع ممتلكاتها تحت الحرمان، فـرد ملك فرنسـا عليه، أنه لن يكون خائفـاً من مثل هذا القـرار الظالم، وكـذلك ليس من صـلاحيـة كنيسـة رومـا اصـدار قـرار حـرمـان ضـد الملك أو مملكة فـرنسـا، من أجل حمل السـلاح في سبيل معـاقبـة رعـايا متمـردين، وأن الكـاردينال قـد شم رائحـة البـاوندات الاستيرلنيـة لملك انكلترا، ولـذلك هو بات يشك بحكمـه الذي أفسـد بذلك، ومن جهـة أخرى نصح رؤسـاء الأساقفة والنبـلاء ملك انكلترا

بالموافقة على مطالب ابنه، قائلين إنه أمر صحيح اعطاء مثل هذا الولد النبيل والفارس الشجاع بعض الضمانات بشأن الحصول على المملكة بعد وفاة أبيه، لكن الملك رفض فعل ذلك، في تلك الأوضاع، خشية أن يقال بأنه فعل ذلك بالضغط وتحت الإكراه، وليس بإرادته الحرة، ولدى سماع الكونت رتشارد بهذه الاجابة، قدم الولاء للملك الفرنسي أمامهم جميعا، عن جميع أراضي أبيه التابعة لتاج فرنسا، باستثناء إقطاعية أبيه مادام حياً، وكذلك باستثناء الولاء المستحق لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وافترق الملكان وجميع الناس.

كيف استولى ملك فرنسا على أربع قلاع من ملك انكلترا وطرد الملك نفسه من مدينة مان

وغادر ملك فرنسا المؤتمر بصحبة الكونت رتشارد، واستولى على حصون فيرت— برنارد، ومونت فورت، وبالفيركيو Baalverque، وكانت هذه الحصون تابعة لملك انكلترا، وبقي بعد الاستيلاء عليهم أربعة أيام، ثم تابع زحفه إلى مين، وتظاهر بالذهاب إلى تور، وفي يوم الاثنين التالي، عندما اعتقد ملك انكلترا ورجاله أنهم بأمان هناك، عبأ قواته للقيام بهجوم على مدينة مان Mans، وألقى ستيفن دي تورنهام، الذي كان نائب ملك انكلترا في أنجو النار في الأحواز، فتجاوزت النيران الأسوار، وحولت المدينة إلى رماد، وبناء على هذا تابع الفرنسيون زحفهم إلى جسر حجري، حيث تصدى لهم غيوفري دي بيورلون Biurlunمع عدد كبير آخر كانوا مع من أتباع ملك انكلترا، وسعى هؤلاء إلى تدمير الجسر، ونشب قتال شديد هناك، وسقط كثيرون من على الجانبين، ووقع غيوفري بالأسر بعدما تلقى جراحة في رقبته، ووقع بالأسر عدد كبير آخر وحاول البقية النجاة إلى المدينة، فدخل الفرنسيون معهم، ويئس ملك انكلترا من المقاومة، فهرب مع سبعمائة فارس، وطارده الملك الفرنسي والكونت رتشارد لمسافة ثلاثة

أميـال، ولولا أن الجدول الذي خاضـوه لم يكن عـريضاً وعميقـاً، لكان من الممكن أخـذ جميع الفـرسـان مع حاشيـة ملك انكلترا أسرى، وقـد هلك في هذه المعـركة عـدد كبير من الويلزيين، والتجأ الملك هنري على رأس فئة قليلة إلى قلعـة تور، أمـا بقيـة رجـاله فـالتجأوا في برج مـان، وحاصر ملك فـرنسا على الفور، البرج، وتمكن جـزئياً بوسـاطة مجانيقه، وجزئيـا بوساطة لغاميه من السيطرة على الحصن ومن كان فيـه، وكانوا يتألفـون من ثلاثين فارسـاً، وستين رجـلاً مسلحاً، فقـد استسلم هؤلاء جميعـــاً، وزحف من هنـاك للاستيـــلاء على مـــونـــت— دبل Mont-Double، وترو Trou، ودي روكـر Rocherومـونتـــــويري Mon-toire، وكـارسير Carciere، وشـاتو— دو— لوير Chateau- du-Loir، وشـــومنت Chaumont، وأمبيـــويز Amboise، ورروشي— كوربون Roche - corbon، وبومونت Beaumont.

الاستيلاء على اشبيلية

وعبرت في العام نفسه خلال البحـار البريطانية، العـديد من السفن، ودخلت باتفـــاق مع حجـاج انكلترا، وقـــد غـــادرت دارتماوث Dart-mouth في الثامـن عشر من أيار، وكان تعـدادها سبعة وثلاثين مـركباً، محملة بشكل كثيف، ووصلت بعد أنواع من المغامرات إلى لشبونه، وقد رأى ملك البرتغال أن هذه المراكب محملة بالأسلحـة وبعساكر مسلحين بشكل جيد وجاهزين للقتال، فرجاهم تقديم العون له في الاستيلاء على مـدينة اشبيليـة، ووعـدهم بأن يعيرهم سبعـة ثلاثين غليـون وكثيراً من السفن الأخـرى، وعقـد معهم أيضـاً اتفـــاقيـة، تأكـدت بالأيمان، بأنهم سـوف يحتفظون بكل ماسيجـدونه في تلك المدينة لدى الاستيلاء عليهـا من ذهب، وفضة، وأسلاب أخـرى، وأن يعطوه المدينة فقط، وبناء عليه غـادروا لشبـونة مع رياح طيبـة، وسرعان مـاوصلوا إلى ميناء اشبيليـة، حيث أوصلوا سفنهم إلى الشاطىء، ونصبوا معسكرهم، وألقوا الحصار

على الفـور على المدينة، وكـان عدد رجـالهم القـادرين على القتـال ثلاثة آلاف وخمسمائـة، وقـامـوا في اليـوم الثـالـث بهجـوم حـاد وعنيف على الأسوار، وشقـوا طريقهم بالقوة خـلال الأرباض، حيث كان هناك نبع محاط بنبع مزدوج، وله سواتر دفاعية مكونة من تسعة أبراج، ومنه كان أهل المدينة يحصلون على الماء، وقـد طمـوا النبع بالروث والحجـارة، وارتعب سكان المدينة لانقطاع مـواردهم من الماء، فـذهب السيـد أمير المدينة إلى ملك البرتغـال، فسلم المدينة إليـه من دون معرفـة الصليبيين، وهكذا استولى الصليبيون على المدينة بهذه الصورة الرائعة، ووجدوا فيها ستين ألفـاً من الناس جعلوهم كلهم طعمـة للسيف باستثناء ثلاثة عشر ألفـاً من الجنسين، وبرحمة من الـرب جـاء الحصـول على هذا النصر من دون خسـائر بين صفـوف الصليبيين، وبعـدمـا نظفت المدينة من الجيف المهترئة، كرس ملك البرتغال المسجد الكبير ليكون كنيسة على شرف أم الرب، وعين أسقفاً لها، كـان واحداً من الحجـاج الذين جاءوا إلى هناك من فلاندرز.

كيف أرغم الملك هنري على عمل سلم مع ابنه رتشارد

وقدم في العام نفسـه، في اليوم التالي لعيد القـديس بطرس، والقديس بولص، إلى سـومـور: وليم رئيس أسـاقفـة الرايم، وفيليب كـونت فـلاندرز، وهيـوج دوق بيرغنـدي، من أجل السعي لصنع سـلام بين الملك الفـرنسي وبين الكونت رتشارد، كـونت بواتو، وكان الكونت قـد ضم البريتـانيين إلى رجـال بواتو، وقد حصلـوا على رسائل مـوثقـة من ملك فـرنسا، تعهـد فيها أنه لـن يعمل سلامـاً مع الملك هنري من دون شمولهم بالمعاهدة، وألقى في الوقت نفسه ملك فـرنسا، ورتشارد كونت بواتو الحصـار على تور، وفي يوم الاثنين التـالي للعيـد المتقـدم ذكـره، وضعوا سلالم التسلق على أسوار جانب اللوار Loire ، الذي كان فيه القليل من الماء، واستولـوا على المدينة مع حاميتها التي تـألفت من تسعة

وستين فارساً، ومائة رجل مسلحين، ثم أرغموا ملك انكلترا على ابرام سلم مهين، وفق الشروط والعبارة التالية:« وضع ملك انكلترا نفسه تحت اشراف ملك فرنسا، وبالتالي كل مايراه الأخير مناسباً ليفعل، يفعله ملك انكلترا من دون مخالفة»، ثم قدم ملك انكلترا الولاء إلى ملك فرنسا، مثلما كان قد فعل من قبل في بداية الحرب، وكان بين الشروط وضع أليس أخت ملك فرنسا تحت عهدة الكونت رتشارد حتى عودته من الحج إلى الأرض المقدسة، وعند ذلك سوف تصبح زوجته، واشترط أيضاً وجوب تلقي الكونت رتشارد الولاء من رعية أبيه على طرفي البحر، وأن مامن واحد من البارونات أو الفرسان، الذين ارتبطوا خلال هذه الحرب بالكونت رتشارد، يجوز أن يعود إلى انكلترا، إلاّ في الشهر الأخير، قبل مغادرة الملك نحو الأرض المقدسة، حيث سيكون موعد ذلك في منتصف الصوم الكبير، فضلاً عن هذا عليه أن يدفع إلى ملك فرنسا عشرين ألف مارك من الفضة من أجل خدماته في مساعدة كونت رتشارد، وأن ملك فرنسا والكونت رتشارد سوف يحتفظان بمدن: مان، وتور مع شاتو— دو— لوار، وترو، حتى يتم الوفاء بالشروط المتقدم ذكرها، وبعملية الانتقال هذه بدا أن نبوءة ميرلين قد تحققت، بأن لجاماً جرى صنعه في شواطىء آرموريكا سوف يوضع بين فكيه، لأن لجاماً قد وضع بين فكي ملك انكلترا، لأن الممالك التي كان سلفه قد حصلوا عليها في أوفرين، أصبحت ممتلكات واحد آخر، لأنه أرغم الآن على التخلي لابنه رتشارد— شاء أم أبى— عن أولئك الذين هجروه، أي: غيوفري دي ميدون، وغي دوفال، ورالف دي فولتشر، وكانوا جميعاً يسكنون داخل سواحل آرموريكا، أي بريتاني، التي هناك من خلالها ممر آمن بين بريطانيا وفرنسا، من دون اللجوء إلى سواحل نورماندي.

-٦٠٥٠-

حول مغادرة امبراطور الرومان إلى الحج

في هذه الآونة، وفي يوم عيد القديس جرجس، انطلق فردريك، امبراطور الرومان ليقوم بحجه، وجاء، انطلاقه من ريمبورغ Re-mesburg، وقد عزم على الزحف خلال هنغاريا وبلغاريا.

موت الملك هنري

وعاد الملك هنري من شينون، من المؤتمر وهو محبط تماماً، وقد لعن اليوم الذي ولد فيه، وبعد مضي ثلاثة أيام لم يعد موجوداً، فقد توفي في ثمانية عيد الرسولين: القديس بطرس، والقديس بولص، بعد حكم دام أربعة وثلاثين عاماً وسبعة أشهر وخمسة أيام، وأعدوه في اليوم التالي لحمله للدفن، وعرضوه في ملابسه الملكية، وتاجه، وقفازيه، وحذائه، وخاتمه، وصولجانه، وسيفه، وعندما كان ممدداً ووجهه غير مغطى، وعندها عندما سمع رتشارد الأخبار عن موته، فجاء ليقابل الجنازة، وقتها تدفق الدم من فتحي أنف الميت، وكأن ذلك جاء غضباً لحضور الرجل الذي من المعتقد بأنه سبب موته، ولدى رؤية الكونت رتشارد لهذا بكى بحرقة، وتبع جثة أبيه، وهو عظيم الحزن والاضطراب، إلى فونت— ايفرود Font- Evraud، حيث أمر بدفنه مع التشريف، وذلك من قبل رئيسي أساقفة تور، وتريف، وحيث كان الملك المتوفى غالباً مايقول بأن العالم كله ينبغي أن لايكون كافياً لمطامح ملك واحد، هناك نقش موضوع على قبره، قد جاء فيه مايلي:

« هنا يرقد الملك هنري، أنا الذي كثيراً من الممالك

قد أخضعت، وكنت كونتاً وملكاً.

ومع أن بلدان العالم كله لم تكن

كافية لي فيما مضى، ثمانية أقدام من الأرض، الآن

كافية لي، أيها القارىء فكر بالموت،

وانظر إليّ، كما ينبغي على جميع الناس أن يفعلوا».

وبودي أنا أن أضيف هنا في هـذا المكان القـوانين التي عملهـا الملك هنري لصـالح مملكتـه، لولا خـوفي من إنهاك صبر قـرائي، ومـاتت في الوقت نفسه تقريبا ماتيلدا، ابنه هنري، وزوجة هنري دوق سكسوني.

كيف حصل الايرل رتشارد على دوقية نورماندي

وهكذا عندمـا بات الملك هنـري ميتـاً، قـام ابنه رتشـارد على الفـور بإلقـاء القبض على ستيفن دي تورنهام Turnham [لعل الأصح: تور] الذي كان نائب الملك في أنجـو، وألقاه بالسجن. وطالبـه بتسليم القلاع والأموال التي كانت بين يديه، وكانـت عائدة إلى أبيه، ثم إنه احتفظ مع التشريف بكل الـذين خـدمـوا والده، والـذين على اخـلاصهم يمكن الاعتماد، وكـافأ كل واحـد منهم وفقاً لما يستحقـه لطول الخدمـات التي أداها إلى والده، علاوة على ذلك عندما قـدم أخوه جون لرؤيته استقبله بكل تشريـف، ثم أخـذ الطريق بعـد هذا إلى روان في نـورمـاندي، وفي اليـوم الثـالث عشر قبل غـرة شهـر آب، قـام بحضـور الأسـاقفـة، والايرلات، والبارونات، والفرسان بأخذ سيف دوقية نورماندي، وتولى هذه الرسـوم رئيس الأسـاقفة، من على مـذبح مـريم العـذراء المباركـة، وبعـد تلقي الولاء من كل من رجـال الدين والناس، أكـد كليـا لأخيـه جـون تملكه لجميـع الأراضي التي أعطاه إياهـا والده في انكلترا، وهي ملكية بأربعمائة مارك، وكـل كونتية مورتين Mortaigne، ومنح كذلك إلى أخيه غيوفري، الذي كان من قبل الأسقف المنتخب للنكولن، رئاسة أسـاقفـة يورك، وقـام غيوفـري على الفـور بإرسـال كهنتـه مع رسـائل الدوق، واستحـوذ، على رئـاسـة الأسـاقفـة، ووضعهـا بين يديه، وطرد حـراس الملك، وهيوبرت وولتر، عميـد الكنيسة نفسهـا، الذي كان قـد

جرى انتخابه أسقفاً من قبل بعض الرهبان النظاميين، وفي اليوم الثالث من حكمه، عقد الدوق مقابلة مع الملك الفرنسي، بين شومنت -Chau mont، وتراي Trie، وفي تلك الأثناء طالب ملك فرنسا بقلعة غيسور وجميع المقاطعة المجاورة، لكن بسبب أن الدوق كان مقبلا على الزواج من أليس أخت الملك، أوقف الضغط لتحقيق طلبه لبعض الوقت،ووعد الدوق من جانبه بدفع أربعة آلاف مارك زيادة على المبلغ الذي وعد به والده.

كيف أطلق الملك رتشارد سراح أمه من اعتقالها المديد

وكانت في الوقت نفسه أمه الملكة إليانور، التي أبعدت عن فراش والده، ووضعت في اعتقال مضيق لمدة ستة عشر عاما، قد تلقت الآن من ابنها الإذن بإدارة القضايا والأمور في المملكة وفقاً لرغباتها، وصدرت التعليمات إلى النبلاء باطاعتها في كل مجال من المجالات، وقامت الملكة من خلال الصلاحيات هذه التي منحت لها باطلاق سراح جميع الذين كانوا بالسجن في انكلترا كلها، عارفة من خبرتها كم هو مؤلم للانسان أن يكون بالسجن، وتحققت في هذه الأيام نبوءة ميرلين، التي تقول:« سوف يبتهج نسر المعاهدة المخروقة في عشه الثالث»، والذي عني بالنسر هو الملكة، لأنها مدت جناحيها على المملكتين: فرنسا، وانكلترا، وقد انفصلت عن الملك الفرنسي بالطلاق بسبب قرابة العصب، وعن ملك انكلترا بسبب الريبة والسجن، وعلى هذا كانت من على الجانبين هي نسر المعاهدة المخروقة، ومن الممكن فهم الشطر التالي من الجملة:« وهو سوف يبتهج في عشه الثالث» وفق مايلي: كانت الملكة قد ولدت ابنها الأول، الذي اسمه وليم، وقد مات هذا وهو مايزال طفلاً، وكان ابنها الثاني هو هنري، الذي رقي إلى مرتبة ملك، وهذا أيضاً كان قد سدد دين الطبيعة، بعدما تورط في أعمال عدوانية ضد والده، وكان رتشارد هو الولد الثالث، وهو الذي قصد«

بالعش الثالث» وهو قد كان مصدر بهجة إلى أمه وقد أطلق سراحها— كما قلت— من شقاء سجنها.

قدوم الملك رتشارد إلى انكلترا وتتويجه

وبعد الفراغ من ترتيب هذه الأمور جميعها، تولى الدوق رتشارد تطبيق عدل صحيح بالنسبة إلى جميع رعيته، ثم إنه وصل إلى باريبفلوف Barbefleuve، ونزل إلى اليابسة في بورتماوث في النصف الأول من آب(١٣—آب)، ومالبث خبر وصوله أن انتشر في جميع أرجاء انكلترا، وسبب كثيراً من البهجة إلى كل من رجال الدين والناس، لأنه مع أن بعضهم قد حزن لوفاة والده، قد وجدوا الآن المواساة من كلمات الشاعر هذه:

« غنيت مندهشاً لأن الشمس حجبت نورها

ومع ذلك لم يتبع ذلك الظلام».

وتوجه الدوق إثر وصوله مباشرة إلى وينكستر، حيث أمر بوزن جميع كنوز والده، وبعمل قائمة جرد بهم، وقد وجدوا هناك تسعمائة ألف باوند من الذهب والفضة، إلى جانب أحجار كريمة، وتوجه من هناك إلى سالسبري، ومن هناك سافر من مكان إلى آخر، حيث منح إلى جميع الرعية ماطلبوه في شكاويهم، ومنح كثيراً من الأراضي إلى أناس لم تكن لديهم أملاك من قبل، فضلاً عن هذا منح إلى أخيه جون ابنة روبرت ايرل غلوستر مع ايرلية وقلاع: مالبورا Marlborough، ولوتغارشيل Lutegareshale، وبولسوفير Bolsover، ونوتنغهام، ولانكستر، مع المراتب الشرفية العائده لها، والمرتبة الشرفية العائدة إلى وليم بيفيريل، وجرى تأكيد منح هذه الممتلكات إلى أخيه جون، الذي تزوج من ابنة الايرل المتقدم ذكرها، على الرغم من تحريم بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، لأن والديهما كانا في المرتبة الثالثة من قرابة العصب.

وفي هذه الآونة نفسهـا قـام بعض من الرهبـان النظاميين في يورك بانتخاب غيـوفري، أخي الدوق، وغنوا ترنيمـة بشكل مهيب، ثم أكدوا الانتخـاب وثبتـوه بوضع أختـامهم، غير أن المعلـم بارثوليـو ومـوظف هيوبرت وولتر عميـد تلك الكنيسة، لم يرغبا بقيـام ذلك الانتخاب أثناء غياب أسقف درم، وكـذلك هيوبرت وولتر العميـد، لأنه كان لهما الحق بالحضور أثناء الانتخاب، لذلك تقدما باستئناف إلى مولانا البابا ضده.

موت غيوفري أوف ايلاي من دون وصية

ومات في الوقت نفسه غيوفـري أسقف إيلاي من دون وصية، وكان ذلك في اليـوم الثـاني عشر قبل غـرة شهـر ايلول(٢١— آب)، ولذلك جـرت مصادرة ثلاثة آلاف مـارك فضي وألفي مـارك ذهبي مما كان قـد خلّفـه، وكـانت المصـادرة لصـالح الملك، وذلك مع كميـة من أثاثه، ومخزون من الخواتم، وصحـون الذهـب والفضـة، والقمح، والملابس الثمينة، وأشياء أخرى، كثيرة جداً.

تتويج رتشارد الأول

ولدى الفراغ مـن جميع الاستعدادات من أجل تتويـج الملك رتشارد، جـاء إلى لندن، حيث كـان هناك احتشـاد لرؤسـاء أساقفـة: كـانتربري، وروان، وتريف، وقـد جرى تحليله من قبلهم لحمله السـلاح ضد أبيـه، بعـد حمله للصليب، وكـان رئيس أسـاقفـة دبلن هنـاك أيضـاً مع جميع الأسـاقفة، والايرلات، والبـارونات، والنبـلاء، العائـدين للملكة، وفق الترتيب التالي، فقد جاء أولاً رؤساء الأساقفة، فالأساقفة، فرعاة الديرة، فالكهنة، وهـم جميعاً يلبسون أرديتهم، وقـد عملوا مسيرة مع الصليب، والماء المقـدس، والمبـاخـر، حتى وصلوا إلى القـاعـة الـداخليـة، حيث استقبلوا الدوق، فاقتادوه إلى كنيسة وستمنستر، إلى أن وصلوا إلى المذبح العالي، وكـانت المسيرة مسيرة مهيبة، وسـار في وسط الأساقفـة والكهنة

أربعة بارونات يحملون حوامل الشموع مع الشموع، وجاء من بعدهم اثنان من الايرلات، حمل أولهما الصولجان الملكي وعلى رأسه صليب ذهبي، وحمل الآخر الصولجان الملكي وعلى رأسه حمامة، وجاء بعد هذين الإيرلين ثالث بينهما، كان يحمل ثلاثة سيوف مع أقربة من ذهب، كانوا قد جلبوا من خزينة الملك، وكان قد وضع عليهم الرنوك الملكية والأردية، كما أنه سار خلفهم ايرل آخر حاملاً بشكل مرتفع تاجاً ذهبياً، وجاء بعد الجميع الدوق رتشارد، حيث كان من على يمينه أسقف، ومن على يساره أسقف آخر، وقد نشرت فوقهم مظلة حريرية، وتابعوا سيرهم حتى المذبح كما سلف وقلنا، ووضعت الأناجيل المقدسة أمامه مع آثار بعض القديسين، وقد أقسم بحضور رجال الدين والناس بأنه سوف يحافظ على السلام، والشرف، والاحترام طوال حياته، وذلك نحو الرب، والكنيسة المقدسة، وقوانينها، وأقسم أيضاً أنه سوف يمارس عدلاً صحيحاً نحو الناس الموضوعين تحت عهدته، وسوف يلغي جميع القوانين السيئة، والعادات غير العادلة، وذلك إذا ماوجد شيء من هذا القبيل في ممالكه، وهو سوف يراعي بشكل ثابت كل ماهو جيد، وجردوه بعد هذا من ثيابه كلها باستثناء سراويله وقميصه الذي رفع فوق كتفيه، وذلك من أجل تلقي القربان، ثم ألبس نعلاً منسوجاً بخيوط ذهبية، ومسحه بلدوين رئيس أساقفة كانتربري ملكاً في ثلاثة أماكن هي: على رأسه، وعلى كتفيه، وعلى ذراعه الأيمن، وكان يستخدم صلوات نظمت من أجل المناسبة، ثم جرى وضع قطعة من قماش الكتان مكرسة، على رأسه، فوقها وضعت قبعة، وعندما ألبسوه مجدداً ملابسه الملكية مع مئزر ورداء، أعطاه رئيس الأساقفة وسلمه بيده سيفاً يدمّر به أعداء الكنيسة، وبعد انجاز هذا، ألبسه اثنان من الايرلات حذاءه في قدميه، وعندما تسلم العباءة، طلب منه رئيس الأساقفة، باسم الرب، أن لايقدم على تسلم هذه التشريفات، مالم يكن قد نوى في عقله بشكل ثابت القيام بمراعاة الأيمان التي عملها والحفاظ عليها، وقد

أجاب بأنه بعون الرب، سوف يحافظ بصدق وإيمان على كل شيء وعد به، ثم أخذ الملك التاج من على المذبح وأعطاه إلى رئيس الأساقفة، الذي وضعه على رأس الملك، مع الصولجان في يده اليمين، والعصا الملكية في يده اليسار، وهكذا اقتيد والتاج على رأسه من قبل الأساقفة والبارونات، وقد تقدمت أمامه الشموع، والصليب، والسيوف الثلاثة المتقدم ذكرها، وعندما وصلوا إلى تقديم القداس وتلاوته، اقتاده الأسقفان المتقدم ذكرهما نحو الأمام ثم نحو الخلف، وهكذا حتى جرى انشاد القداس، وانتهى كل شيء وفق الصورة الصحيحة، وقتها اقتاده الأسقفان المتقدم ذكرهما، وأبعداه والتاج على رأسه، وهو يحمل بيمناه الصولجان، وبيسراه العصا الملكية، ثم إنهم عادوا إلى السدة بمسيرة، وهناك خلع الملك ملابسه الملكية، وارتدى ملابس أقل وزنا، ووضع على رأسه تاجاً أخف، ثم إنه سار نحو مائدة الغداء، التي جلس إليها: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات، مع رجال الدين والناس، وجاء جلوسهم كل واحد حسب مرتبته ومكانته، واحتفلوا بشكل فخم، ولذلك تدفقت الخمرة على أرض البلاط وعلى جدران القصر، وحدث هذا كله يوم الأحد قبل الخامس من ايلول.

تعذيب اليهود

وكان الكثير من اليهود حضوراً أثناء هذا التتويج، وذلك مراغمة لأوامر الملك، ذلك أنه كان قد أمر بأن يعلن في اليوم المتقدم، بأنه لايجوز حضور أي يهودي أو امرأة التتويج، بسبب التعاويذ السحرية التي كانت تحدث أحيانا أثناء التتويجات الملكية، وقد ألقى رجال البلاط القبض عليهم، مع أنهم جاءوا بشكل سري، وبعدما سلبوهم وجلدوهم بشكل مرعب رموهم خارج الكنيسة، وقد مات بعضهم، وبعضهم الآن من الصعب أن نقول بأنه قد بقي فيهم رمق من الحياة، ولدى سماع سكان المدينة بحملة رجال البلاط هذه على اليهود، قاموا

بحمـلات مماثلة على الـذين بقيـوا في المدينة، وبعـدمـــا قتلوا عـددا من الجنسين، وهدمـوا بيوتهم وسـووها بالأرض وأحـرقوها، نهبـوا ذهبهم وفضتهم، وكتاباتهم وثيـابهم الثمينة، أما اليهـود الذين نجوا من الموت، فقد التجأوا إلى برج لندن، وبعد ذلك اتخذوا مساكن لهم هنا وهناك بين أصـدقائهم، وقـد تسببـوا بأن يصبح آخـرون أغنياء بسبب خسـاراتهم، وبدأت أعمال التعذيب في سنة يوبيلهم، التي يسمـونها سنة الغفران، ولم تتـوقف قبل نهاية السنة، وعلى هذا مـاكان ينبغي أن يكون سنة غفـران، تحول في يوبيلهم إلى الاضطراب، وعندمـــا سمع الملك في اليـوم التـالي بالخطأ الذي اقترف وعمل، عدّ ذلك وكأنه خطأ اقترف بحقـه شخصياً، ولذلك أمر باعتقال ثلاثة منهم، تولى محاكمتهم قضاة بلاطه، وقد شنقوا واحداً منهم لأنه استولى على أشياء كانت ملكاً لمسيحي، وأعدما الاثنين الآخـريـن لأنهما كـانا قــد أشعـلا النار في المدينة، الأمـــر الذي تسبب باحتراق بيـــوت بعض السكان المسيحيين، وعنـدمـــا سمـع الشعب الانكليزي في جميع أرجاء البلاد بأخبار هذا الهجوم على اليهود في لندن، حملـوا عليهـم بـإجماع مـــن الآراء، وأنـزلـوا بهم أضراراً كبيرة، وقتلـوا أشخاصاً منهم ونهبـوا مقتنياتهم، ثم كان في اليوم التـالي ليوم التتويج أن تلقى الملك رتشـارد الـولاء مع يمين التـابعيـة الاقطاعيـــة من النبـلاء، فأصـدر أوامـره بعدم متـابعـة تعذيب اليهـود، وأنهم ينبغي أن يعيشـوا بسلام في أرجاء جميع مدن انكلترا.

سخاء الملك رتشارد

عندمـا اجتمع الرهبـان السسترشيان من جميع أنحـاء العـالم، وعملوا مجمعاً لطائفتهم، منحهم الملك رتشارد مـائة مارك من الفضة لكل سنة، وأكد ذلك بصك.

كيف أعطى الملك رتشارد قسساً للكنائس التي كانت شاغرة في جميع أرجاء انكلترا

وفي اليـوم التالي ليـوم ارتقـاء الصليب المقدس،[١٧— ايلول] كـان الملك رتشارد في بايبول Pipewell[في نورثأمبتونشاير] حيث قام بعقد مجمع كبير، بناء على نصيحـة، رؤساء الأسـاقفة والأساقفـة، وأعطى إلى أخيه غيوفـري رئاسة أساقفـة يورك، وعيّن في تلك الأثناء غودفري دي لوسي إلى أسقفيـة ونكستر، ورتشارد رئيـس شمامسة إيلاي إلى أسقفيـة لندن، وهيوبرت وولتر إلى سالسبري، ووليم دي لونغشامب إلى إيلاي، هذا وقـام بلدوين رئيس أساقفـة كانتربري، بعـد اتمام أعمال الانتخاب، بمنع غيوفري المنتخب لرئاسة أساقفة يورك من تسلم أعمال السيامة، أو التكريس الأسقفي من يدي أحد سواه هو شخصيا، ولأجل هذه المسألة عمل مرافعة إلى الكرسي الرسولي.

كيف حصل هيوج أسقف درم على لقب إيرل بالمال

وعـزل في هذه الآونة الملك رتشارد من وظيفـة نائب الملك، رالف دي غــلانفيل، ورئيس العــدالة في انكلترا، مـع جميع عمــد المناطق في انكلترا والعــاملين في مكـاتبهم، وأرغمهم على دفع غـــرامــات كبيرة لتخليص أنفسهم، وعمل مـن أجل جمع المال من أجل استرداد الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، بعـرض كل شيء للبيع: اللوردية، والقلاع، ورئاسة البلدات، والغابات، والمزارع، ووظائـف العمد، وماشابه ذلك، وبناء عليـه، اشترى هيوج دي بوسـاز Pusaz ، أسقف درم، لنفسه ولكرسيـه، الحقوق الملكيـة لبلدة سيغسفيلد Segesfeld، مع ويبنتيك Wapentake، ومتعلقاتها، وإيرلية نورثأمبرلاند، خلال حياته، وعندما منطقـه الملك بالسيف الذي يخوله حمل لقب ايرل، قـال وهو يضحك:« لقد عملت ايرلاً شاباً من خلال أسقف عجوز»، ومضى الأسقف أبعد من هذا، واشتط، ولكي يكمـل مهـزلة الأشيـاء، أعطى إلى الملك عشرة مـاركات من الفضـة، من أجل تعيينه مسـؤولاً عن العـدالة في انكلترا، ولكي لايذهب إلى الأرض المقـدسـة، وكاحتيـاط ضـد جميع المعترضين

دفع مبلغاً كبيراً، بمثابة رشوة إلى الكرسي الرسولي، الذي لم يعترض قط على وجهة نظر أي من الأشخاص، وهكذا حصل على إذن بالبقاء، وبهذه جعلته المطامح الدنيوية يقوم بالتخلي عن شارة الصليب، التي أخبرنا المبشرون، بوجوب حملها من قبل جميع الناس، وبشكل خاص الأساقفة، وحقق الأسقف بهذا السلوك نبوءة القديس غودريك الناسك، فقد جاء في بداية ترقيته إلى الناسك وسأله حول تطورات مستقبله، وعن طول المدة التي سيحياها، فاعتاد الناسك أن يستخدم هذه الكلمات ويقولها له:« بالنسبة لتقدمك المستقبلي وعدد السنوات التي ستعيشها، عليك أن تسأل عنها الرسل المقدسين ومن شابههم، لأنني هنا أقوم بالتوبة من ذنوبي، ويحزنني القول بأنني مازلت مذنباً تعيساً، ويهمني أن أخبرك أنك سوف تعاني قبل وفاتك بسبع سنوات من عمى محزن جداً»، وترك الأسقف رجل الرب، وقد وقرت في نفسه الكلمات التي سمعها، ولأنه كان عظيم الثقة بالناسك، اهتم اهتماماً كبيرا بعينيه، واستشار عدة أطباء حتى يتمكن من الاحتفاظ بنظره طوال الوقت الذي سيعيشه، وبعد مضي عدد كبير من السنوات، أصيب بالمرض الذي منه مات، فسأل الأطباء، بقلق كبير، ماهو أفضل مايمكنه فعله، فأجابوه جميعاً بصوت واحد، ونصحوه بأن يفكر بأوضاع روحه، ذلك أنه لن يلبث أن يغادر هذا العالم مرغماً، ولدى سماع الأسقف هذه الكلمات، قال:« لقد خدعني غودريك، فهو قد وعدني بسبع سنوات من العمى قبل موتي»، ويمكننا نحن الآن أن نقول بشكل مسوغ، أنه بالتأكيد كان أعمى، لأنه اغتصب بالرشوة لنفسه لقب ايرل الفارغ، ووظيفة العدالة، وورط نفسه بالمشاكل الدنيوية، ثم إن عدم حجه إلى الأرض المقدسة، وإيلائه القليل من الاهتمام لنجاة الأرواح، مع واجبات الأسقفية، لم يحرمه فقط من بصره، بل أغرقه في ظلام دامس، وبذلك مات هذا الأسقف، وفقاً لما قاله رجل الرب في نهاية السنوات السبع، ومات في هذه الآونة وليم إيرل أوف مانفيل في روان.

معركة مجيدة قاتلها الصليبيون ضد المسلمين

في الرابع من تشرين الأول لهذا العام، نشبت معركة بين الصليبيين والمسلمين عند أنطاكية كانت على الشكل التالي: كان على الجانب الصليبي: ملك القدس، والداوية، والاسبتارية، وموركيز أوف مونتفرات، والفرنسيون، وثيبولد المفتش، وبطرس لايونيس اللاندغريفي، Landegrave مع التيتون والبيازنة، فقد حشدوا مع بعضهم جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف من الفرسان، ومائة ألف من الرجالة، وكان الجيش المسلم تحت قيادة صلاح الدين، وقد تكوّن من مائة ألف فارس، مع حشد هائل من الجنود الرجالة، وكان الصليبيون يحملون شارة الصليب على أسلحتهم، وقد بدأوا القتال في حوالي الساعة الثالثة من النهار، وكان الرب إلى جانبهم، لذلك دفعوا بالمسلمين إلى معسكرهم، وطاردوهم بحد السيف، وهاجموهم ودمروا لهم سبع فرق، وقتلوا خمسمائة فارس من فرسان صلاح الدين، كان من بينهم قطب الدين ابن صلاح الدين،وأصيب أخاه تقي الدين بجراحة مميتة(١)، وعندما كان الفريقان يتقاتلان هكذا بشراسة، قام خمسة آلاف من المسلمين بانقضاض مفاجىء، وقاتلوا الصليبيين، ولدى رؤية صلاح الدين لذلك ارتفعت معنوياته واسترد قوته، واشتد الضغط على الفرنجة من الجانبين، فوجدوا أنفسهم مرغمين على التراجع من خلال معسكر المسلمين، لكن بعدما فقدوا مقدم الداوية، وعدد كبير آخر، كانوا قد قتلوا في ذلك اليوم.

١ـــ كذا، والمرجح أن المقصود هنا معركة عكا التي ذكرها أبو شامة في الروضتين ص ٨٦٨٧، علماً بأن صلاح الدين لم يفقد أيا من أبنائه في الحروب، وكان تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، مؤسس المملكة الأيوبية في حماه أبرز قادة صلاح الدين في هذه المعركة وفي غيرها.

وصول رسل من لدن الملك الفرنسي إلى الملك رتشارد لسؤاله الاسراع بحجه إلى الأرض المقدسة برفقة الملك الفرنسي

في شهر تشرين أول نفسه، وصل إلى انكلترا روترود كونت أوف بيرشي، كرسول من قبل الملك الفرنسي، ليخبر الملك رتشارد وبارونات انكلترا، بأنه أقسم في مؤتمر عقد في باريس، مع نبلاء مملكة فرنسا، يميناً قضى بوصوله حتما بمشيئة الرب مع نبلاء مملكته إلى فنزلي، بعد عيد الفصح، ومن هنالك سوف ينطلق إلى القدس، وكبرهان على هذا القسم، بعث الملك الفرنسي رسالة إلى ملك انكلترا، يطلب منه أن يعطيه ضمانة حول الموعد نفسه من أجل تنفيذ الرحلة، وبناء على ذلك جمع ملك انكلترا أساقفة ونبلاء المملكة في وستمنستر، وبعد سماعه ليمين الملك الفرنسي، من أنه سوف يسرع بالمغادرة من دون تردد، أمر وليم الايرل القائد لديه بعمل قسم عنه شخصيا، بأنه رتشارد سوف يلتقي بالملك الفرنسي في فينزلي، في ذلك الموعد المحدد، من أجل أن يشرعا معا بالانطلاق من ذلك المكان نحو أرض الميعاد، وبعدما نفذ الرسل مهام بعثتهم، عادوا إلى بلادهم، وفي الأول من تشرين الثاني، من هذا العام، تلقى غودفري دي لوسي أسقف وينكستر، وهيوبرت وولتر الأسقف المنتخب لسالسبري، التكريس على يدي بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

المحادثات التي جرت بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان ذلك المكان ومسائل أخرى

ووصل في شهر تشرين الثاني نفسه إلى انكلترا جون كاردينال آناني Anagni، ونزل في دوفر، ولأن الملك كان في الأجزاء الشمالية من المملكة، مُنع من قبل الملكة إليانور من متابعة السفر من دون موافقة من الملك، ولذلك أمضى ثلاثة عشر يوماً، على حساب رئيس الأساقفة، وذلك حتى يمكن صنع سلام بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان

كـانتربري حول بيعـة أكنغتون، وبما أن رتشـارد كان ملكاً حكيما جـداً، ولأنه تلقى إلتماسات من كلا الفـريقين، قدم في شهر تشرين ثاني نفسه، وأعد شروط مصـالحة وسلام بينهما كـانت كمايلي: أولا— وجوب خلع روبرت رئيس الرهبان الذي عينه رئيس الأساقفة في ذلك المنصب، على الرغم من معـارضـة رغبات الرهبـان، وأن يجري هدم تلك البيعـة التي بناها رئيس الأســاقفـة في الضـاحيـة، من دون مــوافقتهم، وأن يظهـر الرهبـان المتقـدم ذكرهـم، وفقا لنظام القـديس بندكت، طـاعة قـانونيـة ورعـوية إلى رئيس الأسـاقفــة، كما اعتـادوا أن يفعلوا لسلفـه، وأعطى الملك، بناء على طلب رئيـس الأسـاقفــة، إلى رئيس الرهبــان المخلوع، رعاية دير ايفهام Evesham ، وتقرر أيضاً عــدم منح البيعة المتقدم ذكرهـا امتياز التعميد، أو الـدفن، أو إقامة الطقـوس المقدسـة، باستثناء الذي يقام من قبل كاهن علماني.

كيف قدّم وليم ملك الاسكوتلنديين الولاء إلى الملك رتشارد في كانتربري

وقـدّم في العــام نفســه وليم ملك الاسكوتلنـديين الولاء إلى ملك انكلترا عن حقوقه في انكلترا، وأعـاد الملك رتشارد إليه قلعتي روكسبرا Roxburghe وبيرويك Berwick ، ومقـــــابـل تخليص هذيـــن الحصنين، وترضيـة لمطالبة الملك رتشـارد بالحقوق الاقطاعيـة على ملك اسكوتلندا، وفيما يتعلق بولاء هذا الملـك، وتثبيتـاً لصكه دفع هذا الملك إلى ملك انكلترا عشرة آلاف مارك فضي.

كرم الملك رتشارد وسخائه

وفي هذه الآونة، أعطى الملـك رتشـارد إلى أخيـه جـون كــونتيـات: كـورنوول Cornwall، وديفـون Devon، وسمـرست Somerset، ودورست Dorset ، وأعطى إلى أمه إليانور بائنتها المعتادة، مع أراضي

وتشريفات مضافة إليها.

عبور الملك رتشارد البحر إلى نورماندي

في الخامس من كانون الأول من العام نفسه، أقلع الملك رتشارد من مدينة كانتربري إلى دوفر، وعبر من هناك البحر، وتبعاً لذلك قام في عشية عيد العذراء القديسة لوسي، بالابحار إلى فلاندرز، حيث استقبل ببهجة من قبل الكونت فيليب، الذي رافقه أيضاً إلى نورماندي، وعين الملك هيوج أسقف درم، ووليم أسقف إيلاي، ومستشاره هيوج باردولف Bardulph، ووليم بريوير Briwere أوصياء على مملكة انكلترا، للحفاظ على قوانين وأعراف المملكة ولمراعاتها، ولتطبيق العدل ومنحه للذين يطلبونه، وكان هناك تمايز بين هؤلاء الأوصياء، وكان ذلك لصالح هيوج أسقف درم، ووليم أسقف إيلاي، فلقد عهد إلى الأول بإدارة العدالة في جزء البلاد الممتد من نهر همبر Humber الكبير، إلى البحر الاسكوتلندي، في حين احتفظ الثاني بالقضاء في البلدة الممتدة من النهر المتقدم الذكر إلى بحر غاليا، وقد أغضب هذا كثيراً هيوج أسقف درم، الذي علم آنذاك للمرة الأولى، أن الملك عمل منه رجل العدالة، ليس من أجل تطبيق العدل، بل من أجل استخراج المزيد من المال— كما تقدم الذكر— ولهذا السبب نادراً ماكان هو والمستشار على وفاق، وذلك كما يقال:

.... ذلك أن كل سلطة

تغار من منافستها

كيف ألقى رئيس الأساقفة حرماناً على أراضي جون أخو الملك، لكن الكاردينال نقضه

وفي هذه الآونة، رفع جون أخو الملك، استئنافا وشكوى شديدة إلى النائب البابوي، والأساقفة بأن رئيس الأساقفة قد أنزل حرمانا على

جميع أراضيه، وفعل ذلك حتى بعد الالتماس الذي عمله إلى الكرسي الرسولي، وسبب ذلك زواجه من ابنة ايرل غلوستر، التي كانت قريبة له قرابة صلب من الدرجة الثالثة، ولدى سماع النائب البابوي لهذه الشكوى وقف إلى جانبها، وحرر الأراضي من الحرمان.

كيف جرى منح عشر ممتلكات انكلترا لمساعدة الأرض المقدسة

وفرضت في هذه الأيام ضريبة العشر على كل ماهو متحرك عام في انكلترا، وجمعت من أجل إرسال مساعدة إلى الأرض المقدسة، وسببت هذه المكوس العنيفة شروراً كبيرة أثناء جمعها، وذلك تحت اسم صدقات، مما أزعج كثيراً رجال الدين والناس جميعاً، وجرى في هذا العام انتخاب رتشارد أسقف لندن، ووليم أسقف إيلاي، وتم تكريسهما في لامبث في اليوم الأخير من كانون الأول.

كيف قرر الملكان المتحالفان المغادرة معا إلى الأرض المقدسة

عام ١١٩٠م، فيه كان الملك رتشارد، ملك انكلترا، أثناء عيد الميلاد في بيور Bure في نورماندي، وأمضى وقت ذلك العيد المهيب مع أعيان تلك البلاد، وجرى بعد الميلاد اجتماع بين ملكي انكلترا وفرنسا عند مخاضة القديس ريمى Remy، وجرى الاتفاق، على وجوب— بمشيئة الرب— الاسراع بمغادرتهما إلى القدس في الوقت نفسه، وعملت صيغة من الاتفاق من أجل المحافظة على السلام بين البلدين، في يوم عيد القديسة هيلاري، وكان ذلك بحضور الأساقفة والنبلاء من المملكتين، وبعدما تأكدت بالقسم من قبل الملكين، جرى الأمر بكتابتها، فجاءت كما يلي:« أنا فيليب ملك فرنسا سوف أحافظ على الاخلاص نحو رتشارد ملك انكلترا، على أساس أنه صديقي، وحليفي، فأحفظ حياته، وجوارحه، وشرفه الدنيوي، وأنا رتشارد ملك الانكليز، سوف أحافظ على الاخلاص الجيد نفسه مع ملك فرنسا، على أساس أنه صديقي،

ومولاي، فأحفظ حياته، وجوارحه، واتفقنا أيضاً على تقديم المساعدة أحدنا إلى الآخر، إذا كانت ضرورية، في الدفاع عن أراضي بعضنا، كل واحد منا بالغيرة نفسها التي يدافع بها عن ممتلكاته»، وأقسم نبلاء وبارونات المملكتين على عدم التخلي عن ولائهم إلى ملكيهما، أو عمل حرب، حتى مضي أربعين يوماً في سلام عقب عودة الملكين، وشارك الملكان في أداء القسم، وأقسم رؤساء أساقفة، وأساقفة المملكتين على اصدار قرارات الحرمان الكنسي ضد الذين سوف يخرقون هذا التحالف أو ينفذون خلاله، وتقرر أيضاً، أنه إذا مامات أحد الملكين أثناء الحملة، فإن الذي سيبقى حياً، سوف يتولى المسؤولية عن أموال وقوات المتوفى، ليتولى تنفيذ الخدمة التي يدينان بها للرب، ولما كانا غير قادرين على تنفيد هذه المعاهده بكل دقة، فقد أجلا الأعمال حتى عيد ميلاد القديس يوحنا، وذلك بغية تمكين الملكين، وجميع الصليبيين من الاجتماع من دون تقصير في فينزلي، للدخول في أعمال حجهم إلى الأرض المقدسة، وورد في نص المعاهدة الكلمات التالية«: وإذا ماحاول أي واحد إعاقة اتفاقنا هذا، فلسوف توضع أراضيه تحت الحرمان الكنسي، وكذلك سوف ينال أصحابهم الحرمان الكنسي»، وبعدما رتبوا القضايا على هذه الصورة، أنهوا المؤتمر،[وفي هذه الآونة عقد بلدوين رئيس أساقفة كانتربري اجتماعاً في وستمنستر، فيه عمل وداعاً لرهبانه وانطلق يريد الأرض المقدسة في رتل فخم].

كيف جرى تعيين أسقف إيلاي مستشارا

أرسل رتشارد ملك انكلترا سفراء برفقة آخرين كان قد أرسلهم وليم أسقف إيلاي، إلى البابا كليمنت، وحصلوا من الحبر الأعظم على المرسوم التالي:« نحن البابا كليمنت— تحيات: استجابة للطلب موضع الثناء، من ابننا المحبوب بالرب، رتشارد، الملك واسع الشهرة لانكلترا، قد قررنا في ادارتنا الرسولية على أن يعهد إلى عنايتكم الأخوية بواجبات

المستشارية لجميع انكلترا، وويلز، وفي رئاسة أسقفيتي كانتربري ويورك، وفي تلك الأجزاء من إيرلندا التي يمتلك فيها سلطة، جون ايرل أوف مورتون، أخو الملك، صدر في الثاني من حزيران، في السنة الثالثة من بابويتنا».

كيف علق رئيس أساقفة كانتربري الأسقف هيوج

وكتب في هذا العام بلدوين رئيس أساقفة كانتربري إلى رتشارد أسقف لندن كما يلي:« عندما كنا في روان علقنا عن ممارسة الواجبات المقدسة أخانا هيوج أوف كوفنتري، لأنه قام من دون اهتمام واحترام لكرامة المرتبة الأسقفية، فاغتصب وظيفة العمدة، لكن بناء على وعده الصادق بالاستقالة بين أيدينا من مسؤوليات ووظيفة العمدة، وأن لايشغل نفسه ثانية بأعمال من هذا النوع، اعتقدنا وقتها أنه يستحق التحليل، وبناء عليه نرسل هذا الأسقف إليكم مع رسالتنا هذه، ونأمركم القيام من دون تأخير بالتعاون مع أسقف روكستر وكهنتنا، بتحديد موعد ومكان للسماع ولاتخاذ قرار عادل حول التهم التي من أجلها جرى تعليق ذلك الأسقف من قبلنا.

حول مذبحة اليهود في عدة أماكن

قرر في هذا العام كثيرمن الناس في جميع أرجاء انكلترا، من الذين كانوا على نية السفر إلى القدس، قبل أن يسافروا، أن يتسببوا بثورة ضد اليهود، وتفجر هذا أولاً في نورويك، حيث كان اليهود من الكثرة بقدر ماهو ممكن، فقتلوهم في بيوتهم، ونجا على كل حال قليل منهم، والتجأوا إلى قلعة في ذلك المكان، وحدث بعد هذا في السابع من آذار، أن ذبح كثير منهم في ستامفورد في يوم السوق، وفي الثامن من عشر من آذار، قيل بأن سبعة وخمسين قد قتلوا في سينت إدموند، وعلى هذا جرى قتل اليهود، حيثما وجدوا على أيدي الصليبيين، باستثناء الذين جرت

حمايتهم من قبل موظفي المناطق والمدن، هذا وينبغي أن لانعتقد أن مثل هذه المذابح لليهود، كانت مرضية للناس العقلاء، لأنه قد كتب:« لاتقتلهم، خشية أن ينسى الناس».

حول المذبحة الرهيبة لليهود في يورك

وفي العام نفسه، أثناء الصوم الكبير، أي في الخامس عشر من آذار، قام يهود مدينة يورك، الذين كان عددهم قد بلغ خمسمائة إلى جانب النساء الأطفال، من خلال الخوف من هجوم عليهم يشنه الصليبيون، فحصلوا على إذن من العمدة ومن حاكم القلعة، بأن يعتصموا في القلعة، وعندما طلبت منهم الحامية ارجاع القلعة، رفضوا فعل ذلك، ولدى رفضهم ذلك تمت حملات متوالية على القلعة في كل من النهار والليل، وبعد مرور وقت طويل، تفكر اليهود بالأمر، فعرضوا مبلغاً كبيراً من المال مقابل حياتهم، لكن ذلك رفضه الشعب، ثم نهض واحد منهم، وكان بارعاً بالشريعة، فخاطب رفاقه على الصورة التالية:« آه، يارجال اسرائيل، اسمعوا رأيي، إنه من الأفضل، كما تأمرنا شريعتنا، أن نموت في سبيل شريعتنا، على أن نقع في أيدي أعدائنا»، ووافق الجميع على هذا، وجاء رأس كل أسرة بموسى حادة، فقطع أولاً رأس زوجته، وأولاده وبناته، وبعد ذلك جميع أسرته، وألقوا بعد هذا ببعض أجساد القتلى، الذين عدّوهم بمثابة ضحايا للشيطان، على المسيحيين في خارج القلعة، ثم إنهم حبسوا أنفسهم في بيت الملك، وأوقدوا النار فيه، فاحترق فيه كل من الأحياء والأموات مع البناء، وبعد هذا أحرق السكان والجنود بيوت اليهود، مع أوراق دائنيهم، واحتفظوا بأموالهم في سبيل استخداماتهم الخاصة بهم.

تكريس غيوفري رئيس الأساقفة المنتخب ليورك كاهناً

وفرض في تلك الآونة الأسقف وليم، مستشار الملك، والمسؤول عن

العـدالة في انكلترا ضريبة جـوادين مع سـائقين على كل مدينة من مـدن انكلترا، وجواد واحـد مع سائق واحد على كل رعـوية، وكرس في هذه الأيام أيضاً، جـون أسقف وايزرن Whithern ، والأسقف المساعد لكنيسـة يورك، غيوفـري رئيس أسـاقفة يورك المنتخب، ليكون كـاهنا، وجـرى في الوقت نفسه تثبيت انتخـاب غيوفـري المتقدم ذكـره من قبل البابا كليمنت، الذي بين أشياء أخرى عملها، كتب إلى هيئة كهنة يورك، مضيفـاً هذه الكلمات،:« وبناء عليـه نحث جميع إخوانيتكـم أن تقدمـوا الاحترام والتشريف إليـه بمثابـة أسقف لكم، فتبرهنون بذلك على أنكم جـديرين بالثناء بنظر الرب والناس، صـدر في اللاتيران، في السـابع من آذار، في السنة الثالثة من بابويتنا».

نظام تعبئة الجيش الصليبي أثناء حصار عكا

كان نظام تعبئة الجيش الصليبي أمام عكا في هذه الآونة كما يلي: كان أمـام جبل المصلبين، قـرب البحر، الجنويين، وجـاء بعـدهم الاسبتـارية ومـركيـز أوف مـونتفـرات، ثم تـلاهم بالترتيب هنري كـونت أوف شامبين، وغي أوف دونبيرك Duinperc، وكونت برين Brenne، ثم كـان بعد ذلـك كونت بار، وكـونت شـالون Chalons، ومن بعدهما روبرت أوف دروكس Dreux، وأسقف أوف بوفيا Beauvais، وكان على مقـربة منه باتجاه السهل، ثيوبولد كـونت أوف كليرمونت، وهيـوج دي غورني، وأوثودي تريسـون، وفلورنتوس Florentius دي هوجي، وولكلاين دي فيرار Walkeline de Ferrars، ثم جـاء فلـورنتـاين Florentines، ثم أسقف كامبري Cambray، وإلى جانبه كان أسقف سـالسبري، مع جميع القـوات الانكليـزية، ثم جـاء وكيل فـلاندرز، مع جـــون دي نيل، وأوگو دي هام، والفلمنكيين ، وجـــاء من بعـــدهم صاحب هيسولدون Hissoldone، وفيزكونت أوف تور، وعلى مقربة منهما ملك القـدس وهيوج أوف طبريا مع أقـربائهما، ومن بعدهما كـان

الداوية، وجيمس دي أفني Avennes، وكان إلى جوارهما اللاندغريف Landegrave، وكـــــــونـت أوف غيلـدر Geldres مع الألمان، والداشيين، والتيـوتون والفـريزلانـدريين، وكـان بينهم قـد نصب دوق سوابيـا معسكره بجوار المسجد، وبعدهم، وعلى مقـربة من البرج تمركز بطريرك وأسقف عكـا، وأسقف بيت لحم وفيـزكـونـت أوف شـاتل— هيرلوت Chatel- Herault، مع رينالد دي فلشي Fleche، وهمفري أوف تور، وكان صرافـو النقود تحت تورون، وفي الطرف الأقصى، على مقــربة من الميناء، رئيس أســاقفــة بيـزا مع البيــازنة، وجــاء بالأخير اللومبارد.

بناء بيعة عند عكا تشريفاً لتوماس الشهيد المبارك

وفي هذه الآونة عندمـا كـان شماس انكليزي اسمـه وليم، وكـان من المقــربين من رالف دي ديسيتــو، عميــد لندن، على طريق رحلتــه إلى القدس، عمل نذراً، أنه إذا ماوصل سالماً إلى ميناء عكا، سوف يبني على حسابه بيعـة على شرف توماس الشهيد المبارك، ولسـوف يتولى تكريس مقبرة على اسم ذلك الشهيــد، وقــد وفى بنـذره، وتقــاطر كثيرون من مختلف الجهات مع بعضهم إلى الصلـوات في تلك البيعة، وحمل وليـم— بقــرار من جميع الصليبيين، اسم رئيس الرهبــان، ولكي يبـدي تقــواه كجندي للمسيح، عمل شغله الشـاغل رعاية الفقـراء، وبصورة خـاصة دفن الذين هلكوا من الأمراض وكذلك الذين قتلوا في المعركة.

مقدمو جيش صلاح الدين

كان المقدمون في عكًا تحت قيـادة صلاح الدين هم كما يلي: قراقوش، الذي عمل فارساً من قبل كربوغـا أثناء حصار أنطاكية، وهو الذي ربى صلاح الدين، وكـان معه جمال الدين، وقليج، وسنجر شـاه، وشيركوه، وأبو الهيجـاء السمين، وفخر الـدين، وقطب الدين، وكـان قادة جيشـه

هم هؤلاء: أولاده الثـلاثـة: الملك الأفضل، والملك العـزيـز، والظاهر غـازي، مع اثنين من أبناء أخـوته هـم: تقي الـدين، وشمس الدين، مع المقدمين: زيـن الدين، وقايماز، وبدر الدين، والمشطوب، وسـابق الدين، وامتلك جميع هؤلاء المقدمين سلطة على الجزيرة والرحبة، والبيرة، وعلى الفرس، والتركمان، والعرب، والاسكندرية، ودمياط، وحلب، ودمشق، وجميع الأراضي الواقعـة فيما وراء الفـرات والممتدة حتى البحـر الأحمر، وفيما وراءها إلى المغرب، وحكم تقي بلاد مصر، وعهد إلى أخوة صلاح الدين الأربعـة بحكم بلدان: العبـاسيـة، واليمن، والمغـرب، والنوبة، وقيسارية وعسقـلان، وآمد، وميافـارفين، وسنجار، والناصرة، ونابلس، وحمص، وحلب، ومـرعش، وتولى العـادل سيف الديـن حكم الكرك والشـوبك، وغازي جـزء من أرمينيـا، هذا وكـان صلاح الدين السيـد الحاكم عليهم جميعاً(١).

كيف جرى احراق آلات الحصار الصليبية من قبل المسلمين

وجـرى في العـام نفسـه، قـذف النفـوط والنـار الاغـريقيـة من قبل المسلمين الذين كـانوا محاصرين في مـدينة عكـا، على الآلات التي بناها الصليبيون بنفقات عالية جداً، من أجل اخضاع المدينة، وانتشرت النار، على الفور، وحـولتهم إلى رماد، وقـد حدث هذا في هذا اليـوم الخامس من أيار.

كيف جرى اكتشاف خونة بين الصليبيين

وكشف في هذه الآونة العادل صاحب الكرك والشـوبك عن مؤامرة كان قـد أعدها مع أسقف بـوفيا Beauvais وأخيه الكونت روبرت، وغي أوف دونبيرك Duinperc ، واللاندغريف، وكونت أوف غيلدر Geldres، الذين دخلوا بالمؤامرة مع صلاح الدين، ولذلك تسلموا من

١ــ تشوهت الأسماء بالأصل إلى حد صعب فيه نقلها إلى العربية بدقة.

ذلك الأمير ثلاثين ألف دينار ذهبي، ومائة مارك من الذهب، بالاضافة إلى رشوة مقدارها أربعة جمال، وفهدين، وأربعة صقور، قد تسلمهم اللاند غريف، وقد وافقوا، مقابل هذه الهدايا على ايقاف الهجوم على المدينة، وترك أبراج حصارهم تحترق.

رسالة الملك رتشارد بشأن مستشاره

وأصدر في هذه الآونة رتشارد ملك انكلترا رسائل بعث بها إلى جميع التابعين من رعيته في جميع أرجاء انكلترا، كان نصها كما يلي:« من رتشارد بفضل الرب إلخ: نحن نأمركم ونحثكم بالنسبة لما يتعلق بنا وبمملكتنا، وكذلك بكم أنفسكم وبممتلكاتكم، لابل في جميع الأشياء، أن تكونوا طائعين إلى صديقنا، والعزيز علينا، المستشار، أسقف إيلاي، في جميع الأشياء التي فيها فائدة لنا، وأن تعملوا معه وتطيعوا أوامره لصالحنا، وكأننا نحن أنفسنا كنا في المملكة، شهدت على ذلك بنفسي في بيون Bayonne.

حول قادة اسطول الملك رتشارد والقوانين التي عملت ضد المجرمين

وفي هذه الآونة اختار الملك رتشارد وعين في اجتماع للنبلاء: جيرالد رئيس أساقفة أوكسين Auxienne وبرنارد أسقف بافاريا، وروبرت دي سابل Sabels، ورتشارد دي كانفيل Canville، ووليم دي فورت Foret ، ليكونوا قضاة للأسطول المتحد لانكلترا، ونورماندي، وبريتاني، وبواتو، الذي كان على نية الابحار إلى الأرض المقدسة، وبعث برسائل يرخصهم بها كانت كما يلي:«.من رتشارد بنعمة الرب ملك انكلترا، إلى جميع رعاياه الذين على نية الابحار إلى الأرض المقدسة، التحيات: ليعلم جميع الناس، بأننا عملنا هذه القوانين التالية بناء على نصيحة مجلسنا الجيد: كل من يقتل على ظهر السفينة رجلاً

آخـر، سوف يربط بالرجل الميت، ويلقى في البحر معـه، وكل من يقتل رجلاً آخر على اليابسـة يربط مع الرجل الميت، ويدفن معه، وإذا ماأدين أي واحد لإشهـاره سكين ليضرب بها واحداً آخـر، أو أنه أسال دم من واحد آخـر، فإنه سوف يفقد يـده، وإذا ماضرب أي واحد انسـانا آخر، فإنه سيغطس بالبحر ثـلاث مرات، وكل من يقدم إهانة، أو مـلامة، أو لعنة لرفيقـه، فإنه سيجري تغـريمـه بأونسات من الفضـة، بقـدر ماقـام بإهانتـه، والسارق الذي يدان بالسرقـة سوف يجري صب قـار يغلي على رأسه، ويعـد ذلك يجري رش رماد فـوقه ليعرف بـذلك، ولسوف يطرد من السفينة عند أول ميناء تصل إليـه»، وقـد جعل الجميع فــرداً فـرداً يقسمـون على الحفـاظ على هذه القــوانين، وأنهم بناء على ذلك سـوف يطيعـون رجـال العدالـة المتقدم ذكـرهـم، ويعـد هذا أمـر قـادة اسطوله بالاقلاع واللقاء في مرسيليا.

كيف تسلم الملك رتشارد الصك والعصا في فنزلي

التقى في هذا العـام الملكان الفـرنسي والانكليـزي في ثمانيـة القـديس يوحنا المعمـدان، في فينزلي، حيث كـان جسد القـديسـة مـريم المجدليـة مدفوناً، وقد مكثا هناك لمدة يومين، وهنا تسلم الملك الانكليزي الصك والعصـا في كنيســة القـديس دنس، وانطلق بعـد هـذا الملكان مع جميع قـواتهما نحو ليـون على الرون، حيث عندما كـانا هما وشطر من جيشهما يعبران الجسر، تحطم الجسر، فغــرق كثيرون من كــلا الجنسين، وافترق بعـد هذا الجيشــان، لأن مكانا واحـداً لم يكن واسعـاً بما فيــه الكفـاية لاستيعـاب مثل تلك القــوات الضخمـة عندمـا تتحــد، وأخـذ الملك الفــرنسي الطريق إلى جنوى، واتجه ملـك انكلترا نحــو مسينـا، ولدى وصـول رتشارد إلى ذلك المكان وجـد أن كثيراً من الحجـاج قد أنفقـوا أموالهم، بسبب إقامتهم الطويلة هناك، واحتفظ الملك رتشارد بعدد كبير من هؤلاء وألحقهم بجيشه، ويعدمـا أقام هناك في ذلك المكان لمدة ثمانية

أيام، وهو يتوقع وصول اسطوله، وجد أنه خدع بآماله، فجمع عشر بطسات كبيرة، وتسعة غلايين جيدة التسليح، وأقلع بهذه المراكب، ذلك أنه كان قلقاً بسبب تأخر أسطوله، ولكي لايبدو أنه كان كسولاً، أبحر مع قوة عسكرية جيدة، فعبر من أمام جزيرة القديس اسطفان، فأكويليا Aquileia ، فالجبل الأسود، فجزيرة القديس هونوراتوس Hon-oratus، فمدينة ميس Meis، ثم المدينة التي اسمها وينتيليماين Win-tilimine، ثم ارتحل من هناك إلى قلعة سين Seine ، وفي اليوم الرابع عشر من آب، وصل ملك الانكليز إلى ميناء دوفين Dauphin، ومكث هناك خمسة أيام، وعندما كان في ذلك المكان، أرسل إليه ملك الفرنسيين يطلب منه تزويده بخمسة غلايين، وقدم له الملك الانكليزي ثلاثة، لكنهم رفضوا من قبل الملك الانكليزي، وفي الرابع والعشرين من آب، وصل الملك إلى بورتوير Portesweire، الذي وقع في منتصف الطريق بين مرسيليا ومسينا، وبعد عبوره بأماكن مختلفة دخل إلى نهر التايبر Tiber ، الذي كان يوجد قرب مصبه برج ممتاز، والتقى في هذا المكان مع أوكتافيان أسقف أوستيا، مع رسالة لصالح البابا، بأن يزوره الملك، وقد رفض الملك هذا، قاذفاً الأسقف بالسيمونية، والكهنة الرومان بالجشع، مع تهم أخرى كثيرة، مضيفاً بأنهم قد تسلموا سبعمائة مارك، من أجل تكريس أسقف مين، وتلقوا ألفاً وخمسمائة مارك فضي من أجل منح نيابة البابا إلى وليم أسقف إيلاي، وعلاوة على ذلك تسلموا مبلغاً كبيراً من المال من رئيس أساقفة بوردوكيس Bour-deaux ، الذي اتهم بجريمة من قبل كهنته، وبناء عليه، دخل، بعد رفضه زيارة روما إلى أبوليا قرب مدينة كابوا Capua.

كيف عين الملك رتشارد ابن أخيه آرثر وليا لعهده

وأعطى في هذه الآونة، تانكرد ملك صقلية[الذي خلف الملك وليم] إلى الملك رتشارد عشرين ألف أونسة فضة، من أجل أن يحتفظ

بشروط للسلام معـه، ومقابل جميع مـاادعاه ضده، وكميـة من الذهب، مقابل الدعوى المتعلقة بالوصية التي كان الملك وليم قد عملها لصالح الملك هنري، والد رتشـارد، وتقديراً للـزواج الذي جرى التعـاقد عليـه بين آرثر دوق بريتاني وابنة الملك تانكرد، وبناء عليـه عين الملك رتشارد آرثر المتقدم ذكره ولياً لعهده، في حال وفاته من دون أي وريث شرعي، وانطلق بعد هذا على طريق حجه.

كيف تركت الملكة إليانور مع ابنها لدى مغادرته بيرنغاريا

قـررت في هذه الآونة الملكة إليـانور، السير خلف ابنهـا الملك، وقـد عبرت جبل جـــانوس Janus ، وسهول ايطاليا، والتقت به أخيراً، وبعدمـا أمضت معه أربعـة أيام، حصلت على إذنه ورجعت إلى انكلترا، وتركت مـع ابنهـا بيرنغـاريا، ابنة ملك نـافـار، التي كـان رتشـارد سيتزوجها، لأن الملك رتشارد كان قد أعطى الملك الفرنسي عشرة آلاف باوند كترضيـة له من أجل عـدم زواجـه مـن أخت هذا الملك، وبهذه الاتفـاقية تخلى أيضـاً ملك الفرنسيين عن مطالبتـه بقلعة غيسـور وجميع فكسين Vexin.

وفي هذا العـام أيضـاً، عبر فـردريـك الامبراطور الرومـاني، في السنة الأربعين من حكمـه، خـلال بلغـاريا، في طريقـه إلى القـدس، وفي أثناء زحفه من قـونية نحو أنطاكية، وبعـدما عبر بأمان جيشه النهـر الأسود، سقط الامبراطور من على حصانه في الماء وغرق.

كيف ظهر توماس الشهيد المبارك إلى قادة اسطول الملك رتشارد

تعرض في العام نفسه اسطول ملك انكلترا إلى كثير من المخاطر، ففي طريقـه إلى لشبونة استدار حـول الجبل المرتفع الذي اسمـه غدتيرا -Go desterre، ثم عبر بريتاني والقديس متى أوف فنزتيرا Finisterre على يساره، والمحيط الذي كان عليه طـريقه إلى القدس على اليمين، ثم غادر

بواتو وغسكوني على يســاره، وكــان الاسطول في يوم صعــود ربنا في البحر الاسباني، وتعرض وقتهـا الاسطول إلى عاصفة فرقت السفن على الفور، وفي أثناء هياج العاصفة، وعندمـا كان الجميع خائفين يدعون إلى الرب، ظهر تومـاس الشهيد المبارك، رئيس أساقفة كـانتربري في أوقات ثلاثة متنوعـة، إلى ثـلاثة أشخـاص مختلفين، كـانوا على ظهـر سفينة اللندنيين، وقـال لهم:« لاتخافـوا، لأنني أنـا، وإدمـوند الشهيـد المبـارك، والقـديس نيقـولا المعترف، قـد جـرى تعييننا مـن قبل الرب، من أجل حـراســة اسطول ملك انكلترا، وإذا مـانأى البحــارة وقـادة الاسطول بأنفسهم عن الذنوب، وتابوا من ذنوبهم الماضيـة، سوف يمنحهم الرب رحلة موفقة، وسيـوجه سبلهم في ممراته»، وسمعت هذه الكلمات ثلاث مـرات متواليـات، وإثرها اختفى القـديس تومـاس، وتوقفت العاصفـة وهدأت، وكان بين بحـارة تلك السفينة واحداً اسمـه وليم ذي اللحية، وآخر اسمـه وليم فتز— أوسيبرت Fitz- osbert، وغيوفـري العامل بالذهب، وكان معهم كثيراً مـن سكان لندن، وعبر هؤلاء الآن لشبونة، ورأس القـديس فنسنت Vincent ثم اقتربوا من مـدينة اشبيليــة، التي شكلت آنذاك النهايـة القصوى للمسيحية في اسبـانية، وفي الحقيقـة كان الايمان المسيحي مايزال ضعيفـاً هناك، لأنها قد غدت مسيحيـة قبل عام واحــد مضى، حيث جـرى الاستيــلاء عليهــا وانتـزاعهــا من سلطة المسلمين، ووجـه بحارة السفينة اللندنيـة، سفينتهم وقادوها على مقـربة من المدينة، فوجدوا بعض الاشارات الدالة على سكنى المسيحيين هناك، ولذلك رسـوا هناك، وقـد استقبلوا بكثير من التكريم من قبل الأسقف وبقيــة السكان، وكـان على ظهــر هذه السفينة مــا يزيد على ثمانين من الشبـاب المسلحين، بهم احتفظ أهل المدينة مع ملك البرتغال، وأبقـوهم في خـدمتهم، وذلك لخوفهم من ملك المغـرب، وأعطـوهم كل نوع من الضمانات في أن يدفعوا لهم الذي يطلبونه، ووعدوهم بالاضافة إلى ذلك بهدايا كثيرة، وإلى جـانب هذه السفينة كان هناك مـايزيد على عشر سفن

من الاسطول الانكليـزي، مع بحـارتها قد تفـرقـوا هنا وهناك، وأخيرا، وصلوا بفضل من الرب إلى مـدينة لشبـونة بوساطة نهر تاجـه Tagus، وبعـد هذا كان رئيس أسـاقفة أوكسيـا Auxia ، وروبرت دي سابل Sables، ورتشارد دي كـانفيل Canville، ووليم دي فورتز Fortz، قـد أخــذوا طريقهم بين أفــريقيـا واسبــانيـا، ووصلوا بعــد كثير من العواصـف، في ثمانية القديسـة مريم إلى مـرسيليا، وكـان ذلك مع جميع الاسطول الذي كـان تحت عهـدتهم، وقـد وجــدوا الملك هناك، لذلك توقفوا للقيام بالترميمات الضرورية لسفنهم.

كيف نزل بلدوين رئيس أساقفة كانتربري مع آخرين في صور

في حـوالي الوقت نفســه، كـان بلدوين، رئيس أسـاقفــة كـانتربري، ورالف دي غـلانفيل، وهيوبرت أسقـف أوف سالسبري، الذين كـانوا مسـؤولين رسميــا عن العـدالة في انكلترا، والذين تقــدمـوا على الملك الانكليـزي في الرحلة نحو القـدس، قد أخـذوا طريقاً مبـاشراً، مخلفين صقلية على اليسار، ووصلوا بعد المعاناة من كثير من المخاطر، إلى صور، في حـوالي أيام عيـد القـديس ميكائيل، وكـان جـون أوف نورويك قـد ذهب إلى البـابا، فحصل منه على الاذن، فــوضع جـانبـاً صليب الرب، وأخذ حقائبه، وعاد إلى انكلترا، وقد تحلل من عهوده.

نشوب خلاف بين الملكين في مسينا

وصل في الســادس عشر مـن إيلول من العــام نفســـه فليب الملك الفرنسي إلى مسينا، وتمت استضافته في قصر الملك تانكرد، ووصل الملك رتشــارد في الثــالث والعشرين من الشهــر نفســه، لكـن لم يسمح له بالدخول إلى المدينة، لأن الفرنسيين كانوا خائفين من أن الأطعمة سوف لن تكون كافية للحشود التي تبعت الملكين، ولدى سماع رتشارد بذلك، أرسل قـادته إلى شيوخ المدينة، وطلـب منهم بيع مؤن إلى جيشـه، حتى

لايتعـــرض أفـراده إلى ضغط الحاجــة، وقـد رغـب سكان المدينة بفتح أبوابهم واستقبال مثل هذا الأمير العظيـم والترحيب به، لكن الفرنسيين لم يسمحـوا لهم، فقـد تسلقـوا فـوق الأسـوار، وهـم يحملون السـلاح، وقرروا الدفـاع عن الأبواب، وعند هذا أمر الملك رتشارد عسـاكره بأن يهبوا إلى السـلاح، وأن يشقوا بالقوة طريقاً له ولأتبـاعه، على الرغم من أعـدائهم، وأطاعت العسـاكـر أوامـر الملك، وهاجمت الأبواب، وشقت طريقها بالقـوة إلى المدينة، وبعدما قتلوا عدداً من الفـرنسيين، حيث كان ملكهم على رأسهم، أرغمـــوا البقيـة على الفـــرار، وعندمـا بلغت هذه الأخبار إلى مسـامع الملك الفرنسي شعـر بغضب عظيم جداً ضـد الملك الانكليـزي، ولم يخلص نفسـه من ذلك طوال حيـاته، ومع ذلك اجتمع الملكان، وتحادثا بسـلام، وكان ذلك في اليـوم نفسـه، ولم يأتيا على ذكـر ماحدث.

كيف أخضع الملك رتشارد بعض الحصون

في الرابع والعشرين من ايلول من هذا العام، صعـد الملك الانكليزي إلى سفنه، وأراد الاقـلاع لكن الريح لم تكن مـواتيـة، فعـاد إلى مسينا في اليـوم نفسه، وفي الثـلاثين من ايلول عبر الملك رتشارد نهر الفـار Var، واستـولى على مكان حصين جـداً في كـالبيريا كـان اسمـه لابامير Lab-amare ، ووضع هناك أختـه جـوانا، التي كـانت ملكة صقليـة من قبل، وعـاد إلى مسينا، واستـولى في اليــوم التـالي على حصن اسمـه دير الغـريفـون Griffones ، بين مسينا وكالبيريا، وقام الغريفون في هذا المكان بهجوم على هيـوج برون Brun ايرل أوف مارش March، وقد جرى ردهم مـن قبل رتشارد، وبناء عليه أغلقـوا أبواب المدينة، وحملوا أنفسهم إلى الشرافات، ومن هناك قتلوا وجرحـوا عدداً من رجال الملك وخيـولـه، وغضب الملك لهذا وهاجم واقتحم الأبـواب، واستـولى على المدينة، ومركـز في الرابع من تشرين الأول أتباعه فيها، وفي اليـوم التالي

أعطى شيوخ المدينة رهائن من أجل رعـاية صحيحة للسلام من قبلهم، وشيد بعـد هذا قلعة هناك، أطلق عليها اسم ميت— غـريفون Mate-Griffon، وعُقـد في هذه الآونة مـؤتمر اقليمي، كـان الرئيس فيـه، وليم أسقف إيلاي، النائب للكرسي الرسـولي، لكن الذي أنجز في هذا المؤتمر كان قليلاً أو لاشيء من أجل تهذيب الكنيسة الانكليزية.

كيف تحررت الكنيسة النورماندية من نير العبودية

وفي هذه الآونة تحررت كنيسـة الرب في نورمـاندي- بموافقـة الملك رتشـارد- من نير العبـودية الذي تحملتـه طـويلاً، فقـد تقـرر بالدرجـة الأولى، وجـاء مـاتقـرر بمنحـة من الملك، أنه بـالنسبـة للكهنة، لايجوز اعتقـالهم بأي حـال من الأحـوال من قبل السلطات المدنيـة، كما كـانت العـادة من قبل، مـالم يكن ذلـك من أجل قتل، أو سرقـة، أو الاحـراق عمداً، أو جرائم من هذا النوع الرهيب، وأن يكون ذلك على الفور بناء على طلب القضـاة اللاهوتيين، حيث يتـوجب تسليمهم للمحـاكمـة في محاكم لاهوتيـة، وبالاضـافـة إلى ذلك فإن جميع المسـائل المتعلقـة بعـدم الوفـاء بالعهـد، أو الحنث بـاليمين، يجري تقـريرها في هـذا السيـاق في البلاط اللاهوتي، وأيضاً بالنسبـة لقضايا المهور، أو هدايا الزواج، حيث كانت تجري المطالبة بمقتنيات أو بسلع حيـة، فهذه سوف يشار إليها من قبل التحكيم الكنسي، وأيضـاً فيما يتعلق بالممتلكات الديرية، وانتخـاب رعاة الديرة، ورؤساء الرهبـان، وراعيات الراهبات، فإن هذا كله ينبغي أن يتم بمـوافقـة أسقفهم، وكـذلك ليس للمحـاكم المدنية صـلاحيـات حيث يمكن للمحـاكم اللاهوتيـة البرهنة على ذلك، إمـا بالفعل، أو بشكل آخـر إذا كانت الملكية صـدقة أو وقف، وأن هذا ينبغـي الاشارة إليـه في قـرار القضـاة الـلاهوتيين، وكـذلـك إن التصرف بالممتلكات الممنوحـة بوصية ينبغي اقـراره من قبل السلطات الكنسيـة، وأنه لايجوز استخراج عشر من ذلك، وكذلك بالنسبة لسلع الكهنة، ومع أنه قد قيل

بأنهم كانوا يمارسـون الربا، فإنهم إذا ماماتوا، ليس للسلطات المدنية من صـلاحيـات تجاه مخلفـاتهم، بل إنها ينبغي توزيعهـا من قبل السلطات الأسقفية على أعمال تقـوية، وكذلك مهما كـانت الممتلكات التي أودعها رجال علمانيون أثناء حيـاتهم، وتحت أي عنوان غربوها، ومع أنه يمكن تسميتهم مرابين، الأمر نفسه، لايجوز نقضها بعد موتهم، ولكن أي شيء أمكن العثور عليه غير مغرب بعد موتهم، وإذا أمكنت البرهنة على أنهم كـانوا مرابين في أيام مـوتهم، فـالذي ينبغي هو مصادرتهم، وكـذلك إذا كـان شخص ميت كـان لديه أية رهينة قد حصـل بها على الفائـدة، فإن حصتـه ينبغي إعـادتها إلى المودع للـرهينة، أو إلى ورثتـه، والشيء نفسـه ينبغي عمله بحصص زوجته وأولاده بعـد موتهم، وإذا مـات أي واحد موتاً مفاجئاً، أو بوسـاطة حادث، وكان من غير الممكن توزيع ممتلكاته، فإن توزيعها ينبغي أن يعهد به إلى السلطات الكنسية.

موت بلدوين رئيس أساقفته كانتربري

وفي هذه الآونة كـان بلدوين رئيس أسـاقفـة كـانتربري، على حـافـة الموت في عكا، فتبرع بجميع ممتلكـاته لمسـاعـدة الصليبيين في الأرض المقدسة، وبعد وفـاته تولى هيوبرت أسقف سالسبري- الذي كان رئيس الأسـاقفة قـد عينه منفذاً لوصيتـه- توزيع ممتلكاته بأمـانة ولاستعمالات تقـوية، وكان قلقـاً حـول حرس المعسكـر، فدفع لهم، مثلما قـرر رئيس الأسـاقفـة في أيام حيـاته أن يفعل، وعين رواتب لعـدة أيام لعشرين فـارساً، ولخمسين لخدمهم، وقـد أخذ على نفسـه العناية دوماً بالفقـراء، ملقيا عين الرحمة على المعوزين، وقائماً في جميع الأحوال بواجبات أسقف صالح.

هذا ولم تتأثر عكا بالحمـلات المتواليـة للصليبيين، وقاومت بشجـاعة وتصميم، لأنها كـانت محاطة بأسـوار جيـدة، وكـانت مشحـونة بشكل جيـد، ومـزودة بالآلات الحربيـة، عـلاوة على ذلك كـان جيش صـلاح

الديـن محيطاً بالمحـــاصرين من جميـع الجهـــات، ولهذا السبـب وبسبب انسحـاب بعضـاً من الصليبيين، وكــذلك بسبب الأعـداد الكبيرة التي قتلـت منهم، فـإن جيش المسيـح قـــد ضعف كثيراً، ومـع ذلك فـإن الصليبيين الذين وثقـوا بمسـاعـدة المسيح، كـانـوا متأملين أنه سيكون بامكانهم تحمل المصاعب ومتاعب الحصار حتـى وصول الملكين، ذلك إذا ماوصلا إليهم مع أيام الفصح، لكن إذا لم يصلا فإن أموالهم ستكون أنفقت، واستهلكت، وسوف تتبدد جميع الآمال بمعونة أرضية.

حول تشامخ وليم أسقف إيلاي ومستشار انكلترا

أمـر في هـذه الآونة وليم، قـاضي انكلترا، ونائب الكـرسي المقـدس، بحفر خندق عميق حول برج لندن، آملاً أن يكون قادراً على جلب المياه من نهر التيمز إلى المدينة، لكن بعد انفـاقه كثيراً من الأموال من الخزينة، تبرهن أن جهـوده بلاثمار، عـلاوة على هـذا أصبح هذا المستشـار نفسـه عظيماً جداً بين جميع شعوب الغـرب، وكان في انكلترا هو ملك وراهب معـا، ولم يعـد يبـدي اهتمامـا بأي شيء، ذلك أنه لم يعـد قـانعـاً بالمكانة الأسقفية لوحـدها، بل أظهر بأن تفكيره مـركّز على أشيـاء كانت عـالية جداً بالنسبة لـه، ذلك أنه أظهر عبثيته وعجرفته بقـوله في مطلع رسائله كلها:« نحن وليـم، أسقف إيلاي بفضل نعمة الرب، ومستشـار مولانا الحاكم، وقاضي انكلترا كلها، ونائب الكرسي الرسولي، التحيات، إلخ»، وقـد مارس تجاوزات كثيرة بوسـاطة مـراتبه التي شغلهـا، والتي حصل عليها بوساطة الرشوة، وسعى إلى ترميم المؤسسـات المقدسة التي سلبها في سبيل حصـوله على مراتبـه، وكان يوزع الأمـوال على موائـده، حتى يتمكن من القدوم ثانية واستخراج الأموال نفسها، لكن مع فائدة، ذلك أنه مارس واجبـات النيابة البابوية، التي حصل عليهـا بكلفة ألف باوند من الفضـة، وبات متعجـرفـاً إلى حـد غـدا فيــه عبئاً ثقيـلاً على جميع المؤسسـات في انكلترا من كل من الديرة، والكاتدرائيـات، وفي الحقيقـة

ارتحل خـلال انكلترا كلها مع رتل تألف من ألف وخمسمائـة من الخدم، ورافقه أيضاً حشد من الكهنة، وأحاطت به كتائب من الجند، وقد أهمل جميع الأشياء التي ارتبطت بمرتبتـه الأسقفية، وقـد خدمـه على مائـدته جميع أبناء النبـلاء الذين زوجهم من حفيـداته مع الاناث من قـريبـاته، وقد اعتقد الذين احتفظ بهم، بمثـابة خدم، أنفسهـم محظوظين، ولم تكن هناك أرض معروضة للبيع إلاّ واشتراها، ولم تكن هناك كنيسة فارغة أو دير شـاغـر، إلاّ ووزعـه أو احتفظ بـه لنفسـه، ولم تكن هناك قلعـة من القـلاع أو بلدة من البلدات إلاّ وحـاول الحصول على الوصـاية عليهـا، عن طريق التهـديد أو الرشـوة، وبهذه الأعمال، وبتصرفـات مماثلة في سماتها، ألقى الرعب في قلوب النـاس، وصـارت مملكة انكلترا صـامتـة بحضوره، ومـامن أحد تذمر، لأنـه لم يبق في انكلترا قوة تقاومـه، وكان موكبه مكوناً من:

Ambubaiarum collegia, Pharmacopolae,

òMendici, mimae, balatrones,hoc genusomne.

وهكذا عندما كان يسير على الأرض، كان تتبعه جميع أنواع الموسيقى والغناء، مثلما يتبع الملائكة المقدسون الرب الكلي القدرة في السماء، ولقد عمل في كل مجال تماماً بطريقة بـدا فيها وهو يسعى لأن يضع نفسه على سـوية الرب، ولسـوف نحكي خبر نهايـة هذا كله في أحـداث التـاريخ المقبلة في وقتها.

حول الموتان عند عكا

عـام ١١٩١م، فيـه مات بعـد مـوت بلدوين المبجل رئيس أسـاقفـة كانتربري، نبلاء وفرسان مجربين بشكل جيد وأقوياء، وذلك أثناء حصار عكا، وقـد قيل بأن ذلك جـاء بسبب الأجـواء غير الصحية، وكـان بين هؤلاء رالف دي فولتشر، والكونت روبرت دي بيرشي، وثيوبولد أوف

بلوا، وأخـوه الكـونت ستيفن، والكونت الابن للامبراطـور فـردريك، وايـرل فيّرار Ferrars ، والايـرل روبــرت دي ليستر، ورالــف دي غلانفيل، ورالف هوتيرايف Hauterive، ورئيس أساقفة كولستر، وإلى جـانبهم آخـرون لايمكن تعـدادهم، وفي تلك الأثناء كـان الملك هنري الانكليـزي مع الملـك الفـرنسي، ينتظران في صقليـة حلـول الربيع حتى يتجنبا السفر في الشتاء.

ومـات في هذا العــام أيضـاً البـابا كليمنت، بعــدمـا شغل الكرسي الرسولي لمدة أربعـة عشر شهراً، وقد خلفه سيليستين، الذي كـان يعرف من قبل باسم هايأسيتثوس Hyacinthus.

كيف أقلع فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا من مسينا

وفي التاسع والعشرين من آذار من هذا العـام أقلع الملك الفرنسي من مسينا، وأبحر مبـاشرة باتجاه القدس، ولحقه في العـاشر من نيسان الملك رتشـارد، وسط أبهة عظيمـة، مع أسطول تألف من ثلاث عشرة بطسـة من ذوات الأشرعة الثـلاثة، إلى جانب مائـة سفينة نقل، وخمسين غليون من ذوي الصفوف الثـلاثة للمجذفين، وبعـد مسير عشرين يوماً اقتربوا من جـزيرة رودوس، وبعـد عشرة أيـام رسـوا عند قبرص، هذا وقـدم اسحق حاكم الجزيرة، الذي اتخذ لنفسه لقب امبراطور، مع قوة مسلحة كبيرة، لمنع الملك من الدخول، وأسر عدداً من أتباعه كانت سفينتهم قد جنحت، وسلبهم، وألقـاهـم في السجن ليمـوتوا جـوعـاً، وقـام الملك الانكليـزي، وهو يتحـرق غضبـاً، بمهاجمة عـدوه، وهزمـه على الفـور، وأخذه أسيراً واحتفظ بـه، وأخضع ابنته الوحيدة مع الجزيـرة كلها وكل الأماكن الحصينة، وعمل اسحق اتفـاقاً مع الملك في أن لا يبقيـه بأغلال من حديد، ووفى الملك بوعده، وغلّه بأغـلال من فضة، وأمر بوضعه في قلعـة قريبـة من طرابلس اسمها المرقـب، لكنه احتفظ بابنته مكرمـة مع الملكتين تحت الحراسة في بيته الخاص به، وفي.سبيل انعاش نفسه وأتباعه

بعـد رحلتهم المتعبة، ومن أجل الحصـول على المزيد من المؤن الطازجـة قـرر الملك رتشارد التـوقف في هذه الجزيرة، من دون إلحاق الضرر بأي انسان، لكـن اسحق المتقدم ذكره منعـه من محاولة الدخـول إلى أراضيه، لابل أكثر من هذا منع كل واحد من رعيته بيع أية مؤن إلى جيش الملك الانكليزي، أو عرض أية أدوات وأشياء أمـامهم لبيعها، وبهذه الوسائل أغضب الملك وأثاره، وأرغمـه على انزال ماكان قـد أنزله به من أضرار ذكـرناها من قبل، وعنـدمـا تمكن الملك أخيراً من الحصـول على أمـوال الجزيرة، وأعـاد ترتيب الأمـور بها بما يرضيـه، تزوج من بيرنغـاريا ابنة ملكة نافار، وهي نفسها التي كانت الملكة إليانور قد أحضرتها له عندما كان مقيماً في صقلية.

وفي اليوم الرابع من اسبـوع الفصح لهذا العام كـرس البابا سيليستين هنري ابن الامبراطور فـردريك امبراطوراً، وفي هذا العـام أيضـاً مـات فيليب كونت أوف فلاندرز، الذي أبحر نحو الأرض المقدسة مع الملك الفرنسي، من دون أن يخلف أولاداً.

كيف جرى سجن غيوفري رئيس أساقفة يورك في دوفر

وحـدث في هذه الآونة أن جـرت سيامـة غيـوفري المنتخب ليـورك، أسقفاً، من قبل بارثولميـو رئيس أساقفة تور، وجـاء ذلك بناء على أوامر الحبر الأعظم، وانطلق غيـوفـري بعد سيـامتـه يريد انكلترا، ووصل مع أتباعه إلى دوفـر، وكان متى دي كلير Clere عمدة تلك الكونتيةقد تلقى قبل وقت قصير رسـالة من وليم أسقف إيلاي جـاء فيها مـايلي:« نحن نأمرك إنه إذا ماوصل الأسقف المنتخب ليورك إلى أي ميناء، واقع تحت سلطتك، أو أي رسـول من قبله، أن تتـولى اعتقـالـه حتى تتلقى أوامـر منا تتعلق به، ومثل هـذا نأمـرك أن تتـولى احتجـاز جميع رسـائل مـولانا البـابـا، أو رسـائل أي رجل عظيم، يمكـن أن تصل إلى هذه المناطق»، وبناء عليه عندما عرف متى بوصـول رئيس الأساقفة، قام بناء

على نصيحة أخت أسقف إيلاي، التي كانت وقتذاك مسؤولة عن القلعة، بتنفيذ تعليماته من دون إبطاء، فحاصره لمدة ستة أيام ومعه عصابة من الرجال المسلحين، في مقر رئاسة رهبان القديس مارتن، وأنزله إلى ضائقة شديدة، ذلك أنه في تلك الأثناء حصل على المؤن بصعوبة بالغة، وكان ذلك عن طريق الصدقات التي كان من الممكن وصولها له، هذا وازدادت خيانة الساخطين يومياً، ووصل إلى الكنيسة المذكورة أعلاه مجموعة من جنود أسقف إيلاي مع العصي، واندفعوا وهم مسلحين إلى حضرة رئيس الأساقفة، وأمروه بصلف وبشكل حاسم بمغادرة المملكة من دون تأخير، وبالإبحار إلى فلاندرز، وقد رفض إطاعة هذه الأوامر، ووقف ورداؤه فوق كتفيه والصليب بيديه، فسحب بالقوة من أمام المذبح، وجر من قدميه، ومن ذراعيه، ومن رجليه، ورأسه يلتطم بالأرض، وأخذ مع كهنته، ورجال الدين الذين جاءوا لرؤيته من مناطق كثيرة، وحملوه إلى القلعة، وألقوه بالزنزانة، حيث بقي سجيناً مضيقاً عليه لمدة ثمانية أيام، ووصلت أخبار هذه المعاملة إلى أسقف لندن، فذهب هذا الأسقف على الفور إلى المستشار، وبعد كثير من المصاعب، وبعد معالجات طويلة، حصل على اطلاق سراح رئيس الأساقفة، لكن بعدما أعطى أسقفيته كلها ضمانة له، وبناء عليه أطلق سراح رئيس الأساقفة، وخرج من السجن، وقدم إلى لندن، حيث استقبل من قبل الأسقف، والكهنة والشعب بكل تشريف، وبمسيرة مهيبة، ويعزى إلى هذا العمل الطائش— كما ستظهر أحداث التاريخ المقبلة فيما بعد— كثيراً جداً مما حل فيما بعد من إهانات بالمستشار.

كسوف متميز للشمس

في شهر حزيران من العام نفسه، ظهر يوم الأحد، عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، في حوالي الساعة السادسة من النهار، كسوف للشمس،

استمر حتى الساعة الثامنة، وكان القمر وقتها في السابع والعشرين، وكانت الشمس في برج السرطان.

كيف استولى الملك رتشارد على مركب شحن كبير

وفي الحادي والعشرين من آذار، من هذا العام، وصل فيليب ملك فرنسا إلى عكا[كذا: علماً بأنه غادر مسينا في التاسع والعشرين من آذار]، ونزل الملك رتشارد الذي لحق به، في قبرص، مع كميات واسعة من المؤن، وسمع بأن جيش الملك الفرنسي كان يعاني في عكا من الجوع وندرة الحاجيات إلى حد أن سعر الربع من القمح صار يكلف ستين ماركاً، ولذلك بادر بالاسراع للتفريج عن هذه الضائقة والآلام بسفنه المحملة بكميات كبيرة من القمح، وعندما كان مبحراً نحو عكا في ريح طيبة—وعكا هي المدينة التي كانت تعرف من قبل باسم بطولميس— رأى في الأفق، في السادس من حزيران، سفينة كبيرة اسمها درمونه Dromund، كانت مرسلة وهي محملة بكمية كبيرة من المال، من مدينة بيروت من قبل سيف الدين أخو صلاح الدين، الذي كان آنذاك سلطان مصر، وكانت مكلفة بحمل المساعدات إلى المسلمين المحاصرين في عكا، وكان مع المسلمين على ظهر هذا المركب النفوط، وكثيراً من الجرار المليئة بأفاعي سامة، وطاقم بحارة مؤلف من ألف وخمسمائة مقاتل، وذلك بالاضافة إلى ألف وخمسمائة من الرجال الأشداء، الذين بهم تقوت السفينة واندعمت، وأمر الملك رتشارد رجاله بالاستعداد على الفور للعمل، وصفت الغلايين إلى جانب بعضها بعضاً، ثم نشبت معركة قاسية بين الطرفين، لكن السفينة المعادية أصبحت يائسة بسبب توقف الرياح، وبعد بعض الوقت اقترب واحد من عمال التجذيف لدى الملك، وكان غواصاً بارعاً، من سفينة المسلمين من تحت الماء، وفتح فيها ثغرة، وبعد مافعل ذلك عاد تحت حماية المسيح، إلى سفينته، وأخبر الملك بالذي فعله، ودخل الماء في وقت قصير إلى السفينة،

ووصل سطحها، وعلى الفور فقد جميع البحارة الأمل بالنجاة، بعدما كانوا واثقين من سفينتهم، وجرى اغراق ألف وثلاثمائة من هؤلاء بناء على أوامر الملك رتشارد، أما المائتين الذين بقيوا فاحتفظ بهم رهائن.

وصول الملك رتشارد إلى عكا والاستيلاء على تلك المدينة

وبعدما جمع الملك رتشارد جميع أسلاب السفينة المسلمة، وصل إلى ميناء عكا، الذي اتجه نحوه مع ريح موائمة، وفي الثامن من حزيران دخل الملك إلى الميناء، وزعقت أصوات الأبواق والنفر، وملأت أصوات القرون الهواء قرب الشاطىء، وأعيد التصويت بها حتى تملأ المنطقة الداخلية إلى مسافة بعيدة، وشجعت هذه الأصوات الصليبيين على القتال، لكنها قذفت بالرعب في قلوب المسلمين المحاصرين، لأنها أعلنت عن وصول مقدم كبير، وعبر الملك رتشارد عن مشاعره الطيبة وأظهرها نحو الجميع بتزويد الجيش الجائع بالأطعمة، ثم أعدّ الملكان على الفور، يعاونهما حشد من الفرسان والجنود المجانيق والآلات الأخرى ونشروها حول المدينة، وتمكنوا بوساطة وزن مقذوفاتهم، ومتابعة الرماية من المجانيق نهاراً وليلاً، من دك أسوار المدينة، ولذلك أصيب المسلمون بالرعب، وفقدوا كل ثقة بقدرتهم على المقاومة، وأخيراً عقدوا اجتماعا، وباشروا التباحث من أجل السلام، وكانت شروط الاتفاق، أن يعيد صلاح الدين الصليب الحقيقي، مقابل اطلاق سراح حامية المدينة، وكان هذا الصليب هو الذي استولى عليه أثناء القتال، وكان على صلاح الدين أيضاً اطلاق سراح ألف وخمسمائة من الأسرى الصليبيين، يجري اختيارهم من قبلهم، وبالإضافة إلى الاتفاق المتقدم ذكره كان عليه أن يدفع سبعة آلاف دينار، وبموجب ذلك جرى تسليم المدينة، بما كان فيها من سلاح وعتاد وكل شيء، باستثناء أشخاص المسلمين، إلى الملكين في الثاني عشر من تموز، وعندما حل موعد الدفع، لم يف صلاح الدين بما وافق عليه، وعقوبة على هذا الخرق الكبير،

وبسببه جرى اعدام ألفين وستمائة من المستسلمين، والذي احتفظ به كان عدداً صغيراً من الأعيان، حيث وضعوا في السجن، تحت تصرف الملكين.

كيف عاد الملك الفرنسي إلى بلاده بسبب الحسد

وبعد اخضاع المدينة أعدّ الملك الفرنسي نفسه للعودة إلى وطنه، وكأن الحرب قد انتهت تماماً، ذلك أنه كان غاضباً إلى أبعد الحدود، لأن الفضل بنجاحات الجيش الصليبي قد عزيت كلها إلى الملك رتشارد، وبناء عليه تذرع بالحاجة إلى المال، واتخذ الفقر عذراً فقال بأنه لايستطيع الإقامة مدة أطول، لكن الملك رتشارد، الذي كان يتحرق رغبة لرفع شأن قضية الصليبيين، عندما سمع بهذا، وعد بأنه على استعداد لتزويد الملك الفرنسي بشطر جميع ماملكه من مال، ومؤن، وخيول وسلاح، وسفن، من أجل أن يبذلا الجهد متحدين في سبيل اخراج أعداء المسيح من الأرض المقدسة، ولكن الملك الفرنسي قابل هذا كله بأنه قد أقسم على العودة، وبتصميم بات أعد نفسه للعودة، ولم يعبأ برفع أتباعه أصواتهم احتجاجاً على ذلك، واستثير الجيش كله وعبر عن انفعاله الكبير، ولذلك انطلق عائداً إلى بلاده مع فئة صغيرة برفقته، علاوة على ذلك نشب بين الملكين، عدم اتفاق بشكل سري، ولذلك اقترح ملك فرنسا تسليم مدينة عكا، وجميع المدن الأخرى، والقلاع والمناطق التي سوف يستولون عليها إلى مركيز مونتفرات، وأن يجري تعيينه ملكاً على الأرض المقدسة، ولهذه الغاية تزوج هذا المركيز نفسه من ابنة الملك عموري، وأخت ملكة القدس التي توفيت مؤخراً، وكان الملك رتشارد معارضاً بشكل كلي لهذه الرغبة، وبرهن بشكل واضح، أن الذي عليهم فعله والذي هو الأصح هو إعادة الملك غي إلى مملكته، التي حرم منها منذ وقت قصير، بدلاً من تعيين واحد جديد، وهو مايزال بين الأحياء، ولاسيما أنه كان من الواضح أنه فقد سيادته ليس بسبب تقاعسه بل

بسبب اقـدامه وشجـاعتـه في حرب حـادة، وقع فيهـا بالأسر مثلما وقع الصليب بأسر المسلمين، وكان سبب ذلـك تفوق عدد أعـدائه، وضعف جيشـه، ولقـد كـان هذا هو السبـب الأسـاسي للخـلاف بين الملكين المتقـدمي الذكر، مع أن الخلاف قـد تفجر بينهما في المقـام الأول— وإن ظل مخفيـاً— في مسينا في صقليـة، عنـدمـا استحـوذ الملك رتشـارد على المدينة بالقوة المسلحة، ودمر كثيراً من أتباع الملك الفرنسي، بسبب قسوة الجيش الفـرنسي وفظاظته وسـوء معاملتـه للانكليز، يضـاف إلى هذا أن الملك الفـرنسي رأى أن الناس من مختلف البلـدان، الذين تدفقـوا على الأرض المقـدسـة، قد وضعـوا أنفسهـم تحت قيـادة الملك رتشـارد، وأن شهـرة رجولة هذا الملك ومقـدرته قد إزدادت يوميـا، وذلك بسبب أنه كان أفضل تزويداً بالمال، وأعظم كرماً في منح الأعطيات، ثم إنه امتلك جيشاً أكبر، وكـان أشجع في قتاله لأعـدائه، ولقد اعتقـد الملك الفرنسي بأن شهـرته قـد خبت وكـذلك مقـدرته تجاه مـاتمتع به الآخـر، ولذلك تعجل العودة، وبالاضافة إلى هـذا كله، لقد رغب في أن يستحوذ لنفسه أراضي كـونت فلاندرز الذي مـات مـؤخراً، وبناء عليـه قـام— بعدمـا أقسم أنه لن يغزو أراضي الملك الانكليزي، أو أراضي القادة الذين بقيوا معـه— بالمغادرة، وتـدبر الملك رتشارد بعـد هذا ترميم الثلم في أسـوار عكا، وتنظيف خنادقها، وشحنها بقوة من الرجال المسلحين.

نجاحات الملك رتشارد وتقدمه

بعد هـذه الحوادث، وفي عشية يوم عيـد صعود مـريم المباركـة، أخذ الملك رتشـارد مع أتبـاعـه المجـربين الطريـق خـروجـاً من أبواب عكا، وانطلق بجرأة زاحفاً ليحاصر، ومن ثم ليستولي على مدن ساحل البحر، وأمـر بنصـب معسكره على مقـربة ومشهـد من جيش صــلاح الدين، وذلك في المكان الـذي أعـدم فيــه الألفين والستمائـة من المسلمين، كما تحدثنا من قبل، وعندما وصلـت هذه الأخبار إلى المسلمين الذين احتلوا

المدن الساحلية، خافوا من أن يقوم الملك أثناء غضبه بإنزال عقوبة مماثلة بهم، أي مثل العقوبة التي أوقعها بعكا، ولم تتوفر لديهم ثقة بمساعدة صلاح الدين لهم، بما أنه رفض أن يدفع فدية الآخرين التي طلبت منه، ولذلك أفرغوا مدنهم وهربوا على الفور لدى سماعهم باقتراب الملك، وكانت هذه هي الحالة مع سكان: حيفا، وقيسارية، وأرسوف ويافا، وغزة، وعسقلان، وهكذا— بإرادة من الرب— سقطت جميع المناطق البحرية في ذلك الشطر من البلاد في أيدي الصليبيين، وهذا على كل حال لم يكن من دون بعض القتال الحاد، لأن جيش صلاح الدين تبع من الخلف، أجنحة الجيش الصليبي، وأوقع ضربات قاسية بالأطراف، ونجم عن ذلك مذابح كبيرة من على الطرفين، وعانى منها الجيشين معا، وبعدما قام الملك رتشارد بتحصين المدن المتقدم ذكرها، عاد منتصراً إلى عكا،[وعاد بعد أيام إلى يافا التي هي غير بعيدة عن قيسارية، حيث أنزل بصلاح الدين هزيمة مهينة، وبعد ذلك منح مملكة القدس إلى هنري ابن أخته، مع أرملة مركيز مونتفرات كزوجة له، وأنقذ في الوقت نفسه آثار عدد كبير من القديسين كان صلاح الدين قد استولى عليها، ودفع مقابل ذلك مبلغاً كبيراً من المال].

وهذه الرواية التي قدمناها، نستطيع أن نفهمها أكثر بتقديم نص رسالة كان رتشارد قد بعث بها إلى وولتر رئيس أساقفة روان حول هذا الموضوع نفسه:« من رتشارد، بنعمة الرب، ملك انكلترا، الخ— اعرف بأن مولانا ملك فرنسا قد عاد إلى الوطن، وبعد ذلك تولينا ترميم الأماكن المهدمة والثلم في أسوار مدينة عكا، ثم قمنا بعد هذا في سبيل رفع شأن القضية الصليبية، ومن أجل الوفاء بأهداف نذرنا، فزحفنا إلى يافا، بصحبة دوق بيرغندي مع أتباعه الفرنسيين، والكونت هنري وعساكره، وعدد كبير آخر من الكونتات والبارونات، هذا وتوجد منطقة شاسعة بين عكا ويافا، والطريق إلى هناك طويل، وبعد زحف

مـديد، مع كثير من التعرق والتعب، وصلنا إلى قيسـارية، وفقد صـلاح الدين أيضاً بعضـاً من أتباعه أثناء الزحف نفسه، وبعـدما استراح جيش الرب لبعض الـوقت في يافـا، استـأنفنا مجدداً زحفنا الموفق، وعنـدمـا تقدمت طلائع قواتنا وكانت تنصب المعسكر قرب أرسوف، قام صلاح الدين مع حشد كبير من المسلمين بـالهجوم على ساقـة قواتنا، إنما بفضل الرب أرغم على الفرار، وقد طارده جندنا لمسافة مرحلة، وأوقعوا مقتله كبيرة في ذلك اليـوم بين أعيـان المسلمين، وكـان اليـوم هو عشيـة عيـد القديسة مريم، وهناك في أرسوف عـانى صلاح الدين في يوم واحد مالم يعـاني من مثله خـلال أربعين سنة مضت، ووصلنـا بعـد هذا بعناية من الرب وإرشاد إلى يافا، وقويناها مع خنادقها وأسوارها، ذلك أن هدفنا، هو أننا إلى حيث نستطيع الـوصـول، العمل على رفعـة الشأن الصليبي، بقـدرما نمتلك من قـوة، وفي الحقيقـة، لم يتجرأ صـلاح الدين، منذ يوم الهزيمـة المتقـدم ذكـره أعـلاه، على الاقتراب من الصليبيين والاشتبـاك معهم، لكنه نصب بشكل سري كمائن لتدمير أصـدقاء الصليب، مثله في ذلك مثل أسد في عـرينه ينتظر الشاة المقـدر لها الذبح، وكان— على كل حـال— لدى سماعه بأننـا كنا زاحفين بسرعة نحـو عسقـلان، قد قـام بتـدميرها وتسويتهـا بالأرض، والآن بما أنه لم تعد لديه خطة، ولاقـدرة على التحـرك والتحرير، ترك سـورية كلهـا إلى قدرها، وهذا مـاشجعنا، وجعلنا نمتلك آمالاً جيـدة في أن نتمكن خلال وقت قصير من استرداد جميع ميراث ربنا— وداعاً ثم وداعاً».

كيف أعطى الملك رتشارد مملكة القدس إلى ابن أخته هنري

ولدى عـودة الملك رتشـارد إلى عكا، كما ذكـرنـا من قبل، أعطى ابن أختـه هنري، مملكة القدس، مع زوجـة مـركيز مـونتفرات، لأنها كـانت وريثة المملكة، بعد وفاة أختهـا ملكة القدس، ووافق على هذه الترتيبات برضـا غي أوف لوزغنان، الـذي كـان الملك المتقـدم لتلك المملكة، وفي

سبيل ضمان السلام تسلم هو جزيرة قبرص، التي كان انتزعها في الحرب الأخيرة الملك الانكليزي من ملك تلك الجزيرة، وقدم غي الولاء إلى الملك الانكليزي من أجلها، وكان المركيز قد قتل مؤخراً في صور من قبل الحشيشية المسلمين، وبوفاته قيل بأن مملكة القدس صارت بموجب حق الوراثة لزوجته.

كيف أنقذ الملك رتشارد جميع الآثار المقدسة للأرض المقدسة

كان صلاح الدين قبل مضي بعض الوقت قد أسر غي ملك القدس، واستولى على صليب ربنا، وإثر ذلك مباشرة ألقى الحصار على القدس، وكان السكان الذين بقيوا في المدينة، محبطين بما نزل بهم، ويائسين من القدرة على مقاومة صلاح الدين، لذلك قاموا على الفور بتسليم المدينة له، وهو لم يسمح لأحد منهم بالمغادرة، مالم يدفع عشرة دنانير فدية عن كل انسان، وتمكن الأغنياء على الفور من دفع الفدية عن أنفسهم، لكن سبعة آلاف رجل وجدوا في المدينة، كانوا لايمتلكون وسائل الدفع، وقام بقية سكان المدينة بالعطف عليهم وتأسفوا لسوء حظهم، واتفقوا بالاجماع على أخذ الصلبان الذهب والفضة والكؤوس، والتمائم، وجردوا ضريح ربنا من زينته، وأخذوا الحلي الأخرى التي وجدوها في الكنائس، وأنقذوا بذلك فقراء أبناء المدينة، وجمعوا أيضاً جميع آثار القديسين التي وجدوها في المزارات، ووضعوها في أربعة صناديق كبيرة من العاج، ولدى استسلام المدينة لصلاح الدين، كان من بين الأشياء التي رآها بعدما استولى عليها هذه الصناديق، وقد سأل باهتمام عما كانت تحتويه، ثم أمر بإرسالهم إلى بغداد، وأن تعطى الصناديق إلى الخليفة، حتى لايتمكن الصليبيون من متابعة الاعتزاز بعظام أناس أموات، وأن يتوقفوا عن الاعتقاد، بأن أصحاب العظام التي يعبدونها على الأرض سوف يشفعون لهم في السماء، لكن مقدم أنطاكية والبطريرك مع مؤمنين آخرين، كرهوا تماماً تشويه مثل هذه الذخائر

الثمينة، وفقدانها، فوعدوا، وأقسموا أنهم سوف يدفعون اثنين وخمسين ألف دينار، لانقاذ هذه الآثار نفسها، وأنهم إذا عجزوا عن دفع المبلغ المذكور، في موعد جرى الاتفاق عليه، سوف يتخلون عن الآثار المذكورة له ويعيدونها إليه، وأخذ مقدم أنطاكية الآثار وهي مختومة، وشعر الآن جميع أتباع المسيحية بحزن قاهر شديد، وباتوا خائفين، لأن موعد الدفع المثبت من قبل صلاح الدين قد اقترب حلوله، وبات على المقدم المتقدم ذكره الذي أخذ الآثار معه أن يعيدها مختومة كما تسلمها، إلى صلاح الدين، هذا وسمع رتشارد الملك الانكليزي بهذا، وكان آنذاك بالفوله، وعلم بأن جميع الأشياء قد رتبت بشكل صحيح، فأمر على الفور بدفع المبلغ المتفق عليه إلى صلاح الدين مقابل الآثار المقدسة، وحافظ بتقوى على تعهدات القديسين بأن الذين ينقذون عظام رجال الرب هؤلاء من الأيدي غير التقية على الأرض، سوف ينالون الشفاعة لعون أرواحهم في السماء، وكان كل صندوق كبير الحجم كثيراً وثقيلا جداً، إلى حد أنه تعذر على أربعة رجال حمله لأي مدة من الزمن.

اكتشاف آرثر الملك الأعظم شهرة في بريطانيا

وفي هذا العام نفسه، تمّ العثور على عظام آرثر، الملك المشهور لبريطانيا، وقد عثر عليها مدفونة في غلاستونبري في ناووس قديم جداً، قام إلى جانبه هرمين، وعليهما كان محفوراً كلمات، لكنها كانت غير مفهومة بسبب خشونتها، وانعدام شكلها، وكانت مناسبة العثور عليها كما يلي: كان بعض الناس يحفرون في المكان نفسه قبراً، لراهب تمنى أثناء حياته بشغف في أن يدفن هناك، فوجدوا نوعاً من أنواع النواويس، عليه موضوع صليب رصاصي، مع هذه الكلمات محفورة عليه:« هنا يرقد آرثر المشهور، ملك بريطانيا، وقد دفن في جزيرة أفالون Avalon، وكان المكان محاطاً من جميع جوانبه بسبخ، وكان يعرف من قبل باسم»

جـزيرة أفـالـون»، أي جـزيرة التفـاح، وفي هـذا الـعـام جـرى تكـريـس روبـرت، الـذي كـان راهـبـاً نظاميـا في كنـيسـة لنـكـولـن، وكـان ابنا لوليـم مفـوض الجيش في نورماندي وتمّ تكريسه في كـانـتربـري أسقفـاً لوينكسـتر، مـن قبل وليم، نائـب الكرسي الرسولي.

كيف أخذ الملك رتشارد تتولاه الشكوك تجاه المستشار

وأخـذت في هـذه الآونـة تتوارد الشكـاوى الجادة يومـاً تلو آخـر إلى الملك حـول عجـرفـة مستشـاره، وعن الأذى الذي ألحقـه بكثيرين، ولهذا كتب إلى نبـلاء انكلترا بما يلي:« نحـن رتشـارد ملك انكلترا، إلى مـارشـالنا وليم، وإلى غ. فتـزــ بطرس، وهـ. باردولف Bardolph، وو. بروير W.Bruyere، الخ، إذا صـدف، ولم يقم مستشـارنا الذي عـهدنا إليـه بـإدارة أمـور مملكتنـا، بالتصرف بإخـلاص في تنفيـذ واجباته، نأمـركم باتخاذ الاجراءات من أجل إداره شـؤون المملكة وفقاً لإخـلاصكم واستقـامتكـم، وذلك فيما يتعلق بمـواريث الـدولة والحصـون»، وقـدم في هذه الآونـة إلى انكلترا، وليم رئيس أسـاقفـة روان، حـامـلاً رسـائل من الملـك بهذا الخصـوص جـاء فيهـا:« نحن رتشـارد، بنعمـة الـرب، ملك انكلـترا، إلى وليم المارشـال، والآخـرين من نظرائـه، تحيات— اعـرفـوا أننا رأينا من المناسب، أن نرسل إليكم، من أجل الدفـاع عن مملكتنا وترتيب شؤونها، الأب المحبـوب من قبلنا، وليـم رئـيس أساقـفة روان، الذي استـدعي من حجه وعاد بمـوافقة من الحبر الأعظم، وبنـاء علـيه نحن نأمـركم، ونفـرض عليكم بدقـة، أن تقـومـوا أثنـاء إدارة شـؤوننـا، أن تأمـروا بكـل شـيء وفقـاً لنصيحـته، وإن إرادتـنا تقـضي، أنـنا مـادمـنا في حجنا، أن تتبـادلوا الآراء مع بعضـكم، في ترتيـب جميع الأمـورـ هـو معكم، وأنتم معه».

إهانة المستشار وسقوطه

في هذا العـام نفسـه، وفي يوم السبت التـالي لعيـد القـديس ميكائيل، وبناء على طلب من الإيـرل جـون، أخـو ملك انكلترا، اجتمـع النبـلاء الانكليـز قرب جسر لندن فيما بين ردنغ وونـدسـور، لعقـد مؤتمر حـول المسـائل الهامة بالنسبـة للملك وللملكة، وفي اليـوم التـالي للمؤتمر، قـام رئيس أسـاقفـة روان، وكذلـك رئيس أساقفـة يورك، وجميع الأسـاقفـة الذين اجتمعـوا في ردنغ، ليكونـوا حضـوراً في المؤتمر، قـامـوا بشكل مهيب، ومع شمـوع مشتعلة، بانزال عقـوبة الحرمـان الكنسي بجميع الذين أشـاروا، أو سـاعـدوا، أو أمروا بالإبعـاد عن الكنيسة، وبالمعـاملة السيئة والسجن لرئيس أساقفة يورك، وذكروا بشكل خاص اسم ألبرت دي مـارلين، والاسكندر بونتيل Puintil، وفي يوم الاثنين التـالي، عـرف الايرل المتقـدم ذكره، بأن المستشـار يخشى من هجـوم منه عليـه، فاقترح عليه، ليزيل من نفسـه جميع الشكوك، القدوم إلى مؤتمر في مكان قرب قلعة وندسـور، وذلك بناء على طلب المستشار، وأعطاه ضمانة على سلامتـه من قبل أسقف لنـدن، وعلى كل حـال لم يقتنع المستشـار بهذه الضمانة، فهرب على الفـور، والتجأ إلى برج لندن، ولدى معـرفة الايرل بفرار المستشار، جاء شخصياً إلى لندن، وعندما كان على وشك الدخول إلى المدينة، قـابلته مجمـوعة من فـرسان المستشـار، بسيوف مجردة، وقـام هؤلاء الفرسان بهجوم عليه وعلى أتباعه، وقتلوا واحداً من النبلاء اسمه روجر دي بلين Planes ، وفي اليوم التـالي الذي كان يوم الثـلاثاء، اجتمع الايرل جـون مع رئيسي الأسـاقفـة، والأسـاقفـة، والفـرسـان، والبـارونات، في بيت هيئـة كهنة كنيسـة القـديس بولـص، وكـان ذلك بحضـور المستشـار، وبعـد نقـاش طويل، أقسمـوا على الولاء للملك رتشارد، وكان الإيرل جون أول من أدى اليمين، وتبعه رئيسا الأساقفة، وجميع الأساقفـة، والفرسان والبـارونات، الذين كانوا في الاجتماع، وفي

يوم الخميس التـالي لهذا الاجتماع، جرى عقـد مؤتمر آخـر، في الجزء الشرقي من برج لندن، حضره النبلاء الذين تقـدم ذكـرهم، وفيه تقـرر بشكل حاسم بالاجماع، وجوب عدم وضع مملكة انكلترا مرة ثانية تحت حكم رجل واحـد، سببت إدارته انحطاط الكنيسـة، وإنزال الناس إلى درجـة الحاجة والعوز، لأن المستشار المذكـور وأعوانه قـد أنهكوا جميع ثروات المملكة، إلى حد أنهم لم يتركوا لانسان حزامه الفضي، ولا لامرأة طوقهـا، ولالنبيل خاتماً، أو مـالاً، أو أي شيء له قيمـة عند يهودي، كما أنهم أفرغـوا خزائنهـا، إلى حد أنه بعـد مرور عامين، مـامن شيء يمكن العثور عليـه في صناديقهـا، غير المفاتيح وأواني فـارغة، وتقـرر أيضاً أن جميع الحصـون التي قـرر المستشـار اسنادها إلى اتبـاعـه، يتـوجب عليـه التخلي عنها وإعادتها، وفي المقـام الأول برج لندن، ولقد أقسم المستشار على التقيد بهذه القـرارات، وتطبيقاً لهذا قـام يوم الثلاثاء التـالي بمغادرة البرج مـع آلـه وحـاشيتـه، وعبـر نهـر التيمـز إلـى بيـرمـوندسـي Bermondsey، تاركاً أخـويه: هنري، وأوسبرت Osbert ، بمثابة ضمانة لإعـادة القلاع، لأنه أقسم على أنه لن يغـادر المملكة، حتى يكون قـد تم التخلي عـن القـلاع وتسليمهـا، ثم إنه ذهب مـن هناك إلى كـانتربري، وحمل صليب الحج المقـدس، متخليـاً عن وظيفـة النائب البابوي، التي شغلهـا لمدة سنة ونصف السنة، بعد مـوت البابا كليمنت، من أجل الإضرار بالكنيسـة الرومـانيـة، وكذلك بالكنيسـة الانكليـزية، وبعـد فعله هذا ذهب إلى دوفر برفقـة غيلبرت أسقف روكستر، وهنري دي كورنهل Cornhill ، وعمدة كنت، وظن أن بإمكانه اغلاق أعين البحـارة هناك، فـاقترح نوعـاً جـديـداً من الخداع، فقـد غير الرجل إلى امرأة، مثلما غيّر رداء الكاهن واستبدله بثـوب عاهرة، حيث ألبس نفسه بثـوب امـرأة لونه أخضر، مع رداء من اللون نفسـه ووضع قبعـة على رأسه، وذهب نحو الشاطىء يحمل بعـض الأقمشة الكتانية كأنها للبيع، وعندمـا كـان الكاهن جـالسـاً على هذه الصـورة على صخـرة قـرب

الشـاطيء، منتظراً ريحاً طيبة، كـان هناك ملاح أراد أن يمـزح مع المرأة، فاندهش لرؤيتـه سراويل على امـرأة، فـصرخ على الفور بصـوت مرتفع قـائـلاً:« تعـالوا إلى هنا، جميعكـم، تعـالـوا إلى هنا وشـاهـدوا رجـلاً بثيـاب امـرأة»، وتجمـع عـدد من النسـاء من أهـل البطالة، وسألن بإلحاح عن سعر القماش الذي حمله للبيع، فلم يجبهن، وكأنه كان لايفهم اللغـة الانكليـزية، وبناء عليـه تشـاورن فيما بينهن، وتوجسن أن يكون محتـالاً، لذلك وضعـن أيديهن على حجـابه الذي غطى فمـه، وجـذبنه ونزعنه من على أنفـه وسحبنه نحو الخلف، فـاكتشفـن ملامـح رجل، داكن، وقـد حلق مـؤخـراً، فصرخن على الفـور إلى بعضهـن بعضـاً قـائـلات:« أقـدمن، ودعـونا نرجـم هذا الوحش الذي أسـاء إلى كـلا الجنسين»، واحتشد هناك وتجمع حشد من النسـاء والرجـال، فانتـزعـوا قبعته من على رأسـه، وبطحوه أرضـاً وسحلوه بشكل مهين وجروه من أكمامه ومن ردائـه، فـوق الرمـال والحجـارة، مسببـين الجراحة الكثيرة لهذا الأسقف، وبعـد أمـد جـاء أتبـاعـه لتخليصـه، لكن من دون نجاح، لأن النـاس لحقـوه برغبة جامحة، وشتمـوه، وهاجموه بالضربات، وبصقـوا عليه، وبعـدما سحلـوه في الشوارع، ألقـوه في الزنزانة سجيناً، وبذلك بات هدفـاً لسخرية الناس، وكان من المتمنى أنـه لو أهان نفسه فقط، ولم يهن الكهنوت كلـه، وهذا الذي تولى سحل رئيـس أسـاقفـة يورك وأودعـه السجن، هو الآن قد جـرى سحله وايداعـه في السجن، وصار المعتقل الآن معتقلاً، والمقيـد الآن مقيداً، والسجان سجيناً، وبناء عليـه يمكن عدّ درجـة العقوبة التي نـالها متساوقـة مع درجة عـدوانه، وأخيرا، لم يعط تقدير للرهائن التي أودعهـا، وأقسم أنه لن يغادر مملكة انكلترا قبل أن يجري تسليـم القـلاع، ولدى الفـراغ مـن ذلك، عبر المستشـار المذكور البحـر إلى نورماندي في التـاسع والعشرين من تشرين الأول.

-٦٠٩٧-

حادثة لم يسمع بمثلها

وفي هذا العـام نفسه، كـان شاب من حـاشية أسقف لندن، قـد علّم صقـراً على اصطيـاد البط النهـري الصغير فقط، وكـان البط يطير فجأة ويهرب لدى سماع أصوات نقرات أداة اسمها الطبلة، كان يضرب عليها الذين سكنوا على شـاطىء النهر، ولدى طيران البطات اعترض الصقـر غنيمتـه، ثم اندفع نحـو سمكة كراكي كـانت تسبح في الماء، وأمسكهـا، وحملها بشكل مرئي لمسافة أربعين قدما فوق اليابسة، واندهش الأسقف تجاه هذا الحادث الفريـد، وأرسل الصقر والسمكة، كمـؤشر غريب على مستقبل الأيام، إلى الايرل جـون، وكــان ذلك في الثـاني والعشرين من تشرين الأول.

موت رينالد رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري

عـام ١١٩٢م، فيـه مـات رينالد أسقف باث، الذي انتخب لرئـاسـة الأساقفة من قبل رهبـان كانتربري، وكان موته في يوم عيـد الميلاد، بعد تسعـة وعشرين يومـاً من تعيينـه، وقـد دفن في كنيستـه في باث، قـرب المذبح الكبير.

وصول الملك الفرنسي إلى باريس قادماً من حجه

وعاد في هذه الآونة الملك الفرنسي مـن حجه، وقد استقبل في باريس بمسيرة مهيبة، في السابع والعشرين من كانون الأول.

الاستيلاء على الدارون من قبل الملك رتشارد

وبعـد عيـد الفصح من هـذا العـام نفسـه، وصل الملك رتشـارد إلى الدارون، وهي الحصن الأخير للصليبيين مما يلي مصر، وبعـدمـا حـاصر البلدة لخمسـة أيام استولى عليهـا، وترك الحاميـة تغـادر، بعد دفع فـدية كبيرة.

كيف استولى الملك رتشارد على سبعة آلاف جمل محملة بالثروات

وبعد هذا النصر جاء دوق بيرغندي مع العساكر الفرنسية التي كانت لديه، واقتادها بموجب تفويض من الملك الفرنسي، الذي عينه قائداً، ورئيسا أعلى لها، والتحق بالملك رتشارد، وأعطى الملك رتشارد إلى هذا الدوق، أثناء العيد المنصرم مبلغ ثلاثين ألف دينار، على شرط أن يقف إلى جانبه باخلاص في الحرب ضد أعداء المسيح، وفي أثناء مؤتمر بينهما قررا الذهاب إلى القدس من دون توقف، وعندما وصل الملك رتشارد إلى قلعة النطرون، وبيت نوبه قرب عمواس، قدم إليه بعض البدو، وكانوا خاضعين إلى اتفاق مع الملك بأن يجلبوا له الأخبار، فأوصلوا إليه أخباراً بأن جماعة كبيرة من التجار، كانوا على طريقهم من مصر إلى القدس، مع سبعة آلاف جمل محملة بالتجارات من مختلف الأنواع، وأن هذه الجماعة تحت حراسة بعض من أشجع نخبة قوات صلاح الدين، وجيشه، وزحف الملك مع عدد صغير من الجند، لاعتراض هذه الجماعة، وعند الصهريج الأحمر فاجأها كلها، وأخذ الجمال مع أثقالها، ثم قام بسخاء بتوزيع ماناله على جيشه، وعاد بعد ذلك إلى المعسكر الأنف الذكر، وبحكمة شحن كل مدينة وقلعة بالقوات،] وجاء في هذه الآونة دوق النمسا للوفاء بنذره بالحج، بوساطة الخدمة في الجيش الصليبي، ولكي يتعبد في الأماكن التي سار عليها مخلصنا، وعندما تدبر مارشاله مقراً له لسكناه، وقام بالترتيبات اللازمة، جاء مسرعاً فارس نورماندي من حاشية الملك رتشارد، وشرع بحماقة يتبجح، وفق طرائق ذلك الشعب وعاداته، بأنه يمتلك أعظم الحقوق في تلك الأماكن، وأنها قد عينت له بحكم كونه القادم الأول، وثار خصام، ووصلت الضجة إلى مسامع الملك، الذي أظهر نفسه أنه مؤيد للنورماندي، واشتعل غضباً ضد رجال الدوق، ولم يأخذ بما حثّه عليه الرب، بالذهاب ورؤية كيف كانت الأمور تسير، بل أصدر الأوامر بتسرع ومن دون روية

بإنزال علم الدوق، الذي نصب فوق مقراته، ويرميه في الخندق، وبذلك حرم الدوق من مسكنه، فذهب وسط سخرية النورمان وإهاناتهم ليتشكى إلى الملك، لكنه لم يحصل على شيء، سوى السخرية مما زاد من آلامه، وهكذا لدى استخفاف الملك به، توجه وهو يبكي بالدعاء إلى ملك الملوك لأن ينتقم له مما لحقه من أذى، وذلك وفقاً لما كتب:« الانتقام لي، هكذا قال الرب، وأنا الذي أسدد»، وإثر هذا مالبث أن عاد الدوق إلى بلاده وهو مضطرب، وفيما بعد خجل الملك رتشارد من هذه الفعلة خجلاً عظيماً].

حول احدى النساء التي كانت صديقة للصليبيين وبشكل خاص للملك رتشارد

وعاد الملك رتشارد منتصراً مع جميع أسلابه إلى قلعة النطرون، التي تبعد ثلاثة أميال عن القدس، وحث بإلحاح كل واحد من المقدمين على الزحف، وإلقاء الحصار على القدس، طالما أنهم يمتلكون تلك الوفرة من كل شيء، أي من العتاد والمؤن، والدواب للحمولة، وذكرهم بالمنافع التي سوف تضفى عليهم في حجهم من قبل الرحمة اللاهوتية، علاوة على ذلك، كان الملك قد تشجع إلى أبعد الدرجات، من قبل امرأة متدينة، وكانت سورية من حيث البلد، وكانت قد سكنت في مدينة القدس، فقد أوصلت هذه المرأة إليه جميع أسرار المدينة، وكيف أن المسلمين كانوا مرعوبين، ومن دون معنويات، بسبب قرب وصوله، وأخبرته أيضاً أن جميع أبواب المدينة كانت مغلقة باستثناء باب اسطفان في الجانب الشمالي من المدينة، وقد نصحته أن يمركز قوات جيشه إلى جانب هذا الباب، كما أرسلت له مفتاحاً يمكن بوساطته فتح الأبواب، وعلى كل حال، إنه بعدما تقرر من قبل الجميع إلقاء الحصار على القدس، تشاور دوق بيرغندي مع الداوية والمقدمين الفرنسيين، فأقنع بنقض قراره، فقد أكدوا أن الدوق مع جميع الفرنسيين سوف يجنون

غضب الملك الفـرنسي الأعظم شـدة، إذا مـاتمكن الملك رتشـارد من الاستيلاء على مثل هذه المدينة العظيمة والواسعـة الشهرة، وما من شيء من فضل وسمعة ذلك، سوف يعزى إلى الدوق نفسه أو إلى الفرنسيين، مـع أنـه بمسـاعـدتهـم جـرى الاستـيلاء عـلى مثـل هـذه المدينة العظيمة.

كيف جرت رشوة دوق بيرغندي من قبل صلاح الدين ومغادرته للأرض المقدسة

وجـرى في الوقـت نفسـه إرسـال رسل من قبـل الدوق إلى صـلاح الدين، لكن لأية غـاية، ماضي الأحـداث ومستقبلها سـوف يري ذلك، ففي إحـدى الليـالي، عندمـا كـان الملك الانكليـزي مقيماً أمـام المعسكر المذكـور، وكـان الدوق مع أتبـاعـه في بيت نوبة، سمع جـاسـوس تابع للملك رتشارد اسمه جوموس Jumaus ، أصوات جمال ورجال وهم يتحـركـون نازلين من الجبل، فتبعهم خلسـة، فوجـد أنهم قـوم أرسلهم صـلاح الدين إلى معسكـر الدوق، مع خمسـة جمال محملين بالـذهب والفضة والسلع التجـارية، وأقمشة حريـرية وهدايا أخرى كثيرة، وبادر الجاسوس عائداً بسرعـة إلى سيده وأخبره بجميع هذه الأوضاع ثم أخذ بعضـاً من خـدم الملك، وجلس بشكل حـذر على الطريق الذي سـوف يعـود عليه الرسل، وكمن بانتظـارهم، وعندما كـانوا عـائدين أخـذهم أسرى، وجلبهم إلى حضرة الملك، وقام أحدهم بعدما تعرض للتعذيب، بالاعتراف— وهـو مكره— بأنـه تنقّل فيما بين الدوق وبين صـلاح الدين، وفي النهار أمـر الملك، بعدما أبعـد الرسل عن المشاهدة، بالبعث خلف الدوق، والبطريرك، ورئيس رهبان بيت لحم، وعندمـا صاروا مع بعضهم في مكان منعـزل، أدى على الفور قسماً بحضـورهم على الآثار المقدسة، بأنه جاهز مستعد، كما تم الاتفاق بينهم، ثم أكد ذلك باليمين، وقـال بأنـه هو وجيشـه على استعـداد للزحف للهجـوم على القـدس،

ومـدينة باروخ، التي من دون الاستيـلاء عليهـا من غير الممكن تتـويج ملك القـدس، وبعـدمـا أقسم الملك على هذه الصـورة، دعـا الدوق أن يقسم من أجـل الغـرض نفســه، وهذا مــارفض الـدوق أن يفعله، مما أغضب الملك كثيراً، ودعــاه على الفـور باسـم خـائن، ولامــه لتسلمـه مختلف الهدايـا من صـــلاح الديـن، وكـــذلك بشأن الـرسل السريين، والاتصالات التي قـامت بينهما، وأنكر الدوق وبذل جهده للـدفاع عن نفسه ضد هذه الاتهامـات، فأمر الملك بالرسل الذي اعتقلهم الجاسوس فأحضروا، وأباحوا جميع أسرار الاتصـالات، وأمر الملك خـدمه برميهم على مـرأى من الجيش كله، مع أن الجيشين كـانا جـاهلين أسبـاب هذه الوحشية، ولم يعرفوا مـاالذي فعلوه، أو من أين أتوا، أما بالنسبة للدوق فقـد استـولى عليه الخجـل، وغضب لأنه تبرهن أنه خـائن، لذلك بادر بأقصى سرعـة ممكنة بالمغـادرة مع الجيش الفـرنسي، وانطلق نحـو عكا، وكان الملك مدركاً لنواياه وعارفاً بها، فأرسل رسالة إلى قادة تلك المدينة بعدم السماح لأي رجل بالدخول إليها، ولذلك أقاموا معسكرهم خارج المكان.

حول ناسك تنبأ بأن مدينة القدس لن يتم اخضاعها

وفي الليلة التي تلت مغادرة الدوق على هـذه الصورة التي وصفناها، جاء إلى الملك أحد المريدين، وجلب إليـه رسالة من ناسك مقدس، بأن يأتي مسرعاً لرؤيتـه، ونهض الملك على الفور، ومع أن الوقت كـان ليلاً، ذهب نحـو رجل الرب، آخـذاً معـه خمسمائـة من الحرس، ولقـد عـاش رجل الرب هذا منذ وقت طـويل على جبل القـديس صمـوئيل، وكـان محبيا بروح التنبـؤ، فمن يوم الاستيلاء على صليب ربنا، وأخـذ الأماكن المقدسة، هو لم يأكل شيئاً سـوى الأعشاب، ولم يلبس شيئاً يغطيه سوى شعــر لحيتــه الطـويل، وحـــدق الملك لبعـض الوقت بالنـاسك، وهو مندهش، ثم سأله مـاالـذي يريده منه، وفـرح الرجل المقـدس بوصـول

الملك، وأخـذه معـه إلى داخل خلـوته، وأزاح هناك حجـرة من الجدار، وسحب من هناك صليبـاً خشبيـا، وأمسكه بكل خشـوع أمـام الملك، وأوضح بأن هـذا الصليب، مصنوع من دون شك مـن خشبـة صليب ربنا، وبين أشيـاء كثيرة، أخبر الملك، بـأنه لن يتمكن بأيـة طريقـة من الطرق في الوقت الحالي، من الاستيـلاء على تلـك المنطقـة، مع أنه عمل بدأب شديد، ولكي يجعل الملك أكثر استعـداداً لتصديقه، أوضح له بأنه هو نفسـه سوف يغـادر هذه الحيـاة في اليوم السـابع من ذلك التـاريخ، ولكي يتمكن الملك مـن الوقـوف على برهان على صحـة كلماته، أخـذ الناسك معـه إلى المعسكر، وحـدث أنه كما قـال سلفاً، فمات في اليـوم السابع.

الموت التعيس لدوق بيرغندي

وفي اليـوم التالي لـوقوع هذه الأحـداث، نقل الملك معسكره، وسـار عـائـداً على طريق دوق بيرغندي ونصب معسكره على مقـربة من ذلك المقدم، خارج مدينة عكا، غير أنه ماكاد يرتاح مع جيشه لمدة ثلاثة أيام، حتى وصله انذار على يد بعض الرسل، الذين بعثوا من يافـا مع أخبار، بأن صـلاح الدين، ومعه جيشـه كله قد ألقى الحصـار على تلك المدينة، وقـالوا بأنه لن يلبث أن يستـولي عليها، وأن يقتل الفـرسـان والعساكـر المعسكرين فيهـا، مالم يحمل على الفـور المساعدة إلى المحـاصرين، ولدى تلقي هذه الأخبـار انزعج الجيش الصليبي كله انزعـاجـاً كبيراً وحـزن، وكـان بين الآخـرين الملك رتشـارد في حـالـة قلق عظيم، وبذل جهـده وجهود الآخرين لإعادة دوق بيرغندي الغـاضب لعقد اتفاق وتصالح، ورجاه بالحاح ليقـدم له مساعدته للحيلولة دون وقـوع مثل هذه المأساة الكبيرة، وعلى كل حـال تمنع ذلك المقـدم عن الإصغـاء إلى وسـاطتهم، ولأنه لم يرغب أن ينزعج بمطالبهم، انطلق مع أتباعه نحو مدينة صور، إنما فـور وصـوله إلى هناك حلت به مصيبـة من الرب، وأصبح مجنوناً،

وأنهى حياته بموت تعيس.

كيف أرغم الملك رتشارد صلاح الدين على رفع الحصار عن يافا

بعد وفاة دوق بيرغندي، أقلع الملك رتشارد على ظهر سفن حربية، مع قوة صغيرة، وأسرع نحو يافا لتقديم المساعدة إلى المحاصرين، لكن بسبب عنف الرياح وشدة هيجان البحر دفعت سفنه بشكل معاكس نحو قبرص، ولدى رؤية سكان عكا ذلك خيل إليهم أنه كان عائداً إلى وطنه، لكن الملك شق طريقه على الرغم من شدة الرياح، بوساطة التجذيف القوي، وعند انبلاج الفجر في اليوم الثالث وصلوا إلى يافا، لكن ثلاثة سفن فقط، وحدث في الوقت نفسه أن تمكن صلاح الدين، بعد حملات متوالية، من الاستيلاء على المدينة، وقتل جميع العساكر المعاقين والجرحى، وهم الذين بقيوا هناك بسبب ضعفهم، غير أن خمسة منهم، وكانوا أشجع من البقية، وكان رتشارد قد تركهم مسؤولين عن المدينة، تركوا الآن المدينة، وحملوا أنفسهم إلى القلعة، حيث وجدوا الناس هناك يتناقشون حول تسليم القلعة قبل إرغامهم على فعل ذلك بهجمات الأعداء، وكانوا عَلى وشك فعل ذلك، لولا أن تمّ توجيههم من قبل البطريرك، الذي مُنح أماناً للتنقل بين الجيشين، ذلك أن جند جيش صلاح الدين، كانوا يريدون الانتقام لموت رفاقهم وأقربائهم، الذين أعدمهم الملك رتشارد بلا رحمة في أماكن كثيرة، وقد أقسموا على قتلهم جميعاً، وذلك دون مراعاة لمنح صلاح الدين لهم ممراً آمنا، وأمانا بالمغادرة، وعلى هذا كانوا في خطر عظيم بمواجهة الموت، وكانوا في ريبة حول مايمكنهم فعله، مقدرين عدد أعدائهم وشدتهم، وكان عدد الموجودين هناك قليلاً، كما أنهم كانوا غير واثقين من قدوم الملك لمساعدتهم، وعندما— على كل حال— علموا بوصول الملك، أصبحوا أكثر جرأة ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وعلم الملك من القتال الشديد بين كل من من المهاجمين والمحاصرين، بأن قلعة المدينة لم تسقط بعد،

فقفز بـرشاقة إلى البحـر، وهو مسلح، وألقى بنفسـه ومعه أتباعـه، مثل أسـود غاضبـة، بين أكثف مكان لعسـاكـر الأعداء، وشرعـوا بتقطيعهم واسقاطهم من على اليمين واليسـار، ولم يستطع الترك تحمل هذا الهجوم المفـاجـيء، واعتقـدوا بأنه جلب معــه جيشـاً أكبر عــدداً، فتخلوا عن الحصـار فوراً، وحثـوا الآخريـن على الفرار، وأعلنوا عن الوصـول غير المتـوقع للملك، وكان رعبهم أثنـاء ذلك الفرار من غير الممكن كبحـه، حتى أنهم دخلوا مدينـة الرملة، وقاد صلاح الدين فـرارهم طوال ذلك الوقت وهو في عربته، وبعدمـا ألحق الملك رتشارد هذه الهزيمة بالأعداء نصب معسكره خارج المدينة، وذلك للسرور غير المتوقع للمحاصرين.

كيف هزم الملك رتشارد مع قوة صغيرة اثنين وستين ألفاً من المسلمين عند يافا

وبعـد يوم فراره، أخبر صـلاح الدين، بأن الملك قـد جـاء مع جيش صغير فقط، وأن الذي لديـه ليس أكثـر من ثمانين فـارسـاً، إلى جـانب أربعمائة من رماة الزنبورك كـانوا برفقته، ولدى سماع صلاح الدين بهذا غضب غضبـاً عظيماً من رجال جيشـه، لأنهم كـانوا آلافاً مـؤلفة، وقـد هزموا من قبل مثل هذا العدد الصغير، وبناء عليـه، قام لإزعاج جيشه، باستعراضه هناك وتعداده، وأصدر أوامره الامبراطورية، بوجوب عودة اثنين وستين ألفاً منهـم فوراً إلى يافـا، وأسر الملك نفسه، وجلبـه حياً في اليـوم التالي إلى حضرتـه، وكان الملك هنري وجيشـه مـرتاحين في تلك الليلة بأمان، ولايخشـون أي هجوم مفـاجـيء، وعند انبلاج الفجـر جاء الجيش المسلم كله، وطوق بشكل كامل معسكر الملك، بشكل أن رجال الملك لم تعـد تتوفـر لديهم فرصـة بالفرار إلى المدينة، فقـد تمركزت قـوة كبيرة جـداً بينهـا وبين معسكـر الملك، واستيقظ الملك وجميع قـواته الصليبيـة بسبب ضجيجهم وأصواتهم، واعترتهم الدهشـة لدى رؤيتهم لأنفسهم وقد جرى تطويقهم من كل جانب من قبل أعداء الصليب.

وأدرك الملك على كل حـال مـدى الخطر الكبير، فقام على الفـور بتسليح نفسه، وركب ظهـر حصانه وكأنه يطير بجناحين، وطرح جـانبا كل الخوف من الموت، وكأنه قـد تشجع بعـدد الأعـداء، وبث الحماس بصوته بين رجاله للقيـام بالمنازله، وقام هو مع أحد عشر فـارساً، كانوا وحـدهم، من بقية الأعـداد قـد امتطوا خيولهم، بشق طريق بجـرأة بين صفوف الأعداء، فبسيفـه المجرد، ورمحه المسدد، وجه ضربـات صاعقة، وقرع بسيفه على رؤوس أعدائه المغطاة بالخوذ، فحرر الخيول العربية من أصحـابها الذين امتطوا ظهورها، ووزع هذه الخيـول بين فرسـانه الذين كـانوا يسيرون على أقـدامهم، فقـام هؤلاء بـامتطاء ظهـورها برشـاقـة، وبوسـاطة الملك الذي قاد دومـاً الطريق وكان على رأس أتبـاعه، فـرقوا عساكر الأعداء من على جميع الأطراف، وقتلوا من دون رحمة كل الذين اعترضـــوا سبيلهـم، وصرخ المسلمـــون الذين سقطـوا تحت ضربات أعدائهم بأصوات مرعبة، وأسلموا أرواحهم إلى الجحيم، وتولى في هذه المعركة رماة الزنبورك زمـام الأمور، وتصرفوا بشكل استحقوا به الثناء، وذلك بسبـب شجـــاعتهم التي لامثيل لها، ولاسيما بصـــدهـم لحملة الأعـداء، وإذلالهم لجرأتهم، ولقد أشعت شجـاعـة الملك كثيراً، في هذه المعـركـة، وكـذلك بالقـدر نفســه أشعت مقـدرة رجـاله وشجـاعتهم، فـالآلاف المؤلفـة من الأعـداء التـي أرغمـوها على الفـرار، تبـدو أمـراً لايمكن تصـديقـه، لولا وجـود يد ربانيـة قـد تـولت حمايتهم، لأنه من يمكنه أن يصدق أن ثمانين فارساً، كـان يمكنهم هكذا التعامل بغلبة مع اثنين وستين ألفاً من الرجال والقتال معهم طوال النهار، وأمكنهم تحمل زخـات من رشقـات نبـالهم، وضربات حـرابهم، وذلك من دون أن يتراجعـوا عن مواقعهم الأولى، ولو لمسـافة قـدم واحد، لابل أكثـر من ذلك تمكنهم مـن تمزيق صفـوف أعـــدائهم وتفـــريقهم في كل اتجاه، وإرغامهـم على الفرار، وقطعاً مـاكان لهم نيل هـذا النصر المفرح، وغير المنتظر منهم، لولا أنهم اعتمـدوا على عـون الرب، واعتقدوا أنهم كـانوا

تحت حماية السماء، وبعد أمد رأت شحنة يافا الشجاعة المنتصرة للملك ولأتباعه، فقام أفرادها بالإغارة بشكل مفاجىء على ساقة الأعداء، وانقضوا عليها، وبحملات متوالية من جانبهم، مع حملات الملك، أدار المسلمون ظهورهم، وهربوا بشكل فوضوي، مع خسائر كثيرة، ولجأوا إلى الآجام والكهوف لصيانة أنفسهم.

كيف وصل الجيش الصليبي لمساعدة الملك رتشارد

ووصلت في الوقت نفسه أخبار إلى رجال الجيش الذي كان الملك قد تركه في عكا، بأنه كان محاصراً من جميع الجهات في يافا، من قبل الأعداء، وأنه كان في خطر عظيم، مالم يذهبوا بكل سرعة للتفريج عنه، وألقت هذه الأخبار الرعب والكآبة في قلوب الجميع، وفكروا جميعاً بالفرار، لكن رجال الشطر الأكثر شجاعة في الجيش اجتمعوا للتداول حول فرص أن يكونوا قادرين على تقديم العون إلى الملك، ولذلك زحفوا باتفاق من الجميع إلى قيسارية، ولم يتجرأوا على التقدم مسافة أبعد خوفاً من العدو، وقد علموا هناك بالنصر غير المتوقع للملك، فغلبهم الفرح، وقدموا الشكر للرب لأنه الحافظ لهم جميعاً، ووقعت هذه المعركة أيام عيد القديس بطرس في الأغلال.

كيف قرر الملك رتشارد العودة إلى الوطن

وبعد هذا النصر الذي لانظير له، بقي الملك سبعة أسابيع في يافا، كان خلالها مريضاً مرضاً شديداً، سببه الأجواء غير الصحية، فقد حمل المرض عليه وعلى أتباعه بهجوم مدمر، وقد هلك جميع الذين أصيبوا بهذا المرض، باستثناء الملك، الذي حفظ بصحته من قبل العناية الربانية، علاوة على ذلك اكتشف الملك في تلك الآونة أن أمواله قد أصبحت قليلة جداً، بسبب العطايا الكبيرة التي وزعها باسراف بين جنوده، ووجد أن الجيش الفرنسي والآخرين الذين احتفظ بهم، بعد وفاة دوق

بيرغندي، مقابل نفقات عالية، كانوا الآن قلقين راغبين في تركه، وكذلك وجد جيشه يتناقص بالعدد، بوساطة المرض المميت، والصراعات مع الأعداء، الذين كانت أعدادهم تتزايد يوميا، ولذلك عقد مشاورات مع الداوية والاسبتارية، والمقدمين الذين كانوا معه، وأعدّ العدة للعودة إلى الوطن على الفور، مقيداً نفسه باليمين بالعودة لحصار المدينة المقدسة، فور تمكنه من تقوية جيشه، وتزويد نفسه بالمال، وبالإضافة إلى الأسباب المتقدمة من أجل مغادرته، كان السبب الأعظم ثقلاً وتأثيراً عليه، هو ماعلمه من أن أخاه جون كان يتآمر لوضع انكلترا تحت سيادته، وقد برهنت النتيجة أنه قد رغب بفعل ذلك، وبما أنه كان واضحاً أن مغادرة مثل هذا الجيش الكبير مع أمير مثل رتشارد، لايمكن إلاّ أن تعرض الذين سيبقون هناك إلى خطر عظيم، وفقدان المنطقة التي أخضعوها ، ولذلك تمت الموافقة— بناء على طلب الجيشين ومشورتهما— على عقد هدنة بين الصليبيين والمسلمين لمدة ثلاثة أعوام، تبدأ من يوم الفصح المقبل.

كيف عاد الملك رتشارد من حجه

وبناء عليه، عندما صارت سفنه في فصل الخريف جاهزة، وجميع ترتيباته قد اكتملت، أقلع الملك رتشارد مع ملكته، وأخته جوانا، ملكة صقلية ونبلائه، لعبور البحر المتوسط، وأثناء سفرهم ثارت عواصف غير معتادة، وعانوا من كثير من المصاعب في الوصول إلى اليابسه، وعاني بعضهم من جنوح سفنهم، ونجا بعضهم بعدما جنحت سفنهم، إلى الشاطىء، عراة تقريباً، مع فقدانهم لمقتنياتهم، وقليل منهم هم الذين وصلوا إلى المرسى المنشود آمنين، ووجد— على كل حال— الذين نجو من المخاطر في البحر، في كل مكان أنفسهم يتعرضون للهجوم من قبل الأعداء على الشواطىء، وقد أُسروا من قبلهم، وسُلبوا، وأرغم بعضهم على دفع فدية ثقيلة، ولم يكن هناك مكان يلجأون إليه، وكأن البر

والبحر قد تآمرا ضد الصليبيين العائدين، ومن هذا هناك برهان كاف، بأن مغادرتهم قبل انجاز هدف حجهم، لم يكن مرضياً بأي شكل من الأشكال للرب، الذي كان قد قرر بعد وقت قصير إغنائهم في تلك البلاد، بجلب أعدائهم وجعلهم خاضعتين لهم، وبمنحهم الأرض التي قاموا في سبيلها بذلك الحج المرهق، وبعد أمد قصير من غيابهم، أنهى صلاح الدين ذلك الغازي للأرض المقدسة، حياته الشريرة أثناء الصوم الكبير التالي، بموت تعيس ، ولقد قالوا بأنه لو كان حياً في تلك الأثناء، لتمكن بسهولة من الاستيلاء على الأرض المقدسة، لأن أبناء وأقرباء صلاح الدين نفسه اختلفوا فيما بينهم أنفسهم، وتصارعوا من أجل ملك أبيهم.

كيف نجا الملك المذكور من كثير من الكمائن التي نصبت له من قبل أعدائه

وبعدما تعرض الملك رتشارد مع بعض من أتباعه لزوابع شديدة لمدة ستة أسابيع، اقتربوا من سواحل المغرب، أي كانوا على بعد مسافة ابحار ثلاثة أيام من مرسيليا، حيث علم من تقارير متواترة بأن كونت سانت جايل وجميع الأمراء الآخرين، الذين كان سيسافر من خلال أراضيهم، كانوا بالاجماع يتآمرون ضده، ونصبوا في كل مكان الكمائن له، ولذلك رتب بشكل سري أن يعود عن طريق ألمانيا، وبناء عليه انطلق عائداً مع قليل من أتباعه، الذين كان من بينهم بلدوين أوف بيثيون Bethune، والمعلم فيليب، وكاهنه، وأنسلم شماسه[الذي رأى وسمع بهذه الأشياء، وأخبرنا بها]، وبعض رهبان الداوية، ونزلت هذه الجماعة في بلدة في سلافونيا اسمها غزارا Gazara، وأرسلوا من هناك على الفور رسولاً إلى أقرب قلعة يسألون السلام، ويطلبون أمانا من صاحب تلك المنطقة، الذي كان حفيداً للمركيز، وكان الملك رتشارد قد اشترى أثناء عودته من تاجر بيزي ثلاث جواهر من النوع الذي يعرف

باسم الياقوت، مقابل تسعمائة دينـار، وأمر عندما كان على ظهر السفينة بوضع احــدى هـذه الجواهر في خــاتم ذهبي، وأرسل هـذا الخاتم مع الرسول المذكـور إلى صاحب تلك القلعة، وعندمـا سأل الحاكم الرسول عن الذين طلب لهم الأمـان، أخبروه بأنهم كانـوا حجاجـاً عائـدين من القدس، وسأله الحاكم عن أسمائهم، فأجابه الرسول قائلاً:« واحد منهم اسمه بلدوين دي بيثيون، واسم الآخر هيـوج، وهو تاجر قد أرسل لك هذا الخاتم»، ونظر صاحب القلعـة بدقة أعظم نحـو الخاتم، وقال:« هو ليس اسمـه هيـوج، بل الملك رتشـارد»، ثم أضـاف:« مع أنني أقسمت على اعتقال جميـع الحجاج القادمين مـن تلك الجهات، وعلى عـدم قبول هدية منهم، إنني مع ذلـك بسبب قيمـة الهدية، وكـذلك بسبب المرسل، الذي شرفني كثيراً، مع أنني غريب بالنسبة له، أعيد إليه هديته، وأمنحه إذنا بحـرية المغـادرة»، وبهذا عـاد الرسـول، وأخبر الملك بجميع مـاقـد حدث، وخشية من هذا الاكتشاف، اشترت الجماعة خيولاً، وانطلقت في منتصف الليل بشكل سري من البلدة المتقـدم ذكـرها، وسـارت لبعض الوقت خـلال تلك المنطقـة مـن دون معيقـات، لكن ذلك الحاكم بعث بكشـاف إلى أخيـه سـار خلفهم، ليخبره بالقيـام باعتقـال الملك عندمـا يدخل إلى أراضيـه، وبناء عليه عندمـا وصل الملك إلى هناك، ودخل إلى المدينة التي كـان يعيش فيهـا أخـو الحاكم المتقـدم ذكـره، قـام هذا الأخ فبعث خلف صـديـق مـوثوق لديه، اسمـه روجــر، وكـان من الشعب النورماندي، من أهالي أرجنتون، وكان قـد عاش معه عشرين سنة، وقد تزوج من حفيدته، وأمره أن يبحث بدقة في جميع البيوت التي يقيم فيها الحجاج، ووعده إذا أمكنه أن يعثر على الملك، ويتعرف عليه إما بوساطة اللغـة، أو بوساطـة أية شارة أخـرى، بإعطائـه نصف المدينة لاسيما، إذا مـااعتقله، ووجـد هذا الرسـول الملك، بعـدمـا بحث في أمـاكن إقـامـة الحجـاج، واحداً واحـداً، وبعد كثير من الخداع والمراوغـة، أرغم الملك بالأخـذ والرد وببكاء البـاحث بصدق، على الاعتراف بشخصيـة، وبناء

على ذلك تقدم بالرجاء إلى الملك وهو يبكي، في أن يقوم على الفور بالفرار، وأعطاه جواداً ممتازا، وعاد بعد هذا إلى سيده، وأخبره بأن ماسمعه عن وصول الملك كان غير صحيح، بل هم بلدوين دي بيثون، ورفاقه عائدون من حجهم، وغضب سيده غضباً شديداً، وأمر باعتقالهم جميعاً، وكان الملك مع وليم دي إيستينغ Estaing وصبي كان يفهم اللغة الألمانية، قد نجا من المدينة خلسة، وبقي على الطريق لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي من دون طعام، ووقتها دفعه الجوع إلى الانعطاف نحو قرية اسمها غيناشيا Gynatia، على الدانوب وليكتمل سوء حظه، كان دوق النمسا متوقفاً فيها آنذاك.

كيف جرى اعتقال الملك رتشارد من قبل الدوق ورميه في السجن

. وهكذا وصل الملك رتشارد إلى النمسا وتوقف هناك، وبعث بالطفل إلى بلدة غيناشيا، إلى السوق ليشتري بعض الطعام إلى رفاقه الجياع، ولدى توجه الطفل نحو السوق أظهر عدة دنانير، وتصرف بعجرفة وبتبجح، ولذلك جرى اعتقاله من قبل أهل البلدة الذين سألوه من هو، فأجابهم بأنه كان خادم تاجر غني، وصل إلى تلك البلدة، بعد سفر ثلاثة أيام، وبناء عليه تركوه يذهب، فذهب خلسة إلى المقر السري للملك، ونصحه بأن يهرب على الفور، وأخبره بالذي حدث له، ولكن الملك رغب— على كل حال— بعد الذي عاناه أثناء السفر، أن يرتاح عدة أيام في البلدة المسماة أعلاه حيث كان يرسل أحيانا هذا الطفل نفسه إلى السوق العام، لشراء حاجياته، وحدث في إحدى المرات في يوم عيد القديس توماس، أن كان هذا الطفل يحمل من دون حذر قفازات سيده الملك تحت حزامه، ورآه المشرف على المنطقة، فاعتقله ثانية، وأنزل به مختلف أنواع العذاب، وضربه، وهدده بسحب لسانه وقطعه إذا لم يعترف على الفور بالحقيقة، وأخيراً أرغم الطفل بوساطة تلك الأنواع

من العذاب على إخباره بحقيقة الأمور، فبعث ذلك المشرف على الفور خبراً إلى الدوق وطوق بيت الملك، وأمره بشكل مهين أن يسلم نفسه بهدوء، ولم ينزعج الملك لدى سماعه للضجة والصراخ، ورأى أنه ليس بمقدوره الوقوف ضد مثل ذلك العدد من البرابرة، فأمر بوجوب احضار الدوق، واعداً بأنه سيسلم نفسه إليه فقط، ولدى قدوم الدوق سلمه نفسه مع سيفه، وطار الدوق فرحاً بذلك، وأخذ الملك معه بطريقة محترمة، ثم وضعه تحت حراسة جنوده، مع أوامر بوجوب حراسته بكل دقة وعناية، مع سيوف مجردة ليلاً ونهاراً.

وعلينا الآن أن لانعدّ أن هذه النازله من سوء الحظ قد نزلت من دون قرار من الرب القدير، ولم يكشف لنا، فيما إذا كان ذلك جزاء للملك على ذنوب شبابه، أو عقوبة على آثام رعيته، أو أن ذلك جاء تذكرة لهذا الملك ليتوب، وليكفر عن جريمته لدى سماعه نصيحة الملك الفرنسي ونيله مساعدته حيث حاصر والده شخصياً، أي الملك هنري عندما كان مريضاً في فراشه في مدينة مين، وصحيح أنه لم يذبحه بسيفه، لكنه أرغمه بالحملات المتوالية على ترك ذلك المكان، ومما لاشك فيه أن جميع هذه الظروف والمعطيات كانت السبب في موته.

وفي هذا العام، جرى أيضاً انتخاب سافاري Savary رئيس شمامسة نورثأمبتون أسقفاً لباث، ثم إنه ذهب إلى روما، وهناك جرى رسمه كاهنا، وفي التاسع عشر من إيلول تلقى السيامة من ألبان أسقف ألبانو.

كيف باع دوق النمسا ملك انكلترا إلى الامبراطور

عام ١١٩٣م، فيه بقي الملك رتشارد سجينا لدى دوق النمسا، حتى باعه هذا الأمير إلى الامبراطور الروماني مقابل ستين ألف باوند من الفضة، بعيار كولون، ثم إنه أمر به في يوم الثلاثاء بعد أحد السعف أن يحرس بعناية، ولكي يرغم الملك على دفع مبلغ كبير فدية لنفسه، أمر به

فأودع السجن في تريفي Treves ، وهو سجن لم يدخله أحد وخرج منه حتى ذلك الحين، وهو المكان الذي يقول عنه أرسطو في كتابه الخامس:« Bonum òest mactare parentes Intreves »، وعنه قال في مكان آخر:

Sunt loca, Sunt gentes quibuse mactare parentes

ففي هذا المكان جرى وضع الملك تحت حراسة قوية من الجنود، والخدم، وقد رافقه هؤلاء إلى حيث ذهب مع سيوف مجردة نهاراً وليلاً، لابل حتى أنهم تابعوا الحراسة حول فراشة بحيث لم يسمحوا لأحد بالبقاء بقربه أثناء الليل، ولم تؤثر أياً من هذه الظروف على ملامح الملك حيث بدا دوماً مشرقاً ومقبولاً لدى محدثيه وشجاعاً وجريئاً في أعماله، وذلك حسبما تطلب الوقت، والمكان، والسبب، والشخص، وإلى آخرين أدع حكاية مزاحه مع حرسه، وكيف جعلهم يسكرون، وكيف انقض على أشخاصهم الضخمة عن طريق المزاح.

كيف اتهم الامبراطور الملك رتشارد بأشياء كثيرة وكيف رد الملك بحكمة عليهم.

كان الامبراطور لزمن طويل يحمل مشاعر غضب، وحقد ضد الملك، حتى أنه لم يتنازل لاستقباله في حضرته، أو حتى التحادث معه، لأنه تشكى بأن الملك قد أضرّ به وبرفاقه في مجالات كثيرة، وتظاهر بأن لديه كثيراً من التهم ضده، وأخيراً بعد وساطات عدد من الأصدقاء من وقت إلى آخر، ولاسيما راعي دير كلوني، ووليم مستشار الملك، دعا الامبراطور إلى الاجتماع: أساقفته، ودوقاته، وفرسانه، وجلب الملك إلى حضرته، وهناك اتهمه بعدة اعتداءات، أمامهم جميعا، وعدّدها وكان أولها في المقام الأول، أن الامبراطور خسر بسبب نصيحة رتشارد ومساعدته، مملكة صقلية وأبوليا، التي بموجب الحق عائدة له، إثر وفاة

الملك وليم، ولكي يحصل عليها حشد جيشاً كبيراً، وأنفق مبلغاً لانهاية له من المال، وقال بأن الملك المذكور، قد وعده بصدق بتقديم مساعدته للحصول على تلك المملكة من تانكرد، ثم تعرض لقضية ملك قبرص، الذي كان قريباً له، واتهم رتشارد، أنه خلعه بشكل غير عادل عن عرشه، وأنه سجن ذلك الملك، وأنه غزا بلاده بالقوة، وسلبه أمواله، ثم باع الجزيرة إلى أجنبي، ثم اتهمه بتدبير مقتل مركيز أوف مونتفرات، ووريثه، وأكد أنه بسبب خيانته وتآمره قد جرى قتل ذلك الرجل النبيل من قبل الحشيشية، وأنه قد أرسل هؤلاء القوم أنفسهم لقتل مولاه ملك فرنسا، الذي لم يحافظ على الاخلاص له، أثناء حجمهما معا، كما كان الاتفاق معقوداً ومؤكداً بالأيمان بينهما، واشتكى أخيراً، أنه ألقى في يافا بين الأوساخ علم قريبه، دوق النمسا، مراغمة له، وأنه أهان دوماً ألمانه في الأرض المقدسة وآذاهم بالكلام والسلوك.

وبعد توجيه هذه التهم وأمثالها من قبل الامبراطور، وقف الملك الانكليزي على الفور، وتقدم نحو وسط الاجتماع، ورد على التهم واحدة واحدة، وتكلم بشكل واضح تماما ومقنع، إلى حد أنهم نظروا إليه بإعجاب، واحترام من قبل الجميع، ولم يبق هناك أدنى شك فيه أنه لم يكن مجرماً أو مقترفاً لأي عدوان، في أذهان المستمعين إليه، لأنه برهن على ذلك بوضوح وبصدق، وبسياق كلماته، وبصدق تأكيداته، وماشابه ذلك في مناقشة القضية، وبذلك قضى على كل التهم، ولم يبتعد عن حقيقة ماقد وقع، ورفض بكل ثبات تهمة الخيانة، أو أنه كان المتآمر في قتل أي أمير، مؤكداً أنه يمكنه البرهنة على براءته بالنسبة لجميع هذه التهم، كما ينبغي على محكمة الامبراطور أن تقرر، وبعدما ترافع لوقت طويل أمام الامبراطور ونبلائه بمقدرة عظيمة حيث دفع جميع التهم، أعجب الامبراطور بفصاحته، فنهض وبعث وراء الملك ليأتي إليه، وعانقه ومنذ ذلك الحين تصرف نحوه بلطف ولين، وعامله بود عظيم،]

وجرى فيما بعد حرمان دوق النمسا كنسياً من قبل مولانا البابا مع جميع كرادلته، وعندما كان على فراش الموت، لم يقدم التكفير المتوجب، وخشية أن يتعرض للضياع، جرى تحليله من قبل أساقفته، ومات بشكل مريع].

كيف دفع الملك رتشارد غرامة مائة وأربعين ألف باوند مقابل اطلاق سراحه

وبعد هذه الأحداث، وبناء على وساطة الأصدقاء من وقت إلى آخر، جرى بحث دفع فدية الملك، واحتاج ذلك إلى وقت طويل، وكانت النتيجة في النهاية، وجوب دفع مائة وأربعين ألف مارك فضي، من عيار كولون، نقداً إلى الامبراطور، مقابل اطلاق سراحه، وأن يكون ذلك قبل الوصول إلى أية اتفاق، وتبعاً لذلك، أقسم في يوم القديس بطرس والقديس بولص الرسولين: الأساقفة والدوقات، والبارونات يمينا، أنه فور دفع الملك للمبلغ المسمى أعلاه، سوف يطلق سراحه ويمتلك الحرية في العودة إلى مملكته، وجلب أنباء هذه المعاهدة إلى انكلترا مستشار الملك، وليم أسقف إيلاي، الذي أحضر معه رسائل من مولانا الملك، وكذلك الختم الذهبي للامبراطور، وصدر على الفور قرار عن رجال العدالة الملكية، يقضي بأن يدفع جميع الأساقفة، والكهنة، والإيرلات، والبارونات، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مساهمة مقدارها ربع دخلهم في سبيل اطلاق سراح الملك، وعلاوة على ذلك أعطوا أوانيهم الذهبية والفضية من أجل ذلك العمل التقوي، ولقد أخذ جون أسقف نورويك نصف ثمن الأواني الموجودة في جميع أرجاء أسقفيته، وأعطى هذا النصف إلى الملك، وأعطت طائفة السسترشيان، التي كانت حتى ذلك الحين معفية من جميع الضرائب، جميع صوفها من أجل اطلاق سراح الملك، وفي الحقيقة مامن كنيسة، أو طائفة، أو مرتبة، أو جنس، نجا من دون أن يرغم على الدفع في سبيل اطلاق سراحه،

وظهـرت العلامـات الدالـة على وقـوع هذه الكـارثة في المواسم غير الاعتيادية، وفي فيضانات الأنهار، والعواصف المرعبة والزوابع والأمطار ثلاث مرات أو أربع في كل شهر، مع برق مخيف على امتـداد السنة، مما سبب نقصاً شديداً في حاصلات الفواكه والقمح.

تبرئة الملك رتشارد من تهمة قتل المركيز

وعندما كان ملك انكلترا متهماً بشكل ظالم بقتل المركيز، بعث رسلاً إلى مقـدم الحشيشيـة يسأله أن يكتب رسالـة إلى دوق[النمسـا] أو إلى امبراطور[ألمانيـا] حتـى يبرهن براءته، ومنه حصل الملك على الـرسـالة التاليـة:« من شيخ الجبل، إلى ليوبولد دوق النمسا، تحيـات: بما أن عدداً من ملوك وأمراء مـاراء البحر، قد اتهموا مـولانا رتشارد، ملك انكلترا، بقتل المركيـز، إنني أقسم بالله الـذي يحكم إلى الأبد، وبالشريعـة التي نؤمن بها، أن مـامن مـلامة يمكـن إلصاقهـا به، فيما يتعلق بمـوت ذلك النبيل، ولقد كان سبب موت المركيز كما يلي: كان واحد من اخوتنا قادم في مركب من أضاليا إلى منطقتنا من البـلاد، عندما دفعت عاصفة به إلى صور، حيث اعتقله المركيـز، وقتله، واستولى عـاى مقتنياته التي تكونت من مبلغ كبير من المال كان ملكه، وبعثنا برسل إلى المركيز نطلب منه أن يعيـد إلينا مال أخينا، وأن يتفق معنا حـول التعويض عن مقتله، الأمـر الذي لم يفعله، بل أهان رسلنا واتهم بمقتل أخينا رينالد صاحب صيدا، مع أننا نستطيع أن نؤكد الصـدق عن طريق بعض أصدقـائنا بأن المركيز نفسه هو الذي تدبر قتل الرجل وسرقته، ثم بعثنا إليه برسول آخر اسمه ادريس وقـد أراد رمي هذا الرجل بالبحـر، لكن رفـاقنا سـاعـدوه على مغادرة صـور، ولقد عاد على الفـور، وأخبرنا بهذه الأشياء، ورغبنا من تلك الساعة بموت المركيز، وبناء عليه بعثنا باثنين من إخواننا إلى صور، وهناك قتلوه بشكل مكشـوف، وأمـام جميع السكان تقريبـاً، وهذا كـان سبب مقتل المركيـز، ونحن في الحقيقـة، نتحـدث الصـدق في قـولنا بأن

مولانا الملك رتشارد لم تكن له علاقة بموت ذلك النبيل، الذي عاني بسببه ظلماً، من كثير من الأذى وذلك من دون سبب، ونؤكد لكم أيضاً بأننا لم نقتل أي انسان بهذه الطريقة من أجل جائزة، أو من أجل المال، بل فقط عندما ألحق الأذى بنا، واعلموا بأننا قد كتبنا هذه الرسالة في بيتنا في حصننا مصياف بحضور إخواننا، وختمناها بختمنا في منتصف شهر ايلول في سنة ألف وخمسمائة لتوقيت أيام الاسكندر(١)».

كيف جرت سرقة هيوج أسقف شستر وسلبه جميع مقتنياته

وفي هذه الآونة كان هيوج أسقف شستر مسرعاً مع هدايا كثيرة، كان قد اشتراها مع صعوبات جمة، لرؤية الملك، لكن عندما كان متوقفاً أثناء الليل قرب كانتربري للاستراحة، جرى اعتقاله وسرقته وسلبه جميع ماكان معه، وأظهر متى دي كليرا Clera شحنة قلعة دوفر التعاطف مع اللصوص ولذلك جرى حرمانه كنسيا من قبل رئيس الأساقفة، وليس من المعروف الآن فيما إذا كان قد كفر عن ذنبه.

موت صلاح الدين وخلافة سيف الدين له

وفي هذه الآونة نفسها، أصيب صلاح الدين العدو المعلن للحقيقة والصليب بزيارة الرب له، في أيام العيد في الناصرة، ومات فجأة، وبناء على ذلك اغتصب أخوه سيف الدين الملك هناك، لكن كان هناك معه الأبناء السبعة لصلاح الدين، وضدهم أبناء نور الدين، الذين طردوا من ملك أبيهم من قبل صلاح الدين ، حيث زحف هؤلاء مع حشد من الفرس، ومن هؤلاء أخوين هما صلاح الدين وسيف الدين، وذريتهما، والخلفاء من أولادهما، هناك حاجة قليلة للحديث عنهم من أجل توضيح هذا التاريخ، وذلك سوى القول بأنهم مشهورين في كل مجال لدى المسلمين، وكان صلاح الدين لدى موته، الذي ذكرناه، قد

١— انظر ص ٦٣٦، حيث ورد نص هذه الرسالة بشكل فيه بعض الخلاف.

خلف تسعة أولاد يرثون مملكته، لكن سيف الدين، أخاه الأصغر، قتل جميع أبناء أخيه، باستثناء واحد اسمه غياث الدين كان متملكاً لحلب مع جميع المدن المجاورة لها، والبلدات، وأماكن أخرى حصينة، كان عددها أكثر من مائتين، وكان لسيف الدين، الذي جعل من نفسه سيداً لمملكة أخيه، وقتل أبناء أخيه، خمسة عشر ولداً، سبعة منهم جعلهم ورثة لممالكه التي حصل عليها بالقتل، وكان أول أولاده اسمه الكامل، الذي ورث حكم الاسكندرية، والفسطاط، والقاهرة، ودمياط، وتنيس، مع جميع بلاد مصر، وامتلك ابنه شرف الدين دمشق والقدس، وجميع المناطق الصليبية، الحاوية لأكثر من ثلاثمائة مدينة، وحصن وقلعة، وذلك إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الملك الأشرف منطقة اسمها حران(وخلاط) مع جميع المنطقة التي فيها أكثر من أربعمائة مدينة، وحصن، وقلعة، إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الرابع الذي اسمه Mehemodain مملكة آسيا، التي احتوت على مايزيد على ستمائة مدينة، وحصن، وقلعة إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الخامس Mechisemphat منطقة Sarcho ، حيث قتل هابيل، وتحتوي هذه المملكة على تسعمائة مكان وأكثر، بما في ذلك: المدن، والحصون، والقلاع، إلى جانب القرى، وحكم ابنه السادس Machinoth ، منطقة بغداد، حيث يعيش بابا المسلمين، الذي يدعى باسم الخليفة، وهو الذي يخشى منه ويحترم في شريعتهم مثل الحبر الروماني بيننا نحن أنفسنا، ويشاهد رجل الدين هذا مرتين في الشهر فقط، عندما يذهب مع تلاميذه— الذين يحتفظ بهم، مثل احتفاظ البابا بالكرادلة— إلى المسجد، حيث تجري— كما يقال— عبادة محمدﷺ رب الهاجريين، وبعدما يسجد هناك، ويؤدي صلاته وفقاً لشريعتهم، يقوم جميع الحضور، قبل مغادرتهم المعبد بالأكل والشرب، وبعد ذلك يعود إلى قصره، وزيارة محمدﷺ وتعبده هناك، هي مثلما يتعبد المسيحيون المسيح المصلوب، علاوة على ذلك إن مدينة بغداد التي فيها محمدﷺ والخليفة،

هي عـاصمـة الهاجرين، مثلما روما هي عـاصمـة الشعوب المسيحيـة، واسم ابن سيف الدين السابع Salaphat ، وبهذا لم تكن لديه منطقة ليرثها، غير أنه سكن مع أخيه الكامل، وهو الحامل لرايته، وإلى الكامل هذا نفسه، يرسل كل واحد من أخـوته إليه سنويا، ألف دينار اسلامي، ومائـة قطعة ذهبية، وفـرسين مجهزين بشكل جيد، وعندمـا كان والدهم سيف الدين يذهب لزيـارة أولاده، كان يقـدم ورأسـه مغطى بغطاء من الحرير الأحمر، وكان أولاده يخرجـون لاستقباله، فسيجدون أمـامه أربع مرات، ويقبلون قـدميه، ثم يعـانقهم ويصافحهم، وكـان يجلس مع كل واحد من أولاده ثلاثة أيام كل عـام، ويلبس كل واحد من أولاده خاتماً محفـوراً عليـه صـورة أبيـه، وكلما ركب سيـف الدين المذكـور وخـرج، لايكشف عن وجهـه سوى عشر مرات في العـام، وعندما يتلقـى رسلاً من عند أي أمير، يستقبلهم في قصره في اليـوم الأول بـوسـاطة أتبـاعـه المسلحين، وفي اليوم الثـاني يُعطي لهم جوابه حسب مقتضيـات المناسبة، لكنه لايعطيهم الإذن بالاقتراب منه حتى اليـوم الثـالث، ويعيش أولاده الثمانية وفقـاً لترتيبات أبيهم وفق الطريقة التاليـة: إثنان منهم مسؤولون عن ضريـح المسيح، وإليهما يجري دفع المنـح التي تقـــدم إلى الضريح، ويقتسمان ذلك بينهما، ودخلهما أكثـر من عشرين ألفـ[دينار] اسـلامي، ويتلقى الأربعـة الآخرين الضرائب المجبيـة من النيل، ويسـاوي دخلهم أكثـر من أربعين ألف دينار اســلامي، ويقف الابنان الآخـــرين أمـــام محمدﷺ، وإليهما يجري دفع الأعطيات التي تقـدم عند قدمي النبي ﷺ، والتي تسـاوي أكثـر من ثلاثين ألف دينار اسـلامي، وعند سيف الدين خمس عشرة زوجة، والعدد نفســه من الورثة، واعتاد أن ينام مع زوجاته كل واحدة بدورها، وإذا كـانت احداهن حاملة كان ينام معهـا بحضور البقيـة جميعــاً، وعندمـا احـدى هؤلاء الخمـس عشرة تموت، كـان يأتي بواحـدة جـديدة محلهـا، وذلـك حسبما عـادة شريعتهم، ويمتلك هؤلاء القـوم شريعـة مكتـوبة أعطيت لهم مـن قبل محمـدﷺ اسمهـا القـرآن،

ويجري الحفاظ على أوامر ذلك الكتاب من قبل ذلك الجنس غير التقي من الناس(١)، كما نحافظ نحن المسيحيون على الانجيل.

كيف رغب جون أخو الملك بالاستحواذ على حكم انكلترا

وعندما كان الملك رتشارد— كما ذكرنا— محتجزاً من قبل الامبراطور، سمع أخوه جون بما نزل به، فاعتقد أنه لن يعود، فدخل في تحالف صداقة مع فيليب ملك فرنسا، وبوساطة النصيحة المؤذية لذلك الملك، عمل ترتيبات من أجل تتويجه مكان أخيه، لكن الانكليز باخلاص معلن لم يسمحوا بذلك.

كيف سعى الملك الفرنسي للاستيلاء على نورماندي

أطلق ملك فرنسا الآن العنان لكراهيته ضد الملك الانكليزي، فغزا مع جيش كبير نورماندي ولم يوفر أحداً من مرتبة، أو جنس، أو عمر، وبعث غيلبرت دي واسكويل Wascuil خلف الملك المذكور، وسلم بشكل خياني غيسور إليه، حسبما كان متفقاً بينهما، وأخضع بعد ذلك الملك المذكور منطقة فكسين Vexin النورماندية كلها، جزئياً من خلال الخيانة، وجزئياً بوساطة القوة، وكذلك كونتية أومرل Aumarle بعيداً حتى دييبي Dieppe مع وادي رويل Ruil ، وذلك مع الحصون الرئيسية، واستولى أيضاً على منطقة هيوج دي غورناي، الذي استسلم مع آخرين للملك الفرنسي، وفضلاً عن هذا حاصر روان، ولكنه صد بوساطة شجاعة ايرل أوف ليستر، ومقدرة السكان وصلابتهم، وطرد من تلك المدينة وهو مضطرب، مع خسارة لبعض عساكره، واستولى الملك المذكور على مدينة ايفروكس Evreux، ثم أعطاها لتكون تحت وصاية[جون] الايرل المذكور.

١— هذه المعلومات مشوهة إلى أبعد الحدود، هذا واستحالت مطابقة بعض أسماء أبناء الملك العادل مع الأصول المعتمدة عن بني أيوب.

كيف تزوج الملك الفرنسي من أخت ملك الدانمارك ثم طلقها على الفور

واقترن في هذه الآونة الملك الفرنسي بأخت ملك الدانمارك، التي اسمها إنغلبورغ Ingelburg وكانت سيدة ذات جمال مدهش، لكنه طلقها بعد الزواج، ووضعها بين الراهبات في سواسون Soissons، وأمر بالوقت نفسه جميع الدانيين الذين جاءوا معها بالعودة إلى بلادهم، وجرى في العام نفسه انتخاب هيوبرت وولتر، أسقف سالسبري، بشكل قانوني، رئيساً لأساقفة كانتربري، وفي اليوم التالي لعيد القديس ليونارد، وضع على عرشه، وإلى عنايته عهد بأمر من الملك رتشارد، بمملكة انكلترا، وبإدارة الأعمال هناك، فقد جرى ارسال وولتر رئيس أساقفة روان، من قبل الملك، إلى ألمانيا، وكان مصحوباً أيضاً بإليانور، أم الملك التي كانت متشوقة لرؤية ابنها.

كيف أطلق سراح الملك رتشارد ووصوله إلى انكلترا

عام ١١٩٤م، فيه جرى دفع الجزء الأكبر من الفدية، كما جرى فيه تسليم رهائن كضمانة مقابل المبلغ المتبقي

وفي اليوم المحدد، وهو يوم طهارة مريم المباركة، أطلق سراح الملك رتشارد، وسمح له بالعودة إلى مملكته، وبناء على ذلك انطلق مع أمه، والمستشار، وعبر من خلال أراضي دوق لوفين Louvain، ووصل إلى القناة البريطانية، وفي يوم الأحد، بعد عيد القديس غريغوري، وصل إلى انكلترا إلى ميناء، ساندويش، مما سبب السرور العظيم إلى جميع الطبقات، وفي الساعة نفسها التي وصل فيها الملك مع مرافقيه ونزلوا إلى اليابسة، وكانت الساعة الثانية من النهار، وعندما كانت الشمس مشرقة بوضوح، ظهر وقتها في السماء شكل شعشعاني غير معتاد، امتد بمقدار طول انسان وعرضه بعيداً عن الشمس، وكان أبيض لامعاً كثيراً

وأحمر اللون، وكأنه نوع من أنواع قوس قزح، وأعلن عدد من الناس الذين رأوا هذا اللمعان، بأن الملك هو على وشك الوصول إلى انكلترا، وفور وصول الملك انطلق يؤم كانتربري ليقدم تقديساته وعباداته في مزار القديس توماس، وذهب من ذلك المكان إلى لندن، واستقبل هناك بترحاب كبير، فقد تزينت المدينة كلها وتجملت من أجل قدوم الملك، وذلك بمختلف أنواع الزينة التي كان يمكن للثروة أن تنتجها، وعندما بات خبر وصوله معروفاً، خرج النبلاء والعامة لاستقباله على الطريق، بتشوق عظيم، ذلك أنهم كانوا قلقين جداً من أجل عودته من الأسر، بعدما كانوا يخشون أنه لن يعود مطلقاً، وتوقف الملك أقل من يوم في وستمنستر، قبل أن يأخذ طريقه إلى القديس إدموند ليعيد الشكر، وبادر من هناك مسرعاً إلى نوتنغهام ليحاصر وليعتقل أولئك الذين تآمروا ضده والتحقوا بالايرل جون، وكان جيش انكلترا قد استولى على كل قلعة عائدة لذلك الايرل المتقدم ذكره، وذلك باستثناء هذه القلعة فقط، التي كانت صامدة، ومدافع عنها بشجاعة، لكن عندما ألقى الملك الحصار عليها، وقام بهجوم واحد، بات المحاصرون على قناعة بعدم القدرة على الصمود بعد وصوله، فسلموا القلعة إليه، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الملك، واعتمدوا على رحمته، وقد سجن بعض هؤلاء، وأطلق سراح آخرين لدى تسلمه فدية مناسبة، حيث كان نهماً كثيراً وعظيم التشوق إلى مال كل واحد، لابل مالهم جميعاً، لأنه كان آنذاك في وضع ضائق كثيراً، وقد دفعه سببان إلى اتخاذ هذا المنهج، وهما التمكن من إطلاق سراح الرهائن الذين أعطيوا إلى الامبراطور من أجله، ولكي يستطيع أن يحشد جيشاً كبيراً ضد ملك فرنسا، الذي كان يلحق الدمار بممتلكاته في كل مكان، بالنار والسلب، ومع أنه لهذا السبب، قد استخرج أموالاً من أسراه بجشع أكبر مما يتواءم مع كرامته الملكية، إنه كان معذوراً ، وينبغي تسويغ عمله بدلاً من وصم سمعته، بسبب حاجاته الملحة.

تتويج الملك رتشارد وعبوره البحر على الفور إلى نورماندي

بعد تسوية هذه المشاكل في انكلترا واخضاع جميع المتمردين ضده بكل سرعة، جرى تتويج الملك رتشارد، وذلك بناء على نصيحة نبلائه مع أن ذلك ماكان ليضيف شيئا إلى شهرته، وكان التتويج في وستمنستر في اسبوع الفصح، وعمل القداس أثناء ذلك الاحتفال هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك بحضور وليم ملك الاسكوتلنديين، وقام بعد ذلك في يوم عيد القديسين نيرو Nereus وآخيل Achilles بالاقلاع من بورتماوث، وأبحر إلى نورماندي[في ١٢— أيار]، ولدى وصوله توقف تلك الليلة للاستراحة في بارفلور Barfleur، وإليه قدم إلى هذا المكان أخوه جون متضرعاً، وألقى بنفسه مع كثير من عساكره على قدمي الملك، سائلاً الرحمة من أخيه مع كثير من الدموع، ومتهماً نفسه بكثير من الحماقات في كثير من المجالات، وبما أن الملك كان عاطفياً، فإنه لم يتمكن من حبس نفسه من الدموع، وأشفق على سوء حظ أخيه، ورفعه من على الأرض وأرجعه إلى متقدم حظوته لديه.

كيف أرغم الملك رتشارد الملك الفرنسي على الفرار من فيرنويل

وعلم الملك رتشارد بأن ملك فرنسا قد ألقى الحصار على فيرنويل Verneuil، وأنه عمل لمدة ثمانية أيام من دون نجاح، في محاولة بناء بعض آلات رمي الحجارة، وفي جلب أحجار كبيرة، وفي لغم الأسوار، والتضييق على الحامية المحاصرة، بأخذ طريقه نحو ذلك المكان بكل سرعة— وكان يوم أحد العنصرة قد اقترب حلوله— لكي لايتبجح الفرنسيون بالحصول على نصر في ذلك اليوم المقدس، وسمع الفرنسيون قبل حلول ظلام ذلك اليوم، بأن الملك الانكليزي كان مستعداً للقتال، وأنه سوف يصل عند انبلاج النهار، وقتها أصيب الفرنسيون بالرعب لدى سماعهم لهذا الخبر، ولأنهم كانوا كثيراً ماخبروا شجاعة الملك،

اختاروا لذلك الفرار وآثروه على القتال، وتراجعوا من معسكرهم، جالبين العار الأبدي على أنفسهم والشنار.

كيف عمل هيربرت المسكين أسقفاً لسالسبري

وجرى في هذه الآونة نفسها انتخاب هيربرت Herebert الملقب بالمسكين، والذي كان رئيسا لشمامسة كانتربري، أسقفاً لسالسبري بشكل قانوني، وتمت سيامته كاهنا في يوم أحد العنصرة، وجرت سيامته في اليوم التالي أسقفاً، من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، في وستمنستر، وقام الملك الفرنسي، في الوقت نفسه، أثناء تراجعه من فيرنويل، وهو غاضب يتهديم حصن صغير اسمه فاونتين Fountains ، وذلك حتى لايظهر بأنه لم يحدث شيئاً، فبتخريبه لهذا الحصن أعطى نفسه مظهر المنتصر، فعاد إلى ممالكه.

الاستيلاء على لوكس من قبل الملك رتشارد

وبعد هذه الأحداث، وصل الملك رتشارد إلى تور، وتسلم مبلغ ألفي مارك فضي عن طريق الهدية من برجوازية نوفشاتيل Neufchatel، حيث يرقد جسد القديس مارتن، ثم إنه زحف داخل حدود تور، وألقى الحصار على قلعة لوشي Loches ، حيث استولى عليها بالقوة بعد عدة أيام، وكان ملك فرنسا قد تسلم هذه القلعة من ضباط الملك الانكليزي، عندما كان هذا الملك سجينا، وذلك كنوع من أنواع الضمانة، حتى لايخرقوا المعاهدة المعمولة بين الملكين، وقد سلموه اياها وهي مشحونة بشكل جيد بالمؤن، ووضعوها بعهدة خمسة عشر فارساً، وثمانين جنديا، ووصل في هذه الآونة ابن ملك نافار لمساعدة الملك الانكليزي، مع جيش كبير، وكان بين أتباعه خمسين من رماة القسي العقارة إلى جانب مائة آخرين، وألحق هذا الأمير

الدمار بأراضي غيوفري دي رافين Ravanne وأراضي كونت أنغوليم Angouleme.

كيف طرد الملك رتشارد الملك الفرنسي من منطقة تور

ودخل في هذه الآونة أيضاً فيليب ملك فرنسا إلى حدود تور، ونصب معسكره قرب فيندوم Vindome ، ثم وجد بوساطة كشافته بأن الملك الانكليزي كان زاحفاً ضده، فقوض في الصباح الباكر معسكره، وأسرع بقدر ماأمكنه نحو فريتفال Freitval، لكن الملك الانكليزي طارده، واعتقل جميع أركان فرقه، وكذلك أركان الكونتات والبارونات الذين كانوا يقاتلون تحت قيادته، وأشياء أخرى لاتحصى عدداً، وحمل ذلك كله معه، وعبر بهذه الطريقة إلى بواتو، وتمكن خلال أيام من اخضاع قلعة تيلبور Tailebure ، ومنطقة أعدائه، أي منطقة كونت أنغوليم، ومنطقة غيوفري دي رافين، وبذلك لم يبق ولا ثائر واحد ضده من قلعة فيرنويل إلى كارليكرويكس Charlecroix.

كيف سعى الملك الفرنسي إلى خداع رتشارد

وأرسل في هذه الآونة الملك الفرنسي أربعة رسل إلى الملك الانكليزي، لخداعه عن طريق استخدام كلام معسول، بقصد الاقتراح لإنقاذ الرعايا على الجانبين، الذين أفرغا صناديقهم في حروبهما من الذهب والفضة، وليوقفا سفك الدماء النبيلة في المملكتين، وأن إدعاءات كل منهما يتوجب أن تتقرر بناء على مبارزة خمسة رجال من على كل طرف، وأن ينتظر مقدمي كل مملكة نتيجة المبارزة، فبعد المبارزة من الممكن الحكم بما هو حق لكل ملك، وأرضى الاقتراح الملك الانكليزي إلى أبعد الحدود، شريطة أن يكون الملك الفرنسي هو الشخص الخامس من جانبه، وهو أي الملك الانكليزي سوف يكون كذلك الخامس من الجانب الانكليزي، وأنهم ينبغي أن يحافظوا على

المساواة في الرجال والسلاح، وأن يشتبكوا بفريقين متساويين، وقد رفض الملك الفرنسي الموافقة على هذا، على الرغم من سخرية كثيرين به، وبعد هذا تم الاتفاق على هدنة بين الملكين الفرنسي والانكليزي، بناء على وساطة بعض رجال الدين بينهما، لكن المبادلات التجارية بين الطرفين كانت ممنوعة.

كيف أسس الملك رتشارد مبارزات في جميع أرجاء انكلترا

وعبر في هذه الآونة الملك رتشارد إلى انكلترا، وعين مواعيد مبارزات تعقد في بعض الأماكن، وقد اقتنع بفعل ذلك للسبب التالي: وهو إمكانية أن يجد الجنود الانكليز أنفسهم مضطرين للمواجهات من جميع الجهات والمناطق، ولذلك عليهم البرهنة على قوتهم، بتدريب خيولهم في الحلقة، وبذلك يكونون أكثر رشاقة وتجربة من أجل القتال ضد أعداء الصليب، لابل حتى ضد جيرانهم.

وجمع في هذه الآونة أيضا واحد اسمه الكسيوس بن مانويل — الذي كان من قبل امبراطور القسطنطينية — جيشاً، وسجن اسحق الامبراطور الحالي، الذي كان قد حاربه، وقد حرمه من نظره، وأخيرا أودعه السجن بشكل أبدي، بعدما خصاه، واستولى على امبراطوريته.

كيف قدم الملك الانكليزي شكوى أمام مولانا البابا ضد دوق النمسا لسجنه إيّاه

عام ١١٩٥م، فيه أرسل الملك رتشارد رسلاً إلى الكرسي الرسولي، مع توجيهات أن يضعوا الشكوى التالية أمام مولانا البابا: « أيها الأب المقدس، مولانا رتشارد ملك الانكليز يحيي سموكم، ويطلب اظهار العدل له ضد دوق النمسا، الذي اعتقله وسجنه، عندما كان عائداً من حجه المتعب، وآذاه بطريقة مضرة حتى لايكون أميراً له سمعته الكبيرة،

وباعـه بعـد ذلك إلى الامبراطور وكأنه كـان ثوراً أو حماراً، وإلتهم بعـد ذلك كـلاهما قـوام إمكانيـات مملكة انكلترا، بطلـب مبلغ لايحتمل من أجل فـديتـه، وعـلاوة على ذلك، زاره الذيـن لم يكونوا غـرباء بالنسبـة لقـوانين المسيحيـة بأحكام أشـد قسـوة في هذه القضيـة، مما كـان يمكن لصلاح الدين أن يفعله، لو أنه بسبب سوء حظ مماثل وقع في يدي ذلك المسلم نفسه، الذي إلى حربه ارتحل الملك المذكور من بلاده، تاركاً مملكته التي حصل عليهـا مؤخـراً، وبلاده، وأقـربائه، وأصـدقـائه، ولعله كـان يعرف كيف يقـدم الاحترام لنبالته وشجاعته، أو لجلالتـه كملك، الأمر الذي لم يعرف ذلك الجيل من البرابرة العنيدين كيف يقدرونه، لابل ربما فعلوا ذلك حتى يعـزون باعتقال مثل هذا الأمير العظيم، سمعـة النصر الطيبـة إليهم، مع أنهم ماكـانوا ليتجـرأوا مطلقاً على مـواجهته في قتـال مكشـوف، عنـدمـا يكون محاطاً مـن قبل جيشـه الشجـاع، ودعهم لايعتقدون أن إهانة الملك تأتي من قبلهم، لابل بالحري إن ذلك قدر من الرب ونصيب، الرب الذي بإرادته يذل دولاب الحظ انساناً ويعز آخر، ويسقط واحداً ويرفع آخر، وكـذلك كان مما أغضب مولانا الملك كثيراً، أنه اعتقل في أيام السلم، وعندما كانت حمايتكم ممنوحة إلى جميع الحجاج لمدة ثلاثة أعوام، وأن هذا كـان ملزما ومـؤكدا بوساطة عقـوبة الحرمان الكنسي، وأنهم على الرغم من ذلك جعلوه سجيناً، وهو عائد من حجه، وكـان يعدّ العـدة لعـودته ثانيـة، وألقوه في السجن، وأرغمـوه على دفع مبلغ ثقيل من أجل فـديتـه، فهل من الممكن لسمـوكم— بناء عليـه— إعطاء أوامـر إلى ذلك الـدوق، ليسمح لرهائن مـولانا الملـك، الذين مـايزالون محتجـزين لديه بمثابة سجنـاء مقابل جـزء من الفـدية لم يدفع بعد، لكي يغـادروا وهم أحراراً، وكذلك حتى يعيـد كامل المبلغ، الذي تلقاه ذلك الرجل المحروم كنسياً، من مـولانا، وأن يقدم تعويضاً مناسباً مقابل الأذى الذي أنزله به وبرعيته».

حرمان الدوق كنسيا من أجل الملك رتشارد

وبعدما ترافع رسل الملك بهذه الشكوى وبشكاوى أخرى كثيرة، أمام الحبر الأعظم، نهض عندها مولانا البابا مع كرادلته، وحرم كنسيا الدوق نفسه بالاسم، وبشكل عام جميع الذين عاملوا بعنف الملك ورجاله، ووضع كذلك جميع أراضي الدوق تحت الحرمان من شركة المؤمنين، وأعطى أوامر إلى أسقف فيرونا حتى ينشر قرار الحرمان الكنسي هذا في جميع أرجاء دوقية النمسا، وأن يعلن ذلك كل يوم أحد ويوم عيد، وأن يقول مايلي:« وإنه إذا ماقرر الدوق المذكور إطاعة قراراتنا، نأمره بفضل الرب وإرادته، أن يقوم باطلاق سراح جميع رهائن ملك انكلترا، وأن يلغي جميع الاتفاقات، وأن يعيد جميع المقتنيات التي أُخذت منهم من قبله ومن قبل أتباعه، وكذلك ماكان قد تسلمه بشكل ظالم بمثابة فدية من أجل الملك المذكور نفسه، وأن يرسل الرهائن المذكورين بأمان إلى بلادهم، وبالنسبة للمستقبل أن لايقدم على مثل هذه الأشياء ثانية، بل أن يقدم تعويضاً مقابل الأذى والأضرار التي أنزلها».

الموت التعيس لدوق النمسا

وجرى التفوه بهذا كله ضد الدوق من قبل أسقف فيرونا، غير أنه أصر على موقفه بعدم القبول بالوصاية الرسوليه عليه، وفي تلك الآونة أصيبت بلاده أيضاً بجدب لم يسمع بمثله، وبالمجاعة أيضاً، وبالأمراض، وفاض أيضاً نهر الدانوب في هذه الأيام بشكل غير معتاد في بعض أجزاء البلاد، وغرق بتلك الحادثة غير المتوقعة عشرة آلاف انسان، ولكن على الرغم من جميع هذه الأحداث والأشياء، لم يتغير غضب الدوق، لابل بالحري إزداد، وأصيب أخيراً هو نفسه بنازلة لاهوتية، ففي يوم عيد القديس اسطفان، كان يقوم بنزهة على ظهر حصانه مع أتباعه وحاشيته، فرمح الحصان الذي كان يركبه بعنف،

وأصاب بحافره ساق راكبه بجرح لايمكن شفائه، وعلى الفور تحولت الساق والقدم إلى السواد والإحمرار، والتورم، ولم تستطع كمادات الطبيب تخفيف ذلك، وتعذب الدوق بشكل لايحتمل بسبب لهيب الاصابة، — كما كانوا يسمونها — وذلك بالاضافة إلى التورم، وبعد طول عذاب لم يعد قادراً على تحمله، أمر ببتر قدمه، وأخذ هو نفسه، في الوقت ذاته فأساً، وقد رفض ذلك كل واحد برعب، لكنه لم ينج بهذا من عذاب آلامه، لأنه هو وطرفه وبقية جسده بدأ يتداعى من شدة الالتهاب، وبعد هذا، أخذ يعترف بالجريمة الشريرة التي اقترفها، من خلال تآمره، ضد الملك، وتخلى عن المتبقي من المال المستحق من أجل فدية الملك، ووعد أيضاً بأنه سوف يعيد ماتسلمه، وتعهد من ذلك الوقت فصاعداً، أن يكون مطيعاً لحكم الكنسية، وعندما رآه الأساقفة في هذه الحالة من الآلام، حللوه من الحرمان الكنسي، وقبلوه في شراكة المؤمنين، وهلك بعد ذلك وسط آلام مرعبة، وبقي جسده لبعض الوقت من دون دفن، حتى تغطى بذباب مخيف، وذلك لأن ابنه رفض تنفيذ أمر أبيه، غير أنه أخيراً أجبر على فعل ذلك من قبل أصدقائه، فأطلق سراح الرهائن وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم].

كيف أخضع الامبراطور هنري مملكة أبوليا

وفي هذه الآونة استولى الامبراطور هنري على مملكة أبوليا، وصقلية، فقد مات تانكرد الذي خلف الملك وليم بصورة غير عادلة، لأن هذا الامبراطور نفسه كان قد تزوج من أخت الملك وليم وإليها عاد الحق بالمملكة لدى وفاة أخيها.

غزوة مخيفة لاسبانيا من قبل المسلمين

تدفق في هذه الآونة ملك المغرب وانقض مع ثلاثين مقدما، وجيش من المسلمين لايمكن تعداده، من أفريقيا على اسبانيا، للإستيلاء على

أراضي ملك اسبانيا، وبعدما عاثوا في عدة مناطق أخرى بالنار، وسلبوها دون أن يوفروا أحداً لجنسه، أو مرتبته أو عمره، إلاّ الذين استسلموا بأنفسهم أمام غضبه، وقد تألف جيشه من ستة ملايين من الرجال المقاتلين، وارتعبت المسيحية كلها أمام هذه الغزوة غير المتوقعة،[وسمعوا بأن البابا اقترح الدعوة إلى عقد مجمع ديني عام، وتشكيل حملة صليبية ضدهم، يقودها رتشارد المجيد ملك انكلترا، الذي ملأت شهرته الشرق ،ونشر رعباً كبيراً في جزء كبير من أفريقيا، وكانوا قد سمعوا أيضاً بسجنه وباطلاق سراحه، وكيف أنه منذ ذلك الحين قد أرغم ملك فرنسا على الانصياع له، ولذلك عاد جميع المسلمون إلى بلادهم.

موت الراعي وارين وخلافة جون للرعوية

في التاسع والعشرين من نيسان من السنة نفسها، مات وارين راعي كنيسة سينت ألبان، بعدما شغل ذلك الكرسي لمدة أحد عشر عاماً، وثمانية أشهر، وثمانية أيام، وقد خلفه جون، الذي كان راهباً من المؤسسة نفسها، وقد جرى انتخابه في الجادي والعشرين من آب، وتلقى في الثلاثين من الشهر نفسه، المباركة من رتشارد أسقف لندن.

نيابة هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري للبابوية

وكتب في الوقت نفسه البابا سيليستين إلى جميع أساقفة انكلترا يقول:« من سيليستين إلى إخواننا المحترمين: رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والأساقفة الآخرين المعينين للكنائس في جميع أرجاء مملكة انكلترا، التحيات، الخ: بما أنه من مهامنا الأمر بتقديم العناية الأسقفية إلى جميع الكنائس، إننا ننظر الآن بعين تقديرنا الأبوي بشكل خاص إلى الكنيسة الانكليزية، وقد قمنا من أجل سلامة تلك المؤسسة، بناء على النصيحة العامة لإخواننا، فرسمنا، بأن

يكون أخانا المبجل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، الذي لمحاسنه، وفضائله، وحكمته، وعلمه، تبتهج الكنيسة كلها، هو شخصياً المتولي لإدارة النيابة البابوية، وأن يمارس بارادته جميع أعمالنا من أجل رفع شأن الكنيسة، وفي سبيل سلام وسلامة المملكة كلها، خلال جميع أرجاء انكلترا، من دون أية امتيازات، أو استثناءات لكم، أو لكنيستكم ياأخانا رئيس الأساقفة، أو لأي شخص آخر، وبسلطات هذه الأحوال على هذا، نأمر كل جماعتكم، أن تقدموا الاحترام المستحق والتشريف إلى هيوبرت المذكور، بمثابة نائب للكرسي الرسولي».

لوم البابا لملك فرنسا من أجل طلاقه لزوجته

وكتب في هذه الآونة البابا سيليسين بين أشياء مختلفة كثيرة إلى رئيس أساقفة السين كما يلي:« بما أننا نمنح من قرارة أنفسنا وعواطفنا تقديراً خاصاً لملك فرنسا، قمنا بارسال ابننا المحبوب معاون الشماس، كمندوب للكرسي الرسولي ونائب له في سبيل أن يطلب من الملك المذكور وجوب معاملته لزوجته بعواطف الزوج، الزوجه التي أبعدها عنه، باصغائه لمشورة شريرة، وأن لايستمع إلى أولئك الناس الذين يرون أنه مربح القيام بزرع الكراهية وعدم الوفاق بين الناس عندما يستطيعون، ولذلك قمنا بناء على نصيحة إخواننا، بإلغاء قرار الطلاق إلغاء كلياً، وهو القرار الذي صدر مضاداً للشريعة، ونأمركم برسائلنا الرسولية هذه، ونوصي بكل دقة أخوتكم، إنه إذا ماأراد الملك المتقدم الذكر، أو رغب خلال حياتها الاقتران بواحدة مكانها، أن تتولى بعناية منعه من القيام بذلك، وذلك بوساطة سلطاتنا الرسولية».

مرسوم البابا إلى أساقفة انكلترا بشأن الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة كتب البابا سيليستين إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أساقفته الكهنة المساعدين حول مواضيع كثيرة من بينها

حول الأرض المقدسة قوله:« إخواني، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، الذين إليهم موكلة العناية بالأنفس، عليكم القيام بصلوات مستعجلة ومستمرة إلى الرب، حتى تقنعوا كثيراً من الناس، خاضعين لحكمكم، من أجل حمل الصليب، وأن تثيروا أنفسهم حتى يسببوا الاضطراب إلى معذبي المسيحية، ذلك أننا نأمل كثيراً جداً، وعليكم أن تأملوا أيضاً، أن يقوم الرب بتبشيركم وبصلواتكم، فيدع شبكتكم تنزل للصيد، وسوف يثير مثل هؤلاء الناس من أجل الدفاع عن البلاد الشرقية، فبفضل احسان الرب وليس بفضل قدرتهم وبراعتهم بالقتال، سوف يثورون، وأعداءه سوف يتفرقون، والذين يكرهونه سوف يفرون من أمامه، هذا وبالنسبة للذين سوف يقومون بهذا الحج في سبيل محبة الرب، وسيبذلون قصارى جهودهم وقدراتهم للوفاء بعهودهم، سوف نقوم بفضل السلطة الربانية الموكلة إلينا، بمنحهم التحليل نفسه من أي عقوبة مفروضة عليهم من قبل رجال الكهنوت، وذلك كما هو معروف بأن سلفنا قد منحوا ذلك في أيامهم، أي أن أولئك الذين سيتجشمون متاعب هذا الحج، بقلب خاشع ونفس متواضعة، سوف يكون مضيهم في هذه الرحلة بمثابة غفران لذنوبهم، وإذا ماتوا مخلصين، فإنهم سوف يحصلون على تحليل كامل من جميع آثامهم، وعلى حياة سرمدية، ولتكن سلعهم أيضاً وأسرهم من وقت حملهم للصليب تحت حماية كنيسة روما، وكذلك الأساقفة وبقية أساقفة الكنيسة، وينبغي أن لايكون هناك خلاف بشأن الممتلكات التي امتلكوها بسلام في أيام حملهم للصليب، وذلك حتى عودتهم، أو حتى تتأكد معرفة موتهم، ولتبق ممتلكاتهم بالوقت نفسه دون أن تلمس من قبل أحد أو تتأثر، والذين بعثوا بممتلكاتهم، لمساعدة تلك البلاد، سوف ينالون العفو عن ذنوبهم، وفقاً لما يقضي به الأساقفة، وبالنسبة لك أيها الأخ رئيس الأساقفة، رأينا من الموائم أن نعهد إليكم بمجهود هذا العمل، ونأمركم باستخدام نفوذكم، مع ابننا المحبوب بالرب، الملك اللامع لانكلترا، الذي عمل

هدنة لمدة ثلاثة أعوام في الأرض المقدسة، لكي يرسل فرساناً وجنداً مجهزين بشكل جيد لحماية تلك البلاد، ونأمركم أيضاً بالترحال خلال انكلترا، والقيام بحث الناس بمناسبة وغير مناسبة بشكل مستمر، والتبشير أيضا لتحريض الناس على حمل الصليب والسفر إلى بلاد ماوراء البحر للدفاع عن الأرض المقدسة»، [وعندما وصلت هذه الرسائل إلى مسامع الملك، تحمس كثيراً للعمل في سبيل الصليب، وحث الآخرين، ولاسيما الذين رقّاهم، بكثير من الطرق، لأن يكونوا متحمسين مثله أيضاً، وكذلك في سبيله هو نفسه، ومن أجل تقدم الصليب، وكذلك في سبيل انقاذ أرواحهم، ولكي يكون أكثر تأثيراً، وجه اللوم إلى بعض الذين كانوا غير مطاوعين لأعمال الحث والندب هذه، واتخذ لنفسه شكل واعظ، وغالباً ماكرر النصيحة للذين كانوا من حوله].

عقد معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا

عام ١١٩٦م، فيه أمضى الملك رتشارد عيد الميلاد في مدينة بواتو، وبعد عيد القديسة هيلاري، التقى فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا، في مؤتمر في لوافير Louviers، حيث عقدت فيما بينهما المعاهدة التالية: تنازل الملك الفرنسي للملك رتشارد ولورثته عن ايسودون Iso-udun مع توابعها، وعن جميع الحقوق التي له في بري Berry، وأوفرين وغاسكوني، وأعطاه تملكاً كاملاً لقلعة آرشي Arches، وكونتيتي أوشي Auches، وأموريل Aumarle ، وحصوناً أخرى كثيرة، هي التي استولى عليها الملك الفرنسي منذ عودته من الحج إلى الأرض المقدسة، وتنازل الملك الانكليزي إلى الملك الفرنسي عن دعواه بالنسبة لقلعة غيسور وجميع منطقة فكسين النورماندية، وفي سبيل تنفيذ هذه البنود كلها وتأكيدها، أوجدا بشكل متبادل ضمانات، وقررا غرامة خمسين ألف مارك فضي على الذي يخرق المعاهدة من الجانبين، لكن مع

مـرور الأيام، بعـدمـا تسلم رتشـارد الممتلكـات التي تقـدم ذكـرها مع الأمـاكن، ندم الملك الفـرنسي لعقـده لهذه الصفقـة، وجمع جيشـاً كبيراً ليلقي الحصـار على أمـوريل، وبناء عليـه أمـر الملك الانكليـزي بالقيـام بحجز جميع السلع والممتلكـات التي كانت في ممالكه، والتي هي عـائدة إلى رعاة ديرة: مـارمونتير Marmontier ، وكلوني، والقديس دنس، وتشـــــارتي Charite ، الذين كان الملك الفرنسي قد قدمهم ضمانة للمعاهدة المتقدم ذكرها، وأخـذ عليهم العهد بدفع المال المذكور آنفاً إلى الملك الانكليزي، إذا لم يلتزم الملك الفرنسي بمـراعاة اتفاقه، واستولى في الوقت نفسه الملك الفـرنسي على قلعة أموريل بالقـوة، وهدمها، وأعطاه ملك انكلترا ثلاثة آلاف مارك من الفضـة من المال المذكور آنفـاً، مقابل فـدية فرسـان ذلك الحصن، مع أتبـاعهم، وأن يسمح لهم بالمغـادرة من دون خيولهم وأسلحتهم، وبعد هذا استولى ملك فرنسا على نونانكورت Nonancourt، واستولى الملـك رتشارد على قلعة غـامي Gameges، وهكذا شغل الملكان نفسيهما في عملية الاستيلاء على القلاع.

موت وليم الذي كان من سكان لندن من قبل

وتفجـر في هذه الآونـة خـلاف في مـدينة لنـدن، ونزاع بين الأغنيـاء والفقراء حول توزيع حصص الضرائب التي يتوجب دفعها إلى الخزانة، والتي— كما قالوا— غالباً لم تفرض بالمساواة، وكان السبب في قيام هذا الخلاف هو وليم فتز— أوسبيرت Fitz- osbert، الذي قـام مراغمـة لجلالة الملك، فعقد اجتماعات للناس، وربط كثيراً منهم به بالأيمان لدى اجتماعهم، وعـاقب حتى الموت أخـاه مع رجلين آخـرين بريئين وكأنهم أدينوا بالخيـانة نحـو الملـك، وفجـر أخيراً عصيـاناً واضطراباً في كنيسـة القديـس بولص، وعندما علم فيما بعـد بأنه بسبب جرائمـه أثار غضب الملك ضده بشكل حاد، اعتصم في داخل بـرج احدى الكنائس، وكانت ملكاً خـاصـاً لرئيس الأساقفـة، وبذلك عمل قلعـة من المبنى المقـدس،

وعندما رأى بأن عصابة من الرجال المسلحين قد التفت من حوله، ولكي يتجنب الموت الذي كان يخشاه، ألقى النار في هيكل العذراء المباركة، وأحرقت هذه النار شطراً من المكان الذي كان مكرساً للرب، وسحب أخيراً من داخل الكنيسة، ونقل إلى برج لندن، حيث تلقى حكماً نهائياً، ولكي تلقي عقوبة انسان واحد الرعب في قلوب كثيرين، جرى تجريده من ثيابه الطويلة، وبعد ربط يديه خلف ظهره، وربط قدميه مع بعضهما، وضع على ظهر حصان، وجرّ خلال وسط المدينة إلى مشانق في تايبورن Tyburn ، وهناك جرى تعليقه بالسلاسل مع تسعة من أتباعه المتآمرين، وذلك بهدف اظهار أن عقوبة مماثلة سوف تنتظر الذين يجرمون بجرائم مماثلة.

وفي العشرين من تشرين أول[تشرين الثاني] من السنة نفسها جرت سيامة جون عمدة روان لأسقفية وينكستر، وفي هذا العام أيضاً بنى الملك رتشارد قلعة جديدة في جزيرة أندلي Andelys ، وذلك مراغمة لرغبات ولتر رئيس أساقفة روان، وبعد انذاره مرارا للتوقف عن هذا المشروع، وضع رئيس الأساقفة المتقدم الذكر نورماندي كلها تحت الحرمان، وبناء عليه ذهب إلى بلاط روما.

أسر هيوج دي شومونت

ونشبت في العام نفسه معركة بين أتباع الملك الفرنسي وأتباع الملك الانكليزي، وقع فيها بالأسر هيوج دي شومونت Chaumont، وكان صديقاً كبيراً للملك الفرنسي، وقد حمل إلى أمام الملك الانكليزي، الذي أعطاه سجينا إلى روبرت دي روز Ros ، وأعطاه هذا الفارس إلى وليم دي ايبني Epinayليعتني به، وكان وليم تابعاً له، وبسبب خيانة هذا التابع نجا، وكان ذلك بعد حصوله على إذنه، فقد دلّى نفسه من سور قلعة بونفيل Bonville على التوك Tuke حيث كان مسجوناً، وهكذا قال وداعاً لهم، وغضب الملك رتشارد غضباً عظيماً من روبرت

دي روز، وأخذ منه ألفاً ومائتي مـارك من الفضة لجريمته، وأمر بتعليق وليم دي ايبني على المشنقة.

أسر أسقف بوفياس ووليم دي ميرل

بعد هذا الحادث كان جـون، أخو الملك وميركادوس Mercadeus أمير برابانت يقـومـان بغـارة أمام مـدينة بوفيـاس Beauvais وبنيتهما الاستيـلاء على بعض الأسـلاب، فخـرج من المدينة فيليب أسقف ذلك المكـان مع وليـم دي ميرل Merle وابنه وعدد من الفرسان وبعض الجنود، للتصدي لهما، لكنهم وقعوا بالأسر بعد وقت قصير، وجرى قتل عـدد كبير من الجنـود، وفي هذا اليـوم، وبعـد عمليـة الأسر هذه، تابع النبيـلان الانكليـزيان نفسـاهما الزحف إلى ميلي Milli ، وهي قلعة كانت ملكاً للأسقف السالف الذكر، فاستوليا عليها بالقوة، ودمراهابعد ذلك، ثم عادا بعد هذا منتصرين، وأرسلا أسراهما إلى الملك الانكليزي، وبما أن الأسقف قد أسر بقوة السلاح، فقد أودع السجن، وغلّ بأغلال حديدية ثقيلة، وحدث في العام نفسـه فيضان مفاجىء للسين، وتدفقت المياه وأحاطت بالأبنية المجاورة المبنية سواء من الخشب أو من الحجارة، وسببت دمارها، الأمـر الذي أخاف ملك فرنسـا كثيراً وموريس أسقف بيرشي، الذي كـان مقيماً في باريـس، وغـادر الملك قصره، وأخـذ ابنه لويس معـه، وذهب لتمضيـة الليل في كنيسـة القـديسـه جنيفـا، وهرب الأسقف إلى كنيسة القديس فكتور.

حول رؤيا رآها أحد الرهبان وحول مطهرة ومكان للعقوبة القراءة حولهم مفيدة جداً

وقع في هذه الأيام واحـداً من الرهبـان العـائـدين إلى ديـر إيفهـام Evesham مريضـاً، وظل لمدة خمسة عشر شهراً يعـاني من آلام مبرحة بالجسد، وكـان دوما يتقيأ مايتناوله من طعام وشراب، إلى حـد أنه صار

أحياناً كل تسعة أيام أو أكثر لايتناول شيئاً، أو على الأغلب بضع نقاط من الماء البارد، ولم تستطع براعة أي طبيب معالجته، بل كان كل مايعطيه إياه أي واحد من الأطباء له تأثير معاكس، وهكذا تمدد على فراشه بلا حراك، ذلك أنه فقد كل قوته الجسدية، حتى أنه لم يعد بامكانه التحرك من أي مكان مالم يجري نقله من قبل الخدم، ولدى اقتراب حلول يوم قيامة ربنا بدأ يشعر بأن الأمور باتت أسهل، وسار حول قلايته وهو يتوكأ على عصا، ثم مضى أخيراً في الليلة التي تقدمت على يوم عشاء ربنا، وهو معتمد على عصاه، ودخل إلى قاعة كبيرة، مدفوعاً إلى ذلك بتقواه، دون أن يعرف هل هو في الروح أم في الجسد، وهناك عندما كان الرهبان المحتشدون يؤدون صلواتهم الليلية المعتادة إلى الرب، شعر بضغط عظيم للرحمة اللاهوتية، وللنعمة السماوية، إلى حد أن خشوعه المقدس قد فاق الحدود، فمنذ منتصف تلك الليلة حتى الساعة السادسة من اليوم التالي، لم يستطع منع نفسه من البكاء، وتقديم الشكر للرب، ثم إنه بعث خلف اثنين من الرهبان، من الذين يسميهم رجال الدين باسم« المعترفين»، واحداً بعد الآخر، وقام هناك وهو يبكي، ومع نقاء وصفاء بالقلب، بالاعتراف لكل واحد منهما بجميع أخطائه، حتى بالأخطاء الصغيرة جداً منهم، سواء أكانت ضد القصاص أو ضد وصايا الرب، ثم إنه سأل التحليل وحصل عليه، وهكذا أمضى اليوم كله في خشوع وفي تقديم الحمد للرب.

كيف وُجد الراهب نفسه راقداً وكأنه ميت

وحصل في الليلة التالية على قليل من النوم، وعندما قرع جرس الصلوات الليلية، نهض من فراشه، وأخذ طريقه إلى الكنيسة، لكن ماالذي حدث هناك، هو الذي تحكيه الرواية التالية: ففي صباح اليوم التالي، الذي كان يوم استعداد، وعندما نهض الرهبان من أجل الصلاة الصباحية، وكانوا يعبرون أمام مكتب كهنة الكنيسة، وذلك على

طريقهم إلى الكنيســة، رأوا الراهب نفسه متمــدداً سـاجـداً بقـدمين حـافيتين، أمـام كــرسي راعي الدير، وذلك حيث اعتــاد الرهبـان على التماس السماح، وكـان وجهه ملتصقـاً بالأرض، وكأنه يسأل السماح من واحد كان جالساً أمامه، واندهش الرهبان أمام هذا المشهد، وحاولوا أن يرفعـوه، فوجـدوه من دون تنفس وبلا حـراك، مع عينيـه وقد جحظتـا نحــو الأعلى، وكــان بـؤبؤا العينان والأنف مبللين بكميــة من الدم، فصرخوا جميعاً بأنه كان ميتاً، حيث وجـدوه قد فقد كل نبض في عروقه منذ زمن طويل، وبعـد أمـد اكتشفـوا أنـه مـايزال يتنفس لكن بضعف، فغسلوا رقبتـه، وصـدره ويديه بماء بارد، فـرأوه في المقـام الأول يرتجف قليـلاً بجسـده كله، لكنه مـالبث أن أصبح هادئـاً دون حركـة، وبقيـوا لوقت طويـل في شك كيف يعمل، غير عــارفين بشكل أكيــد، هل هو ميت أم تحسن بعض الشيء، وبعد طويل وقت، وبعـد مناقشات طويلة، حملوه إلى المصح، ووضعــوه على فــراش، وعينوا بعـض الأشخــاص لحراسته بعناية، ثم إنهم وضعـوا كمادات على صدره، وجربوا احسـاسه بوخـز قدميـه بالإبر، لكنهم لم يعثـروا على اشـارات بوجـود حياة فيـه، وبقي على هذه الصورة ممدداً على فـراشه من دون حراك لمدة يومين، أي من منتصف ليلة يوم الاستعـداد حتى منتصف يوم السبت التـالي، لكن في يوم السبت العظيم عندما كـان الرهبان على وشك الاجتماع من أجل قـداس منتصف الليل، بدأ جفنا الراهب المتقـدم الذكر بالتحـرك بشكل لطيف، وبعـد قليل بدأ شيء رطـب يشبـه الدمـوع يسيل على وجنتيـه، ومثل أي انســان ينتحب أثناء النوم، بدا وكأنه يتنهـد بشكل متـوالي، ثم ظهر بعـد قليل كأنه يتفوه بكلمات في حلقـه بشكل عميق، لكن بصوت كان من الصعب سماعـه، وبعد أمد عاد تنفسه إلى درجـة ما، ثم إنه بدأ يدعو القديسة مريم قائلاً:« يامـريم المقدسة، لأي جريمة حرمت أنا من السرور إلى هذه الدرجـة العظيمة»؟ وأخذ وفق هذه الطريقـة يكرر هذه الكلمات وكلمات أخـرى، فجعل بذلـك معـروفـاً، مـن قبل الواقفين،

حرمانه من بعض السرور العظيم، وبعد هـذا، هزّ رأسه، وكأنه قد أفاق من نوم عميق، وأخذ يبكي بمـرارة، وشرع بالتنهد، ودموعـه تتدفق من دون توقف، ثم إنه بيدين مغلقتين، مع أصابعه وقد تجمعت مع بعضها، أنهض نفسه فجأة، وأخذ وضع الجلوس، واضعـاً رأسه على ركبتيه وقد غطاه بكفيه، لأنه بدأ بنواحه ونحيبه، وبعد كثير من المحاولات من قبل الرهبان، ليقوم بعد ذلك الصوم الكبير والمعاناة الطويلة، فيتناول شيئا ما ليأكله، أخـذ قطعة صغيرة من الخبز، ثم استمـر يقظاً وهو يصلي، ولدى سـؤاله عما إذا كان يتـوقع النجـاة من مـرضه، أجـاب:« سـوف أعيش طويلاً بما فيه الكفاية، لأنني شفيت تماما من ضعفي»، وفي الليلة التالية، أي ليلة قيامـة ربنا، وعندما قرع الجرس من أجل الصـلاة الليلية، ذهب إلى الكنيسة من دون مساعدة، ودخل إلى السـدة، وهو مالم يفعله خلال الأحد عشر شهـراً الماضية، وفي اليـوم التالي بعدمـا أدى صلواته بشكل موائم، عدّ جديراً بالانعـاش عن طريق المشاركة في تناول العشاء الرباني المقدس.

كيف حكى الراهب المتقدم ذكره خبر الرؤيا التي رآها

وبعـد هذا التحق هذا الراهـب نفسـه بحماس في الواجبـات الدينيـة للرهبان الآخرين، وهم بدورهـم رجوه بالحاح اشباع رغباتهم بأن يحكي لهم الذي حـدث له، وكل الذي رآه في منامـه، لأنهم كـانوا مقتنعين بأن أشياء كثيرة قد أريت له، وذلك من خلال علامات واضحة، ومن سماع كلماته، ومن رؤية نحيبه المتـواصل عندما أفاق في اليوم المتقـدم، وبعدما أجلهم لبعض الوقت، صـاروا ملحين في طلبهم، قـام أخيراً وهو يبكي ويتأوه، وبصـوت متحشرج، فتحـدث عما ألم بـه وظروفـه وفق الترتيب التالي حيث قال:« عندما كنت— كما تعلمون— أعاني من عجز جسدي طويل وحاد، صرت أبارك الرب بالقول والتفكير، ورجعت إليـه شاكراً لتنازله بمطاردة عبـده الحقير بعصـاه الأبوية، وبعـدمـا فقـدت كل أمل

بالشفاء، شرعت بإعداد نفسي بقدر ماأستطيع حتى أتمكن من النجاة من عذاب الوضع المستقبلي، بما أنني كنت على وشك الاستدعاء من الجسد، وفيما أنا متفكر بشكل مثابر حول هذه الأشياء، أغويت في أن أسأل الرب أن يتلطف بطريقة ما، فيكشف لي أحوال الحياة المقبلة، وماهي الأوضاع بعد هذه الحياة، وبعدما تتحرر الأرواح من الأجساد، ذلك أنني بمعرفة ذلك أصبح أكثر تأكيداً بوضوح من أنا، وما أنا مقبل عليه، لأنني اعتقدت أنني سوف أغادر هذه الحياة وشيكاً، ثم ماالذي أنا علي أن آمل به، وماالذي علي أن أخاف منه، وذلك بهدف أن أنال قدر مايمكنني من عطف الرب، وعندما كنت أتقصى في هذه الأوضاع المتقلقلة، وبرغبة مني حتى أحقق هذا، ثابرت دونما انقطاع على التوجه بالدعاء، أحيانا إلى ربنا مخلص العالم، وأحيانا أخرى إلى العذراء المجيدة، إنما أملت في أن أنال تلبية لطلبي التقوي، بشكل خاص من خلال شفاعة القديس نيقولا المعترف الذي هو، الأعظم تقوى وقداسة، ورأيت في احدى الليالي مع دنو بداية الصوم الكبير، الذي انقضى مؤخراً، وأنا نائم قليلاً، قد ظهر لي شخص مبجل، وكله بهاء، وقد خاطبني بلطف زائد، بما يلي:« أيها الابن الأعظم محبة، خشوعك عظيم في الصلاة، ولقد امتلكت مثابرة عظيمة في مقصدك، ولن تكون أهداف صلاتك المستمرة، من دون ثمار من رحمة المخلص، وكن منذ الآن هادئاً في تفكيرك، وتابع الخشوع في صلاتك، لأنه من دون شك سوف تحقق على الفور طلب التماسك»، ولدى الفراغ من حديثه هذا، اختفى شخص المتحدث، واستيقظت».

كيف رأى الراهب نفسه عندما كان يعبد صليب ربنا أن هذا الصليب أصبح دموياً

« وصحيح أنني استيقظت، غير أنني حافظت على رؤية هذه الرؤيا في عقلي باستمرار، لمدة ستة أسابيع انقضت، وعندما نهضت في ليلة

العشاء الرباني، من أجل الصلاة الليلية، وتلقيت— كما تذكرون— القصاص على أيديكم، شعرت في وسطه بحلاوة في الذهن عظيمة تغلغلت في جسدي، حتى أنني في اليوم التالي شعرت أنه ممتع جداً البكاء من دون توقف، كما رأيتموني بأعينكم، وفي الليلة التالية بعد هذه، التي كانت ليلة الاستعداد، غرقت في نوم هادىء، لدى اقتراب ساعة النهوض للصلوات الليلية، ثم إنني سمعت بعض الأصوات، إنما بوساطة من أوصلت إلى أذني، أنا لاأدري، والذي أدريه أنها قالت:« انهض، واذهب إلى المصلى، واقترب من المذبح المكرس لعبادة القديس لورانس، وستجد خلف ذلك المذبح صليباً، هو الذي جرت عادة الدير بعبادته في يوم الاستعداد، وإنك مالم تفعل ذلك، من غير الممكن انجاز أي شيء وتحقيقه من قبلك في اليوم التالي، لأنه قد بقيت أمامك رحلة طويلة، وبناء عليه تعبد صليب ربنا في تذكر له نفسه، وقدم قربانا من قلب متواضع ونادم، واعلم بشكل مؤكد أن تقدمتك الصادرة عن تقواك سوف تكون مقبولة لدى الرب، وأنك سوف تبتهج بعد ذلك ابتهاجاً عظيماً بغناها»، وأفقت بعد هذا من النوم، وذهبت— كما بدا لي— مع الرهبان، لسماع الصلاة الليلية، التي كانت قد بدأت، وقابلت في ردهة الكنيسة رجلاً مسناً، مرتدياً ثياباً بيضاء، وكان هذا هو الذي تلقيت منه في الليلة المتقدمة القصاص، ثم إنني أشرت إليه إلى العصا المعتادة، ليقدم لي قصاصاً، الذي من أجله ذهبنا إلى بيت مجمع الكهنة، وبعدما نفذ مطلبي، عدنا إلى المصلى، ثم إنني ذهبت بمفردي إلى المذبح الذي ذكر لي أثناء نومي، فخلعت حذائي، وزحفت على ركبتي، وقصدت المكان الذي أخبرت أن فيه يمكن العثور على صليب مخلصنا، وحسبما كنت قد أخبرت قد وجدته هناك، وإثر ذلك غرقت كليا بالدموع، وألقيت بنفسي على الأرض بطولي، حتى أستطيع تعبده بخشوع أعظم، وعندما كنت راكعاً أمام تمثال المصلوب، وكنت أقبله على الفم والعينين، شعرت ببعض النقاط تتساقط بلطف على جبيني،

ولدى تحريكي لأصـــابعي، اكتشفت من لونهم، أنهم دم، وعـــلاوة على ذلك رأيت الدم يتدفق من جـانب المصلوب على الصليب، وكأنه يتدفق من عروق انسان حي، عندمـا يجري قطعها لترك الدم يسيل، وأمسكت الدم بيـدي، ولست أدري مقـدار النقاط التي تسـاقطت، وبهذه الدمـاء قمت بخشـوع بمسح عيني، وأذنيّ، وفتحات أنفي، ولاأعـرف إن كنت قـد أذنبت بعـد هذا، فقـد ابتلعـت نقطة واحـدة، وفعلـت ذلك أثناء انفعالي، أما النقـاط الأخرى التي أمسكتها بيدي، فقـد قررت الاحتفاظ بها».

كيف انفصل هذا الراهب نفسه عن الجسد ودخل المكان الأول للعقوبة

« وبعـــدمـا عبــدت هكذا صليب ربنا، سمعت بعــد وقت خلفي، صـوت الـرجل المبجل، الذي كنت قــد تلقيت منه في الليلة الفــائتـة، القصاص، ثم انني تركت حذائي وعصاي قرب المذبح، ولاأدري كيف أنني ذهبت إلى مجمع الكهنة، وبعـــدمـا تلقيت القصـاص، ست مـرات متفرقات، كما كنت قد فعلت من قبل، تلقيت التحليل، وقد جلس هذا الرجل العجـوز في كـرسي راعي الدير، فسجدت بنفسي أمـامـه، ثم إنه اقترب مني، وقـال لي الكلمة التـاليـة فقط:« اتبعني»، وبعـدما أقـامني، أمسك بيمينـي بثبـــات، إنما بلطف، وقـــد بقينا طـوال الوقت ويـدينا متشـابكتـان مع بعضهما، وحـرمت في ذلك الوقت من جميع مشـاعـري الجسـدية والعقليـة، ثم إننا سرنا على طـريق سـوي ناعم باتجاه الشرق، حتى وصلنا إلى قطاع واسع مـن المنطقـة، مخيف أن تنظر إليـه، له وضع مستنقع، قـد تشـوه بصلصـال كثيف، وكـان في ذلك المكان حشـد كبير جداً من الناس، أو الأرواح، لايمكن لأحد تعـدادهم، وكانوا معرضين لأنواع من العـذاب لايمكن وصفهـا وذكـرها، وكـان في ذلك المكان حشد كبير من كـلا الجنسين، من كل وضع، واحتراف، ومـرتبة، وجميع

أنواع المذنبين الذين أدينوا وحكم عليهم بالتعـذيب، وذلك وفقـاً لتنوع حـرفهم، ودرجات آثـامهم، ورأيت خلال فسحـة امتـداد ذلك السهل، الذي من غير الممكن وصول نظر الانسان إلى أطرافه وشاهدت حشوداً من التعساء قـد جمعوا على شكل أرتال، وصنفوا إلى فئات وفقـاً للتشابه بين جرائمهم واحترافاتهم، وكانو جميعاً يحترقون بشكل متساوي، مع أن صرخـاتهم كـانت متنوعـة، ولاحظت بـوضـوح بين جميع الناس الذين شاهدتهم، الذين يعاقبـون لأنواع من الذنوب، كل حسب طبيعة ذنبهم، كـانت درجة عقـوبتهم، حيث كـانوا يكفـرون وقتهـا عن ذنوبهم وجرائمهم، أو كـانوا— بفضل وساطـة آخرين— قد وضعـوا في مكان النفي، وحصلت العقـوبـة على اذن بتنفيـذهـا في منطقـة سماوية، هذا ورأيت بعضهم يتحملون عـذاباً أشد قسوة بعقل هـادىء، وكأن شعوراً بالمثـوبة قـد أعـدّ من أجلهم، ولذلك كـانوا يفكرون باستخفـاف بآلام العـذاب المرعب الذي كـانوا يعـانونه، ورأيت بعضهم يقفـز فجأة، من مكان تعـذيبهم، ويأخـذون طريقهم بقـدر مايستطيعـون من سرعـة إلى أطراف ذلك المكان، وبعد احتراقهم بشكـل مخيف، ولدى ظهورهم من البؤر، يركض المعذبون نحـوهم بمذاري، ومشاعل، وكل نوع من أنواع أدوات التعذيب، ويعيدونهم إلى مواضع تعذيبهم مجدداً، لينزلوا بهم كل نوع من أنواع العذاب، ومع أن هـذا كان يصاب بجـراحة، وهذا يطعن حتى القلب بضرباتهم، إنهم كـانوا يعـودون بعد ذلك، ويتـدرجـون من أقسى أنواع العذاب، إلى أقسى أنواع الآلام، لأن بعضـاً من الأكثر آثاماً هناك يبقـون في مـوت شنيع، دون المرور بمـزيد من العـذاب الشـديد، وكـان كل منهم يعـامل وفقاً لما عملوه من منـافع أو اقترفوه في افعـالهم الماضية، أو بالأعمال الجيـدة لرفاقهم، والذي رأيتـه كان أنواعـاً لاحدود لها من العذاب، فبعضهم كان يجري شبه أمام النار، وكان آخرون يجري قليهم بالمقـالي، وكـانت مســامير حمراء لشـدة الاحتراق تدفع إلى داخل بعض عظامهم، وجـرى تعذيب بعضهم في نتن مرعـب في حمامات من

القار والكبريت، ممزوجين برصاص ذائب، وبنحاس وبأنواع أخرى من المعـادن، وكـانت هناك هوام ذوات حجـوم هائلة لها أسنان مسمـومـة يلتهمـون بعضهم بها، وجـرى وضع بعضهم من ذوي المراتب العـاليـة على خـوازيق لها أشـواك نارية، وقـد مـزقهم المعـذبون بمسـاميرهم، وجلدوهم جلداً مبرحاً، ومزقـوهم بأنواع من الآلام الرهيبة، ورأيت في ذلك المكان كثيرين كـانوا معروفين بالنسبة لي، وكـانت لي علاقـة وثيقة بهم أثناء هذه الحيـاة، رأيتهم يتعـرضـون لأنواع من العـذاب، وكـان بعضهم أسـاقفـة، وبعض آخر رعـاة ديرة، وبعض من مـراتب أخـرى، بعضهم من رجـال اللاهوت، وكـان بعضهم في مناصـب علمانيـة، وبعضهم ذوي مناصـب ديرية، فلقـد رأيت كل هؤلاء، ورأيـت الذين كـانوا أقل دعماً بامتيـازاتهم الشرفيـه في الحيـاة الماضية، الأكثـر لطفـاً في تعرضهم للعـذاب الذي أوقع بهم، وأخبركم في الحقيقـة أنني أعرف إن مالاحظتـه بشكل خاص، هو أن جميع الذيـن عرفتهم بأنهم كـانوا قضاة للآخرين، أو أسـاقفة في هذه الحياة، كـانوا يتعذبون أكثـر من الآخرين، وذلك مع درجـات متصـاعـدة من الشـدة، ويبـدو أنه ممل بالنسبـة لي الحديث عن شـدة العـذاب الذي تلقـوه وهم يستحقـونه، أو عن الذي عانوا منه، وكم كـانت الأمور واضحة بالنسبـة لي، وليكن الرب شاهداً عليّ، أنني لو رأيت واحداً، كـان قد قتل جميع رفـاقي وأقربائي، وحكم عليه بمواجهة مثل ذلـك العذاب، أنا على استعداد لمواجهة الموت— إذا كـان ذلك ممكنا— الدنيـوي ألف مـرة، من أجـل انتـزاعـه من ذلك العذاب، لأن جميـع مارأيته هناك مـن تعذيب، فاق جميـع معايير الآلام، والحدة، والتعاسة».

حول المكان الثاني للتعذيب في المطهرةوأنواع العذاب

« بعـدمـا تجاوزنا مكان التعـذيـب، مـررت وأنا ودليلي وتابعنا سيرنا دون التعـرض للأذى، مثلما فعلنـا في أمـاكن التعـذيـب الأخـرى، التي

سأتحدث عنها فيما يلي: ووصلنا بعد ذلك إلى مكان آخر للتعذيب، وقد انفصل المكانان عن بعضهما بجبل لامس بارتفاعه السحاب تقريباً، وقد عبرنا قمته بسهولة، وسرعة، وكان يوجد في الجانب الأقصى لهذا الجبل واد عميق ومظلم، محاط من كل جانب بشعاب من الصخور العالية، لايمكن فوقها للنظر أن يمتد، ويوجد في قعر الوادي نفسه بعضاً من المياه، لاأعرف إن كانت نبعاً أم آسنة، وهذه المياه لها مساحة واسعة جداً ومرعبة بسبب نتانتها، وهي تصدر بشكل دائم أبخرة ذات ألوان لاتحتمل، ويصدر جانب الجبل المطل على الجهة الأولى من البحيرة ناراً تصل إلى السماء، ويوجد في الجهة المرتفعة المقابلة من التلة نفسها برد هائل، سببه الثلج، والبرد، والعواصف الهوجاء، إلى حد أنني اعتقدت أنني لم أشهد من قبل أي شيء مرعباً ومزعجاً من البرد مثله في ذلك المكان، والمنطقة الواقعة فوق الوادي، واحتلت جوانب الجبلين، اللذان يحملان هذين المظهرين المرعبين للحر والبرد حشود من الأرواح، عددها من الكثرة مثل نحل في أيام طيرانها، وعذاب هذه الأرواح بشكل عام، هو رميها في البحيرة الآسنة أولاً، ثم في وقت آخر، لدى خروجها من هناك، يجري التهامها من قبل لهب هائل ليتصدى لها هناك، وأخيراً بعد أمد من قبل كرات متحركة من النار، وكأنها شهب خارجة من أتون، حيث كان يطوح بها نحو العالي، ثم تسقط إلى قعر الشاطىء الآخر، ثم كانت تعاد ثانية إلى زوابع الرياح، وبرد الثلج، وصقيع البرد، ثم يرمى بها من هناك، وأثناء طيرانها بسبب عنف العواصف، كان يلقى بها ثانية في نتانة البحيرة، والنيران الملتهبة بغضب، وجرى تعذيب بعض الأرواح بالبرد، وبعضها الآخر بالحر، لمدة طويلة، وأبقي بعضها لمدة طويلة في البحيرة الآسنة، ورأيت آخرين مثل زيتون في المعصرة، قد عصروا وتمازجوا معا في وسط لهيب غير متوقف، وهو أمر مرعب حكايته، وكانت أوضاع الذين كانوا يعذبون هناك وقتذاك كما يلي: لقد أرغموا من أجل انجاز طهارتهم على المرور خلال وجه

تلك البحيرة من البــداية حتى النهــاية، ولقــد كــان هناك— على كل حــال— درجات كبيرة من التميـز بين أولئك الذين كـانوا يتعـذبون في هذا المكان، ذلك أن بعضهـم قـد سمح لهم بمـرور سهل وسريع، وفقـاً لفضائلهم ، والمساعدة التي قدمت لهم بعد موتهم، في حين جرت عقوبة الذين كـانوا من المقترفين لجرائم أعظم، أو نالوا مسـاعدة أقل بوسـاطة قداسات رفـاقهم، بشكل أكثر حدة، وبمدة أطول، لكنهـم جميعا، كانوا كلما اقتربوا أكثر من نهاية البحيرة، صاروا أقل شدة في التعرض للعذاب المتبقي، ذلك أن الذين وضعـوا في البــداية شعـروا بالعقـوبة والعـذاب بحـدة أكبر، علماً بأنهم لم يتألموا ســواء، وأخف أنواع العـذاب في ذلك المكان، كانت أكثر وحشية من أشد أنواع العذاب العائدة للمكان الأول الذي رأيناه من قبل، ورأيت في مكان العذاب هذا، وعرفت عدداً أكبر من المعارف، ممن رأيتـه في المطهرة الأولى، وفي الحقيقـة، لقد تحدثت مع بعضهـم، وكان بين من ميزته هناك صائغ كـان لي معروفاً بشكل جيد في الحيـاة، وعندما رآني دليلي أمعن النظر إليـه، سألني عما إذا كنت أعرفـه، ولدى معـرفته بأني كنت أعـرفه بشكل جيـد قال لي:« إذا كنت تعـرفه، تحدث إليه»، ونظرت الروح إلينـا، وظهر أنها عرفتنا بوسـاطة دلائل من السرور لايمكن وصفهـا، وقـدمت الشكر إلى الرجل الذي كـان دليلي، وبيــدين ممدودتين، وبانحنـاءات لجسـدهـا تعبـدتـه، وقـدم الـرجل له الاجـلال وشكره كثيراً لتلطفـه بالحديـث إليـه، ولدى صراخـه المتـوالي قائلاً:«ارحمني يا نيقولا المقدس» سررت لاعترافه باسم شفيعي القديس نيقـولا، الذي أرجـو أن أنال منـه الخلاص في كل من الجسـد والروح، ولدى سؤالي بعـد هذا الصائغ كيف مضى هكذا سريعاً خـلال العذاب الوحشي، رأيته يتألم، ثم أجـاب قائلاً:« أنت ياصـديقي، وجميع معارفي، الذين رأوا خـلال حيـاتي، بأنني قــد حـرمت من تأييــد جميع الايمان المسيحي، مثل الاعتراف، وقربان الموت، وقد عددت من قبل المسيحيين رجـلاً ضـائعـاً، دون أن يعلمـوا برحمة مـولاي، الذي هو معي، وأعني

بذلك القـديس نيقـولا، الذي لم يتركني، أنا عبـده التعيـس، أعـاني من مـوت مـدان سرمـدي، لأنه الآن، ودومـا، منذ أن جـرى تعييني لمكان العقوبة هذا، وعنـدما كنت أعاني تحت العـذاب الشديد، جـرى انعاشي مرارا بوسـاطة زيارة رحمته، هذا ربما أنني كنت في عملي بالذهب، الذي هو حرفتي، قد اقترفت كثيراً من أعمال الغش، وأقوم الآن بأقسى أنواع التكفير، فقد قذفت مـراراً وسط كومة من المال المحترق، واللهب الذي لايحتمل، وغـالبا مـاأرغمت بفم مفتوح على ابتـلاع هذه النقود كلهـا، وعلاوة على ذلك غـالباً ماأرغمت على تعداد هذه النقـود والشعور بأن يدي وأصـابعي التهمـت واحترقت بوسـاطتهم»، ثم إنني سـألتـه، هل يستطيع الناس بـوسـاطة أية وسيلة مخلصـة تجنـب مثل هذا العـذاب المرعب، وعلى هذا أجـاب وهو يتنهـد:« إذا مـاكتب الناس بأصـابعهم يوميا كل واحـد على جبينه، وعلى الأجزاء القريبـة من قلوبهم» « يسوع الناصري، ملك اليهود»، فإن عنـاصر الايمان هذه سوف تحفظه من دون شك وتبقيه دون أن يصاب بأذى، وهذه الأمـاكن ذاتها سوف تشع بعد الموت بضوء رائع، هذا وأشياء أخرى كثيرة قد سمعتها منه، لكن دعونا الآن نسرع إلى وصف أشياء أخرى، وليكن فيما قيل كفاية».

مكان التعذيب الثالث والأنواع المضاعفة من العذاب

« ثم إنني قمت مـع دليلي بمغـادرة هذا الوادي، الذي يعـرف حقـاً باسم وادي الدمـوع، وهو الذي صرنا إليه في المكان الثـاني، ووصلنا إلى سهل واسع قـائماً في الأسفل في قلب قعـر الأرض، وهو مـابدا أنه لايمكن الوصول إليـه، إلاّ لشياطين التعذيب، والأرواح المُعَذَّبة، وكان وجـه هذا السهل مغطى بشكل فـوضـوي كبير ومخيف، ممزوج بدخـان الكبريت، وبسحب من النتانة لايمكن تحملها، مع لهب قار أسود، وهذا كله كـان متصـاعداً مـن جميع الاتجاهات، وقد اختلـط بطريقة مـرعبـة، خلال جميع تلك الفسحـة الفارغة، ولقد امتلأ وجـه المكان بحشود من

الهوام، مثل إمتلاء ساحات البيوت وتغطيتها بالطفح والاندفاعات، وهؤلاء مرعبين فوق التصور ولهم أحجام عملاقة وأشكال مشوهة، مع وجود فتحة بين الفكين، وكانوا ينفثون بنار مروعة من فتحات آنافهم، فتمزق حشود المخلوقات التعيسة بشراهة، حتى أنه مامن أحد كان ينجو منها، والشياطين تركض في جميع الاتجاهات، مغضبة مثل مخلوقات مجنونة، فتستولي على المخلوقات التعيسة، وتقوم على الفور بتقطيعها إلى قطع، قطع بمخالبها النارية، هذا حينا، وحينا آخر تمزق جميع أجسادها وتفصل اللحم عن العظم، ثم تلقيهم في وقت آخر في النار، وتذيبهم مثل إذابة المعادن، ثم تعيدهم على شكل لهب محترق، واعلموا— يشهد الرب— أنني لاأذكر شيئاً، أو ما أذكره قليلاً عن عذابات ذلك المكان، لأن الرب وحده يعرف، أنني رأيت في تلك الفسحة الضيقة من الوقت، هؤلاء التعساء من المخلوقات، قد دمروا بمائة نوع، أو أكثر، من أنواع العذاب ثم أعيدوا على الفورمجدداً، ومجدداً تحولوا إلى لاشيء تقريباً، ثم أعيدوا مجدداً، لأن حياة ضائعة تسببت في تعذيبهم في ذلك المكان، ونظراً لتعدد أنواع العذاب، لم تكن هناك نهاية لآلامهم، لأن لهب تلك النار هو ملتهم إلى حد أنك تظن أن النار العادية أو الحمى هي دافئة، مقارنة بها، وجمعت إلهوام الميتة والممزقة إلى قطع، وتكدست في أكوام تحت التعساء، تملأ كل شيء بنتانة لاتحتمل، بشكل فاقت به جميع أنواع الآلام الأخرى، ويبقى ماهو أكثر مقتاً وحدة من كل شيء، هو ماستتحدث عنه؛ لأن جميع الذين عذبوا هنا، كانوا مذنبين بحياتهم بشرور غير مذكورة لها قيمتها عند المسيحيين، أو حتى عند الكفار أو المشركين، فقد جرت مهاجمة هؤلاء بشكل مستمر من قبل تنينات لها مظهر ناري، ومرعبات بشكل لايمكن وصفه، وهم لايعبأون بخصومهم ويقترفون عليهم الجرائم الملعونة، التي أذنبوها وهم على الأرض، وتتوالى صرخاتهم المخيفة حتى يغشى عليهم، ويظهرون أنهم موتى، ووقتها يعودون ثانية، ويتعرضون لعذابات

جديدة، وإنني أرتجف وأنا أحكي ذلك، وأنا مربك إلى أقصى الحدود تجاه قذارة جرائمهم، ذلك أنه حتى ذلك الوقت لم أسمع ولم أفكر أنه يمكن لكلا الجنسين أن يفسدوا بمثل هذه القذارات، أو الخزي، وهناك أعداد لاتحصى من الحشود التعيسة جداً، بشكل محزن جداً أن تأسف عليها، وأشكال الكثيرين في ذلك المكان، أنا لم أرها ولم ألاحظها، لأنني كنت مغلوباً بالرعب من الحجم الهائل للتعذيب، والقذارة، ووساخة النتانة، وكان ذلك مضايقاً إلى أبعد الحدود، حتى أنني لم أستطع الوقوف هناك للحظة واحدة، أو أن أنظر إلى ماكان يجري هناك، وحدث أخيرا أن صرخ أحدهم وسط الجلبة بصوت مرتفع:« واأسفاه، لماذا أنا لم أتب»؟ ولقد كان أنينهم مرتفعاً إلى حد أنه يخيل إليك، أن جميع المتألمين في العالم كانوا ينوحون هناك».

حول أحد المحامين وعذابه

« ومع أنني تجنبت قدرما استطعت النظر إلى شخص أثناء مروري هناك، لم أتمكن الهروب من رؤيته، وكان واحداً من رجال الدين، وكنت قد عرفته فيما مضى، وقد عدّ أثناء حياته رجلاً بارعاً جداً، وكان واحداً من الذين تولوا أعمال المحاماة، والتعامل مع القوانين، ولهذا السبب كان بالنسبة للموارد اللاهوتية، يغدو يومياً أغنى من البقية، ولقد دهشت تجاه حجم آلامه، ولدى سؤالي له عما إذا كان يتوقع الحصول على رحمة ما، أجابني وهو يصرخ« واأسفاه، واأسفاه، والويل لي، إنني أعرف، وأنا أعرف، أنني لن أتلقى رحمة في هذا الجانب من يوم القضاء، ثم بعدئذ أنا غير متأكد، لأنني منذ أن أخضعت إلى هذه الآلام، فإن عذابي يزداد سوءاً، ويجرني من سيء إلى أسوأ»، فقلت له: لماذا لم تقم أخيراً بالاعتراف بذنوبك، وتبت»؟ فأجابني؟« لأنني كنت آمل بالشفاء، فالشيطان قد ضللني، وكنت أخجل من الاعتراف بمثل تلك الجرائم المهينة، خشية أن أبدو غير محترم أمام الذين بدوت أمامهم مشهوراً

ونبيلاً، ولقد اعترفت بواحد من أخف آثامي إلى راهب، ولدى سؤاله لي عما إذا كنت واعيا ومتذكرا لذنوب أخرى، طلبت منه وقتها أن يتركني، ووعدت بأن أدعه يعرف، إذا ماعاد أي منها إلى ذاكرتي، وعندما غادر، وابتعد قليلاً، شعرت بنفسي أنني أموت، وعندما أُعيد إليّ من قبل خدمي وجدني أنني قدمتّ، ولهذا مامن واحد من أنواع العذاب الألف التي أتحملها يوميا يعذبني بقدر عمل تذكر آثامي، لأنني أرغمت بالفعل على أن أكون عبداً لدناءة ضعفي السالف، لأنه بالإضافة إلى عظمة هذه العقوبة التي لايمكن وصفها، أنا مسحوق بعار لايمكن تحمله، عندما أظهر على أنني واحد لعين بسبب هذه الآثام الكبيرة»، وفي اللحظة التي كان يتحدث بها هكذا إليّ، رأيته يتعذب بطرائق لاتعدّ ولاتحصى، وقد تناقص في وسطها حتى تلاشى وأصبح لاشيء، وذاب بقوة الحرارة، مثل ذوبان الرصاص، وسألت أنا أيضا القديس نيقولا، الذي وقف إلى جانبي، عما إذا كان هذا العذاب يمكن أن يخفف بأي نوع من العلاج، فأجابني:« عندما يحل يوم الحساب، وقتها سوف يجري تنفيذ إرادة المسيح، لأنه هو وحده يعرف قلوب الجميع، وعندها هو سوف يعطي إلى الجميع جزاء عادلاً»، وفيما بعد، عندما عدت إلى جسدي، جاء ذلك الكاهن الذي إليه اعترف ذلك المحامي بذنوب خفيفة، ودعا الرب في حضور كثيرين وعدّه شاهداً على أن ماقلته كان صحيحاً، لأن مامن أحد عرف هذه الأشياء، إلاه هو نفسه، ولقد أسقطت ذكر عذاب الكثيرين ممن شاهدتهم، خشية أنني إذا ماتكلمت أكثر منهم، سوف أسبب الغثيان إلى قرائي، وليكن في هذه الاختيارات القليلة كفاية».

الرؤيا التي رآها الراهب نفسه حول المجد السرمدي للمباركين

« أما وقد قمنا بالوصف الجزئي للأشياء التي رأيناها من أماكن العذاب والعقوبة للتعساء، بقي علينا أن نتحدث عن مواساة الذين

كانوا في الراحة، وعن المجد السرمدي للمباركين، الذي رأيناه بأعيننا، فبعدما سرنا لوقت طويل، وسط مختلف أنواع العذاب التي قمت بذكرها أعلاه، وبعدما رأيت مختلف أنواع آلام التعساء، ولدى متابعتنا طريقنا نحو المناطق الداخلية، بدأ الضوء بالظهور على درجات بشكل مريح أكثر، وهنا كانت الروائح جميلة وطيبة، وهنا كان السهل الغني مزدهراً بمختلف الأنواع الكثيرة من الورود، التي منحتنا سروراً لايمكن وصفه، ووجدنا في هذا السهل آلافا لاتحصى من الناس أو الأرواح، الذين بعدما عبروا من خلال عقوباتهم، كانوا يتمتعون هناك بالراحة السعيدة للمباركين، وكان الذين وجدناهم في الشطر الأول من هذا السهل، يرتدون أردية بيضاء بالفعل، غير أنها لم تكن لامعة، ومع ذلك لم يظهر عليها أي سواد أو بقع، مع أنها لمعت بأدنى درجات البياض، ورأيت بين هؤلاء عدداً كانوا معروفين لدي من قبل، وقد لاحظت بينهم راعي دير قدم مؤخراً من أماكن العذاب، وقد لبس ثياباً غير ملطخة، مع أنها لم تكن كثيرة اللمعان، ورأيت هناك ولاحظت واحداً من رؤساء الرهبان، كان بعد تحريره من جميع العقوبات يتمتع بسلام سعيد مع أرواح المستقيمين، وكان يأمل بالتأكيد بالرؤيا اللاهوتية التي كان على وشك نيلها مكافأة له، ورأيت في ذلك المكان نفسه، كاهنا كان قد امتلك نعمة الوعظ متحدة مع مثالية الحياة الجيدة، وقد حرر من الذنب كثيراً من الناس ليس فقط في أبرشيته التي كان مسؤولاً عنها، بل أيضاً من الذين كانوا بعيدين عنه، وكذلك بتعاون الرب، وبإضفائه مجداً لايمكن وصفه على كثيرين، مثلما أضفاه عليه نفسه».

مكان الراحة الثاني ومجد الساكنين هناك

ولدى متابعتنا السير من هناك نحو داخل منطقة الحلاوة هذه، ووضوح الضوء، وطيب الرائحة التي انتشرات أكثر، وقد عدّ جميع الذين سكنوا في هذا المكان بمثابة سكان للقدس العلوية، وكانوا قد

عبروا خلال عقـوباتهم بسهولة كبيرة جـداً، لأنهم كانوا الأقل مشـاركة بشرور العالم، والذي رأيناه لدى متابعتنا السير، لايستطيع اللسان التعبير عنه، كما أن الضعف الانسـاني غير مـؤهل لوصفـه، لأن من الذي هو جدير أن يبين بالكلمات، كيف أنه وسط الأرواح المباركة التي هي آلاف لانهاية لها قـد وقفت هناك، وكأنها واقفـة حـول آلام الرب ذات المهـابة المقدسة، والمخلص التقي للبشرية نفسه ظاهر وكأنه معلق على الصليب، والدماء تسيل من جسده كله بسبب الجلد، والاهانة بالبصاق، والتتويج بالشـوك والمسـامير قـد دفعت إلى داخله، وقـد طعن بالرمح، بينما تدفق نهر من الدماء فـوق يديه وقدميه، وسال الدم والماء من جـانبه المقدس، وإلى جـانبه وقفـت أمه، لكن الآن ليست قلقـة ولاحـزينة، بل مسرورة تنظر بمـلامح هادئة جـداً، فهـذا المشهد غير ممكن وصفـه، فهل يمكن لأحد، في الحقيقة، تخيل بأية رغبـة ركض الجميع نحو هذا المشهد، وأية تقوى توفـرت بين الذين شاهدوه، وأيـة خشوع كان هناك، وكـم كانوا كثـرة الذين كـانـت مـؤشراتهم تعبر عن الشكر لهذه النعمـة العظيمـة؟ ولدى تفكيري بعمق أكبر حـول هذه الأشياء، لست أدري فيما إذا كـان الحزن أو الخشـوع هو الذي ضلل عقلي غير السعيـد، ذلك أن الدهشـة والاعجاب حـرماني من الشعـور، وكان الخشـوع عظيماً إلى حد توجب معه قهـر الشيطان، بهذا الازدراء، وأن تهزم جهنم، وتحرم من أسلحتها، وأسـلابها، وأن يتعـافى الانسـان الضـائع، وأن يجري انتـزاع فـرائس الشيـاطين من بيت جحيمهم السام، وأن يوضعـوا في السماء بين جوقـة الملائكة، وأشيـاء كثيرة أنا رأيتهـا هنـاك وسمعتهـا، أخشى من الحديث عنهـا، حتى لاتبـدو غير معقـولة ولايمكن تصـديقهـا من قبل كثيرين، وأخيراً، بعد امضاء وقت طويل في النظر إلى هذه الرؤيا المبـاركة نفسها، اختفت فجأة، وفي المكان الفـارغ، حيث كـانت هذه المعجـزة المجيـدة مـوجـودة، عـاد الجميـع وهم مسرورين، ورجع كل واحـد إلى مكانه المحـدد، وتبعت دليلي، وأنا ممتلئ بالإعجاب، إلى المناطق الداخليـة، إلى

أمـاكن سكنى المبـاركين، وهنا كـان بريق الذين تجمعـوا، وهنا كـانت الروائح الطيبة المستنشقة، وهنا توفرت أيضاً تسابيح الذين حمدوا الرب.

مكان السرور الثالث ورؤى الرب

وبعـد السير لمسافـة، ومع ازديادطيب الأمكنـة أمـامنا، رأيت مـابدا جداراً من الزجـاج الصافي(الكرستال) وكـان عالياً إلى درجـة أن مامن انسـان كـان يمكنـه أن ينظر من فـوقـه، وإلى امتـداد لانهاية له، ولدى اقترابنا منه، رأيتـه يشع بضـوء هو الأكثـر لمعانا، وكـان يصـدر عنه من الداخل، ورأيت أيضـاً مـدخله مفتوحـاً، ومعلما بشـارة حماية الصليب، وقـد اقترب من هناك حشـد كـان قلقـاً جـدا للدخـول لأنه صـار عند المدخل، ورفع الصليب الـذي كـان في منتصف البـاب، نفسـه عـاليـاً، وبذلك فتح مدخلاً للذين اقتربوا، ثم إنه سقط ثانية ومنع دخول الذين رغبـوا بالدخول، ولكم كـان سرور الذين سمح لهم بالدخـول، عظيماً، وكم كان تشـوق الذين بقيوا في الخارج ينتظرون الرفـع التالي للصليب، فهـذا كله مـالا أستطيع وصفـه، فهنا وقف دليلي معـي لبعض الوقت، ولكن أخيراً تقدمنا نحـو الأمام، حيث كـان الصليب قد ارتفع، وانفتح المدخل لنا للدخول، ودخل مرافقـي من دون صعوبة، وكنت أنا خلفه، وأثناء ذلك نزل الصليب فجأة على يدي، وكـاد يمنعني من اتباع دليلي، ولدى رؤيتي ذلك بت مـذعـوراً جداً، لكنني سمعـت الكلمات التاليـة تصـدر عنـه حيث قـال:« لاتخف، وضـع ثقتك فقط بالـرب، وادخل بسـلام»، ولدى سماعـي هذا عـادت إليّ طمأنينتي، وعنـدمـا منحني الصليب مدخـلاً، دخلت، ولكم كان الاشعاع هائلاً، فـالضياء لايمكن تصوره، ولكم كان الضوء قـوياً الذي ملأ جميع تلك الأماكن، لايسألني أحـد عن ذلـك، لأنني غير قـادر عـن التعبير عنه في الكلمات، كما لايمكنني استرجـاع ذلك في ذاكـرتي، فلقـد أزاغ ذلك اللمعـان الناعم والفخم ناظري، إلى حد أنني لم أستطع التفكير بشيء يمكن مقـارنته به،

مما كنت قد رأيته من قبل، لأن ذلك اللمعان لايمكن تصوره، فهو كما كان لايعمي نظر العين، بل بالحري يجعل هذا النظر أكثر حدة، وعندما نظرت إليه، مامن شيء واجه ناظري سوى ضوء الجدار الزجاجي النقي(الكريستال) الذي تقدم ذكره، علاوة على ذلك كانت هناك من أسفله حتى أعلاه سلالم ذوات جمال رائع، جرى إعدادها وفق طريقة تتمكن بوساطتها حشود الأرواح المسرورة من الصعود حالما تدخل من الباب، ولم يتعب الذين صعدوا، ولم يكن هناك مصاعب ولا تأخير بالصعود، لأن الدرجة الأعلى كانت دوما أسهل بالصعود من صعود الدرجة التي كانت قبلها، وعندما وجهت عينيّ نحو الأعلى شاهدت مولانا مخلص البشرية، جالساً على عرش المجد، على شكل انسان، وبدا لي أنه مابين خمسمائة إلى سبعمائة أرواح مخلوقات مباركة، الذين صعدوا أخيراً عبر الطريق المتقدم ذكره، إلى مكان العرش، حيث تحلقوا من حوله على شكل دائرة، مع شارات تقديم الشكر له، وتعبدوه، هذا والذي هو واضح بالنسبة لي، هو أن ذلك المكان الذي كنت قد رأيته هو أنه لم يكن سماء السموات، حيث سوف يظهر مولى الموالي في صهيون، كما هو في جلالته، ومن هناك تصعد الأرواح إلى تلك السماء المباركة بسبب وجود الإله الدائم، ويأتي ذلك بعد إزالة جميع المصاعب والتأخيرات، وشعرت أنا— على كل حال— في نفسي بفرح وسرور عظيمين، وبكثير من السعادة، والبهجة، فمهما حاولت العبقرية الانسانية التعبير عن سرور وفرح قلبي وما شعرت به، سوف تخفق».

كيف أعيد الراهب المذكور إلى جسده

« وبعدما رأيت هذا كله وسمعته، وأشياء أخرى لاعدّ لها، تحدث القديس نيقولا إليّ قائلاً:« انتبه يابني، لقد حصلت الآن على مارغبت به، وذلك بقدرما هو ممكن لك، فلقد رأيت من جانب شرط الحياة المقبلة، ومخاطر المذنبين، وعقوبات الأشرار، وراحة المتطهرين الأنقياء،

وسرور الذين سـوف أخيراً يصلون إلى بلاط السماء، وأسرار آلام ربنا، وعليك الآن العـودة إلى صراعـاتك المميتـة، ولسـوف تتسلم، إذا مـا واظبت على خوف الـرب، الأشياء التي رأيتها بعينيك، وأكثـر من ذلك بكثير، إذا مـاسعيت بجسـد طاهر وبقلب بريء إلى انتظار يوم دعـوتك الأخيرة»، وعندمـا كـان يتحـدث إليّ هكذا، سمعت فجـأة لحناً رائعـاً بعذوبته وكأنه صوت جميع نواقيس الدنيا، أو أن كل شيء موسيقي كان يصوت مع بعضه، وكان في هذا اللحن عـذوبة رائعة، ومزيج متنوع من التناغم الشجي، ولست أدري هل الاعجاب بذلك للعظمة أم للعذوبة، وعندما كنت أصغي بتشوق لهذا اللحن غير الاعتيادي، كنت قد فقدت ذاكـرتي ثم لقـد وجـدت نفسي مـاأن توقف اللحن حتى فقـدت رفقـة دليلي، وعادت إليّ قوة جسدي، وعاد النظر إلى عيني وصرت قادراً على الرؤية، كما أن آلام مرضي السالف قد تدمرت، وقد تحررت أنا كليا من ضعفي، وجلست بينكم قوياً وصحيحاً، مع أنني قلق وحـزين، وبعدما عـدت إلى نفسي، وما أن سمعت من الرهبـان بأن احتفال الفصح كـان يقترب، حتى عـددت تلك الموسيقى التي سمعتهـا هي علامـة، على أنه حتى بين سكان السماء يجري الاحتفـال بأسرار الخلاص البشري ببهجـة وبفرح من قبل سكان السماء، وذلك مثلما عملت على الأرض من قبله، وهو الـذي خلق السماء والأرض مـن لاشيء، وأعني بذلـك يســوع المسيح، الذي ليكن إليـه مع الآب والروح القـدس جميع التشريف ومجد العالم بلا نهاية، آمين».

وسقط في هذه الآونـة هنري أوف شـامبين، الذي خلـف غي ملكاً للقدس، من النافـذة العليا في بيتـه، إلى الشارع، فانـدقت رقبته، وقتل، ولقد كـان ابن أخت لكل من ملكي فرنسـا وانكلترا: فيليب ورتشارد، ذلك أنه كان ابن بنت لويس ملك فرنسا، والد فيليب، وهي الابنة التي جاءته من اليـانور، التي كانت آنذاك الملكة زوجتـه، والتي تزوجت فيما

بعد من الملك هنري، والد الملك رتشارد، وبناء عليه عندما مات الملك المذكور، تطلبت بالضرورة أوضاع الأرض المقدسة ملكاً جديداً، وبحكم ذلك جرى باجماع من رجال الدين والناس واتفاق، انتخاب رجلاً فرنسياً لامعاً هو جون بريين، وكان رجلاً بارعاً في القتال، وعلى الفور جرى تتويجه ملكاً، وتقدمت شؤون المملكة تحت حكمه كثيراً.

ارسال الملك رتشارد رسلاً إلى روما للشكوى ضد رئيس أساقفة روان

عام ١١٩٧م، فيه كان الملك رتشارد في بور Bure في نورماندي، وكان يعاني من اضطراب عظيم لأن رئيس أساقفة روان قد وضع نورماندي تحت التعليق والحرمان من شراكة المؤمنين، فقد كانت أجساد الموتى ملقاة في ساحات شوارع المدن من دون دفن مما سبب رائحة نتن شديد بين الأحياء، ولذلك بعث وليم أسقف إيلاي، وكان مستشاره، مع أسقفي درم وليزكس Lisiex إلى بلاط روما ليترافعوا بقضيته ضد رئيس الأساقفة المذكور، لكن وليم أسقف إيلاي قد مات وهو على طريقه إلى روما، في بواتو، ودفن في الدير السسترشياني في دسبن Dispin في التاسع والعشرين من كانون الثاني، وتابع— على كل حال— الأسقفان اللذان كانا معه رحلتهما، ووصلا إلى روما، وعندما اجتمع الفرقاء بحضور مولانا البابا، وتم الاستماع إليهم بعناية، وقدّر مولانا البابا مع كرادلته، بعد مناقشة مستفيضة الأضرار والاضطراب الذي يمكن أن يلحق بالملك في نورماندي مالم يتم بناء تلك القلعة في أندلي، ونصحوا رئيس الأساقفة بالوصول إلى اتفاق سلمي مع مولاهم الملك، وأن يتسلموا منه تعويضاً كافياً، حسب تقدير رجال حكماء لما تمت خسارته، لأنهم أعلنوا إنه كان أمراً قانونيا تماماً لأي انسان كان قادراً أن يفعل مافعله ملك انكلترا، في تقوية الأجزاء الضعيفة من مملكته، حتى لايتعرض للخسارة أو الضرر من هناك، وعاد رسل

الطرفان مع شروط السلم هذه، وبذلك تمّ الحصول على نقض لقرار التعليق من شركة المؤمنين.

صيغة الاتفاقية التي عملت بين الملك رتشارد ورئيس أساقفة روان

كانت صيغة السلام والاتفاقية التي عملت بين ملك انكلترا، ورئيس أساقفة روان كما يلي:« رتشارد ملك انكلترا، بنعمة الرب، الخ: بما أن الكنيسة المقدسة هي قرينة الملك الأبدي، والمحبوبة الوحيدة من قبل الذي باسمه يحكم الملوك، ويمتلك الأمراء سلطاتهم، نحن نرغب في أن نعطيها المزيد من الاحترام والتقوى، ومزيداً من الثبات في اعتقادنا بأنه ليست الملكية فقط صادرة عن الرب، بل جميع القوى هي من عند الرب، ولذلك فإن كنيسة روان المقدسة، التي هي، كما هو معروف، الأعظم شهرة بين جميع ممالكنا، تستحق لأن نتشاور دوماً معها حول مصالحنا وفقاً إلى حاجات الوقت، والظروف الأخرى، ولذلك رأينا أنه من المناسب دفع تعويض من أجل تقدم وازديادالكنيسة نفسها، التي هي أمنا، وبما أن بلدة آندلي، وبعض المناطق المجاورة الأخرى، العائدة إلى كنيسة روان لم تكن محصنة بما فيه الكفاية، وكان هناك باب مفتوح للعدوان من قبل أعدائنا والتغلغل في بلادنا في نورماندي، من خلال هذه الأماكن نفسها، فبتلك الوسائل يغيرون على المنطقة نفسها، ويلحقون الضرر بها بالنار والاغتصاب، وبوسائل حربية شريرة أخرى، ولذلك قام صاحب النيافة أبونا وولتر رئيس الأساقفة مع هيئة كهنة روان، بتقدير صحيح لخسائرنا في المنطقة المتقدم ذكرها، وبناء على ذلك تمت عملية مبادلة بين كنيسة روان وولتر رئيس الأساقفة من الجهة الأولى، وبيننا أنفسنا من الجهة الأخرى، وذلك فيما يتعلق بعزبة أندلي، كما يلي: لقد منحنا رئيس الأساقفة المذكور، بموافقة مولانا البابا سيليستين الثالث ورغبته، ومع موافقة هيئة كهنة روان، بشكل دائم

وتنازل لنا ولورثتنا عن عـزبة آندلي المتقدم ذكرها، مع قلعـة« الصخرة» الجديدة، والغـابة، وكل مـاهو متعلق بها، مع امتيـازاتها، وذلك باستثناء الكنائس، والحاجيـات للجنود، وباستثناء عـزبة فـريســان Freisanas ومتعلقاتها، فذلك كله يحتفظ به رئيس الأسـاقفة المذكور وكنيسة روان، وله شخصياً ولـورثته، مع جميع امتيازاتهم، والاعفـاء من الجمارك، وهم بشكل مـوحـد إلى الأبـد، ومقـابل عن عـزبة آندلي المتقـدم ذكـرها مع متعلقـاتها، قـد منحنا، وتنازلنا تنازلاً أبدياً إلى كنيسـة روان، وإلى رئيس الأساقفـة المتقدم ذكـره، وإلى خلفائه، عن جميـع الطواحين التي نمتلكها بروان، أثناء عمل هذه المبـادلة، وذلك مـع جميع توابع المطاحن وأدوات الطحن من دون أي احتفــاظ بالأشيـاء العـائـدة للمطحنة أو للطحن وذلك مع جميع الامتيـازات والاعفـاء من الجمارك، وهو مـااعتـادوا أن يتملكوه أو يتوجـب لهم تملكه، ولن يكون قانونيـا السماح إلى أي انسان ببناء طاحون في ذلك المكان، مـن أجل إعاقة الطواحين المتقـدم ذكرها، عـــلاوة على هذا لقـد منحنـا إليهم بلدتي ديبي Dieppe وبوسلي -Bu celes مع توابعهما وامتيـازاتها، وكذلك عـزبة لوري Loures وغابة هاليمونت Haliermunt مع الحيـوانات البرية والمتعلقات الأخـرى والامتيـازات، ولسـوف يتملك رئيس الأسـاقفـة المتقـدم ذكـره والذين سيخلفـوه جميع هذه الأمـاكن بدلاً عـن عـزبة أندلي المتقـدم ذكـرها إلى الأبد، والشهود هـم التالية أسماؤهم.... وعملت هـذه المبادلة في روان، في سنة ١١٩٧م، وذلك في السنة الثامنة لحكمنا».

كيف حمل الملك رتشارد جسد القديس فاليري إلى نورماندي، وكيف أحرق هناك عدة سفن

وفي هذه الآونة أشير إلى الملك رتشـــارد، أن سفناً قــد اعتـادت على القدوم من انكلترا إلى القديس فاليري Valery لجلب مؤن إلى ملك فـرنسـا وإلى أعـدائـه الآخريـن، وبناء على ذلك زحف إلى ذلك المكان،

وأحرق البلدة، ودمر الرهبان، وحمل تابـوت القديس فاليري مع عظامه إلى نورماندي، وقـد وجد في الميناء هناك بعض السفن الانكليـزية محملة بالقمح والمؤن، وبناء عليـه أمر بشنق البحارة، وبـاحراق السفن، ووزع المؤن على جنوده.

كيف ضمن الملك رتشارد التحالف مع كونت فلاندرز

وفي هذه الآونة حرض الملـك رتشارد بوساطة الهدايا، جميـع الأقوياء في المملكة الفرنسية لإقامة صداقة معه، فقد أعطى خمسة آلاف مارك من الفضة إلى بلدوين كونت أوف فلاندرز مـن أجل مساعدته، وقدم ذلك الأمير رهائن إلى الملك كضمانة على أنه لن يعقـد اتفاقـاً مع ملك فرنسـا من دون موافقته، وتخلى سكان شامبين مع سكان بريتاني أيضاً عن ملك فرنسـا، وانضموا إلى جانب الملك رتشارد، وقـام وليم كريبن Crepin، قسطلان أوج Auge— مرغماً بالقوة— بتسليـم القلعة نفسها إلى الملك الانكليزي، الـذي قام على الفور بشحنهـا بقوة عسكرية، وحشـد الملك الفرنسي جيشـاً، وألقى الحصار عليها، وبينما كـان هذا يجري، قام الملك الانكليزي بنزول سريع على أوفريـن، واستولى على عشر من قلاع الملك الفرنسي، وعلى عـدد كبير من أتباعـه، لكن قبل أن يعود الملـك رتشارد إلى نورماندي استولى الملك الفـرنسي على قلعة أنجو، إنما بتسلمه خمسين ماركـاً من الفضة، أعطـى لجنود حاميـة القلعة أمانـا على حياتهم، وعلى جوارحهم مع خيولهم وأسلحتهم، واحتفظ الملك بالقلعة وقواها.

كيف جرى التضييق بشدة على الملك الفرنسي في نورماندي

وحاصر في الوقت نفسه بلدوين كونت فلاندرز قلعة أرآس Arras، وسمع الملـك الفـرنسي بهذا، فقـــدم إلى هناك مع جيـش كبير، ولدى وصـوله رفـع الكونت الحصـار، وغـادر إلى ممتلكاتـه، والملك الفـرنسي يطارده، إنما بعدمـا قطع هذا الملك مسافـة كبيرة بين البحيرات وخلجان

البحر، قام كونت فلاندرز بتدمير جميع الجسور، وبفتح قنوات جر المياه، وذلك من أمام الملك الفرنسي ومن خلفه، ولذلك لم يعد بامكان الملك الفرنسي لاالتقدم ولاالتراجع، ولم يعد ممكنا جلب أية مؤن إليه، وعندما وجد الملك نفسه في مواجهة هذه المصيبة، بعث رسالة إلى الكونت، بأنه جاء إلى هناك مع نية عمل اتفاقية سلمية معه، أو استرجاعه من ولائه للملك الانكليزي، وعلاوة على ذلك أخبر الكونت بأنه كان تابعاً له ومن رعيته وعلى ذلك الأساس لايجوز له، وغير متوقع منه القتال ضد تاجه، وعلى كل حال قبل أن يسمح الكونت لملك فرنسا بالمغادرة جعله يقسم أنه سوف يعيد إليه نفسه— الكونت— وإلى ملك انكلترا، جميع القلاع والحقوق، التي استولى عليها خلال الحرب، وحدد يوما لإبرام هذه الاتفاقية، وأعدّ الترتيبات لأن يجتمع هو نفسه مع الملك الانكليزي الذي يتوجب حضوره إلى مؤتمر يعقد يوم الأربعاء بعد عيد تمجيد الصليب المقدس، بين غيلون Gaillon ، وأندلي، وبذلك نجا الملك الفرنسي من الأسر من قبل الدوق، وعاد إلى ممالكه، لكنه بعدما عاد إلى باريس، اجتمع للتشاور مع نبلائه من أجل خرق الاتفاقية والتخلص منها، لأنه لم ير نفسه ملزماً بالحفاظ على يمين أداه مكرهاً.

حول بعض القوانين المفيدة التي عملها الملك رتشارد

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس ادموند، أصدر الملك والشهيد، الملك رتشارد، بناء على تشجيع هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري ومتولي العدالة في انكلترا، مرسوماً في وستمنستر، قضى بوجوب أن تكون معايير القمح والقطاني في جميع أرجاء انكلترا، وفي المدن وفي الأماكن الأخرى ذات حجم واحد، وبشكل خاص معيار الجعة، والخمرة، وأوزان التجار، ورسم أيضاً أن تكون الأقمشة الصوفية في جميع أرجاء المملكة بعرض ذراعين مع الحواشي، وأن تكون جيدة في الوسط كما هي في الأطراف، وعلاوة على ذلك رسم أنه لايجوز لتاجر أن يعلق أمام

حانوته أقمشة حمراء أو سوداء، أو أي شيء آخر يمكن أن يزيغ نظر الشاري ويخدعه في اختيار القماش الجيد، وأصدر مرسوماً آخر قضى أنه لايجوز استخدام صباغ، إلاّ الصباغ الأسود في أي مكان في المملكة، إلاّ باستثناء مدن الحواضر، أو المناطق، وإذا ماخرق أي انسان هذه القوانين وأدين بذلك، ينبغي سجنه جسدياً، ومصادرة سلعه لصالح الميزانية الحكومية؛ وفي هذا العام نفسه جرى انتخاب فيليب، الذي كان كاهنا من مقاطعة بواتو التابعة للملك، أسقفاً لدرم، وجرى تكريسه في اللاتيران من قبل البابا سيلييستين.

تتويج أوتو ملكاً على ألمانيا

وفي السنة الثامنة من حكم الملك رتشارد، وبناء على توصية من هذا الملك نفسه جرى تتويج ابن أخته أوتو ملكاً على ألمانيا، وقد قام على الفور بالزواج من ابنة دوق لوفين Louvain ، وفي يوم تتويجه، جلس إلى المائدة في الكنيسة معها، مع أنها لم تكن متوجة في ذلك الوقت، وفي هذا العام نفسه، وإثر وفاة البابا سيليستين، خلفه انوسنت الثالث، وفي يوم عيد القديس بطرس، جرى تكريسه بابا ووضع فوق كرسي القديس بطرس، وتحت رعايته ظهر في ايطاليا فرقة جديدة من المبشرين اسمها فرقة« اليعاقبة»، لأن أفرادها قلدوا حياة الرسل، وتجول هؤلاء الرجال بين المدن، والشوارع والقلاع، يبشرون بكلمة الانجيل، ويأكلون قليلاً، ويرتدون ثياباً خفيفة، ومن دون ذهب، أو فضة، أو أية مقتنيات أخرى، وتكاثر هؤلاء القوم خلال وقت قصير في جميع أرجاء العالم، بسبب فقرهم التطوعي، وكانوا يسكنون في المدن الرئيسية كسبعة أو عشرة، دونما اهتمام بالمستقبل، وبلا احتفاظ بأي شيء من أجل الاستخدام في الغد، وقد عاشوا أيضاً وفقاً لأحكام الرسل، ومهما اجتمع على موائدهم من وفرة بالأشياء، من خلال هدايا الصدقات، كانوا يتولون توزيعه على الفور على الفقراء، وقد تجولوا في كل مكان

يبشرون بالانجيل، وناموا في ملابسهم، واستخدموا فرشاً قاسية، ووضعوا حجارة تحت رؤوسهم بدلاً من الوسائد.

التوبة الرائعة لهيوج أسقف شستر

ووقع في هذا العام هيوج دي نونات Nunant أسقف كوفنتري أو شستر، مريضاً جداً عندما كان على طريقه إلى روما، وعندما أقعد على الأرض بسبب مرضه، وعرف بأن موته قد اقترب، بعث خلف جميع رجال الدين في نورماندي كلها، ووراء رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وبقدرما استطاع من آخرين، وعلى مسمع منهم جميعاً، وببراءة وقلب نادم، اعترف وهو يبكي، بصوت مرتفع بجميع ذنوبه، وأخطائه، وجرائمه التي تمكن من تذكرها، وكانت توبته عظيمة جداً، وكذلك ندامته، إلى حد أن جميع الذين وقفوا ونظروا إليه انفعلوا وأخذوا يبكون، وقام أخيراً وهو يبكي وينتحب، وبيدين متشابكتين، فتوجه بالرجاء إلى جميع الكهنة، ورجاهم بفضل الرب، أن يفرضوا عليه توبة مناسبة وتكفيراً لائقاً، يكون بمثابة توبة من جرائمه الكبيرة، التي اقترفها، غير أن رجال الدين الذين وقفوا إلى جانب فراشه يسمعون عن الحياة الشريرة للأسقف، ويرون بالوقت نفسه الندامة القصوى لقلبه، نظر أحدهم نحو الآخر، وكانوا جميعاً صامتين، غير عارفين النصيحة التي عليهم تقديمها بشكل مفاجيء، ولدى رؤية الأسقف لذلك قال لهم:« إنني أعرف، وإنني أعرف، أنكم سمعتم عن هذه الآثام العظيمة، إنكم تشكون وسط أنفسكم، حول ماذا عليكم أن توقعوه بي عن طريق التكفير، لكنني أرجوكم باسم مولانا يسوع المسيح، أن تحكموا علي بوساطة طريق التوبة، من أجل إزالة ذنوبي، ولكي أبقى— وفقاً لمشيئة الرب— في عذاب المطهرة حتى يوم الحساب، أي برحمة مخلصنا، الذي قامت رحمته على قضائه، يمكن أن أنجو». وقد أرضاهم هذا الرأي جميعاً، وذلك باستثناء الرحمة اللاهوتية التي ترغب دوما بانقاذ الجميع

ونجاتهم، وأن لايضيع أحـد، ثم قال الأسقف على مسمـع منهم جميعاً، واعترف وهو حـزين جـداً، بأنه طـرد الرهبـان من كـوفنتري، ولكي يضيف إلى أخطائـه أحل محلهم كهنة من رجال الدين، ولكي يكفـر عن ذنبه، لم يجد سوى طريقة واحـدة للتصحيح، هي أن يموت وهو مرتدياً لثوب من ثياب هؤلاء، الذين قام بمطاردتهم، وهو تحت تأثير الشيطان، وذلك طوال مـاكـان قادراً على ذلك، وأنزلهم إلى درجـة التسـول، ومن خـلال كراهيتـه وحقده آذاهـم بكل طريقة ممكنة، ويعـد هذا الاعتراف رجا أسقف بك Bec ، الذي كان واقفـاً إلى جانبـه بين الآخرين، أن يتصدق عليه، فيمنحه في سبيل عار الشيطان وخزيه، ثوب راهب، حتى يتمكن من اتخاذ وقـاة له في الحيـاة المقبلة الذين عـذبهم في هذه الحيـاة، وبعـدمـا جـرى منح ذلك له، أعطى كل مـاامتلكـه من ذهب وفضـة، وجواهر، وأواني ثمينة إلى البيوت الدينية وإلى الفقراء، وهكذا مات أكثر سعادة مما كان متوقعاً، وسط آمال ودموع الذين وقفوا من حوله.

حول استرداد كنيسة كوفنتري الديرية وطرد الكهنة

كـان في تلك الآونة يقيم في بلاط رومـا واحـداً من رهبـان الدير في كـوفنتري اسمه تومـاس، وكـان قد تعـرض للطرد مع رفـاقه كما تقـدم التبيـان أعلاه، مـن قبل الأسقف المتقدم الـذكر، وكـان يسعى بوسـاطة سلطات الحبر الأعظم أن يعيد الرهبان إلى سالف وضعهم، بعدما جرى تفـريقهم في جميع الجهـات، وكـان بعـض إخـوانه الرهبـان قـد مـات، وبعضهم قد ترك البلاط مرهقاً وفقيراً، وحافظ هو وحده وثابر مع هذه القضية، مع أنه بسبب فقـره، غالباً ماأرغم على التسـول في سبيل خبزه، وعندما سمع بالأخبار التي كان يتمناها، والتي تحدثت عن وفاة أسقف كوفنتري، ارتفعت آمـاله في قلبه بالرب، الذي أظهر جـوده نحو أولئك الذين وثقـوا به، وثابـروا على فعل الخير، وفي أحـد الأيام، عندمـا كـان البـابا الجديد أنوسنت جـالسـاً في مجلسـه مـع كـرادلتـه، اندفع الراهب

المذكور إلى وسطهم بشكل مفاجىء، وقدم إلى البابا شكوى طرح فيها قضيته، وبعدما قرأ البابا الشكوى، رد على الراهب المتعجل:« ألم يحدث أمام ناظري ومسمعي أن رفضت هذه الشكوى مراراً من قبل سلفينا: كليمنت وسيليستين، فهل تظن أنك ولم تستطع الوصول إليهما، أن تفعل ذلك معي، وكأنني أحمق»؟ وأضاف وهو مغضب« غادر ياأخانا، غادر، لأن من المؤكد أنك تنتظر هنا من دون غاية»، ولدى سماع الراهب هذه الكلمات، ردّ وهو يبكي بحرقة قائلاً:« أيها الأب المقدس، ان شكواي عادلة، وهي كلها صادقة، ولهذا لم أنتظر عبثاً، ذلك أنني سوف أنتظر موتك، مثلما فعلت بالنسبة لمتقدميك، لأن الذي سوف يخلفك سوف يستمع إلى شكواي بشكل فعال»، ولدى سماع البابا لهذه الكلمات كان مندهشاً بشكل مؤثر، والتفت إلى كرادلته الذي جلسوا بجواره وقال:« هل سمعتم الذي قاله هذا الشيطان، فلقد قال بأنني سوف أنتظر موتك كما انتظرت موت سلفيك، ثم إنه التفت إلى الراهب وقال: ياأخانا، بحق القديس بطرس، لن تنتظر موتي هنا، لأنه جرت الموافقة على شكواك»، وقام على الفور، وقبل أن يتناول أي طعام، فأرسل أوامره إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، أنه فور تسلمه لرسائله، عليه الذهاب شخصياً إلى كنيسة كوفنتري فيطرد الكهنة، ويعيد اسكان الرهبان، وقام رئيس الأساقفة المذكور، وهو مؤيد بسلطات الحبر الأعظم، فنقل الكهنة المتقدم ذكرهم، وفي الثامن عشر من كانون الثاني أعاد الرهبان وأقرهم في موضعهم، وبما أن رئيس رهبان ذلك المكان كان قد مات عندما جرى طرد الرهبان إلى المنفى، عين رئيساً عليهم نورمانديا اسمه جويبيرت Joibert، الذي تولى الحكم على ثلاث رئاسات رهبان هي ديفنتري Davertry، ووينلوك Wenloc;، وكوفنتري، وكان ذلك بسبب براعته العالية في إدارة الأعمال المدنية، وقد قام على الفور، بناء على نصيحة الرهبان، فأقام انتخاباً لأسقف، وبموافقة من الجميع وقع الاختيار على غيوفري

موسكهامب Muschamp ، وكان رئيس رهبان بيرموندي Bermondsy يحتضر آنذاك، في تلك الآونة أيضاً، ولكي يرضى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري جشع جوييرت المتقدم ذكره، أضاف إليه رئاسة الرهبان الرابعة هذه، وذلك مع الثلاثة المتقدمات.

حول سيامة أسقفين

وفي الأحد الرابع بعد الصوم الكبير، جرت سيامة يوستاس عميد سالسبري أسقفاً لإيلاي، من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر، وبعد هذا جرت سيامة غيوفري الأسقف المنتخب لكوفنتري، من قبل رئيس الأساقفة نفسه في كانتربري، وكان ذلك في الحادي والعشرين من حزيران، وتساقطت في هذا العام نفسه زخات من الدم على الذين كانوا يبنون القلعة في آنديلي في نورماندي، وربما كان ذلك انذاراً بموت الملك رتشارد الذي وقع بعد ذلك بوقت قصير، وعمل في هذه الآونة أيضاً، غيوفري رئيس أساقفة يورك سلاماً مع الملك وأخيه في نورماندي، لأن الملك كان منزعجاً منه لعزله مستشاره عندما كان سجيناً للامبراطور.

عزل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري من وظيفة رئاسة العدالة

ونشبت في هذه الآونة خلافات بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان الثالوث المقدس في ذلك المكان حول الكنيسة الجديدة التي بناها رئيس الأساقفة في لامبث، لأن الرهبان كانوا خائفين، من أن ينقل الكرسي الكاتدرائي إلى هذا المكان الأخير، وبناء عليه أرسلوا شكوى إلى روما، إلى البابا انوسنت، بأن رئيس الأساقفة، كان على الرغم من مكانته وسمو مركزه، يعمل رئيساً للعدالة في انكلترا، وقاضياً حول مسائل تتعلق بالحياة والموت، وأنه يهتم بالشؤون المدنية، أكثر من اهتمامه بشؤون اختصاصه، ويهمل شؤون الكنيسة، واتهموه بحقيقة، أنه بأمر

منه جرى تدنيس كنيسة القديسة مريم في آرشي Arches في لندن وخرق حرمتها، وذلك عندما جرى سحب وليم ذي اللحية منها، وربط إلى ذيول خيول، وجرّ خلال شوارع المدينة، وأخيرا جرى تعليقه على المشنقة، وبهذه الطريقة أنفق الرهبان كمية كبيرة من المال حولها، وأساءوا كثيراً إلى سمعة رئيس الأساقفة، ولدى سماع البابا بهذه الأشياء أمر ملك انكلترا، القيام على الفور ـ لدى تسلمه لرسائله، وتحت التهديد بعقوبة الحرمان من شركة المؤمنين ـ بعزل رئيس الأسافقة من وظيفة رئاسة العدالة، لأنه كان محرماً بشكل خاص على الأساقفة التورط في القضايا المدنية، وعزل الملك رتشارد رئيس الأساقفة، وعين غيوفري فتز— بيتر في موضعه.

معركة بين الانكليز والويلزيين سقط فيها كثيرون

وفي هذا العام نفسه، عندما كان الملك رتشارد، مقيماً فيما وراء البحر، حشد غيوفري فتز— بيتر رئيسَ العدالة في انكلترا، جيشاً كبيراً، وزحف إلى ويلز، ليساعد وليم دي بروز Brause وأتباعه الذين كانوا محاصرين في قلعة ماتيلدا من قبل وينيونون Wenunwen، ملك الويلزيين، ولدى وصوله إلى هناك نشبت معركة، لم يكن الويلزيون فيها قادرين على مقاومة الانكليز، ولذلك أرغموا على الفرار، وألقوا أسلحتهم في سبيل الفرار بشكل أحسن، مما شجع الانكليز، وقد قيل بأن أكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة منهم قد قتلوا، أي من جنودهم، وذلك إلى جانب الذين وقعوا بالأسر، والذين أصيبوا بجراحات قاتلة، وقتل من الانكليز رجل واحد فقط، وقد أصيب بسهم غرب رماه به من دون انتباه واحداً من جنود جيشه.

كيف أسر الملك رتشارد في معركة مع الملك الفرنسي عشرين فارساً

في هذه الآونة نفسها التقى فيليب ملك فرنسا مع الملك الانكليزي رتشارد في معركة بين جوميجي Jumieges وفيرنون Vernon، وأرغم الملك الفرنسي وأتباعه في هذه المعركة على الفرار، وانسحبوا إلى فيرنون من أجل السلامة، لكن قبل أن يتمكنوا من الدخول إلى القلعة، تمكن الملك رتشارد الذي كان يطاردهم بحد السيف، من أسر عشرين فارساً، وأكثر من ستين جنديا، وفي العاشر من ايلول من هذا العام دفع رتشارد أسقف لندن دين الطبيعة وسدده.

حول النصر الرائع الذي ناله الملك رتشارد

وحشد في هذه الآونة الملك رتشارد جميع قواته، وبتأييد من شجاعة عساكره الانكليز استولى بالقوة على ثلاث قلاع من قلاع الملك الفرنسي هي: سيرفونتان Sirefontan، وبور Burs وحصن كورسيل Curcel، وقدم الملك الفرنسي الذي لم يعتقد بأن قلعة كورسيل قد تم الاستيلاء عليها بعد، من نانتي Nantes لتقديم المساعدة إلى ذلك المكان، مع أربعمائة من الفرسان وعدد من المرافقين مع جميع جنوده، وعلم الملك رتشارد بهذا بوساطة كشافته، فقدم من الاتجاه المعاكس للتصدي له، واشتبك بمعركة إلتحامية مع الفرنسيين بين كورسيل وغيسور، ولم يستطع الملك الفرنسي الصمود أمام صدمة حملات القتال، فهرب مع مرافقته إلى قلعة غيسور، وعندما كان الهاربون منسحبين فوق جسر تلك البلدة، انهار بسبب الحشود التي اندفعت من دون صبر للعبور عليه، وسقط الملك نفسه مع فرسه ودروعه وسلاحه في نهر إيثي Ethe ، مع عدد لايحصى من الفرنسيين الآخرين، وعندما كان مرميا هناك، زحف وسط الوحل، وبصعوبة أنقذ من الموت، وفي الوقت نفسه قامت نخبة من العساكر الفرنسيين، بالتصدي للملك رتشارد، وقاموا بهجوم حاد عليه، وفعلوا ذلك من أجل مساعدة مليكهم، ولإنقاذه من السقوط بين يدي الملك الذي كان يطارده، وبذلك عرضوا أنفسهم

للموت في سبيل الحفاظ على ملكهم، ثم استعر القتال من على الطرفين، وقرعت السيوف على رؤوس الخوذ، وأصدرت شرراً بسبب الضربات المتوالية، ورمت الرماح القاسية بالأعداء في جميع الاتجاهات، هذا وليس لدي وقت للتفاصيل، المهم هو أن حدة القتال لم تتوقف حتى أسر الملك الانكليزي كل المجموعة المقاومة، وترجل الملك رتشارد في هذه المعركة، واتخذ أسرى لنفسه ثلاثة من نخبة الفرسان هم: متى دي مونتمورنسي Montmorenci، وألان دي روسكي Rusciوفولك دي جايلرنالي Gilernalles ، وجرى معهم أسر الرجال التالين من أصحاب المراتب في المملكة الفرنسية: غالي دي بورتا Galis de por-ta، وجيرارد دي كوري Chori، وفيليب دي نانتويل Nanteuil، وبيتر دي اسكان Eschans ، ورويرت دي سينت دني Denys ، وثيوبولد دي وولنغار Wallengard، وسيدونال دي تري Cedunal de trie، وروجر دي ميتلنت Meetlent، وإيم ترير Aim triers، ورينالد دي أسكي Asci، وبلدوين دي ليزني Leisniوتوماس دي أسغنت Asgent، وفيريوس دي باريس Ferrius de paris، وبيتر دي لاتوتنيا Latotnia، وغي دي نافار Nevers ، وفرومنتين أوف شامبين Frumentin of champagne، وثيودورك دي أنسي An-ceis، وأنفريك دي بعليم AnFrie de Baalim، وايبورارد دي مونتني Eborard de montigny، وأودو دي مونتسيون Munt-ciun، وفونكارد دي روشي Funcard de Roche، وولتر روفوس Rufces، وأرنولف دي ليني De Arnulph leini، ووليم دي بانسيتو Banceto، وجوكن دي بري Joken de Bray، وبيتر دي بنسي Pinci ودينبرت دي أوجي Augi ، وبونكارد دو شاتيل Pun-card du-chatel، ووليم دي ميرلون Merllon، وجون دي غرانجي Granges، وثيوبولد دي برون Breun، وروجر دي بومنت Beau-mont، وغيلبرت دي بري Brayex، وبيتر دي ميدول Maidul ،

وجـون دي سـيرني Cerni ، وألارددي لـوفـير Alard de Lo-viers، ورالف دي فـالنسيل Falencel، وفيري دي بروني Ferri de Brunaye، وتوماس دي كاستيل Castele ، ووليم دي روشمونت Rochemont، وثيـوبولد دي ميشي Misci وإلى جـانب هؤلاء الذين تقدم ذكـرهم، أسر الملك مائـة فارس، وغنم مـائتي فرس مغطاه بالدروع، وعدداً كبيراً جداً من الجنود الخيالة والرجالة ورماة الزنبورك، وبعث بعـد هذا رتشارد المنتصر رسـائل إلى جميع أصـدقائـه في انكلترا، مثل رؤسـاء الأسـاقفـة، والأسـاقفـة، ورعـاة الـديرة، والايرلات، والبارونات يرجوهم بإخلاص وحراره أن يشاركوه بتمجيد الرب، لأنه منحه مثل هذا النصر على أعدائه.

إبرام معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا

وبناء عليه عندمـا رأى فيليب ملك فرنسـاأن قوة ملك انكلترا تزداد يوميـاً، في حين تزداد قـوته عجزاً، تراجع أمـام الحاجـة، وأرسل بشكل سري رسله إلى الحبر الأعظم، عـارضـاً توسـلاتـه حتى يتفضل لعمل ترتيبات مع ملك انكلترا، أو أن يقيم هدنة يوقف خـلالها القتال لبعض الوقت، من أجل أنه بعد إقامة الهدنة وتثبيتها من قبل البابا نفسه، يمكن بالتعـاون معـه، لملكي المملكتين أن يكونـا قـادرين على الوفـاء بعهـدي حجهما، ومن تحرير أرض الميعاد من سلطان أعداء المسيح، ولكي يكون هذا مضموناً وموثوقاً، سأل الملك البـابا إرسال أحد الكرادلة مع سلطة ايقاع العقـوبة إلى البلدان الغربيـة، حيث يمكنه إذا دعته الضرورات أن يتفـوه بقـرار الحرمان مـن شركة المؤمنين، ضـد أي واحـد يجده معـاديا للسـلام والمصالحة، واقتنع البـابا انوسنت بهذا وبمطالب أخـرى، ولأنه كـان راغبـاً بتقـدم القضيـة الصليبيـة، وتأثر أكثـر بالمال منه بالتـوسل، فـاستجاب فأرسل بطرس أوف كـابوا Capua، وكان واحـداً من كـرادلتـه، لإقامـة سـلام بين الملكين، وبعـد وصـوله إلى ممتلكات الملك

الفرنسي، أخذ معه— بناء على نصيحة الملك الفرنسي— بعض الأساقفة من المملكتين، ولدى وصـــوله إلى عند ملـك انكلترا بيّن له المآسي التي كانت واقعة وسوف تستمر بالوقوع في مملكتي الملكين مالم يصنع سلام، على الفور، بينهما، وأجابه الملك الانكليزي مغضباً، قائلاً بأنه ليس ملزماً بالشريعـة على فعل شيء بناء على أوامر البـابا، لاسيما وأنه سأله مـراراً، إرغام الملك الفرنسي بوساطة العقوبات الكنسية، لأن يعيد إليه الأراضي والقلاع، التـي استولى عليها الملك المذكـور بشكل ظالم، وبدون مـراعاة ليمينه، وذلك عندمــا كـان شخصيـاً في أرض الميعــاد، يعمل على طرد أعـداء الصليب، ويسعى إلى إعـادة الأرض المقـدسـة إلى وضع مـوائم، وبناء عليـه، لقد أرغـم، بسبب غلطة البابا نفســه، على انفـاق مبلغ كبير من المال في سبيل استعـــادة أراضيــه الموروثة، وبـذلك لم يقترف الملك الفـــرنسي إثم الحنث باليمين فقط، بل خـــرق أيضـــاً عقـوبة الحرمـــان الكنسي، وعلاوة على هذا كلـه هو لم يعرف فيما إذا كان الملـك الفرنسي يوافق على الهدنة، وعند ذلك أخـذ الكاردينال الملك الانكليـزي جانبـاً، وأخبره— تحت التعهـد بـالسرية بأنه بمبـادرة مـن ذلك الملك ومطلب منه، قد جرى إرساله من قبل البابا لإقامة سلام بينهما، ونصح الملك أن يستجيب في هذه المرة إلى رغبـة البابا، وليكن واثقاً مطمئنـا إلى أن البابا سوف يصغي إليـه فيما يتعلق بملك فرنسا، وكـذلك فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، وكـان الملك رتشارد راغباً إلى أبعد الحدود بمصـالح ابن أخته أوتو، الذي جرى تتـويجه مؤخراً ملكاً على ألمانيـا، وكان يريد أن يحصل له من البـــابا على وصـــول سهل إلى العـــرش الامبراطـوري، ولذلك استسلم إلى التـوسـلات التي صـدرت عن الجميع، ورضي بالترتيبـات، وبناء عليـــه التقى الملكـان، وأقسما على الحفـــاظ على الهدنة لمدة خمســـة أعـوام، مع شرط السماح للرعـايـا والتجـار من الجانبين، أي العـائـدين للملكين، بالذهاب والإياب حسب رغباتهم، بغرض البيع أو والشراء، في جميع مناطق وأسـواق كـل من المملكتين، وبعـد عمل هذا وانجـازه،

أرسل ملك انكلترا راعي دير كيرتسي Chertsey وريموند الراهب العائد لدير القديس ألبان، الذي كان قد بُعث إلى نورماندي للقاء الملك من أجل قضايا الكنيسة، أرسلها إلى روما، لحمل المعاهدة المتقدمة الذكر ووضعها موضع التنفيذ، وفي سبيل تنفيذ هذا كله، فرض الملك ضريبة خمسة شلنات على كل هايد(فدان) من الأرض مفلوح في جميع أرجاء انكلترا، وذلك من أجل مساعدته.

كيف دمر هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري كنيسة لامبث

عام ١١٩٩م، فيه قام هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري بتدمير كنيسة لامبث، على نفقته، وفي جلب العار لنفسه ولآخرين كثر، وذلك بناء على طلب رهبان كانتربري، وأوامر الحبر الأعظم، وكانت هذه الكنيسة قد أسست من قبل سلفه بلدوين، وأنهاها هو نفسه.

وفاة الملك رتشارد

في العام نفسه، بعد إعداد الهدنة بين فيليب ورتشارد، ملكي فرنسا وانكلترا، حول الملك الأخير سلاحه ضد بعض البارونات المتمردين في بواتو، ونقل النار والسيف إلى مدنهم وبلداتهم، وقطع كرومهم وبساتينهم، وقتل بعضاً من أعدائه من دون رحمة، ووصل أخيراً إلى دوقية أكوتين، وألقى الحصار على قلعة كالوس Chalus في ليموزين Limosin، وهناك في السادس والعشرين من آذار جرح— كما قيل— بسلاح مسموم من قبل بيتر بازيلي Basilii، لكنه لم يعبأ بهذه الجراحة، وتمكن خلال الاثني عشر يوما التي عاشها من مهاجمة القلعة بشدة، والاستيلاء عليها عنوة، وقد ألقى بالفرسان وبأتباعهم في سجن ضيق، ووضع أتباعه في القلعة، وقوى في الوقت نفسه التحصينات، غير أن الجرح الذي أصيب به في هذا المكان، والذي لم يتلق العناية طوال ذلك الوقت، أخذ بالتورم، وأخذ نوع من السواد ينتشر حول مكان الجرح،

وقــد امتـزج بالـورم، وسبب له ألماً لايحتمل، وأخيراً عندمـــا أدرك بأن الخطر كـان عظيماً، استعـد الملك لنهـايتـه بـالتـوبة في القلب، وباعتراف طاهر نقي، وبقربان جسـد ودم ربنا، وقد غفـر للذي سبب موته، الذي اسمه بيتر، وهو الذي أصـابه بالجراحه وأمر بفك أغـلاله ومغادرته، ثم أمر بدفـن جسده في فونت— ايفـرولت Font- Evrault، عند قدمي والده، الذي اعترف بأن مـدمـره، كـان هو شخصيـا، ومنح قلبـه الذي لايقهر إلى كنيسـة روان، وأمر بـدفن أحشائـه في كنيسة القلعـة المذكورة أعلاه، وبذلك قـدمها هدية إلى سكان بواتو، وقد أباح لبعض أصدقـائه المقـربين— تحت وعـد السرية— أسبـاب قيامـه بتـوزيع جسـده هكذا، فللسبب المتقـدم ذكره أعطى جسده إلى أبيـه، وقد أرسل قلبـه هدية إلى سكان روان، نظراً لإخــلاصهم الذي لانظير لـه، الذي تمتع به دومــا، لكن بالنسبـة لسكان بواتو، ترك لهم أحشـاءه، نظراً لمعـرفته بخيـانتهم، عاداًّ إياهم غير جديرين بأي جزء آخر من جسده، وبعدما فرغ من قوله هذا، وصل التـورم فجأة إلى المناطق التي حـول قلبه، وفي السـادس من نيسـان، أسلم هذا الرجل المحارب روحـه، في القلعـة المذكورة أعـلاه، وذلك بعدما حكم تسعة أعوام ونصف العام، وقد دفن حسبما أمر وهو حيّ، في فـونت— ايفـرولـت، ودفن معـه— كما رأى كثيرون— أيضـاً فخار وشرف الفروسية في الغرب، وعن موته ودفنه نشر أحدهم النقش التالي:

أحشـاؤه أعطيـت إلى بواتو— وهي راقـدة مـدفـونة قـرب حصن كالوس؛

جسده راقد مدفون تحت— ألواح رخامية في فونت— ايفرولت؛

ونوستريا حصلت على شطرك— الذي هو قلب البطل الذي لايقهر.

وهكذا توزعت هناك في مدن ثلاث— بقايا ذلك الميت الجبار

وهذه الجنازة لايمكن أن تكون— لملك واحد بل لملوك ثلاثة

هنا البدايات حول الملك جون وأشياء أخرى وقعت في ذلك الحين

بعد انتقال الملك رتشارد المنتصر، الذي تقدم ذكره، من الجسد، احتفظ أخوه جون بتكريم بجميع الذين خدموا أخاه، وكذلك بالفرسان المرتزقة، واعداً إياهم بهدايا كبيرة، وأرسل مباشرة هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ووليم مارشال إلى انكلترا، لإقامة السلام هناك وليتوليا المسؤولية عن المملكة، وذلك مع غيوفري فتز— بيتر، الذي كان آنذاك المسؤول عن العدالة مع غير هؤلاء مع نبلاء المملكة، ولدى وصولهما إلى هناك جعلا الناس يقسمون يمين الولاء إلى الايرل جون، واجتمعا مع غيوفري فتز— بيتر، ودعوا مع بعضهم جميع النبلاء الذين كانوا يشكون بهم كثيراً، وقد وعدوهم بأن الايرل جون سوف يعيد إليهم حقوقهم جميعاً، وعلى أساس هذا الشرط، أقسم وقتها الايرلات والبارونات يمين الولاء إلى الايرل المذكور، وذلك على الرغم من الآخرين، هذا وبعثوا رسالة إلى وليم ملك الاسكوتلنديين مع يوستاس دي فسكي Vesci ، بأن الايرل جون سوف— لدى عودته إلى انكلترا— يرضيه بالنسبة لجميع حقوقه في انكلترا، إذا ماحافظ— في الوقت نفسه— على الاخلاص والسلام مع الايرل، وهكذا جرى إخماد جميع النزاعات والخلافات في انكلترا وتسويتها.

كيف ربط بعض النبلاء أنفسهم بالايرل جون وآخرون بآرثر

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث في انكلترا، ذهب الايرل جون إلى شينون Chinon حيث كانت أموال الملك المتوفى، مودعة، وقد سلمه إياها جون دي تورنهام Turnham الذي كان مسؤولاً عنها، وأعطاه معها قلعتي سومور Saumur وشينون وحصوناً أخرى،

كان معهوداً إليه العناية بها، لكن توماس دي فيرني Furnes ، حفيد روبرت المذكور، قد سلم مدينة أنجو وقلعتها إلى آرثر كونت بريتاني، والتحق بآرثر المذكور، والتحق أيضاً مقدمو أنجو، ومين، وتور بحزب آرثر لأنه كان مولاهم الاقطاعي، قائلين بأن هذه كانت عادة هذه المناطق وكان هذا موقفها، بأن آرثر هو ابن الأخ الأكبر، يتوجب أن يخلف عمه في الأسرة وفي الميراث، وهذا ماكان غيوفري والد آرثر هذا نفسه سيفعله لو أنه عاش بعد الملك رتشارد، علاوة على ذلك ذهبت كونستانسي، أم آرثر إلى تور، إلى الملك الفرنسي وسلمت آرثر المذكور إليه، وقام ذلك الملك على الفور بإرساله إلى باريس تحت حراسة حرس، وتسلم جميع القلاع والمدن العائدة إلى آرثر، ووضعها تحت رعايته، لكن الايرل جون والملكة اليانور، وصلا مع جيش كبير إلى مين Maine، واستوليا على المدينة والقلعة، وهدما البيت الحجري فيها، واتخذا السكان أسرى، وسجناهم.

كيف تسلم الايرل جون دوقية نورماندي

بعد هذه الأحداث أمضى الايرل جون يوم الفصح في بامفورت Bamfort في أنجو، وأرسل في اليوم التالي الملكة اليانور مع ميركادوس إلى مدينة أنجو، التي هاجماها، ودمراها، واتخذا سكانها أسرى، ووصل الايرل جون في الوقت نفسه إلى روان، وفي ثمانية يوم الفصح[٢٥— نيسان] تقلد سيف دوقية نورماندي في الكنيسة الأم، من قبل وولتر رئيس أساقفة روان، ووضع رئيس الأساقفة نفسه، وهو أمام المذبح الكبير، على رأسه، الإطار الذهبي مع الوردة الذهبية، المصنعة بشكل فني على شكل دائرة، فوق رأس الاطار، ثم إن الدوق جون أقسم بحضور رجال الدين والشعب، على آثار القديسين، وعلى الانجيل المقدس بأنه سوف يدافع باخلاص، ومن دون ممارسات شريرة عن الكنيسة المقدسة، وعن مكانتها، وعن شرف الكهنة المرسومين فيها،

وعلاوة على ذلك أقسم على إزالة القوانين السيئة، إذا ماوجد أي منها، وأن يجعل الآخرين بدلاً عنهم، وفي الثالث والعشرين من أيار من العام نفسه، جرت سيامة وليم الذي كان من أصل نورماندي وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، أسقفاً للندن، في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر وكان الذي تولى تكريسه هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري.

تتويج الملك جون

وقدم في هذه الآونة جون دوق نورماندي إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham في الخامس والعشرين من أيار، وفي اليوم التالي، الذي كان عشية صعود ربنا، ذهب إلى لندن، ليجري تتويجه هناك، ولدى وصوله إلى هناك، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات، مع جميع الآخرين الذين كان من واجبهم الحضور أثناء التتويج، اجتمعوا مع بعضهم في كنيسة رئيس الرسل في وستمنستر، وكان ذلك في السابع والعشرين من أيار، وهناك وضع هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري التاج على رأسه، ومسحه ملكاً، وقدم فيليب أسقف درم التماساً بمنع هذا التتويج أثناء غياب غيوفري رئيس أساقفة يورك، لكنه لم يحصل على رغبته، وربط الملك جون نفسه أثناء هذا التتويج بيمين مثلث، تضمن: محبة الكنيسة المقدسة، وكهنتها المرسومين، وحفظها سليمة من الأذى والعدوان والنوايا الشريرة، وأن يزيل القوانين السيئة، وأن يحل محلها قوانين جيدة، من أجل أن يرى العدل يطبق بشكل صحيح في جميع أرجاء انكلترا، ثم جرت بعد ذلك مناشدته من قبل رئيس الأساقفة نفسه، باسم الرب، ومنعه بكل دقة من الاقدام على تقبل هذه المرتبة العالية، مالم يكن قد نوى في عقله الوفاء، بما أقسم عليه، وفي جواب على هذا، وعد الملك أنه بعون الرب، سوف يحافظ باخلاص على اليمين الذي وعد به، وذهب في اليوم التالي، بعدما

تلقى الولاء والتابعية من رعاياه، إلى القديس ألبان، الشهيد الرائد لانكلترا، وذلك بهدف الصلاة، وبذلك عمل إقامة قصيرة في انكلترا، وقام وقتها بناء على نصيحة النبلاء بتسوية كل القضايا التي استرعت انتباهه.

كيف عبر الملك جون إلى نورماندي وصالح كثيراً من النبلاء مع نفسه

في يوم ميلاد القديس يوحنا المعمدان، عبر الملك البحر إلى نورماندي، ولدى وصوله إلى روان تدفقت عليه أعداد كبيرة مع بعضها من خيالة ورجالة، وبسرور احتفظ بهؤلاء في خدمته، واجتمع بعد ذلك مع ملك النمسا، ووقتها جرى الاتفاق على هدنة، حتى اليوم التالي ليوم صعود مريم المباركة، من أجل أن يتمكنوا في تلك الأثناء من إعداد شروط للسلام، وفي الوقت نفسه وصل إلى عند الملك جون وهو في روان كونت فلاندرز، وعدد كبير آخر من نبلاء المملكة الفرنسية، وأبرموا معاهدة تحالف معه، كما كانوا قد أبرموا من قبل مع الملك رتشارد، ضد ملك فرنسا، وبعد تبادل الضمانات عاد كل واحد إلى بلاده.

كيف التقى الملكان في مؤتمر لكن افترقا مختلفين أحدهما مع الآخر

وفي هذا العام نفسه، وفي اليوم التالي لعيد صعود العذراء، اجتمع الملك الفرنسي بمؤتمر مع الفرسان ذوي الأحزمة حول آرثر كونت بريتاني، وقام آرثر المذكور على الفور بتقديم الولاء إلى الملك الفرنسي عن: أنجو، وبواتو، وتور، ومين، وبريتاني، ونورماندي، ووعد الملك آرثر بتقديم العون له من قبله من أجل الحصول على هذه الأماكن، وبعد مضي يومين، اجتمع الملكان وعقدا مؤتمراً فيما بين قلعتي بوتافانت

Butavant، وغيلون Gaillon ، فيه تحادثا منفردين، بعيداً عن نبلاء المملكتين، وجهاً لوجه لمدة ساعة، ولم يكن معهما أحد أثناء المحادثات، وطلب الملك الفرنسي في ذلك الاجتماع لاستخدامه الشخصي جميع فكسين، أي المنطقة الواقعة فيما بين غابة ليون والسين من الجانب الأول، ونهري أندلي وإيثي Ethe من الجانب الآخر، وقال بأن غيوفري بلانتغنت كونت أوف أنجو، الذي هو جد الملك جون، قد أعطاها إلى لويس لى غروس Gros ، من أجل مساعدة قدمها له ذلك الملك، في سبيل الحصول على نورماندي، في مواجهة للملك ستيفن، وعلاوة على ذلك طالب لصالح آرثر بمناطق: أنجو، وبواتو، ومين، وتور، ونورماندي، وأشياء أخرى كثيرة، لم يرغب الملك جون بمنحها، وتوجب عليه عدم منحها، وهكذا ارفض الاجتماع، وافترقا على خلاف متبادل، وسأل النبلاء الفرنسيون الملك الفرنسي عن سبب موقفه العدائي الكبير من الملك جون، الذي لم يؤذه قط، فأجاب بأن هذا الملك استولى على نورماندي، والمناطق الأخرى المذكوره أعلاه من دون إذنه، حيث كان عليه، إثر وفاة الملك رتشارد، القدوم في المقام الأول إليه وتقديم الولاء إليه من أجل حقوقه، وبناء عليه غادر الملك الفرنسي، وقام وليم دي روبيبس Rupibus وكان نبيلاً بارعاً، فأخذ آرثر وأبعده عن وصاية الملك الفرنسي، وعمل مصالحة بينه وبين ملك انكلترا، وقد تنازل في الوقت نفسه إلى الملك الانكليزي عن مدينة مان، التي كان الملك الفرنسي قد وضعها مع آرثر تحت عهدة وليم المتقدم ذكره، لكن في اليوم نفسه جرى إخبار آرثر، بأن الملك الانكليزي سوف يعتقله، ويضعه في سجن أبدي، وبناء على ذلك نجا بشكل سري، وعاد ثانية إلى الملك الفرنسي.

كيف ذهب الملك أوتو إلى روما وحصل على لقب امبراطور هناك

وجرى في تلك الآونة إلغاء انتخاب فيليب دوق سوابيا وعدد كبير آخر، وتمّ انتخاب أوتو ملك ألمانيا، وقبل امبراطوراً في روما من قبل البابا انوسنت، ومن قبل جميع الشعب الروماني، وبعد تأكيد هذا الانتخاب من قبل البابا، جرى تهديد فيليب دوق سوابيا مع مؤيديه جميعاً بالحرمان الكنسي، مالم يتمنعوا عن تعذيبهم لأوتو، وارتفعت الأصوات في العاصمة روما عاليا تنادي« الحياة والصحة للامبراطور أوتو»، وبذلك تأكد اللقب من قبل الجميع، ووقتها تذكر أنه بوسائل الملك رتشارد، تقدم إلى هذا المقام العالي، وبناء عليه أرسل رسالة إلى الملك جون أن يوقف محاولات اتفاقات الصداقة مع الملك الفرنسي، لأنه، وهو الامبراطور، على استعداد لتزويده في وقت قصير بالمساعدة التي تسمح المكانة الامبراطورية بتقديمها.

وضع المملكة الفرنسية تحت الحرمان

وفي هذه الآونة، وضع بطرس الذي كان كاردينالاً، ونائباً للكرسي الرسولي، المملكة الفرنسية تحت الحرمان من شركة المؤمنين، بسبب سجن أخيه بيتر دي دوي Douay ، الذي كان أسقفاً منتخباً لكامبري Cambray ، وقام الملك الفرنسي باطلاق سراح الأسقف المنتخب المذكور قبل سحب القرار، وفي العام نفسه وصل النائب البابوي نفسه إلى ملك الانكليز، وطلب— تحت التهديد بفرض عقوبة الحرمان من شركة المؤمنين— اطلاق سراح أسقف بوفياس الذي كان قد مضى على احتجازه بوحشية كبرى، في السجن عامين، والحصول على اذن الملك بالسماح إلى ذلك الأسقف بحرية المغادرة، ولكن بما أن ذلك الأسقف قد حمل السلاح مثل جندي أو قاطع طريق، دون أن يقيم تقديراً لمكانته الدينية، لم يسمح له بالمغادرة قبل أن يشبع نهم الملك، بدفع ستة آلاف مارك فضي بالعيار الاسترليني إلى خزينته، وأقسم بعد هذا، الأسقف المذكور على عدم حمل السلاح مرة ثانية ضد المسيحيين.

قرار حول الخلاف القديم بين كنيستي تور ودول

اتخذ في هذا العام قرار في روما حول الخلاف القديم بين كنيستي تور ودول Dol ، وجاء القرار بناء على تحكيم قطعي من قبل البابا انوسنت، فقد طالب رئيس أساقفة تور بخضوع أسقف دول له، وعارض أسقف دول ذلك، وكانت كنيسة دول هي الرئيسية في بيرتاني الصغرى، وكان الكهنة الأعلون لتلك الكنيسة ، وكذلك جميع الأساقفة الآخرين في بريتاني الصغرى، في أيام القديس مارتن، وقبل ذلك بوقت طويل، أساقفة مساعدين لكنيسة تور، غير أنهم ثاروا فيها بعد وتمنعوا عن التابعية لتلك الكنيسة، وكان السبب لذلك هو: عندما قدم الانكليز إلى بريطانيا الكبرى، وأخضعوها، مرض يوتربندراغون Uterpendragon ، ملك البريطانيين، مرضاً شديداً، واضطر إلى ملازمة فراشه في فيريولاميموم Verulamium، ولم يعد قادراً على عون نفسه، أو الدفاع عن مملكته ضد غارات برابرة المنطقة، ويقال بأن أعمال التدمير التي قام بها الانكليز(السكسون) قد امتدت إلى مسافات شاسعة، حتى أن المنطقة كلها لحقها التشعيث وغطى ذلك الجزيرة كلها من البحر إلى البحر، وسويت الكنائس المقدسة بالأرض، وأمام هذا تراجع رؤساء الأساقفة والأساقفة، وقد وجدوا أنفسهم معزولين والكنيسة المقدسة مشعثة، تراجعوا إلى أماكن أكثر أمانا، واتفقوا بالاجماع أنه من الأفضل تجنب غضب البرابرة لبعض الوقت، وعدم السكنى من دون ثمار بين أولئك المتمردين ضد الإيمان المسيحي، وكان بين هؤلاء القديس سامبسون، رئيس أساقفة يورك، وكان رجلاً لانظير له بالقداسة، وقد هرب، إلى أهل منطقته في بريتاني الصغرى(لأنهم كانوا من الأصل نفسه والمنطقة) وحمل معه الطيلسان الذي تسلمه من الحبر الأعظم الروماني، ولدى وصوله إلى تلك المنطقة استقبل بالترحاب من قبل بني قومه، وباجماع منهم كلهم انتخبوه إلى أسقفية

كنيسة دول، التي كانت قد حرمت مؤخراً من أسقفيتها، وتم الحصول على إذن الملك، فأجلس في تلك المرتبة، على الرغم من إرادته، وبقي في تلك الكنيسة بقدر ماعاش، وارتدى من بعد كثيراً من خلفائه دوماً ذلك الطيلسان الذي جلبه من الدير في يورك، لكن فيما بعد لم يعد ملوك تلك المنطقة يسمحون لأولئك الأساقفة، لأنهم امتلكوا لممالكهم رئاسة أساقفة، وصار هؤلاء دوما أساقفة مساعدين بشكل رسمي لكنيسة تور، ويقدمون الطاعة المتوجبة لرئيس أساقفة تور المتقدم ذكره، وبعدها قرر رؤساء الأساقفة، أنه لايجوز ثانية لأساقفة بريتاني الصغرى أن تكون لديهم رئاسة أساقفة سوى رئاسة أساقفة دول، وبعد مضي حقبة مقدارها ثلاثمائة سنة أو أكثر منذ ذلك التاريخ، حاول البابا نيقولا بناء على تحريض من رئيس أساقفة تور إزالة هذه الغلطة، فكتب رسالة إلى سليمان ملك البريطانيين، موجودة في مراسيم غراشيان Gratian: المجموع الثالث— القضية السادسة، وكان نص الرسالة كمايلي:

رسالة البابا نيقولا حول القضية نفسها

« هذا هو مرسوم أباك المذكور، وهذه هي شريعة الكنيسة أمك، والمسألة هي أنك بعثت جميع أساقفة مملكتك إلى رئيس أساقفة تور، وطلبت حكمه، لأنه هو رئيس الأساقفة، وجميع أساقفة مملكتك هم أساقفة مساعدين، وحسبما تظهر كتابات أسلافي بوضوح، فهم انتقدوا بشدة، أسلافك لأنهم سحبوا أنفسهم من الخضوع لرئيس الأساقفة ذاك، وكأن رسائلنا أيضاً إليكم حول هذه القضية كانت كما يبدو غير كافية» وقال في جزء آخر:« وبما أنه هناك خلاف شديد بين البريطانيين حول لمن تعود الأسقفية، وأن مامن انسان يتذكر بأنكم امتلكتم رئاسة أساقفة قط في منطقتكم، وإذا كان يرضيكم، فيمكنكم بسهولة فهم مصداقية كلماتي، بما أن الرب القدير قد عمل، سلاماً بينكم وبين ولدنا المحبوب، الملك شارل المشهور، لكن إذا ما عزمتم على متابعة المرافعة

والمحاكمة، اسعوا لعرض القضية أمام كرسينا الرسولي، فبقرار حكمنا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً معرفة من منكما كان قبل كنيسة رئاسة الأساقفة، وبذلك يتم نفي كل شك، وعلى أساقفتكم أن يعرفوا من دون تردد السبيل الذي عليهم اتباعه»، وعلى كل حال لم يقم الملك المذكور التقدير اللازم للتذكير المتقدم ذكره، بل إنه أصر وخلفائه على عدم الطاعة، وتابعوا الصراع، ووجد عدم الاتفاق بين أساقفة تور ودول واستمر حتى السنة الحالية، كما ذكرنا أعلاه، ووقتها تقرر بشكل حاسم من قبل البابا وجوب أن يكون أساقفة بريتاني كلهم، وليس فقط دول، خاضعين لرئيس أساقفة روان، وتحت إدارته القانونبة إلى الأبد، وتفوه البابا المذكور بقرار حكمه النهائي حول هذه القضية، وقد وقف بحكم كونه صاحب معرفة عالية، وجريئاً، وبارعاً— في الوقت نفسه— بالقانون، قائماً وتفوه كما يلي:« لتحزن دول، ولتفرح تور».

كيف أرسلت الملكة إليانور من أجل زواج السيدة بلانشي من لويس

عام ١٢٠٠م، فيه، عقد الملكان الفرنسي والانكليزي: فيليب وجون، مؤتمراً بعد عيد القديسة هيلاري في مكان بين قلعتي غيلون Gaillon وبوتافانت Butavant ، فيه جرى الاتفاق بين الملكين المذكورين، بناء على نصيحة كبار النبلاء في كل مملكة، بأن يقترن لويس ابن الملك الفرنسي ووريثه، بابنة ألفونسو ملك قشتالة، التي كانت أيضاً ابنة أخت الملك جون، وأنه ينبغي على الملك الانكليزي لدى عقد هذا الزواج أن يعطي إلى لويس، وذلك بمثابة حصة زواج، وإلى ابنة أخته بلانشي، مدينة ايفروكس Evreux مع جميع تلك الكونتية، وإلى جانب ذلك ثلاثين ألف مارك من الفضة، وعلاوة على ذلك طلب الملك الفرنسي من الملك الانكليزي أن يعطيه ضمانات بأنه لن يقدم مساعدة لابالجنود ولابالمال، إلى ابن أخته أوتو، في الحصول على الامبراطورية الرومانية،

لأنه قد قيل بأن فيليب دوق سوابيا كان بالتفاهم التآمري مع الملك الفرنسي، وبمساعدته، يقوم بتهديد أوتو وايذائه بشكل خطير، ذلك أنه في الحقيقة لم يتوقف على إلحاق الضرر به، دون أن يعبأ بقرار الحرمان الكنسي الذي ربطه به البابا، أما المعاهدة المذكورة أعلاه بين الملكين، فقد جرى أخيراً تأكيدها، وقد عينا العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان لوضعها موضع التنفيذ، وبعد ارفضاض المؤتمر، أمل الملك جون أنه بهذا الزواج سوف يتمتع بسلام أطول، ولذلك بعث أمه الملكة إليانور، لجلب السيدة بلانشي المذكورة، حتى تعود هذه السيدة معها بأمان في الوقت المتفق عليه، وأبحر الملك الانكليزي في الوقت نفسه إلى انكلترا، وفرض ضريبة ثلاثة شلنات على كل هايد[فدان] من الأرض في جميع أرجاء انكلترا، وبعدما أنهى بعض الأعمال، عبر البحر ثانية إلى نورماندي.

زواج لويس من ابنة ألفونسو ملك قشتالة

عادت بعد هذه الأحداث بوقت قصير، الملكة إليانور، مع السيدة المتقدم ذكرها لتتزوج من لويس، وقدمتها إلى ملك الانكليز، وبعد هذا عقد الملكان مؤتمراً في الحادي والعشرين من حزيران في مكان بين غولتون Guletune وبوتافانت، خلاله أعطى ملك فرنسا مدينة ايفروكس وتنازل عنها إلى الملك الانكليزي مع جميع المنطقة والأراضي في نورماندي، والممالك الأخرى العائدة إلى الملك الانكليزي التي استولى عليها وتملكها أثناء الحرب، وقدم الملك جون على الفور الولاء إلى الملك الانكليزي من أجل هذه المناطق ثم قدمهم جميعا وتنازل عنهم إلى لويس بمثابة حصة زواج وكذلك إلى ابنة أخته، وتلقى الولاء من لويس من أجلهم، وفي اليوم التالي تزوجت السيدة بلانشي من لويس في بورتمورت Portmort في نورماندي، بوساطة رئيس أساقفة بوردوكس Bourdeaux ، لأن مملكة فرنسا كانت آنذاك تحت عقوبة الحرمان

من شركـــة المؤمنين بسبب الملكة بـوتيلدا Botilda [أنغلبورغ ابنة ملك الدانمارك]، التي طلقها الملك الفـرنسي، وبعد الزواج مباشرة، حمل لويس زوجتـــه إلى باريس، وسط السرور العـــام والفــرح العظيم لدى رجال الدين والشعب في المملكتين.

كيف تزوج الملك جون من الملكة ايزابل

وحدث في العـام نفسه طلاق بين الملك الانكليزي وزوجتـه هاويسا Hawisa، ابنة ايرل غلوستر لأنهما كانا أقرباء في الدرجة الثالثة من قربة العصب، واقترن الملك المذكور، بناء على نصيحـة الملك الفرنسي بايزابل ابنة كونت أنغوليم Angouleme، وكانت من قبل زوجة هيوج، الذي لقبـه« لى برون» Le brun ، ايرل التخوم March، وكـان هذا الزواج مـؤذياً جـداً للملك الانكليزي، وكـذلك إلى مملكة انكلترا، وبعـد مضي وقت قصير من هذا عقـــد الملكان مـؤتمراً في فيرنون، وهنـاك قـدم آرثر الولاء إلى ملك انكلترا من أجـل بريتـاني ومن أجل ممتلكاتـه الأخـرى، ولأنه كـان مـايزال يخشى الخيـانـة من جـانب الملك جـون، مكث تحت رعاية الملك الفرنسي.

أمر من الرب وصل من السماء إلى القدس فيما يتعلق بمراعاة يوم السبت

ووصلت في هذه الآونة رسالة من السماء إلى القدس، وجرى تعليقها على مذبح القـديس سمعان في الجلجلة، حيث جـرى صلب المسيح من أجل خـلاص العالم، وجـرى تعليق هذه الرسـالة لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليـــالي، والـذين رأوها انكبـــوا على الأرض يسألون الرحمة مـن الرب، ويتوسلون إليه ليريهم إرادته، وفي اليـوم الثالث، بعد الساعـة الثالثة من النهار، نهض البطريرك، ورئيس الأسـاقفة زكـريا من صلواتها، وفتحوا العصبة الموجـودة فوق المذبح العـالي، وأخذوا الرسـالة المقدسـة للرب،

وبعد تفحصهـا، وجدوا مكتـوب عليهـا:« أنا الرب، الذي أمـركم بالمحافظة على يوم السبت المقدس، الذي فيه استرحت من تعبي، وأن جميع الفانين عليهم الاستراحة دوماً في ذلك اليوم، لكنكم لم تحافظوا عليه، كما أنكم لم تتوبوا من ذنوبكم، وكما تكلمت في انجيلي: « السماء والأرض سوف تزولا، ولكن كلمتي لن تزول»، ولقد أمرت بالتبشير بالتوبة في الحياة إليكم، ولكنكم لم تؤمنوا، ولقد أرسلت ضدكم الكفار، والشعـوب الذين سفكوا دمـاءكم على الأرض، ومع ذلك مـازلتم لم تؤمنوا، ولأنكم لم تحافظوا على يوم الرب المقدس، فقد عانيتم لأيام من المجاعة، ومالبث الرب أن أعطاكم الوفرة، ففعلتم بعد ذلك الأسوأ، ولذلك إن ارادتي تقضي أنه من السـاعـة التاسعة في يوم السبت حتى شروق الشمس من يوم الاثنين، ينبغي أن لايعمل أحد شيئاً، إلاّ مـاهو جيد، وكل من يفعل ذلـك سوف يثاب على ذلك، وإذا لم تطيعوا أمري هذا، أقول مؤكداً لكم، وأقسم بكرسي وبعرشي، وبالكروبيين الذي يحرسون كرسي المقدس، بأنني سوف لن أرسل لكم أية أوامر برسالة أخـرى، بل سأفتح السمـوات، وعـوضـاً عن المطر سـوف أمطركم بالحجـارة، والخشب والماء الساخن، وذلك في الليل، حتى لايستطيع انسان تجنب ذلك، لأنني سـوف أدمر جميع مقترفي الشرور، وإنني أقول لكم، بأنكم سوف تموتون الموت، بسبب اليوم المقدس للرب والأعياد الأخرى لقديسيّ التي لم ترعوها، ولسوف أرسل عليكم وحوشاً لها رؤوس الأسـود، وشعـور النسـاء، وذيول الجمال، ولسـوف يكونون جائعين كثيراً إلى حد أنهم سوف يلتهمون أجسادكم، ولسوف تتمنون الهرب إلى قبور الأموات لإخفاء أنفسكم، خوفاً من هذه الوحوش، ولسوف أخفي نور الشمس، وأرسل الظلام عليكم، حتى لاتعودوا قادرين على الرؤية، ولسوف يذبح أحدكم الآخر، وسـوف أشيح بوجهي عنكم، ولـن أريكم رحمة، لأنني سأحرق أجسـادكم، وقلوب الذين لايحافظون على اليوم المقدس للرب، وعلى هذا اسمعوا صلواتي،

خشيـــة مـن أن أفنيكم من على الأرض بسبب اليــوم المقـــدس للرب وابتعـدوا عن الشرور، وتوبوا من ذنـوبكم، وإذا لم تفعلوا ذلك سـوف تهلكون هلاك ســدوم وعمــوره، واعلمــوا أنكـم الآن بأمــان بفضل صلوات مـريم الأم الأعظم قداسـة، وبفضل ملائكتي المقـدسين الذين يصلون يوميـاً من أجلكم، ولقد أعطيتكـم القمح والخمرة بوفـرة، ومع ذلك إنكم لاتطيعوني، لأنكم يوميـا تجعلون الأرامل واليتامى يصرخون إليكم، ولاتظهـرون نحوهم أية رحمة، فلـدى الكفار مـرحمة وأنتم ليس لديكم، ولن أدع الأشجار التي تعطي الثمار تتجذر بسبب ذنوبكم، ولن تعطيكم الأنهار والينابيع المياه، فعلى جبل سيناء أعطيتكم شريعة، أنتم لم ترعـوها، أنتم رجال أشرار، لأنكـم لم تحافظوا على يوم الأحد المقـدس، الذي هو يوم قيـامتي، فلقـد استـوليتم على أملاك الآخـرين، وعـاملتم القضيـــة من دون اهتمام وتقـــديـر، ولهذا أنا سأرسـل عليكم أســـوأ الوحـوش، الذين سوف يلتهمـون صدور النساء، ولسـوف ألعن الذي يتصرف بشكل غير عـادل نحـو إخـوانه، وسألعن الذين يحكمـون بشر الفقـراء واليتـامى، وأنتم الذين قـد هجـرتموني وتبعتم أمير هذه الحيـاة، استمعوا إلى صـوتي ولسوف تتلقـون الرحمة، لكن مادمتـم غير متوقفين عن اقتراف الشرور، وعن أعمال الشيطان، وبقدر ماتستمرون في اقتراف الحنث باليمين والزنا، فـإن الشعـوب سـوف تحيط بكم، وتلتهمكم مثل الحيوانات المتوحشة».

تبشير يوستاس راعي دير فلي حول الوصاية المذكورة

ولدى تمعن البطريرك ورجـال الدين في الأرض المقـدسة في فحـوى هذه الرسالة، ونظروا إلى الكلمات باعجاب ممزوج بالخوف، فتقرر برأي الجميع تحويـل الرســـالة من أجـل الفحص والتقـــدير مـن قبل الحبر الرومـاني، ذلك أنه يمكنه تقـرير مـااللذي ينبغي فعله، وجلبت الرسـالة ووضعت أخيراً تحت الفحص من قبل مولانا البابا، وإثر ذلك تولى على

الفـور رسـم أسـاقفـة أرسلـوا إلى كـل جزء مـن أجـزاء العـالم، للتبشـير بمحتـوى الرسـالة وهـدفهـا، وتعـاون الرب معـهـم، وأيد خطـاهم بوسـاطـة معجـزات نتجت عن ذلك، وكـان بـين هـؤلاء راعـي دير فلي Flaye وكـان اسمـه يوستاس، وكـان متـديناً ورجـلاً متعلماً، حيث انطلـق إلى انكلترا، وأشع هناك بعمله عـدداً كبيراً من المعجـزات، فـقد نـزل قـرب مـدينة دوفـر، وبـدأ واجبـه بالتبشير في مدينـة اسمها واي Wiففي جـوار ذلك المكان أضـفى مباركـته على أحـد الينابيع، فبفضل الفضـائل التـي نالها بمبـاركـة من الرب، صـار الحـال أنه بمجـرد تذوق تلـك الميـاه فقـط، استرد الأعمى بصره، والأعـرج قـدرته عـلى السـير، والأخـرس المقـدرة على الكـلام، والأطـرش استطاعـة السماع، وكل انسان مـريض شرب من الميـاه وهو مؤمـن، تمتع على الفور بعـودة الصحة، فاحـدى النساء قـد هوجمت من قبل الشياطين، وتورمت وكأنها مصابة بالاستسقـاء، فقدمت إليه هناك، تنشد العودة إلى الصحة بوساطته فقال لها:« اطمئني ياابنتي، واذهبي إلى النبع في واي الـذي بـاركـه الرب، واشـربي منه، وهنـاك سـوف تسـتردين صحتك»، وغـادرت المرأة، ووفقـاً لنصيحـة رجل الرب، شربت، وتحولت على الفـور لأن تكون قـادرة على الغثيان، وأمـام جميع الناس الذين كانوا عنـد النبع لاسترداد صحتهم، خرج منها علجـومان أسـودان كبيران، وقـد تحولا على الفـور إلى كلبين كبيرين أسـودين، من أجل اظهـار أنهما كانا شيطانين، وأخـذا بعـد وقت قصير شكل حمارين، ووقفت المرأة وقـد علتهـا الدهشـة، لكـن مـالبثت بعـد وقت قصير أن ركضت خلفهما وهي مغضبة، راغبة بإلقـاء القبض عليهما، وقام الرجل المعين ليكون مسـؤولاً عن النبع، برش بعض الماء بين المرأة والوحشين، وإثـر ذلـك طـارا في الهـواء واختفيـا، مخلفين وراءهما بعض آثـار قذارتهما.

كيف تسبب راعي الدير المتقدم ذكره بتفجر نبع ماء عذب

ووصل رجل الرب هذا إلى بلدة رومسنيل Rumesnel ، ليقوم بالتبشير، وكان هناك نقص بالمياه العذبة في ذلك المكان، وبناء على طلب شعب ذلك المكان، قام فضرب بعصاه صخرة في الكنيسة هناك حيث تدفق الماء منها بوفرة، وكثيرون ممن شربوا من المياه شفيوا من أمراض متنوعة، ثم إنه تنقل من مكان إلى مكان، ومن مقاطعة إلى مقاطعة، ومن مدينة إلى مدينة، وأقنع كثيرين بالتخلي عن عادات الربا، وأقنعهم بحمل صليب الرب، وانصراف قلوبهم نحو كثير من أعمال التقوى، كما أنه منع الأسواق والمواصلات في أيام الآحاد، وهكذا فإن جميع الأعمال التي كان من المعتاد القيام بها في أيام الأحد، في جميع أرجاء انكلترا، جرى اعدادها للتنفيذ في واحد من الأيام التالية، أثناء الاسبوع، وبذلك استخدم أهل الإيمان راحتهم في أيام الأحد، لتأدية واجباتهم نحو الرب، وتمنعوا كلياً عن التعب في ذلك اليوم، لكن مع مرور الأيام، عاد كثيرون إلى عاداتهم القديمة، مثل عودة الكلاب إلى قيئهم، ومنع القسس والكهنة في الكنائس، مع الأشخاص الخاضعين لهم، من ابقاء المصابيح مشتعلة بشكل دائم أمام القربان، من أجل أن يتمكن الذي يعطي الضوء إلى كل انسان يأتي إلى هذا العالم، من إعطاء الديمومة إلى الضوء الدنيوي، وأعطى وصية إلى جميع أصحاب المراتب العليا، خاصة من التجار والمواطنين، بأن يكون هناك دوما على موائدهم صحن المسيح إلى الفقراء، فبأخذهم من وفرتهم المعتادة يمكنهم أن يرفعوا حاجات المحرومين ويزيلوها، كما أنه أمر عدّ يوم السبت من الساعة الثالثة مقدساً، ومنع جميع الأعمال فيه مثل يوم الأحد، وأيضاً جميع يوم الأحد والليلة التالية حيث يشكلان يوماً طبيعياً، وبهذا قدم رمزياً الرقود لراحتنا السرمدية.

معجزة مرعبة عملت على احدى النساء

في تلك الآونة نفسهـا، قـامت مرأة من منطقـة نورفـولك Norfolk، على الرغم من تحذير رجل الرب، فـذهبت في أحد الأيام لغسل الملابس بعـد الساعـة الثـالثة من يـوم السبت، وعندما كـانت مشغـولة بالعمل، اقترب منها رجل له مظهـر مبجل، وغير معروف بالنسبة إليهـا، ولامها وسألها عن السبب في استخفـافهـا هكذا وجرأتها، واقـدامهـا على غسل الملابس بعـد الساعـة الثالثـة على الرغم من حظر رجل الرب، فبعملهـا غير الشرعي هذا دنست يوم السبت المقـدس، وعلاوة على هذا أضـاف أنها مـالم تتوقف على الفـور عن عملها، فلسـوف تجني بدون شك، على الفـور غضب الرب، وانتقام السماء، غير أنها أجـابت منتقدها بالمرافعـة والتسـويغ بوجود فقـر مدقع، ولقـد قـالت بأنها حتى وقتها عـانت من حياة تعيسة، بالتعب من هذا النـوع، وأنها إذا توقفت عن عملها المعتاد، ستفقـد بدون شك قـدرتها على شراء وسـائـل عيشهـا، وغـاب الرجل لبعض الوقـت من أمــامهــا، وجــددت هي غسـل الملابس وتجفيفهم بالشمس، بنشاط أكبر من ذي قبل، لكن مقابل هذا كله، انتقام الرب لم ينتظر، لأنه فـوق البقعة نفسها، التصق خنزيـر أسود صغير على الجانب الأيسر من صـدر المرأة، ولم يكـن من الممكن، بأية وسيلة من الـوسـائل انتزاعه وازالته، بل استمر يمتص الدم ويسحبه، واستنفد في وقت قصير جميع القدرة الجسدية للمـرأة التعيسة، وتحولت أخيراً إلى وضع، صارت فيه لحاجتهـا الماسة، مرغمة لوقت طويل، على التسـول من أجل خبزها من باب إلى باب، وذلك على مشهد مـن كثير الناس، الذين دهشوا تجاه انتقام الرب، وقد أنهت حياتها تعيسة بموت بائس.

معجزة أخرى عملت على قطع رغيف من الخبز

وفي تلك الآونة نفسهــا، أمـر أحــد العمال في منطقــة نورثأمبرلاند زوجته بصنع بعض الخبز في يوم السبـت، من أجل أكله في اليوم التالي،

وأطاعت المرأة أوامر زوجها، وعندما في الغد وضعت الخبز أمام زوجها، وبدأت بقطعه، وقعت ساعتها حادثه هائلة ولم يسمع بمثلها، لأن دماً دافئاً تبع السكين وهي تقطع الخبز، وكأنه قد تدفق من حيوان قد ذبح للتو، وعندما وصل خبر هذه الواقعه إلى علم الناس، منعت كثيرين من العمل في ذلك اليوم.

كيف جرى حرمان غيوفري رئيس أساقفة يورك من جميع ممتلكاته

وفي هذه الآونة، جرى حرمان غيوفري رئيس أساقفة يورك— بناء على أوامر من الملك جون— من جميع أجور وتعويضات رئاسة الأسقفية، لأن جيمس عمدة يورك وأعوانه قاموا بالهجوم بعنف على قراو، وعلى ممتلكات رجال الدين والكهنة الآخرين، ثم اقتسموا جميع ممتلكاته، وبناء على ذلك تولى رئيس الأساقفة المذكور، حرمان جيمس المتقدم ذكره كنسيا بالاسم، وبشكل عام جميع الآخرين من مقترفي هذا العنف، وكان غيوفري قد أثار غضب الملك ضده وانزعاجه، وفي الحقيقة كان سبب غضب الملك منه له عدة أسباب، وكان أولها في المقام الأول عدم سماحه للعمدة المذكور أن يجمع من أسقفيته الضريبة من أجل استخدام الملك، مثلما سمح بذلك في جميع أرجاء انكلترا بشكل عام، وكان ثانيها بسبب عدم مرافقته الملك إلى نورماندي، لإقامة حفل الزواج بين لويس وبين ابنة أخته، ولعقد اتفاق مصالحة مع الملك الفرنسي، وثالثا بسبب حرمانه كنسيا للعمدة المذكور، ولوضعه جميع كونتية يورك تحت الحرمان من شركة المؤمنين.

تتويج الملك جون والملكة ايزابيل في لندن

وفي هذا العام، بعدما قام الملك جون بتسوية أموره على الجانب الآخر من الماء، عبر إلى انكلترا جالبا معه زوجته، وفي الثامن من تشرين

أول نزل في دوفر، ثم إنهما قدما بعد هذا إلى لندن، حيث جرى تتويجهما معا في وستمنستر من قبل هيوبرت، رئيس أساقفة كانتربري، بحضور نبلاء المملكة، وكان غيوفري رئيس أساقفة يورك الذي كان قد تصالح مع الملك، حاضراً في هذا الاحتفال، وفي هذه الآونة، بعث جون رسالة أيضاً إلى وليم ملك الاسكوتلنديين للقدوم إليه إلى لنكولن، في اليوم التالي لعيد القديس إدموند، حتى يرضيه بالنسبة إلى حقوقه في انكلترا.

حياة القديس هيوج أسقف لنكولن قبل حصوله على الأسقفية

وقدم في هذه الآونة هيوج أسقف لنكولن، صاحب الذكرى الطيبة، من القارة، ذلك أنه هوجم من قبل حمى الملاريا، في الهيكل القديم في لندن، فأنهى حياته السامية بموت رائع في السادس عشر من شهر تشرين الثاني، وكانت أحاديثه المقدسة أثناء حياته، كلها تعليمات للناس للأخلاق، ومثلاً للأعمال الجيدة، وهذا يرغمنا على اقحام أشياء قليلة حوله في أعماله، فقد ولد هذا الرجل المقدس في منطقة نائية في بيرغندي، وكانت أخلاقه أكثر نقاء من أسرته، وكان شديد الانصراف والمتابعة للآداب منذ صغره، وعندما كان في العاشرة من عمره عهد به إلى رهبان نظاميين ليتعلم العلوم اللاهوتية، وقد تعلم بينهم في ميدان كل من الأخلاق والعلوم، وبعد امضاء ستة عشر عاماً في القلاية، حصل على وظيفة رئيس رهبان، وسارت جميع الأمور وهو في هذا المنصب بشكل مزدهر معه، ثم إنه قرر أن يضع مراقبة أشد على آلام الجسد الخطيرة، وبأمر من الرب، ذهب إلى طائفة الرهبان الكارثوشيين Carthusian، وأظهر نفسه بينهم لطيفاً ودمثاً تجاه الجميع، وظل مع ذلك مخفياً جديته الدينية، ولذلك بعد مضي وقت جرى تعيينه مديراً للبيت كله، ومع مرور الأيام، وعندما جرى تأسيس بيت للرهبان الكارثوشيين في انكلترا من قبل الملك اللامع هنري ملك انكلترا، الذي كان يتحرق رغبة إلى رفع شأن قضية الرب، استجاب لتوسلات ذلك

الملك، ليصرف انتباهه إلى ادارة ذلك البيت، وبعدما جرت دعوته لتولي رئاسة الرهبان، جعل همّ دراسته الأول يوميا زيادة قداسته السالفة، ولهذا ولأحاديثه المقدسة نال حظوة عظيمة لدى الملك، الذي غالبا ماتمتع بالحديث معه، وكان الملك قد وضع بين يديه كنيسة لنكولن، التي كانت قد حرمت منذ عدة سنوات من عناية أسقف يتولاها، ولكي يكفر عن هذا الذنب، بقدرما يستطيع حصل على التعيين بوساطة الانتخاب للرجل المتقدم الذكر، أي هيوج، ليكون حاكماً لتلك الكنيسة، وفيما بعد عندما تمّ الاعلان عن انتخابه لرجل الرب، أجاب أنه لن يقبل بذلك المنصب، أي وظيفة الأسقفية، مالم يتم التوضيح له تماما أنه تولى ذلك بوساطة الموافقة الجماعية لكنيسة لنكولن، وذلك مع موافقة رئيس الرهبان الكارثوشيين، وبعدما جرى اقناعه بالنسبة لهذه النقاط، قدم عميد لنكولن مع شيوخ تلك الكنيسة إلى رجل الرب، وحصل بعد الاجتماع الأول بهم على تقديرهم إلى حد أن يكون أسقفهم وأباهم الروحي، بتقوى وعواطف مخلصة، ولكي تكون موافقتهم أكثر تأكيداً، جعلوه يعرف بأنهم انتخبوه هناك، وقام هو بناء على ذلك باعلامهم للمرة الأولى بالموافقة على ذلك، وبعد ذلك، بعدما جرى تكريسه، وفي الليلة الأولى التي نام فيها في أسقفيته، سمع بعدما صلى بخشوع صوتاً يقول له:« لقد مضيت أنت نحو سلامة شعبك وإلى السلامة مع المسيح».

فضائل الرجل المقدس في أسقفيته

جعل عبد الرب هيوج المكرس كنيسته تشع بفضائله، ووجه الناس وعلمهم أن يتخذوه مثلا لهم وفعل ذلك بالقول والعمل، وأظهر بأن اسم أسقف حقاً لائق به وجدير، ووضع أيضاً أشخاصاً منتخبين في الكنيسة التي بناها، وجعلها هيكلاً من خلال الأحجار الحية، وصدّ هو بشكل مستمر هجمات القوى العلمانية في القضايا المتعلقة بالكنيسة،

ذلك أنه أظهر أنه لايعبأ بالمخاطر المتعلقة بممتلكاته أو جسده، وبهذا المنهج حقق تقدماً كبيراً حيث استرد كثيراً من الحقوق، كانت قد ضاعت، وحرر كنيسته من أقسى أنواع العبودية، وبالاضافة إلى هذا، اعتاد رجل الرب على دخول بيوت المجذومين من الناس، التي كان يمر بها، وكان يقبّل جميع المصابين بالجذام، مهما كانوا مشوهين، ويضفي عليهم الصدقات بكرم، وحول هذا، حاول وليم، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان مستشاراً للكنيسة نفسها، أن يجرب ويعرف فيما إذا كان عقله قد تأثر وأصيب بالعجرفة، بسبب ذلك، فسأله:« لقد شفى مارتن بقبلاته المجذوم، وأنت لم تشف المجذومين بقبلاتك»، فأجابه الأسقف على الفور قائلاً:« شفت قبلة مارتن جسد المجذوم، لكن قبلة المجذوم شفت روحي»، وبالنسبة لدفن الموتى، قام بواجباته الانسانية بيقظة تامة، ولم يهمل جسد أي ميت، اعتقد أنه قد عهد إليه القيام بواجبه نحوه، ومرة عندما كان هذا الرجل المقدس يقوم بواجب العناية برعيته، وكان وقتها يزور احدى الأبرشيات، وكان بين الأماكن التي زارها بلدة اسمها الكموندبري Alcmundeberi، حيث قدم إليه أبوان لأحد الأطفال، ومعهما طفل صغير لهما كان بدون حياة تقريباً، وهما يبكيان وينشدان مساعدته، ولدى سؤال الأسقف لهما ماذا يريدان، أجابته أم الطفل قائلة:« أخذ هذا الطفل الصغير بيده قطعة من الحديد طولها أكثر من انش وكذلك سماكتها، وكما يفعل الأطفال وضعها في فمه، غير أنه ابتلعها، ومضت سريعاً في بلعومه، وهي الآن تقتل الطفل، وبناء عليه ياأبانا المقدس، لقد أرسلك الرب كي تعيد إلينا طفلنا، الذي هو الآن على حافة الموت، ونظر الأسقف نحو الطفل، ولمس لسانه، وقرأ مباركة، ونفخها عليه، وبعدما رسمها بعلامة الصليب، أعاده إلى والديه، ولدى أخذهما له من الأسقف قفزت قطعة الحديد خارجة وكلها دماء، وشفي الطفل من تلك الساعة، وفي مناسة أخرى، عندما كان الرجل المقدس يمر خلال بلدة اسمها كستريهنت Cestrehunte

جاء إليـه أقرباء أحـد المجانين، الذي كـان مرغماً منذ ثلاثة أسـابيع على الحبس مغلولاً ورجـوه أن يزوره ويبـاركـه، ولـدى سماع ذلك ترجل الرجل المقـدس من على فرسـه، وذهب إلى الرجل المجنون، الذي كـان رأسـه مـربوطا إلى عمـود، ويداه ورجـلاه مـربوطون كل على حـده إلى أوتاد، وبارك الأسقف بعض الماء الذي كان قـد جلبه معه، وعندمـا مدّ الرجل المجنون لسانه، وكأنه يريد أن يسخـر منه، رش بعض الماء عليه، ثم قـرأ على الرجل المجنون جـزء الانجيل الذي فيـه:« في البـدء كـانت الكلمـة»، وبعـدمـا أعطاه مباركتـه غـادر، وبعـدمـا ذهب، بدأ الرجل المريض بالنوم، وعندما أفاق عاد إلى وضعه الصحي المتقدم، وحدث في هذه الآونة أن كان هذا الرجل التقي في لنكولن، يسـاعد في أعمال عمارة الكنيسـة الأم هناك، التي بناها بشكل فخم من الأسـاسات، وبينما كـان يحمل حجـارة وملاط في وعـاء على كتفيـه، كما كانت عـادته بالغـالب، وصل إليـه رجل أعـرج بالرجلين، وكـان يتوكأ على عصـاتين، ورجـاه بالحاح أن يحمل الوعـــاء نفسـه، آمـلاً في أن يسترد العـافيـــة إلى طرفيـه بفضـــائل هـذا الرجل المبـــارك، وحصل أخيراً على إذن معلـم العمل بإعطائه الوعـاء، وشرع وهو يتوكأ على عصاتيـه يحمل الحجارة والملاط فيه، هذا وحـدث بعد عدة أيـام انقضت أن تخلى عن العصاة الأولى، ثم مالبث بعد ذلك أن تخلى عن الثانيـة، وبعد مضي وقت قصير صار قوياً، ومناسباً لحمل الوعاء نفسـه في العمل في الكنيسة، من دون الاتكاء على أي عصـا، وبعدمـا صار وضعـه صحيـاً تماما أحب ذلك الوعـاء كثيراً، وأعلن أنه لن يتخلى عنه مطلقاً، وحدث مرة أخرى في المدينة نفسها، أن أحـد السكان أصيب بالجنون، إلى درجـة أنه جـرى تعيين ثمانيـة رجـال يكونون مسـؤولين عنه، وقـد حبس بـالأغـلال ذلك أنه أصيب بجنون وصل إلى درجة أنه هدد بتمزيق زوجته وأولاده إلى قطع بأسنانه، وحمل أخيراً، وهو مـربوط داخل عـربـة إلى رجل الرب، الذي مـاأن رآه حتى رش عليـه على الفـور الماء المقـدس، وأمـر الروح الشريرة بالخروج منه،

وأن لاتزعجه أكثر من هذا، ووقع الرجل المجنون فجأة على الأرض، وكأنه رجل كان يموت، وصب الرجل المقدس الماء المبارك عليه بكميات كبيرة، ونهض بعد ذلك على الفور الرجل المجنون، ورفع يديه المربوطتين نحو السماء، وقدم الشكر للرب، وإلى الكاهن المبارك، وبناء على ذلك فكت أغلاله، وذهب في حال سبيله رجلاً معافى، وأيضاً كانت هناك امرأة في لنكولن لديها ولدين، أصيب أحدهما وهو مايزال طفلاً بتورم كبير في جنبه، وخافت أمه على صحته خوفاً كبيراً، فذهبت إلى هذا الأسقف المقدس، وحصلت على وعده بمباركة ابنها، وبناء على ذلك وضع الأسقف يديه، على الجزء المريض، وباركه ثم أرسله في حال سبيله، وبعد ذلك اختفى التورم، ومنذ تلك الساعة لم يعد يزعج الطفل، كما أن أمه لم تعد ترى أي أثر منه، وحدث في وقت آخر أن هذه المرأة نفسها، أخذ ابنها الآخر يعاني بشكل شديد من اليرقان، وقد تذكرت ملازها السالف، فحملته إلى أمام الأسقف المبارك ليبارك من قبله، وهذا أيضاً بعد تلقيه المباركة، عاد إلى وضعه الصحي المتقدم، وحدث ذلك خلال ثلاثة أيام.

كيف غادر القديس هيوج هذه الحياة

ومع نهاية العام الرابع عشر من أسقفيته، لدى عودة الأسقف المقدس هيوج إلى انكلترا من البيت الرئيسي لطائفة الكارثوشيين، حيث كان هناك بزيارة لرئيس الرهبان وللرهبان في ذلك البيت، وذلك بناء على رغبتهم الطويلة، وقتها وقع مريضاً بشده بحمى الملاريا، وكان ذلك في الهيكل القديم في مدينة لندن، وهناك جاء الملك جون لرؤيته، وقبل أن يتركه أكد وصيته، وذلك بناء على تشجيع من رجل الرب، ووعد بحق الرب، أنه في المستقبل سوف يقر الشهادات المعقولة للكهنة، ومع أن مرضه ازداد كل يوم ترسخاً، لم يسمح، بناء على نصيحة أي انسان، بأن يضع جانباً، ولو لوقت قصير، الثوب الصوفي الذي ارتداه

دوما، وقد أصر، مع اقتراب موته، على المحافظة على النظام القاسي لطائفة رهبان الكارثوشيين، وبناء على دعوة من الرب، غادر حياته هذه وهو سعيد، وعندما حمل سكان لندن جسد الرجل المقدس لدفنه في لنكولن، وقعت حوادث رائعة، فالمشاعل الذي أشعلت أمام الجسد لدى مغادرة لندن، ظلت تشتعل طوال أيام الرحلة الأربعة، لذلك لم يكونوا في أي وقت من دون ضوء واحد من المشاعل، مع أن الأنواء كانت سيئة بشكل غير معتاد، وذلك بسبب الرياح والأمطار، ومن هذه الأحوال، لم يكن هناك من شك، بأن الرب قد هيأ ضوءاً دائماً لروحه، لأنه تقديراً منه لجسده، لم يسمح للضوء الموقت بالانطفاء، ولقد مات عبد الرب هيوج، أسقف لنكولن في سنة ألف ومائتين لتجسيد الكلمة، وكانت وفاته في السابع عشر من تشرين الثاني.

كيف جرى حمل جسد القديس هيوج إلى لنكولن لدفنه

في الحادي والعشرين من تشرين الثاني، التقى جون ملك الانكليز، ووليم ملك الاسكوتلنديين في مؤتمر مع بعضهما بصحبة جميع النبلاء، ورجال الدين والعلمانيين من المملكتين، وعلى الرغم من نصيحة الكثيرين، دخل الملك جون إلى مدينة(لنكولن) بجرأة، الأمر الذي لم يتجرأ أحد من أسلافه على محاولته، ولدى وصوله إلى الكنيسة الكاتدرائية، قدم كأساً ذهبياً على مذبح القديس يوحنا المعمدان، الذي كان في البناء الجديد، الذي أنشأه من الأساسات، القديس هيوج المتقدم ذكره، والتقى في اليوم نفسه هو وملك الاسكوتلنديين، على رابية خارج المدينة، وهناك قدم الملك وليم الولاء للملك جون أمام جميع الناس، من أجل جميع حقوقه، وأقسم فيها بعد بحضور جميع نبلاء المملكة، يمين التبعية له، على صليب هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وعاهده على الاخلاص له بالنسبة للحياة وسلامة والأعضاء والشرف الأرضي، وفي ذلك اليوم وصل جسد الأسقف هيوج الأكثر قداسة، إلى هناك لدفنه،

وذهب الملكان لاستقباله، وكان يصحبتهما ثلاثة رؤساء أساقفة هم: هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وغيوفري رئيس أساقفه يورك، وبرنارد رئيس أساقفة راغوا Ragua ، وثلاثين أسقفاً، وايرلات، وبارونات، وكهنة بلا نهاية، وقد استقبلوا جسده الأعظم قداسة، وتسلموه، وقام الملكان نفساهما، والايرلات والنبلاء، بحمله على أكتافهم إلى القاعة في الكنيسة الكاتدرائية، وعند باب الكنيسة استقبله رؤساء الأساقفة الذين تقدم ذكرهم مع الأساقفة، وجرى حمله من قبل هؤلاء الأساقفة إلى السدة، حيث ظل راقداً باحترام طوال الليلة، وكان هذا الأسقف قد اعتاد خلال أيام حياته، على القيام بكل نشاط بواجباته الانسانية في دفن الموتى، ولم يهمل قط دفن جسد أي ميت، رأى من واجبه حضوره والقيام به، ولهذا السبب، فإن الرب الذي يعرف كيف يكافئ فضائل المستقيمين، بجزاء مناسب، قد سمح له بمثل هذا الدفن المتميز، حتى بدا أنه يكافئه بالتشريف لفضائله المتقدم ذكرها، وحدث على كل حال أنه قبل الدفن لرجل الرب هذا، وبينما كانت طقوس الجنازة آخذة مجراها لدفنه، وكان هو نفسه— كما جرت العادة بالنسبة للكهنة العالون— ممدداً غير مغطى، وهو يرتدي القلنسوة على رأسه، والقفازان في يديه، والخاتم باصبعه وذلك مع بقية الزينه الحبرية، قدم أحد الجنود وكان معروفاً من قبل الرهبان النظاميين للكنسية، وكانت ذراعه متآكلة كلها بوساطة الجذام حتى العظام، وظهرت وهي مجردة من اللحم والجلد، فوضع ذراعه فوق جسد الأسقف، ويبلل وجهه مراراً بالدموع ليتبولى شفاء ذراعبه المريض، وعلى الفور تمّ استرداد اللحم والجلد برحمة من الرب، من خلال فضائل قديسه، ولهذا عاد الجندي يحمد الرب، والأسقف المقدس، وغالبا ما أظهر نفسه لشماس الكنيسة، ولأشخاص موثوقين آخرين، وقدمت في الوقت نفسه امرأة، كانت فقدت بصرها باحدى عينيها منذ سبع سنوات، فاستردت بصرها على مشهد من الجميع ودهشة منهم، وقام في الوقت نفسه بشال، في

وسط ضغط الناس الذين تجمعوا حول عبد الرب، فانتشل حافظة نقود احدى النساء، ولكن بفضل الأسقف المبارك، الذي أظهر أنه لم يكن ميتاً بل حياً، اشتبكت يدا اللص الشرير، ويبست أصابعه، وثبتت على كفه حتى أنه لم يعد قادراً على امساك السلعة التي سرقها، فألقاها على أرض الكنيسة، وبدا وكأنه مجنون، وصار بعد ذلك هدف المقاطعة من الناس، وهكذا بعدما تعذب بالروح الشيطانية لمدة طويلة، جاء بذاته ووقف من دون حراك، ثم إنه بدا يبكي بحرقة، وقام على مسمع من الناس جميعاً، فاعترف بجريمته الدنيئة إلى جميع الذين أصغوا إليه، وعندما لم يجد سبيلا للنجاة، التفت نحو الكاهن وقال:« ارحمني، ارحمني، أنت يارفيق الرب، لأنني تخليت عن الشيطان وعن أعماله، الشيطان الذي كنت حتى الآن عبداً له، وصلِّ للرب من أجلي حتى لايصدني في توبتي، بل أن يعاملني برحمة»، وفور تلفظه بهذه الصلوات للرب، انفكت أغلال الشيطان التي كانت يداه مربوطتان بها، وعاد صحيحاً شاكراً للرب وللأسقف المبارك.

دفن القديس هيوج

ويعد انقضاء السهر المطلوب على جسد الأسقف، وفي ظل ضوء اليوم التالي، قام رؤساء الأساقفة والأساقفة المتقدم ذكرهم، بعدما أنهوا القداس في الكنيسة الجديدة، التي كان هو نفسه قد بناها تشريفاً لأم الرب، فأودعوا بشكل لائق الجسد المقدس في القبر، قرب مذبح القديس يوحنا المعمدان، وتولوا القيام بواجبه بشكل متميز بدا وكأن الرب قد جمعهم من أجل هذه الغاية الخاصة، وقد دفن في الرابع والعشرين من تشرين الثاني، واستمرت المعجزات تعمل عند قبره، للذين طلبوهم، وسعوا إليهم مؤمنين، فبعد موته الرائع، كان هناك طفل من منطقة لنكولن نفسها، وكان مريضاً منذ خمسة عشر يوماً، وقد حمل مع ازدياد قوة المرض عليه ووضع أمام بيت الميت فأصبح جسده

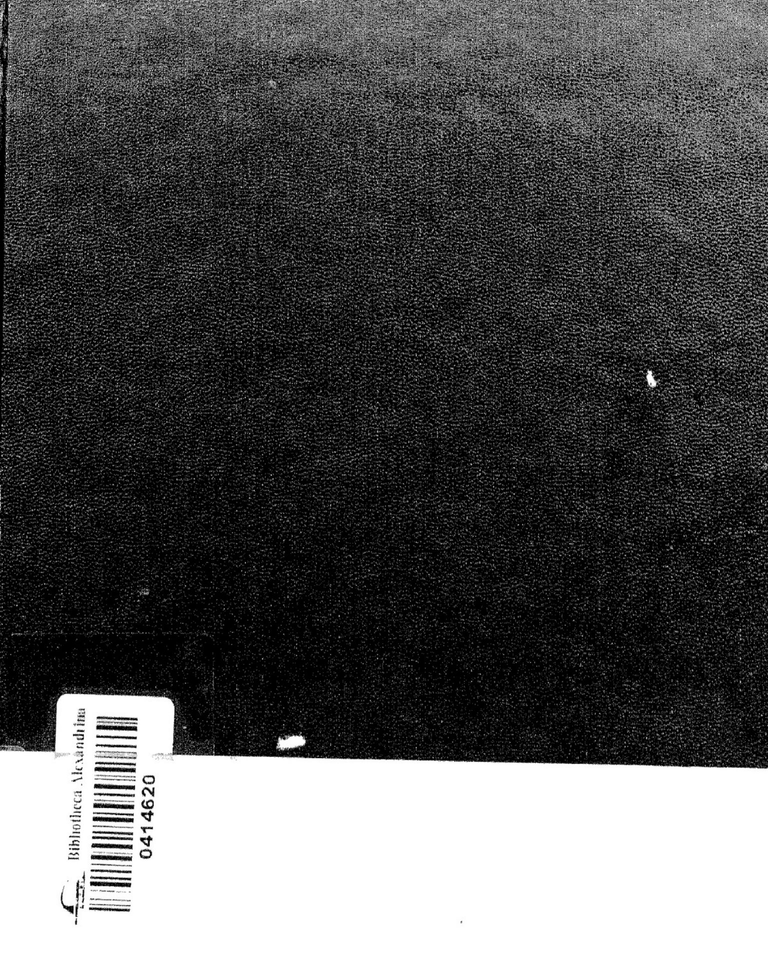
فجأة متيبساً، وكأنه قد مضى على موته عدة أيام، ولدى رؤية ذلك، قامت احدى النساء وكانت واقفة بجواره، باغلاق عينيه، وبوضع يديه ومدّ أطرافه كما هي العادة مع الميت، وبعدما تمدد على هذه الصورة منذ صراخ الديك حتى صباح اليوم التالي، اقتربت أمه— التي حتى وسط دموعها لم يمت إيمانها مع ولدها — من الجسد بثقة، وأخذت بيدها خيطاً مما يصنع منه فتيل الشموع، وقاست به جسد ابنها من جميع الجهات، وقالت بعد ذلك وهي واثقة وفي وسط الدموع:« إنه حتى ولو دفن ولدي، بإمكان الرب إعادته من خلال فضائل القديس هيوج»، ومع مرور النهار، صلوا وقدموا صدقات لصالح روح الطفل، وبعثوا وراء الكاهن ليتولى دفنه، مع أن أمه استمرت تصرخ معارضة ذلك، وقبل وصول الكاهن الذي بعثوا خلفه، اكتشفت الأم، التي كانت قلقة من أجل الحفاظ على ابنها، الحياة فيه، وبناء عليه مجدت الرب، والأسقف المبارك، الذي إلى فضائله عزت هذه المعجزة، وليكن في عرض هذه الأمور المتعلقة بحياة رجل الرب كفاية، وذلك من بين كثير من الأمور المتعلقة بهذه المسائل.

ظهور خمسة أقمار

وفي هذا الشهر نفسه، وقبل وقت قصير من عيد الميلاد، وفي حوالي الساعة الأولى من الليل، ظهرت خمسة أقمار في السماء، وظهر الأول في الشمال، وظهر الثاني في الجنوب، وظهر الثالث في الغرب، وظهر الرابع في الشرق، وظهر الخامس في وسط الأربعة مع عدة نجوم من حوله، ودار القمر الأخير مع النجوم التي رافقته حول الأقمار الأخرى، خمس مرات أو أكثر، واستمرت هذه الظاهرة لحوالي الساعة، الأمر الذي أدهش جميع الذين شاهدوا ذلك.

المحتوى

الصفحة	الموضوع



Bibliotheca Alexandrina
0414620